

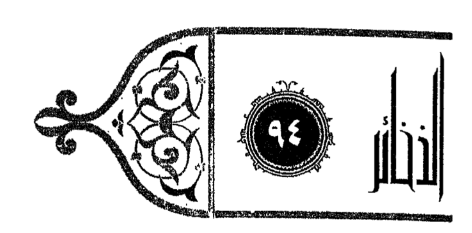
فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

تأليف
أحمد بن محمد بن عربشاه
(٧٩١-٨٥٤هـ/١٣٩٢-١٤٥٠م)

تقديم وتحقيق وشرح
أ. د. محمد رجب النجار
أستاذ الفولكلور العربي
جامعة الكويت



الهيئة العامة لقصور الثقافة



فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

تأليف
أحمد بن محمّد بن عربشاه
(٧٩١-٨٥٤هـ/١٣٩٢-١٤٥٠م)

تقديم وتحقيق وشرح
أ. د. محمّد رجب النجّار
أستاذ الفولكلور العربي
جامعة الكويت





الهيئة العامة
لقصور الثقافة

سلسلة الذخائر (٩٤)
نصف شهرية

إصدار
منتصف أبريل

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

تأليف / أحمد بن محمد بن عربشاه

تقديم وتحقيق وشرح
أ.د. محمد رجب النجار

تصميم الغلاف للفنان
محمد بغدادي

رقم الإيداع : ٨٥٤٤ / ٢٠٠٣
الترقيم الدولي :
I.S.B.N. 977 - 305 - 440 - 3

الشركة الدولية للطباعة ٦ أكتوبر
ت : ٨٣٣٨٢٤٠

المراسلات باسم مدير التحرير على العنوان التالي
١٦ أ ش أمين سامي قصر العيني - القاهرة
رقم بريدي ١١٥٦١

الذخائر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

تعريف

عزيزى القارئ . . هذا كتابٌ يهمُّ كلَّ من له صلة بدراسة الأدب والفكر والاجتماع والسياسة والتاريخ . . ومجالات أخرى كثيرة .

يتّخذ الكتابُ من حيث بنيتُه شكل العمل القصصىّ القائم على الحكاية والسَّرْد ، فهو - من هذه الزاوية عمل قصصىّ ، ولكنه ينحاز إلى شريحة خاصّة من الأعمال القصصيّة التى اتخذت شخوصها من عالم الحيوان والطّير ، وقد عرف الأدبُ العربىُّ عددًا من الأعمال التى تنتمى إلى هذه الشريحة أشهرها كتابُ (كليلة ودمنة) الذى نقله عبد الله بن المقفَّع (ت ١٤٢) من اللغة الفارسيّة إلى اللغة العربيّة ، والذى هو فى أصله نتاجٌ هندىٌّ نُقِلَ من قبلُ إلى اللغة الفارسيّة .

ومن هذه الأعمال أيضا مايُنسَبُ إلى سَهْل بن هارون الأديبِ الفارسىِّ الأصل (ت ٢١٥) ، إذ ينسب إليه كتابان أحدهما بعنوان (ثَعْلة وعَفْراء) والآخر - ونسبته إليه فيها نظر - بعنوان (النّمر والثعلب) وفيهما يظهر التأثّر بكتاب كليلة ودمنة فى حيلة اتخاذ الأبطال والشخوص من عالم الحيوان والطّير .

كذلك ساهم إخوان الصفا (ق ٤) فى اتخاذ شخوص الحكايات من عالم الحيوان فى بعض مواضع من رسائلهم ، هذا إلى تخصيصهم رسالة مستقلة فى الحيوان ، هى الرسالة الثانية والعشرون ، وفيها يدخل - ضمن شخوص الحكاية - عنصر الجنّ إلى جانب عنصرى الإنسان والحيوان .

وإذا كان كلٌّ من الكتب اللاحقة على (كليلةَ ودمنة) - مثل (ثعلة وعفراء) و (النمر والثعلب) ورسالة إخوان الصفا - قد تأثّر به فإنّ ترجمةَ ذلك الكتاب ونظْمه والتأثّرَ به لم يتوقّف ، إذْ نجد له نظمًا بعنوان (نتائج الفطنة فى نظم كليلة

ودمنة) لابن الهبّاريّة (ت ٥٠٤) الذى يُنسب إليه كتاب (الصادح والباغم) أيضا ، وهو يحمل أثرَ كلٍّ من كليلةَ ودمنةَ ورسائل إخوان الصفا . كما نظمه جلال الدين النقّاش (ق ٧) . كما نجد لمحمد بن أحمد بن ظفر . كتاب (سلوان المطاع فى عدوان الأتباع) وهو كتاب نثرىّ تحمل فيه حكايات الحيوان صبغة دينية كما تحمل أثرًا من كليلة ودمنة .

ثم يجئ كتاب ابن عرب شاه (فاكهةُ الخلفاء ومُفاكهة الظرفاء) الذى نقدّمه للقارئ فى هذه الحلقة من الذخائر ، وهو أقرب إلى الترجمة الحرّة التى جرى فيها كثير من التصرّف والإضافة إلى كتاب (مرزبان نامه) الذى دُوِّنَ فى القرن الرابع وتُرجم إلى الفارسيّة الحديثة فى أوائل القرن السابع .

يتراوح مغزى هذه الكتب - التى هى أعمال أدبيّة قَصَصيّة فى الأساس - بين المغزى السياسى والاجتماعى والفلسفى والدينى ، وإن غلب عليها الفكر السياسى والاجتماعى ، كما تشترك فى اتخاذها من الحيوان والطّيْر - والجنّ حينا - أقنعةً ترمز إلى الشخوص والمبادئ والأفكار ، فى ظلّ مناخات سياسيّة واجتماعيّة يتردد فيها صدى القَهْر الداخلى ، أو يخيِّم عليها كابوس الغزو الخارجى ، بدْءًا من الظروف التى حملت بَيْدَبا الحكيمَ الهندىَّ على الاستعانة بحيلة اتّخاذ الرموز من عالم الحيوان والطّيْر ، احتماءً بها من القهر الداخلى ، إلى الظروف التى دفعت ابن عرب شاه إلى اصطناع نفس الحيلة إيماءً إلى مزايا الحوار والتفاهم فى الداخل تنبيهًا على خطورة الرّكون إلى الدَّعَةِ أو الاطمئنان إلى انحسار الهجوم من الخارج ، وضرورة التسلّح فى جميع الأحوال بالديمقراطيّة والعدْل دَعْمًا للبناء الداخلى ، والتسلّح بالاتحاد والقوة العسكريّة ردْعًا للعدوّ من الخارج .

وذلك - أعنى التنبيه على خطورة الضعف إزاء العدوّ الخارجى - مايظهر جليًّا فى كتاب ابن عرب شاه الذى يحمل صدى ماكان قد ألمّ بالعالم العربىّ من آثار الهجمة المغوليّة الشرشة على بغداد أوّلاً ثم على دمشقَ وحلب ، وهو الهجوم الذى تكرّر بعد ذلك بقيادة تيمورلنك سنة ٨٠٣ حين كان المؤلف

لايزال صبيّا فى الثانية عشرة من عمره يعيش فى بلده دمشق التى تعرضت تحت سمعه وبصَره لكل صور الوحشيّة من تدمير وإحراق وهتك للعرض وعبَثٍ بالمحارم واستباحة للأموال والأنفس . بل إنّ هناك من يذكر أن المؤلِّف قد أُخذ أسيرًا فى تلك الحرب وعانى بشخصه ويْلاتِها قبل ان يُفلت من محنته .

والراجحُ أن كلّ تلك المعاناة كانت وراء تأليفه لكتاب (عجائب المقدور فى نوائب تيمور) سنة ٨٤١ هـ ، ثم تأليف كتاب (فاكهة الخلفاء . . .) سنة ٨٥٢ ، وقبلهما كان قد ترجم كتاب (مزربان نامه) . وكأنه وقد سمع عمّا فعله هولاكو ببغدادَ ودمشق سنة ٦٥٦ هـ ، ثم رأى مافعله بعد ذلك تيمورلنك بدمشقَ وحلب . . أراد أن يحذّر أمتَه من الاستنامة إلى الضعف أو الثقة بفترة من الأمان

إذْ ماتزال الأرضُ تُنبتُ الشّجَرْ

ليصنعَ الإنسانُ من غضونها قَنَا الرِّماحْ

ولا يزال جوفُها يموج بالحديد والحجَرْ

لكىْ يزوِّدَ القناةَ بالسِّنان

ويُضرِمَ النيران فى الزروع والزهور من شرارة الحجَرْ

ومما له دلالة أن تتمّ مجموعةُ الأعمال التى سبق ذكرُها فى مصر ، بعد أن نزل بها ابن عرب شاه سنة ٨٤٠ هـ واتخذها دارَ إقامة إلى أن توفّى بها سنة ٨٥٤هـ .

وكأنه وقد نعم بالطمأنينة فى رعاية السّلطان المملوكى جَقْمَق قد عادت إلى ذاكرته أصداء تلك الفظائع فراح يستدعيها مع دوافعها وسُبُل الوقاية منها – على طريقته كصاحب قلم – مرة بالترجمة ، ومرة بالتأريخ لها ، ومرة فى هذا العمل الإبداعى (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) .

قلتُ إن الكتاب يهمّ كلّ من له صلة بدراسة الفكر والاجتماع والسياسة والتاريخ والأدب . ولعلك – عزيزى القارئ – توافقنى – بعد أن تقرأ الكتاب – على أنّ فيه من كلّ ذلك ، فهو صدى لحقبة من حِقَبِ التاريخ قابلة لأنْ تتكرّر (وهى تتكرّرُ الآن بالفعل) وشخوصُه رُموزٌ لأنماط من العقول والحكّام

وشرائح من الناس ، ووقائعه تحمل الكثير من الدروس فى الاجتماع والسياسة ، كما أنه - قبل كلّ ذلك وبعده - نصّ أدبى روائى لافتٌ ببنيته وأسلوبه ولغته .

وبعد . . فلقد أحسن الأستاذ الدكتور محمد رجب النّجار صُنعا بتقديم هذا الكتاب محققا هذا التحقيق العلمى الدقيق .

والدكتور النجار أستاذ علم الفولكلور بجامعة الكويت ، وهو خريج جامعة القاهرة ، ومنها حصل على الدكتوراه فى الأدب الشعبى العربى سنة ١٩٧٦ . وهو عضو باتحاد الكتاب بجمهورية مصر العربية ، وعضو فى عدد من جمعيات الفولكلور الدولية ، وحائز على جائزة الدولة التشجيعية فى الأدب الشعبى العربى سنة ١٩٩٦ .

ومن مؤلفاته :

- جحا العربى ، شخصيتُهُ وفلسفته فى الحياة والتعبير . عام ١٩٧٨
- حكايات الشطّار والعيّارين فى التراث العربى عام ١٩٨١
- التراث القصصى فى الأدب العربى ، مقاربات سوسيو سردية ١٩٩٥
- النثر العربى القديم من الشفاهية إلى الكتابيّة .
- **ومن تحقيقاته :**

كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

الذى يسعد سلسلة الذخائر أن تقدمه إلى قرائها الأعزاء .

عبد الحكيم راضى

مقدمة ودراسة

بقلم المحقق

[١] القصص وتشكيل الوعى

الحكى ، أو فعل السرد ، اكتشاف قولي / لغوي واكب الإنسان منذ أقدم العصور التى كان يحبو فيها خطواته الأولى على مدارج الحياة البشرية ، إبان طفولتها الشلعرية ، ليس لأن الحكى فن الطفولة الأول ، جماليا وتربويا ، أو لأنه كان الأداة المعرفية الأولى التى عرفها الإنسان القديم سبيلا الى صوغ تصوراته الدينية وأفكاره السياسية والتربوية والعملية ، أو لأنه الأداة الأبلغ أثرا والأبعد تأثيرا في تشكيل الوعى الإنساني (في بوتقة القص) وإدراك الحياة ، أو لأنه الوعاء الأقدم لرصيده الثقافي والحضاري الذى احتفلت به الذاكرة الجمعية ، يوم كان الفرد في المجموع ، والمجموع في الفرد ، حيث فرد خارج الجماعة ، أو لأن القصّ ذاكرة الشعوب التاريخية ، يوم كان القص تاريخا والتاريخ قصا ، فحسب ، ذلك أن الإنسان كائن قصصيّ بالقوة بقدر ما هو كائن ثقافي / اجتماعي بالفعل ، الحكى نفسه فطرة إنسانية باعتباره يلبي نزوعا إنسانيا يستحيل تجاهله ، في كل العصور التاريخية وفي كل المراحل العمرية للإنسان وفي كل الثقافات والحضارات ، وعند كل الأجناس والشعوب ، وفي كل الديانات السماوية وغير السماوية ، فضلا عن رغبة دفينة - واعية أو لا واعية - عند الإنسان في امتلاك العالم عن طريق الحكى وإعادة تشكيله كما يحلم به ويصبو إليه .

لقد كان الحكى (أسطوريا أو لا أسطوريا) أول درس تعليمي في تاريخ البشرية ، استطاع – بفضل طابعه القصصي – أن "يقولب" الواقع ، وأن يجعله مرغوبا فيه ومنطقيا ومقبولا ، ولهذا ليس من المبالغة في شئ حين نقول إن السرد – وهو مقلوب درس – كان المؤسسة الاجتماعية الأولى ، الشعبية والمجانية ، التى عرفتها كل الشعوب والثقافات والحضارات ، ومن ثم لا غرو أن يقال **"إن أول ما أنشأ الإنسانية هو السرد"** حيث الإنتاج القصصي في هذه المؤسسة (الاجتماعية أو القصصية) هو "الحلم" الذى يمكن أن يتحول الى رمز ، وهو "العلم" الذى يمكن أن يتحول الى حقيقة . هذه المؤسسة التى ظلت – الى جانب مؤسسات أخرى ، رسمية وشعبية ، لاحقة – مشرعة الأبواب ، عبر العصور والثقافات ، ولم يحدث أن توقفت عن العطاء ، والتطور والنماء ، يتماهى فيها الخيال بالواقع ، والتاريخ بالأسطورة ، والحلم بالعلم ، والممتع بالمفيد ، والجمالي بالتربوي ، والترفيهي بالتثقيفي ، والسردي بالتعليمي ، فالقصة قديمة قدم الإنسان ، ومن ثم لا غرو أن تكون هذه المؤسسة القصصية / السردية هى أقدم أشكال التعبير ، وهى بحكم طبيعتها المرنة ، وبعدها عن الوصاية النقدية قد استطاعت أن تطور نفسها ، وأن تستوعب في إطارها – الأكثر تشويقا – كل فنون القول والمعارف والإيديولوجيات عبر العصور .

[٢] العرب والإبداع القصصى

فإذا ما انتقلنا من العام إلى الخاص ، إلى التراث العربي ، وجدناه تراثا حكائيا (سرديا) في جانب كبير منه ، فالعرب ليسوا بدعا بين الشعوب ، حيث الحكي ظاهرة متأصلة في الذات العربية ، ومتجذّرة في تراثها القومي – عبر الزمان والمكان – بل لا نظن أن موروثا حكائيا شغل فضاء سرديا في تراث الشعوب قدر

ما شغل الموروث الحكائى العربي فضاء التراث العربي ، بشقيه الشفاهي والكتابي ، الشعبي والرسمي حتى لا يمكن القول بأن العرب ظاهرة حكائية بالمعنى الإيجابى . ولعل عودة عجلى إلى كتاب الفهرست للنديم الوراق تؤكد ما نذهب إليه من ثراء الموروث الحكائي العربي ، كما وكيفا . بل يحق للتراث الحكائى العربي أيضا أن يتباهى في مجال القصص والحكايات الخرافية بامتلاكه كتاب **ألف ليلة وليلة** ، وكذلك الأمر في مجال قصص الحيوان الرمزية بامتلاكه كتاب **كليلة ودمنة** في صياغته العربية العالمية لابن المقفع .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الموروث الحكائى العربي بشقيه الشعبي والرسمي (الشفاهي والكتابي) هو الذى عرف طريقه الى العالمية عن طريق الترجمة إلى كثير من اللغات الحية في العصور الوسطى والحديثة ، ولا ينكر باحث منصف من المستشرقين أن هذا الموروث الحكائى العربي قد ترك بصماته الفنية على فنون السرد العالمية آنذاك .

[٣] قصص الحيوان أو الحكاية / القناع

والحكاية على لسان الحيوان نمط من الأنماط القصصية التى عرفتها آداب العالم ، ومن بينها الأدب العربى ، منذ أقدم العصور . ولعل أهم ما يميز حكاية الحيوان بين الأجناس الأدبية / القصصية ، أن الحيوان هو الذى يلعب دور البطولة فيها ، مهما تعددت أشكالها السردية (قصص الحيوان التعليلية ، قصص الحيوان التعليمية أو الرمزية ، رواية الحيوان ، ملحمة الحيوان) ويعنينا هنا أن نقف بإيجاز عند قصص الحيوان التعليمية أو الرمزية Fable (باعتبارها الشكل القصصى الذى ينتمى إليه كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ..) فإذا هو حكاية رمزية محدودة الأحداث ، يلعب الحيوان فيها دورا إنسانيا رمزيا – بالمعنى العام للرمز – ولها

مغزى تعليمي ، وتتسم بعدد من السمات ، منها أنها تحكى نثرا أو شعرا .. ومنها أنها إنسانية الطابع ، أو المضمون ، ذلك أنها قادرة - ببساطتها ورمزيتها ، وبثرائها في التأويل وعبقريتها الجمالية - على أن تنفذ إلى الملتقي ، على اختلاف مراحله العمرية ، ومستوياته الثقافية . وهى عالمية الانتشار ، فهى قادرة على كسر حواجز اللغة والزمان والمكان ، ولذلك تسهل هجرتُها وترجمتها وذيوعها بين الشعوب والثقافات المختلفة .. وظاهرها لهو وباطنها حكمة ، واللهو هنا ليس إلا السرد القصصي على لسان الحيوان وعجائبيته أو غرائبيته ، وشيوع روح الفكاهة ، وفيه تكمن قيمتها الجمالية / الإمتاعية (في قالبها السردي الخيالي) وحيث تكمن أيضا وظائفها الفكرية وغاياتها التعليمية والتحريضية (الأخلاقية والتربوية والاجتماعية والسياسية) .

والتراث العربي حافل بهذا النوع من الحكايات الرمزية ، نثرا وشعرا ، منذ العصر الجاهلي ، تحت أسماء متعددة ، منها "خرافة الحيوان" ومنها "الخرافة على ألسن السباع والطير والبهائم" ومنها "نوادر من حيل الحيوان" ومنها الأمثولة القصصية ALLEGORY . وقد ظلت هذه القصص الرمزية - على لسان الحيوان - تروى شفاهيا كنوع من أنواع السرد الشفاهي حتى بدايات الدولة العباسية ، عندما ألّف عبدالله بن المقفع (ت ١٤٥ هـ) كتابه الذائع الصيت عربيا وعالميا : كتاب كليلة ودمنة[1] ، في عهد الخليفة أبي جعفر المنصور ، وفي هذا الكتاب تجلت وظائف قصص الحيوان في التراث العربي ، أعني الوظائف السياسية والتربوية والأخلاقية (والتعليمية بوجه عام) فضلا عن الغايات الجمالية / الإمتاعية

---

[1] حول عروبة هذا الكتاب ، باعتباره من إبداع ابن المقفع وتأليفه ، انظر كتابنا : التراث القصصي في الأدب العربي - مقاربات سوسيو - سردية ص ١١١ - ١٢٩ . ذات السلاسل - الكويت ، ١٩٩٥ .

التى تحول دون وقوع الكاتب في خطابية الوعظ أو النصح المباشر ، ولأن الكاتب أيضا يتخذ من الحيوان – بطل الحكاية – رمزا من ناحية ، وقناعا من ناحية أخرى ، يخفى وراءه مقاصده وغاياته البعيدة (السياسة خاصة أو التحريضية) فإنه يمكن أيضا وصف هذا النوع من السرد على لسان الحيوان ، بأنه ضرب من الحكاية / القناع .

[٤] فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء

(آخر العنقود)

إذا كان كتاب كليلة ودمنة – بشهرته العربية والعالمية الطاغية – هو أول كتاب فى تراثنا القصصى ينتقل بقصص الحيوان الرمزية العربية من مرحلتها الشفاهية إلى مرحلتها الكتابية ، فإن كتابنا فاكهة الخلفاء هو آخر كتاب فى التراث العربى على لسان الحيوان ، قبل العصر الحديث[٢] . وبالرغم من شهرة الكتاب فى عصره ، وشهرة مؤلفه ، فإن أحداً من المعنيين بتحقيق التراث العربى لم يقم بتحقيقه ، ربما لانتمائه لأدب العصر المملوكى الذى لم نحفل به حتى الآن ، على مستوى الدرس الأكاديمى والبحث العلمى ، بحجة أنه عصر انحطاط ! وعلى الرغم مما تنطوى عليه هذه المقولة من مسلمات خاطئة ، فقد آن الأوان للعناية بآداب هذا العصر ، لأنه – شئنا أم أبينا – جزء من تاريخنا القومى والثقافى والأدبى . وفيما بين البداية (كليلة ودمنة) والنهاية (فاكهة الخلفاء) ظهرت عشرات الكتب القصصية على لسان الحيوان ، وقد تمّ تحقيق معظمها ، إن لم يكن جميعها ، مما عثر عليه ، باستثناء كتابنا هذا.. وفيما بين الكتابين أيضا تجسدت – على مستوى الإبداع الأدبى – التجربة التاريخية للحضارة العربية الإسلامية فى بزوغها وأفولها ، وشتان ما بين

---

[٢] انظر : محمد غنيمى هلال ، الأدب المقارن ، ص ١٨٧ ، دار العودة – بيروت ، ١٩٨٧ .

الحالين . كما تبلورت – فيما بينهما أيضا – التجربة السياسية للحضارة العربية الإسلامية إبّان ازدهارها وأفولها .. وعلى الرغم من أن كتابنا فاكهة الخلفاء ومفاكهة الخلفاء صرخة فنية من أجل إنقاذ هذه الحضارة الآفلة ، وعلى الرغم من أنه كذلك يضاهي كليلة ودمنة قيمة ووظيفة وغاية ، فإنه لم تُقدَّر له الشهرة السياسية والأدبية التى حظى بها سلفه .. ربما لأنه ظهر فى مرحلة الأفول الحضارى ، حين كانت حضارة العرب فى طريقها لأن تلفظ أنفاسها نهائيا على يد ابن عثمان ، سليم الأول – بعد سنوات قليلة – فجاء الكتاب صرخة فى البريّة .

ومن الجدير بالذكر أن مؤلفه ابن عرب شاه[٣] كان معاصراً لابن خلدون ، وارتحل مثله فى الممالك الإسلامية ، وكان شاهداً – مثله – على أحداث عصره السياسية ، وقد عبرّ عنها فى كثير من مؤلفاته التاريخية والأدبية .. ولكن أحداً لم يعن بهذا الكاتب العناية التى تليق به وبمؤلفاته[٤] إلا قليلا ، كما سنرى وشيكا ، فى ترجمته ، و لم يقم أحد بتحقيق هذا الكتاب الأكثر أهمية من بين مؤلفاته ، على الرغم من طباعته – طبعات تجارية سيئة وغير محققة – فى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .

وهذا الكتاب ، بعنوانه المراوغ "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء"[٥] لا يفصح عن موضوعه الحقيقى ، بسهولة ، بل يوارى مضمونه الإنسانى والفكرى والسياسى وراء حيل الحيوان .. ومن ثم فهو ليس كتاب طرائف ونوادر كما توهم البعض ، بل هو – مثل كليلة ودمنة – **كتاب فى الأدب السياسى ، يعكس طبيعة العلاقة**

---

[٣] انظر ترجمته فى نهاية هذا التقديم .

[٤] انظر مؤلفاته فى ترجمتنا له .

[٥] غنى عن البيان العلاقة بين الفاكهة والمفاكهة أو الفكاهة ، فهما من جذر لغوى واحد هو فَكِهَ .

بين السلطة والثقافة ، أو السيف والقلم ، ويرصد وقائع الصراع بين السلطتين في عصره ، على نحو إبداعي يتجلى فى مئات القصص الرمزية - بالمعنى العام - التى يحفل بها الكتاب على لسان الحيوان Beasts وتجلياتها الأدبية من حكايات تعليمية Fables أو أمثولات Allegories . والكتاب - بهذا العنوان المراوغ يعمد أيضا إلى دفع قارئه للتفكّر والتفكّه فى آن ، أو كما يقول المؤلف فى خطبة الكتاب : "فيتفكّه السامع تارة ويتفكّر أخرى" .

[٥] موضوع الكتاب وغاياته ووظائفه

بداية يتكون الكتاب من خطبة وعشرة أبواب هى كما ذكرها المؤلف :

البـــاب الأول : فـى ذكرِ ملكِ العرب ، الذى كان لوضعِ هذا الكتابِ السبب .

البـــاب الثانى : فى وصايا ملكِ العجمِ ، المتميز عن أقرانه بالفضلِ والحكَم .

البـــاب الثالث : فى حِكَم ملكِ الأتراك ، مع ختنه الزاهدِ شيخِ النساك .

البـــاب الرابع : فى مباحث عالمِ الإنسان ، مع العفريت جان الجان .

الباب الخامس : فى نـوادرِ ملكِ السباع ، ونديميه أميرِ الثعالب وكبيرِ الضباع .

الباب السادس : فى نوادر التيسِ المشرقي ، والكلب الأفْرَقيّ .

الباب السابع : فى ذكر القتالِ بين أبى الأبطالِ الرئبال ، وأبى دغفلٍ سلطانِ الأفيال .

البـــاب الثامن : فى حِكَم الأسدِ الزاهد ، وأمثالِ الجملِ الشارد .

البـاب التاسع : فى ذكر ملك الطير العُقَاب ، والحجلتين الناجيتين من العِقاب .

الباب العاشر : فى معاملة الأعداء والأصحاب ، وسياسة الرعايا والأحباب ، ونكت وأخبار ، وتواريخ أخيارٍ وأشرار .

والأبواب الثمانية الأولى يلعب دور البطولة فيها الحيوانات ، والباب التاسع يلعب دور البطولة فيه الطيور ، ويتحول بعضها الى راوية فى الباب العاشر ، فى محاولة ساذجة من المؤلف لربط هذا الباب بالكتاب .. ذلك أن الباب العاشر ، لا يظهر فيه الحيوان – البطل الرئيسى فى قصص الحيوان الرمزية التى ينتمى إليها الكتاب – بل هو ضرب من السرد التاريخى ، أضافة المؤلف ليس تعسفا ، كما يبدو للوهلة الأولى ، بل أضافة – فيما نزعم – باعتباره صورة واقعية حية ، وتاريخية تؤكد "مصداقية" الرؤى والمقولات السياسية التى انطوت عليها الأبواب التسعة السابقة بشخوصها الحيوانية الرمزية .

ودون مصادرة على القارئ ، فإن الكتاب فى أهم غاياته ووظائفه يتمحور حول محورين كبيرين : أحدهما **العدل** ، بمعناه الشامل ، السياسى والأمنى والاقتصادى والاجتماعى ، ابتغاء رسم مدينة فاضلة وحاكم مثالى . والآخر **العقل** .. ويرى أن العقل مقدم على النقل .. وإلا تحقق تغييب وعى الحاكم والرعية جميعا . **فالعدل أساس الملك ، والعقل أساس الوعى** .. وبهما معا يتحقق المجتمع المثالى الذى ينشده الكاتب .

وهذه الغايات والوظائف طاغية على الكتاب كله .. بكل أبوابه أو قصصه الرئيسية وحكاياته الفرعية ... وقد تجلّت على نحو صريح ومباشر مرتين ، وعلى نحو حرفي تقريبا ، مرة فى خطبة الكتاب ، ومرة فى منتصف الكتاب ، ربما لانعاش ذاكرة المتلقى بالتأكيد ، حتى لا تستهويه الوظيفة الامتاعية أو سحر السرد ، على الوظيفة الإبلاغية للكتاب . والمؤلف فى الحالين متأثر بالقصص القرآنى عامة

وقصص الحيوان فى القرآن خاصة ، ومن ثم لا يلبث بين الفينة والأخرى ، وخاصة فى خطبة الكتاب وخواتيم معظم الفصول أن يردد الآية الكريمة ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس ، وما يعقلها إلا العالمون﴾[٦] واضعا بذلك القرآن الكريم –بما يفيض به من قصص على لسان الحيوان – نصب عينيه باعتباره مرجعية مقدسة ، وأدبية فى آن واحد .

ثم يشرع فى الحديث عن أسباب تأليف هذا الكتاب ، وتحديد قارئه .. مشيراً إلى أن الإنسان عنيد بطبعه ، ويرفض النصائح المباشرة ، كما أن الحِكَم والعبر (يعنى المقولات السياسية المنتشره فى كتب الآداب السلطانية والأدبيات السياسية السائدة قد فقدت تأثيرها الفكرى والسيكولوجى فى معاصريه لأنهم اعتادوا عليها ، وبذلك تكون قد فقدت دهشتها ، فالعادة تقتل الدهشة ، والأدب القصصى على لسان الحيوان ، فى نظره ، هو الدهشة عينها .. ومن ثم يقول فى خطبة كتابه : "قصد طائفة من الأذكياء ، وجماعة من حكماء العلماء إبراز شيء من ذلك على ألسنة الوحوش ..." حيث " أصغت الآذان إلى استماع أخبارها ، ومالت الطباع إلى استكشاف آثارها ، وتلقتها القلوب بالقبول ... لكونها منسوجة على منوال عجيب .. فى صنع بديع غريب" إنها إذن العجائبية والغرائبية التى تمثل شعرية هذا النوع من القصص ، وتشير فى الوقت نفسه إلى إيثار الكاتب لهذا النمط القصصى :.

والحق أن ثمة سببا آخر ، هو الذى دفع المؤلف – مثله مثل ابن المقفع هو طبيعة المتلقى هنا ومستواه الطبقى ، ومكانته السياسية من ناحية ، وعجز المثقف – آنذاك – عن مواجهة السلطة ، وانتقادها بشكل مباشر ، من ناحية

---

[٦] قرآن كريم ، سورة العنكبوت آية : ٤٣ .

أخرى .. فلم يبق أمامه إلا أن يقول ما يقول فى ذكاء وكياسة ، وأداته إلى ذلك الرمز على لسان الحيوان . إن المتلقى هنا كما حددهم ابن عرب شاه نفسه هم "الملوك والأمراء ، وأرباب العدل والرؤساء ، والسادة الكبراء" بكل جبروتهم السياسى والعسكرى فى مواجهة القلم .

وفى سخرية لاذعة يحلو للمؤلف أن يقارن بين عالم الحيوان ، وعالم الإنسان ، فينتصف للأول على الآخر .. يتجلى ذلك فى مواضع كثيرة من الكتاب ، فى خطبته ، وفى مواضع أخرى من أبواب الكتاب ، نكتفى هنا بقولة فى نهاية الفصل السادس ، كاشفا فى الوقت نفسه عن غاياته السياسية :

" ... وعاش في ظل عدلهم كل ضعيفٍ من الحيوان ، وتقلبوا في رياض الأماني على بساط الأمان . وفائدة هذه الحكايات ، تنبيه أشرف جنس المخلوقات وألطف طائفة المكونات ، وهو نوع الإنسان ، الذي اختصهُ الله تعالى بأنواع الإحسان ، وأيدهُ بالعقل ، وأمدُ بالنقل ، على أنه إذا كان هذا الفعل الجليل ، يصدر في التنظير والتمثيل ، من أخس الحيوانات ، وما لا يعقل ، من الموجودات ، فَلأنْ يصدر من أُولي النهى ، وأُولي الفضل والمكارم والعلا ، أَوْلَى وأَحْرَى لاسيمًا مَن رفع الله في الدنيا مقداره ، وأعلى على قمم الخلائق مناره ، وحكّمهُ في عبيدهِ المستضعفين ، واسترعاهُ على رعيةٍ سامعين مطيعين ، وسلّطهُ على دمائهم وأموالهم ، وبسط يدَه ولسانه في رفاهيتهم ونكالهم " .

وإذا كانت الغايات والوظائف السياسية هى الطاغية على الكتاب ، فإن الوظيفة الشعرية ، أو الجمالية أو الوظيفة الامتاعية ليست غائبة عن الكتاب[7] ، بل تبدو

---

[7] حول تفصيل هذه الوظائف فى قصص الحيوان عموما ، انظر كتابنا : التراث القصصى فى الأدب العربى – مقاربات سوسيو – سردية . ص ١٥٥ – ١٦١ . ذات السلاسل – الكويت ، ١٩٩٥ .

طاغية هى الأخرى فى الكتاب منذ اللحظة التى نقرأ فيها عنوان الكتاب : "فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء" من حيث هو نسق إشارى دال ، إذ جمع بين الفاكهة والفكاهة فى نسق دال والجذر اللغوى واحد فى الحالين هو فَكِهَ . والمرسل إليه وهو الخليفة - الرمز السياسى الأكبر - لم يغب عن العنوان أيضا .. ولذلك لا غرو أن يكون الكتاب ظاهره لهو ، وباطنه حكمة . واللهو هنا ليس إلا السرد القصصى وعجائبيته وغرائبيته وشيوع روح الفكاهة كما ذكرنا ، وهلى ثمة من عجيب وغريب . - على حد تعبير المؤلف - أكثر من جعل الحكمة تنساب على ألسن البهائم والسباع والطير ، خلافا للحكمة على لسان الإنسان - وقد فقدت دهشتها وادهاشها - !!! هنا - بين اللهو واللعب - تتجلّى الحكمة فنقبلها طائعين ونتعلمها مختارين .. انه التعلّم من خلال اللعب (الأدبى) والحكمة من خلال اللهو (القصصى) ..

[٦] البنية القصصية للكتاب

(أ) المتن الحكائى

يتكون الكتاب من عشرة ابواب قصصية تضمها حكاية إطارية كبرى وتحقق له وحدته الشكلية والبنائية ، على غرار الحكاية الإطارية فى ألف ليلة وليلة ، حكاية شهريار وشهرزاد ، وعلى غرار الحكاية الإطارية فى كليلة ودمنة ، حكاية دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف) .. وهذه الأبواب العشرة - وقد أشرنا إلينا من قبل - هى التى تشكل المتن الحكائى للكتاب . وفى كل باب منها يتضمن حكاية قصصية رئيسية أو أصلية ، قائمة بذاتها فى باب بذاتها ، غير أنها تتضمن بدورها عدداً من الحكايات الفرعية المتداخلة أو المتوالدة ، حيث تلد الحكاية الفرعية ذاتها حكاية أخرى ، وهكذا على شكل صناديق متداخلة - على غرار كليلة ودمنة - وقد بلغ

مجموع هذه الحكايات الفرعية قرابة سبعين حكاية ، إضافة إلى القصص الرئيسية (و لم تحسب هنا التضمينات القصصية ، لأنها حكاية لم تكتمل باعتبارها معروفة لدى القارئ الضمنى فى الحكاية ، وهو الملك أو الوزير أو غيرهما بحسب السياق السردى للحكى) والسياق الثقافى للمتلقى . فكيف ربط ابن عرب شاه بين هذه الحكايات الرئيسية والفرعية على هذا النحو الفنى المتماسك البنية ؟ وأين تكمن عبقرية التكنيك السردى فى كتابه ؟

(ب) المبنى الحكائى

يمكن القول بأنه ربط بينها – بنائيا – على مستويين ؛ أحدهما على مستوى بنية الكتاب نفسه ، فقد جمعه على صعيد واحد – من البداية حتى النهاية – فيما يمكن تسميته بالبنية الكبرى للكتاب ، والآخر ، على مستوى الباب الواحد (القصة المحورية) ، فيما يمكن تسميته بالبنية الصغرى للباب ، وهذا هو موضوع هذه الفقرة :

البنية الكبرى للكتاب

تشبه بنية الكتاب البنية الأمّ الذائعة فى كتاب كليلة ودمنة (ومثلها فى ألف ليلة وليلة) أي أن ثمة حكاية إطارية كبرى تجمع شتات الكتاب – بفصوله العشرة المستقلة – فى بنية سردية متماسكة .. ومجمل هذه الحكاية الإطارية التى تبدأ مع بداية الباب الأول وتنتهى مع نهاية الباب العاشر والأخير للكتاب : أن ملكا يتآمر عليه إخوته طمعا فى الاستيلاء على السلطة ، وتلوح فى الأفق بوادر فتنة مدمّرة .. فيخشى أخوهم الأصغر – واسمه حسيب ، وكان أعقلهم – عواقب هذه الفتنة .. ولما لم يكن بمقدوره أن يوقفها ، فقد اضطر إلى اعتزال العمل السياسى ، بحجة الانقطاع لتأليف كتاب (إنجاز ثقافى) ويطلب الإذن من أخيه الملك بالسماح له ،

غير أن أخاه – بتحريض من الوزير – يرفض ذلك خشية أن يكون الانقطاع لعمل سياسى سرّى (حشد الحشود وجمع الجنود) تضامناً مع إخوته ، وتكون حجة الرفض أن أحداً لم يعهد عليه مثل هذه الرغبة من قبل ، ومن أين له تحصيل العلم ... إلخ . ومن ثم فلن يسمح له بالقيام بذلك إلا إذا ناظر الوزير – فى محفل عام – حتى يتبين صدق ما يقول .. ويشرع عندئذ الحكيم حسيب فى السرد – على لسان الحيوان – طيلة الأبواب العشرة .. حتى اذا ما انتهى من ذلك ، بين انبهار الملك وذهول الوزير من حكمته وثقافته وبُعد نظره (السياسى) قام الملك فقبّل عينيه ، وقام الوزير فقبّل قدميه .. اعترافا بفضله حكيما وفيلسوفا بارعاً . تتجلّى حكمته فى بعد نظره (السياسى) و (الإنسانى) ويعتذر إليه هو والوزير ، ويعهد اليه الملك بمهمة سياسية – باعتباره مفاوضا بارعاً أيضا – هى أن يقوم بدور حمامة السلام بينه وبين إخوته الثائرين .. وينجح فى مهمته الدبلوماسية ، وتهدأ نائرة الفريقين ، ويعم السلام ، والأمن والأمان ، على حد تعبير ابن عرب شاه ... بعد أن اعترف الجميع بفضل الحكيم الحسيب باعتباره "مالك أزمة الإنشاء وملك الكلام" .

فى هذه الحكاية الإطارية أو البنية الخارجية للكتاب يلعب الحكيم حسيب دور بيدبا الفيلسوف ، وشهرزاد .. وعلى مستوى التكنيك السردى يلعب دور السارد الضمنى .. أما الراوية ، فكان شخصية خيالية أخرى تدعى الأديب الأريب أبا المحاسن حسان ..

البنية الصغرى للكتاب

فإذا ما انتقلنا إلى المبنى الحكائي ، لكل باب على حدة (الباب هنا وحدة قصصية أو سردية قائمة بذاتها ، نطلق عليها القصة المحورية) وجدنا هذا الباب يتكون من :

(أ) قصة محورية أو رئيسية

هى فى الوقت نفسه ، قصة إطارية للباب الذي وردت فيه ، لأنها عادة ما تستخدم إطارا لما يليها من حكايات وتكون حينئذ بمثابة "الوحدة القصصية الأساسية" فى هذا الباب .

(ب) حكايات فرعية قصيرة

تشكل فى الوقت نفسه ، أجزاءَ القصة الرئيسية وتكون حينئذ بمثابة "وحدات قصصية فرعية ، بعضها تولد من رحم القصة القصيرة ، وبعضها توالد من رحم الحكايات الفرعية ذاتها .

أما وظيفة القصة الرئيسية أو الإطارية ، فهي تحديد الموضوع أو المشكل أو القضية التى يعالجها الباب كله (القصة المحورية) ، كما تقوم بتحديد مستوى السرد ؛ إنه "السرد الابتدائي" ، وأما وظيفة الحكايات الفرعية فهي متنوعة بتنوع وظائف العملية السردية عموما .

وهذا يعنى – فى إيجاز – أن الكتاب يجمع بين نسقين من أنساق التعبير هما نسق التأطير ونسق التنضيد ، على غرار كليلة ودمنة وألف ليلة وليلة ومثل هذا النسق السائدة فى السرديات العربية قديما يساعد على إدماج المزيد من المواد القصصية فى جسم الكتاب ، دون أن ينوء بحملها ، كما يسمح – فى الوقت نفسه – بحذفها دون أن يشعر المتلقى بذلك .. وهو ما حدث بالفعل فى طبعة الموصل ، فهى تقل عن المطبوعة القاهرية بحوالى ٢٠٪ من المادة القصصية ، دون أن يشعر أحد من القراء بذلك ..

ومثل هذه الأنساق السردية هنا إلا أن تكون أنساقا كتابية ، أى أن المتن الحكائى هنا لابد أن يكون كذلك مقروءاً ... ذلك أن طول النص / الباب لايسمح للتقاليد الشفوية بربط الأجزاء - الحكايات الفرعية - اعتماداً على وسائل مشابهة لأنساق المتن الكتابى ... ولذلك فالكتاب موجّه للصفوة القارئة ..

[٧] أسلوب الكتاب ولغته

أسلوب الكتاب هو أسلوب العصر المملوكى المتأخر حيث هيمنت مدرسة النثر المقفى على أساليب التعبير الأدبى وغير الأدبى .. بكل خصائصها الفنية المعروفة[٨] ومن ثم فالكاتب وضع الشعر نصب عينيه معياراً لنثريّته .. فاستخدم آليات الشعر وأدواته فى التعبير ، فجاء أسلوب الكتاب ضربا من الشعر المنثور على حد تعبير محمد غنيمى هلال[٩] . فقد عمد الكاتب إلى استخدام أساليب الشعر وموازينه فى منثوره ، من كثرة الأسجاع والتزام التقفيه فى التعبير ، فلا توجد جملتان أو تعبيران بلا تقفية على امتداد الكتاب كله . متوسلا فى ذلك بالتزام السجع المصنوع بكل أنواعه (الترصيع ، التوازى ، التوازن ، المطرّف .. إلخ) والجناس المصنوع بكل أنواعه أيضا .

كما عمد الكاتب إلى تهجين نصه النثرى ، على نحو لافت للنظر من خلال تداخل أو تناصٍ مباشر مع الخطابات والأشكال الأدبية الأخرى (كالشعر - وبعضه من تأليف ابن عرب شاه نفسه - والحكم والأمثال والأقوال المأثورة ، وآيات القرآن الكريم والحديث النبوى ... إلخ) واقتباسها وتضمينها نصّه وترصيعه بها .

---

[٨] حول هذه التقاليد الفنية ، انظر كتابنا : النثر العربى القديم ص ٣٦٧ - ٣٨١ دار الكتاب الجامعى ، الكويت ، ١٩٩٦ .

[٩] الأدب المقارن ، ص ١٨٧ دار العودة - بيروت ١٩٨٧ .

أيضا يتسم أسلوب الكتاب باعطاء الأولوية للفظ على حساب المعنى ، الأمر الذى ترك بصماته السلبية على العملية السردية برمتها .. فاللفظ هنا هو منطلق المعنى السردى وليس العكس ، كما هو مفترض . وكان الوفاء لهذه الصنعة اللفظية معياراً لشعرية النص ، ودليل إبداعه . وقد أدى الوفاء لتقاليد هذه المدرسة أيضا إلى الإطناب فى التعبير ، واصطناع التعقيد واستخدام المفردات المعجمية (الوحشية الغريبة) باعتبار ذلك أيضا معياراً من معايير الفصاحة والبيان من ناحية ، ووفاء لمتطلبات السجع وضرورات البديع ولاسيما الجناس .

ولولا حيوية الإبداع السردى لسقط الكتاب فى هوّة البلاغة اللفظية البحتة ، شأنه – فى ذلك – شأن النتاج النثرى التقليدى (الأدب الرسائلى) فى هذه الفترة التاريخية من تاريخ النثر العربى القديم .

تبقى بعد ذلك ثلاث ملاحظات : إحداها أن الكتاب ملىء **بالمشاهد الوصفية المعلّبة** وهى مشاهد مسجوعة بكاملها ، كان يرددها الكاتب كثيراً ، منها وصف النساء المخدّرات ، ووصف الأبطال ، ووصف الحروب ، ووصف الطبيعة .. إلخ . والثانية أن ثمة **مسكوكات تعبيرية مسجوعة** تملأ الكتاب ، وتفسر لنا كيف تمكن ابن عرب شاه من الوفاء بحق "التقفية" فى أساليبه .. وطول نَفَسِهِ التعبيرى المسجوع ، على امتداد الكتاب كله .. وعلى نحو يذكرنا تماما بنظرية الصيغ الشفاهية المعروفة .

أما الملاحظة الثالثة والأخيرة ، وتبدو حقا ملاحظة طريفة ، وهى أن الكتاب – برغم ذلك كله – احتوى على عشرات التعابير العامية (خاصة المصرية) كان يقتضيها الحوار بين الشخصيات .. الأمر الذى أدى إلى حيوية الحوار من ناحية ، واضفاء لمسة واقعية عليه من ناحية أخرى ..

وكنتُ أثناء تحقيق الكتاب قد استخرجت الكثير من هذه المشاهد الوصفية المعلبة ، والمسكوكات السجعية والتعابير العامية .. ولكن المقام لا يسمح بالاستشهاد بها خشية الإطالة .. وسوف يصادفها القارئ بنفسه أثناء قراءة الكتاب .

[٨] الأصول الأولى للكتاب ، وعروبته :

للوهلة الأولى تبدو الحكايات الرئيسية للكتاب منقولة عن كتاب "مرزبان نامة"[١٠] الذى قام ابن عرب شاه نفسه بترجمته من اللسان الفارسى – وقيل التركى – أثناء إقامته فى القاهرة ، بتكليف من الملك الظاهر جقمق (حكم من سنة ٨٤٢ – ٨٥٧ هـ / ١٤٣٨ – ١٤٥٣ م) وكان أحد السلاطين المماليك العظام الذين يشجعون العلم والعلماء .

أما الحكايات الفرعية السائدة فى الكتابين ، مرزبان نامة وفاكهة الخلفاء ، فهى – فى جوهرها – حكايات شعبية سائدة فى الثقافتين العربية والفارسية آنذاك وكثير منها مكرر فى الكتابين .. فهل يعنى هذا أن ابن عرب شاه ، بعد أن قام

---

[١٠] مرزبان نامة كتاب قصصى على لسان الحيوان ، كتبه لأول مره ، باللغة الطبرستانية أصفهيد مرزبان بن رستم بن شروين بريم ، فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ثم ظهرت له ترجمتان أخريان بعد ذلك ، الأولى ، بعنوان : روضة العقول لمحمد بن غازى الملطيوى ، فى سنة ٥٥٩ هـ ، مع بعض التعديلات والإضافات . وقد ترجمه إلى اللغة الفارسية الدريّة . ثم ظهرت الترجمة الثانية بعد ذلك بعشرين عاما ، قام بها سعد الدين الوراوينى ، باللغة الفارسية الدرية أيضا . وهى الترجمة التى نقلها ابن عرب شاه للملك الظاهر . ومن الغريب أن النسخة الأم للكتاب – باللغة الطبرستانية – لم يعد لها وجود اليوم .. ويشير غنيمى هلال إلى أن ابن عرب شاه قد نقل عنها ، وبذلك تكون الترجمة العربية قد حفظتها من الضياع كليا (انظر الأدب المقارن ص ١٨٧ ، دار العودة ، ١٩٨٧ ، أما الباحث مجدى محمد شمس الدين ، فيرى ، مع خراسانى ، أن ابن عرب شاه ترجم مرزبان نامة الوراوينى (انظر كليلة ودمنة لمجدى ابراهيم ص ١٧١ وما بعدها) دار الفكر العربى – القاهرة ١٩٨٦ .

بترجمة مرزبان نامة ترجمة حرفية ، قد عاد فادّعاه لنفسه ، كما يزعم بعض الباحثين المحدثين[11] ، وإن كان بعضهم قد افترض حسن النيّة ، وذكر أن فاكهة الخلفاء ليس إلا "ترجمة أدبية حرّة" لكتاب مرزبان نامة[12] أو قام باقتباسه عنه ، وإضافة بعض الحكايات التاريخية إليه[13] .

وعلى الرغم من أوجه الشبه بين الكتابين ، فإن ابن عرب شاه لم يكتف بإضافة بعض الأبواب إلى كتابه ، مثل قصة جنكيز خان التاريخية التى تصل إلى قرابة مائة صفحة ، أو إضافة كثير من القصص الفرعية العربية .. أو التزم بترتيب الأبواب والحكايات ، بل أعاد صياغة الكتاب برمته صياغة جمالية مغايرة سداتها السجع والمحسنات والجناس ، ولحمتها الاستشهاد بالنصوص القرآنية والأحاديث النبوية وبمئات أبيات الشعر – من التراث العربى أو من إبداعه وتأليفه ، ومئات الأمثال والحكم والأقوال العربية المأثورة .. وبالرغم من أن حكاية الحيوان الرمزية ، مهاجرة بطبيعتها تنتمى إلى طراز الحكايات العالمية المهاجرة International Tale Types الذائعة فى تراث الشعوب ، وتشكل إرثا إنسانيا مشتركا ، فلا يسعنا فى هذه العجالة إلا القول بأن صنيع ابن عرب شاه هنا يماثل صنيع ابن المقفع مع البانج تنترا – وذلك فى ضوء نظرية إعادة الانتاج Reproduction Theory حيث شرع ابن عرب شاه يعيد انتاج الكتاب بروح عربية تتفق والنظم السياسية السائدة آنذاك والمعطيات الثقافية للعصر (القرن التاسع الهجرى)، وهو أمر يقتضى إعادة بناء النص

---

[11] ذكر جرجى زيدان أن فاكهة الخلفاء منقول بالكامل من كتاب مرزبان نامة ، انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٦٤ ، بيروت ، ١٩٦٧ .

[12] انظر على سبيل المثال : محمد غنيمى هلال ، الأدب المقارن ، ص ١٨٦ – ١٨٧ ، دار العودة بيروت ١٩٨٧ فاروق سعد ، كليلة ودمنة ، مقدمة المحقق ص ٧٧ ، بيروت ١٩٧٩ .

[13] محمد غفرانى الخراسانى ، عبدالله بن المقفع ص ٤٢٧ الدار القومية بالقاهرة ١٩٦٥ .

القصصى وإخضاعه – سوسيولوجيا – للبيئة الجديدة حتى يكـون القـارئ مشـدوداً إلى الإبداع الجديد ، وإلاّ فشلت العملية السردية برمتها ، وسقط الكتـاب واكتفـى الناس بالنص المترجم .

ثمة أمر آخر ، إن المفاهيم والمدارس الأدبية السائدة فى العصر المملوكى – عصـر الصنعة البديعية – كـانت تعلـى مـن شـأن الصياغـة لا المضمـون .. وهـو أمـر بـالغ الأهمية فى بعض المناهج النقدية الحديثة .. كالمنهج الجغرافـى التـاريخى الـذى طبقـه العلماء فى البحث عـن أصـول حكايـات الحيـوان ومنابعهـا العالميـة ، إذ لم يتمكـن رواده من الوصول إلى حقائق ثابتة فى هذا المضمار ، الأمـر الـذى تطـور معـه هـذا المنهج على يـــد المدرسـة الفنلندية (النظريـة التاريخية الجغرافيـــة) وكذلـك العلمـاء الروس ، حيث انتهت هذه النظرية إلى الإيمان بأن استعارة موضـوع مـا (مـن ثقافـة أخرى) لا يعنى أن هذا الموضوع ليس قوميا (عربيا هنا) أو ينبغى إزالتـه مـن الثقافـة القومية ، لسبب بسيط أنه **ليس هناك استعارة لموضـوع مـا دون صياغـة مبدعـة ، هذه الصياغة التى لا تتجاهل دور العبقرية الفردية فى إبداع العمل القصصى هى جوهر الفعل الأدبى .**

وهذا يعنى أيضا وببساطة أن صنيـع ابـن عـرب شـاه – فـى ضـوء هـذه النظريـة التاريخية الجغرافية هو إبداع أدبى ، وليس ترجمـة "حـرة أو غـير حـرّة" الأمـر الـذى تؤكده – مرة أخرى – نظرية العوالم الثقافية فى الدراسات المقارنة التى يبـدو معهـا كتاب فاكهة الخلفـاء ومفاكهـة الظرفـاء ثمرة إلامـتزاج أو التداخـل الثقـافى Cross Culture السائد آنذاك بـين تـراث مجموعـة مـن العـوالم الثقافيـة ، العربيـة والتركيـة والفارسية .. والمؤلف قد قضى عمره بين هذه الثقافات الثلاث ، واتقن لغاتها ونظم بها على نحو ما سنعرف وشيكا فى ترجمته .

ومن اللافت للنظر أن ابن عرب شاه نفسه قد صرح فى خطبة الكتاب بأنه مؤلف الكتاب لا مترجمه ، وقرن كتابه بكتاب كليلة ودمنة ، وكتاب سلوان المطاع ، وكتاب الصادح والباغم - وكلها كتب ذات مضمون سياسى - وأنه إنما صنف كتاب - بمعنى جمعه وألفه - مما بلغه من نقلة الأخبار وحملة الآثار ورواة الأسفار ، وذكرها جميعا على لسان راويته الخيالى ، أبى المحاسن حسان .. إلخ . وذكر أيضا أنه تأثر بمن سبقوه ، وأنه يطمح إلى اقتفاء أثرهم وآثارهم .

فى ضوء ذلك كله ، لا نجافى الحقيقة العلمية ولا نعتسفها إذا ذهبنا مع القدماء بأن الكتاب من تأليف ابن عرب شاه .. وإن كان قد استلهم فيه كتاب مرزبان نامة .. الفارسى ، بدليل أنه فى خطبة الكتاب المترجم (مرزبان نامه) ذكر صراحة أنه نقله (ترجمه) من الفارسية إلى العربية ولم يذكر أنه وَضَعَ أو تصنيف أو تأليف ، وهى المفاهيم الشائعة فى عصره للإبداع العلمى والأدبى . ومن ثم لا غرو أن يحظى كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الخلفاء فور صدوره بنجاح أبهر معاصريه[14] ، واعترفوا له فيه بالفضل ، على النقيض من كتابه المترجم مرزبان نامة بالعربية[15] .

وليس محض مصادفة أن يكون هذا الكتاب ، فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء - هو أخر (أو من آواخر) ما كتبه ابن عرب شاه .. ويبدو من شيوع العامية المصرية أنه كتبه فى القاهرة فى أخريات أيامه بعد سنة ٨٥٠ هـ ، وقبيل وفاته بأربع سنوات .

---

(١٤) انظر الضوء اللامع للسخاوى ١ : ١٣١ .

(١٥) يذكر جرجى زيدان أن هذا الكتاب مرزبان نامة الذى ترجمه ابن عرب شاه إلى اللغة العربية ، قد طبع فى مصر طبعة حجرية سنة ١٢٨٧ هـ . انظر تاريخ آداب اللغة العربية ٢ : ١٦٥ .

[٩] طبعات الكتاب السابقة (غير محققة، جميعها)

طبع الكتاب لأول مرة سنة ١٨٦٩ م (١٢٨٥ هـ) في الموصل (مطبعة دير الآباء الدومينيكان) ثم طبع في مصر – طبعة حجرية – سنة ١٩٠٧ م (١٣٢٥ هـ) في المطبعة الميمنية (لصاحبها مصطفى البابي الحلبي)[١٦] وبهامشه طبع أيضا كتاب كليلة ودمنة .. وهاتان هما الطبعتان "الأم" التى صورتهما الطبعات اللاحقة وبالأخطاء نفسها .. فقد أعيد طبع الكتاب في بيروت ، تصويرا عن طبعة الآباء الدومينيكان ، دون الإشارة إلى ذلك ، ولم يكن التصوير واضحا أيضا .

ولما كنت أمتلك النسختين ، نظرا لاهتمامي بالتراث القصصي في الأدب العربي القديم ، فقد دفعني ذلك إلى مراجعة الطبعتين ، فوجدت أن نسخة الآباء الدومينيكان غير كاملة بل مختصرة[١٧] مقارنة بالنسخة المصرية التى تحفل أيضا بالأخطاء الطباعية ، ومطبوعة طباعة سيئة بحرف صغير يكاد لا يرى (لأن على هامش الكتاب مطبوع أيضا كتاب كليلة ودمنة) وليست في هذه الطبعة علامات ترقيم على الاطلاق فلا تُقرأ إلا بشقّ الأنفس ، **فضلاً عن ندرة الحصول عليها ، مما يجعلها فى حكم المخطوط ، لتقادم عهد طباعته ، وغيابه وبعده عن القارئ المعاصر .**

---

(١٦) هناك طبعة مصرية أخرى – على الحجر – صدرت سنة ١٣٠٦ هـ أى منذ مائة عام ونيف . ذكرها الباحثون غير أننا لم نتمكن من العثور عليها . وقد ذكر جرجى زيدان أن للكتاب طبعة أخرى فى بون سنة ١٨٣٢ . انظر تاريخ آداب اللغة العربية (٢ : ١٦٥) .

(١٧) تم حذف حوالى ٢٠٪ من الحكايات الفرعية على الأقل ، كما حذفت معظم النصوص القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال بعض الصحابة ، مما يعنى أن ثمة اعتبارات دينية كامنة وراء هذا الاختصار .

ومع أنه قد مضى حوالي ١٣٠ سنة على طبعة دير الآباء الدومينيكان التى سطت عليها بعض مطابع بيروت تصويرا ونشرا ، ومضى كذلك على الطبعة المصرية أكثر من ٩٠ عاما ، ثم أعيدت طباعتها فى بدايات هذا القرن أيضا - كما هى - على نحو تجاري سيء ، فإن أحدا من المحققين لم ينتبه إلى هذا الكتاب العظيم ، ويفطن إلى تحقيقه علميا معتمدا ، يراعى فيه أصول التحقيق المتعارف عليها أكاديميا .. تتجنب الكثير الكثير من الأخطاء الطباعية والنحوية واللغوية ، ناهيك عن التصحيف الكثير الذى وقع فيه النساخ - على مستوى المخطوط - ووقع فيه الكتاب المطبوع أيضا ، على الرغم من أن الطبعة المصرية خضعت للتصحيح الطباعى بإشراف مصحح يدعى محمد الزهرى الغمراوى رحمه الله .. بل إن الآيات القرآنية نفسها لم تخلُ من أخطاء فى الضبط والطباعة . أما أخطاء التصحيف فى الأعلام وأسماء المدن ، وخاصة فى الباب العاشر فهى أكثر من أن تحصى ، وتحول دون الوصول إلى الوقائع التاريخية الصحيحة . واللافت للنظر أن ثمة أخطاء كثيرة مشتركة بين الطبعة الموصلية والطبعة القاهرية ، مما يعنى أنهما منقولان عن أصل واحد مخطوط .

أما المخطوطة التى أتيح لى امتلاكها ووضعها فى الاعتبار عند التحقيق ، فهى نسخة مصورة عن مخطوطة الكتاب فى المكتبة الظاهرية برقم ٣١٩٧ (١١١٨ م ك مجموع ٣) وتقع فى ٣٢٦ ورقة (٢١ سطراً فى كل ورقة ، وهى مكتوبة بخط جيد) واضح وضوح المطبوع - باستثناء التصحيف والأخطاء النحوية التى وقع فيها الناسخ شهاب الدين أحمد بن محمد العجلونى ، رحمه الله .

من هنا شرعت فى الكتابة عن هذا الكتاب والتنويه به مرارا في السنوات الأخيرة فى عدد من كتبى ، لعل أحدا يسعى إلى تحقيقه ، دون جدوى .. فوجدت لزاما

عليّ أن أقوم بهذا العمل بتشجيع من دار سعاد الصباح للنشر فى الكويت ، فلها وللقائمين عليها الشكر كل الشكر .

[١٠] منهج التحقيق القصصى

بداية لم أشأ أن أثقل الكتاب بحواشى الخلافات والأخطاء المتباينة بين النسخ المطبوعة ، أو بينها وبين النسخ المخطوطة ، وإنما سعيت إلى إعداد نسخة كاملة ، تقارب النص الأصلى ، إذ ليس من الأهمية بمكان ذكر مثل هذه الأخطاء اللغوية أو الإملائية أو النحوية أو الطباعية فى كل نسخ النص ، الأمر الذى يجعل القارئ مشتتا : عَيْنٌ على المتن وعَيْنٌ على الحاشية .. وهو ما تغاضينا عنه ، خاصة فى تحقيق نص قصصى يقوم فى جوهره على التشويق السردى ومتابعته دون قطع أو توقف ، ثم هى خلافات وتصحيفات – فى ظنى – لا تعنى القارئ فى قليل أو كثير ، بقدر ما يعنيه وجود نصّ سردى متكامل مقروء ، خالٍ من الأخطاء – قدر الإمكان – ومضبوط بنائيا (صرفيا) ومشكول نحويا ومشروح لغويا واصطلاحيا .

إن لذّة القصّ تقتضى ألا تقطع النصَّ حاشية من حواشى التصحيف أو خطأ طباعى أو إملائى . هنا أو هناك ، وإلا فما معنى تحقيق نصّ قصصى ، هو فى روحه نص شفاهى[18] برغم كونه نصّا مكتوبا ، وأزعم أن القارئ لا يعنيه إلا نص متكامل بالمعنى السابق ، ومن ثم فإن جهد المحقق هنا ينحصر فى :

١ – تكامل النصّ وخلوه – قدر الامكان – من النقص أو الغموض الذائع بين النسخ ، وقد اعتبرتُ النسخة الشاهد هنا هى النسخة المطبوعة فى مصر ..

---

[18] يقصد بروح الحكى الشفاهى آلياته ، انظر كتابنا التراث القصصى ص ٣١ – ٦٩ .

لأنه ورد فى ذيل الكتاب أنها منقولة عن نسخة كتبت سنة ٨٥٦ هـ ، أى بعد وفاة المؤلف بعامين فقط ، وثمة محاولة معاصرة لتصحيحها .

٢ - ضبط بنية الكلمات صرفيا ، كلما اقتضى المقام (المعنى) ذلك .

٣ - الضبط الإعرابى أو النحوى ، وهو فى مثل هذا الكتاب - أمر على غاية الأهمية ، وذلك أن ضرورات الإيقاع السجعى - إذا صح التعبير - كانت تقتضى من المؤلف فصلا بين الفاعل والمفعول - على سبيل المثال - بمجموعة من الجمل الفاصلة أو العبارات التى يقتضيها سحر السجع ، وقد تصل الى ثمانى جمل فاصلة ، الأمر الذى يربك القارئ فى فهم النص ، ويقطع عليه لذة القصّ . إن الضبط هنا ليس ضرورة صرفية أو نحوية فحسب ، بل ضرورة سردية فى مثل هذا العمل الذى يقوم فى صميم بنيته الأسلوبية على السجع والجناس .. فهو إذن ضرورة اقتصادية أيضا قياسا إلى الجهد القرائى ، وقد استثنينا من الضبط كلمات أواخر الجمل ، لأن الأصل فى حالة السجع - الوقوف بالسكون عليها ، ومن ثم فسوف توجد كلمات تقتضى النصب بالألف مثلا ، ولكن المؤلف آثر الضرورة السجعية - إذا صح التعبير - على الضرورة النحوية فلم ينصبها استجابة لضرورة السجع .. وقد جاريناه فى ذلك حرصا على إيقاع الجمل . وقد اقتضت ضرورات السجع والجناس أيضا أن يقوم المؤلف - أحيانا بتغيير بنية المفردة أو الكلمة ، بحذف حرف أو إضافة آخر أو تخفيف مهموز إلخ ، مما قد يصرف القارئ عن المعنى المقصود .. فاضطررنا إلى تفسير ذلك فى الحاشية أحيانا .

٤ - علامات الترقيم ، فالنسخ جميعها ، المطبوعة والمخطوطة خلو منها ، وعلامات الترقيم - كما نعلم - ليست ترفا ، بل هى جزء لا يتجزأ من سيميولوجية

القراءة ، وخاصة فى كتاب يسود فيه الحوار السردى كثيرا .. ويتعدد السارد فيها .

٥ - فى محاولة دؤوبة ومرهقة عرضت مفردات الكتاب على المعاجم اللغوية ، تأكيداً لصحة النصّ ، وترجيحا لما بين النسخ من أخطاء التصحيف وما بينها من خلافات .

٦ - توثيق النصوص القرآنية التى استشهد بها المؤلف ، بعد أن طالتها الأخطاء الطباعية فى النسخ المطبوعة .

٧ - شرح وتفسير ما يزيد على ألفيْ كلمة من مفردات الكتاب - فى لغته المملوكية التى اختلفت دلالاتها وتباينت عما هى عليه الفصحى المعاصرة ، ليس ذلك فحسب ، بل لأن دواعى السجع ، والشّرّه على الجناس ، والمحسنات البديعية ، دفعت المؤلف إلى استخدام مفردات معجمية غير ذائعة الاستعمال (مهجورة ، وحشية بلغة القدماء) ولم يكن الأمر سهلا ، عن طريق المعاجم ، ولكن كيف تبحث عن المعانى التى تتفق والسياق الدلالى والسردى معاً .

٨ - ضبط الأعلام التاريخية ، والأماكن الجغرافية ، والتعريف بها جميعا على كثرتها . وخاصة فى الباب العاشر .

٩ - تعريف المصطلحات الإدارية والعسكرية المملوكية والتركية والفارسية التى يحفل بها الكتاب ، وكانت شائعة فى عصر المؤلف ، ولم يعد لها اليوم وجود فى حياتنا اليومية .

١٠- وضع عناوين مرقومة للحكايات الفرعية في كل باب من أبواب الكتاب حتى يسهل الاستدلال عليها من فهرس الكتاب مباشرة .

أما ما يتعلق بالنصوص الشعرية والحكم والأمثال العربية (القديمة) والشعبية (المولّدة) والأقوال المأثورة عن الرسل وبعض الصحابة ، فكلها "مرويات شفاهية" وقد اعتمدها المؤلف كذلك (أى بصورتها المروية أو الشفاهية) ، لذلك لم يكن دقيقا فى نسبتها لاسيما الشعر ، وكونها مرويات شفاهية فهذا يعنى احتمال تعدد الرواية ، وهو أمر معترف به فى التراثين الشعبى والقصصى القديم ، ومن ثم لم نحفل بتوثيقها .. وإنما عنينا بتصحيحها وضبطها إملائيا ونحويا ، لا عروضيا[١٩] وحسبنا فى النهاية أن نقدم نصّا تسهل قراءته بجهد قرائى أقل وتتحقق فيه لذة القص ومتعته الجمالية المرتقبة فى آن ، دون عوائق تذكر .

[١١] ترجمة حياة المؤلف ومؤلفاته

كتب ابن تغرى بردى (ت ٨٧٤ هـ - ١٤٧٠ م) فى كتابه المنهل الصافى[٢٠] : هو أحمد بن محمد بن عبدالله بن إبراهيم ، الشيخ ، الإمام ، العالم العلامة ، البارع المفنّن ، الأديب ، الفقيه ، اللغوى ، النحوى ، المؤرخ ، شهاب الدين أبو العباس

---

[١٩] أحيانا يروى المؤلف البيت الشعرى الواحد بروايتين مختلفتين .

[٢٠] المنهل الصافى تأليف يوسف بن تغرى بردى الأتابكى ، جمال الدين أبى المحاسن جـ ٢ ص ١٣١ - ١٤٥ ، تحقيق محمد أمين ، القاهرة ، ١٩٨٤ وانظر فى ترجمته أيضا :

- النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى أيضا جـ ١٥ ص ٥٤٩ - ٥٥١ .
- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع للمؤرخ الناقد محمد بن عبدالرحمن السخاوى ج ١ ص ١٢٦ - ١٣١ . بيروت . ب . ت .
- شذرات الذهب لابن العماد ، م ٩ ص ٤٠٩ - ٤١٣ ، تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط ، دمشق ، ١٩٩٣ .

وكتب أخرى مثل الدليل الشافى ، وحوادث الدهور ، والتبر المسبوك ، نظم العقيان ، ومعظمها قد نقل عن ابن تغرى بردى .

الدمشقى المعروف بابن عرب شاه .. كان إمام عصره فى المنظوم والمنثور . ولما كان ابن تغرى بردى صديقا ومريداً للمؤلف ، فقد نجح فى استكتابه ترجمة ذاتية بقلمه ، وذلك عندما استجازه - علميا - وقد ضمنها كتابيه المنهل الصافى ، والنجوم الزاهرة .. ونعلم من خلال هذه الإجازة / الترجمة أن ابن عرب شاه قد ولد فى دمشق فى أواخر سنة ٧٩١ هـ - ١٣٩٢ م .. وبها نشأ وتلقى تعليمه الدينى .

ثم حدثت نقلة كبرى فى حياته عندما اضطر إلى مغادرة وطنه ، هو ووالدته واخوته وابن أخته إلى سمرقند وبلاد ما وراء النهر فى سنة ٨٠٣ هـ - ١٤٠٠ م .. وقد اختلف المؤرخون فى أسباب ذلك ، فذكر بعضهم أنه هاجر إلى بلاد الروم ، ومنها إلى سمرقند هربا من "كائنة تيمور" فى "زمن الفتنة" عندما غزا تيمولنك بلاد الشام آنذاك . وقيل إنه وقع أسيراً هو وأهله .. - على خلاف بين المؤرخين - وأيا كان الأمر فقد قدّر له أن يعيش سنين طويلة هناك . حيث تنقل بين سمرقند وخوارزم وقيريم (إقليم القرم) وغيرها من بلاد ما وراء النهر ، واجتمع بعلماء هذه البلاد وكبار شيوخها ، حيث تلقى عنهم علومه الدينية واللغوية والبلاغية ، وتعلّم أيضا اللسان الفارسى والخط الموغولى وأتقنهما ، كما ملك اللسان الفارسى والتركى إلى جانب اللسان العربى ، وبرع فى ذلك أيما براعة .

ثم كانت النقلة الثانية فى حياته عندما رحل - بعد بضعة عشر عاما إلى بلاد الروم (الأناضول والبلقان) إلى مملكة ابن عثمان (الملك محمد الأول بن أبى يزيد)[٢١] حيث عمل فى خدمته عشر سنوات ، تولى خلالها ديوان الإنشاء وكتب عنه إلى ملوك الأطراف ، عربيها وفارسيها وتركيها ، كما نقل (ترجم) له بعض الكتب

[٢١] تولى الحكم سنة ٨٠٥ - ٨٢٤ هـ - ١٤٠٣ - ١٤٢١ م .

النفيسة من اللسان الفارسى إلى التركى ، منها كتاب جامع الحكايات ولامع الروايات من الفارسى إلى التركى فى نحو ست مجلدات ، ومنها تفسير الإمام أبى الليث السمرقندى ، ومنها تعبير الرؤيا لنصر بن يعقوب الدينورى القادرى ، من العربية الى التركية نظما .

ثم كانت النقلة الثالثة فى حياته - بعد وفاة السلطان - حيث عاد إلى وطنه القديم ، بعد واحد وعشرين عاماً من الاغترابا ، فوصل حلب سنة ٨٢٤ هـ - ١٤٢١ م ، ولبث بها قليلا ثم انتقل إلى دمشق سنة ٨٢٥ هـ - ١٤٢٢ م ، وأقام بها فترة ، تقلد خلالها عددا من الوظائف الدينية أهمها ولاية قضاء حماة .

ثم كانت النقلة الرابعة والأخيرة فى حياته عندما نزح إلى القاهرة فى سنة ٨٤٠ هـ - ١٤٣٦ م ، واتصل بالملك الظاهر جقمق[٢٢] ، وترجم له - بتكليف منه - كتاب "مرزبان نامة" كما اتصل بكبار علمائها وأدبائها وشعرائها ، وظل مقيماً بها - معظم وقته - حتى وافته المنية فى سنة ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م ، ودفن بها فى خانقاه سعيد السعداء بالقاهرة ، عن اثنين وستين عاما وستة أشهر وعشرين يوما ، غريبا عن أهله وأولاده على حد تعبير صديقه ومريده ابن تغرى بردى .

ومن شهادات معاصريه :

قال ابن تغرى بردى :

" وكان إماماً بارعا فى علوم كثيرة مفننا فى الفقه والعربية ، وعلمي المعانى والبيان ، والأدب والتاريخ ، وله محاضرة حسنة ومذاكرة لطيفة مع أدب وسكون وتواضع ، وله النظم الرائق الفائق الكثير المليح ، وكان يقول الشعر الجيد

---

[٢٢] تولى الحكم سنة ٨٤٢ - ٨٥٧ هـ - ١٤٣٨ - ١٤٥٢ م .

باللغات الثلاث : العربية والعجمية والتركية ، وله مصنّفات كثيرة مفيدة فى غاية الحسن "[٢٣] .

وقال المؤرخ والناقد ، معاصره شمس الدين السخاوى : "وتقدم فى غالب العلوم ، وإنشاء النظم الفائق والنثر الرائق"[٢٤] ونقل عن المقريزى وصفه لابن عرب شاه – فى ترجمته – بأنه "بحر بلاغة وفصاحة" وعلى الرغم من كونه مؤرخا وفقيها ولغويا ، فإن الغالب عليه الأدب نظما ونثرا ، كما يقول السخاوى ، الذى يمضى فيقول "وكان أحد الأفراد فى إجادة النظم باللغات الثلاث ، العربية والعجمية والتركية ، جيدة الخط"[٢٥] .

أما **مؤلفاته وتصنيفاته** ، فهى على النحو التالى :

إذا تجاوزنا مترجماته المنظومة والمنثورة ، وقد كان إماماً فى المنظوم والمنثور ، المترجم والمصنف ، كما ذكر المؤرخون ، إلى مؤلفاته التاريخية والأدبية ، فقد ذكروا من تصنيفاته (مؤلفاته) النثرية ما يلى :

- تاريخ تمرلنك ، أو عجائب المقدور فى نوائب تيمور[٢٦] .
- غرة السير فى دول الترك والتتر .
- خطاب الإهاب الناقب وجواب الشهاب الثاقب[٢٧] .
- التأليف الطاهر فى شيم الملك الظاهر (جقمق) .

---

[٢٣] شذرات الذهب جـ ١٥ ص ٥٤٩ .

[٢٤] الضوء اللامع ١ : ١٢٨ .

[٢٥] الضوء اللامع ١ : ١٢٩ .

[٢٦] طبع مرارا فى مصر ، ونقل إلى اللاتينية ، وطبع فى ليدن وباريس وآكسفورد ، وأخيرا طبع محققا فى القاهرة ، تحقيق على محمد عمر ، ١٩٧٩ .

[٢٧] نشر فى بيروت محققا ، تحقيق أحمد فائز الحمصى .

- الترجمان المترجم بمنتهى الأرب فى لغة الترك والعجم والعرب .
- فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .
- برهان الفارض بقول المعارض[٢٨] .

وإلى جانب مترجماته الشعرية والنثرية ، له شعر كثير جدا ، على حد تعبير شمس الدين السخاوى .. وله أيضا منظومات أو مطولات شعرية تعليمية كثيرة منها :

- منظومة جلوة الأمداح الجمالية فى حلتيْ العروض والعربية .
- منظومة العقد الفريد فى علم التوحيد .
- منظومات أخرى فى علم النحو ، وعلم الصرف .. وغيرهما .
- وعقيدة النصيحة فى تاريخ بعض رجالات عصره ، وشرحها فى مجلدة .

ومن اللافت للنظر أن منظوماته التعليمية قد اتخذت إطاراً غزليا ، حيث نظمها "بطريقة الغزل" حتى يحدّ من جفاف المادة العلمية أو برودة النظم التعليمى . وكتابه المنظوم : مرآة الأدب فى علميْ المعانى والبيان (والبديع) تقع فى نحو ألفيْ بيت يقول السخاوى : "وسلك فيه أسلوباً بديعا نظم فيه التلخيص ، عَمَلَهُ قصائد غزلية ، كل باب منها قصيدة مفردة ، على قافية أشار إليها شيخنا بقوله : وأوقفني على منظومة فى المعانى والبيان أجاد نظمها ، وجعل كل باب قصيدة مستقلة غزلا ، يؤخذ منه مقصد ذلك الباب " .

[١٢] شكر ووفاء

ثمة كلمة حق ووفاء ينبغى أن تقدم الى الاستاذ الدكتور عبدالله أحمد المهنا الرجل والعالِم الذى فتح أمامي نافذة الأدب المملوكى على مصراعيها ، فكانت

---

[٢٨] انظر : هداية العارفين ١ : ١٣٠ .

دراساتى المتعددة فى الأدب المملوكى بشقيه الشعبى والرسمى ، الشفاهى والمدون .. ومنها هذا الكتاب .. ومن ثم فسوف يبقى هذا الفضل العلمى دينا فى عنقى له مدى الحياة .

وثمة كلمة شكر .. كل الشكر ، إلى زوجتى الفاضلة التى لولا صبرها الطويل وتشجيعها المتواصل ما ظهر هذا الكتاب فى هذه الفترة الوجيزة .

وأخيرا ، يبقى القلم عاجزاً عن الشكر للابن العزيز محمد مصطفى خضر الذى قام بكتابة هذا الكتاب ثلاث مرات على الحاسب الآلى ، مرة لفك طلاسم النسخ المطبوعة والمخطوطة ، ومرة للضبط الصرفى والنحوى ، ومرة للشرح والتفسير .. باذلاً فى ذلك أقصى جهده حتى يرى الكتاب النور خاليا من الأخطاء الطباعية ما أمكن ، جزاه الله خيراً عن العلم والعلماء .

والحمد لله من قبل ومن بعد

محمد رجب النجار

الكويت فى ١٩٩٧/٦/١٦

خطبة الكتاب

الحمد لله الذى شهدت الكائنات بوجوده ، وشمل الموجودات عميم كرمه وجوده ، ونطقت الجمادات بقدرته ، وأعربت العجماوات عن حكمته ، وتخاطبت الحيوانات بلطيف صنعته ، وتناغت الأطيار بتوحيده ، وتلاغت وحوش القفار بتفريده ، كلٌّ باذلٌ جهدَه ، وإنْ من شَىْءٍ إلا يُسَبِّحُ بحمده ، بل المكان ومَنْ فيه والزمان ، وما يحويه من نامٍ وجامِد ، ومشهودٍ وشاهد ؛ تشهدُ بأنه إلهٌ واحد ، منزهٌ عن الشريكِ والمعاند ، مقدّسٌ عن الزوجة والولدِ والوالد ، مبرأً عن المعاندِ والمنادد[1] ، مسبحٌ بأصنافِ المحامد . **أحمده** حمدا تنطق به الشعورُ والجوارح ، وأشكره شكراً يصيدُ نعمَه صيْدَ المصيدِ بالجوارح . **وأشهد** أن لا إلهَ إلا الله وحدَه لاشريك له ، ربٌّ أودع أسرارَ ربوبيته فى بَرِيَّتِهِ[2] ، وأظهر أنوارَ صمديته[3] ، فى جوانى[4] بحره وبَرِّيته[5] ، فبعضٌ يعربُ بلسانِ قاله[6] ، وبعضٌ يعرُب بلسانِ حاله ، وتسبحه السمواتُ بأطيطِها والأرضُ بغطيطِها[7] ، والأبحرُ بخريرِها ، والأُسْدُ بزئيرِها ، والحمامُ بهديرِها ، والطيرُ بتغريدِها ، والرياحُ بهبوبِها ، والبهائمُ

---

(1) المخالف

(2) الخَلْق

(3) صمد : ثبت وصمد إليه : قصده . والصمد : المقصود لقضاء الحاجات ، واسم من أسماء الله تعالى .

(4) الظلمات (والأنوار)

(5) البر ، الأرض

(6) القول

(7) أطّ وغطّ : صوّت .

بهبيبها[٨] ، والهوامُّ بكشيشِها[٩] ، والقدورُ بنشيشِها[١٠] ، والخيلُ بضَبْحِها[١١] ، والكلابُ بنبحِها ، والأقلامُ بصريرِها[١٢] ، والنيرانُ بزفيرِها ، والرعودُ بعجيجها[١٣] ، والبغالُ بشحيجها[١٤] ، والأنعامُ برغائِها[١٥] ، والذبابُ بطنينها ، والقسيّ برنينها[١٦] ، والنياقُ بحنينها[١٧] . كلٌّ قد علم صلاتَه وتسبيحَه ، ولازم فى ذلك غَبوقَه وصَبوحَه[١٨] ، وعمّروا بذلك أجسادَهم وأرواحَهم ، ولكن لا تفقهون تسبيحَهم . **وأشهد** أن سيدَّنا محمداً عبدهُ ورسولُه ، الذى مَنْ صَدَّقه تم سولُه[١٩] ، أفضل مَنْ بعث بالرسالة ، وشملت عليه الغزالة ، وكلّمه الحجر ، وآمن به المدَر ، وانشقَّ له القمر ، ولَبَّتْ دعوتَه الشجر ، واستجار به الجمل ، وشكا إليه شدّةَ العمَل ، وحنّ إليه الجذْع ، ودَرّ عليه يابسُ الضرْع ، وسبّحت فى كَفِّه الحصْباء[٢٠] ، ونبع من بين أصابعه الماء ، وصدّقه ضبُّ البريّة ، وخاطبتْه الشاةُ المصليّة ، صلى الله عليه صلاةً تنطقُ بالإخلاص ، وتسعَى لقائِلها بالخلاص ، وعلى

---

[٨] بصياحها وهياجها (للضراب)

[٩] كش كشيشا : صوّت .

[١٠] صوت الغليان .

[١١] ضبح الخيل : صوت أنفاسها فى جوفها حين العدو .

[١٢] صوت القلم (من البوص) عند الكتابة .

[١٣] صوت الرعد .

[١٤] صوتها الغليظ .

[١٥] ضجيجها .

[١٦] صوت القوس عند إنباضها .

[١٧] حنّت الناقة : مدت صوتها شوقا إلى ولدها .

[١٨] صباحه ومساءه ، والأصل فى الصبوح مايُشرب أو يؤكل فى الصباح . وهو خلاف الغبوق .

[١٩] السول والسؤل : ما سألته .

[٢٠] صغار الحجارة .

آله أُسُود المعارك ، وأصحابه شموس المسالك ، وسلّم تسليما ، وزاده شرفاً وتعظيما .

أما بعد فإنَّ الله المُقدَّسَ في ذاتِه ، المُـنَزَّه عن سماتِ النقصِ في صفاته ، قد أودع في كلّ ذرةٍ من مخلوقاته ، من بديع صُنْعِه ولطيفِ آياته ، ومن الحكَم والعبَر ، ما لا يدركُه البصَر ، ولا تكادُ تهتدى إليه الفِكَر ، ولا يصلُ إليه فَهْمُ ذوى النظر ، ولكن بعض ذلك للبصر بالرصد ، ظاهر يدركُه كلُّ أحد . قال الله تعالى ، وجلّ ثناؤه جلالا ﴿وفى الأرض آياتٌ للمُوقِنين ، وَفى أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُون﴾[٢١] . وقال تعالى ﴿سَنُرِيهِم آياتِنا فى الآفاق﴾[٢٢] وقال عَزّ من قائل ، فى كلامه الطائل ﴿إنَّ فى خَلْقِ السمواتِ والأرضِ واختلافِ اللّيل والنهارِ والفُلْكِ التى تجرِى فى البحْرِ بما يَنْفَعُ الناسَ وما أَنزَلَ الله من السماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا به الأَرضَ بعد مَوْتِها وَبَثَّ فيها مِنْ كلِّ دابةٍ وتَصْرِيفِ الرياحِ والسّحابِ المُسَخّرِ بيْنَ السّماءِ والأرْضِ لآياتٍ لِقَوْمٍ يعقلون﴾[٢٣] . وقال الشاعر :

ففى كلِّ شىْءٍ لـه آيـةٌ تـدلُّ على أنّـه واحـد

لكن لما كثرت هذه الآياتُ والحِكَم ، وانتشرتْ أزهارُ رياضِها فى وِهَادِ العُقُولِ والأُكَم[٢٤] ، وترادفَ مافيها من العجائبِ والعِبَر ، وتكرّر ورودُ مراسيمِها على رعايا السمعِ والبصر ، وعادتْها النفوس ، ولم يكثرتْ بوقوعِها القلبُ الشَّمُوس[٢٥] ، ولم يستهجنْ مِن وجودِها ، ولم يَلْتَفِتَنّ إلى حدودِها ، فكثُر فى

---

[٢١] قرآن كريم ، سورة الذاريات : ٢١ .

[٢٢] سورة فصلت : ٥٣ .

[٢٣] سورة البقرة : ١٦٤ .

[٢٤] يعنى : فى الأراضى المنخفضة للتلال والحصون .

[٢٥] النفور .

ذلك أقوالُ الحكماء ، وتكررتْ مقالاتُ العلماء ، فلم تصْغ الأسماعُ إليها ، ولاعَوَّلَتْ الأفكارُ عليها ، فقصد طائفةٌ من الأذكياء ، وجماعةٌ من حكماءِ العلماء ، مِمَّنْ يعلمُ طُرُقَ المسالك ، إبرازَ شيءٍ من ذلك ، على ألْسِنَةِ الوحوش ، وسكان الجبال والعروش ، وماهو غيرُ مألوفِ الطباع ، من البهائمِ والسّباع ، وأصنافِ الأطيار ، وحيتانِ البحار ، وسائرِ الهوام ، فيسندون إليها الكلام ، لتميلَ لسماعِهِ الأسْماع ، وترغبَ في مطالعتِه الطباع ، لأن الوحوشَ والبهائم ، والهوامَّ والسوائم ، غيرُ معتادةٍ لشيْءٍ من الحكمه ، ولا يُسْنَدُ إليها أدبٌ ولا فطنة ، بل ولا معرفةٌ ولا تعريف ، ولا قولٌ ولا فعلٌ ولا تكليف ، لأنّ طبعَها الشِّماس[٢٦] ، والأذى والافتراس ، والإفسادُ والنفور ، والعدوانُ والشرور ، والكسرُ والتفريق ، والنهشُ والتمزيق .

فإذا أُسند إليها مكارمُ الأخلاق ، وأُخبر بأنها تعاملتْ فيما بينها بموجب العقْلِ والوفاق ، وَسَلَكَتْ - وهى مجبولةٌ على الخيانةِ - سُبُلَ الوفاء ، ولازَمَتْ - وهي مطبوعةٌ على الكدورةِ - طُرُقَ الصّفاء ، أصْغَتِ الآذانُ إلى استماعِ أخبارِها ، ومالت الطباعُ إلى استكشافِ آثارِها ، وتَلَقَتْها القلوبُ بالقبول ، والصدورُ بالانشراح ، والبصائرُ بالاستبصار ، والأرواحُ بالارتياح ، لكونها أخباراً منسوجةً على منوالٍ عجيب[٢٧] ، وآثاراً أُسْدِيَتْ لُحْمَتُها فى صنعٍ بديعٍ غريب ، ولاسِيَّمَا الملوكُ والأمراء ، وأربابُ العدلِ والرؤساء ، والسادةُ والكبراء ، وأبناء الترفّه والنعم ، وذوو المكارمِ والكَرَم ، إذا قَرَعَ سمعَهم قولُ القائل : صار البغل قاضيا ، والنمرُ طائعاً لا عاصيا ، والقردُ رئيسَ المَمَالِك ، والثعلبُ وزيراً لذلك ، والدبُّ

---

[٢٦] الجموح والعدوان .

[٢٧] يعنى منسوجة على لسان الحيوان (قصص الحيوان الرمزى) .

مؤرخاً أديبا ، والحمارُ منجماً طبيبا ، والكلبُ كريما ، والحجلُ نديما ، والغرابُ دليلا ، والعقابُ خليلا ، والحدأةُ صاحبةَ الأمانة ، والفأرةُ كاتبةَ الخزانة ، والحيةُ راقية ، والبومةُ ساقية ، وضَحِكَ النِّمِرُ متواضعا ، وغدا الأسدُ لإرشاد الذئبِ سامعا ، ورقص الغزالُ فى عرسِ القنفد ، وغَنَّى الجِدْيُ فطرب الجدجد[٢٨] ، وتصادقَ القطُّ والجرْذان[٢٩] ، وصار السرحانُ[٣٠] راعى الضان ، وعانق اللّيثُ الحَمل ، والذئبُ الجَمل ، ورفع الباشقُ[٣١] الحمامةَ على رقبته وحَمَل ، ارتاحت لذلك نفوسُهم ، وزال عبوسُهم ، وانشرحت خواطرُهم ، وسرت سرائرُهم ، وأصغت إليه أسماعُهم ، ومالتْ إليه طباعُهم ، وأدّى طَيْشُهم إلى أن طاب عَيْشُهم .

ولكنْ أهلُ السعادة ، وأربابُ السيادة ، ومَنْ هو مُتَصَدٌ لفصلِ الحكومات ، والذى رَفَعَهُ اللهُ الدرجات ، فانتصبَ لإغاثةِ الملهوفين ، وخلاصِ المظلومين من الظالمين ، والمتنبِّهون – بتوفيق الله تعالى – لدقائقِ الأمور ، وحقائقِ ماتجرى به الدُّهور ، إذا تأملوا فى لطائف الحكَم ، والفرائدِ التى أودعتْ فى هذا الكَلِم ، ثم تفكروا فى نُكَتِ[٣٢] العِبَر ، وصفاتِ العدلِ والسير ، والأخلاقِ الحسنة ، والقضايا المستحسنة ، المسندةِ إلى ما لا يعقلُ ولا يفهم ، وهم من أهلِ القوْلِ الذى يشرَّف به الإنسانُ ويُكْرَم ، يزدادون مع ذلك بصيرة ، ويسلكون بها الطُّرُقَ المنيرة ، فتتوفَّرُ مسرَّاتُهم ، وتتضاعفُ لَذَّاتُهم ، وربما أدى بهم فِكْرُهم ، وانتهى بهم فى أنفسهم أمرُهم ، أنَّ مِثْلَ هذه الحيوانات ، مع كَوْنِها عجْماوات ، إذا اتّصفت بهذه

---

[٢٨] الجدجد : طائر صغير يشبه الجراد .

[٢٩] الكبير من الفئران .

[٣٠] الذئب .

[٣١] نوع من جنس البازى ، من فصيلة العُقاب النسرية ، وهو من الجوارح ، يشبه الصقر .

[٣٢] جمع نكتة ، وهى الفكرة اللطيفة المؤثرة فى النفس ، أو الغاية الخفية ، يتوصل إليها بدقة وإنعام فكر .

الصفَة ، وهى غيرُ مُكَلَّفة ، وصدر منها مثلُ هذه الأمورِ الغريبة ، والقضايا الحسنةِ العجيبة ، فنحن أَوْلَى بذلك ، فَيَسْلكون تلك المسَالِك .

وقد ضَرَبَ الله ذو الجلال ، فى كلامِه العزيزِ الأمثال ، فقال : ﴿مَثَلُ الذينَ اتّخذوا مِن دونِ الله أَوْلياءَ كَمَثَلِ العنكبوتِ اتخذتْ بيتاً وإنَّ أَوْهَنَ البيوتِ لَبَيْتُ العنكبوتِ لَوْ كانوا يَعْلَمون﴾[٣٣] . وقال سبحانه بعد ذلك : ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا للنّاسِ وَمَا يَعْقِلُها إلاّ العالِمون﴾[٣٤] . وقال سبحانه ما أعظمَ شَانه : ﴿ياأَيُّها النّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فاستَمِعوا له إنَّ الذين تدْعُون مِنْ دونِ الله لَنْ يَخلُقُوا ذُبابا ولَوِ اجتمعوا له وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شيئاً لا يَسْتنقِذوه منه ، ضَعُفَ الطالبُ والمطلوب﴾[٣٥] وقال تعالى : ﴿إنَّ الله لايَسْتَحْيِى أَنْ يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فما فوقَها﴾[٣٦] . وقال تعالى : ﴿وأَوْحَى ربُّك إلى النحْلِ أن اتّخِذِى من الجبالِ بيوتاً ومِنَ الشجرِ ومّما يعرشون . ثم كُلِى مِنْ كُلِّ الثمراتِ فاسْلُكى سُبُلَ ربِّك ذُلُلاً يخرجُ من بطونها شرابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوانه فيه شِفاءٌ للناسِ إنَّ فى ذلك لآيةً لقومٍ يتفكّرون﴾[٣٧] . وقال تعالى : ﴿إنّا عَرَضْنا الأمانةَ على السمواتِ والأرضِ والجبالِ فأَبَيْنَ أَنْ يحمِلْنها وأشفَقْنَ منها وحَمَلَها الإنسانُ إنّه كان ظَلُوماً جَهُولا﴾[٣٨] . وقال تعالى : ﴿ثم استَوى إلى السماءِ وهِىَ دُخَانٌ فقال لها وللأرضِ ائْتيا طَوْعاً أو كَرْهاً قالتَا أَتَيْنَا طائِعِين﴾[٣٩] .

---

[٣٣] قرآن كريم ، سورة العنكبوت : ٤١ .

[٣٤] قرآن كريم ، سورة العنكبوت : ٤٣ .

[٣٥] قرآن كريم ، سورة الحج : ٧٣ .

[٣٦] قرآن كريم ، سورة البقرة : ٢٦ .

[٣٧] قرآن كريم ، سورة النحل : ٦٨ .

[٣٨] قرآن كريم ، سورة الأحزاب : ٧٢ .

[٣٩] قرآن كريم ، سورة فصلت : ١١ .

أسند سبحانه وتعالى الأفعالَ والأقوالَ إلى الجماداتِ بعدما وَجَّهَ الخطابَ إليها .
وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ له مَنْ فى السمواتِ ومَنْ فى الأرضِ والشمسُ والقمرُ والنجومُ والجبالُ والشجرُ والدوابُّ وكثيرٌ من الناس وكثيرٌ حَقَّ عليه العذابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَالَهُ مِنْ مُكْرِمٍ﴾[٤٠] . وكُلُّ ما جاء فى هذه الطريقة ، فإنه بالنسبة إليه تعالى حقيقة ، لأنه قادرٌ على كلِّ شيّ ، وسواء عنده الميّتُ والحيّ ، ولافرقَ فى كمالِ قدرتهِ بالنظرِ إلى قدرتهِ ومشيئته ، وتصويرِ كمالِ عظمتهِ وهيبته ، بَيْنَ الناطقِ والصّامِت ، والنامى والجامد ، والشاهدِ والغائب ، والآتى والذاهب ، كما لا فرقَ فى هذا الكمال ، بين الماضى والاستقبال ، وقال تعالى : ﴿فَمَا بَكَتْ عليهم السماءُ والأرضُ﴾[٤١] . وقال : ﴿فَوَجَدَا فيها جداراً يريدُ أَنْ يَنْقَضَّ﴾[٤٢] . وقال تعالى : ﴿قالتْ نَمْلَةٌ يأيُّها النمْلُ ادْخلوا مَسَاكِنَكُمْ﴾[٤٣] . وقال فى الهدهد : ﴿فَقَالَ أَحَطتُ بما لَمْ تُحِطْ به﴾[٤٤] . وقال الشاعر :

* ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب *

وقالت العربُ فى أمثالها : " قال الجدارُ للوتدِ لِمَ تشقُّنى ؟ قال : سَلْ مَنْ يدقّنى ، قل لمن ورائى يتركنى ورائى" . وقالوا : "أكرم من الأسد" ، ومن أشهر أمثالهم قالوا : "إن الأرنبَ التقطتْ تمرةً ، فاختلسها الثعلبُ فأكلَها ، فانطلقا إلى الضبِّ ، فقالت الأرنب : يا أبا الحُصَيْن . قال : سميعاً دعوتِ . قالتْ : أتيناك لنختصمَ إليكَ قال : عادلاً حكّمْتُما قالتْ : اخرجْ إلينا . قال : فى بيته يُؤتَى

[٤٠] قرآن كريم ، سورة الحج : ١٨ .
[٤١] قرآن كريم ، سورة الدخان : ٢٩ .
[٤٢] قرآن كريم ، سورة الكهف : ٧٧ .
[٤٣] قرآن كريم ، سورة النمل : ١٨ .
[٤٤] قرآن كريم ، سورة النمل : ٢٢ .

الحَكَم . قالت : إنى وجدتُ تمرةً . قال : حلوة فكُليها . قالتْ : فاختلسها منى الثعلبُ . قال : لنفسِه بغَى الخيرَ . قالتْ : فلطمتُه . قال : بحقِّكِ أخذتِ . قالتْ : فلطمنى . قال : حُرٌّ انتصرَ لنفسِه . قالت : فاقْضِ بيننا . قال : قد قَضَيْتُ . فذهبتْ هذه الأقوالُ كلُّها أمثالا . وقالوا : تَحَكَّكَتْ العقربُ بالأفعى[٤٥] . وقال الشاعر :

قام الحَمَامُ إلى البازِى يُهَدِّدُهُ ... واسْتَصْرَخَتْ بأسُودِ البرِّ اضْبُعُهُ

وهذا أمرُه مستفيضٌ مشهور ، معروفٌ بين الأنامِ غيرُ منكور . والحصر فى هذا المعنى يتعسّر ، والاستقصاء يتعذّر ، وإنما الأَوْفَقُ التمثيلُ والتنظير ، والاستدلالُ بالقليلِ على الكثير ، فَيَتَفَكَّه السامعُ تارةً ويتفكّرُ أخرى ، ويتنقّلُ فى ذلك من الأخفَى إلى الأجلَى ، ويتوصلُ بالتأمّل فى معانيه من الأدنى إلى الأعلى . ومن جملة ما صنف فى ذلك ، واشتهر فيما هنالك ، وفاق على نظائرِه بمخبرِه ومنظرِه وحاز فنونَ الفطنة : **كليلة ودمْنة** ، والمتمثّلُ بحكمة الطباع كتاب **سلوان المطاع** ، والمفحِمُ بنظمِه العجيب ، كلَّ شاعرٍ وأديب ، معجزُ الضراغم **الصادح والباغم** . وفى غيرِ لسانِ العرب ، ممن يتعاطى فَنَّ الأدب ، جماعة رضعوا أفاويقَه ، وسلكوا من هذا النمط طريقَه ، لكنْ تَقَادَمَ عصرُهم ، واشتُهر أمرُهم ، وتكرَّر ذكرُهم ، وصارت مصنفاتُهم مطروقه ، وعتاقُ نجائبها فى ميدانِ التأملِ عتيقه ، فَفَلَذْتُ[٤٦] من دهرى فِلْذَةً ، وعَمِلْتُ بموجب : لكلِّ جديدٍ لذة ، وسَيَّرْتُ فارسَ الأفكار ، فى ميدانِ هذا المضْمار ، وقصدتُ من الفائدةِ ما قصدوه ، ومن العائدةِ فى الدارَيْن ما رصدوه ، وجمعتُ ما بلغنى عن نَقَلَةِ الأخبارِ ، وَحَمَلَةِ الآثار ، ورُوَاةِ الأسفار ،

---

[٤٥] مثل يقال لِمَنْ ينازع مَنْ هو أقدر منه .

[٤٦] فلذت فلذة : اقتطعت قطعة أو جزءاً من الزمن لتأليف هذا الكتاب .

على لسانِ شيخِ اللطائف ، ومنبعِ المعارف ، وإمـامِ الطوائـف ، ومجمّـعِ العـوارف ، ذى الفضلِ والإحسان أبى المحاسن حسـان ، ووضعـت هـذا الكتـاب ، نزهـة لبنـى الآداب ، وعمدةً لأولى الألباب ، من الملوكِ والنوّاب ، والأمراءِ والحجّاب ، وجعلتُه عشرةَ أبواب ، ومن اللهِ أستمدُّ الصواب ، وأستغفرُه من الخطـأ فـى الجـواب ، إنـه رحيمٌ توّاب ، كريمٌ وهّاب ، وسميتُه :

فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء .

فـإنْ يَفِضْ بحرُ علْمى تُهْـدَ منه على	درٌ ينير عيونَ العقلِ فى السَّـدَفِ[٤٧]
البسـتُـه من خلاعات النُّهى خِلَـعـاً	وربما ازدان عِقْـدُ الـدُّرّ بالخـــزف
والفضـلُ يحتاجُ فى ترويـجِ سلعتِـه	إلى الخرافـــةِ والمعقـولِ للخـــرف
فَـاعْبُرْ إلى البحـرِ تَجْنِ الدُّرَّ منه ولا	يلهيـــك عـن دُرِّه أضحوكةُ الصدف

*   *   *

البـــاب الأول : فـى ذكـرِ ملكِ العرب ، الذى كان لوضعِ هذا الكتابِ السببِ .

البـــاب الثانى : فى وصايا ملكِ العجمِ ، المتميز عن أقرانه بالفضلِ والحكَم .

البـــاب الثالث : فى حكم ملكِ الأتراك ، مع ختنه الزاهدِ شيخِ النساك .

البـــاب الرابع : فى مباحث عالمِ الإنسان ، مع العفريت جان الجان .

الباب الخامس : فى نـوادرِ ملكِ السباع ، ونديميه أميرِ الثعالب وكبيرِ الضبـاع .

الباب السادس : فى نوادر التيسِ المشرقي ، والكلب الأفْرَقيّ .

---

[٤٧] ظلمة الجهل .

الباب السابع : فى ذكر القتالِ بين أبى الأبطالِ الرئبال ،.وأبى دغفلٍ سلطا الأفيال.

الباب الثامن : فى حكم الأسدِ الزاهد ، وأمثالِ الجملِ الشارد .

الباب التاسع : فى ذكر ملك الطير العُقَاب ، والحجلتين الناجيتين من العِقاب .

الباب العاشر : فى معاملة الأعداء والأصحاب وسياسة الرعايا والأحباب ، ونكت وأخبار وتواريخِ أخيارٍ وأشرار .

الباب الأول

في ذكر ملك العرب
الذي كان لوضع هذا الكتاب السبب

قال الشيخُ أبو المحاسن[1] : بلغني عن ذي فضلٍ غيرِ آسن ، إنه كان فيما غَبَرَ من الزمان ، قَيْلٌ[2] من الأقْيال ، غزيرُ الأفْضال ، عزيزُ الأمثال ، وارثُ المعارف ، حائزُ الفضائلِ واللطائف ، وافرُ السيادة ، كاملُ السعادة ، ذو حكم مطاع ، وجندٍ وأتباع ، وممالكَ واسعة ، ذاتِ أطرافٍ شاسعة ، تحت أوامِرِه ملوكٌ عدّة ، ذو سَطْواتٍ ونَجْدَة ، وله من الأولادِ الذكور ، خمسةُ أنفارٍ كلٌّ بالسيادةِ مذكور ، وبالعلْم والحلْم والحكْم مشهور ، ومشكور ، مُتَوَشّحٌ للسلطنة ، مُتَوَلٌّ من الدهِ مكاناً من الأمْكِنة . وكان أسعدُهم عند أبيه – وهو متميزٌ على إخوته وذويه ، شمسيُّ المنظر ، إياسيُّ المخبر – ذا فهم مصيب ، واسمه في فضله " حسيب " ، قد حصَّل أنواعا من العلوم ، وأدركهما من طريقَيْ المنطوقِ والمفهوم ، وكان لهذا الفضلِ الجسيم ، يدعى بين الصغيرِ والكبيرِ الحكيم ، فلما دعا أباهم داعي الرحيل ، وَعَكَمَ[3] إلى دارِ البقاءِ أجمالَ التحميل ، استولى على السريرِ[4] أكبرُ أولادِه ، وأطاعه إخوتُه ورؤوسُ أمرائِه وأجنادِه ، وصار السعدُ يراقبُه ، والمُلْكُ بلسانِ الحالِ يخاطبُه :

---

[1] شخصية خيالية تقوم هنا بدور الراوية ، أو السارد الضمني .

[2] القيل : لقب يطلق على الملك من ملوك اليمن في الجاهلية ، دون الملك الأعظم ، والجمع أقيال .

[3] عكم : شدّ .

[4] العرش .

نجومُ سماءٍ كلّما انقضَّ كوكبٌ		بـدا كوكبٌ تأوِى إليه كواكبُ

واستمرّ إخوتُه فى خدمته ، مغتنمين أيادِي طاعتِه ، رافلينَ فى خِلَعِ مَحَبَّتِه ومودَّتِه ، ومضى على ذلك برهة ، وهم فى أرغدِ عيشٍ ونُزْهَة . ثـم إنّـه حصـل فـى خواطرِ الإخوة ، ماخطر فى خواطرِ الألداءِ من الجفْوَة ، وقلوبِ الحسّادِ من الصدِّ والنّبْـوَة ، فداخلتْهم النفاسَة ، وطلبوا كأخيهم الرياسَة ، فقلبوا لأخيهم ظهرَ المِجَنّ[5] ، وأظهر كلٌّ ما أَكْمَن ، وقال فيه ما أَجَنّ ، وأراد شقَّ العصا ، وأنْ يُشْهَرَ عنـه أنّهُ عصى . غير أنّ أخاهم الحكيم ، تفكّرَ فى هذا الأمرِ الوخيم ، وأمْعَنَ فيـه النَّظَـر ، وسـاورتْهُ الوسَاوسُ والفِكَر ، فإنّـه وإنْ كان أَغْزَرَهُمْ ذكاء ، وأَوْفَرَهُمْ وفـاء ، فهـو أصغرُهـم عمْرا ، وأحقرُهم قَدرا ، لا طاقة لـه علـى الاستبداد ، ولا أن ينحـازَ إلى أحـد مـن ذوى العناد ، إذْ الانحيازُ إلى أحدِهم ترجيحٌ بلا مرجّح ، وتصحيـحٌ لأحـدِ التـأويلَيْن بـلا مصحّـح . فَـأَدّاهُ اجْتهـادُه إلى الانخـذال ، وتقليـد مذهـبِ الاعـتزال ، والقـولِ بوجوبِ رعايةِ الأصلح ، ومَنْ أمْكَنَهُ العزْلة ، خصوصاً فى زمنِ الفتْنة ، فقد أفلـح . فـأخَذَ يُفكّـر فـى تعـاطى أسبابِ الخـلاص ، وكيفيّـة التفصّى[6] مـن عُهْـدةِ هـذا الاقتصاص ، واستنهضَ الفكرةَ الحائرة ، لِتَطْفَرَ به من سَوْرِ[7] هذه الدائرة ، وتـأخذَ به على جهةٍ واحدة ، إلى أنْ ينجلى غُبـارُ هـذه المنـاكدة ، ثـم اتّبـع الكُـتّاب ، فـى مشاورةِ الأصحاب ، فاستشار ثقةً من أهل المقة[8] ، وعَرَضَ عليـه العُزْلَـة ، وكيـف يتمكنُ من هذه النعمةِ الجزلة ، فقال له بعد أنْ استَصْوَبَ رايه ، طريـقُ التوصُّـل إلى الانفراد ياذا الدراية ، أنْ تستأذِن فى تـأليفِ تصنيـف ، وترصيـفِ تـأليف ، يشـتملُ

[5] المجن : الترس .. ويقال : قلب له ظهر المجن أى عاداه بعد مودّة ، وطرح الحياء ، وفعل ما شاء .
[6] الخروج – التخلّص .
[7] الغضب – المأزق .
[8] أهلُ المقة : أصحاب الرأى الحاسم ، الواضح والمستنير ، والمحبين بغير غرض .

على فنونٍ من الحكمة ، وأنواعٍ من دقائقِ الأدبِ والفطنة ، ولطائفِ التهذيبِ وأخلاقِ العباد ، ويكونُ عوناً على اكتسابِ مصالحِ المعاشِ والمعاد ، وتَتَوَفَّرُ به مكارمُ الأخلاقِ والشيم ، وعوالى تهذيبِ النفسِ وظرائفِ الفضلِ والحكَم ، فيظهرُ بذلك غزارةُ علْمكَ ، ويشتهرُ بين الخاصِّ والعامِّ نباهةُ فضلِكَ وحلْمِك ، ولا يقفُ أحدٌ فى طريقِكَ ، ولا يقدرُ أحدٌ أنْ يتصدَّى لتعويقِك . ويحصُلُ بذلك فوائدُ جَمَّة ، أدناها الخلاصُ من ورطةِ هذه الغُمَّة[٩] ، إلى أنْ ينجلى دُجَاها ، وتتجلَّى شمسُ الاستقامةِ وضُحَاها .

فاستقر رأيُ الحكيم حسيب ، على العملِ بهذا الرأي المُصيب ، ثم تَوَكَّلَ على الله واعتمدَه ، وتوجَّه إلى ما قَصَدَه . ودخل غيرَ مرتبكٍ على المَلِك ، وقبَّل الأرْض ، ووقفَ فى مقامِ العرْض ، وذكرَ ما عزمَ عليْه ، أو توَجَّهَ قصدُه إليْه ، بعبارةٍ رقيقة ، وألفاظٍ رشيقة ، فتأمَّلَ المِلكُ فى خِطابه ، وتوقَّفَ فى جوابه ، وكان للمَلِكِ وزير ، ذو فضلٍ غزير ، فى غايةِ الحصافة ، والمعرفةِ والظرافة ؛ إنْ لَطُفَ[١٠] كان رافة[١١] ، وإنْ كَثُفَ[١٢] كان آفة ، بعيد الغور ، إنْ رفَعَ أبلغَ إلى الثُّرَيَّا وإنْ وضَع أنزل إلى الثَّوْر ، بينَه وبينَ الحكيم ، من سالفِ العهدِ القديم ، عداوةٌ مؤكّدة ، وشِدّةٌ مؤبّدة ، وتَحاسُدُ الأَكْفَاءِ غلّ قمل[١٣] ، وعداوةُ النُّظَراءِ جُرْحٌ لا يندَمِل ، فبلغَه ما أنْهى الحكيم ، إلى مسامع الملك الكريم ، فتَصَدّى للمعارَضة ، وتَهَيّأَ

---

[٩] الغمة : الغَمّ ، يقال أمر غمة : مُبْهم ملتبس ، وإنه لفى غمة من أمره : إذا لم يهتد للمخرج .

[١٠] تعاطف ورقة قلبه .

[١١] رافة مخفف رأفة .

[١٢] كثف : غلظ وحقد .

[١٣] الغل (بكسر الغين) : الحقد والحسد والعداوة الكامنة . وبفتح الغين : القيد . والعبارة تشير إلى ضراوة الحقد وشدّة الحسد .

للمُعَاكَسَةِ والمناقضَة ، وأقبلَ يرفلُ فى ثوبِ المكْر ، وقد شدّ دهاءَ الختلِ والخَتْر[١٤] ، حتى وقفَ فى مقامه ، واستطردَ إلى قضيةِ الحكيمِ فى كلامِه ، فأجْرى الملكُ كلامَ أخيه ، واستشارَ الوزيرَ فيه ، فاغتنمَ الفُرْصَة ، وأرادَ إلقاءَه فى غُصَّة ، بإيرادِ مَثَلٍ قَصَدَ به إيذاءه وَقَصّه . ثم قال : أمّا ما قصدَه الحكيمُ من العزلةِ فهو رأيٌ قويم ، وفكرٌ مستقيم ، لأنَّ الأعداءَ إذا تفرّقوا تشقّقوا ومتى قلّوا ذلّوا ، وقد قيل :

وما بكثيرٍ ألفُ خِلٍّ وصاحبٍ وإنّ عدواً واحداً لَكثيرُ

وإذا نقصَ مِنْ أعداءِ الملِكِ واحد ، سيّما مِثْل اللئيم ، حسيب الحكيم ، فهى نعمةٌ طائِلة ، وسعادةٌ واصِلة ، ودولةٌ مُستَصْحبة ، وكما قيل نعمةٌ غير مُتَرَقّبَة ، ويتوصّل من ذلك إلى تشتيتِ أمرِهم الحالك وتصارمِ أقوالِهم ، وتخالفِ أحوالِهم ، واضطرابِ رأيِهم وأفعالِهم ، وقد قيل :

وتشتُت الأعداءِ فى آرائهم سببٌ لجمعِ خواطرِ الأحباب

وأمّا قَصْدُه وَضْع الكِتَاب ، فإنّه خطأٌ لاصواب ، وتعبيرُه بأنّ فيه فوائدَ وحِكَما ، وأقوالَ العلماءِ والحُكَمَا ، وأنْ يرفعَ به للعلمِ عَلَما ، فإنّه مَكْرٌ وخديعة ، من سوءِ السريرةِ وخُبْثِ الطبيعَة ، يريدُ أنْ يَستُرَ جَهْلَه ، وأنْ يُظْهِرَ على فضلِ الملِكِ فَضْلَه ، ويَشْتَمِل بذلك الوِسْواس ، على قلوبِ الناس ، فتنصرِف الوجوهُ إليْه ، وتُقْبِل الرعايا عليْه . ولكن يامولانا الملِك ، لا تمنعْ ذلك المنهَمِك ، وأجِبْهُ إلى ما سأل ، وطَالِبْه ابما بذل ، وألزِمْه بالانفراد ، ودَعْه وما أراد ، فإنْ عَدَمَ اجتماعِهِ بالناس ، لنا فيه أمنٌ من الياس ، فيشْتغل حينئذٍ بنفسِه ، ويتقلّب فى طردِه وعكسِه . وأسأل مولانا السلطان ، ذا الأيادى والإحسان ، قبل الإذنِ له ، وشروعِه فى المسألة ، أنْ يجمعَ بينى وبينه ، لأُبيِّنَ شينَه وزيْنه ، وأُظْهِرَ لمولانا السلطانِ زورَه

---

[١٤] الختل والختر : الخداع والمكر

ومَيْنَه ، فيتحقّق دسائسه ، وما بنى عليه وساوسَه ، وأدّى إليه فِكْرُه ، ووصل إليه خداعُه ومَكْره ، فعندَ ذلك يصدرُ أمرُهُ الشريف ، بما يقضيه رأيُه المنيف . فأجابهَ إلى سؤالِه ، وأمرَ طائفةً من رجاله ، فَسيَّرهم إلى الآفاق ، بمراسيمَ جَمَعَها الاتفاق ، إلى رؤساءِ مملكتِه ، وكبراءِ دولتِه ، فاستدْعى العلماء ، وذوى الفضلِ والحكماء ، وأُولى الآراءِ والصلحاء ، ومَنْ يُشَارُ إليه بالفضائل ، ويتسِمُ بسمةٍ من الفواضل ، وكلَّ أديبٍ أريب ، من بعيدٍ أو قريب ، وقاطنٍ وغريب ، وبَيَّنَ لهم مكاناً يجتمعون إليه ، وزماناً لا يتأخرون عنه ولا يتقدمون عليه .

فاجتمع القوْم ، فى ذلك اليوْم ، حسبَ ما برز المرسُوم ، فى المكان المعلُوم ، وجلس الملكُ فى مجلسٍ عام ، وحضر الخاصُّ والعامّ ، واستدعى أخاه الحكيم ، وقابله بالاحترام والتكريم ، وأنواعِ الإحسانِ والتعظيم ، ثم قال : أيها الأخُ الكريم ، والفاضلُ الحكيم ، كان تقدّم منك الالتماس ، بالإذنِ فى تصنيفِ كتابٍ ينفعُ الناس ، مشتملٍ على الفوائد ، وفنونِ الحكَمِ الفرائد ، يكسّبُ الثوابَ الجزيل ، ويخلّدُ الذكرَ الجميل ، فأحببتُ أن يكونَ ذلك بحضرةِ العلماء ، ومجمعِ الأكابرِ والفضلاء ، واتفاقِ آراءِ الحكماء ، وأربابِ الدولةِ والمناصب ، وذوى الوظائفِ والمراتب ، وأهلِ الحَلِّ والعَقْد ، المتصرّفين فى الحكمِ والأمثالِ والنقْد ، ليأخُذَ كُلٌّ منهم حظَّه ، ويُشَنِّف سمعَه ويزيِّنَ لفظَه ولحظَه ، فتعمّ الفائدة ، وتشمل العائدة ، ويتحقّق كلٌّ سامعٍ وقائل ، ما لَكَ من الفضائلِ والفواضل ، وتتميز على أقرانك ، ورؤساءِ زمانِك ، ويبلغ الأطراف ، وسائر الأكناف ، ما لديك للناسِ من إسعاف ، وما قصدتَ لهم من إحسانٍ وألطاف ، فيتوفّر لك الدعاء ، ويكثر لك الشكْرُ والثناء ، لعِظَمِ فضلِك وحُسْنِ آدابِك فى نَقْلِك . وقد أَذِنّا لكَ فى الكلام ، وسلّمنا إلى يد تصريفِكَ فيه الزمام ، لعلْمنا أنّك فارسُ ميدانهِ ، وفى بيانِ معانيك بديعُ

بيانهِ ، ولسانُ فصاحتِك يدحرجُ كُرَةَ البلاغة ، كيفَ شاءَ بصولجانِه ، فَقُلْ ما بدا لك ، أحسن الله حالك .

فنهض الحكيمُ من مكانهِ ، وحَسَرَ طَرَفَ لِثامهِ ، وبادرَ إلى الأرضِ بالتثامهِ ، وقال : حيثُ أَذِنَ مولانا السلطان ، وتصدّق بالإذْنِ فى حسنِ البيان ، فلابُدّ من إتمامِ الإحسان ، وذلك بالإصْغاء ، وحسن الرعايةِ والإرعاء ، فإنَّ حُسْنَ الاستماع ، هو طريقُ الانتفاع ، وهو الدرجةُ الثانية ، وهى مرتبةٌ سامية ، فإنّ حُسْنَ الآداءِ هى المرتبةُ الأولى ، وتليها أيها المِلِكُ المطاع ، مرتبةُ حُسْنِ الاستماع ، ثم تليها فى الزيادة ، مرتبةُ الاستفادة ، والمرتبةُ الرابعة ؛ وهى الجامعةُ النافعة ، درجةُ العمل ، وبها الفضْلُ اكتمل ، وأمَّا الغايةُ القُصوى والدرجةُ العليا والمرتبةُ الفاخرة ، فهى الإخلاصُ فى العملِ وطلبُ الآخرة ، واتباعُ رضا المَوْلى ، بَتَرْكِ السُّمْعَةِ والرِّيا ، ثمّ لنحط العلومَ الوضيحة ، أن النصيحةَ من حيثُ هى نصيحة ، تتميَّزُ القلوبُ غيظاً منها ، وتنفرُ النفسُ عنها ، لأن النفسَ مائلةٌ إلى الفساد ، والنصيحةُ داعيةٌ إلى الرشاد ، والنصيحةُ محضُ خيرٍ وبرّ ، والنفسُ مطبوعةٌ على الأذى والشرّ ، فبينهما تنافرٌ من أَصْلِ الخلْقة ، وتباينٌ من نفسِ الفطرة ، والنفسُ تميلُ إلى ما جُبِلَتْ عليه ، والنصيحةُ تجذبُ إلى ماتدعو إليه . قال العزيزُ الجبّار ، حكايةً عن الكفّار : ﴿ويـاقَوْمِ ما لى أَدْعُوكُمْ إلى النَّجاةِ وَتَدْعُونَنى إلى النَّار . تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بالله وَأُشْرِكَ بِهِ ما لَيْسَ لى به عِلْمٌ وأَنا أَدْعُوكُمْ إلى العزيزِ الغَفّار﴾[١٥] فالسعيدُ مَنْ تأمَّلَ فى معانى الحِكم ، وسلك السبيلَ الأَقْوَم ، وتدبّر فى عواقبِ الأمورِ بالافْتِكار ، وتَلَقّى الأشياءَ من طرفِ الاعْتبار ، وقد قيل :

إذا لم يغنِ قولُ النصيحِ بمقول فإنَّ معاريضَ الكلامِ فضول

---

[١٥] سورة غافر : ٤١ .

ثم عِشْ واسلَمْ ، وتيقّنْ واعلَمْ ، ياملكَ الزمـان ، أن أفضـلَ شـيءٍ حـلَّ فـى وجـود الإنسان ، وأحسنَ جوهرةٍ تَزَيَّنَ بها عِقْدُ تركيبِهِ ، العقلُ الدّاعى إلى كيفية تهذيبـه ، فى أساليبه ، وأفضلَ درةٍ ترصَّع بها تاجُ العقـلِ فـى تزيينـه وترتيبـه ، الخُلُـقُ الحسـن الذى فَضَّـلَ الله به خيرَ خَلْقِهِ فى تعليمه وتأديبـه ، وخـاطبَ بذلـك نبيَّـه الكريـم ، فقال : ﴿وإنَّك لَعلَـى خُلُـقٍ عَظِيـم﴾[١٦] وبـالخُلُقِ الحسـنِ ينـالُ شـرفَ الذكْـرِ فـى الدارَيْن ، ولايضعُ الله الخُلُقَ الحسَنَ إلاّ فِيمَنْ اصطفاه مِنَ الثقلَيْـن . وأفضـلُ جنْـسِ الإنسان ، بعدَ الرسـولِ الرفيـعِ الشان ، الملكُ الذى يُحيى أحكامَ شـريعتهِ ، ويمشـي على سُنَّتِه وطريقتِه ، وإذا كان الملكُ حَسَنَ الخُلُقِ والفِعَال ، فهو فى الدرجـةِ العليـا من الكمال . قال الرسولُ النجيـب ، صـاحبُ التـاجِ والقضيـب ، محمـدٌ المصطفَى الحبيب ، ﷺ يتمسكُ بأذيالها الطبيب ، ويترنَّحُ لنسماتِ قبولِهـا الغُصْـنُ الرطيـب : "ألاَ أخبرُكم على مَنْ تَحْرُمُ النار ؟ على كـلِّ هيِّـنٍ لـيِّنٍ سـهْلٍ قريـب" ، ورُوِيَ أن ذلك السِّيدَ السديد ، الكاملَ المُكَمَّلَ الرشيد ، أتى برجلٍ فكلّمه ، فـأَرْعَد ، فقـال : هَوِّنْ عليكَ فإنى لستُ بملِكٍ ولا جبار ، وأنا ابنُ امـرأةٍ مـن قريـش ، كـانت تـأكلُ القديد .

ومن جُمْلَةِ حُسْنِ الخُلُق العَدْل ، والشفقةُ على الرعيّة والفضل ، وإذا حَسُنَ خُلُقُ الملوكِ العليَّة ، صَلُحَتْ بـالضّرورةِ الرعيّـة ، طائعـةً أوكارهـة ، وسَعَتْ فـى ميـدانِ الطاعةِ فارهة ، فإنَّ الناسَ على دينِ ملوكِهم ، وسالِكون طرائق سـلوكهم . وأرذلُ عادةِ الملوكِ الطيشُ والخفّة ، وأنْ يكونَ ميزانُ عقْلِه خاليَ الكفّة ، وأنَّ عـدَمَ الثبـاتِ والوقّار ، من عادةِ الأطفالِ والصِّغار ، والرجلُ الخفيفُ القليلُ الحيلة ، لا يقدرُ علـى تدبيرِ الأمورِ الجليلة ، ولا بابَ يوجدُ له ولا طاقة ، للدخولِ فى الأشـغَال الشـاقة ،

---

[١٦] قرآن كريم ، سورة القلم : ٤ .

ولا يستطيعُ أنْ يتحمَّلَ ثِقَلَ الرياسَة ، ويتعاطَى الإيالةَ والسياسة ، ولا قدرةَ له على فَصْلِ الحكوماتِ المُشْكِلَة ، والقضايا العريضةِ المُعْضِلَة ، ولا الوصولَ إلى إثباتِ السيادة ، ولا الدخولَ في أبوابِ السعادة ، فإنّ تدبيرَ الممالك ، وسلوكَ هذه المسالك ، يحتاجُ إلى رجلٍ كالجبلِ في السكوتِ والوقار ، أوَانَ الثبات ، وكالْبحرِ الهائجِ والسَّيْل الهامرِ أوَانَ الحَرَكَات . واعلمْ ياذا العُلا ، والمالكَ المالِ والدِّما ، أنه يجبُ على المَلِكِ الكبير ، اجتنابُ الإسرافِ والتبذير ، فإنه حافظُ دماءِ الناسِ وأموالهم ، مراقبُ مصالحِهم في حالَتَيْ حالِهم ومآلِهم . والمالُ الذى في خزائنه ، قد اجتمعَ من وجوهِ مكامنه ، ومن خراجِ مملكتِه ومن أعدائِه ومعادنه ، إنما هو للرعيّة ، لِيُذْهَبَ عنهم البَلِيّة ، ويصرفَه في مصالحهم ، ومايحدثُ من حوائجهم وجوائحِهم ، فهو في يدِه أمانة ، وصرفهُ في غيرِ وجهه خيانة ، فَكَمَا لاينبغي أن يتصرّفَ في مالِ نَفْسِه بالتبذير ، كذلك لايتصرَّفُ في أموالِهم بالإسرافِ والتقتير . ومصداقُ هذا المقال ، قولُ ذى الجلال ، جلَّ كلاما ، وعزَّ مقاما : ﴿والَّذِينَ إذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا ولَمْ يَقْتُرُوا وكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاما﴾[17] .

فينبغي للملِكِ بَلْ يجب ، أنْ لا يستتَر عن الرعيّةِ ولا يحتجب ، وأن لا يُبَادِرَ بمرسوم ، إلاّ بعدَ تحقيقِ المعلوم ، ولا يبرزُ مرسومُه ، مالم يتحقّقْ فيه معلومُه ، وذلك بعدَ التأمّل والتدبّر ، وسترِ عورةِ القضيّةِ والتفكّر . وهذا لأنَّ مرسومَ السلطان ، على فمِ أبناءِ الزمان ، وهو بمنزلةِ القضاء ، النازلِ من السماء ، وإذا نَزَلَ القضاء ، وفُتِحَتْ له أبوابُ السماء ، فَلاَ يُرَدُّ ولا يُصَدّ ، ولا يعوقُه عن مُضِيِّه عددٌ ولا عدّ ، ولا حيلةَ في منعِهِ لأَحَد . وأَمْرُ أُولِى الأمْر ، على زيدٍ وعمْرو ، كالسهمِ الخارجِ من الوَتَر ، بل شبْه القضاءِ والقدَر ، تعجزُ عن إدراكِ سرِّه قُوى البَشر ،

---

[17] قرآن كريم ، سورة الفرقان : ٦٧ .

فكَمَا أنه إذا أنفذَ سهمُ القضاءِ والقدر ، لا يمنعُه ترس ُحيلةٍ ولا يصدُّه دِرْعُ حَـذَر ، فكذلـك أَمْـرُ السـلطان ، لا يثبـتُ لـردِّه حيـوان ، ولا يمكـن تلقِّيـه إلاّ بالإمْضَـاءِ والإذْعـان ، فإذا لم يتدبَّرْ قبـلَ إبرازِه ، فـى عواقـبِ مآلـهِ وأعْجـازه ، ربمـا أدّى إلى النَّدم ، والتأسُّفِ حيثُ زلّت القَدَم ، ولا يفيدُ التَّلافى بعدَ التّلاف ، ولا يردُّ السَّـهْم إلى القوسِ وقد خرقَ الشـغاف . وكمـا أن المِلِـكَ سـلطانُ الأنـام ، كذلـك كلامـهُ سلطانُ الكلام ، وكلُّ ماينسبُ إليه فهو سلطانُ جنسهِ ، فيجبُ عليه حِفْـظُ كلامـهِ كحِفْظِ نفسهِ .

[١/١] لطيفة الملك أنوشروان مع السّائس

وحسبك ياملكَ الزمان لطيفةٌ للملك أنوشروان فبرزتْ المراسيمُ الشـريفة ، ببيـانِ تلك اللطيفة ، فقالَ الحكيم : ذَكَرَ أهلُ السِّيَرِ ونقلـةُ الأثـر : أن الملـكَ أنوشـروان ، كان راكباً فى السيران ، فجَمَحَ به فرسُه ، وقَوَّى عليـهِ نَفْسُـه ، فاسـتخفَّ شـانه ، وجَبَذَ عِنَانَه ، فَهَمَزَهُ وَلَكَزَه ، وضربَـهُ وَوَخَـزَه ، فـزادَ جُموحـا ، ومـادَ جَموحـا ، فَتَجَاذبا العِنان فانقطع ، وكاد أنوشروان أنْ يقع ، فَلاَطَفَ الفرسَ فاسْتكان ، ونجـا بعد أن كاد يدخلُ فى خبرِ كان ، فلما وصَل إلى محلِّ ولايته ، واستقر راجـفُ قلبـه من مخافته ، دعا بسائسِ المركوب ، فلبـى دعوتَـه وهـو مرعـوب ، فلعنـه وشتمه ، وأراد أن يقطعَ يدَه وقدَمه ، وقـال : تُلْجِـم هـذه الداهيـة ، بلجـامٍ سيورُه واهيـة ، فانقطعتْ فى يمينى ، وكاد الفحْلُ يرمينى ، ثم دعا بالمقَارِع ، وبـالجلاّد ليُقطـعَ منـه الأكـارع . فقـال السـائسُ المسكين : أيهـا الملـكُ المكين ، وصـاحِب العـدْلِ والتمْكين ، أسألكَ باللهِ الذى رفَعَك إلى هـذا المقـام ، أنْ تسـمعَ لى هـذا الكـلام ، فقال : قُلْ ولاتُطِل . قال : كـأنَّ هـذا العِنـانَ يقـول ؛ وكلامـهُ فَصْـلٌ لا فضـول ، ومقولُه قريبٌ من العقول : الملكُ أنوشروان سـلطانُ الإنـس ، وفرسُـه سـلطانُ هـذا

الجنس ، وقد يجاذبُنى قوةُ سلطانيْن ،فأَيْن لى طاقةُ هذا الثباتِ لهما ومن أَيْن ؟ لاجرمَ ذهب منى الخيْل ، فتمزّقْتُ بين سلطانِ الإنسِ وملكِ الخيل . فأعجب أنوشروان من السائسِ هذا البيان ، فأنعمَ عليه وأطلقه ، ومن رِقّ عِقابه وعذابِهِ أعتقه .

وإنما أوردتُ هذا البيان ، ليتحقّقَ مَوْلانا السلطان ، أنّ حركاتِه مَلَكَةُ الحركات ، وصفاتِه سُلطانةُ الصفات ، وكلامَه ملكُ الكلام ، فَلاَ يصرفْه فى كلّ مقام ، وَلْيَصُنْه بالتأمّلِ قبل القوْل ، وَلْيَحْتَطْ لبروزِه ويحفظْه بالصدقِ والطوْل ، وإذا أَمَر بأمر فلايرجعُ فيه ، بل يستمر على ما أمر به ، لئلاّ يُقال سفيه . ثم اعلَمْ ياملكَ الرقاب ، أنّ كُلاًّ من الثوابِ والعقاب ، له حدٌّ معلوم ، ومقدارٌ مفهوم ، ينبغى للملِك أنْ لا يتعدّى لذلك حدّا ، وعلى الملكِ أنْ يصْغى للنصيحة ، مِمَّنْ مودتُه صحيحة ، وقد جرّب منه الصدق ، وعلم منه الإخلاص فى النطْق ، ولاسِيّما إذا كان ذا عقلٍ صحيح ، ووُدٍّ صريح ، ولا ينفرُ من خشونةِ النصيحةِ ومرارتِها ، فبرودةُ الخاطرِ وسلامةُ القلب حرقةُ حرارتِها ، فإنّ الناصِحَ المشفِق ، كالطبيبِ الحاذِق ، فإنّ المريضَ الكئيب ، إذا شكا إلى الطبيب ، شِدَّةَ ألَمه ، من مرارةِ فمِه ، يصفُ له دواءً مُرّا ، فيزيد حرارتَه حرّا ، فلا يجدُ بدًّا من شربهِ ، وإنْ كان فى الحالِ ينهضُ بكربه ، لعلْمه بصدقِ الطبيب ، وأنه فى الرأيِ مصيب ، وما قصد بالدواءِ المر ، زيادةَ الضُّر ، وإنما قصد بألَمه عودَ الحلاوةِ إلى فمه ، ولا يستحقرُ النصيحة ، إنْ كانت صادقةً صحيحة ، ولا الناصح ، خصوصاً الرجل الصالح . فإنّ سليمانَ – وهو من أجلِّ الأنبياءِ الكرام ، عليهم الصلاةُ والسلام ، وأحدُ مَنْ مَلَكَ الدنيا وحَكَمَ على الجنِّ والإنسِ والطيرِ والوحشِ والهوام – استشار نملةً حقيرة ، فنجحَ فى أمرِه ، وخالفَ وزيَره آصفَ بنَ برخيا ، فابْتُلى بِفَقْرِه ، وسُلِبَ جميعَ ما مَلَك ، وصارَ – كما قيل – أجيراً لصياد السَمَك .

ثم قال الحكيمُ حسيب : أيها الملكُ الحسيب ، وأنا لما رأيتُ أمورَ المَمْلَكةِ قد اختلّتْ ، ومباشرى مصالح الرعيةِ قلوبُهم اعتلّت ، ولعبوا بالثقيلِ والخفيف ، واستطال القويُّ منهم على الضعيف ، ومدّوا أيديَهم إلى الأموالِ بالباطل ، وأظهروا الحاليَ فى حِلْيَةِ العاطِل ، وخرجوا عن دائرة العدل ، واطّرحوا أهلَ العلْمِ والدينِ والفضل ، وتولّى المناصبَ غيرُ أهلِها ، ونزلَتْ المراتبُ إلى غيرِ محلّها وحُرِمَ المستحقّون ، وأُبْطِلَ المحقّقون ، إلى أنْ وقعَ الاختلال ، وعَمّ الفسادُ والضلال ، وقويَتْ أعْضادُ الظلْمَةِ على العباد ، وسائرِ القرى والبلاد . وهذا لا يليقُ بشرفِ مولانا الملكِ ولا بأصلِه ، ولا يجوزُ فى شرعِ المروءةِ أنْ يكونَ الظلْمُ طرازَ عدلهِ ، إذْ قدرُه العليّ وأصلُه الزكيّ ، أعظمُ مقاماً من ذلك ، وَلاَيحسُنُ أنْ ينتشرَ إلاّ صيتُ رأفتهِ فى الممالِك ، وعلى الخير مضى سلفُه الكرام ، وانطوى على مآثرِهم صحائفُ الأيام ، وقد قيل :

فـإنّ الظُلْمَ مِنْ كُلٍّ قبيـح واقبحُ ما يكونُ من النبيه

وقيل :

وَلَمْ أرَ فى عيوبِ الناسِ شيئا كنقصِ القادرينَ على التمام

ماوسعنى إلاّ الانحيازُ إلى العُزْلة ، والتعلُّقُ بذيْلِ الانفرادِ والوحْدَة ، وما أمكننى أنْ أعملَ شيئا ولا أقطعَ دونَ العرضِ على الآراءِ الشريفة ، وامتثال ما تبرزُه مراسيمُها المنيفة . فقدْ قالَ الناصحُ فى بعضِ النصائح : لاتخاطِبْ الملوك ، فيما لم يَسْألوك ، وَلاَ تُقدِمْ على ما لَمْ يأمروك . فلمَّا أذِنَ فى الكلام قُمْتُ هذا المقام ، فقلت قطرةً من بحور ، وذرةً من طيور ، ورأيْتُ ذلك واجباً عليّ ، وَنَفْعَه عائداً إليّ ، وذكرتُ بعضَ ماوجبَ على سائرِ الناصحين ، ولزمَ ذكرهُ جميعَ المسلمين ، من طريقٍ واحدة ، ولزمنى أنا مِنْ طرقٍ متعددة ، أدناها طريقُ المروّة ، وأعلاها بل أغلاها وثيقُ الأُخوَّة ، التى هى أَقْوى الأسْباب ، وأعظمُ الوصلاتِ فى هذا الباب ، فإن

لُحْمَةَ القرابةِ هى السببُ الذى لا يقطعه سيفُ الحَدَثَان ، والبنيانُ الذى لا يهدمهُ مِعْوَلُ الزّمان وأساسُ الأُخُوَّة عنوانُ الفُتُوَّة . قال الله تعالى ، وعزَّ جمالا ، وتقدّسَ كمالا : ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بأخيكَ﴾[18] وقال القائل :

أَخَاكَ أخاكَ إنّ مَنْ لا أخا له كَسَاعٍ إلى الهَيْجا بغيرِ سلاحِ

[٢/١] قصة الوَلْهى مع الضحّاك

وناهيكَ يازَيْنَ المُلاّكِ بقصة الولهى مع الضّحّاك ، قال : أخبرْنا أيها الحكيم ، بذلك الحديثِ القديم . قال الحكيم : بَلَغَنَا عن التاريخ ، الباذخِ الشّماريخ ، أن الضحَّاك كانَ مِن أحسن الناس سيرة ، وأَصْفَاهم سَرِيرة ، قد فاقَ النّاسَ فَضْلا ، وبلَغَ ذكرُه الآفاقَ عَدْلا ، فَتَزَيَّا له إبليس ، فى صورةِ الدَّهاء والتلْبيس ، فَزَعَمَ ذلك الطَّبّاخ[19] ، أنّه طَبّاخ ، وصار كلَّ يومٍ يهيىءُ له ، مِنْ أطيبِ الأَطْعِمَة ، ولذيذِ الأغْذِيَة ، ما يعجزُ به غيرُه ، وَلاَ يَقْدِرُ أحدٌ أنْ يسيرَ سَيْرَه ، وَلَمْ يأخُذْ على ذلك جراية فبلغَتْ مَرْتبتُه عندَه النهاية ، واستمر على ذلك مُدَّةً مديدة ، وأياماً عديدة . والناسُ تكره ، أن تَخدُمَ بغيرِ أُجْرةٍ ، خصوصاً فى هذا الزمان ، رؤساءَ الأعيان . فقال له الإمام ، فى بعضِ الأيام ، لقد أَوْجَبْتَ علينا يداً وشكرا ، وما سألتَنا على ذلكَ أجْرا ، فاقْترحْ ما تختار ، أكافئك يامهار[20] . فقال : تمنيْتُ عليكَ أنْ أُقَبِّلَ بينَ كَتِفَيْكَ ، فَأَنىّ لى بذاك ، أنْ يُقَالَ قَبَّلَ بَدَنَ الضّحّاك . فأَعْجبه ذلك وأجابَه وَحَسر عن بدنِهِ ثيابَه ، وأدارَ ظهرَه إليْه ، فَقَبَّلَ لَوْحَيّ كتفيْه ، ثُمّ غابَ عن عينِهِ ، ولم يقف على أثرِه ولا عَيْنِه ؛ فَبِمُجَرّدِ ما لَثَمَه ، ومسَّ فَمُه جسْمَه أخذتْه حَكّةٌ وشِكّة ،

---

[18] قرآن كريم ، سورة القصص : ٣٥ .

[19] الذى لا خير يرجى مطلقا من ورائه ، يعنى : إبليس .

[20] المهّار : الحاذق فى صنعته .

وَمَوْضِع لَثْمِه شَكّه ، ثمّ خَرَج من مَوْضِعٍ فيه سِلْعَةٌ[٢١] ، تَلْذَعُه شَرَّ لَذْعة ، وتلسَعُه أَحَرَّ لَسْعَة ، ثم صارا حَيَّتَيْن ، أشبهتا كَيَّتَيْن[٢٢] ، فصارَ يَسْتغيث ، ولاَ مُغيث ، فَطَلَب الأطباء ، فأَعْيَاهُم هذا الداء ، ثم لم يَقْوَ لـهُ قرار ، ولَمْ يأخذْه سُكونٌ ولا اصْطبار ، إلاّ بِدِماغِ الإنسان ، دونَ سائرِ الحيوان ، فَمَدّ يَدَ الفَتْك ، ولأجْلِ الأدْمغةِ استعملَ السَّفْك ، فَضَجِرَ الناس ، لهذا الباس[٢٣] وصاحُوا وناحُوا ، وغَدوا مستغيثين وراحُوا . فوقَع الاتّفاق ، بعد الشّقاق ، على الاقْتِراع ، لِدَفْعِ النزاع ، فَمَنْ خرجَتْ قُرْعَتُه ، كُسِرَتْ قَرعَتُه[٢٤] ، وأُخِذَ دماغُه ، وحصل لغيرِه فراغُه ، فَعَالجوا به الكَيَّتَيْن ، وغذّوا به الحَيَّتَيْن ، فَيَبْردُ الأَلَم ، ويخفُّ السَّقم .

ففى بعضِ الأدوار ، خرجت القُرْعَةُ على ثلاثةِ أنفار ، فَرُبِطُوا بالأغلال ، ودُفِعوا إلى النَّكال ، ليجْرِيَ عليهم ماجرى علىِ الأمْثال ، فبينما هُمْ فى الحَبْس ، بيْن طالعٍ ونحس ، وطَرْدٍ وعكس ؛ وقف للضحّاك امرأةٌ وضيّة ، واستغاثتْ به فى هذه القضية ، فأدناها ، وسأل ما دهاها ، فقالت : ثلاثةُ أنفارٍ من دار ، لا صَبْرَ لى عنهم ولا قرار ، وحاشى عَدْلُ السُّلطان ، أنْ يَرْضى بهذا العُدوان : وَلَدِى كَبِدى ، وأخى عَضُدى ، وزوْجى مُعْتَمدى ، وكلٌّ مسجون ، يُسْقَى كَأسَ المنون . فرقّ لها الضحّاك ،وقال : لا يَعُمُّهُمُ الهَلاك ، فاذهبى يامُغاثَة ، واختارى واحداً من الثلاثة ، وجهّزها إلى الحبس ، ليقعَ اختيارُها على مَنْ يدفعُ اللبس . فتصدّى لها الزوج وتمنّى الخلاصَ من ذلك البوج[٢٥] فتذكّرتْ ما مضى ، من عيشِها معه

---

[٢١] السلعة : دود العلق ، وهو دود أسود يمتصّ الدم .

[٢٢] كواه كيا وكيّة : أحرق جلده بحديدة محمّاة ، وكوت العقرب فلانا : لدغته .

[٢٣] الباس : تخفيف البأس ، وهو الشدّة أو المحنة .

[٢٤] قرعته بضم القاف : النصيب ، أو الدور . وبفتح القاف : الرأس .

[٢٥] البوج : الشدّة والمصيبة ، ومن معانيها أيضا التعب والمعاناة .

وانقضى ، واستحضرتْ طيبَ اللذات ، والأوقاتِ المستلذات ، فأتتْ إليه ، ومالتْ عليه ، فتحرّكَتْ الأنفسُ الإنسانية ، والشهوةُ الحيوانية ، فَهَمَّتْ بطلبه ، وتعلّقتْ بسببِه ، فوَقَعَ بصرُها على ولدِها ، فِلْذَةِ كَبِدِها ، فرأتْ صباحةَ خدِّه ، ورشاقةَ قَدِّه ، فتذكرتْ طُفوليَّتَه وصباه ، وتربيتَها إياه وحملَه وإرضاعَه ، وتناغيه وأوضاعَه فعطفتْ عليه جوارحُها ، ومالتْ إليه جوانحُها ، فقصدتْ أن تختارَه ، وتريحَ أفكارَه ، فلمحتْ أخاها باكيا ، مطرِقاً عانيا ، قد أَيِسَ من نفسِه ، وتيقَّنَ الإقامةَ بحبسِه ؛ لأنه يعلمُ أنها ، لا تتركُ زوجَها وابنَها ، ولا تختارُه عليهما ، ولا تميل إلاّ إليهما . فَأَفْكَرَتْ طويلا ، واستعملتْ الرأيَ الصائبَ دليلا ، ثم أَدَّاها الفِكْرُ الدقيق ، وأرشدَها التوفيق ، وقالتْ : أختارُ أخي الشقيق .

فبلغ الضحّاكَ ما كانَ من أمرِها ، واختيارِها لأخيها بفِكْرِها ، فَدَعاها ، وسألها عن سببِ اختيارِها أخاها ، وقال إنْ أَتَتْ بجوابٍ صواب ، وهبتُها إيَّاهم مع زيادةِ الثواب ، وإنْ لم تَأْتِ بفائدةٍ قاطعة ، وعائدةٍ في الجوابِ نافعة ، كانتْ في قَتْلِهم الرّابعة . فقالت : اعْلَمْ ، واسْلَمْ ، إنيّ ذكرْتُ زوجي وطيبَ عشرتِه ، وأوقاتِ معانقتِهِ ولذّته ، وما مَضَى معه من حُسْنِ العيش ، وانقضَى من خفّة الأحلام والطيْش ، فَمِلْتُ إليه ، وعوّلتُ في الطلبِ عليه ، ثم أبصرتُ ابني ، فتذكرتُ مقامَه في بَطْني ، وما مضى عليه من عاطفة ، وشفقةٍ عامةٍ في الأيامِ السالفة ، فَهَيَّمَنِي حُبُّه القديم ، وشكلُه القويم ، فَمِلْتُ إلى اختياره ، وخلاصه من بَواره ، ثم لمحتُ أخي المتقدم عليهما ، فَقِسْتُ مقامَه بالنظرِ إليهما ، فقلتُ إني امرأةٌ مرغوبة ، قينةٌ عاقلةٌ مطلوبة ، إنْ راحَ زوجي فعنه بَدَل ، وإنْ حَصلَ الزوجُ وُجِدَ الوَلَدُ وحصل ، فَتَهيَّأَ الغَرَض ، وَوُجِدَ عنهما العِوَض ، وأمّا الأخُ الشقيق ، فما عنه

عِوَضٌ فى التحقيق ، لأنّ أَبَوَيْنا مَاتا وفَاتا ، وصارا تحتَ الأرض رُفَاتا ، فهـذا الـذى أَدّى إليه افْتكارى ، ووقعَ عليه اختيارى ، وأَنْشَده لسان القال ، فيما قال :

وكَمْ أَبصَرْتُ من حُسْنٍ ولكن   عليكَ من الورَى وَقَعَ اختيارى

قال : فاستحسَنَ الضحّاكُ هذا الكلام ، ووَهَبَها جماعتَها مع زيادةِ الإنعام .

قال الحكيم وإنما أوردتُ هـذا المثل ، لمولانـا الملِـكِ الأجلّ ، وعرضتُـه على الحضّار ، ومسامعِ النظّـار ، لِيعْلَـمَ أنّ لى عـن كـلِّ شىءٍ بَـدَلا ، وأما عـن مولانـا السلطانِ فَلاَ ، كما قال ، مَنْ أجاد فى المقال :

وقد تَعوَّضْتُ عَنْ كُلٍّ بِمُشْبِهِهِ   فما وجدتُ لأَيَّامِ الصِّبَا عِوَضَا

وليس لى عِوَضٌ إلاّ فى بقاءِ ذاتِك المحروسة ، ودوامِ حيـاتِك العزيـزةِ المأنوسـة ، ثـم إنى أخافُ والعياذُ با للهِ تعالى أن هذه الفتنَ التى قد أقبلتْ ، والحركاتِ الداهيةَ التـى وجوهُ الخلاصِ منها قد أشْكَلَتْ ، تَسْتَأصِلُ شَأْفَةَ أسلافِنا الكِـرام ، وتقـرضُ شـرفَ أجدادِنا الملوكِ العِظام ، فاخترتُ العزلةَ لذلك ، فإنها أسلمُ الطرقِ والمسالِك . قـال الملك لقد صَدَقْت ، إذْ نَطَقْت ، وتحرّيتَ الصواب ، فى الخطاب ، وأنا أتحقّق حُسْنَ نِيَّتِكَ ، وخلوصَ طَوِيَّتِـكَ ، وَحُسْـنَ وفـائِك ، ويُمْـنَ آرائِـك ، فـإنّكَ أخٌ شـقيق ، وصدوقٌ صديق ، ولكنْ تعلَمُ أنَّ هذا الوزير ، رجلٌ خطير ، ورأْيُه مستنير ، وفضلُه غزير ، وهو من أصل كبير ، وله علينا حقٌّ كثير ، وأُريـدُ أنْ يَقَـعَ مـاعزمتَ عليـه ، وفوّضْتَ فِكْرَكَ المصيـبَ إليـه ، مـع محاورتِـه ، ومناظرتِـه ، ومشـاورتِه ، فـإن كُـلاًّ منكُما ناصحٌ مشفق ، وحكيمٌ مدقق ، وعالـمٌ محقّق ، وفى مثـلِ هـذه الأشـياء ، إذا اتفقتْ الآراء ، وطـالَ النَّفَـس ، تكاشَـفَ نـورُ القَبَـس ، وسـعُد البخـت ، وتمكّـنَ التّخْت ، وصَحّ الحقّ ، ووضحَ الصِّدق ، ولاسـيَّما إذا كـان الكـلامُ بـين عـالِمَيْن ، والسؤالُ والجوابُ من فاضلَيْن كاملَيْن .

قال الحكيم : أيها المِلكُ العظيم ، إذا قام الإنسانُ فى صَدَدِ المعارَضَـة ، وتصـدَّى فى البحثِ إلى المعاكسَةِ والمناقضَة ، لاسيَّما إنْ كـان مـن أهـلِ الفصاحـةِ واللّسَـن ، وساعدَه فى ذلك الإدْراكُ الحسَن ، لا يعجزُ أنْ يقابلَ الايجابَ بالسّلْب ، والاستقامةَ بالقلْب ، والعكْسَ بالطّرد ، والقَبول بالردّ ، ويكفى فـى جـوابِ المتكلـم ، إذا أوْرد مسألةً لا نسلم ، وقد قِيل فى الأقاويل : لا تنفعُ الشـفاعةُ باللّجـاج ، ولا النصيحـةُ بالاحتجاج . أمّا أنا فقد بذلتُ جَهْدِى ، وأدّيْتُ فى النصيحةِ ما عندى ، وكشـفتُ عن مخدَّراتِ التحقيقِ أستارَ السَّبْك ، وكرّرتُ على محكِّ التصديقِ آثارَ الحكّ ، فـإنْ وَعَيْتُم كلامى بسمعٍ حَىّ ، فقـد تَبَيَّـنَ الرشْـدُ مِـنَ الغىّ ، وإنْ أَعْرَضْتُـم عـن عَيْـنِ اليقين ، فلا إكراهَ فى الدين . فتصدّى الوزيرُ للكلام ، وحَسَرَ عن ثغرِ بيانهِ اللّثـام ، وبـرزَ فـى ملابسِ الملاينـةِ والخـداع ، وسـلكَ بِخُبْـثِ الطِّبـاع ، طـرقَ الملاطفـةِ والاصْطناع ، ودسَّ السُّمَّ فى الشهْد ، ونزلَ من اليَفاعِ إلى الوَهْـد ، وقـال : الحمـدُ للهِ الكريم ، الذى مَنَّ على مولانـا المِلـك بهـذا الأخِ الحكيـم ، الفاضـلِ الحليـم ، الكامِلِ العليم ، الناظرِ فى العواقب ، ذى الرأيِ المصيبِ والفكرِ الثاقِب . فلَقد بـالغ فى النصيحة ، بعباراتِهِ الصحيحة ، وإشاراتِهِ المليحة ، وكلُّ شيْءٍ أبداه ، إلى المسامعِ وأنهاه ، هو الذى يرتضيه العقل ، ويريضُه العـدل ، ويقبلُـه الطبـعُ القويـم ، إذ هـو المنهجُ المستقيم ، يترتبُ عليه الذِّكْرُ الجميل ، ويحصُلُ به الثوابُ الجزيل ، لكنّ الذى نعرفُه فى حفْظِ الرّياسة ، وإقامةِ ناموسِ السياسة ، هو الذى عليه القَـوْم ، فـى هـذا اليـوْم ، وجرت عليه عاداتُ الأكابِر ، وانخـرط فـى سلْكِه الأصـاغِر ، فـإنَّ الزمـانَ فَسَد ، والفضْلَ فيه كَسَد ، وزاد فيـه الحقدُ والحسَد ، وتَشَرّبَ المكْرَ والأذى الروحُ والجسـد ، وكـلٌّ فى الروغـانِ ثعلب ، وفـى العـدوانِ أسـد . وصـار هـذا مقتضَـى الحال ، والمحمودُ من الخصال ، والمطلوبُ من الرجـال ، والناسُ يدورون بزمـانهم ، بقدرِ مكانِهم وإمْكانهم . وقد قيل : الناسُ بزَمانهم ، أشبهُ منهم بآبـائهم ، وبعـضُ

السياسات ، عند أهلِ الرياسات ، يقتضى العقوبةَ بالتغريم ، وأخذَ المالِ بالترسيم ، لولا عفوُ الملكِ عن المجرم ، ما طَمِعَ كلُّ مؤذٍ مُجرم ، ومن الحماقةِ والبَلَه ، معاقبةُ مَنْ لا ذنبَ لَه فإنَّ وَضْعَ الأشياءِ فى محلّها ، وزمام الأمورِ والمناصبِ فى يَدِ أهلِها ، هو أحدُ قوانينِ الشرعِ والسياسة ، ومقتضى العقلِ والكِياسَة ، والعدْلِ والرياسَة ، والعقلِ والفِرَاسة ، والفضْلِ والنفاسَة ، وناهيكَ أيها الحكيمُ الفاضل ، قولُ القائل :

وَمَنْ لايَذُدْ عن حَوضِه بسلاحِه ... يُهَدّم ومَنْ لايَظْلِمِ الناسَ يُظْلم

وما قيل :

لايَسْلَمُ الشّرفُ الرفيعُ من الأذى ... حتى يُسراقَ على جوانبه الدمُ

ومن مقالاتِ الملك أتابك ، أردشير بن بابك " رُبَّ إراقةِ دمٍ تمنعُ من إراقةِ دمٍ " وفى أمثالِ العربِ " القَتْلُ أنْفَى لِلْقَتلِ " وقيل :

لَعَلّ عُتْبَكَ محمودٌ عواقبُه ... وربما صَحّت الأجْسَادُ بالعِلَل

وهذا كلُّه مصداق قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ فى القِصَاصِ حَيَاةٌ﴾[٢٦] .

[٣/١] قصة قابوس بن بشكمير

وناهيكَ ياذا القدرِ الخطير ، قصّةُ قابوسَ بن بشكمير[٢٧] . قال الحكيمُ للوزير : أَخبِرْنى أيها الدستورُ الكبير ، بكيفيّة ما أنت إليه مُشير . قال الوزير : ذُكِرَ أن قابوسَ بنَ بشكمير ، ذاك الأسد المنير ، قَبَضَ عليه جماعة ، كانوا جَبَذُوا أيديَهم مِنْ الطاعة ، مِنْ أركانِ دولتِه ، وبُنْيَانِ صَوْلَتِه ثمّ قيّدوه وحَبسوه ، وأقاموا ولَدَه مقامَهُ

---

[٢٦] قرآن كريم ، سورة البقرة : ١٧٩

[٢٧] قابوس بن بشكمير أو وشكمير ملك من ملوك الديلم على جرجان وطبرستان ، قام بأعباء الملك سنة ٣٦٦ هـ ولقبه الخليفةُ الطائعُ لله "شمسَ المعالى" وقد اشتهر بالفصاحة والبيان ، وله رسائل ذائعة بين معاصريه ، قتل فى السجن سنة ٤٠٣ هـ .

وأَجْلَسوه ، ثم إنّهم لَمْ يأْمنوا غوائِلَه ، وأفكارَه الصائلَه ، فتآمروا أن يسبكوه[٢٨] ، ويَعْمِدوا إلى دمهِ فَيَسْفكوه ، فأَرْسلوا إليه قاتلا ، فوثب إليه سائلا ، وقال له : ماسببُ قَتْلِى ؟ ومانابَهم من أَجْلِى ، مع كثرة إحْسانى إليْهم ، وانسيالِ ذَيْلِ إكرامِى وإنعامِى عليْهم ، وتربيتى إيّاهُمْ كالأولاد ، وَفِلَذِ الأكباد ، وصَوْنى إيّاهم ، عَمَّنْ آذاهُم ؟ فقال : كثرةُ إراقةِ الدّماء ، أهاجتْ عليكَ الغُرماء ، وأكثرتْ لكَ الخصَمَاء ، لمّا تغيرتْ خواطرُهم عليكَ خَافوا ، وقبلَ أنْ تحيفَ عليهم حَافوا . فقال قابوس : وا للهِ ما سببُ هذا النكدِ والبوس ، وإثارةِ هؤلاءِ الخصماء ، إلا قلّةُ إراقتى لِلدِّماء ! يعنى لو أراقَ دماءَ القائمين عليه ، لما وصل هذا المكروهُ إليه ، فلمّا أبقى عليهم أفنوه ، وحينَ ترك آذاهم آذوه .

وإنما أوردتُ هذا التنظير ، لِيقفَ خاطرُكَ الخطير ، على أنَّ أمورَ الرياسة ، وقواعدَ السياسة ، كانت تقتضى السّبك[٢٩] ، وأحرى بالعفوِ والترك ، وأما الآنَ فذلك الحكمُ قد انتسخ ، والفسادُ فى قلوبِ العبادِ رسخ ، وقد قيل :

تُلجِى الضَّرُورَاتُ فى الأُمورِ إلى سُلُوكِ مَا لاَ يليقُ بالأدب

ومزاجُ الزمانِ قد تغير ، والمعروفُ منه قد تنكّر ، وقد أعرضوا عن طاعةِ السلطان ، واتبعوا مخادعةَ الشيطان ، وكلٌّ منهم قد شَرَخ ، وباض الشيطانُ فى أذنهِ وفرخ ، وتصوّر لخيالاتِه الفاسِدة ومُحالاتِه الكاسِدة ، أنه بما يكيد ، يبلغُ مايريد ، وهيهات وشتان :

لَقَدْ هَزَلَتْ حتى بَدَا مِنْ هُزَالِها كُلاَهَا وحَتّى سَامَها كُلّ مُفْلِس

[٢٨] أن يسكبوه : أن يسيلوا دمه .

[٢٩] إراقة الدماء أحيانا بناءً على مقولة "القتل أنفى للقتل" .

وهذا كما قالَ ا اللهُ تعالى ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنّيهم ومايَعدُهم الشيطانُ إلا غُرورا﴾[٣٠] ومَا شعروا أنّ الملوكَ والسلاطينَ مِمَّنْ اختاره ا اللهُ تعالى ، وألبسَه من خِلَعِ جَبروتِه كَمالاً وجَلالا ، وجعلَهم بأمورِه قائمين ، وبعيْنِ عنايتِه مَلْحُوظين ، وكما أن الرُّسُلَ والأنبياء ، والسادةَ الأعلام الأصفياء ، هم صفوةُ ا للهِ مِنْ خليقته ، ومُختاروه من خَيْرِ بَرِيَّتِه ، من غيرِ كَدٍّ ولا جَهْد ، ولا سَعْيٍ منهمْ ولا جَدّ ، مَابَرْطَلُوا على النبوَّةِ والرسالة ، ولارَشَوْا على نَيْلِ هذه الكرامةِ والنّبالة ، إنما هو محضُ فضلٍ من ا للهِ تعالى وعناياته ، وا اللهُ أعلمُ حيثُ يجعلُ رسالاتِه . كذلك الملوكُ والسلاطين ، والقائمون بإقامةِ شعائرِ الدين ، هم مِمَّنْ اختارَه ا اللهُ على خَلْقِه ، وأجرى على يديه لهم بحارَ كَرَمِه ورزْقه . والسلطانُ ظلُّ ا للهِ في أرضِه ، يجرى بين عبادِه شريعةَ نفْلِه وفرضِه ، قال مَنْ له الخَلْقُ والأمْر ﴿أطِيعوُا ا للهَ وأطيعُوا الرسولَ وأُولِي الأمْرِ﴾[٣١] وقد غفل أهلُ هذه الممالك ، عن السلوكِ في هذه المسالك ، وعن دركِ هذه الحقائق ، وأعرضوا عن الدخولِ في أحسنِ الطرائق ، وهي طريقُ المحاشمة ، والصفحُ والمكارمة ، وعدّوا المكرَ من أحسنِ الرياسة ، والعقلِ والكِياسة ، والتحيُّلَ لأكلِ أموالِ الناسِ من الذكاء ، ومظالمَ العبادِ من خلالِ الصدقِ والصفاء ، وتملُّقَهم للملوكِ والسلاطينِ من أسبابِ الوصولِ إلى الأغراض ، مع تحسينِ الظواهر وفي البواطنِ أمراض ، فظواهرُهم ظواهرُ الإنْس ، تشتملُ على المودّةِ والأنس ، وما فيهم تحتَ الثياب ، إلا كلابٌ وذئاب ، ولأجلِ هذا سلّطَنا ا اللهُ عليهم ، ومَدّ يدَ بطشِنا إليهم نعاملُهم بالفراسة ، ونعملُ بما تقتضيه الكِياسة وتصوّبه الآراءُ السلطانيةُ من قواعدِ السياسة .

---

[٣٠] قرآن كريم ، سورة النساء : ١٢٠ .

[٣١] قرآن كريم ، سورة النساء : ٥٩ .

قال الحكيمُ حسيب ، بعدما أدرك ما فى هذا الكلامِ من فكر غيرِ مُصيب : اعلمْ أيها الوزيرُ النافعُ الناصح ، والدستورُ الشفيقُ المصالح ، أنَّ الرعيةَ بمنزلةِ السرج ، والملكَ بمنزلةِ الشمسِ فى البرج ، وإذا تلألأ على صفحاتِ الأكوان ، وأنارَ فى وجهِ الزمانِ والمكان ، أشعةُ نورِ الشمسِ الوهاج ، فَأَيُّ شعاعٍ ووجودٍ يبقى للسراج ، وأنّ أنوارَ قلوبِ الرعايا ، وما يحصلُ لها من إشراقٍ ومزايا ، إنما هي من فَيْضِ أشعةِ ملوكِهم ، وأنَّ الرعيةَ تتبعُ الملوكَ فى سلوكِهم ، فإذا صفتْ مرآةُ قلبِ السلطان ، أشرقتْ بالطاعةِ قلوبُ الرعايا والأعوان ، بل الزمانُ والمكانُ تابعان ، لما يُضمرُه وينويه السلطان . وقد قيل : إذا تغيَّر السلطانُ تغيَّرَ الزمان .

[١/٤] واقعة الرئيس مع بهرام جور

وهل أتاك أيها الدستور واقعة الرئيس مع بهرام جور ؟ قال الوزير : أخبِرْنا يا باقِعة ، كيف كانت تلك الواقعة ؟ قال الحكيم : أخبَرَنى شيخٌ عليم ، بالفضلِ مشهور ، إن بهرامَ جور ، وكان ذا أَيد ، عزم على الصيد ، فخرج فى عسكرٍ جرار ، واستوى فى الصحارى والقفار ، وبينما هم قد تفرقوا فَمَا شعر ، إلاّ وقد حرّكتْ يدُ الشَّمالِ غِرْبالَ المطر ، ثم تراكمَ من السحاب ، على وجهِ عروسِ السماءِ النقاب ، وانهلَ الغَمامُ المدرار ، وصارت الدنيا جناتٍ تجرى من تحتِها الأنهار ، وأقبلتْ سوابقُ السيول ، تجرى فى مضمارِها الخيول ، فتشتّتْ العساكر ، وتشوّشَتْ الخواطر ، فقصد بهرام جور ، كفراً من الكفور ، وطلب القِرى من تلك القُرى ، منفرداً عن عسكره ، مخفياً من خبرِه ، فنزل بيتَ الرئيس ، وهو رجلٌ خسيس ، فَلَمْ يَقُمْ من حقِّه بالواجب ، لأنه لَمْ يعلمْ ذلك الراكب فتشوّشَ خاطرُه ، وتكدّرتْ ضمائرُه ، وتغيّرتْ عليهم نِيَّتُه ، وإنْ لم تتغيرْ بشريتُه . فلمّا أقبلَ الليل ، جاء الراعى وهو يدعو بالويْل ، ويشكو كثرةَ المحن ، من قلّةِ اللبن ، وذكرَ أنَّ

المواشي لم تدرّ ضرعا ، مع أنَّ رعيّتَها كانت أحسنَ مرعى ، ولا وقفَ لذلك على سبب ، ولا درى كيف حالَ حالُها وانقلب . وكان للرئيسِ بنتٌ منصوبةُ العقل على التمييز ، نبيهةٌ فى فكرِها ، بديهةٌ فى قولها ، تخجل الاقمارَ بخدِّها ، وتقصفُ الأغصانَ على قدِّها . فلما سمعتْ كلامَ الراعى ، قالت : وا للهِ أنا أعرفُ السببَ والداعى ، وهو أن السلطانَ الذى نِيَّتُه حفظُ أوطانِنا تغيَّرتْ نيته علينا ، وتقدَّمَ ضميرُه بالسّوءِ إلينا ، فظهرَ النقصُ فى ماشيتِنا ، وسيتعدّى ذلك إلى أنفسِنا وحاشيتِنا .

وقد قيل : إذا هَمّ الحاكمُ بالجوْرِ على الرعايا أدخلَ ا للّهُ النقْصَ فى أموالِهم حتى الزروعِ والضروع . قال أبوها : فإذا كان الأمرُ كذلك ، فلا مقامَ لنا فى هذه الممالك ، فَالأوْلَى أن نتحوّلَ عن هذا المكان ، إلى مقامٍ لا يُضْمِرُ فيه سوءاً لرعيتِه السلطان ، ونستريح فى ظلِّ حاكمه ، ونرعى فى مسارحِ مكارمِه . كلُّ هذا وبهرام ، يصغى إلى هذا الكلام ، فقالت البنت : إن كان ولا بُدَّ من الانتقال ، واقتعادِ مطيّةِ الارتحال ، فما نصنعُ بهذه الأثقال ، والأزوادِ الثقال ، نقدم لهذا الضيفِ منها ، يحصلُ التخفيفُ عنها ، ويقعُ بذلك فائدتان : إحداهما حسنُ المضيف ، وثانيتُهما التخفيف . فامتثل أبوها أمْرَ بنتِه ونَقَل إلى الضيفِ ماحواه ببيته ، من طعامٍ وشراب ، ونُقْلٍ وكباب ، وبَسط بِساطَ النشاط ، وأخذَ فى دواعى الانبساط ، وانتقل من المحاشمة ، الى المكالمة والمنادمة ، وعمل بموجب ما قيل :

ومابقيَتْ من اللـذّاتِ إلا   أحاديثُ الكرامِ على المُدام

فلما هجم جيشُ السُّكْر ، وهزمَ جُنْدَ العقلِ والفكر ، تذكّر بهرامُ مجالستَه ومؤانستَه فيها ، ومحادثتَه وما فيها ، من مغازلةِ الغزلان ، وأصوات الأغانى والقيان ، فأبانتْ حشمةُ السلطنةِ عن مُضْمَرِها ، وتَفَوَّهَ بشيْءٍ يلوحُ بمخبرِها ، وشاقتْ نفسُه إلى

معتادِها ، فأعربَ شطحُها عن مرادِها ، وقال للريس : أيها النديمُ الكيّس ، لو كان لنا مَنْ يُطرِبُنا بصوتِه ويبهجُنا بصورتِه ، ولو أنها وصيفَة ، أو ذو صورةٍ لطيفة ، ولا نطلبُ زيادةً عن النظر ، وحُسنِ المفاكهةِ والسمر ، والمنادمةِ إلى السّحَر ، لَزالتْ وَحْشَةُ الاغْتراب ، ودَهْشَةُ حِدَّةِ الشراب ، فإنه قيل : الشرابُ بغيرِ نَغَم غَمٌّ ، وبغيرِ دَسمٍ سمّ ، وإنَّ مذهبَنا ما قيل :

أَتَأْذَنُون لِصَبٍّ فى زيارتكم ... فإنّكم فى محلّ السمعِ والبصَر
لا يضمرُ السوءَ إنْ طال الجلوسُ به ... عفّ الضميرِ ولكنْ فاسِقُ النظَر

فنهضَ الرئيس ، وترك مذهبَه الخسيس ، واستعمل المرُوّةَ ، وسلك سبيلَ الفُتُوَّة ، وأنشد يقول :

وكلُّ قيادةٍ لأخٍ وخِلٍّ ... بلا جُعْلٍ فتلك من المروءة[٣٢]

وأخطر البالَ ، مانظمه الشاعرُ وقال :

ياناظِمَ الشِّعرِ فى مقامِ فتى ... يقودُ فاسمعْ مَقَالةَ الظُّرَفا
ألفِ هذا حروفُهُ سَمَحَتْ ... هِمَّةُ هذا فآلف الحُرَفَا

ومِنْ مذهبِ المجوس ، إباحةُ فرجِ العروس ، فدخل فى بيتهِ ، وذكر ما جرى بينه وبين ضيفِه لبنتِه ، وقال : أيْ ربيبةَ الحسنِ والإحسان ، أظنُّ أن ضيفَنا من أكابرِ الأعيان ، ومقرُّه فى حضرةِ السلطان ، وقد التمسَ منى ما يزيدُ سرورَه ويفيدُ حُضورَه ، حُبورَه ، ويلهيه بمفاكهتِه ، وحُسنِ منادمتِه ، وماعندنا مَنْ يصلحُ لذاك ، أي مادة السرورِ سواك ، وأنا أعرفُ بعفّتِك ونزاهتِك ، وحسنِ محاضرتِك ومفاكهتِك ، وصيانةِ رأيك ، ورزانةِ عقلِك وذكائِك ، فإنْ رأيتِ أنْ تُمتعيه بالنظرِ إلى جَمالك ، وتفتنيه بغُنجك ودلالِك ، ولو بلحظةٍ أو بلفظةٍ ثم تعودى إلى

---

[٣٢] الجعل : ما جُعِلَ على العمل من أجر أو رشوة .

كِنَاسِك[٣٣] ، بين أهلِك وناسِك ، فقالت : الأمرُ منك وإليك ، وما أريـدُ أنْ أشُـقَّ عليك ، وليس فى ذلك عار ، ولا فى خدمـةِ الضيـفِ وإكرامِه شنــار ، فأجـابت أبـاهـا ، وكان ذلك عـن رضاهـا ، بـل جـلّ قصدِهـا ومناهـا ، فـأقبلت إلى خدمـةِ الضيف ، ولعبتْ معه من لحاظِها وقدّها بـالرمحِ والسّيف ، إلى أن صادتْه بلحظِهـا المكسور ، فأمسى قلبُه وهو فى يدِهـا مأسـور ، وكـان قـد خـرجَ للصيـدِ فَصِيـد ، وصار - مع سلطانِه - لها من جُملةِ العبيد ، ثم إنه أنشدَ يقول :

أرى ماءً وبى عطشٌ شـديـد ولكنْ لا سبيـلَ إلى الـوُرود

ثم قَرّر فى ضميرِه أنه إذا وصل إلى سريرِه ، يطلبُ هذا الرئيسَ ويصاهِرُه ، ويقطعُـه هذه القريةَ ويعاشِرُه ، ويجعلُ بنتَه خُونْدَه[٣٤] ، ويسلّمُ إلى أبيها جُنـدَه ، فمـا استتمَّ هذا الخاطرُ الخطـير ، حتـى جـاءهم الراعـى المستجير ، وقـال : إن الغنـمَ التـى مـا بَضّتْ[٣٥] بقطرة ، ولا دَرّت درّة ، قد امتـلأتْ ضروعُهـا القاحلـة ، فهـا هـى دارّةٌ حافلة ، قد صـارتْ كالسيولِ على السايلة ، فلَمْ يبقَ وِعـاءٌ إلا امتلأ ، وقـــد رَوى من الجيرانِ المـلأ ، وهـاهى تشـخبُ وتسيل ، وفـاضتْ فـأروتْ الحقـيرَ والجليـل ، وأغنتْ الجيران ، وكأنّها غـدْران . فقـالتْ بنـتُ الرئيـس : للهِ الحمـدُ والتقديـس ، الذى أصلـح نِيَّةَ سلطانِنا ، حتـى استقررنا فـى أوطاننـا ، وعـاد علينـا مـا سُـلِبْنَاه ، ورجعَ إلينا ما طلبناه . فعجِبَ بُهرام جور ، من هذه الأمور ، ولما أصبـحَ الصبـاح ، وركـبَ فرسَــه وراح ، استقرّ فـى وِلايتـه الزاهـرة ، وأمْضـى مـا كـان أنـواه مـن

---

[٣٣] الكناس : مأوى أو بيت الظبى .

[٣٤] الخوند فى الفارسية : السيد العظيم أو الأمير ، استعملت فى العربية لقبا بمعنى السيد أو السيدة ، وتستعمل أكثر فى مخاطبة النساء بمعنى الأميرة .

[٣٥] بضت النعجة : رشح ضرعها بالحليب .

المصاهرة ، وأسبل عليه ذيلَ الإنعام ، وزاد له من الإكرام ، ما انتظمَ به أمره واستقام .

وإنما أوردتُ هذا الخبر ، لتعلموا أن الزمانَ فى المجىء والممر ، مطيعٌ لما أضمرَ السلطانُ وما أظهر ، وما أحلاه فى أمرِ رعيَّتِه وما أمر ، وقد قيل : عَدْلُ السلطان ، خيرٌ من خِصْبِ الزمان . وإذا لم يكنْ الملكُ برعيته شفيقا ، ولا باراً ولا رفيقا ، ولم يتجاوزْ عن مسيئِهم متلهفاً لدعائِهم ،مشغوفاً بمحبّتِهم ، محسناً لمحسنِهم ، قائماً بحفظِ مأمنِهم ، فالأوْلى بهم أنْ يهاجروا عن مملكتِه ، ويخرجوا عن إقليمِ وِلايتهِ . قال ربُّ العالمين لنبيِّه وحبيبه سيّدِ المرسَلين : ﴿وَلَوْ كُنْتَ فظًّا غليظَ القلْبِ لانْفَضّوا مِنْ حَوْلِك﴾[36] فينبغى للحاكمِ أنْ لا يؤاخِذَ احداً ، بجريرةِ أحدٍ أبدا . قال الله جلَّ ذِكْرا : ﴿ولاتَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾[37] ولو طُلبَ أحدٌ ، بجريرةِ أحد ، ولحقَ البرىءَ بسببِ المذنبِ عقوبةٌ ونكد ، لَفسدَتْ المملكة ، وانتشرتْ المهلكة ، واضطربتْ الرعية ، وانخرمتْ القواعدُ العليّة ، ولو فعل ذلك المتقدمُ من الملوك ، لَهلكَ الصعلوك ، وانسدّ الطريقُ المسلوك ، وانخرمتْ القاعدةُ على المالكِ والمملوك ، ولَمْ يبقَ للتاجرِ شيّ ، ولاعلى وجهِ الأرض حيّ ، ويجبُ على مَنْ باشر عندَ الملوكِ أمرا مِن الأمور ، أو حُكْماً على الجمهور ، أنْ يكونَ فى دينِهِ متينا ، وعلى الناسِ أمينا ، سديدَ الفكر ، قويمَ النظر ، صدوقَ النطق ، ظاهرَ الصدق ، دائراً مع الحقِّ يقظانَ مَراقب ، فى خواتيمِ أمرِه والعواقِب ، عادلاً بين الأخصام ، شفيقاً على الخاصّ والعام ، ثابتاً فى النوازل ، معدوداً فى البوازل ، مشغولاً بتهذيبِ نفسِه مُتَذكّراً يومَه فى غدِه وأمسِه ، متميزاً بالشمائِل المرضيّةِ على أبناءِ جنسِه ، واضعاً

---

[36] قرآن كريم ، سورة آل عمران : ١٥٩ .

[37] قرآن كريم ، سورة الأنعام : ١٦٤ .

الأشياءَ فى محلّها ، مُتفحّصاً بنفسه عن حلّها وقلّها ، مقيماً كلَّ أحدٍ فى مقامٍ لا يتعداه ، ومنصبٍ معلومٍ لا يتخطاه ، حتى تستقيمَ بذلك أمورُ المملكة ، وتصانَ من الوقوعِ فى مهاوى التهلكة ، ويطمئنَ خاطرُ مخدومِه ، ويركنَ إليه فى منطوقِ قولِه ومفهومِه ، فَيُقْبَل قولُه وفعلُه ، ويُعرف فصلُه وفضلُه . وكذلك يجبُ أن يكونَ الملكُ كريمَ الأعراق ، لطيفَ الأخلاق شريفَ الأعلاق ، وأنْ يكونَ فى جميعِ أحوالِه متمسكاً بذيْلِ أفضالِه ، مراعياً سيرةَ أجدادِه من الملوك ، سالكاً طريقةَ الملوكَ من حُسْنِ السُّلوك ، لأن مَنْ لا يشيدُ أركانَ أسلافِه ، ولايقوّى بُنيانَ أشرافِه يصيبه مثل ما أصاب الذيب ، مع الجَدْي المغنّى المصيب . فسأل الملكُ من أخيه ، أنْ يذكرَ ذلك المثلَ وينهيه .

[٥/١] حكاية الذئب مع الجدى

فقال : بلغنى يامَليكَ الأراض ، أنه كان فى بعضِ الغياض ، لذئبٍ وِجار[٣٨] ، وأهلٌ وجار ، فخرج يوماً لطلبِ الصيد ، ونصبَ لذلك شباكَ الكيْد ، وصار يجولُ ويصول ، ولايقعُ على محصول فَأَثّرَ فيه الجوعُ واللُّغُوب[٣٩] وآذنت الشمسُ بالغروب ، فصادف بعضَ الرعيان ، يسوقُ قطيعيْن من الضان ، وفيهما بعضُ جِدْيان ، فَهَمَّ عليها لشدّةِ الجوع بالهجوم ، ثمّ أدركَهُ مِنْ خَوْفِ الراعى الوُجُوم ، لأنه كان متيقظا ، وعلى ماشيته متحفظا ، فجعلَ يراقبُه من بعيد ، والحرصُ والشَّرَهُ يزيد ، والراعى سائق ، والذئبُ عائق ، فتخلّفَ جَدْيٌ غبيّ ، غفل عنه الراعى الذكيّ ، فأدركه الذئبُ النشيط ، واقتطعَه بأملٍ بسيط ، وَبَشّرَ نفسَه بالظفر ، وطار بالفرحِ واستبشر ، فَلَمّا رأى الجَدْيُ الذيب ، علم أنه أصيب ، بيوم عصيب ، وظفر

---

[٣٨] الوجار : جُحر الضبع والأسد والذئب .

[٣٩] اللغوب : التعب والإعياء .

منه بأوفرِ نصيب ، فتدارك نفسه بنفسه ، واستحضر حيلةَ جأشِه[٤٠] وحدسه ، ومَكْرَه بما أضمره في نفسِه ، وعلم أنه لا ينجيه من هذه الورطةِ الوبيلة ، إلا مغيثُ الخداعِ والحيلة ، وأذكر الخاطر ، ما قال الشاعر :

ولكنْ أخو الحزمِ الذى ليس نازلا   به الخطبُ إلاّ وهو للقصْدِ يبصر

فتقدم بجأشٍ صليب ، وقَبّلَ الأرضَ بين يَدَيْ الذيب ، وقال : مُحِبُّك الرعى ، لجنابك داعى ، يُسَلّمُ عليك ، وقد أرسلنى إليك ، يَشْكُرُ صداقتَكَ وشفقتَك وحشمتَك ومرافقتَك ، ويقولُ قد تركتَ بحسنِ آدابك عادةَ أجدادِك وآبائِك ، فلَمْ تتعرضْ لمواشيه ، وَحَفِظْتَ بنظرِك حواشيه ، وقد حصَلَ لضعافِها الشبع ، وأمستْ بجوارِك آمنةً من الجوعِ والفزع ، وحصل لها الأمنُ من الجزع ، فالله يجعلُ جوارِك وغياضِك أحسنَ مجتمع ، لأنَّ عِجافَ ماشيتِه شبعتْ ورويت ، واستنعشتْ وقويت ، فأراد مكافأتك ، وتَطَلّبَ مصافاتَك ومصادقتَك ، فأرسلنى إليك لتأكلنى ، وأوصانى أنْ أُطرِبَك بما أُغنى ، فإنى حَسَنُ الصوتِ والغناء ، وصوتى يزيدُ فى شهوةِ الغذاء ، فإنْ اقتضى رأيُك الأسعد ، غَنّيْتُكَ غناءً يُنسّى أبا اسحق[٤١] ومعبد[٤٢] ، وهو شيءٌ لم يظفرْ به آباؤُك ولا أجدادُك ، ولا ينالُه أعقابُك وأولادُك ، يقوّى كرمَك ، وشهوتَك وقِرمَك ، ويطيّب مَأْكلَك ، ويسنى مأملَك وإنّ صوتى اللّذِيذ ، ألَذُّ للجائعِ من جَدْيٍ حنيذ ، بخبزٍ سميذ ، وللعطشانِ من قَدَحِ نبيذ ، ورأيُك أعْلى ، وامتثالُك أوْلى . فقال الذئب : لا بأسَ قد أَجَبْتُ سؤالَك ، فَغَنِّ ما بدا لك ، فرفع الجَدْيَ عقيرَتَه ، ورأى فى الصياحِ خِيرَتَه ، وملأ الدنيا عياطا ، وأعقبَه ضراطا ، وأنشد :

---

[٤٠] الجأش : النفس أو القلب .

[٤١] اسحق الموصلى (٧٦٧ - ٨٥٠ م) عمدة المغنين ورواة الألحان فى العصر العباسى .

[٤٢] معبد بن وهب (ت ٧٤٣ م) إمام المغنين فى العصر الأموى .

وعصفورُ الهوَى يَهْوَى جـرادَةْ كما عشقَ الخروفُ أبا جُعادة[٤٣]

فاهتز الذئبُ طربا ، وتمايلَ عُجْباً وعَجَبا ، وقال : أحسنتَ يا زينَ الغنم ، ولكن هذا الصوتُ من البمّ[٤٤] فارفَعْ صوتَك فى الزئير ، فقد أخجلتَ البلابلَ والزرازير ، وزدنى ، يامغنى ، قولى :

أَقَـرَّ هـذا الـزمـانُ عَـيْـنِـى بالجمـعِ بينَ المُنى وبيَنْى

وليكنْ ياسيدى المغنى ، هذا من أَوْجِ الحُسَيْنى[٤٥] ، فاغتنمَ الجَدْيُ الفرصة ، وأزاحَ بعياطِه الغُصّة ، وصرخَ صرخة أخرى ، أذكره الطامّةَ الكبرى ، ورفعَ الصوت ، كَمَنْ عاينَ الموت ، وخرجَ من دائرةِ الحجازِ إلى العراق ، وكادَ يحصُلُ له من ذلك الانفتاق ، وقال :

قِفُـوا ثـمّ انْظُـرُوا حالِـى أَبُـو مَـذْقَـةَ أَكّـالِـى[٤٦]

فَسمعَه الراعى يشدُو ، فأقبل بالمطراقِ يعدو ، فَلَمْ يشعر الذئبُ الذاهل ، وهو لحسْنِ السماعِ غافِل ، إلاّ والراعي بالعصا على قفاه نازل ، فرأى الغنيمة فى النجاة ، وأخذ فى طريقِ النجاة ، وترك الجَدْيَ وأفلت ، ونجا من سيفِ الموتِ المصلت ، وصعد إلى تلٍّ يتلفتْ ، بعد أنْ تفلّتْ ، فأقعى يأكلُ يَدَيْهِ ندامة ، ويخاطبُ نفسَه بالملامة ، وقال : أيها الغافلُ الذاهل ، والاحمقُ الجاهل ، متى كان على سماطِ السرحان ، الغناءُ والأوزان ، وأيُّ جَدٍّ لكَ فَانِى ، وأبٍ مفسدٍ جانى ، كان لا يأكلُ إلاّ بالأغانى ، وعلى صوت المثالث والمثانى ، فَلَوْلاَ أنّك ماعَدَلْتَ عن طريقةِ

---

[٤٣] أبو جعادة : كنية الذئب .

[٤٤] البمّ : الوتر الغليظ من أوتار العود ، ويقابله فى آلة العود الحديثة : العشيران .

[٤٥] الأوج : لحن من ألحان الموسيقى . والحسينى : الذى يبذل فيه أقصى الجهد والغاية والتحسين .

[٤٦] أبو مذقة : كنية الذئب .

آبائك ، ما فاتكَ لذيذُ غذائِك ، ولاَ أَمْسَيْتَ جائعاً تتلوى ، وبحسر فواتِ الفرصةِ تتكوّى ، وبات يحرّكُ ضرسَه ونابه ، ويخاطبُ نفسَه لما نابه ، ويقول :

وعاجزُ الرأي مضياعٌ لفرصتِه   حتى إذا فاتَ أمْرٌ عاتبَ القدَرا

وإنما أوردتُ هذا النظير ، لمولانا الملكِ والوزير ، ليعلمَ أنَّ العدولَ عن طرائِق الأصولِ ليس إلاّ داعيةَ الفضول ، ولا يساعدُه معقولٌ ولا منقول ، وأمورُه ذميمة ، وعاقبتُه وخيمة ، وناهيك ماهو كالعَلم ، ومن يشابه أَبَهُ فما ظَلَم . ويؤخذُ من مفهومِ هذا الحكم ، أنّ مَنْ لم يُشابه أَبَهُ فقد ظلَم ، خصوصاً الملوكَ والسلاطينَ الذين أختار رفعتَهم ربُّ العالمين ، وذلك لئلاّ يدخل على قواعدِ المملكة ، من حركاتِ الاختلالِ والاختلافِ حركَه ، و للهِ يا ذا الإحسان ما قيل فى شأن الملك أنوشروان :

للهِ دَرُّ أنوشروانَ مَن رجلٍ   ما كان أعْرَفَهُ بالوغْدِ والسّفَل

نَهَاهُم أنْ يمسوا عنده قلَماً   وأنْ يذلّ بنو الأحرارِ بالعمل

وكلُّ هذا من عدمِ التدبّر ، والتأمّلِ فى العواقبِ والتذكّر ، ومَنْ تَرَكَ التأمّلَ والافتكار ، أصابه ما أصابَ ابنَ آوى مع الحمار . فقال الملك : أفدْنا أيها المختار ، كيفيَّة هذه الأخبار .

[٦/١] قصة ابن آوى مع الحمار

قال الحكيم : كان فى جِوارِ بستانٍ مأوى لابْنِ آوى ، وكان ذلك البستان ، كأنه قطعةُ من الجَنان ، غفل عنها رِضْوَان ، كثيرَ الفواكهِ والرطب ، خصوصاً التينَ والعنب ، وكان ابنُ آوى يدخلُ البستانَ من مَجْرى الماء ، ويأكلُ الثمارَ كيفما أحب وشاء ، وينصرفُ ذلك الخبيث ، ويأخذُ فى الفسادِ ويعيث ، كأنه ذميمٌ تركَ الذّمام ، أو لئيمٌ من بني اللئام . فتضرَّر البستاني ، من أضرار ذلك

الجانى ، وعجزَ عن صيدِه ودَفْعِ كيده ، فراقبَ دخولَه ، ليختِلَه ويغولَه ، إلى أن رآه يوما دخل ، وفى البستانِ حَصَل ، وبأكلِ العنبِ اشتغل . فبادرَ إلى نقرةِ الماءِ فسدَّها ، وسدَّ الطرقَ التى أعدّها ، ودخل إلى الباغى ، وحصّل ذلك الطاغى ، وحصرَه وأوهنَه وضربَه ، إلى أن أثخنه ، فذهبتْ قُواه ، وشُلَّتْ يداهُ ورجلاه.، فتصوّر أنه مات ، لما سَكَنتْ عنه الحركات ، فأشْحَطه بذنبه ورماه ، وعلى العظامِ الرّفاتِ ألقاه . فاستمر لا يفيق ، مُلقى على الطريق ، إلى أن تراجعتْ إليه نفسُه ، وقوِيَ جأشُه وحسُّه ، فتحرّك وهو هَشيم ، وتنفّس وهو سَقيم ، ثم تدحرج إلى منزله ، وقد أحاط به سوءُ عملِه ، إلى أن صَحَّ فهمُه ، وقويَ جسمُه . فافتكر فيما جرى من الجارِ القديم ، عليه من العذابِ الأليم ، فقال : إذا كان جارُ العمر ، وقرينُ الدهر ، قصدَ دمارى ، ولم يَرْعَ لى حقَّ جوارى ، لأجْلِ قُوتٍ فَضْلٍ عن أقواتِه ، وأثبتَ أجرَه فى ديوانِ حسناتِه ، وشدَّ لحتفى على حلْقى مسدَّ الطُّنب ، ولم يعملْ بقولِه تعالى : ﴿والجار الجنب﴾[٤٧] بل لو رَمق ، فى بدنى أدنى رَمق ، أو أقلَّ حركة ، لما تركَه ، فلا خيرَ لى فى جوارِه ، ولا قربِ دارِه ، فإن سَلِمْتُ هذه المرة ، فما كُلُّ مّرةْ تَسْلَمُ الجرّةَ ، والأليق بالحالِ الترحال ، وطلبُ الرّزق ، بالتوكّلِ والرفْق ، والذى شقَّ الأشدَاق ، تكفّل لها بالأرزاق ، وأن إله الخلْق ، لم يعذبْ بقطْعِ الرِزْق ، ثم إنه افتكرَ فى جهةِ السفر ، وأينَ يكونُ المستَقَر .

وكان لأبيه الذميمِ ذئب ، وهو صاحبٌ قديم ساكنٌ فى بعضِ الغياضِ ، المجاورةِ للدوحِ والرياض ، فتوجّه إليه ، وترامَى عليه ، وتوسل بصحابةِ أبيه لديه . وقال : صداقةٌ فى الآباء ، قرابةٌ فى الأبناء ، وذكَرَ له حالَه ، وماجرى لَه ، وأن جارَه خانه ، ولم يَرْعَ حقَّه ومكانَه ، فقصدَ أنْ يكونَ تحتَ ظلّه ، نازلاً فى محلّه ، ليفوزَ

[٤٧] قرآن كريم ، سورة النساء : ٣٦ .

بمجالستِه ، ويحظَى بمؤانستِه ، ويقضِي باقي عُمرِه فى خدمتِه ، ولا يفارقُ وفا
حتى يحصلَ فى حفرتِه ، فتلقّاه بالقبولِ والإقبال ، والفضل والإفضَال ، والبشْ
والبشاشة ، واليُسْر والهشاشة ، وبسَط له فراشَه ، وأزال قبْضَه وانكماشَه ، ودهشَ
واستيحاشَه ، وألبسَه رياشَه ، وتذكّر والدَه ، وجدّد معاهَده ، وأسدَى إليه مـ
إحسانه ، ما أنساهُ ذِكْرَ أوطانِه ، خصوصاً جِوَارَ جارِه وبستانِه ، وأنشده بديهاً :

فأهلاً بمحبوبٍ قديمٍ ودادُه — وسهلاً بمن قد كانَ والدُه أبى
تحكّم علَى مالِي وروحِي ومسكِني — وأهلِي وأولادِي وجاهِي ومنصبى

ولم يكنْ عندَ الذئبِ مايطعمُه ضيفَه ، ويشبعُ جوفَه ، فاستعدّ للكياد ، وعزَم على الاصطياد . فقال ابن آوى : أينَ تريد ، وتتركنى وأنا وحيد . فقال : أمِنْتُ خوفَك ، فأريدُ أن أشبعَ جوْفَك ، ومن المعلوم ، أنَّ عدمَ الضيافةِ لوم . فقال : لاتتعب : فأنا أذهب ، فلى صاحبٌ حمار ، كأنّه تَيْسٌ مستعار ، يُصغى إلى قَوْلى ، ويعتمد على قُوَّتِى وحَوْلى ، فإنّى أخدعُه ، وإلى دارك أُشَيِّعُهُ ، فأوْثِقْه حبالَك ، وافعل معه ما بدا لَك ، فَصَيِّرْه لنا طَعاما ، فإنّه يكفينا أيّاما . فاستصوبَ الذيب ، رأيَ ذلك المريب ، وتوجّه ذلك الغدّار ، ليأتيَه بالحمار ، وصعد تَلاًّ ينظرُه ، ويرتقبُ مايكونُ خبرُه .

ولما توجّه ابنُ آوى لطلبِ الزّبون ، انتهى فى سيره إلى طاحون ، وإذا بحمارٍ قد أوثقوه حَبْلا ، وأوسعوه ذُلاًّ ، وعلى ظهرِه حِمْلٌ قد قَصَمَ ظهرَه ، وأدْمَى دبرَه ، فطرحوا حملَه ، وأصلحوا جلّه ، وتركوه يسعى ، وفى المرْجِ يرعى ، فتقدّم ابنُ آوى إليه ، وسلّم سلامَ مَعْرِفَةٍ عليه ، وأظهرَ له المحبّةَ والودَاد ، وسألَه عن أهلِه والأولاد . فقال له : أىّ أهلٍ و ولد ، وأنا فى هذا البؤسِ والنّكَد ، ما بيَنْ حِمْلٍ ثقيل ، وجوعٍ طويل ، وركوبٍ وسخر ، ومصائبَ أُخَر ، هذا يركب ، وهذا يضرب ، وهذا يسحب ، وهذا يحمل حمله ، وهذا ينخس بالمسلة ، وهذا يحبسُ

على الجوعِ والذِلّة ، وهذا يقودُ بحبلِه ، وهذا يردِّدُ بثقله ، وهذا يجودُ ولكنْ بكلامٍ ثقيل ، فكأنّي في مشاقي كما قيل :

ولا يُقيمُ على ضَيْمٍ يُرادُ بـه   إلاّ الأذلاّن : عِيرُ الحيِّ والوتـدِ
هذا على الخَسْفِ مربوطٌ برمتـه   وذا يُشَجُّ فلا يرثى له أحـد

فتفجّع ابنُ آوى وتوجّع ، وحَوْلَقَ[48] واسترجع[49] والتهبَ واضطرَم ، وأظهرَ التحرّقَ لِما رآه مِن الألم ، وأخذَ يلومُه على صحابةِ بني آدم ، والمصابرةِ على ما يُلجئه إلى الندم ، من إيذائهم وجفائِهم ، وتحمّلِ بلائِهم ، وعدمِ وفائِهم . وقال له : حَتّامَ هذا الذلُّ ، والتطوّقُ بها الغُلّ ، وتحمّلِ أنواعِ الهوانِ مِن البعضِ والكُلّ ؟ وإلامَ هذا العطشُ والجوع ، وعدمُ القرارِ والهجوع ، وأرضُ اللهِ واسعةُ الفضَاء ، شاسعةُ الأرجاء ؟ وحتّامَ تذوب ، من اللُّغُوب ، تحتَ هذا الحِمْلِ الثقيل ، والجوْرِ العريضِ الطويل ؟ فقال : لو وجدتُ ملجأ أو مسرحا ، أو مدخلاً أو مطرحا ، أو مغاراتٍ أو منجحا ، لَوَلّيْتُ إليه وأنا أجمح ، وتخلّصْتُ من هذا البلاءِ العظيم ، والشقاءِ الجسيم ، ولو رأيتُ أحداً شفيقا ، أو مصافياً صديقا ، يهدى إلى الخلاصِ طريقا ، لاستغنيْتُ بآرائِه ، ولاستشفيْتُ لدائِي بدوائِه .

قال ابنُ آوى : ياأكْمَه[50] إني أعرفُ بالقربِ أَجَمَة ، أزهارُها فائحة ، وأنوارُها لائحة ، وأنهارُها بالصفاءِ غاديةٌ ورائحة ، غياضُها نَضرَة ، ورياضُها خضرة ، وربُاها حصينة ، وذُرَاها أمينة ، وأنا ساكنٌ فيها ، آمنٌ في ضواحيها ونواحيها ، فإنْ اقتضَى رأيُك ذهبْتُ بك إليها ، لتقفَ عليها ، فإنْ أعجبتْكَ سكنْتَها ، ووقيتَ النّوائب وأمنتْها ، فإنها بمعزلٍ عنِ السباعِ الجواسِر ، والضباعِ الكواسِر ، والجوارح

[48] حولق : قال : لا حول ولا قوة إلا بالله (منحوتة) .

[49] استرجع : قال : إنا لله وإنا إليه راجعون (منحوتة) .

[50] كمه الرجل : عمي .. والأكمه هنا : الأعمى .

النواسير ، لا يطرقُها إنسانٌ ولا يدخلُها حيوان ، وسترى مِنّى خَيْرَ جار ، وحسنِ الجوار ، وستحمدُ عاقبةَ مقالى ، وما تراه من أفعالى ، وتخلصُ من جفاءِ بني آدم ، وتبقى فى نعيمٍ دائم ، وتعيشُ معنا فى عيشٍ رغيد ، وعمرٍ هنيءٍ سعيد ، وتحصّلُ المؤانسةَ ، ويُمْنَ المعاشَرةِ والمجالسَة ، وأمّا أنا فلا أجدُ رفيقاً مثلَك ، وليس لى إلى صديقٍ غيرِك مَسْلَك . فلمّا سمعَ الحمار ، هذا الحوار رَغِبَ فى الخلاص ، من الاقتناص ، والبلاءِ الذى هو فيه ، والشقاءِ الذى يؤلمُه ويُؤذيه ، فسلّم قيادَه إلى ابن آوى ، وقال : سِرْ بنا إلى ماذكرْتَ مِن ماوى[٥١] لئلاّ يرانا رَصْد[٥٢] ، أوْ يشعَرَ بنا أحد . ثم أعجَلا فى السيْر ، وأشبها فى سيْرهما الطيْر ، فتقدّم الحمارُ سابقا ، وأعيا ابن آوى لاَحِقا ، فخدَعَ وغالَط وخلَط وبالَط ، ونادى الحمارَ : إليَّ إنْ كُنْتَ تعبْتَ فارْكبْ عليّ . فقال الحمار : بل أنتَ ارْكَبْ ، ولا تتعبْ ، فَطَفَرَ ابنُ آوى علىالجمار ، وصار لا يقرُّ له قرار ، وابنُ آوى يهديه الطريق ، وهو فى نهيقٍ وشهيق ، فلمّا قَرُبَا من الأجَمَة ، فتح عينَه ذلك الأكْمَه ، ورفعَ آذانَه وبصرَه ، فرأى الذئبَ قاعداً منتظرَه ، فعرفَ أن تلكَ مكيدة ، نصبها ابنُ آوى ليصيدَه ، فقال :

* تأتي الخُطُوبُ وأنْتَ عَنْها نائِمُ *

ثم استحضرَ عقلَه المفقود ، واستعمل عقلَه الموجود ، وعرف أنّه غَفَلَ عن نفسِه ، وقد سعى برجْليْه إلى رَمْسِه ، وانتقلَ مِن المرضِ الذى هربَ منه إلى نُكْسِه[٥٣] ومِن خمولِه وذُلّه إلى تعسِه ونِكْسه[٥٤] فتردّد متفكرا ، وأقام مُتَحَرّيا متحيرا . فقال له ابنُ آوى : مالَك ؟ اسرِعْ فقد أحسنَ اللهُ حالَك ، وأمَّنَ فكرَك

---

[٥١] ماوى : مخفف مأوى .

[٥٢] الرصد : الجاسوس أو العين أو البصّاص .

[٥٣] النكس - بضم النون - عود المرض بعد النّقَه .

[٥٤] النكس - بكسر النون - الضعف والشقاء .

وانعشَ بالَك ، وجعل إلى عاقبةِ الخيرِ مآلك ، لئلاّ يدركَنا أحد ، أو يلحقَنا ضررٌ ونكد . فقال الحمار : ياأخى شاهدْتُ قُدُودَ أغصانٍ رَشِقَة[٥٥] ، ونَشَقْتُ روائحَ ريحٍ عَبِقَة ، وسمعتُ خريرَ الأنهار ، وأصواتَ البلابلِ والهزَار ، فَنَدِمْتُ حيثُ لم أقطعْ علائقى ، وأُوَدِّعْ جارى ومُرافقى ، وأَبُتَّ مالى من التعلّقات ، وأجيءُ وما ورائى التفات ، وأنا إنْ وَلَجْتُ هذه الغيضة ، ورعيتُ مروجَ هذه الرَّوضة ، ورأيتُ ما فيها مِن المتنزهات ، أَلْهتْنى عمَّا لى من تعلقات ، فتضيعُ إذْ ذاك مصلحتى ، وتذهبُ عند جيرانى ودائعى وذخيرتى ، ولا أقدرُ على مفارقةِ هذ المقامِ النّزه ، ومجاورة مثلك أيها الجارُ الفكِه . وقد عزمتُ على الرجوعِ ، لأصحبَ مالِى من مالٍ وأثاثٍ مجموع ، وأجيء وقلبى مطمئنّ ، وخاطرى عن الالتفاتِ مستكنّ .

قال ابنُ آوى : اتركْ مالَك ولا تؤخرْ أوقاتَ السرور ، وساعاتِ الفراغِ والحبور ، وما خلّفتَه فهو لك ، وتلافيه أمرٌ مستدرَك ، ولا بأسَ أنْ تدخلَ هذا المكان ، وتدوّر فى هذا البستان ، وتتعاهَده ولو مرة ، وتشاهدَه ولو نظرة ، ثم تعود ، وتفعل ما تريد . وبالجملةِ فتأخيرُ أوقاتِ السرور ، غيرُ محمودٍ ولا مشكور ، فقال الحمار : الأمرُ كذلك ، وقاك الله شرَّ المهالِك ، ولكنَّ أقوى الدواعى فى هذه القضية ، والحاملَ على الرجوعِ وإنْ كان بلية ، وصيّةُ مِن أبى كانت عندى خفيّة ، كنتُ أعملُ بها ، وأمشى فى دربِها ، ولا أفارقُها فى نومى ولايقظتى ، وكنتُ جعلتُها حرزاً أعلقُه فى رقبتى ، وإذا لم تكنْ معى فى مسيرِى ومضجعِى ، لا يقرّ لى قرار ، ولا يأخذُنى اصطبار ، ويعترينى شبهُ الأوام[٥٦] ،

---

[٥٥] رشقة : رشيقة منتصبة .

[٥٦] الأوام : الدُّوَار .

وأرى خيالاتٍ فاسدةً فيالمنام ، وتغلبُ على دماغى فنونُ السوداء[٥٧] ، ولا أجدُ منها دواءً لذلك الداء ، وفيها وصايا نفيسه ، لروحِ العقلِ بمنزلةِ الأعضاءِ الرئيسة ، فإذا حصلتُ على تلك الوصيّةِ المعّينة ، فقضيّةُ ما سواها هيِّنة ، ثم أَلْوى راجعا ، لا سامعاً لابنِ آوى بل طائعا ، فافتكر ابنُ آوى أنّه إذا تركَ الحمارَ وحدَه فوَّتَه قصدَه ، وخيّبَ الله كدَّه ، وأبطلَ حِيَلَه وجُهْدَه ، فرأى لنفسِه المنفعة أنْ يرجعَ معه ، فربما ينجح سَعْيه ، ويسلبُ من الحمارِ وَعْيه . فقال : يا أخى شَوَّقْتنى بهذه القضية ، إلى الاطّلاع على تلك الوصيّة ، لأستفيدَ منها ، وآخذَ حظِّى من الفضلِ عنها ، فلا بُدَّ من مصاحبتِك ، والذهابِ معك ومرافقتِك . فقال الحمار : لا دافعَ ولا مشاقق ، ولا مانعَ أن تكونَ لى مرافق . فقال ابنُ آوى : فهل فى حفظِك منها شيّ ، فإن كان فَأَلْقِهِ إليّ ، لِنتذاكر فى الطريق ، ولا يؤثر فينا التعب والضيق . فقال : نصيحةٌ واحدة ، هى بصدقى شاهدة ، وهى كلمة مجمِلة ، فوائدها فيها مجمَلة ، وهى : إنّ أبى قال لى إيّاك أنْ تفارقَ هذه الوصيّة ، فإنْ فارقتَها وقعت فى بلية ، وسأخبُرك بسائرِها فى المسير ، إذا تذكّرْتُ أيها البصير، ثم سار قليلا ، وأفكر طويلا ، وقال : وهذه أخرى سنحها ذكرى ، وارتضاها فكرى ، وهى إذا وقعتَ فى شدّة ، ورمتَ للخلاص منها عِدَّة ، فَتَصَوَّرْ أصعبَ منها ، يحصلْ لك التفصّى[٥٨] عنها ، وتَهُنْ عليك ، وتعدّها نعمةً أُسدِيَتْ إليك ، فتشتغلَ بشكرِها ، وتستأنسَ بذكرِها . فقال ابنُ آوى : أحسنتَ ياحمار ، وهذا مقامُ الأخيار ، والصالحين والأبرار . ثم سار سيرةً رائثة ، وقال : والله هذه نصيحةٌ ثالثة ، فقال : قُلْ ، واسلَمْ وَطُلْ . فقال لا تحسبْ أنّ الصديقَ الجاهل ، خيرٌ من العدوِّ العاقل ،

---

[٥٧] السوداء : أحد الأخلاط الأربعة التى اعتقد الأقدمون ان الجسم تهيأ عليها ، بها قِوامه ، ومنها صلاحه وفساده ، وهى الصفراء ، والدمّ ، والبلغم ، والسوداء .

[٥٨] التفصّى : التخلص ، والخروج منها ، والتهوين من شأنها .

فإنّ عِلْمَ العدوِّ العاقل ، خيرٌ لك من جهلِ الصديقِ الجاهل . فقال ابنُ آوى : ما أحْلى كَلامك ، وأعْلى فى اللُّطفِ مقامِك ، وأنْزَهَ منادمتَك ، وأفكَه مكالمَتك ، با للهِ شَنِّفْ المسامع ، فإنى لكَ بقلبى وجوارحى سامع . فقال مهلاً حتى أتذكَّرَها ، وأتصوّرَها كما ينبغى وأتفكَّرَها . وانتهى أمرُ ابنِ آوى على تعسِه ، وساقه القضاءُ إلى رمْسِه ، فوصلَ إلى الضيعة ، وقد وقع ابنُ آوى فى ضيعة ، فألح على الحمار ، فقال : أخبرنى فَمَا بقى لى اصطبار .

فقال : قال لى أبى ، بكلامٍ فصيحٍ عربى : لا تجعلْ مقامَك ومقيلَك ، بمكانٍ يكون فيه ابنُ آوى دليلَك ، والذئبُ فيه جارَك وخليلَك ، وإنْ جعلتَ لك فى مثلِ هذا المكانِ ساحة ، فما ترى يكونُ لكَ فيه من الراحة ، وإنْ أردتَ أنْ تَخلُصَ من هذا المكان ، فانصبْ الآذان ، وارفعْ ذكرَ اللهِ بالأذان ، فإنه يُنجيك من الضِّيق . ثم رفعَ عقيرتَه[٥٩] بالنهيق ، فسمعَهُ معارفُه مِن الكلاب ، فسارتْ إليه مستبشرةً بحُسْنِ الإياب ، وسارعتْ إليه ، واجتمعتْ حواليه ، فَمَا شعر ابنُ آوى ، إلا وهو متورطٌ فى البلوى ، فَطَفَرَ للهرب ، فأدركَهُ من الكلاب الطَّلَب ، فاحتوشتْه ، وانتوشَتْه ، واختطفَتْه ، واقتطفتْه ، ووزّعتْه ومزّعتْه ، ومرّشتْه ، وقرّشتْه ، فَلَمْ تَبقِ منه عَيْناً ولا أثرا ، وذهب دمُه فى تدبيرِه هدرا .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، وعرضتُه على الرأي العال ، ليعلمَ أن الاغترارَ بالكلامِ محال ، والإصغاءَ إلى الحكاياتِ والقولِ البطال ، من غيرِ تنقّلٍ من ألفاظِها إلى معانيها ، وتأمّلٍ فى مآلِ مقاصدِها وفحاويها ، والاعتمادِ على القضايا المزخرفة ، والركونِ إلى الأمور المسفسفة ، لايفيدُ سِوى الندَم ، وزلّةِ القدَم ، والأصلُ فى

[٥٩] العقيرة هنا : الصوت ، جمع عقائر ، وهى أيضا الساق المقطوعة .

الولاياتِ والمناصب ، التفكّرُ فى الخواتيمِ والتأمّـــلُ فـى العواقــب ، وإلاّ فليـس فـى ذلك ، سوى إضاعةِ العمرِ والمصيرِ إلى المهالك ، وقلت شعرا :

وأسعدُ مَنْ يكسِي الوِلايةَ مَنْ إذا نضا ثوبُها يُكسَى الثناءَ المطرَّزا[٦٠]

فلمـا انتهى الكـلام ، إلى هـذا ، المقـام ورأى الوزيـر ، برأيـه المنير ، مـافى هـذه الفصول من الفضلِ دونَ الفضـول ، اعـترفَ للملـكِ حسيب ، بالفضـلِ الحسيب والرأي المصيب ، وحسنِ النصيحـةِ والبيـان ، وصحـةِ الدليـلِ والبرهـان ، فـأذعنَ للحق ، وأناب إلى الصـدق وقـال لقـد أتيـتَ النصيحـةَ مـن بابهـا ، وأوصلتَهـا إلى طُلاّبِها ، وكلَّ كلامٍ قررتَه ، وبيانٍ حرّرْتَه ، إنما هو شكرٌ أحرزتَـه ، وطريـقُ سـدادٍ بيّنْتَها ، وسبيلَ رشادٍ أوضحتَها ، وبابَ صوابٍ فتحتَه ، وميزانَ إحسـانٍ أرجحتَـه ، وعلى كلِّ عاقل ، ومستمعٍ وناقل ، أن يقتديَ بهذه النصائح ، ويوصّلَها إلى السائح والسابح[٦١] ، ويغنمَ فوائدَها ، وعوائدَها وموائدَهـا ، ويعمـلَ بموجبِهـا ، ولايخـرجَ عن مذهبِها .

ثم إن الملكَ لـمّا أصغى إلى هذا الفصل ، وفهمَ ماتضمّنَـه مـن حِكْمـةٍ وفضـل ، أفرغ على أخيه ، وأهلِهِ وذويه ، لباسَ الإنعام ، وَوَفّاه بمزيدِ الإكـرام ، وقـال : لقـد قمتَ أيها الأخُ الشقيق ، فى تدقيقِ النصحِ بالتحقيق ، وحَلَلْتَ المُشْـكل ، وجلَوْتَ الطريـق ، وأديَّـت حـقَّ الفتـوّة ، وواجـبَ المـروّة ، وشـرائطَ الأخـوّة . والآن قـد حكّمنَاك فى وِلايتِنا ، وولّيناكَ على حُكّامِنا وقُضَاتِنا ، وبسطْنا يـدَكَ فـى الأقـاليم ، وأطلقْنا لسانَك فى التعليم ، فَتَحَكّمْ فى الرؤوسِ والأطـراف ، واحكـمْ فـى الآفـاق والأكناف واشرعْ فيما أنتَ بصددِه ، ولاتتقيـدْ بالمخالِفِ ولَـدَدِه ، وكُـنْ منشـرحَ

---

(٦٠) نضا الثوب : خلعه أو نزعه وألقاه .

(٦١) السابح : البعيد .

الصدرِ ، قويَّ الظهر ، قريرَ العين ، مبسوطَ اليدين ، مباركَ الطلعة ، حَسَنَ السيرة ، صبيحَ الوجه ، طيّبَ القلبِ والسريرَه ، طويلَ العَضُدِ والسّاعد ، ممدوحاً عند الغائبِ والشاهد ، خليَّ البال ، هنيَّ الحال ، فإنّكَ مِنْ بَطْنٍ كريم ، وفَخْذٍ على الطاعةِ مستقيم ، وفى الفضائلِ ذو قدَمٍ وصدق ، وفى الصناعة ذو صُنْعٍ وحِذْق . فلا تتوانَ فيما عزمتَ عليه ، وقصدتَ إليه ، من النصائحِ الملوكية ، والفصولِ العلميةِ والعملية ، وأتْحفْنا بتلك الحِكَم السنية ، والخصالِ البهيّة ، والشمائلِ المرضية ، فإنها لذةُ الأشباح ، وغذاءُ الأرواح ، والطرازُ المضيءُ على خلعِ المسَاءِ والصباح .

فنهضَ الحكيمُ من مَجْثَمِه[٦٢] ، وقَبّلَ ثَغْرَ الأرضِ بثغرِ جبينِه وفمِه ، وامتثلَ المراسيمَ الشريفة ، واشتغلَ بتأليفِ هذه الحِكَمِ الظريفة ، وترتيبِها بالعباراتِ اللطيفة ، واستطردَ فى تأليفِ هذه الحِكَم ، من حكاياتِ ملكِ العربِ إلى وصايا ملكِ العجم . والله سبحانَه وتعالى أعْلم .

والحمدُ للهِ على كرمِه الأتمّ ، وإحسانه الأعمّ

وصلى اللهُ على سيّدنا محمدٍ

وآله وصحبه وسلّم

---

[٦٢] المجثم : المجلس حيث يلزم الجالس الأرض أو المكان ولا يبرحه إلاّ بإذن ، فهو جاثم .

الباب الثانى

فى وصايا ملك العجم
المتميز على أقرانه بالفضل والحكم

وقال الراوى حَسّان ، معدنُ الظرافةِ والإحْسَان : فتوجّه الحكيمُ حسيب ، الأديبُ الأريب ، إلى إيرادِ الأخبار ، عن الهُدَاة الأخيار ، فحكى أنّ مِلكاً من ملوكِ الأمصَار ، وسلاطينِ العجم يُدْعى شهريار ، كان من العَجم ، وكان فى الجودِ واللطفِ والكرَم ، أمةً من الأُمَم ، مُلْكُه عظيم ، وفضلُه جسيم ، وِلايتُه فى أحسنِ إقليم ، حسن السياسة ، وافرَ الكِياسة ، ثناؤه عاطِر ، وعطاؤه ماطِر ، ووابلُ الحشْمةِ من سحائبِ هيبتِه قاطِر ، وله مِن الأولاد ، وَفِلَذِ الأكْباد ، ستّةُ رجال ، إلى المجدِ والكرمِ عِجال ، وكلٌّ له فى الفضلِ والإفضال ، أوسعُ مجال ، مشهورٌ بالزعامة ، مخبورٌ بالشّهامة ، كَفُّه سخِيّ ، وكنفُه أريحيّ ، ذو شجاعةٍ باسلة ، وبراعةٍ كاملة ، وحشمةٍ وافرة ، وهيبةٍ زاجِرة ، وهمّةٍ أبْحُرُها بالمكارِمِ زاخرَة ، مع رفقٍ ولين ، للصعلوكِ المسكين ، وصلابةٍ فى الدِّين ، وكان الأكبرُ سِنًّا منهم ، مُتَميِّزاً فى هذه الشيَمِ عنهم ، وأعطرَ طيبا ، وأوفرَ نصيبا ، فكأنه فى شأنه قيل :

هذا الذى دانت الدُّنيا لطلعتِه   والدينُ والمُلْكُ والأيامُ والأممُ

فلما دَنَتْ شمسُ عمرِ أبيهم للأُفول ، وقاربَ غُصْنَ عَيْشِه الذبول ، وعزم فِراشُ الأجل على طيٍّ بساطِ حياتِه ، وأوردَ بريدُ الغناء منشورَ تسليمِه إلى متولِّى وفاتِه ، أحضرَ بنيه ، وأكابرَ ذويه ، وقال : اعلموا يا بَنِيّ أنى إستوفيْتُ ، نصيبى من الدنيا وارتقيْتُ ، من لذّاتِها إلى الدرجة العليا ، وذقتُ حُلوَها ومرَّها ، وعاينتُ

حَرَّها وقَرَّها[1] وعرفتُ خيرَها وشرَّها ، ومع ارتقائى فيها إلى المنازلِ الفاخرة ، عملتُ بمقتضى "وابتغِ فيمَا آتاكَ اللهُ الدارَ والآخرة" . فتَزَوّدْتُ بما وصلَتْ إليه اليَد ، وما أخرتُ عمَلَ اليومِ إلى الغد ، ولم تلْهِنى الغفْلة ، ولا إرخاءُ المهلة ، عن الاستحضارِ لساعةِ الرحْلة ، بل لم أزلْ للرحيلِ مستوفزا[2] وللتحوّلِ والانتقالِ متجهّزا ، وأنا اليومَ عنكم راحل ، وسفينةُ عمرِى أرستْ بالساحِل ، وهذا سفرٌ لارجعةَ فيه ، ولا عودةَ لمسافرِكُمْ إليكم تُثْنِيه ، وهذا أمرٌ محتوم ، وقدَرٌ معلوم ، وقضاءٌ قدَّرَه فى الأزل ، ربٌّ لا يزالُ ولم يزَل ، سلطانُ مُلْكِهِ لا يَبيد ، وكلُّ الملوكِ تحتَ أمرِه عبيد ، لا رادَّ لما قضَاه ، ولا مانعَ لِما أمْضاه ، ولا هادٌ لما بناه ، ولا صادٌّ لما سواه ، حَكَمَ بالموتِ على مخلوقاتهِ وساقَه ، لا باب قوَّةٍ فى ردِّه ولا طاقَة ، وقد خَفَّف مِن وجْدى ، أنّ لى مثلَكم يجدى ، وأنّكُمْ خلَفى ، ومُحْيُو سلَفى ، وفيكم مَنْ يقومُ مقامى ، ولا يمحُو أيّامى ، ولا يدرسُ آثارى ، ولا يطفىءُ نارَ أنوارى ، وها أنا أعهدُ إليكم ، واستخلِفُ اللهَ عليكم ، وإنْ كنتُم إلى الوصيَّةِ غيرَ محتاجين ، ولكن الذكرى تنفعُ المؤمنين ، واعلموا أنَّ أزْكى زَهْرٍ تتنوّرُ به بصائرُ النقلِ فى رياضِ العبوديّة وَرْدُ الشكْر ، وأزكَى عِطْرٍ تتعطرُ به مجامِرُ العقلِ فى غياض الحرّية وَرْدُ الفِكْر ، وأنَّ الشكرَ قَيْدُ النِّعَم ، وسببٌ لازديادِ الفضلِ والكرَم . قال اللهُ تعالَى ، وجلّ جلالا : ﴿لِئَن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ﴾[3] وقد قيل : مَنْ شكَرَ القليل ، استحقَّ الجزيل ، وأنّ الفِكْرَ يُعلي المقامات ، ويُعطي الكرامات . واحْتَمِلوا الأذى تأمنوا ، ولاتَهنُوا لنائبةٍ ولا تحزَنوا ، ولا تظنّوا الجودَ والكرمَ فى التبذير ، والبخلَ والتقتيرَ من جُمْلَةِ التدبير ، فَقَدْ نصب للأعلامِ أعلاما ، مَنْ قال عَزَّ مقاماً وكلاما :

---

[1] القرّ : البرد ، ويقصد به الشدة والمحنة .

[2] مستعداً ، متعجلاً ، متهيئا .

[3] قرآن كريم ، سورة إبراهيم : ٧ .

﴿والذينَ إذا أنفقُوا لم يُسْرِفوا ولم يَقْتُروا وكانَ بيْنَ ذلكَ قَوَاما﴾[4] وقال جَلَّ مخبراً وخبيرا : ﴿ولاَ تجْعَلْ يَدَكَ مَغْلولَةً إلى عُنُقِك ولا تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعَدَ مَلُوماً محْسُورا﴾[5] وأتْبعُوا الأقوالَ الأفعال ، فلا خَيْرَ في قَوَّالٍ ليسَ بفعَّال . ولا تُشَوِّهُوا محاسِنَ شَيْبِكُم بزَخَارِفِ الكذِب ، فإنَّ الصدقَ أوّلُ ما ينبغي وأعظَمُ مايجب ، وَوَسَخُ كلمةٍ واحدةٍ بالكذبِ ناطقة ، لا يُنَقِّيه ألفُ كلمةٍ صادقة ، ومَنْ تعوّد الكذبَ في نطقِه ، لا يُعتمدُ على صدقه . ودارُوا الأعْداء ، مُداراةَ الأدواء ، يزدْ صديقُكم ويكثُرْ فريقُكم ، ويجلّ وَدُودُكم ، ويقلّ عدوُّكم وحسودُكم ، وعليكم بملازمةِ الأخيار ، وإيّاكم وصحبةَ الأشرار ، ولا تطلبوا للرغبةِ في صحبةِ الأشرارِ سبيلا ، ولا تقيموا على ذلك أبداً دليلا ، فَمَنْ غالطَ نفسَه في مجالسِ الأشرارِ ، وطلَب وفاءً مِمَّنْ جُبِلَ على طبيعةِ الفجار ، فَقَدْ أوْجَعَ نفسَه بأقْوى كَيَّة[6] ، وأصابه ما أصاب الفلاح مع الحية ، فسأل الأولادُ والدَهم المالك ، على كيفيّةِ ذلك .

[١/٢] قصة الفلاح مع الحية

فقال : ذكر أن واحداً مِن الأكياس ، طلبَ العُزْلَة عَن النّاس ، ولازمَ انقطاعَه ، وانقطعَ عن الجمعةِ والجماعةِ ، واشتغل لإقامةِ أوَدِهِ[7] بالزراعة ، وانعزلَ في ذيلِ جَبل ، وصاحبَ حيةً كانت تأنسُ إليهِ بكلامِه ، وتأكلُ من فضلاتِ طعامِه . فَتَرَقَّتْ بينهما المعاهدةُ ، إلى أنْ بلغتْ إلى المُعَاقدة ، بأنْ تكونَ صادِقة ، خاليةً عن

---

[4] قرآن كريم ، سورة الفرقان : ٦٧ .

[5] قرآن كريم ، سورة الإسراء : ٢٩ .

[6] الكيّة : موضع الكيّ ، وهي هنا بمعنى الكيّ .

[7] أقام أوده : قوّم اعوجاجه ، حفظ حياته .

المماذقة[٨] ، ولا تكونَ كصحبةِ أبناءِ الزمان ، تكسرعُ من الغدرِ فى غُدْرَان ، ولا مشوبةً بنفَاق ، ولا مدخولةً برياءٍ وشِقاق ، وأنْ تنعقدَ بينهما المودّةُ والإخاء ، فى حالتَيْ الشدّةِ والرّخاء ، فمرًّا على هذا مُدَّة ، وكلٌّ حافظٌ عهدَه ، مراعٍ صحبتَه وَوُدَّه ، وكانَ الرجلُ إذا عنّت له قضيّة ، عرضَها على الحيَّةِ ، واستشارَها ، وأخذَ أخبارَها ، وتخرُجُ هي إليه ، وتترامَى على رِجْلَيْه . ففى بعضِ الأيام ، وعامٍ من الأعوام ، وَقَعَ بَرْدٌ شديد ، وثلجٌ وجليد ، فرأى الحيَّةَ وقد سقطتْ قُواها ، وخمدَتْ أعضاها ووقعتْ فى شرِّ حال ، وبردٍ ووبال ، فحَملتْه الشفقةُ والصّدَاقة ، والعهدُ الذى أحْكمَا وِثاقَه ، على أنْ آواها ، وحملها فى مخلاةِ حماره وأدناها ، ووضَع المخلاةَ فى رأسِ البهيم ، وتوجّه لضرورةِ ذلك الفهيم ، فحسَّتْ الحيّةُ بنَفَس أبى زياد[٩] ، وتحرّكَ عرقُ العُدوانِ القديمِ وعاد ، وفَعَل خبثُها خاصيَّته المألوفة ، ولعِبَ سُمُّها سُمِّيَتَهُ المعروفة ، متبعاً حديثه ، حرامٌ على النفْسِ الخبيثة ، أنْ تخرجَ من الدنيا ، حتى تُسيءَ لِمَنْ أحسنَ إليها : فعضَّتْ الحيةُ شفَةَ الحمار الرقيقة ، عضّةَ مُحِبٍ لاقَى فى خلوةٍ عشيقَة ، وبردَ مكانُه من حرِّها ، وهربتْ الحيةُ إلى جُحرها .

إنما أوردتُ هذا المثال ، لتعلموا ياذوي الأفضال ، أنَّ مَنْ صَحِبَ الأشرار ، ورَغِبَ فى مَوَدَّةِ الفجار ، لا يأمنُ العِثار ، ولا يسلمُ من الأنكادِ والبَوار . وقد قيل : إنّ صحبةَ الأخْيار ، كجَرَّةِ النُّضَار ، بطيئةُ الانكسار ، سريعةُ الانجبار ، وصحبةَ الأشْرار ، كجَرَّةِ الفخّار ، سريعةُ الانْكسار ، بطيئةُ الانْجبار . وبالجُملةِ فما فى صحبةِ الناسِ فائدة ، ولا فى مخالطةِ الناسِ كبيرُ عائدة ، وقد قيل :

وَلَمْ تَرَ مِنْ بني الدنيا سلاما فإنْ تَره فأبْلِغْه سَلامى

---

[٨] المماذقة : الغشّ والنفاق والكذب .

[٩] كنية الحمار .

وينبغي أن تكـونَ غيبتُكـم وحضورُكـم ، وأحوالُكـم وأمورُكـم ، واجتمـاعُكم وفراقُكم ، وصلحُكم وشقاقُكم ، فى حالتَيْ السرّاءِ والضرّاء ، والبـؤسِ والرخـاء ، على وتيرةٍ واحدة ، وهيَ الخاليةُ عنِ الأغراضِ الفاسِدة ، أعنى إذا رضيتُـم فبـالحق ، وإذا غضِبتُـم فلِلْحَـقّ ، وإذا توجّهتُـم فللحـق ، ولا تبطـرُوا فـى حالـةِ النِّعَـم ، ولا تضجروا فى حالةِ النِّقَم ، وعلى كلِّ حال ، فلا يقعْ بينكمْ اختلال ، وذلـك بتفـرُّقِ الكلمةِ واختلافِها ، وتصادمِها وعدمِ ائتلافِها ، فإنه قيل :

إنّ الذّليلَ الذى ليستْ له عَضُد — مثلُ الوحيدِ بلا مالٍ ولا عدَد

وقيل أيضا :

كُونـوا جميعـاً يابَنِيَّ اذا اعْتَرَى — خَطْـبٌ ولا تَتَفرّقُـوا أجنـــادا
تأبى القداحُ إذا جُمِعْنَ تكسّـراً — وإذا افترقن تكسـرت أفـرادا[١٠]

ولا تثقوا بأحدٍ مـن الكبـارِ والصغـار ، إلا بعـدَ الاختبـار ، فـى الشـدّةِ والضعـف ، والرفقِ والعنف ، والبـؤسِ والرخـاء ، والخـوفِ والرجـاء . ولا تقدِّمـوا علـى قديـمِ الأصحابِ أحدا ، ولا على الموثوقِ بهم مَنْ لا جَرّبْتُموه أبدا ، وقـد قيـلَ فـى المثـلِ المشهور : " النحسُ المعروفُ خيرٌ من الجيِّدِ المنكور " . وقيـل أيضـا " خَيْرُ الأشياءِ جديدُها وخيرُ الأصحـابِ قديمُهـا " . وأسّسـوا قواعـدَ أُخْراكـم ، فـى دنيـاكُم ، واغتنموا السعادةَ الباقيَة ، من الدارِ الفانيَـة ، وعـاملوا تجـدوا ، وازرعـوا تحصـدوا ، وتفكّروا من أَوَّلِ يومِكم ، أَحْوالَ عزِّكم ، ومن أوائلِ عُمْرِكـم ، أواخـرَ دهرِكـم ، ومن ليلةِ الهلالِ سَرَارَ[١١] شهرِكم . فكلُّ مَنْ له صِدْقُ قَدَم ، يتفكّـر وهـو موجـودٌ حالَةَ العدَم ، ومِنْ زمانِ شبابِه حالةَ الهرم . كما فعل التاجرُ المراقـب ، ومـا آلَ إليـه

---

(١٠) فى رواية أخرى :

تأبى العصيُّ إذا اجتمعن تكسراً — وإذا افترقن تكسرت آحادا

(١١) سرار الشهر : آخر ليلة فيه ، حيث الظلام دامس .

فى العواقِب ، فقبَّلَ الأرضَ الأولاد ، وقالوا مولانا السلطانُ أعظمُ مَنْ أفاد ، لو تصدّقَ على عبيدِه الطائعة ، ببيانِ تلك الواقعه .

[٢/٢] قصة التاجر المراقب والغلام (وتفسيرها الرمزيّ)

قال الملك : ذكر الحُكماء ، وذوو الفضلِ من العُلماء ، أنه كان فى بعضِ الأمصار تاجرٌ من أعيانِ التجّار ، ذو مالٍ جزيل ، وجاهٍ عريضٍ طويل ، ونعمةٍ وافرة ، وحشمٍ وخدمٍ متكاثرة . من جملتِهم غلامٌ مَخَايلُ السعادةِ من جبينِه لائِحة ، وروائحُ النجابةِ من أذيالِ شمائلِه فائِحه ، قد أفنى عُمْرَه فى خدمةِ مولاه ، ولم يُقصرْ لحظةً فى طلبِ رضاه . فقال له سيّدُه فى بعضِ الأيام : لك عليَّ حقٌّ ياغلام ، وأنا أريدُ مكافاتَك[١٢] ، وأطلبُ موافاتَك ، فتَوَجَّهْ هذه المرّة ، فى هذه السَّفْرة ، فمهما ربحتَ فهو لك ، بعد أنْ أُعْتِقُكَ ، مِنْ قَيْدِ رِقٍّ أَشْغَلَكْ ، ثم أَوْسَقَ مركبا ، وفسحَ له فى السيرِ شرقاً ومغربا ، ووَصّاه بأشياءَ امتثل مرسومَها ، والتزمَ منطوقَها ومفهومَها . فقال له مولاه : سأرفعُك على أضرابِك ، وأغنيكَ عن أمثالِك وأصحابِك ، وأجعلُك كأكبرِ مَنْ فى الدنيا ، ولجميعِ رفقتِك بمنزلةِ الموْلى . ثم أخذَ فى تَعْبِيَةِ البضائع ، وأوسَقَ مركبهَ المتاجرَ والمنافع ، وسلّمه إلى الهواءِ والماء ، بعد أن توكّلَ على ربِّ السماء . فسار بعضَ أيام ، وهو فى أهنَى مرام ، وأطيبِ عيشٍ ومقام ، الماءُ رائق ، والهواءُ موافق ، والنكدُ مفارق ، والسرورُ مرافق ، حتى كأنه نوحٌ وخِضْرُه الملاّح ، وموسى وفتاه حافِظاً الألواح ، وبينما السفينة ، من نسفِ العواصفِ أمينة ، تُجارِى السَّهْمَ والطيْر ، وتُبارِى الدُّهْمَ فى السيْر ، فإذا بالرياحِ هاجتْ ، والأمواجِ ماجتْ ، وأشباحِ البحرِ تصادمتْ ، وأطوادِ الأمواجِ على العرفاءِ

---

[١٢] مكافأتك (مخففة) .

تلاطمتْ ، فعجز ذلك الملاحُ والحافِظ ، ونشرَ مذهبَ ابنِه أبو الجاحظ ، وترك سيمةَ الوقارِ والسكينة ، ورقَمَ نقشَ الحروفِ فى ألواح السفينة ، فشاهدوا من ذلك الهواءِ الأهوال ، وغدا قاعُ البحرِ كالجبال ، وصار ذلك الغراب[١٣] ، بِمَنْ فيه من الأصْحاب ، كأحوالِ الدنيا بين صعودٍ وهبوط ، وقيامٍ وسقوط ؛ طوراً يستأمنون الأفلاك ، ويناجون الأمْلاك ، وينهون أخبارَ ظُلُماتِ صاحبِ الحوتِ إلى السِّماك ، وطوراً يهبطون الغَوْر ، وينظرُون قَرْنَ الثَوْر ، وربما مَرَقوا منه من تحتِ الزّوْر ، فلم يزالوا عاجزينَ حيارى ، سُكَارَى ومَا هُمْ بِسُكارى ، يتناشدون :

وفُلْكٍ ركبناهُ والبحرُ ذو هواءٍ فثار وحار ومارا

فطوراً علوْنَا السماءَ وطوراً رَمَتْنَا أراضيهِ منه انحدارا

وآخِرُ الأمرِ نَسَفَتْ السفينةَ الرياح ، وألقى كاتبُ الحاصبِ إلى كلِّ حرفٍ من حروفِ الجبالِ لوحاً من الألواح ، وأوْعرَ اللهُ سهلَها ، وخرقَها فأغرقها وأهلَها ، وذهبَ البحرُ بأموالِها وأَرْواحِها ، وتعلّقَ الغلامُ بلوْحٍ من ألواحِها ، واستمرّ تَقْذِفُهُ الأمواج ، وتصدُمُ به أثباجَ البحرِ الهيَّاج ، إلى أنْ وصلَ إلى ساحل ، فخرجَ وهو كئيبٌ ناحل ، وصعدَ إلى جزيرة ، فواكِهُها غزيرة ، ووَصْفُها عجيب ، ليس بها داعٍ ولا مُجيب . فجعَلَ يمشِى فى جنباتِها إلى أنْ أدَّاهُ التوفيق ، إلى فَمِ طريق ، فسار فى تلك الجادّة ، وهدايةُ اللهِ له مادّة ، فانتهَى به المسير ، إلى أنْ تراءى له سوادٌ كبير ، وبلغَ مملكةً عظيمة ، وولايةً جسيمة ، ورأى على بُعدٍ مدينةً مُسَوّرةً حصينة ، فعمِد إلى ذلك البلَد ، وتوجّه نحوَها وقصَد ، فاستقبلَه طائفةٌ من الرعال[١٤] ، نساءٌ ورجال ، يتبعُهم جنودٌ مجنّدة ، وطوائفُ محشدة ، مع طبولٍ تضرب ، وفوارسٍ تلعب ، وزمورٍ تزعق ، وألسنةٍ بالثناءِ تنطق ، حتى إذا وصلوا

---

[١٣] الغراب : نوع من السفن .

[١٤] الرعال جمع رعلة ، وهى الجماعة التى تتقدم غيرها .

إليه ، ترامُوا عليه ، وأكبُّوا بَيْنَ يديْه ، يُقَبِّلُون يَدَيْهِ ورِجْلَيْه ، مستبشرينَ برؤيتِه ، مُتَبَرِّكين بطلعتِه ، ثم ألبسُوه الخِلَعَ السنيّة ، وقدَّموا له فرساً عليَّة ، بكنبوشٍ ذهب ، وسرجٍ مغرق ، ووضعوا له التاجَ على المفْرِق ، ومشَوْا فِى الخدمةِ بين يديه ، والجنائبُ فى الموكبِ تجرُّ لَدَيْه ، ينادون حاشاك وإليك ، سلطانُ الناسِ قادمٌ عليك ، حتى وصلوا إلى المدينة ، ودخلوا قلعتَها الحصينة ، ففرشوا شقَقَ الحرير ، ونثروا النثارَ الكثير ، وأجلسوه على السرير ، وأطلقوا بجامِرَ النَّدِّ والعبير ، ووقف فى خدمتِه الصغيرُ والكبير ، والمأمورُ والأمير ، والدستورُ والوزير ، وأنشدوه :

قَدِمتَ قدومَ البدرِ بيتَ سعودِه وأمرُك فينا صاعدٌ كصعودِه

وقالوا : اعلمْ يامولانا ، أنك صرتَ لنا سلطانا ، ونحن كلُّنا عبيدُك ، وتابعُو مرادَك ومريدَك ، فافعلْ ما تختار ، وتحكّمْ فى الكبارِ مِنّا والصّغار ، وأمرْ مَا لكَ مِن مَرسُوم ، فامتثالُه علينا محتوم ، وما مِنّا إلا له مقامٌ معلوم . فجعلَ يتفكّرُ فى أمرِه ومَبداه ، ويتأمّلُ ماصار إليه ويتدبر فى مُنتهاه ، فقال : إنَّ هذا الأمرَ لا بدَّ له مِن سَبَب ، ولا بدَّ له من آخر ومُنقلَب ، فإنّه لم يصدُرْ فى عالَمِ الكوْن سدى ، وإن لهذا اليومِ من غيرِ شكٍّ غدا ، وإن الصانعَ القديم ، القادرَ الحكيم ، السميعَ العليم ، البصيرَ الحيَّ المريدَ الكريم ، لم يُقَدِّرْ هذه الأفعال على سبيل الإهْمال ، ولم يُحدثْ حَدَثًا ، لعِباً ولا عبثا ، وجعلَ يلازمُ هذه الأفكار ، آناءَ الليلِ وأطرافَ النهارِ ، وهو مع ذلك قائمٌ بِشُكْرِ النعْمة ، ملازمٌ بابَ مولاه بالطاعةِ والخدمة ، واضعٌ الأشياءَ فى محلِّها ، والمناصبَ فى يَدِ أهلِها ، مُلْتفتٌ إلى أحوالِ الرعيَّة ، عاملٌ بينهم بالعدلِ والسويَّة ، مُتعهدٌ أمورَ الكبارِ والصغار ، بأنواعِ الإحسانِ وأصنافِ المسار ، مؤسسٌ قواعدَ المملكةِ والسلطنة ، على أركانِ العقلِ والعدلِ مهما أَمْكَنَه ، متفحصٌ عن مصالحِ المملكة ، سالكٌ مع كلٍّ مِنْ أربابِ الوظائفِ مايقتضِى مَسْلكه .

ثم وقع اختيارُه من بينِ أولئكَ الجماعة ، على شابٍّ جليلِ البراعة ، له فى سوقِ الفضلِ والوفاءِ أَوْفَرُ بضاعة ، مُتَّصِفٌ بأنواعِ الكمال ، متحلٌّ بزينةِ الأدبِ والجمال ، فاتخذَه وزيرا ، وفى أمورِه ناصحاً ومشيرا ، فجعل يلاطفُه ويرضيه ، ويكرمُه ويدنيه ، ويفيضُ عليه من ملابسِ الإنعام ، وخِلَعِ الأفضال والإكرام ، ما مَلَكَ به حبُّه قلبَه ، واستصفى خالصَ ودِّه لُبَّه ، وسكَن فى سويدائِه ، وتمكّنَ به من ضميرِ أحشائِه ، إلى أنْ اختلى به ، وتلطّفَ فى خطابِه ، واستنصحَه فى جوابِه ، وسأله عن أَمْرِ إِمْرَتِه ، ومُوجبِ رفعتِه وسَلْطَنَتِه ، من غيرِ معرفةِ الرفاق ، ولا أَهْلِيَّةٍ ولا استحقاق ، ولا هو من بَيْتِ المُلْك ، ولا فى بحرِ السلطنةِ له فُلْك ، ولا معه مال ، ولاحيلٌ يُهديها ولا رجال ، ولا معرفةٌ يُدلى بها ، ولا شجاعةٌ وفضيلةٌ يَهتدى بتهذيبها . فقال ذلك الشاب ، فى الجواب : اعلمْ أيُّها الملكُ الأعظم ، أن هذه البلْدَة ، وعساكرَ إقليمِها وجندَه ، قد اخترعوا أمرا ، واصطلحوا على عادةٍ أخرى ، سألوا الرحمن ، أن يُقيِّضَ لهم فى كلِّ أوان ، شخصاً من جنسِ الإنسان ، يكونُ عليهم ذا سُلطان ، فأجابَهم إلى ذلك ، فسلكُوا فى أمرِه هذه المَسالك ، وذلك أنهمْ فى اليومِ الذى قَدِمْتَ عليهم ، يرسلُ الله تعالى رجلاً من عالمِ الغيبِ إليهم ، فيستقبلونه كما استقبلوك ، ويسلكون معه طريقةَ الملوك ، من غيرِ نقصٍ ولا زيادة ، وقد صارتْ هذه لهم عادة ، فيستمرُّ عليهم سنةً فى هذه المرتبةِ الحسنة . فإذا انقضى الأجلُ المعدود ، وجاء ذلك اليومُ الموعود ، عمدوا إلى ذلك السلطان ، وقد صار فيهم ذا إمْكانٍ ومكان ، وعلقةٍ ونشب ، وإخاءٍ ونسب ، وثَبَتت له أوتاد ، وصار له أهلٌ وأولاد ، وجرّوه برجلِه من التّخْت[١٥] ، وسلبوه ثوبَ العزّةِ

---

[١٥] التخت : سرير الملك .

والرّخْت[١٦] ، وألبسُوه ثوبَ الذُّلِّ والنَّكَال ، وأوثقوه بالسلاسلِ والأغْلال ، وحملَه الأهلُ والأقارب ، وأتَوْا به إلى بحرٍ قريبٍ فوضعوه فى قارب ، وسلّموه إلى مُوَكّلين ليوصلوه إلى ذلك الجانب ، فيوصلونه إلى ذلك البَر ، وهو قَفْرٌ أغبر ، ليس به أنيسٌ ولا رفيق ، ولا جليسٌ ولا صديق ، ولا زادٌ ولا ماء ، ولا نشوءٌ ولا نماء ، ولا مغيثٌ ولا مغين ، ولا قريبٌ ولا قرين ، ولا قدرةٌ ، ولا إمْكَان ، على الوصولِ إلى العمران ، ولا ظِلٌ ولا ظليل ، ولا إلى الخلاصِ سبيل ، ولا إلى طريقِ النجاةِ دليل ، فيستمِرُّ هناك عُرْيَاناً وحيدا ، فريداً طريدا ، إلى أنْ يهلكَ عطشاً وجوعا ، لا يملكُ إقامةً ولا يستطيعُ رُجوعا .

ثم يستانفُ أهلُ هذه البلاد ، ما لَهم مِنْ فعلٍ معتاد ، فيخرجون بالأهبَةِ الكاملة ، إلى تلك الطريقِ السابلة ، فيقيِّضُ الله تعالى لَهم رجلا ، فيفعلون معه مثلَ مافعلوا مع غيرِه قولاً وعملا ، وهذا دَأْبُهُم ودَيْدَنُهُم ، وقد ظهر لكَ ظاهرُهم وباطنُهم . فقال ذلك الغلامُ الأمْلح ، لذلك الوزيرِ المصْلِح : فهل اطلّع أحدٌ مِمَّنْ تقدّم ، على عاقبةِ هذا المأتم ؟ قال : قد عَرَفَ ذلك ، وتحقّقَ أنّه عن قريبٍ هالك ، ولكنّ غرورَ السلطنةِ يُلْهيه ، وسرورَ التحكّمِ والتسلّطِ يُطغيه ، وحُضورَ اللذّةِ الحاصلةِ لسوءِ العاقبة يُنْسيه ، ولا يفيقُ مِنْ غَفْلته ، ويستيقظُ من رَقْدَتِه ، الاّ و عَامُه قد مضى ، والأجَلُ المضروبُ قد انقضى ، وقد أحاطتْ به نوازِلُ البلاء ، وهجمَ عليه بوازِلُ القضاء[١٧] فيستغيثُ ولا مغيث ، وينادى بالخلاصِ وَلاَتَ حينَ مَنَاص . فلمّا سمِعَ الغلام ، هذا الكلام ، أطرقَ مُفكّرا ، وبقي مُتَحَيِّرا ، وعلم أنّه لا بُدَّ للأيامِ أنْ تمضي ، وهذا الأجَل المضْرُوب ينقضي ، وأنّه إنْ لم يتدَارَكْ أمرَه ، ويتلافَ خَيْرَهُ

---

[١٦] الرخت : الزينة ، الأثاث والرياش ، ثياب الأمراء والسلاطين .

[١٧] بوازل القضاء: أنيابه ونوائبه .

وشرَّه ، وبتدبَّرْ حالَه ، ومصيرَه وَمَآلَه هلكَ هلاكَ الأبد ، ولم يشعرْ به أحد . فـأخذَ يُفكِّر فى هذا الخلاص والتفَصِّي[١٨] من شَرَكِ الاقتناص .

ثم قال للوزيرِ الناصحِ الخبير : أيها الرفيقُ الشفيق ، والنصـوحُ الصديـق ، جـزاك الله خيْرا ، وكفاكَ ضَيْماً وضيْرا . إنى قد فَكَّرْتُ فى شيءٍ ينفـعُ نفسـى ويُحييهـا ، ويدفعُ شرَّ هذه البليةِ التى وقعتُ فيها ، وأُريدُ مُعاونَتَك ، وأَطلبُ مساعدتَك ، فإنى رأيتُك فى الفضـلِ مُتميِّزاً بـين أقرانِـك ، فائقـاً فـى محاسنِ الشيَمِ علـى أصحـابِك وإخوانِك . فقال : افعـلْ يـا ذا الزعامـة ، وحبًّـا لَـكَ وكرامـة . قـال : اعلـمْ أيهـا الصاحبُ الأعظم ، أن الرجوعَ إلى هذا المكان الذى كنتُ فيه خارجٌ عن الإمكان ، والإقامةَ فى هـذا الـمُلْكِ المعهـود ، إنمـا هـي إلى أجـلٍ معـدود ، ووقـتٍ محـدود ، وانقضاؤه علـى البتات[١٩] ، وكلُّ مـاهو آتٍ آت ، وكيفيَّـة الخـروجِ قـد عرفـتُ ، وطَرِيقهَا قد تَقَدّرْتُ ووصفتُ ، ولهذا قيل يا ذا الفضلِ الجزيل ، دخلْنـا مُضْطرِّيـن ، وأقمْنا مُتَحيِّرين ، وخرجْنا مُكْرهين ، ولم يتجهْ مخلص ، من هذا المقنص ، إلا طريقٌ واحد ، وسـبيلٌ غـيرُ متعـاهد . وهـى أنْ تـأخذَ طائفـةً مـن البنـائين ، وجماعـةً مـن المهندسين والنجارين ، وتذهبَ بهم أيها الوزير ، إلى مكانٍ إليه نصير ، فتـأمرهم أن يبنوا لنا هناك مدينة ، ويشيدوا لنا فيها أماكنَ مكينة ، ومخازنَ وحواصـل ، وتملؤهـا من الزادِ المتواصل ، من المآكِلِ الطيبة ، والأطعمـةِ والأشـربة ، اللذيـذةِ المستعذبة . ولا تغفلْ عنِ الإرسال ، ولا تختزْ الإمهالَ والإهمال ، فى الظهيرةِ والأسحارِ والغدوِّ والآصـال ، إذْ أوقاتُنـا محـدودة ، وأنفاسُـنا معـدودة ، وسـاعةٌ تمضـى منهـا غـيَرُ مردودة ، وإذا فـاتَ شيءٌ من ذلك الوقت ، فـلا نعوِّضُ عنـه إلاّ الخيبـةَ والمقْـت ،

---

[١٨] التفصى : التخلّص .

[١٩] البتات : التأكيد والقطع ، يقال بتّ الشيءَ بتةً وبتّاتا : قطعة مستأصلاً .

فننقل هناك مايكفينا على حسبِ طاقتنا ، ومقدارِ قدرتِنا واستطاعتِنا ، فإذا تزوّدْنا منها ، لم نرحلْ عنها ، بحيث إذا نُقلنا من هذه الديار ، وطُرِحْنا فى تلك المَهامِهِ[٢٠] والقِفار ، وجَفانا الأصحاب ، وتخلى الأخِلاَّءُ عنا والأحباب ، وأنكرَنا المعارفُ والأوِدَّاء ، واحْتَوَشَتْنا فى تلك البيداءِ فنونُ الداء ، نجدُ ما نستعينُ به على إقامةِ الأوَد ، مُدَّةَ إقامتِنا فى ذلك البلد .

فأجاب بالسمعِ والطاعة ، واختارَ من المِعْماريّةِ جماعة ، وأحضرَ المراكب ، وقطع البحرَ إلى ذلك الجانب ، وجعل الملكُ يمدُّهم بالآلاتِ والأدوات ، على عددِ الأنفاسِ ومدى الساعات ، إلى أنْ أنْهى المعماريةُ العمارة ، وأكملوا حواصلَ الملكِ ودارَه ، وأجروا فيها الأنهار ، وغرسوا فيها الأشجار ، فصارت تأوى إليها الطيورُ بالليلِ والنهار ، ويترنم فيها البلبلُ والهزار ، بأنواعِ التسبيحِ والأذكار ، وغدتْ من أحسنِ الأمصار ، وبَنَوْا حواليها الضياعَ والقُرى ، وزرعوا منها الوهادَ والثرى . ثم أرسل إليها ما كان عنده من الخزائن ، ونفائسِ الجواهرِ والمعادن ، وأرسل من ظريفِ التحفِ إليها ، ومن حاجاتِه المعوَّل عليها ، بحيث لو أقام بها سنينَ قامتْ بكفايتِه ، وفضَّلتْ خزائنُها عن حاجته ، وأكثر من إرسال مايلزمُ من الأدوات ، والأشربةِ والمطعومات ، وجهّز الخدمَ والحشَم ، وصنوفَ الاستعداداتِ من النِّعَم .

فما انقضتْ مُدَّةَ مُلْكِه ، ودنتْ أوقاتُ هلْكِه ، إلا وتفسُه إلى مدينتِه تاقتْ ، وروحُه إلى مشاهدتِها اشتاقت ، وهو مستوفزٌ للرحيل ، ورابضٌ للنهوضِ والتحويل . فلما تكامَلَ له فى المُلْكِ العام ، لم يشعرْ إلاّ وقد أحاطَ به الخاصُّ والعام ، مِمَّنْ كان يفديه بروحِه ، من خادمِه ونصوحِه ، ومَنْ كان سامعاً لكلمته ، مِنْ أعيانِ خدَمِه وحشمتِه . وقد تجرّدوا لجذْبِه من السرير ونَزْعِ ما عليه من لباسِ

---

[٢٠] المهامه ، مفرد مَهْمَه وهى المفازة البعيدة .

الحرير ، ومشوا على عادتِهم القديمة ، وسلبوه الحشمةَ الجسيمة ، ومملكتَه العظيمة ، وزالتْ الحشْـمة ، والكلمـةُ والحرْمـة ، وشـدّوا وثاقـه ، وذهبـوا بـه إلى الحرَّاقـة[٢١] ووضعوه وقد ربطوه ، فى المركب الذى هيّأوه ، وأوصلوه إلى ذلك البرّ من البحر . فما وصل إليه إلاّ وقد أقبلتْ خَدَمُه عليه ، وتمثلـتْ طوائـفُ الحشـمِ والنـاسِ لديْـه ، ودقّتْ البشائرُ لمقْدمِه ، وحلَّ فى سرورِه المقيمِ ونِعَمِـه . واسـتمرّ فـى أتَـمِّ سـرور ، واستقرّ فى أوْفَرِ حُبور .

ثم قـال الملكُ للأولاد وفِلَذِ الأكبـــاد : وإنمـا أوردتُ هـذا المقـال ، علـى سـبيل المثال ، فاصغوا إلى حُسْنِ التنظير ، حتى أُبيِّنَ لكم النَّظير ، وعُـوا مـا أقـول ، بـآذانِ القبول ، وتأمَّلوا رموزَ المعانى ، من هذه الألفاظِ التى أخجلتْ المثانى ، ثـم تفكَّـروا وتبصَّروا ، وبعدَ التذكُّرِ والتبصرُّ تدبروا . أما ذلك الغُلامُ المعهـود ، فإنَّـهُ الولـدُ فـى أوّلِ الوجود . وأما المركبُ الذى أودعه ، فهو بطنُ أُمِّه الذى اسْتودَعه . وانكسـارُ السفينة ، هو انشقاقُ المشيمة . والجزيرةُ التى خرج إليهـا ، فهـى الدنيـا التـى دخَـل عليها . والناسُ الذين استقبلوه ، فأقاربُه وذووه وأهلُوه ، يربُّونه بالملاطفةِ والدَّلال ، ويعاملونه بالإكرامِ والأفضال . وذلك الشابُّ الـذى هـو وزيـرُه ، فهـو عقلُـه ومـن إيمانِه نورُه . والسَّنَةُ المضروبةُ أجلُه المحتـوم ، وعمـرُه المعـدودُ المعلـوم . ونزولُـه عـن سريرِه ، عبارةٌ عن آخرته ومصيرِه ، وخروجُه مـن الدنيـا بـالإكْراه ، وشـروعُه فـى دخولِه إلى أُخْراه . والبحرُ الثانى الذى طُرِح فيه ، هو أَحْوَالُ ما يُعاينُه . عندَ المـوتِ ويُعانيه . والبرُّ القَفْرُ اللَّحـدُ والقـبر . فالسـعيدُ يتفكّـر فـى كيفيـة أمـورِه وأحوالِـه ، ومبـدءِ أمرِه ومآلِه ، ثم يتدبّرُ فى قُـلِّ[٢٢] هـذا وجِلِّـه[٢٣] ، ويستعدُّ لِمَـا خُلِـقَ مـن

---

[٢١] الحرّاقة : ضرب من السفن ، خفيفة ، فيها مرامى نيرانٍ يُرمى بها العدوّ فى البحر .

[٢٢] القُلّ : القليل .

[٢٣] الجِلُّ : الكثير .

أجْلِه . ويتحقّقُ أنَّ الإقامةَ فى الدنيا يَسِيرة ، وهى بالنسبةِ إلى الإقامةِ بدارِ البقاءِ قصيرة ، وأنّه إذا جاء وقتُه المحتّم ، لا يتأخرُ عنه ساعةً ولا يتقدّم . فيأخذُ فى الازْدياد ، ويتهيأُ ما أمكنَ لِيوْمِ المعاد ، ويعدُّ نفسَه كالمسافر ، الذى أتى بعضَ الحاضر ، فلا يقيمُ أكثرَ من يوم ، وقد رحلَ عن القوْم ، كما قيل :

ألا إنمّا الدُّنيا كَمَنْزِلِ راكبٍ ... أناخَ عَشِيًّا وهوَ بالصُّبْحِ راحِل

إلى سفرٍ طويل ، زادُه قليل ، قفارُه يابسه ، وطُرقُه دامِسة ، لا أنيسَ فيه ولا رفيق ، ولا مصاحبَ ولا صديق ، ولا دليلَ ولا خليل ، ولا مغيثَ ولا مقيل ، ولا ماءَ ولا مَعين ، ولا صاحبَ ولا مُعين . فيُهيِّئُ لهذا السّفر ، بقدرِ الإمكانِ ماقَدر ، من الزادِ والما[٢٤] ، والمركبِ والكلا[٢٥] ، ونورِ الطريق ، والمسافرِ والرفيق ، والخادمِ والأنيس ، والمنادمِ والجليس . ويمهِّدُ المضْجعَ للمبيتِ والمقيل ، ويُهيِّىءُ الموضعَ فى النزولِ والرحيل . وبالجملةِ لا يتركُ من أفعالِ الخيرِ شيئاً إلاَّ فَعَلَه ولا مُجْملاً إلاَّ فصله ، ولا متأخِراً إلاّ قدّمه ، ولا معاملا فى مبايعةٍ إلا أسلفَه وأسلمَه . وَلْيَعْلَمْ أنَّ كلَّ ذلك محتاجٌ إليه ومصروفٌ لديه ، إذا نُقل إلى دارِ البقاءِ وأقبلَ عليه ، فإذا جاءَ وقتُ الرحيل ، ونادى مُنادى الانتقالِ والتحويل ، وجدَ ما كان عَمَلَه حاضرا ، وكلَّ ما قدّمه إلى رياضِ الخيرِ نَزِهاً ناضرا ، كما قال ذو الجلال ، وأخبَرَ به الصادقُ فى الوعْدِ والمقال ﴿إنَّ الذينَ قالُوا ربُّنَا اللهُ ثم استقامُوا تَتنزَّلُ عليهمُ الملائكةُ ألاّ تخَافُوا ولا تَحْزَنُوا وأبْشِرُوا بالجَنّةِ التى كُنْتُمْ تُوعَدُون﴾[٢٦] . معنى ألاّ تخافوا لا خوف عليكم ، فيما هو أمامَكم ، ولا تحزنوا على ماخلّفتم وراءَكم ، فإذا دخَل فى قبره وجدَه روْضةً من رياضِ الجنّة ، يُبَشِّرُهم ربُّهم برحمةٍ منه ورضوان ، وجَنّات

---

[٢٤] الماء (مخففة) .

[٢٥] الكلأ (مخففة) .

[٢٦] سورة فصلت : ٣٠ .

لهم فيها نعيمٌ مقيم . وأما الشقيُّ ، الغافلُ الغبيّ ، الذى أُمْهِلَ أَمْرُه ، ونَسِيَ ا للهَ وذكْرَه ، وأَهْمل ماخُلِقَ لأجْلِه ، وتاه فى بَيْدَاءِ الضّلالِ وسُبُلِه ، فقد اغترّ بهذه اللذةِ اليسيرة ، فى تلك المدّة القصيرة ، واستمرّ سكران ، فى ميدانِ العصْيان ، من خمرةِ الطغيان ، وتردَّى لباسَ الرَّدَى ، أولئكَ الذينَ اشْتَرَوْا الضلالَةَ بالهدَى ، فانهدمتْ عمارتُهم ، ولا ربحتْ تجارتُهم ، حتى إذا جاءه الوقتُ المعلوم ، ونزل به الأجَلُ المحتوم ، ونظر أمام ، وتراءت له الأعلام ، فأَمّا إنْ كانَ من المكذّبين الضالّين فَنُزُلٌ من حميم ، وتصليه جحيم ، نزل من دارِ الغرور ، إلى دارِ الشّرور ، فَنَدِمَ ولا ينفعُه النّدم ، وقد زلّتْ به القَدَم ، فخابَ مآبا ، وقال يَا لَيْتَنِى كنتُ ترابا .

فانظروا يا أولادى ، وعُدّتى وعَتادى ، حَالَ الفريقَيْن ، وتأَمّلُوا ما للطائفتيْن ، فقد بذلتُ فى النصيحة جُهدى ، وأستخلفُ ا للهَ عليكمْ مِن بعدى . فقال أكبرُ ولدِه وهو لِسِلْكِ محاسِنِهم واسطةُ عِقْدِهم : جزى ا للهُ مولانا عن شفقتِه خيرا ، وأولاه على حُسْنِ النصيحةِ أجراً وذخرا ، فَلَقَدْ أحْيَيْتَ قلوباً بِزَواهرِ حكمِك ، وشنّفتَ أسْماعاً بجواهرِ كَلِمِك . ولكن إخوتى - وإنْ كانوا من أُولي العلْم ، وأربابِ النباهةِ والحلْم ، والعقلِ الغزير ، والفضلِ الجمِّ الكثير ، والرأى المصيبِ المنير - غَيْر أن حِدَّةَ الشبابِ عليهمْ غالِبة ، ودواعِى النفسِ بشهواتِها مطالِبة ، لاسيّما إنْ حَصلوا على مُلْكٍ عريض وكَرعَوا من ألبانِه المحْض والمخيض . فإنْ اتّفقَ مع ذلك ، موافقٌ منافق ، أو صاحبٌ ممارق ، أو صديقٌ خدوع ، أو مباطنٌ مكّارٌ هَلُوع ، أضلّهم عن سَواء السبيل ، وصار إلى طريقِ المخالفةِ أوضحَ دليل . فتتحوّل صداقتُنا عداوة ، وتتبدّلُ فيها بالمرارةِ الحلاوة ، فينتزعُ الرخاء ، ويتمزّعُ الإخاء ، ويبغى بعضُنا على بعض ، وتعودُ الأُخوَّةُ على موضِعِها بالنقض ويتولّدُ من ذلك الفتن ، ويظهرُ من العداوةِ ما بَطُن . فالرأيُ عندى أنه ما دامَ زمامُ التصرّفِ فى يَدِ

الإمكان ، يتصرّفُ مولانا السلطان ، على مقدارِ جُهدِه ، فى مصلحةِ عبدِه ، بحيث لا أكونُ مُضْغَةً للماضِغ ، ومَشْغَلَةً لكلِّ قلبٍ فارغ ، ولأيسلِّمنى لأسباب الحوادث ، ومخاليبِ الدهرِ الكوارث . فإنّه بذلك يكفينى ، من نوائبِ الزمانِ ما يدهينى ، والعياذُ باللهِ المنّان ، من مفارقةِ مولانا السلطان ، جعلنى الله تعالى فداءَه ولا أرانى فيه يوماً أساءه ، فَلْيأْخُذْ بيدي من هذه الورطة ، وَلْيُرِحْنى مِنْ شرِّ هذ الخطّة ، فإنّه قد قيل : من لا يقيلُ المستقيل ، ولا يغيثُ المستغيث ، ولا يتقيَّدُ بمعنى هذا الحديث ، ولا يدفعُ غصّة هذه القصّة ، ويفوّتُ عندَ الإمكانِ الفرصة ، يصيبُ من حوادثِ الزمان ، ما أصاب بعضَ الجِرْذان ، الذى لم يُخلِّصْ الغزالةَ ، الواقعةَ في شَرَكِ الحِبَالَة . قال السلطان : قُلْ لى كيفَ كانتْ قصّتُه ، وما كانت قضيتُه .

[٣/٢] حكاية الغزالة مع الجُرَذ

فقال ذُكر أن بعضَ الصيادين ، المحتالين الكيادين ، نصبَ حِبالة ، ليصيدَ غزالة فعلِق بها مَهَاةٌ من المَهَا وطلبتْ مجالا ، واضطربتْ يمينا وشِمالا ، فوقعتْ عينُها على جُرَذٍ من الجِرْذانِ عتيد[٢٧] ، يتفرّجُ عليها من بعيد ، فنادتْه بلسانٍ زَلْق ، وأثنتْ على بلسانٍ طلْق ، وقالت : يا فارسَ ميدانِ المروَّة ، والنجدةِ والفتوَّة ، والموصوف بالشطارةِ والقوّة ، هذا وقتُ الكرم ، وأوانُ استعمالِ مكارمِ الشِّيَم ، وفعل المعروف ، وإغاثةِ الملهوف ، وصرفِ الهمَّة ، إلى كشْفِ الغمّة ، نَعَمْ وإنْ كانت طرائقُ الصداقةِ بيننا معدومه ، ونقوشُ التنافرِ على صحفِ خواطرِنا مرقومة ، ونقود المعرفةِ والإخاءِ فى جنبِ التباينِ غيرَ مبذولة ، ومرآةُ التوافقِ بما بيننا غيرَ مصقولة لكنْ فى الشدائدِ يعرفُ الإخاء ، والإخوانُ كثيرون فى الرخاء ، كما قيل :

---

[٢٧] العتيد : الحاضر والشاهد .

دَعْوَى الإخاءِ على الرَّخاءِ كثيرةٌ   بل في الشدائد تُعْرَفُ الإخوان

وقد قصدتُك في الخلاص ، وقرضِ شَرَكِ الاقتناص ، ونجاتي من سكّين القنّاص ، فاقرضْ هذه الشبكةَ بأسْنانِك الحَدَاد ، وافتحْ بيني وبينك بابَ الوِدَاد ، فإنّي أصلُحُ لك صديقا ، وأنا أكونُ لك عتيقا ، وأعرفُ لك الجميلة ، فأصيرُ عبدا لك إلى المَمَات ، وأدرِكْني قبل الوفاةِ والفوات ، ومع هذا يا ذا الجناه ، لا يكُنْ عملُك إلاّ لله ، فقد قيل :

مَنْ يَفْعَلِ الخيرَ لا يَعْدَمْ جوازِيَه   لا يذهبُ العرفُ بينَ اللهِ والناسِ

فَقَهْقَهَ الجُرَذُ وقَهْقَر ، ولَعِبَ بِإبطِهِ وتَمَسْخَر ، وتمرَّغ يمينا وشِمالا ، وتقصّف طرباً ودلالا ، وسَخِرَ بالغزالةِ وكلامِها ، وبادر إلى عذلها وملامِها ، وتبرَّد بحرارتها ، وتحلّى بمرارتها ، وقال : شَهْوَتُكِ الرديَّة ، وحِرْصُ نَفْسِك الشقيّة ، رَمَيَاكِ في هذه البليَّة . وتحرَّكَتْ سجيتُه الذميمة ، وطبيعتُه اللئيمة ، وأضْرَط بها ورقْرَق ، وطفَر وصفّق ، وقال : عصبُ الرأسِ الصحيح[٢٨] ، من الخبلِ الصريح ، والتعرّضُ لمواردِ الفناء ، من دلائلِ البلاهةِ والعَناء . ولو تعرّضتُ لشبكةِ الصيّاد ، حَكَمْتُ على عقلي بالفساد ، وحاشى فكري المصيب ، ورأيي النجيحَ النجيب ، أنْ أجْلِبَ لنفسي مرضا ، وأُصَيِّرَها سهماً للصيّادِ وغَرَضا . ولو فعلتُ ذلك ، لَتصدّيتُ للمهالك ، وتصدَّى لي الصيادُ فعاداني ، وترصّد لي وآذاني ، وحفَر بالمِعْوَلِ وَكْرِي ، وأَوْقَدَ النيرانَ في جُحري ، فسلَبني قراري ، وبُغْيتي ومسارّي . وأقلُّ الأقسامِ أن يُجليَني عن دياري ، إن خلصْتُ من الموتِ بسلام ، ولا أستطيعُ بعدَها المقام ، وقد قيل : لا تسلكْ غيرَ طريقِك ، ولا تصاحبْ سوى رفيقِك . وأمّا أنا فما لي بصداقتِكِ حاجة ، فَدَعِي عنكِ الطمعَ واللجَاجة ، ثم هَزّ عِطْفيه ، ونظر إلى كتفيه ، وتبختَرَ في مِشْيتِهِ ، وتمايلَ في غشيتِه ، وولّى في تيهِهِ وكِبْرِه ، يريدُ

---

[٢٨] عصب رأسه : ركب رأسه ، ورفض التدبر والتفكر في المآل .

الدخولَ فى جُحْره ، وقــد تـركَ الظبيَ آيسـاً فـى حبـائلِ فكـره وضـرّه ، وحبـائِك شدائدِه وشرِّه ، فقيّضَ الله له حدأة خطفتْه ونبأت[٢٩] به فى الهواءِ نَبْأَة ، وأما الظبيُ فلمّا أيسَ من الجُرَذِ وإعانتِه ، توجّه إلى الرحمنِ بكُلّيّته ، وقطعَ آمالَه عن كلِّ أحـد ، ورفع ضرورتَه إلى الواحـدِ الصمـد ، وأخلصَ نِيَّتَهُ الصادِقة ، وقطـعَ مـن الخلائـقِ علائقَه ، ثم جاء الصيادُ فأوثقَـه ، وقصـدَ بـه البلـدَ فصادفَـه شـخصٌ فاشـتراهُ منـه وأعْتقَه .

ولم أوردْ هـذه اللطيفة ، إلى المسامعِ الشريفة ، إلاّ لِيُعْلَـمَ أنّ التوانـي ، عـن فَـكِّ العانى ، وإغاثةَ الملهوف ، أمرٌ مخوف ، لا يرغبُ فيـه ذو عقـلٍ ، وبإغاثـةِ الملهـوفِ وأخْذِ يَدِ الجارِ وَرَدَ النَّقْل ، ولا بُدَّ من تأمّلِ أعقـابِ القضايا قبـلِ نزولِهـا ، وطلـبِ طريقةِ رفعِها قبلَ حلولِها ، والخلاصِ من ورطتِها ، قبلَ بَغْتَتِها ، وأسألُ من صدقـاتِ مولانا ، الذى بالإحسانِ أَوْلانا ، الإرشادَ إلى عمـلِ طريقَـةٍ لطيفـة ، نقيـةٍ خفيفـة ، تكونُ عُدّتى فى شدّتى ، مبقيةٍ للودِّ بينى وبين إخوتى . قال الملك : نِعْمَ ما قُلْـتَ ، وحيثُ فى ميدانِ الصوابِ جُلْتَ ، فاعلَمْ أنّ فى مملكتِى مُلوكـاً كُـبَرَاء ، وأسـاطَين أمراء ، ورجالاً وجنودا ، وأبطالاً وأسودا . أَنَا نَشّأتُهم ، ولنُصْرةِ مثلِك أعددْتُهـم ، كلٌّ منهم ذو وفاء ، ومَـوَدّةٍ وصفاء . وباطنُـه خـالٍ مـن المكْـرِ والجفـاء ، يقومـون معكَ بأدْنى إشـارة ، ويحفظون جانِبَكَ من النّهْبِ والغـارة ، وخصوصاً فلان ، أميرَ ممالِكِ خراسان ، فإنَّهُ أفصحُهـم خطابـا ، وأمنعُهـم جَنَابـا ، وأَوْسَـعُهم فـى العقـلِ رحابا ، وأشدُّهم محبَّة ، وأقربُهم مَـوَدَّةً وقربـة ، وأَوْفَـاهم عَهْـدا ، وأصفَـاهم وُدًّا ، سينجدُك فى حالِ اضطرارِكَ إليه ، فلا يكونُ اعتمادُك بعـدَ اللهِ إلاّ عليْـه ، مـع أنـى

---

[٢٩] ارتفعت .

سأُعْلِمُهُم بجمعِهِم ، وآمرُهم بإيصالِ نَفعِهِم ، وأُوَكِّدُ عليهم فى ذلك ، فلا يخطُرْ شيْءٌ من النَّكَدِ ببالِك .

فَقَبَّلَ ولِدُه الأَرضَ ، ووقفَ فى مقامِ العرْض ، وقال : أيها الملكُ المحاب ، إنّ محبةَ غالبِ الأصحاب ، وصداقةَ أكثرِ الأحباب ، ومَنْ يدّعى خلوصَ المودّه ، ويبذلُ ظاهرا فى ذلك جُهدَه ، إنما هي لأغراض ، وناشئةٌ عن أَعراضٍ وأمراض ، فإذا حصل ذلك الغَرَض ، وزال العَرَض والمرَض ، بردَتْ عن المحبّةِ قلوبُهم ، وفرغَتْ من نَقْدِ المودَّةِ جيوبُهم ، وظهر بالجفاء وعدمِ الوفاءِ عيوبُهم . ومن جُملةِ ذلك الحسد ، الذى لَمْ يخلُ منه جَسد ، على نَيْلِ مرتبة ، أو البلوغِ إلى مَنْقَبة ، وتمنّى زَوَالَ نعْمةِ المحسود ، وعَدَم الّرضا بقضاءِ المعبودِ ، فإذا لم يحصلْ المراد ، تبدَّلَ القربُ بالبِعاد ، والمحبَّةُ بالبُغْضة ، والصحةُ بالمرضة . كما جرى لنديمِ الملكِ الظاهر ، مع صديقِه المسافر . قال الملكُ لوَلدِه : أخبرْنى بكيفيَّةِ نكدِه ، وما تَوَلَّدَ من قضيةِ حسدِه .

[٤/٢] حكاية نديم الملك الظاهر والصديق الحاسد

قال الولد : أَخْبَرَنِى المملوك ، أنّه كان عندَ بعضِ الملوك ، جماعةٌ من العلماء ، وطائفةٌ كثيرةٌ من الندماء ، كلٌّ منهم لطيفُ المحاورة ، نظيفُ المعاشرة ، خفيفُ المكاثرة ، ظريفُ الحركة ، كثيرُ البركة ، وبينهم شخصٌ قد ساواهم بهذه الصفات ، وَفَاتَهُم فى عُلُوّ الدرجات ، أظرفُهم لهجة ، وألطفُهم بهجة ، وأشرفُهم نهجة ، عَذْبُ المكالمة ، حُلْوُ المنادمة ، تُقبِّلُ الفصاحةُ ثغْرَ ألفاظِه فى خطابِه ، ويتهللُ محيَّا البلاغةِ لإشراقِ جواهرِ جوابِه ، اسْمُه رشيق ، وهو لكلٍّ عشيق ، وللملكِ أكرمُ نديم ، وأقدرُ خديم ، وصديقٌ قديم ، يُقْبِلُ عليه ، ويميلُ دونَ الكُلِّ إليه . ففى بعضِ الأيام ، قَدِمَ على الرشيق بعضُ الأعجام ، وكان من بغداد – من

ذوي الفِسْقِ منهم والفساد - رجلٌ من الشطار ، عيّارٌ مكّار ، خوّانٌ غدّار ، مستحقٌّ الرجم ، ليس فى السماء له نجم ، غير أنه متظاهرٌ بجميلِ الخصال ، وأنه خَدَمَ أهلَ الفضلِ والإفضال ، فعلّق بطبعِه من شمائِلِهم ، وتلبّس ظاهراً بفضائلهم ، فتلقّاه الرشيق ، بما يقتضيه كرمُه ويليق ، وبالغَ فى إكرامِه ، وتقدّم فى احترامِه ، وأَكْرَم نُزُلَه ، وأفاض عليه نِعَمًا جَزلة ، ومال إليه بكُلِّيّتِه ، وجعلَه من خواصٌ جماعتِه ، فصار كلَّ يومٍ يُبْدى فضلا ، ويفتحُ باباً من الكلامِ وفصلا ، إلى أن غلبَ على ذلك الزنديق ، حسدُ النديمِ المسمّى برشيق ، لكونه من خواصٌ الحضرةِ السلطانية ، وقُصَّاص الخدمةِ المَلَكية ، وكبيرَ الندماء ، وخطيرَ القدماء ، فالتمسَ من النديم ، ذلك الوغدُ الذّميم ، أن يوصلَه إلى الحضرةِ الشريفة ، ويسُبلَ عليه ظلالَ نِعَمِه الوريفة . فأفكر الرشيق ، الفكرَ الدقيق ، فى عُقْبى هذه القضية ، وما يحدثُ عنها من البليَّة ، فإنّه قد كان أدرك من ذلك الشيطان سوءَ أفعالِه ، من أقوالِه ، ووخيمِ عَزَماته ، من شمائلِ حركاتِه ، وشؤمِ سكناتِه ، وتحقّق ذلك من عَذَباتِ لسانِه وفلتاتِه..

وكلُّ شيءٍ تزرعُه ينفعُك ، إلا ابنَ آدم إذا زرعتَه يقلعُك . ومَنْ أكرمَ ذا حَسَدٍ ورأى من أَمْرِه عكسَه ، فلا يلومَنَّ إلاّ نفسَه ، فصار يسوّفُ به ويدافعُه ، ويمانعُه ويصانعُه ، ويُدارى الوقت ، خوفاً من المقت ، إلى أنْ أَيِسَ منه ، وقطعَ الرجاءَ عنه ، فالتهب قَيْظُ غضبِه ، واشتعلَ شواظٌ لَهَبه ، فما رأى لبرودِ هذه القصّة ، إلا كتابَةَ قصّة ، يعرضُها ذلك المنهمك ، على آراءِ المَلِك ، يضعُ فيها لِشِدَّةِ حسدِهِ ، من الرشيقِ ويفتُّ من عَضُدِه ، ويفترى ذلك المجترى[30] ، عليه ماهو عنه برى[31] ،

---

[30] مخفف مجترىء .

[31] مخفف برىء .

فَرَاقَبَ الفرصَة ، وكتب القصّه ، يذكرُ له مساويَ[٣٢] فيها ، ومن جملة مساويها : إنّ بجَسَد الرشيق ، من الداءِ العتيق ، ما أعجزَ الأطباء ، وأعْيا الحكماءَ الألباء ، وإن ذلك الداءَ يُعدِى ، وفعلَ الإلزامِ يتعدَّى فَيُرْدِى ، وإن كثيرا من الناسِ الأخيارِ مِمَّنْ اطلعَ على دائِه ، ومعضلِ بلائِه ، يتحامُون صحبتَه ، ويجتنبون قربَه ومؤاكلتَه ، وأن هذه نصيحةٌ عرضها ، وعلى نفسِه فرضَها ، إذْ القيامُ بأدائِها واجبٌ عليه ، وإنهاؤُها إلى المسامعِ الشريفةِ مندوبٌ إليه ، فلمّا وقفَ الملكُ على مضمونِ ما أنهاه ذلك الخبيثُ فيما ادَّعاه ، تذكّر ما قاله لبيدُ للنعمان ، عن وزيرِه العبسيّ فيما مضى من الزمان ، وهو :

نحن بنو أمّ البنين الأربعه ... ونحن خيرُ عامرٍ من صعصعه

إليك جاوزْنا بلاداً مُسْبِعة ... نخبر عن هذا خُبَيْراً فاسمعه

مهلاً أبيتَ اللعنَ لا تأكلْ معه ... إنّ إستَهُ من بَرَصٍ ملمَّعه

وأنّه يُدخلُ فيها إصبعَه ... يدخلُها حتى يُوارِى أشْجَعَه[٣٣]

كأنما يطلبُ شيئاً ضيّعَه

فاشْمأزّتْ من الرشيقِ نفسُه ، وزَوى فى رياضِ مصاحبتِه غرسُه ، فأمَرَ الحجّابَ والبوابين ، أن يكونوا لدخولِه على الملِكِ آبين . فلمّا أنْ جاء الرشيق ، وقصدَ الدخولَ بجاشٍ وثيق ، منعوه من الدخولِ فرجع خائباً خاسرا ، وبقيَ حائراً بائرا ، ولم يشكّ أن هذا الضرب ، سهمٌ غرب ، لأنه لم يَعلمْ السبَب ، فقضى من الزمانِ العجب . فشرعَ يتفحّصُ عن سببِ البعاد ، ويتردّدُ بين أغوارٍ وأنجاد ، ويَذهبُ رائدُ فكرِه كلَّ مذهب ، ويعزمُ على توابِعِه ليقفوا على موانعِ المطلب ، إلى أنْ وقفَ على السبب المظلم ، وعلم أنه الإحسانُ إلى ذلك المجرم ، وظهر لذلك البحرِ البرّ ، من

---

[٣٢] مخفف مساوىء .

[٣٣] الأشجع : عروق ظاهر الكفّ .

قَوْلَةِ "الإحسانُ إلى اللئيمِ سَلَفٌ فى الشرّ" فاجتمع بجماعةٍ من أصحابهِ ، وطائفةٍ من خُلّصِ أحبابه وعرض عليهم قصَّتَه ، واستدفَعَ بآرائِهم غصَّتَه ، ثم تعرَّى من لباسِه ، عند الخواصِّ من أُناسِه ، لينظروا إلى جسدِه وباسِه ، فرأَوْا بدناً كسبائك الفضّة ، وأطرافاً ناعمةً غضَّة ، وأعضاءً تحسبُها من الحورِ غوانيها ، مسلمةً لا شِيَةَ[٣٤] فيها ، فأجمعوا على سلامتِها ، وذكروا للملِكِ محاسنَها بعلامتِها ، وشهدوا بحسنِ صفائِها ، وورنقِ بهائِها ، وأنها سليمةٌ عن الأدْوَاء ، بريئةٌ مِنْ كلِّ داء ، وكأنه فى شأنه قيل :

وأعجبُ ما شاهدْتُ فى وَصْلِهِ وقد نزعنا غُلالاتٍ وثوبَ حياء

تلألُؤُ نورٍ فى ترقرقِ مائِه وصورةُ روحٍ في مثالِ هواء

وإنما لشدّةِ الحسَد ، عاب ذلك الجسَد . فقال الملكُ : صدقتُم ، وبالحقِّ نطقتُم ، ولكن كيف وقد قيل :

قد قيلَ ذلك إنْ صِدْقاً وإنْ كَذِبا فما احْتيالُك فى شيء وقد قيلا

ثم قال الملكُ لجماعتِه ، المنتظمين فى سلْكِ طاعتِه ، الذى يدورُ فى معلومى ، ويبرزُ به مرسومى ، أَنْ لا يَدخُلَ الرشيقُ عليّ ، ولا يُصوّبُ نظرَه إلىّ ، فإنّى إذا نظرتُه ، تذكرتُ ماقيل واستحضرتُه ، فتشمئزُ النفْسُ والخاطر ، ويتكدَّرُ الباطنُ والظاهر ، ويتشوّه وجهُ العيشِ الناضر ، ثم أمرَ له بمالٍ جزيل ، واقطاعٍ عظيمٍ جليل ، ومنعه من المثولِ بين يديْه ، والدخولِ عليْه .

وإنما أوردتُ هذه الحكاية ، المتضمِّنةَ لهذه النكاية ، لتحيطَ العلومُ الشريفة ، والآراءُ المنيفة ، أن بعضَ المدَّعِين للصداقة ، وأحكامِها بإحكامِ الوثاقة ، لا يُعتمدُ على دعْواهم ، ولا يُرْكَنُ إلى مضمونِ فَحْواهم ، فربما تكونُ صداقتُهم من هذا

---

[٣٤] لا شية فيها : لا علامة فيها .

القبيل ، فتؤدي إلى داءٍ ثقيل ، وغمٍ عريضٍ طويل ، فلا يمكنُ علاجُه ، ولايُسْلَكُ منهاجُه ، وأعظمُ مافى ذلك ، مايُؤدِّى إلى المهالك ، وهو عداوةُ الأقرباء ، من الأبناءِ والآباء ، وذوى نصائحِ الإخاء ، فإنّ ذلك غلٌّ قمل ، وجرحٌ لا يندمل ، ومرضٌ لا يبرا ، ويُفضى بصاحبه إلى تَوَسّدِ الثّرى ، وأنّ عداوةَ الأجانب ، أسهلُ من مخاشنة[٣٥] القرائب ، وأنّ القرائبَ إنما يُرجَون لدفعِ الدّاء ، فإذا كانوا هُمُ الأعداء ، فقد أعضلَ الداء . ومِنْ شواهدِها أيها الملكُ الفاضل ، ما جرى لابنِ سُلطانِ بابل ، مع عمِّه الظالمِ الخاتل ، الخائنِ القاتل . فقال المِلكُ الكبير ، أظهِرْنا على صورةِ ذلك أيها الخبير .

[٥/٢] حكاية ابن سلطان بابل مع عمه الظالم

قال : ذكر أهلُ التاريخ ، أيها العالي الشماريخ ، أنه كان فى ممالكِ بابل ، ملكٌ عظيمٌ فاضل ، كريمُ الشمائل ، عدلُه مذكور ، وفضلُه مشهور ، هِمَّتُه عالية ، ونحورُ مَمَالِكِهِ ، بعقودِ فواضِلِه حالية ، وأفواهُ مسالِكِه كثغورِ الغوانى بشنب[٣٦] العدْلِ والأمانِ زاهية . وله ولدٌ صاحبُ حسنٍ وجمال ، وفضلٌ وإفضال ، وملاحةٌ ودلال ، وصباحةٌ وكمال ، غير أنه صغيرُ السنِّ لم تمرّ بِه التجارِب ، ولم يبْلُ أحوالَ الأباعدِ والأقارب ، لا مارسَ الأنام ، ولا سايسَ الأيام ، ولا سَبر العدوَّ والصديق ، ولا خبرَ الحريقَ والرحيق ، ولا فرّق بين المرافقِ والمنافِق ، والمصادمِ والمصادِق ، والمصارمِ والملاصِق . فلمّا دنتْ وفاةُ أبيه ، جمع أَخصاءَه وذويه ، وأراد أن يعهدَ إلى ولدِه ، ويرقيه إلى سندِه ومستندِه ، ثم دَبَّر فى أمورِه وأحوالِه ، وتفكَّرَ فى مصيرِه ومآلِه ، وخشيَ أنّه ربما أَخَلَّ بشيءٍ من القواعِد ، فأبعد الأدْنى وأَدْنَى الأباعِد ، أو

---

[٣٥] المخاشنة : الموحدة ، يقال خشنُ صدره عليه : وحد عليه . وخاشنه : خشن عليه فى القول والعمل .

[٣٦] الشنب : جمال الثغر وصفاء الأسنان .

وضَع شيئاً فى غيرِ محلّه ، أو وَلّى منصباً غيرَ أهلِـه ، وذلـك لعـدمِ تدبّـر ، أو فســاد تصوّر ، أو نشوزِ رفيق ، أو فَقْدِ مرشدٍ وشفيق ، أو لغرضٍ فاسـد ، مـن كاشـحٍ أو حاسِد ، فيختبلُّ نظامُه ، ويَعْوَجّ قوامُه ، وَيفْسَدُ أمرُه ، فيخونُه زيْدُه وعمرُه .

وكـان للملكِ أخٌ ، بلْ إنّه فَـخٌ يدَّعِي المِقَـة[٣٧] ، ويُظهـرُ أنـه ثِقَـة ، ولـه حُنُـوٌّ وشفقة ، فعهـدَ إليـه ، واعتمـدَ عليـه ، وسـلّمه ولـدَه ، وجعلـه وصيَّهُ ومستندَه ، وأجلسه مكانَه ، وأشهدَ عليـه مـن رؤسـاءِ المملكـةِ أركانَـه : أنّـه إذا توشّـح ولـدُه بالوِلاية ، وآنسَ منه رشْدَه بالرعيةِ والرعاية ، يُجْلِسُه على السرير ، ويسـلّمُه الكبـيرَ من جندِه والصغير . ويكونُ هُوَ لـه أحْسَـنَ وزيـر ، وأيمـنَ مشـير ، ونظـامَ مُلْكِـه ، ورأسَ فُلْكِه ، وعَضُدَ ساعدِه ، وساعدَ مُساعدِه ، وأتـابكَ عسـاكرِه[٣٨] ، وعمـادَ الإمْرَةِ وأوَامِره ، فإنَّ نَفْسَ ولَدِه فى سنٍّ جهلِهـا ، تكـونُ عونـاً مـن أعـوانِ رُعُونَـة الصِّبا فى حَزْنِها وسَهْلِها ، ويؤدِّى إليه مُلْكَه ، بمقتضَى قولِه تعالى ﴿إنَّ الله يـأمُرُكُمْ أنْ تُؤدُّوا الأماناتِ إلى أهْلِهَا﴾[٣٩] فَقَبِلَ أخوهُ ذلك منه بِقَبُولٍ حَسَن ، وتكفّل له أنّه يأسُو جِراحَ المُلْكِ على وجهٍ مُستحسن ، وأظهر الوُدَّ والترفّق ، والتملّق والـترقرق ، والتلهّف والتأرّق ، والتأسّف والتحرّق ، وبكى وتـأوّه وشـكا ، وتذلّـل وتمسـكَن ، حتى تمكَن . فلما قَضَى الملِكُ نَحبَه ، وأجابَ ربَّه ، صعدَ على السرير ، وتَمَكّن مـن الجليلِ والحقير ، وتشـرّبَتْ أضلاعُـه ، وعمـرتْ بحـبِّ الحكومـةِ والتسـلّطِ فـى دَوْرِ

---

[٣٧] المِقة : الحب بغير غرض .

[٣٨] أتابك العسكر أو الأطابك : معناه الوالد أو الأمير باللغة التركية ، والمراد به أبو الأمراء ، وهو أكـبر الأمـراء المتقدمين بعد النائب ... وتتألف كلمة أتابك من أتا : بمعنى الأب أو الشيخ المحترم لكبر سنّه . وبك : بمعنى أمير .. وفى الاصطلاح مربّى الأمير . ويطلق على أمير أمراء الجيش لقب : أتابك العسكر ، وهذا هو المعنـى المراد هنا .

[٣٩] قرآن كريم ، سورة النساء : ٥٨ .

طمعِه رَبَاعُه[٤٠] ، وابنُ أخيه فى كفالتِه ، والـمَمَالِك فى إيالتِه[٤١] . واستمرّ الصغيرُ تحتَ نظرِه ، لا يفارقُه فى سفرِه ولا حضرِه ، يكتسبُ كُلَّ يومٍ مخايلَ السّعادة ، ويطرحُ من حركاتِه شمائِلَ السيادة ، ويَظهرُ على أعطافِه الملوكيَّةِ يوماً فيوماً آثارُ الحسنى وزيادة ، إلى أنْ ارتفعَ قَدْرا ، وصار فى الكمالِ هلالاً وبدْرا .

فشمَّ عمُّه من رياضِ همَّتِه عَرْفَ الطَّلَب ، وَقَوَّى فى ذلك ما كانَ تقدَّمَ من سبَب ، وعرف أنّه لابُدَّ له فى ذلك من تسريحِه ، فَلَوْ مَنَعَهُ لقامَ كُلُّ الخلقِ باستهجانِه وتقبيحِه ، فتحلُّ عقودُه ، وتقلُّ جنودُه ، ويختلُّ عن عسكرِه بنودُه ، وتَفْنَى صورتُه وسيرتُه ، وينقضُّ من حبلِ عُمرِه مريرتُه ، فلا يحصلُ من الملْكِ إلاّ على الهلْكِ ، فأعمَلَ الكيْد ، وخرج إلى الصيْد ، فَتَفَرَّقَتْ العساكرُ ، وانفردَ الملِكُ الماكِر ، ومعه ابنُ أخيه ، فاختلى به فى تيه ، فَوَثَبَ عليه ، وفَجَعَهُ بكريمتيه[٤٢] ، وألقاه فى البرّيّة ، إلى مخاليبِ المنية ، وتركَه وحيداً أعْمَى لا يجدُ دليلا ، ولا يهتدِى سبيلا ، ولايعرفُ مقرًّا ولا مقيلا . ثم اجتمع بعسكرِه ، ظانًّا أنّه فاز بظَفَرِه ، مُخبراً بوفاتِه وتعميةِ خبرِه ، فَفَرَّغ بالـه ، وأصلحَ رجالَه ، واطمأنّ خاطرُه ، واستقرّتْ أمورُه ، واستقامتْ حبورُه . فلمّا هجمَ جيشُ اللّيْل ، أقبلتْ السِّباعُ من الوادِى كأنها السيْل ، وقصدَتْ الوحوشُ والهوام ، ما لَها من مَأْوَى ومقام ، وعوَت الذئابُ وزأَرَتْ الأسود ، وهمرَتْ[٤٣] النمورُ والنسورُ والفهود ، فساورتْ ابنَ الملِكِ الهمُوم ، وأورثته أصنافَ الغمُوم ، واحتوشَتْه المخاوفُ والوجوم ، فلجأَ إلى جنابِ الحيِّ القيُّوم ؛ جنابٌ لا يخيبُ قاصدُه ، ولا يصدُرُ إلاّ بنَيْلِ الأملِ واردُه ،

---

[٤٠] احرازه ، والرباعة بفتح الراء المشدّدة وكسرها : الحالة والأمر والشأن .

[٤١] المقصود : حكمه وسياسته .

[٤٢] الكريمتان : العينان .. أى فقأ عينيه .

[٤٣] همرت النمور : وَقْدَمَتْ غضبا .

وصار يحسّسُ بِيَدَيْه ، ويصغى إلى الحيوانِ بأُذنيْه ، ويتمشّى إلى كلِّ جانب ، ويهوى بيديْه إلى الأطرافِ والجوانِب ، ويتعلّقُ بحبالِ الهواء ، كالغريقِ الغاطسِ فى الماء . فوقعتْ يَدُه على شجرة ، فعلّق فيها يديْه وظُفْره ، وَصَعِدَ عليْها ، وَأَوَى إليْها ، وتَوَجَّهَ بقلبه إلى خالِقه ، ومُوجدِه ورازِقه ، وقطع عمّا سواه أسبابَ علائقِه ، واشتغلَ بالذكْرِ والتسبيح ، وفَوّض أمْرِه إلى اللهِ سبحانَه وتعالَى بأملٍ فسيح ، واستمرّ فى هذا الويْل ، بُرْهَةً من الليْل .

وكان طائفةٌ من الجانِ المهرة ، كلَّ ليلةٍ تأوى إلى هذه الشجرة ، فيتذاكرون ما جَرَى فى العالَم ، وما صَدَرَ فى عالَمِ الكَوْنِ والفَسَادِ مِنْ أعمالِ بني آدم ، ويقيمون أفراحَهم ، ويتعاطون انشراحَهم . فلمّا اجتمعوا تلك الليلة ، ذكَرَ كلٌّ قَوْلَه ، وماجرى من الحوادِث ، ومن المفرِحات والكُربات ، وما وقعَ من العجائب ، واتفق من واقعاتِ الغرائب . فقال واحدٌ من القوم : ومن أعجب ماوقع اليوم ، من الأمرِ الكريه ، مافعله ملِكُ بابل بابنِ أخيه ، وذكر لهم القضيَّة ، وما تضمنته من بليّة ، وجعل يتأرّق ويتحرّق ، ويتبرّم ويتضرّم ، ويحرق الأُرّم[٤٤] ، ويتعجبُ من عدمِ وفاءِ بني آدم . فقال رئيسُ الجان : وهذا غيرُ بديعٍ من طبعِ الإنسان ، فإنّه مجبولٌ على الغدر ، مطبوعٌ على الدَّهاء والمكْر ، أَلَمْ تسمعْ قولَ قائِلِهم فى وصْفِ فضائِلهم ، وقبيحِ شمائِلِهم ، مِمَّنْ انخرطَ فى سِلْكِ الفضل ، بدونِ منعٍ ولا حَجْز ، إذا كان الغدرُ طباعاً فالثقةُ بِكُلِّ أحدٍ عَجْز . ثم قال الرئيس : اعلمْ يانفيس ، أنى أعلَمُ ما يُزيلُ هذا الألَم ، ويُطفىءُ هذا الضَّرم ، ويُشفِى هذا السّقم ؛ وهو أنّ هذه الشجرةَ النجيبة ، لها خاصيّةٌ عجيبة ، اسْمُها شجرةُ النور ، وفضلُها فى ذلك مَشْهور ، إذا أُخِذَ مِنْ عُصارةِ وَرَقِها ، ووضعَها الأعْمَى على حَدَقِها ، انجلى عماها ، بقدرةِ ربٍّ

[٤٤] الأُرّم : الأضراس . وفلان يحرق عليك الأرّم أى يحك أضراسه بعضها ببعض من الغيظ .

براها ، وخلقَها فسوَّاها ، وردَّ إليْها بصرَها ، وزادَ نظرَها . ثم إنَّ الخرابةَ الفلانيّـة ، فيها جُحُر حيةٍ بَذِيَّة[٤٥] ، وهـي تابعـةُ ملـكِ بـابل ، الفـاعلِ هـذا الفعـلَ السـافِل ، وحياتُه متعلقةٌ بحياتِها ، وموتُـه موقـوفٌ على مَمَاتِهـا ، لأنَّ طالِعَـه علـى طالِعِهـا ، وطبعُه اللئيمُ مطبوعٌ علـى طابعِهـا ، فبمُجَـرّدِ مَـا تمـوتُ الحيَّـةُ يمـوت ، ويُنقَـلُ مـن دَرَجِ[٤٦] المُلْكِ إلى دَرْجِ[٤٧] المَلَكُوت ، كلُّ ذلك وابـنُ الملِك يسـمعُ هـذا القـول ، فَلَجأَ إلى ذي القُوَّةِ والحوْل ، حَتّى مَنّ عليه بَعْدَ شديدِ العقابِ بهذا الطَّوْل ، وجعَـلَ يُنادى ويَبْتَهل ، ويقولُ متى جَبينُ الصُّبْحِ يِهلّ ، وينشد :

ألاَ أيُّها اللّيْلُ الطويلُ ألاَ انْجَلِي بصبحٍ وما الإصْبَاحُ منكَ بأمْثَلِ

فلمّا أصبحَ الصباح ، ونـادى مؤذنُ السـعدِ " حيّ على الفـلاح " تَيَمَّـمَ ابـنُ الملِـكِ وصلّى ، وحمِدَ الله على النهار إذا تجلّى ، وَرَضَّ بَيْن حَجَرَيْـن مِـنْ وَرَقِ الشـجرة ، واكْتَحَلَ بمائِه فردَّ الله عليـه بصـرَه . ثـم وجَّـهَ ذهابَـه ، إلى تلـك الخرابَـة ، ورصـدَ خـروجَ تلك الحيةِ اللاطئة[٤٨] ، وضربَها ضربـةً غـيرَ خاطئـة ، فأحـاط بهـا نـازلُ الهُلْك ، وفى الحال خرّ الملِكُ ميْتاً على سريرِ الملك ، وبينما العزاءُ عليـه قـائم ، وإذا بصاحبِ السريرِ عليهم قادم ، وقد قصَـد مُلْـكَ أبيـه ، وتمكّـنَ مـن مُلكِـه وذويـه ، وتصرّف فيه كما شاء ، وألبسه خِلْعةَ المُلْكِ مَنْ يؤتِى المُلْكَ مَنْ يشَاء ، ويَنْزَعُ المُلْكَ مِمَّنْ يشاء .

---

[٤٥] سيئة الخُلق ، فاحشة الفعل .

[٤٦] مرتبة ، درجة ، منزلة .

[٤٧] الموت .

[٤٨] اللاطئة : التى لاتكاد تبرح جحرها أو ملجأها . ومن معانيهـا أيضـا : ذات القشـرة الرقيقـة التـى بـين عظـم الرأس ولحمة .

وإنما أوردتُ هذا التمثيل ، خوفاً أنْ يكونَ صاحبُ مولانا الملكِ الجليل ، الذى بخراسانِ من هذا القبيل ، فَتُبَدّلُ المحبةُ بالبُغض ، وترجعُ على موضوعِها بالنقض ، ثم إن بعضَ الأصحابِ والإخوان ، يفعلُ ما يفعلُه من الخيرِ والاحسان ، على سبيلِ المكافاة[٤٩] لا على طريق المروءةِ والمصافاة ، فإذا كافأً بالإحسان ، عاد إلى ما كانَ عليه من العدوان . فأَسْأَلُ الحضرةَ الشريفة ، والمراحمَ المنيفة ، ذاتَ الفضلِ المشهور ، والإحسانَ المأثور ، التأمَّلَ فى عواقبِ هذه الأمور ، لئلا يُصيبَنا ما أصابَ ذلك المسافر ، ضَيْفَ الحدّادٌ المنافر ، من العفريت الملقى فى الحافر . قال : أخبرْنى أيها الولدُ النجيب ، عن ذلك الأمرِ العجيب ، وقاك الله شرَّ الوجيب .

[٦/٢] حكاية المسافر والعفريت

قال : بلغنى من رُوَاةِ الأخبار ، أن شخصاً من الخيار ، لازَمَ الأسفار ، وقطع القفَار ، فجاب مشارقَ الأرض ومغاربها ، وبلغ أكنافَها وجوانبَها ، وشاهد عجائبَها وغرائبَها ، وقاسى حرَّ الزمان وقُرَّه ، وذاق حلوَه ومرَّه ، وعانى خيرَه وشرَّه ، فأدّاه بعضُ المسير ، إلى بلدٍ كبير ، فرأى فى بعضِ نواحيه ، وطرفٍ من بعضِ ضواحيه ، طائفةً من الصبيان ، قد اجتمعوا فى مكان ، فوصل إليهم ذلك الفقير ، فوجدَهم واقفين على حفير ، يرمون فيه بالأحجار ، وهم يستغيثون بالستار ، من العدوِّ المكار ، والخبيثِ الغدار ، والحسودِ القديم ، والكافرِ الذميم ، والشيطانِ الرجيم . فسألهم ماهذه المعضلة ؟ فقالوا عفريتٌ وقعَ فى هذه البئرِ المعطّلة ، وهو عدوٌّ قديمٌ نريدُ أنْ نقتلَه ، فقال : افسحُوا حتى أنظرَ إليه ، وأساعدَكم عليه ، ففسحوا عن ذلك الطويّ ، فنظر فى قَعْرِ الركيّ[٥٠] ، فرأى فى

---

[٤٩] المكافاة (مخففة) .

[٥٠] الركيّة : البئر لم تُطْوَ . جمع ركايا و رُكِيّ .

جانبٍ منها عفريتاً مُنزويا ، قد هشّموه وكسّروه وحطّموه ، وكاد يهلكُ مما رجموه ، فعندما نظر إليه ، رقّ له وعطفَ عليه ، وقال : أفضلُ المعروف ، إغاثةُ الملهوف ، وإن لم يكنْ بيننا سابقةُ صداقة ، ولا وشيجةُ محبةٍ ولا عَلاقَة ، بل عداوتُنا جِبِلِّيَّة ، وما بيننا أزلية ، لكنّ فعلَ الخيرِ لا يبور ، ولله عاقبةُ الأمور ، وإذا قصدَ الإنسانُ فعلَ الخير ، فلا عليه إنْ فعلَه مع أهلِه أو الغير . وقد قيلَ للتمثيل : أيها الإنسانُ قد عداك الذم ، افعلْ الخيرَ وألْقِه فى اليَمّ .

ثمّ منعَ عنه الكبيرَ والصغير ، وساعده على الخروج من البير ، واستنقذَه من أيديهم وأطلقه ، فكان كَمَنْ اشتراه وأعْتقه . فلمّا رأى العفريتُ هذا الإحسان ، من ذلك الإنسان ، من غيرِ سابقةٍ ولا عِرفان ، قَبّل يدَه ورجلَه ، وشكر له هذه الفِعلَة ، وقال : إنى عاجزٌ عن مكافاتِك يا إنسان ، فى هذا الأوان ، وأنا اسمى فلان ، فإنْ وقعتَ فى ضيق ، أو ضللتَ فى طريق ، فَنَادِنى باسمى ، أَحْضرْ إليك بجسمى ، وأنفعْك فى ضيقك ، وأرشدْك إلى طريقِك ، وأكافئْك أيها اللَّوْذَعي ، بما فعلتَه معى .

ثم ودّ عَ كلٌّ صاحبَه ، وخالفَ فى السير جانبَه ، فوصل السَّيَّاحُ إلى بلدٍ من البلاد ، له فيها صديقٌ حداد ، فنزل عنده فأكرمه ورحّب به وخدمه . وكان لتلك البلدةِ عادةٌ حسنة ، أنهم فى يومٍ معينٍ فى كلّ سَنَة يُقَرِّبونَ[٥١] مَنْ يقدمُ عليهم فيه ، ولا يسألونَ أحاملٌ هو أمْ نبيه . فإنْ لم يقدمْ عليهم غريبٌ في ذلك اليوم ، اقترع فيما بينهم القوم ، فمن خرجت قُرْعَتُه ، سحبوه ، وكسروا قَرْعَتَه وَقَرَّبوه[٥٢] . فوافق ذلك اليوم قُدُومَ السائح ، ولم يرد سواه من غادٍ ورائح ، ولا

---

[٥١] يقربون : يقدمون قرباناً بشريا .

[٥٢] قربوه : ضحوا به قربانا .

شعرَ به أحد ، من أهلِ تلك البلد ، فأخذوا فى القُرْعَةِ بالاجتهاد ، فطرقتْ القُرْعَةُ قُرْعَةَ الحدّاد ، فقبضوا عليه وعزموا على تقريبه ، فقال عندى غريبٌ لم يكنْ أحدٌ يدري به ، فلمْ يَدْرِ السائح إلاّ وقد أحاطتْ به الشوائح ، فهجمُوا عليه ، وربطُوا عنقَه ويديْه ، ثم سحبوه وحبسوه ، وفى أضيقِ مكانٍ أجلسوه ، وأشهروا النداء ، أنّه حصل للحدّاد الفِداء . فَعَلِمَ السائحُ القضيّة ، وتحقّقَ أنه تورّطَ فى بليّة ، فذكرَ اسمَ العفريت ، وقد علقه الهمُّ علوقَ النارِ بالكبريت ، فحضر لساعتِه ووقتِه ، فرأى السائحَ فى هولِه ومقتِه ، واطلع على جملةِ الشان ، فقال لا تخشَ يا ذا الإحسان ، اعلمْ أنَّ أميرَ هذه البلد ، له ولد ، هو واحدُ أبويه ، وإنّى الآنَ أصرعُه بين يديه ، ثم أنادِى فى النادى : إنْ رمتم شفاءَ هذا العليل ، فهو بدعاءِ ذلك الرجلِ الجليل ، السيدِ الصالح ، الزاهدِ السائح ، ضيفِ الحداد ، الذى بسببه حصلت هذه الأنكاد ، فأطلقوه والتمسوا دعاءه فإنّ فيه لِعليلِكم شفاءَه ، ولا تطلبوا من غيره دواءَه . فإذا طلبوك ، وأعزّوك وارغبوك ، وأكرموك واحترموك ، فَادْعُ بما يرفعُ نكدَهم ، فإنى إذ ذاك أتركُ ولدَهم ، فإذا رأوْا منكَ هذه الكرامَة ، بالغوا وسلموك الزعامَة ، وخيرّوك بين الرحيلِ والإقامة ، وأقل ما يُفعلُ معك السلامَة .

ثم ذهب إلى ابنِ الملكِ وخبطَه ، وحلَّ فى أعضائِه وربطَه ، فتخبّط الصبيُّ وتَخيّل ، وتكسّل وتخبّل ، وكادت روحُه تخرج ، ويدرج مَنْ يدرج ، فاشتغلوا بشأنِهم ، عن أمْرِ قُرْبانِهم ، فطلبوا الأطبّاء ، فأعياهم علاجُ هذا الداء ، و لم يقدروا على علاجِه ، وتعديلِ مزاجِه ، وتقويمِ اعوجاجِه ، واشتغلتْ الخواطر ، وتنكّد البادى والحاضر . فعند ذلك نادى العفريت ، من ذلك البيت ، يسمعون كلامَه ، ولا ينظرون مقامَه : إنّ زوالَ هذا العارض ، وَمَنْعَ هذا الدّاءِ المعارض ، عند رجلٍ قُدْوَة ، مستجابِ الدَّعْوَة ، رجلٍ صالح ، زاهدٍ سائح ، عالمٍ عامل ، كاملٍ فاضل .

هو بركةُ البلادِ والعباد ، مادةُ الصلاحِ وقاطعُ الفساد ، وهو ضيفُ الحداد ، الذى فَرَطَ منكم فى حقّه سوءُ الأدب ، فأدركوه بالطّلب ، وأسرعوا نحوَه ، والتمسوا منه دعوَة ، وإلاّ فولدُكم هالكٌ عَنْوَة ، وبادروا باللحوق ، لئلا يخرجَ السهمُ من الفُوق[٥٣] ، فإن سهْمَ هذا المصاب ، بسبب ذلك أصاب .

فركب المِلكُ بنفسِه ، وسارع إلى بابِ حبسِه ، ودخل عليه ، وأكبَّ على رجليه ، وطلبَ دعاءَه ، ورام لولدِه شفاءَه ، فتوضّأ وصلّى ، وأعرض عنهم وتولّى ، وتوجّه ودعا ، فحصل للولدِ الشفا ، ونهضَ فى الحال ، كأنما نشطَ من عِقَال . ثم إنَّ العفريتَ الجائح[٥٤] ، أتى الرجلَ السائح ، وقال لا تحسبْ أنى إذ كافيتك[٥٥] ، صادقتك أو صافيتك ، كيف وعداوتُنا قديمةٌ مغروزة ، وغروس التباغضِ فى أحدائقِ ذواتِنا مَرْكُوزه ، أنا من نارٍ وأنت من تراب ، شيمتُك الترابيّا وشيمتى الإحراقُ والخراب ، ومتى استقام أعوجُ مع قوام ؛ أو وَجَدَ بين المتباينيْن التئام . وإنما كان هذا الوفاء ، لئلا يُنسبَ إليَّ الجفاء ، ونحن على الكدرِ دون الصفاء ، وعلى مانحن عليه من العدوان ، وإنْ لم يَصِرْ بيننا معرفةٌ ولا كان ، ثم صار شُعْلَةَ لَهَب ، وترك السائحَ وذهب .

ثم قال ابنُ الملك : ومن أنواعِ المحبةِ والصداقة ، وما يتأكدُ فيها مِن العَلاقة نوعُ محبة ، تتوفرُ فيه الرغبة ، ينشأُ من فرطِ الشهوة ، ويركبُ من صاحبه على الصهوة ، وتميل إليه النفسُ والطبيعة ، ولكن تكونُ استحالتُه سريعة ، فيزولُ بأدنى سبب ويشبه شواظَّ اللهب ، يتلهّب ساعةً وقد ذهب ، وربما أدّى إلى الهلاك

---

[٥٣] الفوق : الشوط ، والفوق من السهم : حيث يُثْبَت الوتر منه .

[٥٤] المُهْلك .

[٥٥] كافيتك : كافأتك .

والعطب ، كما فَعَلَ بالبطةِ الثعلب ، حيث كانت محبتُها غيرَ صادقة ، ومودُتها بالشهوة مماذقة[٥٦] ، وشتّانَ مابين المحبةِ الخالصةِ والمحبةِ المنافقة ، لا جَرَمَ أدّتْ إلى عكسِها ، وإزهاقِ نفسِها . قال الملك : أخبرْني أيها الخبير ، كيف هو هذا النظير ؟ .

[٢/٧] حكاية البطة والثعلب

قال ابنُ الملكُ : ذُكر أنّ زوجاً من البط ، كان مأوَى على شط ، جارٍ بين رياض ، ومروجٍ وغياض ، أزاهيرُها عطرة ، ورياحينُها نضرة ، وقريبٌ من وَكْرِ البطتيْن ، مأوى لأبى الحصين ، فحصل لذلك الثعلب ، المرضُ المسمَّى بداءِ الثعلب ، فسقط وبرُه ، وتمعّط صوفُه وشعرُه ، وذاب جسمُه ، وتهرى لحمُه ، وقارب التلَف ، واللحاقَ بِمَنْ سلَف ، وصار كما قيل :

أصبحَ فى أمْراضِه يُعَذَّبُ   كخِرْقَةٍ بَالَ عليها الثعلبُ

فلمّا أنْحله السَّقَمُ وأضناه ، قالت له سلحفاة ، لما زاد به المرضُ واشتط : دواءُ دائِك كَبِدُ البط ، فإنْ أكلتَ كَبِدَ بَطّة ، نَصَلْتَ من هذا البلاءِ البَتّة . فقال : ومَنْ لى بهذا الدواء ؟ إذْ ليس لي حَرَاكٌ والبطُّ فى الهواء ، فَشِفاءُ هذا الداءِ العضال ، مِن بابِ التعليقِ بالمحال ، وكأنّ الشاعرَ يعنيني ، إذْ سمع أنيني ، ورأى سكوني ، تحت أحمال شجوني ، بقوله :

فَقَالَ قُمْ قُلْتُ رِجْلي لا تُطاوِعُني   فَقَالَ خُذْ قُلْتُ اكَفّي لا تُواتيني

ثم استنهض همَّتَه ، واستنخى نَهْمتَه ، وصمّم عزيمتَه ، واستعمل فكرَه ، واستورى مكرَه ، وقال لنفسه : لا ينجيكَ من هذا الإنكال ، إلا التشبُّثُ بذيْلِ المحال ، لعل الله واهبَ العطيَّة ، يظفرنى بهذه الأُمنيَّة .

---

[٥٦] مماذقة : غير صافية قائمة على الغش والنفاق .

ثم توجّه وهو يتشحّط ، إلى صوبِ البط ، وصار يتلظّى فى جنباتِ الشـط ، إلى أن لاحَ له بعد الأيْن[٥٧] ، أُنثى هاتين البطتين ، فتخفّى إلى أن قاربَها ، ثـم واثبَهـا ، فمـا ساعدتْه القـوة ، فَهَـوَى فـى هـوَّة ، فمـا وسِعَه إلاّ أن غـالط ، وأظهـرَ المودَّةَ وخالط ، وعبرت عيناه وبالط[٥٨] ، وأرى مِن نفسِه أنّ تلكَ الوثبة ، إنّمـا هـي مـن داعية المحبَّة ، ونهضةِ الاشتياقِ إلى الأحِبَّة . ثم بادر وقال : مرحباً بالجارةِ الصالحة ، ومن نعوتِها بمِسْكِ العفّةِ فائحه ، وأخلاقُهـا غاديـةٌ ببشرِ الخيرِ رائحـة ، المخـدَّرة المجيبة ، الحبيبة النجيبة ، حياكِ الله من قرينةٍ رضيّة ، جميلـةِ الأوصـافِ بهيَّـة ، فمَـا أكْثر إحْسانك وفضَائلك ، وأوفرَ امتنـانك وفواضلـك ، لقـد عَـمَمْـتِ بإحْسـانِك ، جميعَ معارفِك وجيرانِك ، وأطَعْتِ زوجَكِ وحلالِك ، وتحقّق كلُّ أحدٍ لحسْنِ الشِّيمِ جلالَك ، ومازال يُنفقُ عليها من حواصلِ هذه الخُزَعْبلات ، ويُفْعِمُ أرْدَانَ عقلِها من معادنِ هذه التموِيهات ، حتى سكنتْ بعضَ السكون ، وركنتْ إليه أدْنى ركـون . ثـم أخـذَ فـى الإينـاس ، وتمهيدِ قواعـدِ الأسـاس ، حتـى اطمـأنتْ ، واسـتكانتْ واستكنّت ..

ثم قـال : إنّـا للهِ ولا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله ، تَرَيْنَ مـا رأى فيكِ زوجُـك مـن الخلَل ، ولاح لـه مِـن عيبٍ حتى فعَل ما فعل ؟ قالت : وما فعل ذلك الجُعَـل[٥٩] ؟ قال : لَوْلاَ أنّ الغيبةَ ريبة ، والنميمةَ مشئومة ، وَنَقْلَ المجـالسِ القبيحـة ، وإنْ كـانتْ وقائعُها صحيحة ، أمرٌ مذموم ، وهذا معلوم ، لكنتُ أفصحْـت ، وأشبعتُ القـولَ ونصحْت ، ولكنَّ الصبرَ على الضَّرائر ، فِعْلُ الحرائر ، والوَرْدُ لا يخلـو عـن شـوك ،

---

[٥٧] الأيْن : التعب والإعياء .

[٥٨] بالط فى أمره : بالغ واجتهد .

[٥٩] الجُعَل : حيوان كالخنفساء ، والجعل من الناس : الأسود الدميم .

ولا الشبابُ عن نوعٍ نوك[٦٠] . فلمّا سمعتْ هذه النجوة[٦١] ، حملتْها المحبةُ المزوجةُ بالشهوة ، أن ألحتْ عليْه ، وسألتْ إيضاح ما لديْه ، وأقسمتْ عليْه ، بحقِّ الجوار ، إلاّ ما أطلعَها على هذه الأسرار . فقال : لَوْلاَ أنّ الجِوارَ ذمة ، لَمَا فُهْتُ بكلمة ، خصوصاً وقد أَلْحَحْتِ بالقسم ، وتشفعّتِ بالجوار والذِّمم ، وأيضاً لَوْلاَ وفورُ الشفقة ، وعظمُ المحبّة والمِقَة ، واعتمادى عليك أنك ثِقة ، وأن صدرَك مخزنُ الأسرار ، وأنك سيدةُ الأحرار ، ما أَطْلَعْتُكِ على شيءٍ ممّا كان وصار .

اعلمى أن زوجَكِ المشتطّ ، قد خطَب بنتَ مَلِكِ البطّ ، وله فى هذه المكيدة ، مدةٌ مديدة ، آخرُها اليوم ، كان قد أرسل إلى القوْم ، الماشيةَ والخطّابة ، أن يُهيّئوا أسبابه . فلمّا سمعتْ هذا الكلام ، ساورَها من الغَيْرةِ الضِّرام ، ولْم تَشُك فى أنه صادق ، وذهلتْ عن التّبيُّنِ فى خبَرِ الفاسق . وجميعُ الأخبارِ عن الأزواج ، يتوقفُ فيها النساء إلاّ خبرَ الزواج . ثم إنها تماسَكتْ ، وأرتْ تجلّداً وتمالَكت . وقالت : أحلَّ اللهُ له ، من الأزواجِ ما طابَ له ، لا حيلةَ إلا الانقياد ، وتَرْك المراد ، وموافقة السُّنّةِ والجَماعة ، والدخول تحتَ الأمر بالسمعِ والطاعة ، وماذا يفيدُ التَدلُّه والحيْرة ، إنّ الحلالَ جَدَعَ أنفَ الغَيْرة . قال : والأمرُ كما ذكرتِ ، وما أحسن ما افتكرتِ وصبرت ، وما يمكن الطعنُ فى الحلال ، ولكن هذا دليلُ الملال ، وكل مَنْ ادّعى هواك ، وتخلّل فى طريقِ سواك ، ولو بحلالٍ مِن سِواك ، فلا شكّ أنه قَلاَك[٦٢] ، وبنارِ الهجرِ والجفاءِ سلاك ، وليسَ هذا ساعةً وتمضى ، ولا حادثةً تقعُ ثم تنقضى ، إنما هو أمرٌ دائم ، ونزاعٌ أبدَ الدهرِ قائم . أنَا ما أخشى إلا عليك ، بما يصلُ من النكدِ إليك ، فإنَّ حقّك ثابتٌ عليّ ، وضررَك عائدٌ إليّ ، فإنّكِ جارةٌ

---

[٦٠] النَّوك : الحمق .

[٦١] السرّ الغامض .

[٦٢] قلاك : كرهك .

قديمة ، معروفةٌ بحسن الشيمة ، لم أرَ منكِ إلاّ الإحسان ، وعدمَ التعرّضِ إلى إيذاء الجيران ، وكلٌّ مِنّا قد اعتادَ بالاخر ، وباهى بصحبتِه وجوارِه وفاخر ، وأخافُ أنْ يتجدّدَ لي في الجوار ، مَنْ يتصدّى لي بالأضرار ، ويؤذى ولايعرفُ حَقَّ الجار ، لايعرفُني ولا أعرفُه ، ولاُينصفُني ولا أُنصفُه ، فيتكدّرَ لي الوقت ، ولا أخْلوَ من نكدس ومقْت ، لاسيما وأنا ضعيف ، مبتلًى نحيف ، فلا يستقيمُ الحال ، ولا أقدرُ على الارتحال . ولازال يُسَدِّدُ المضارب ، ويفتل منها في الذِّرْوَةِ والغارب ، حتى أثّرَ فيها سُمُّه ، ونفذ في سُوَيْدائِها مِنْ مكرِه سهمَه ، فَاسْتَرْشَدَتْهُ إلى وَجْهِ الحيلة ، في هذه النازلةِ الوبيلة . فقال : الرأيُ السديد ، والفكْرُ الرشيد ، أنّه إذا أوْصَلَ قولَه بفعله ، وأَتْبَعَ في أذاه فرضَه بنفلِه ، واختار غيرَك عليك ، طلِّقيه والفُ زَوْج لديك ، وأرضُ اللهِ واسعة ، وهو المعتدى في المقاطعة ، وأنا أكونُ السفير ، في زوجٍ يخجلُ البدرَ المنير ، يعمّرُ دارَك ، ويعرفُ مقدارَك ، ويخدمُ كلبَك وحمارَك ، ويملأُ وكرَك خيرا ، وبطنَك طيرا ، ودارَك شعيراً وبرّا ، مع كونه وافرَ الحشمة ، مسموعَ الكلمة ، قد جمع بين طَرَفَيْ الأصالةِ والحرمة .

فقالت : هذا الذى تقول ، أمرٌ معقول ، وإلى الان ما وقع ، وعلى تقديرِ أنْ يقع ، إنْ حصل الشقاقُ والنفَاق ، ترجيحُ الأنذالِ المستجدِ على الكرامِ العتاق ، فيكون بيننا هذا الاتفاق ، وإنْ وقعت بيننا المعادلة ، ولم يحصلْ في حقّي منه مُسَاهلة ، ولا للضُّرةِ عليّ مفاضلة ، كيف أُشاققُه ، وعلى فعلٍ مباحٍ أُضايقُه ، فضلاً عن أنّي أفارقُه ، وكيف أخربُ دارى ، وأَضرُّ بحبى وجارى ، وأشمّتُ بى الأعداء ، ويحتاطُ بي من كلِّ جهةٍ البلاء . ولكنْ الرأيُ المحمود ، عندى يا وَدُود ، الصبرُ في كلِّ حالٍ على الدهرِ الكدود ، وتجرّعُ الغصصِ لئلاّ يشمتَ الحسود . كما قيل في التمثيل : " ما بي دخولُ جهنم ولكن بي شماتةُ اليهود " ، فلمّا رأى

الخبيث ، أنه لم يفدْه هذا الحديث ، ولم تتمْ له الحيلة ، وأفكارُه الوبيلة ، قـال أقولُ الحقَّ الذى جصص ، ولا عنـه محيدٌ ولا مخلـص ، إنَّ زوجَـك قـد نُقـل إليـه ، أنـكِ اخترتِ غيرَه عليـه ، وأنك عاشقةٌ ، وصُحْبتك لــه مخادعـةٌ ومماذقـة ، وثبـت ذلـك لديه ، وعقد اعتقادَه عليه . وعزمُه على الزواج ، إنما هو تعلّلٌ واحتياج ، لفتحِ بابِ الشرّ ، وتعاطى أسبابِ النكـدِ والضـرّ . وقـد ثبـت عنـدى أن ذاك الأفّـاك ، الأثيـمَ السّفاك ، يريد أن يجرّعَك كأسَ الهـلاك ، فَتيقّظي لنفسِـك ، وتداركـي غَـدك فـى أمسك ، قبلَ حُلُولك فى رمسِك ، واستقيمي قبلَ عكسِك . وأنا منذ سمعـتُ هـذه الأخبار ، لم يقرّ لى قرار ، وذلك لوفورِ الشفقةِ وحسن الجـوار ، وقـد زدتُ ضعفـاً على ضعفى ، وكدتُ لهـذا الغـمِّ أُسْقَى كـأسَ حَتْفِي . وأنـتِ يـاغرضَ الحاسـد ، تعلمينَ أنْ ليس لى غرضٌ فاسد ، وهذا بديهيٌّ التصوّر لا يحتاجُ إلى تدبّرٍ ولاتفكّـر ، ولقد غرْتُ عليك ، والأمرُ فى هذا كلّه منك وإليك . فتكدّرَ خاطرُها ، وتشوّشـتْ ضمائرُهـا ، وضاقـتْ بها الحيَل ، وتـاه منهـا العلـمُ والعمَـل ، ومَـنْ يَسـمعْ يخَـل ، وصالتْ أفكارُها وجالت ، وبـدَر منهـا أنْ قـالت : واللهِ لـو أمكننـى لَقتلتـه ، ولـو وجدتُ فرصةً لاغْتلته ، واسترحتُ من نكدِ الدهـرِ المغبرّ ، وهـذا العيـشِ الوحـشِ المكدّر . فالتقطَ الثعلبُ هذه الكلمةَ من فيها ، وعلم أن سَهْمَ خَتْلِهِ نفـذَ فيهـا ، لأن عقودَ المحبّةِ انحلّت ، وصورةَ المودّةِ القديمـةِ زالـتْ واضمحلّـت ، وتلاشـتْ الصداقـةُ بالكُلية ، وانمحتْ شهوتُها بأدْنى جزئيـة . فقـال : لا تهتمـي لذلـك يـاضرّة هنـد ، فعندى عَقّارٌ من عقاقيرِ الهند ، أَحْلى فى المذاق ، من سـاعةِ التـلاق ، وأمضَـى مـن السيفِ فى حُكْمِ الفـراق ، اسمـه أكسيرُ المـوت ، وتدبيرُ الفـوت ، وسُـمُّ سـاعة ، وتفريقُ الجماعة ، لو أكل منه ذَرَّة ، أو شَمَّ منه نشره[٦٣] ، لقُتِل فى الحـال ، وفـرّق

---

[٦٣] النشر : العبير.

الأوْصال ، من غيرِ إمهال . فإنْ اقتضى رأيك الأسَدّ ، أنْ تَخلُصِي من هذا النكـد ، نَاوَلْتك منـه شَـذْرَة ، تكفيكِ ذَرّةٌ منـه أَمْـرَه ، فـإنْ شئتِ أطعمتِـه ، وإنْ شئتِ أشممتِه ، ولولا أنك عزيزةٌ عليّ ، لم أفُه لك من هذه الأمور بشـيّ ، ولقـد فضّلتُـكِ على روحي ، فاكتمي هـذا السرَّ ولا تبوحـي . فتحمّلـتْ منــه جميلتَـه ، وعرفـتْ قدرتَـه وفضيلتَـه ، وطلبتْ منه الدوا ، لتُذْهِبَ به عن قلبها الجَوى ، وتقتـلَ زوجَهـا المسكين ، وتسلَمَ من نكدِه وتَستكين . وزالتْ تلكَ المحبةُ القديمة ، ونسيتْ الصحبةَ والصداقة القويمة ، ووعدَها الثعلبُ أنَ يأْتِيَها بالعَقّار ، وفارقَها على هذا القرار . ثـم إنها انتظرتهِ لَيفِيَ بوعدِها ، واحترقَ صبرُها من نارِ سمّها ووقدِها ، وتقـاعدَ الثعلـبُ عنها ، ينتظرُ ما يتأتّى منها ، فحملَها مثيرُ الوجدِ إليه ، وساقها الأجلُ المحتـومُ إلى أنْ قدمتْ عليه ، فدخلتْ وَكْرَه ، وقبّلتْ يدَه وصـدرَه ، فتمكّـنَ منهـا ذلـك الغـادر ، ومزّقها كما يريدُ فصارتْ كالأمسِ الغابر .

وإنما أوردتُ هذا التمثيل ، لئلا يكونَ أصحابُ مولانا السلطانِ من هذا القبيـل ، فيكون المعتمدُ عليهم ، والمستندُ اليهم ، كالنائمِ على تيارِ الأنهار ، والمؤسّسِ بنيانَـه على شفا جُرُفٍ هار . قال الملك : معـاذَ اللهِ يـاولدى ، وقُـرّةَ عيـني وكبـدي ، أن يكونَ صاحبى ومعتمدى ، من هذا النمطِ ، وشبيهاً بالعفريتِ والثعلبِ والبط ، بـل كلٌّ من أصحابى ، وسائرِ أوليائى وأحبابى ، ما منهم إلا الصديقُ المهذّب ، والرفيـقُ المؤدّب ، والشقيقُ المـدرّب ، والعتيـقُ المجـرّب ، وقـد جَرّبْتُـه فـى المـودةِ والإخـاء ، والشدةِ والرخاء ، والمروءةِ والسخاء ، كما جرى ذلك للتاجرِ المجربِ صديقَـه فـى الشدة والارتخاء . قال الولد : ينعم مولانا الإمام ، بتقريرِ هذا الكلام .

[٨/٢] قصة التاجر والصديق ونصف الصديق

قال الملك : بلغنى أن بعضَ التجارِ الأكرمين الأخيار ، والكرماءِ الأبرار كـان لـه مالٌ جزيل ، وولدٌ صالحٌ جليل ، سعيدُ الطالع ، سديدُ المطالع عـالي الهمّـة ، مُتوالى الحشمة ، ميمونُ الحركات ، جميلُ الصفات ، حسـنُ الصورة ، مشكورُ السيرة ، طاهرُ السريرة ، وكان أبوه قد تخيّل فيه مخايلَ السعادة ، وتفرّس فيه آثارَ النجابةِ والإجادة ، فكان لايصبرُ عن تأديبه ، وارشادِه إلى سبيلِ الخيرِ وتهذيبه ، وتربيتِه بمكارمِ الأخلاقِ وترتيبه . فقال له يا بُنيّ ، إنَّ الإنسانَ يحتاجُ إلى كلِّ شيٍّ ، وأعظمُ مايحتاجُ إليه ، ويعوّلُ فى التحصيلِ عليه ، الصاحبُ الصافى ، والصديـقُ المصافى ، والرفيقُ المساعد ، فى وقتِ الشدائد ، فإنَّ المالَ ميّال ، والذهـبَ ذاهـب ، والفضّـةَ مُنفضَّة ، والملبوسَ بوس[٦٤] ، والمآكلَ متاكل ، والخيلَ خيال ، والفواضلَ شـواغل ، والدهـرَ قاصلى ، والعصرَ عـاصى ، والأقـاربَ عقـارب ، والوالـدَ معـاند ، والولـدَ كَمَد ، والأخَ فخّ ، والعمَّ غَمّ ، والخالَ خبال ، والدنيا وما عليهـا لا يُركـن إليهـا ، وما ثم إلا رفيقٌ ذو وفـاء ، مجبولٌ على الصـدقِ والصفـاء ، إنْ غِبْـتَ ذكـرَك ، وإن حضرتَ شكرَك ، مـأمونٌ علـى نفسِـك ومـالِك ، وأهلِـك وعيـالِك ، فـى حـالِك ومآلِك ، إنْ غابَ صانَك ، وإنْ حضَر زانَـك ، فهو أفضلُ موجودٍ يقتنى ، وأحسنُ مودودٍ يُصطفى ، فإنْ ظفرتَ به ، فتشبَّثْ بسببه . ثم قال له : يابنيّ ، قد أقمتَ فى الحضر ، وانقضى لكَ فيه ماذُقْتَ مما حلا ومر ، فـلا بـأسَ أن تحيـطَ علمـاً بـأحوالِ السفر ، فإن السفرَ مَحَكُّ الرجال ، ومجلبةُ الأمـوال ، ومكسـبةُ التجـارب ، ومـرآةُ العجائبِ والغرائب ، فاعزمْ على بركةِ اللهِ تعالى وتوكلْ عليـه ، واصحبْ معك فيه ماتحتاجُ إليه . ثم أفاضَ عليه المال ، وأضاف إليه صالحي الرجـال . وحـينَ ودَّعـه ،

---

[٦٤] بوس (مخففة)..

ووصاه واستودَعه ، قال : يابني ، لاتجعلْ دأبَك ، وطلبَك واكتسابَك ، إلا استجلابَ الصاحبِ النافع ، دونَ سائرِ المنافع ، فإنّه أوفرُ بضاعة ، وأربحُ تجارة ، وليس على الصديقِ الصدوقِ أبداً خسارة ، واجعلْه في سفرِك نُصْبَ عينِك ، واشْتَرِه بنفسِك ومالِك ونقدِك ودينِك ، وقد قيل :

أَخَاكَ أخاكَ إنّ مَنْ لا أخَا لهُ　　　كساعٍ إلى الهَيْجا بغيرِ سِلاحِ

والمرادُ به الصديق . واعلمْ أن الأخَ الصُّلْبي[٦٥] ربما يضرُّك ، وأما الصديقُ الصالحُ فإنه أبداً يسرُّك ، والصاحبُ الشفيقُ خيرٌ من الأخِ الشقيق ، وقد قيل : " رُبَّ أخٍ لم تلده أمك " فقبِلَ الشابُّ وصيَّةَ أبيه . ثم توجّه في حشَمِه وذويه ، بقصدٍ جميل ، ومالٍ جزيل ، فمكثَ غيرَ بعيد ، ثم عاد وهو سعيد . فقال له أبوه : حَيِيتَ وحُيِيت ، ما أسرعَ ما حييت ، قُلْ لي أيْنَ ذهبْت ، وماذا اكتسبْت ؟ فقال : ياأبتِ امتثلتُ مرسومَك الكريم ، واكتسبتُ بالمالِ كلَّ وَلِيٍّ حَميم ، وقد جئتُ بهم زُمَرَا ، وَعِدَّتُهم خمسون نفرا ، كلٌّ منهم صديقٌ صادق ، ورفيقٌ موافق ، في الفضلِ بارع ، وإلى الخيرِ مسارع ، وفي الرخاء ، صادقُ الإخاء ، وفي الشدة ، أَوْفَى عُدَّة . قال أبوه : يابني كيف تصفُهم بهذه الصفة ، وتُعَرِّفُهم بهذه المعرفة ، ولم تجربْهم في قضية ، ولا واقعةٍ صعبةٍ أو رخية ، وقد قيل :

لا تَمْدَحَنّ امراً حتى تُجرّبَه　　　ولا تذمَّنهُ من غيرِ تجريب

وقد قيل أيضًا :

إذا رُمْتَ أن تصفي لنفسِك صاحِبا　　　فمِنْ قبل أنْ تصفي له الودَّ أغْضِبه

فإن كانَ في وقتِ التغاضُبِ راضيا　　　وإلاَّ فقد جَرَّبْتَه فتَجَنَّبه

وقيل أيضا :

الناسُ أكيسُ مِنْ أنْ يمدحُوا رجُلا　　　ما لم يَرَوْا عنده آثارَ إحسان

---

[٦٥] الصلبي نسبة إلى الصُّلْب ، يقال هو من صلب فلان : من ذرّيته .

واعلمْ يا ذا اللطائف ، أني خائف ، أن يكونَ أصحابُك ، وأصدقاؤُك وأحبابُك ، مثلَ أصحابِ الرئيس ، المدبرِ الخاملِ النفيس ، الذين رعوه في روضٍ وَفْرَة ، وتركوه في قَفْرِ فَقْرِه . قال ابنُه : ياأبتِ ، كيف وَرَدَ ذلك وثبت ؟ .

قال التاجر : ذكَرَ رواةُ الأخبار ، أنه كان في بعضِ الأمصار ، رجلٌ رئيس ، كبيرٌ نفيس ، له أموالٌ وافرة ، وجهاتٌ متكاثرة ، وأماكنُ عامرة ، وضياعٌ ومزروعات ، وبساتينُ وإقطاعات ، وعَقَارٌ له ارتفاعات . فكان ولدُه يمدُّ يدَه ، إلى كلِّ معصيةٍ ومفسدَة ، ويجترى ذلك السفيه ، على كلِّ ما يلوحُ له من جهاتِ أبيه ، والتفَّ عليه جماعة ، من عبيدِ البطنِ والمجاعة ، كأنهم " طَيْرُ قِرِلّي[٦٦] إنْ رأى خَيْراً تَدَلّى وإنْ رأى شرًّا تَعَلّى " . ومَدّ يَدَ الإسراف ، في التبذيرِ والإتلاف ، وصار أبوه ينصحُه ، ويردعُه عن جموحِه ويكبحُه ، وقال له : يابنيّ استعملْ الارتفاقَ في الإنفاق ، واستخلصْ من الرفاق ، ذوي الإشفاق . واعلمْ أن هذا المالَ هو لكَ مدخر ، ولتصرّفِك فيه مُنتظر ، وإنما أنا لك خازن ، والله تعالى مجازٍ ، على فعالي من مَساوٍ[٦٧] ومحاسن ، وتيقنْ أنّ المالَ هو عزُّك في الدنيا ، وزادُك إلى الأخرى ، وأن له وُجوهاً ومصارِف ، وعوارفَ ومعارِف ، فإذا صُرِفَ في غيرِ محلّه ، ودُفعَ إلى غيرَ أهلِه ، كان إثماً ووبالا ، وفي الآخرةِ عذاباً ونِكالا . وأحمقُ الناس ، المستحقُّ لنزول الباس[٦٨] ، مَنْ اكتسبَ المالَ حلالاً ، وبذره في الفسادِ يميناً وشِمالا ، وادّخر به إثماً وخبالا ، فَصَرَفَهُ إلى مَنْ لا يحمَدُه ، وعليه حسابهُ ونكدُه ، وأنتَ إذا صرفتَ مالَك و وَزَّعتَه ، وفي غيرِ مواضعِه زَرَعْتَه ، وأنفقتَه على مَنْ لا

---

[٦٦] القرلّي : طائر صغير الحجم ، حديد البصر ، شديد الحذر ، سريع الاختطاف وهو : ملاعب ظله . والمثل من الأمثال المولدة ، ورد عند الثعالبي في كتابه : التمثيل والمحاضرة .

[٦٧] مساوىء (مخففة) .

[٦٨] البأس الشدّة (مخففة) .

يعـرفُ فضيلتَك ، ولا يحملُ جميلتَك ، ولا يشكرُ صنعَك ، ولا يقصدُ نفعَـك ، ولا يجلبُ لك خيرا ، ولا يكشفُ عنك ضـيْرا ، خرجـتَ مـن عِـزِّ الدنيـا ، وفَـوَّتَّ زادَ الأُخْرى . وهؤلاءِ الذين قِبَلَكَ مُهْطِعين[٦٩] ، عن اليمين وعن الشِمال عِزِيـن[٧٠] ، ثمرةُ صحبتِهم الندامة ، وعاقبةُ أمرِهم الخيبةُ والملامة ، والبعدُ عنهم غنيمةٌ وسلامة .

وإذا كان الأمرُ كذاك ، فإيّاك ياولدي ثم إيّاك ، مِنْ صحبـةِ هـؤلاءِ الأحـداث ، والتلوثِّ بقربِهم فإنّهم أخباث ، واحتفظْ بصونِ مالِك ، ولا تنفقْه إلا علـى نفسِـك وعيالِك ، وفيما يُبقي ماءَ وجهِك فى حالِك ومآلِك ، ولا زال أبوه قـابضَ عِنانِـه ، بقدْرِ طاقتِه وإمكانِه ، يذكّرُه هذه الوصيَّـة ، بكـرةً وعشيّة ، حتـى أدركتْـه المنيّـة ، وخلّف ذلك المالَ العريض ، لذلك الولـدِ المريـض . فَمَـدّ يَـدَهُ كمـا كـان إلى كـلِّ مفسدة ، ونَسِيَ يومَه وغدَه ، وشرح فى مُناه مَتْنَ اللهو ، وقرّر بحديثٍ مـن كتـابِ فِقْهِ الزّهو ، بابَ الأنجاس وسجودَ السهْو ، واجتمع عليه قرنـاءُ السـوءِ وحضـروا ، خلا له ولهم الجوُّ فباضُوا فى الفسَاد وصفروا[٧١] ، وغابوا عن الرشادِ وما حضروا ، وصاروا يعظمّونه ، ويكرمّونه ويحترمونه ، فإذا كذبَ صدّقوه ، وإذا ضـرّط سَـمَّتُوه وشَمَّتوه[٧٢] وإذا نَهَقَ طربوا ، وإذا أخطأ صوبوا ، وإذا قعد قاموا ، وإذا قام ناموا ، يفدونه بالمهَجِ والأرواح ، ويلازمون خدمتَـه فـى المسـاءِ والصبـاح . وكـان لـه أمٌّ مدبرة ، عاقلةٌ مفكّرة ، فقالت له يا بنيّ : لا تكن "صُـبَيّ" وتذكـرْ وصايـا أبيـك ، وإياك ومَنْ يليك ، وتأمّلْ ما لديك ، واحفظْ ما لَكَ وما عليـك ، ودَبِّـرْ معاشَـك ،

---

[٦٩] المهطع : مَنْ ينظر فى ذلّ وخضوع .

[٧٠] العِزينُ : جمع العِزَة وهى الفِرقة من الناس . وجملـة (عـن اليمـين وعـن الشـمال عزيـن) نـص قرآنـى مقتبـس (تضمين).

[٧١] من الصفير . والعبارة فى أصلها مثل عربى قديم بهذا المعنى ، دلالةً على مطلق الحرية .

[٧٢] سمتوه وشمتوه : دعوا له بالخير والعافية .

وصُنْ ماءَ وجهك ورياشَك . واعلمْ أن أصحابَك ، وعشراءَك وأحبابَك ، وندماءَك ورفقاءَك ، وأخصاءَك وأصدقاءَك ، كلُّهم عبيدُ البطن ، ولو رقأتَ[٧٣] بذى شيقٍ[٧٤] أو حصن ، لا خير عندهم ولا مير[٧٥] ، وجميعهم "كسيِّر وعويِّر"[٧٦] فإياك إياك ، وصحبة من لا يتولاك ، لا تركَنْ إلى صداقتِهم ، ولا تعمدْ على موافقتِهم ، فإنّهم فى الرخاءِ يأكلونكَ ، وفى البلاءِ يتركونَك ، وإلى مخالبِ القضاءِ يسلمونَك ، رأسُ مالِ محبّتِهم ما فى يديك ، وأساسُ بنيانِ مودّتِهم ما يرونه من النعْماء عليك ، فإن قلّت والعياذُ با للهِ فَلّوا ، وخلّوك فى عُقَدِ النوائبِ مربوطا وانحلّوا .

وأقلُّ الأقسام ، يا ذا الأصلِ السام ، أنْ تجرِّبَ أصحابَك ، وتختبرَ مَنْ يلازمُ بابَك ، ويقبّلُ بشفاهِ المودةِ أعتابَك ، فى شيْءٍ نابَك ، أَعْجَزَ عن حلّه نابَك ، من حوادثِ القضاء ، أو فى حالةٍ من أحوالِ الغضبِ والرّضَاء ، أو السّعة والضّيق ، أو التكذيبِ والتصديق ، فَمَنْ وجدتَه ناصحاً صادقا ، أو مطاوعاً مصادقا ، وفى كلِّ الأحوالِ موافقا ، وفى الرخاءِ والشدةِ مرافقا ، يوثقُ به فى الغيبةِ والحضور ، وحالتيْ السرورِ والشرور ، يؤدّي الأمانة ، ويجتنبُ الخيانة ، ويغارُ على دينك وعرضك ، ويساعدُك على أداءِ سُنّتِكَ وفرضِك ، فاركَن إليه ، واعتمدْ فى أمورِك عليه ، ومَنْ وجدتَه منافقا ، وفى إخلاصِه مماذقا ، ينسجُ شقّةَ الودادَ بوجهيْن ، ويتكلمُ كخائضِ المذَادِ بلسانيْن ، فلا تقربْه ولا تصحبْه ، فإنّ بُعْدَه غنيمة ، والخلاصَ منه نعمةٌ

---

[٧٣] رقأت : أصلحت .

[٧٤] الشّيق : الشق بين الصخرتين .

[٧٥] مار ميراً : أعد لهم الميرة ، وهى الطعام يجمع للسفر ونحوه .

[٧٦] عبارة مثلية .

جنسيمة ، وانظرْ بعينِ الثبات ، مافى هذه الأبيات ، من حسنِ الصفات ، فَمَنْ كـان بها متّصفا ، فتمسّكْ بأذيالِه فإنّه من أهلِ الصفا ، وهى هذه :

وقــد قيل قــولُ المرءِ يكشفُ عقلَه	ويُبــدى سجَايَـاه وما كـان يكْتُـمُ
فهــذا كـلامــي مُظْهِـرٌ مـا أُكِنُّـه	وأكثرُ هــذا الخلقِ عن عيبِهم عَمُـوا
فمِنْ شيمتى أنّـى مطيـعٌ لصاحبـى	وأصلحُ عن خَصمـى وإنْ كنتُ أخصـمُ
وأرضى لنفســى دونَ مـا هُوَ حقُّها	وألـزِمُهـا للخِـلّ ما ليس يلـزمُ
إذا قــال أُصْغِـي للمقـالِ وإننـى	لأعلَـمُ منـه بالمقــالِ وأفْهــمُ
ولم اشْــكُ مِـن خِـلٍّ لئـلا يملّنى	ومَـنْ لـي بِخِـلٍّ لا يُمَـلّ ويُسـأم
واقطـعُ فـى بحثى وإن كنتُ غالبـا	وأسـكتُ حتى قيــل ذا ليس يعلَـمُ
لأبـقي ودادَ النـاسِ لـي لا أُضَيِّعُـه	ومَـنْ لا يـدارِى النـاسَ يُرمى ويُرغـم
وفي كـلّ ذا تقوى الإلـهِ شعائـري	ولا بُـد مَـنْ لا يَتّقِـى الله ينــدم
ولا نقصَ فِـى عقلي وأسبابُ نعمتى	وأنّـى وافـى بالكمــالِ مكــرّمُ
ولي هِمّـةٌ يسمُو إلى الأوْجِ قَدْرهـا	ولكـنّ خُمُـول المـرءِ للدينِ أسلـمُ
ووجـهُ اعتقـادى مثـل عرضى أبيضٌ	وديـنـى متـينٌ واعتمــادِى مُقَــوّمُ
وحسْبى مـن دنيـايَ قوتٌ وخِرْقَـةٌ	يبلّغنـى آلــارَ مَـنْ قَــدْ تقـدّمـوا
فهـذي غـريـزاتٌ لـديَّ وأنـنـي	لأدْعُــو إلى هــذي الخصالِ وأعــزمُ

فأثّر هذا الكلامُ فيه ، وتأمّلَ ما تضمنته فحاويـه ، ثـم أرادَ أن يجرّبَ مُلاَزِميـه ، ومَنْ بروحهِ وجسـدهِ يفديـه . فقال يوماً مِـن الأيـام ، وقـد اجتمعـوا علـى منادمـةِ المدام : اتفق أمرٌ عجيب ، وشأنٌ غريب ، وهو أنه كـان عندنـا هـاوِن ، فـى زاويـةٍ مخزون ، رِنّته رُبْعُ قِنطار ، أتى البارحةَ عليه الفار ، فقرضَه وأكلَـه ، وعَمّـه بـالأكلِ وشمله ، فلم يترك من ذلك النحـاس فـى مكانِـه ، إلا مـا فضـل مـن بـرادةِ أضراسِـه وأسنانِه . فترشّفَتْ ثغورُ آذانِهم مَنْطِقَه ، واستحلى كؤوسها كـلٌّ منهـم وصدّقـه .

وقالوا : هذا وقع بغيرِ شكٍّ ، لأنَ الهاونَ كان فيه وَدَك[٧٧] ، والفأرُ أسنانُه باضِعة ، وأضراسُه لِجنٍّ حرافيشِ بغداد قاطعة ، فلما رأى أنهم وافقوه وصوّبوا كلامَه وصدّقوه ، ازدادتْ فيهم محبتُه ، وقويتْ إليهم رغبتُه ، حيث رفعوا رتبَه ، وستروا فى جيبِ مكنونِهم عيبَه ، وحققوا مُحَالَه ، وصدقوا مَقَالَه . فأسرعَ إلى أمِّه مسروراً فرحا ، محبوراً منشرحا ، وقال : يا أمّاه ، انظري كلامَ أصحابى ، واخبُري مقامَ أحبابى ، ذكرتُ لهم كلاماً باطلا ، ومِن حِلْيَةِ الصدقِ والإمكانِ عاطلا ، فحقّقُوه بلا مَريَّة ، واثبتوا حقيقتَه من غير فَرِيّة ، وصاغوا له من جواهِرِ التوجيهِ أبهى حلية ، وذكر ماجرى لهم وله ، من الجنونِ والخُبَاطِ[٧٨] والوَلَه .

فقالتْ له أمُّه : يا ولدى ، ومُهجةَ كبدى ، هذا أمرٌ يضحكُ منه الجاهل ، ويبكى على حالِك الحالِكِ[٧٩] منه العاقل ، كما قيل :

أمورٌ تضحكُ السُّفَهَاء منها ويخشَى من عواقِبِها اللبيبُ

اعلمْ أيها الذاهلُ الغافل ، أنّك لستَ من أصحابِك على طائل ، وهؤلاءِ أعداء ، فى صورةِ أوِدَّاء ، وهمْ فى التمثيل كما قيل :

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشفتْ له عن عَدُوٍّ في ثيابِ صديق

وتيقَنْ أن هؤلاءِ فى النعْمةِ خدّاعون ، وفى النقْمةِ لذّاعون ، وأنتَ شابٌ غرير ، وبأعقابِ الأمورِ لستَ ببصير ، لا مارستَ الخَلْق ، ولا فرّقتَ بين الصادقِ من ذوي المَلَق ، لا خَبَرْتَهُمْ ولا سَبَرْتَهم ، ولا دخلتَ مداخلَهم ، ولا ميّزت خارجَهم وداخلَهم . إنّ الصديقَ الصادق ، والرفيقَ الفائق ، مَنْ بَصَّركَ عيوبَك ، وغَفرَ لكَ بعدَ نصيحتِك ذُنوبَك ، وأطلعكَ على حقائقِ الأشياء ، ونبّهكَ على ما خفي مِن

---

[٧٧] الودَك : دَسَمُ اللحم ودُهنه الذى يستخرج منه .

[٧٨] الخباط : الصرع .

[٧٩] الحالك : شديد السواد .

أمورِ الدنيا ، وأرشدَك إلى ما يزينُك ، ويُصلح به دنياك ودينَك ، وأبكاك إذا نصحَك ، لا مَنْ أضحكَكَ وفضحَك . وأمّا الذى يدلّسُ ويلبّس ، ويوسوسُ ويهوّس ، ويروّجُ الباطل ، ويحلّى العاطل ، فذاك ليس بصديق ، على التحقيق ، وإنّما هو عدوّ ، فلا يكنْ لكَ معه قرارٌ ولا هدوّ . فلمْ يلتفتْ الشاب ، إلى هذا الخطاب ، حيث كان مصادِماً لغرضِه ، غيرَ شافٍ لعلّتِه ومرضِه ، وقال : صَدَقَ مَنْ نَطَقْ ، وفاه بالكلامِ الحق ، مَنْ قال " إفشاءُ السِّرِّ إلى النساء فعلُ الأحمق " . ثمّ تركها ترغو ، واستمرّ هو مع أقرانِه يلهو ، وداوَمَ على تلكَ الحال ، حتى إذا دَنَتْ لنفادِها الأموال ، وبيعَ الرخيصُ والغال ، فما استفاقَ من سَكْرَتِه ، واستيقظَ من رَقْدَتِه ، إلاّ والأموالُ قد ذهبتْ ، والديونُ قد ركبتْ ، وهو ينشد ، وإلى مذهبه يرشد :

لِيذهَبُوا فى مَلامِي أيْنَمَا ذَهَبُوا فى الخمرِ لا فضةٌ تَبْقَى ولا ذَهَبُ

إلى أنْ " ذهبتْ السَّكْرَة ، وجاءت الفِكْرَة " ونَفَقَتْ البيضاءُ والصفراء[٨٠] ، فى الحمراء والخضراء[٨١] . وأصبحَ مُلْقَى على الأرضِ السوداء ، وأتعسَ مَنْ فوق الغبراء ، وأفلس مَنْ تحت الزرقاء ، وتراجع عنه الأصحاب ، وعاداه الأصدقاءُ والأحباب ، ورجعوا عنه ، بعد ما سئموا منه ، وصار ناديه يناديه :

كأنْ لَمْ يَكُنْ بينَ الحجُونِ إلى الصَّفا أنيسٌ ولَمْ يَسْمُرْ بمكّةَ سامرُ

وصارت محبتُهم له تكلّفا ، ورؤيتُهم إيّاه تعسفا . فاتفق له فى بعضِ الأيام ، أن قال فى أثناءِ الكلام ، لذلك الجمعِ بعينه ، الذين كانوا أجمعوا على صدق مَيْنِه[٨٢] : الفارُ الغدّار أكلَ لنا فى الدارِ البارحةَ رغيفاً كاملا ، فأتى على أكْلِه شامِلا ، فما

---

[٨٠] نفقت البيضاء والصفراء : انتهى المال من فضة وذهب ، و لم يبق منهما شيئ .

[٨١] الحمراء والخضراء : الخمر والحشيش .

[٨٢] الْمَيْن : الكذب .

أبقى منه لُبابة ، ولا غادر من غديرِ وجودِه صبابة . فتنادَوْا للحالِ بالُمحال ، والكذبِ في الأقوال : الفار الضعيف ، كيف يأكل كلَّ الرغيف ، وهو عاجزٌ نحيف ، وتناولُوه بالطعن ، وتناوشوه بألسنةِ السبِّ واللّعْن ، وزيَّفوا أقواله ، وسفّهوا أفعالَه .

وإنما ذكرتُ هذا الكلامَ ، يا أيمنَ غلام ، وأحسنَ من البدرَ التمام ، لتعلمَ أنّ أكثرَ مَنْ يدّعي صدقَ الصحابة ، من ذوي المعارفِ والقرابة ، إنما دَعْواه كذابة ، كسحابِ صيفٍ لا يديمُ انسكابه ، وأنَّ الشخصَ مع الناس ، الأوْغاد والأكْياس ، بمنزلةِ كوزِ الفُقّاع[83] ، إنْ رأوْا في حلاوةَ الانتفاع ، استلموه وبالأيدي رفعوه ، وقبّلوه ورشفوه ، وإذا مصّوا محصوله وفرّغوه ، رموه وتركوه ، وتحت الأقدامِ طرحوه . ثم قال التاجرُ لولده ، راحةِ روحِه وجسدِه ، وإن كان مَنْ صَحِبْتَهم ، وفي سفرك اكتسبتَهم ، مِثْلَ هؤلاءِ الأصحاب ، فإيّاك أن تفتحَ لهم الباب ، وترفعَ بينك وبينهم الحجاب . فقال الولد : معاذَ اللهِ الواحدِ الأحد ، يا أبت ، عندى ثبت ، أنهم بدورٌ كرام ، وصدورٌ عظام ، يقومون لقيامي ، ويُنصتُون لِكلامي ، ويُجيبون ندائي ، ويُؤمّنون على دعائي ، وهم أخلاّء ، في السرّاء والضراء .

فقال أبوه : يا ابني ، وقُرَّةَ عيني ، أني عمَّرْتُ سبعينَ سنة ، وعاينتُ من الأمورِ الخشنةِ والحسنة ، وبلوْتُ الأصحاب ، وتلوْتُ الأعداءَ والأحباب ، ورأيتُ الدنيا وأهلَها ، وقلبتُ وعرَها وسهلَها ، ولم أترك من جنسِ بني آدم ، في أكنافِ الآفاقِ وأطرافِ العالم ، من أممِ العربِ والعجم ، نوعاً لم أخبُرْه ، وصنفاً لم أسبُرْه ، فلمْ يَصْفُ لي على التحقيق ، غيرُ صديق . ونصفُ صديق ، فأنتَ يابنيّ العزيز الغالى ، كيف قَدَرْت بالتوالى ، في هذه المدةِ اليسيرة ، على جَمْعِ هذه الطائفة الكثيرة ، وها

[83] الفُقّاع : شراب يُتخذ من الشعير ، يُخمّر حتى تعلوه فُقّاعاته .

أنا يا إمام ، أُريكَ مصداقَ هذا الكلام ، وأطلعُكَ من بينِ الأصحابِ على ما لَهم من مقام .

ثم عَمَدَ إلى شاةٍ فذبحها ، وبدمِها في ثيابٍ طرحها ، ثم دبجها ، وفي كفنٍ أدرجها ، وقال لابنه : قُمْ يا ذا الارتقاء ، أرِني هؤلاءِ الأصدقاء ، واحداً بعد واحد ، لِتحقّقَ غيبَ عيبِهم بالشاهد ، وتعرفَ طرائقَهم ، وتتبينَ حقائقَهم . ثم وضع الشاةَ في عِدْل[٨٤] ، وأخفى كل هذا الفعل ، وحمل العِدْلَ على ظهرِ غلام ، وخرج ليلاً والناسُ نيام ، وقصد أحدَ الأصحاب ، وطرقَ عليه الباب ، فخرج مسرعاً إليه ، وترامى متواضعاً بين يديْه ، وأظهرَ البِشْرَ والسرور ، والابتهاجَ والحبور ، وبالغ في الاحتشام ، والإكرامِ والاحترام ، وشكر مساعيَ الإقدام ، ثم بادر إلى دعوتِه للدخول ، وتعاطى إنجاح ما له من سؤل ومأمول . فقال له الشاب : يازينَ الأصحاب ، وعينَ الأحباب ، دعِ الكلام ، لضيق المقام ، فقد دهتْني دهيّة ، وعرتني بليّة ، وأَعْظِمْ بها مِن قضيّة ، ويا لها من رزيّة . فقال : ما هي ، وقيت الدواهي ؟ فقال : كان بيني وبين واحدٍ من أهلِ الشقاوةِ خصومةٌ قديمة ، وأسبابُ عداوة ، اسمُه معروف ، وذكرُه موصوف ، لشخصٍ مفقود ، لم يكنْ له حقيقةٌ في الوجود ، وهو من أكابرِ الزمان ، وأحدُ الرؤساءِ والأعيان ، فَتَلاَقيْنا في خَلْوة ، وتداعيْنا مابيننا من جَفْوة ، وتنابشْنا الأسباب ، وتناوشْنا باللّعنِ والسباب ، وتناولنا في الشقاق ، شقّ الأعْراق[٨٥] ، وتآذتْ القلوبُ من الأغراض ، بالأمراض ، وتنقلنا من المكالمةِ إلى المشاتمة ، ومن المواصمة للملاكمة ، وترقينا من الكفاح ، إلى الجراح ، فثارتْ النفسُ المشئومةُ إلى إيقاعِ حركةٍ ذميمة ، فضربتُه

---

[٨٤] العدل : الجوالق وهو وعاء من صوف أو شعر أو غيرهما كالغرارة (وهو عند العامة : شوال) .

[٨٥] الأعراق ، واحدها عرق ، وهو الأصل .

فجرحتُه ، وقتيلاً طرحتُه ، ولم يشعرْ بنا أحد ، من أهل الباديةِ والبلد ، وندمتُ غايةَ الندم ، وأنّى يفيدُ وقد زلتْ القدَم ، وجرى قلمُ القضاءِ بما حَكَم . ثم أفكرتُ بمَنْ أستعين ، على هذا الأمرِ اللعين ، وأدرتُ في خاطري كلَّ مساعدٍ ومعين ، فلم يَمِلْ القلبُ إلا إليك ، ولا استقرّ الخاطرُ في ركونِه إلا عليك . وقد قصدتُ جنابَك ، ويممتُ بابَك إذْ أنتَ أعزُّ مخدوم ، والسرُّ عندك مكتوم ، وهاهو مقتولا ، أتيتُكَ به محمولا ، فاحفرْ لهذه الجثةِ حفيرة ، واخْفِنِي عندك أياماً يسيرة ، إلى أنْ تُطفأَ هذه النائرة ، وتسكنَ الفتنةُ الثائرة . وهذا وقتُ المروّة ، زمانُ الفتوّة ، والقيامُ بحقِّ الصداقةِ والأُخوّة . فلما سمع الصاحبُ اللبق ، هذا الكلامَ القلق ، تضجّر وتضرّر ، وتنكّد وتضوّر ، وقال : يا أخي ، بيتي عتيق ، مع أنه جُحْرٌ مضيق ، لا يسعُ أولادى ، ولا زادى وعتادى ، وإذا ضاق عن الأحياءِ فكيف بالأموات ، وهذه بليةٌ من أوحشِ البليّات ، وأظنُها لا تخفى على الناس ، ويدركُها أولو الفراسةِ والأغبياء فضلاً عن الأكياس ، لأن قضاياكم قبل اليومِ مشهورة ، وبلغني أنّ عداوتَكم قديمةً مذكورة ، وفي التواريخِ وصدور الكتبِ مسطورة ، ولكم وقعاتٌ ونوازل ، وله أيتامٌ كأنهم الزغبُ الجوازل . وأما أنا فلا يمكننى الدخول فيها ، ولا تعاطيها ، بوجهٍ من الوجوه ، ولا تلافيها ، فاكفنى شرَّ ضيْرِها ، واندبنى إلى غيرِها ، وإني أَكْتُمُ سرَّها ، فلا تخفْ من جهتي شرَّها ، فألَحّ عليه فما أفاد ، وَرَدَّهُ غيرَ ظافرٍ بما أراد .

فلما أَيِسَ منه ، تركَه وانتقل عنه ، ودارَ على سائرِ أصحابه ، وذكر لهم مثلَ الأولِ وخطابِه ، فكان جوابُ الجميعِ مثلَ جوابِه ، إلى أنْ أتى على الجميع ، واستوفَى شريفَهم والوضيع ، ورأى ما هم عليه من طبعٍ بديع ، كأنهم كانوا متواردين على شرب هذا الصنيع ، فعاد إلى دارِ أبيه ، ورجع إلى صحةِ بيان التنبيه .

فقال له : بمديرِ الفَلَك ، أَحَقَّقْتَ صدقَ ما قلتُ لَـكَ ، وتبيّنْتَ ماهيَّةَ أصدقـائِك ، وحقيقةَ أوليائِك ، وأنهم نقشُ حيطان ، ورقشُ غيطان ، وغمامٌ بلا مطر ، وأكمـامٌ بلا زهر ، وآجامٌ بلا ثمر ؟

ثم قال : قُمْ يا زينَ الأحباب ، أُريكَ ما قلتُ لك مـن حقيقـةِ الأصحـاب ، ثـم دخـلا الطريق ، وقصـدا **نصفَ الصديق** ، وطرقـا البـاب ، فخـرج وتلقاهمـا بالترحاب ، فقال له ذلك المقـال ، وقصـد بمعونتـه الخـلاص ، مـن ذلـك العقـال ، فقال : حبًّا وكرامة ، حللتما بمنزلِ السلامة ، أنا بِكُمْ نشيط ، وأحلُكم بى بسيط ، غير أني أُعلمُكم أنّ منزلي غيرُ فسيح ، حتى أدفنَ فيه هذا الذبيـح ، وليس لى مخبـأةٌ ولا مخدع ، ولا سكنٌ فى مطاويه ولا مصنع ، وأخافُ أنَّ أمْرَكُمْ لا يختفى ، وبهذا المقدارِ فى أمرِكم لا أكتفى ، ويدى لا تملكُ غيْرَه ، وقـد وقعـتُ بهـذا السببِ فـى حَيْرة ، وبالجملةِ والتفصيل ، أنا أكفيكُما شرَّ هذا القتيـل ، فقـالا لا نقنَـع بذلـك ، ولكنْ سُـدَّ عنـا المسالك . فقال : توجها حيث شـئتما ، فـلا أنـا سمعـتُ ولا أنتمـا قلتُما . فتوجّها إلى **الصديقِ الكامل** ، وذكـرا لـه الأمـرَ الحـاصل ، وقصـدا بتلافيـه كرمَه الشامل . فقال لهما : أَوَشَيْءٌ غير ذلك ، وَقَاكُمَا اللهُ شرَّ المهـالك ؟ فقـالا : لا ، إلا دَفْنِ هذا المقتول ، وإخفاء هـذا الأمرِ المهول ، وأن نكـونَ تحـت أذيـالكَ الساترة ، حتى تسكنَ هذه الفتنةُ الثائرة . فإنّ أهلَه يطلبونا ، فإنْ وجدُونا يسلبونا ، ولايرضُون إلاّ بالدمار ، وخرابِ الديار ، ولا يقنعون بالمالِ والعقَـار ، وهـذه قضيـةٌ عظيمة ، وداهيةٌ جسيمة . فإنْ كنتَ تنهضُ بإطفائِها ، وحَمْلِ أعبائِها ، وتسعى فى إخفائها ، فقد قصدناك ، ودونَ الأصحابِ أردناك ، فإنْ عجزتَ عن سـدِّها ، فـلا عتبَ عليـك فـى ردِّهـا ، ولا تتكلـفْ فـوقَ طـاقتِك ، ولا تتجشـمْ لأجلنـا غـيرَ استطاعتِك ، فقال : سبحان الله ، واسوأتاه ، هـذا يـومُ المروءةِ والوفـاء ، وتَذَكُّرُ

وسائلِ إخوانِ الصفاء ، فلكم الفضلُ إذْ قصدتموني ، والجميلةُ التامةُ حيث أردتموني ، أمَا وا للهِ لو كانَ ألفُ قتيلٍ لَوَارَيْتُهُ ، وكلّ ما كان من أمرٍ غيره جاريتُه وداريتُه ، لا يُسمعُ أبداً خبرُه ، ولا يُرَى عينهُ ولا أثرُه ، وأما أنتما فأفديكما بروحي وأولادي ، وطريفي وتلادي . وعندي ديار ، أنزه من جنّاتِ الأبرار ، وأفيحُ من كلّ دار ، فادخلوها بسلامٍ آمنين ، فإنها تشرحُ كلَّ قلبٍ حزين ، ولو أقمتُم بها سنين ، ماشعر بكم أحدٌ من العالمين . فيها أرغبُ نديم ، وأقربُ خديم ، وأحسنُ جليس ، وأيمنُ أنيس ، فلن تملُّوا مقامَها ، ولا تعدموا إكرامَها ، فأنتم عند مَنْ لا يملُّ أبداً نزيلَه ، ولكم فى ذلك الفضلُ والجميلة .

قال التاجر : شكرَ ا للهُ سعيَك ، وحفظَ على أصحابِك مودّتَك ورعيَك . ثم ودّعه وانصرف ، وقد عرفَ الولدُ من حقيقةِ الأمرِ ما عرف . ثم قال لولده : يا بنّي ، وأعزّ عندى من كل شيّ ، إن اتخذتَ الصديق ، فَلْيَكُنْ صديقَك على هذا الطريق ، وإلا فالانفرادُ أحسن ، والعزلةُ أوفق إنْ أمكن ، كما قيل :

فَاقَ حبّي كلَّ الملاحِ كَمَالا   هكذا هكذا وإلاّ فَلاَ لاَ

ولقد أَرشد من أنشد ، حيث قال هذا المقال :

ما فى زمانِك مَنْ ترجُو مَوَدّتَه   ولاصديقٌ إذا جارَ الزمانُ وَفَى

فعشْ فريداً ولا تركَنْ إلى أحدٍ   إنيّ نصحتُك فيما قَدْ جَرَى وكَفَى

ثم إنّ الملكَ قال لأولادِه : ياذوي الأفضال ، إنّ غالبَ أصحابي من الأمراء ، والرؤساء الكبراء – خصوصاً " فلان " أميرَ ممالكِ خراسان – هم من هذا القبيل ، وأنا عوّدتُهم هذا الجميل ، فكونوا فى الحقيقة ، مُتمسكّين بأسبابِ هذه الطريقة . فلما أكمل وصيّتَه أولادَه ، هيَّأَ لسفرِه عتادَه ، وذكرَ ا للهَ وزادَه . ثم ودَّعهم من دارِ الشرور ، وانتقل إلى دارِ الحبورِ والسرور ، وقد عَهِدَ إلى أكبرِ أولادِه ، واستودَعهم ا للهَ وهو القاهرُ فوقَ عبادِه ، مَنْ لا تضيعُ الودائعُ لديه ، ولا يخيبُ مَنْ

توكّل عليه . فسمعوا الوصيَّةَ وأطاعوا ، وتعلقوا بأذيالِ أهدابِها فما ضاعوا / واستمروا تحتَ أمْرِ أخيهم ، كما كانوا فى حياة أبيهم ، كأَنَّ أباهم ما مات ، ولم يقعْ بينهم شتات ، فدامَ لهم السرور ، وانحسمتْ عنهم موادُّ الشرور ، وأشرقتْ بهم ممالِكُهم وأملاكُهم ، ودارتْ بالسعود أفلاكُهم .

ثم إن الحكيمَ حسيب ، انتقل من كلامِه العجيب ، بعدَ فراغِه من حِكَمِ ملكِ الأعجام ، إلى فوائدِ مَلَكِ الأتراكِ الهمَام ، فشنّف المسامع ، وشرَّف كلَّ راءٍ وسامع ، وشرع فى القالِ والقيل .

وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ، والحمدُ للهِ

ربِّ العالمين ، ولاحولَ ولاقوةَ

إلاّ باللهِ العليِّ العظيم .

الباب الثالث

في حكم ملك الاتراك

مع ختنه الزاهد شيخ النساك

قال الشيخُ أبو المحاسِن حسّان ، صاحبُ الحسنِ والمحاسِنِ والإحْسان : ثم نهض الحكيمُ حسيب ، الأديبُ الأريب ، ووقف فى مقامِ حَدِّه ، وقبّل مَوْطِئَ أخيه بشفاه خدِّه ، وقال : لقد بلغنى أيها السلطان ، أنَّ فى قديمِ الزمانِ ، كان فى التركِ ملكٌ يُسمّى خاقان[1] من الملوكِ العادلين ، والسلاطينِ الفاضلين ، برسْمِ العدلِ معروف ، وبقصْمِ الجوْرِ موصوف ، كسر الأكاسرة ، وقصر الأقاصرة ، ونحر الجبابرة ، وثغر فَمَ الدُّعَارِ النبالةُ الفاغرة ، مَلَكَ بلادَ الختنِ والخطا ، واستولى على ممالكِ المُغْلِ والجَتَا[2] ، وأطاع أوامَره التركُ والتتار ، واستسلم لرأيِه سكانُ الدَّشْتِ[3] والقفار . وكان يأجوجُ من جملةِ خدَمِه ، ومأجوجُ[4] من بعضِ عبيدِه وحشمِه ،

---

[1] خاقان : لقب لكل ملكٍ من ملوك الترك (تركية) ، وهو أيضا الرئيس أو الزعيم عند التتر ، ويختصر إلى خان أو قان .

[2] سنتحدث عن هذه الممالك ومواقعها الجغرافية فى الباب العاشر ، وتقع عموما فيما وراء النهر حتى الصين وروسيا .

[3] الدشت : الصحراء .

[4] يأجوج ومأجوج : يراد بهما فى الأغلب الشعوب الهمجية التى كانت تسكن السهول الشمالية الشرقية للعالم القديم . ويراد بهما - فى رواية أخرى - أهل الصين .. ورد ذكرهما فى التوراة ، وفى القرآن الكريم ، فى سورتى الكهف والأنبياء . لهما شأن كبير فى القصص الإسرائيلى والإسلامى .

كأنه وارث ، لذُريّةِ يافث[*] ، قويٌّ في أَخْذِ المُلْـكِ مـن ممـالكِ الصـين ، وأخـذ إلى أطرافِ الشّمال بـاليمين ، ولم يكـنْ لـه مـن البنـينِ والبنـات ، مـع كـثرةِ السـراري والزوجات ، سوى بنتٍ واحدة ، لطلعتها الأقمارُ شاهدة :

شمسٌ ولا كالشمسِ عندَ زوالها　　　　بدرٌ ولا كالبدرِ في نُقصانـه

بل بَهرَتْ الشمسَ جمالا ، والبدرَ كمالا ، وفـاقتْ مـلاحَ الدنيـا شمـائلَ وخِصـالا ، وهي عزيزةٌ في قلبِ أبيها ، كريمةٌ على خواصها وذويها ، فصارت ملوكُ الأطـرافِ يخطبونها ، ومن أبيها يطلبونُها ، فكان أبوها يُفَوِّضُ الأمرَ إليها ، ويعتمد فيتزويجها عليها ، وهي لاترغبُ في طـالب ، ولا تصغي لِخِطْبَـةِ خـاطب ، إلى أن عَنَسَـتْ ، وخُطّابُها أَيِسَتْ . وكان أبوها كما ذكـر ذا فطنـةٍ بالغـة ، وهيبـةٍ دامغـة ، فَخَشيَ حوادثَ الزمان ،واختلى بها في مكـان ، وقـال : اعلمـي يـا معـدنَ اللطـائف ، أن البنتَ في منزلِ أبيها كالماءِ الواقف ، إنْ مكث يَأْسُـن ، وإنْ لم يُستعملْ أَنْتَـن ، ولا أقولُ ذلك مَلالا ، ولا عجـزاً ولا استقلالا ، بـل لاَ بـدّ للمـرأةِ مـن زوجٍ يلمُّهـا ، فيسترها ويضمها ، ونِعْمَ الختنُ[6] القـبر ، وأَحلـى مـن البنـتِ الصـبر ، فـإنْ رأيـتِ الرغبةَ في الزواج ، طلبتُ لك كُفْـاً مـن الأزواج ، وكـان ذلـك أسـترَ لِعِرْضِـك ، وأدنى لإقامةِ سُنّتِك وفَرْضك ، وأفرغَ لخاطرِ أبيك ، وأشرحَ لخدَمِك وذويك .

فقالت : أحسنَ الله الرحمن ، إلى مولانا الخاقان ، وكفاه كلَّ جان ، من الإنـسِ والجان ، إنّ البنينَ من جُملة النعَم ، والبناتُ من أعـداد النِّقَـم ، ونِعَـمُ الدنيـا عليهـا الحساب ، ونقمُها سببُ الأجْـرِ والثـواب . . قـال ربُّ الأربـاب ، فيمـا أنزلَـه مـن الخطـاب ، فـي مُحْكَـمِ الكتـاب ، ﴿المـالُ والبنـونَ زينـةُ الحيـاةِ الدنيـا والباقيـاتُ

[*] يافث ، أحد أبناء النبي نوح كما ورد في الكتاب المقدس (سفر التكوين : ٦ - ١٠) ويزعم علم الأجناس القديم ، أن يافث هو أبو الترك وسكان بلاد ما وراء النهر حتى الصين .

[6] الختن : الزوج .

الصالحاتُ خَيْرٌ عندَ ربِّك ثواباً وخَيْرٌ أمَلاً﴾[7] وقد جاء في بعضِ التفاسير ، أن الباقياتِ الصالحات ، هي البنات ، فمولانا الملكُ يعدُّ وجودي ، نقمةً عليه من معبودي . وأسألُ الصدقاتِ الملوكية ، والمراحمَ الوالدية ، أنْ لا يعجِّلَ في أمرِ تزويجي ، وأنْ لا يبادرَ كيفما اتفقَ إلى تزويجي ، فإنَّ التأملَ في ذلك أوْلى ، وثناءٌ في الدنيا ، وثوابٌ في الأُخرى ، وذلك لأنَّ الكفاءةَ في الزواجِ معتبرة ، وقد قرّر ذلك الفقهاءُ البرَرَة ، وإن لم يكنْ الزوجُ للمرأةِ كُفْئاً فزوجُها به يقعُ سخريةً وهزوًا ، ولا يفيدُ سوى الغرامة ، والفضيحةِ والندامة .

فقال الملك : لا أُزوِّجُكِ إلاّ بكُفْءٍ كريم ، يكونُ لك أدنى خديم ، وفي الناسِ أعلى مقامٍ عظيم . قالت : يامولانا الملك ، وقاكَ اللهُ شرَّ المنهمك ، لا تحملْ اعتراضي على الإساءة ، وإنما أسْألُ عن كيفيّة الكفاءة ، فإنْ كانتْ بالمُلْكِ والمال ، فإنَّ ذلك في معرضِ الزوال ، وإنْ كانت بأنشابِ الأنساب ، فإنَّ ذلك خطأٌ لا صواب . قال مُنَزِّلُ الكتاب ، العزيزُ الوهاب : ﴿فإذا نُفِخَ في الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ﴾[8] وقال مَنْ لا يجوزُ عليه كذبة : " من أبطأَ به عملُه لم يسرعْ به نسبُه " وإنّما الفقهاءُ حكموا بالظاهر ، واللهُ يتولّى السَّرائر ، ونحن في قيدِ الانقياد ، ولا يسعُنا إلاّ ما أَمَر به الشرعُ وأراد ، وأما أنا فكُفْئي الكريم ، إنما هو الكاملُ الحليم ، الفاضلُ الرحيم . قال الملك : بارك اللهُ في رأيِكِ وعقلِك ، أنا لا أُزوِّجُكِ إلا بملكٍ مثلِك ، أو ابنِ ملكٍ مثل أبيك ، يرعاكِ ويكرمُ خدمَكِ وذويك ، يعدِلُ بالسويّة ، ويحكمُ على سائرِ الرعية . قالت : أيها الملكُ الكبير ، صاحبَ التاج والسرير ، أنا ما أُعَرِّفُ الملكَ إلاّ مَنْ يُعْرَفُ بمُلْكِ الحُكْمِ على نفسِه في سيْره ،

---

[7] قرآن كريم ، سورة الكهف : ٤٦ .

[8] قرآن كريم ، سورة المؤمنون : آية رقم ١٠١ .

ويكونُ مُتحكِّماً مُتمكناً من الحُكْمِ علـى غـيرِه ، فيحـقُّ أنْ يقـال ، فـي مُلْكِـه ذي الجلال ، خلَّد اللهُ سلطانَه ، وشيَّدَ أركانَ مُلْكِهِ وبُنْيانه .

قـال الملك : ومَنْ هو ذاك ، باركَ اللهُ فيك وهداك ؟ قالت : أمّـا الحـاكمُ علـى نفسِه ، فهو المالكُ لزِمامِ جوارِحِه وحسِّه ، قد جعَل خزائنَ القلبِ والسمع ، معدنـاً لجواهرِ العقلِ والشرع ، فَمَهْما اقتضاه العقل أمْضاه ، وعمَلَ بمقتضاه ، وما ارتضـاه الشرعُ وقضاه ، كان فيه انقيادُه ورضاه ، قد تحلّى بعقـودِ مكـارمِ الأخـلاق ، ولـو كان فى أسمالِ أخلاق[9] ، وشغل نفسَه بتهذيبها ، واجتهد فى خلاصِها مـن شَـرَكِ عيوبها ، واهتمَّ بعيوبه ، عن بعيدِه وقريبه ، وبغيضِه وحبيبـه ، فذلـك الحـاكمُ علـى نفسه ، المميّزُ على أبناءِ جنسه . وأمّا حُكْمُه على غيره ، فهو أن يكونَ فـي سـلوكِه وسيره ، منعزِلاً عن الناس ، فى زوايا الباس[10] ، لايسألُ عـن أحوالِهِـم وعيوبِهـم ، ولاينظرُ إلى ماتحتَ أيديهم وجيوبِهـم ، مالكـاً لزمـامِ العزلـة ، مُتنعِّمـاً بهـذه النعمـةِ الجَزْلة[11] ، قد اتخذ التّقْوى والقناعة ، أحسنَ حرفةٍ وأربحَ بضاعة ، قد سَلِمَ النـاسُ من يدِه ولسانه ، لا يدرى بشأنهم ولا يدرون بشانه ، فذلك الحـاكمُ على غـيره ، الفائزُ من مُلْكِ الدارَيْن بخيره . فهو الـذى خُلّـدَ مُلْكُـه وسـلطانُه ، واتضَـح للعـالمين بُرهانُه ، فإنْ وُجِـدَ بهذه الصفاتِ موافـى ، فإنـه لى كُـفْـءٌ مكـافى ، وأنـه كـالبدرِ جَلِيّ ، نقيُّ الصـدرِ للهِ وَلِيّ ، فإذا أنعمَ الزمـانُ بمثلِ هذا منالا ، فَنِعْـمَ نِعْـمَ وإلاّ فَـلاَ لا .

---

[9] الثياب البالية .

[10] الشدّة والمشقة والحاجة .

[11] الكبيرة الكثيرة .

فجعل ملكُ الختن ، يتطلبُ مثل هذا الختن[١٢] ، وأرسلَ القُصّاد ، إلى أطرافِ البلاد ، يسألونَ سُكّانَ الأكناف ، وقُطّان الأطراف ، عن موصوفٍ بهذه الأوصاف ، واستمروا على ذلك مُدّة ، كلٌّ باذلٌ جُهْدَه ، حتى أرشدوا بعدَ زمان ، أن المكانَ الفلانيّ فيه فلان ، رجلٌ أَعْرضَ عن العَرَض ، فلم يكنْ له فى الدنيا غَرَض ، وهو بحسنِ الصفاتِ موصوف ، وفى كوخ العبادةِ والاجتهادِ معروف ، جامعٌ لهذه الصفات ، ليس له إلى الدنيا وأهلِها التفات ، مشغولٌ باكتسابِ الآخرة ، وطلبِ نِعْمَتِها الفاخرة . وهو من نَسْلِ الملوك ، وقد تركَ وراءهم السلوك ، وسلكَ فى العلم ، والعمل السبيلَ الأقوم ، حتى كأنه محمدُ بنُ الحسن أو ابراهيمُ بنُ أدهم[١٣] ، ولشدّة ما هو لنفسِه مجاهد ، سماه الناسُ الملكَ الزاهد ، فأجمعَ الخاقانُ على مصاهرتِه ، وجعل التقرُّبَ إليه قُرْبَةً لآخرتِه . فأخبر ابنتَه به ، وكان حلَّ مطلوبِها ومطلوبِه ، وعُقِدَ بينهم النكاح ، وحصل الفلاحُ والصلاح " فَوَافَقَ شَنٌّ طبقَة " ، وصار لعينِ مرامِها كالحدَقَة ، ومضى على ذلك برهة ، وهما فى طيبِ عيشٍ ونزهة .

فاشتاق الخاقان ، فى بعض الأزمان ، إلى رؤيةِ ابنتِه ، وسرورِ مهجتِه ، فقام لدارِها ، بقصدِ مزارِها ، لينظرَ حالَها ، وما عليها وما لها ، فوجدَها فى عيشٍ هنيّ ، وأمر سنيّ.. فسألها عن أحوالِ زوجِها الزاهد ، وكيف صبرُها على حالِها الجاهد . فأثنتْ خيرا ، وكفت ضرّاً وضيرا ، وقالت : جميعُ ما يبرزُه ويأتيه ، على حسب ما أُريدُه وأرتضيه ، وارتفاعاتُ أحوالِنا بسعادةِ مَوْلانا فى دفاترِ الأمنِ منضبطة ، وعقودُ حياتِنا بيمينِ صدقاتِه فى نحورِ الرفاهيةِ غيرُ منفرطة . غير أن بيتَنا واحد ،

[١٢] الزوج .

[١٣] من الأعلام العاملين الزاهدين فى القرن الثالث الهجرى .

وبسببِ ذلك يتضرّرُ هذا العابد ، فيه نبيتُ وفيه نقيل ، وبجوانبه ما لنا من خفيفٍ وثقيل ، وقوتٍ ونقود ، وخادمٍ ومولود ، فلا يتفرغُ من الغوغاءِ للعبادة ، لأنها تستدعي عُزْلَةَ العابد وانفرادَه ، وتخلّيه لمناجاةِ معبودِه ، ليظفرَ من حلاوةِ الطاعةِ بمقصودِه . فأسْألُ مولانا الخاقان ، ذا الفضلِ والإحسان بيتاً يَتَخَلّى فيه للعبادة ، ومكاناً يضع فيه خُرْثِيَّ[١٤] البيتِ وعتادَه . فقال : حباً وكرامة ، وقرباً وسلامة . ثم اجتمع الملكُ بصهرِه ، الذى به فاخر ، وذكر له أنه أعطاه بيتاً آخر : أحدُهما يكونُ لخلْوَتِه ومبيته ، والآخرُ يضعُ فيه ما يحتاجهُ من عتادِه وقُوتِه . فقال الزاهد : أيها الملكُ الماجد ، فعلتَ ذلك لِتَقْسِمَ خاطرى ، وتوزعَ فكرى ومرائرى ، ولا طاقةَ لى أن أتعلّقَ بمكانيْن ، وما جعل اللهُ لرجلٍ من قلبيْن ، وإنّما الزاهد ، مَنْ هَمُّهُ فى الدنيا واحد ، فإنه على عَدَدِ التعلّقات ، يتوزعُ القلْب الشتات ، وإذا تعددتْ الأماكن ، يحتاجُ كلٌّ منها إلى ساكن ، أو حافظٍ أو ضابط ، أو حارسٍ أو رابط ، وأنا لا اعتمادَ لى ، بحفْظِ نَفْسي أيها الوَلِي ، فكيفَ يكونُ لى اقتدار ، على حفظِ الأغيار ، وإذا انقسمتْ أفكارى وفسدَ بالي ، فكيف أَقدرُ على صلاحِ حالى ، وأنّى يَصْلُحُ مع فسادي ، أمورُ معاشي ومعادي ، ثم إنى إذا وزعتُ نفسى ، فقد نَبَّهْتُ راقدَ حرصى . والحرصُ أفعى قاتل ، وأسَدٌ صائل ، يقتلُني بسهمِه ، بل بمجردِ شمّه .

فقال الملكُ الكبير : لا تهتمّ لذلك أيها الزاهدُ الخطير ، فإنّ لى أماكنَ عديدة ، وقصوراً مشيدة ، وحواصلَ مصونة ، وخزائنَ مكنونة ، الكلُّ تحت تَصَرُّفِكَ واختيارِك ، لا مُنازعَ لك فيه ولا مُشارِك ، فاجعلْ لكلّ جنسٍ من قماشِك ، وأثاثِكَ ورياشِك ، ومايقومُ بأَوَدِكَ ومعاشِك ، مكاناً على حِدَة ، وناحيةَ حِفْظ منفردة ، واتّخذْ لنفسِك مقَاما ، خاصًّا بكَ لا عامّا ، وأنا أُقيمُ على كلّ مكانٍ

(١٤) الخُرْثِيُّ : أثاث البيت ومتاعه .

حارسا ، إنْ شئتَ راجلاً وإنْ شئتَ فارسا ، فعندَ احتياجك إلى شيْ ، أتاك هنا مُيَسَّراً من غيرِ كَدٍّ ولا عيّ ، وتفرَّغْ أنتَ لعبادتِك ، واشتغالِكَ بأمورِ آخرتِك .

قال الزاهد : أيها الملكُ المجاهد ، الاغترارُ بالقصورِ من جُملةِ القصور ، والاعتمادُ على الحصونِ من دواعي الجنون ، وإذا وَرَدَ من المِلكِ الغفور ، طلبٌ على يَدِ القبور ، فماذ تُجدي الدورُ والقصور ، وماذا تنفعُ الحصون ، أو يدفعُ كلُّ مكانٍ مصون ، إذا آذنَ بالحلول ، ذلك الخَطْبُ المهول ، تَوَدُّ النفسُ لوْ كانَتْ القصُورُ المَمَهّدة ، والبروجُ المشيّدة ، أَذَلَّ من أُفْحوصِ[15] قَطاة ، وأقلَّ من عشٍّ بزاة . وقد قيل :

قميصٌ من القُطْنِ أو خُلّة وشربة ماءٍ قُراحٍ وقوت
ينالُ بها المرءُ ما يُرْتَجَى وهذا كثيرٌ على مَنْ يموت

واعلمْ أيها الخاقان ، أن النفسَ لها خادمان ، مطيعان مجيبان ، ولِمَا تأمُر به سميعان ؛ وهما الشهوة ، والحرصُ الشديدُ الدَّعْوة ، أما الشهوةُ فرائدُ الأكلِ الكثيرِ والشراب ، وأما الحرصُ فعابدُ الرعونةِ والعُجْب ، وقد قيل :

فهذا يقودُ إلى طبعِه وهذا يسوقُ إلى ربعِه

فهما ليلاً ونهارا ، وسرًّا وجهارا ، يزينان لها ما طُبعا عليه ، ويجذبانِها إلى ما جُبِلاَ إليه ، ويتقاضيانها حقَّهما ، ويطالبانها مستحقَّهما ، ولا بدّ للمخدومِ من إقامةِ أَوَدِ خادِمِه ، واسترضاءِ أنيسِه ومنادِمِه ، وقد قال ، مَنْ أتقنَ المقال :

إن اللبيبَ أخا اللبيبِ هو الذى مع تِيهِهِ يحنو على عُشّاقِه
وكذا الرئيسُ وأنتَ أكبرُ جنسِه مَنْ فاض فى الخدّام من أرزاقِه
يهتمُّ إنْ حضَروا له بنَوالِه يغتمُّ إنْ غابُوا على أشواقِه
مع أنّ حشمتَه وفائضَ علمِه ترقى بكلِّ منتهى استحقاقِه

---

[15] الأفحوص : حفرة تحفرها القطاة أو الدجاجة فى الأرض لتبيض وترقد فيها .

ولكن رضا هذيْن الخادميْن غايةٌ لا تدرك ، وفَقْدَ مقصوديْهما نهايةٌ عميقة المسْلَك . وقد قال سيِّدُ الأنام ، عليه الصلاةُ والسلام ، يوماً وهو بينَ الأصحاب ، كالشمسِ ليس دونَها حِجاب ، والبدرِ لا يحجبُه سحاب : " لا يَمْلأُ جَوْفَ ابنِ آدم إلاّ التراب" والحرصُ مهلكٌ والشهوةُ قاتلة ، وكلٌّ منهما فى الدمارِ والبوارِ علةٌ كاملة ، وناهيك يا ذُخْرَ الحقِّ وغيّاثه ، أخبارُ اللصوصِ الثلاثة . فطلبَ الملكُ مِن الزاهد ، إيضاحَ هذا الشاهد .

[١/٣] أخبار اللصوص الثلاثة

فقال ذَكَر أَهْل الوراثة ، أن لصوصاً ثلاثة ، كانوا على سبيلِ الاشتراك ، متعاطين أسبابَ التحرُّمِ والهلاك ، واستمروا على ذلك مُدّة ، حتى إستولوا من الأموالِ على عِدّة ، ففى بعضِ الليال ، ظفروا بجملةٍ من الأموال ، ودخلوا إلى مكانٍ داثرٍ[١٦] خال ، بِنيَّةِ الاقتسام ، وكانوا محتاجين إلى الطعام ، فوجدوا فى ذلك المكان الداثر ، صندوقاً مملوءاً من الجواهر ، ففرحوا وانشرحوا ، وتَصَوَّر لأولئك الخاسرين أنهم ربحوا ، فقالوا : إنْ اشتغلْنا بقسمةِ هذا المجموع ، كَلِبْنَا[١٧] وأهلكْنا كَلَبُ الجوع ، فالأَوْلى طلبُ الطعام ، قبلَ الاقتسام ، ولوْ بأدنَى الْتِهام ، ويسيرِ التقام . ثم أرسلوا مع أحدِهم ، إلى المدينةِ وَرَقهم[١٨] ، لِيَأْتِيَهُمْ بما يسَدُّ رَمَقَهم . فلما انفصل عن مكانِهما ، وغاب عن أعينهما ، تحركتْ نَفْسُه الخبيثة ، بشهوةٍ أجّجَتْ تأريثه[١٩] ،

---

[١٦] داثر : متهدم ، يقال : دثر المكان أو المنزل : بلى وتهدم .

[١٧] كلبه (بكسر اللام) كلبُ (بفتح اللام) الجوع : أصابه أصابه الجوع والعطش الشديدين .

[١٨] الورق : النقود .

[١٩] أرّث النار : أوْقَدَها .

وَقَوَّاها الحرصُ المشوم ، لِشِدَّةِ الشَّرَهِ الملوم ، ودعاه داعي الفساد ، إلى الاستيلاءِ على المالِ بالانفراد ، فعزم على خَتْلِهما ، فوضع فى الطعامِ سُمًّا لقتلِهما .

وأمّا هما فَعَلَى قتلِه عَزَمَا ، واستعدَّا لذلك بعدَما جَزَمَا ، ليصيرَ المالُ بينهما نصفَيْن ، ويصيرَا فى ذلك كالأخويْن الإلفيْن ، ويكونُ ذلك كأنّه وِراثة ، لأنَّ شرَّ الرفقاءِ ثلاثة . و لَمْ يَدْعُهُما إلى ذلك غيرُ داعي الشَّهْوة ، وأكّدَ ذلك داعي الحرصِ ، وأَنْجِسْ بها مِن دعوة . فلمّا فصل ذلك بالأكل ، بادرَا إليه بالقتل . ثم بَعْدَمَا قتلاه ، عمدا إلى الطعامِ فأكلاه ، فبردا فى الحال ، وتركا ذلك المال ، وَلَحِقَا بصاحبِهما التالف ، وسبَّبَا تليدَ المالِ والطارف[٢٠] .

وإنّما أوردتُ هذه الموعظة ، لأنها على أحوالِ الدهرِ مُوقِظَة . وإنْ كان مولانا الخاقان ، فى أمورِه يقظان ، لكن قد قال ربُّ العالمين ﴿وذَكِّرْ فإنَّ الذكرَى تنفعُ المؤمنين﴾[٢١] واعلمْ يامولانا الخاقان ، كفاكَ اللهُ مكايدَ الشيطان ، وأنجحَ مقاصدَك على ممرِّ الزمان ، أن الدرجةَ العليّة ، والمرتبةَ السنيّة ، لا تنالُ بقوةٍ ولا عزمة ، ولا شجاعةٍ ولا همّة ، وإنما هي عنايةٌ ربانية ، وأسرارٌ رَحَمانية ، لأقوامٍ سبقتْ لهم من اللهِ الحسنى وزيادة ، وانتظموا فى سلك أهلِ السعادة ، فهم أهلُ الفضلِ والسيادة ، أسبغَ اللهُ عليهم سواطِعَ الأنوار ، وقطعَهم عن قواطعِ الأشرار ، فهم السادةُ الأخيار ، والقادةُ الأبرار ، قاموا بأداءِ ما وَجَبَ عليهم ، وتركوا ما خلْفهم واستبشروا بما لديْهم . فأنوارُهم ساطعة ، وأسرارُهم لجميعِ الأوهامِ قاطعة ، تركوا زخارفِ هذا الدار ، وأرادوا دارَ القرار ، وجوارَ الملكِ الغفّار ، فهم الهداةُ إلى الله ، الدالون على رضاه ، لايعتريهم كدَرُ الأوهام ، ولايشتغلون عن خدمةِ خالقِهم مدَى

---

[٢٠] المال القديم والجديد .

[٢١] قرآن كريم ، سورة الذاريات : ٥٥ .

الأيام . هم العبادُ المكرّمون ، العبادُ المقرّبون ، قال الله تعالى وهو أصدقُ القائلين ، فى كتابه المكنون ﴿ألاَ إنَّ أَوْلياءَ الله لا خَوْفٌ عليهم وَلا هُمْ يحزَنُون ، الذينَ آمنُوا وكانوا يَتّقُون﴾[٢٢] واعلمْ أنّ أَعْدى عدوِّك بينَ جنبيك ، وهى نفسُك التى قط ما رَكَنَتْ إليْك ، فاعصِ هواها ، ولا تعطها مُناها ، فإنّ فى اتّباعِها الندمَ عاجلا ، والحسرةَ آجلا ، لا بقليلٍ تقنع ، ولا بكثير تشبع ، ولا تظنّ أنها إذا أُعطيتْ مُناها شَكَرَتْ ، أو إذا ذكّرتَها مَنْ براها[٢٣] ذَكَرَتْ ، بل متى أَمِنْتَها كفرَتْ ، أو آنسْتَهَا نَفَرَتْ ، أو أرخَيْتَ عِنانَها بَطِرَتْ وأَشِرَتْ[٢٤] ، وإنْ نالتْ مطلبا ، أو تناولتْ مأربا ، انتقلتْ عنه ، وطلبتْ أعلَى منه ، فليس لها دَوَاء، إلاّ القمعُ عن دواعي الهوى ، كما قيل :

النفسُ راغبةٌ إذا رَغّبْتَها ... وإذا تُرَدُّ إلى قليلٍ تقنع

وكما قيل أيضا :

وما النفسُ إلا حيثُ يجعلُها الفتى ... فإنْ اهْمِلَتْ تاقتْ وإلاّ تَسَلّتِ

وكما قيل أيضا :

قَنّعْ النّفْسَ بالقليلِ وإلاّ ... طلبتْ منك فوقَ ما يُرضيها

وإيّاك وطولَ الأمل ، فإنه مَفْسدةٌ للعلمِ والعمل . قال الحكماء ، وعقلاءُ العلماء : الأملُ شبكةُ الشيطان ، وموجبُ الحرمان ، فاجْهدْ مادامَ لك على النفسِ ملكة ، أن تخلّص نفسَك من هذه الشبكة ، ولا تهتمّ للأقوات ، فكلُّ ما قُسِمَ ما فيه فَوَات ، وكل ما هو آتٍ آت ، وكلُّ ما رَقَمَه القلمُ فى القِدَم ، وأثبته قضاءُ الله تعالى عليك وأنت فى العَدَم ، سواء كان خيراً أمْ شرّا ، نفعاً أم ضرّا ، فأنتَ مُلاقيه ، وعلى

---

[٢٢] قرآن كريم ، سورة يونس : ٦٢ .

[٢٣] براها أو برأها : خلقها .

[٢٤] أشِرت : بطرت واستكبرت .

كل حالٍ مُوافيه . فاقطعْ دَوَاعي الطمَع ، عَمَّنْ لا يضرُّ ولا ينفَع ، لا عمَّنْ إنْ شاء ضَرَّ وإن شاءَ نفع ، ولا تجتمعْ إلا بمثلِك ، فى الجماعاتِ والجُمع ، ولا تتعبْ لجوعٍ وعريٍ واكتساءٍ وشبع . فقد قيل : إذا شبعتَ فلا تهتمّ للجوع ، فكَمْ مِنْ شبعان ماتَ قبل أن يجوع ، وإذا اكتسيْتَ فلا تهتمّ للعرية ، فكَمْ من مُكْتَسٍ ماتَ وثيابُه جديدةٌ مطوية . واعلمْ أن طبعَ الدنيا بالمخالفة ، كأنها على المخالفةِ محالفة ، فإذا ضَمَمْتَ عنها يدَك إليك ، أقبلتْ عليك وجاءت تهوي تحتَ قدميْك ، وإذا طلبتَها هربتْ منك ، وكلما ارتبطتْ إليها انحلّتْ عنك ، وقد قيل ، أيها الملكُ الجليل :

مَثَلُ الرزقِ الذى تطلبُه — مثل الظلِّ الذى يمشي معك
أنت لا تدركُه مستعجلا — وإذا وَلَّيتَ عنه تبعك

ثم اعلمْ أيها الخاقان ، أنك وإنْ كنتَ ذا التصرّفِ والسلطان ، وأن هذه الخلائقَ رعيَّتك ، نافذةٌ فيها بمراسيمِها منيَّتُك ، إلاّ أنك فى الحقيقةِ واحدٌ منهم ، لا تزيدُ بشيءٍ فى الذاتِ والصفاتِ عنهم ، ولكنّ اللّٰه القديم ، العالِم الحكيم ، سلطانَ السلاطين ، بل خالقَ الأولين والآخرين ، رَفَعَك عليهم ، وتقدَّم بأمرِه أن يُطيعوكَ إليهم ، فقال مَنْ له الخلق والأمر ﴿أطيعُوا اللّٰه وأطيعُوا الرسُولَ وأُولي الأمر﴾[٢٥] فَهُمْ قد أذعنُوا لكَ وأطاعُوك ، فَرَاعِهِمْ كما هُمْ مُراعوك ، واطلبْ لهم أسنَى المراعي وأبهاها ، وأَوْرِدْهم أعذبَ المشاربِ وأصفاها ، فإنّ الملكَ[٢٦] الذى سلّمهم إليك ، سوف يتقدَّمُ بالسؤالِ عنهم إليك ، وقد قال مَنْ أنتَ خليفتُه على أمته : " كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مسئولٌ عن رعيَّتِه " فكُنْ لهم كما تريدُ أن يكونوا لك ، وَدِنْ لهم كما تحبُّ أنْ يدينوا لك . واعلمْ أيها الملكُ الودود ، أن هذه النقود ، إنْ لم تُصْرفْ فى مصارفِها ، وَتَرْفُل فى وجوهِ الطاعةِ فى مطارِفِها ، فإنها جمرٌ يُضْرم ، فى نارِ

---

[٢٥] قرآن كريم ، سورة النساء : ٥٩ .

[٢٦] الملك : اللّٰه ، الملك القدوس ، سبحانه وتعالى .

جهنم ، كما قال مَنْ يقولُ للشيْءِ كُنْ فيكون ﴿يَوْمَ يُحْمَى عليها فى نارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بها جباهُم وجُنوبُهم وظُهورُهم ، هذا ما كَنَزْتُمْ لأنفسِكم فَذُوقوا ما كُنْتُمْ تَكْنِزُون﴾[٢٧] فاسمعْ أيها الملكُ الصالح ، نصيحةَ مشفقٍ ناصح ، ولا تغترّ بالدنيا وزهرتِها ولا تنظرْ إلى حلاوتِها وخضرتِها ، وإيّاك والميلَ إلى نزهتِها ونضرتِها ، فإنك إنْ مِلْتَ إليها أَسَرَتْك ، أو حَيرتَها على الركونِ إليها كَسَرَتْكُ ، وحسبكَ من كلامِ الربِّ الغفور ، ومَنْ بيدِه مقاليدُ الأمور ﴿إنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمْ الحياةُ الدنيا وَلاَ يغُرّنَكم با للهِ الغَرُور﴾[٢٨] .

قال الراوي لهذه الحِكَمِ والفتاوى : فلمّا وعى ما قال الختن ، هذه النصائح الصادقةَ من الختن ، أَمَرَ بها فَسُطِّرَتْ ، ثم نُشِرَتْ وشُهرتْ ، وعلى المنابر قُرِئتْ ، وعلى رؤوسِ الأَشْهادِ ذُكرت . وأبلغها ابنتَه ، وقرّر لها مقدارَ زوجِها وحِكْمَتِه ، وميْلِه عن الدنيا ورغبتِه . فقالت : هذا الذى كنتُ أردتُه ، وعلى مسامعِ مولانا الخاقان سَرَدْتُه . ثم إنّها أقبلَتْ على طاعةِ ربِّها وبَعْلِها ، وإصلاحِ أحوالِها فى قولِها وفعلِها ، وقضيّا عُمْرَهما فى أنواعِ العبادة ، واكتسبا بطاعتِهما فى الدارَيْن الحُسْنى وزيادة . ثم اقتدى بهما الملكُ وعَسْكَرُه ، حتى انتشر فى آفاقِ المملكةِ بالعدلِ والصلاحِ خَبَرُه ، إلى أنْ اندرج إلى رحمةِ اللهِ تعالى ذلك الرعيل ، وبقي ذكرُه مخلّدًا على صفحاتِ الأيامِ جيلاً بعدَ جيل ، وقد قيل : فى ذلك ممن أحسن القيل :

كانوا شموساً تضيءُ الدهرَ طَلْعَتُهم	وفى طريقِ المعالي يُقْتَدَى بهم
غابتْ فَلَوْلاَ سَنَاهُم كالبدورِ أضا[٢٩]	من بعدِهم تاهَ أهلُ الفضْلِ فى الظّلم

---

[٢٧] قرآن كريم ، سورة التوبة : ٣٥ .

[٢٨] قرآن كريم ، سورة لقمان : ٣٣ .

[٢٩] أضاء (مخففة) يعنى سناهم أضاء كالبدور ، والسنا : الضوء .

هكـذا يكونُ طـالبُ السعادةِ الأبديّـة ، والكرامـةِ السرمديّة ، إذا ملّكَـهُ اللهُ زِمَـامَ الرعيّة ، يحسِنُ سَيْرَهُ فى الدنيا ، ويتيقّـظُ لتحصيـلِ السعادةِ الكبرى ، ويشتغلُ بما يرضَى عنه المولَى . وحسبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيـل ، ولاحولَ ولا قـوّةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم .

تمّتْ بحمدِ اللهِ تعالَى نوادرُ ملوكِ العربِ والعجمِ والأتراك ، ويَلِي ذلك مباحث زاهدِ الإنسِ العالم ، مع شيطانِ الجنّ الآثمِ الأفاك . ونسألُ اللهَ المسئولَ ، أن يحقّقَ لنا من كرَمِه وإحسانِه المأمول ، ويعصمَنا بفضلِه من عثراتِ الفضول ، والصلاةُ والسلامُ على أعظمِ نبيٍّ وأكرمِ رسول ، وعلى آلِه وأصحابِه وأكرِمْ بالصدّيقِ والفاروقِ وذي النورين وزوجِ البتول[٣٠] ، وإخوانِه من الأنبياءِ والمرسلين صلاةً وسلاماً يشتملان العفوَ عنّا والقبولَ ، ويَمُنّ بالكرمِ والفضلِ على قطوعِنا بالوُصول . آمينَ ، والحمدُ للهِ ربِّ العالمين .

---

[٣٠] الخلفاء الراشدون الأربعة ، أبو بكر وعمر وعثمان وعلى .

الباب الرابع

في مباحث علم الإنسان

مع العفريت جان الجان

قال الشيخُ أبو المحاسن ، من ماءِ ينابيعِ علمِه في مجاري بدنِ الفضل غير آسن :

فلما أنهى الحكيمُ حسيب ، ذو الفضلِ النسيب ، حكايةَ ما طرّزه ممّا نسجه وحاك ، وفصّله خياطُ تقديرِه على قامةِ المجدِ من خِلَع حِكَمِ العربِ والعجمِ والأتراك ، شكره أخوه القَيْل[1] ، على هذا القيل[2] ، وأفاضَ عليه من نَيْلِ نوالِه جزيلَ النيل ، وأدرك من ذلك الأنموذجِ عُلُوَّ علْمِه ، وسُمُوَّ حلمِه ، وجميلَ حُكْمِه ، وجليلَ حِكَمِه . ثم قال : يا أستاذ ، بلغني أن بغدادَ خرج منها خارج ؛ من نارٍ من مارج ، وهبط إلى مداركِ الخزْي عن المعارج ، وأصلُ ذلك المشؤوم ، من عفريتٍ خُلق من نارِ السموم ، وإنّ شخْصَ ذلك الشيطان ، جبلٌ من سُخَام الدخان ؛ فلهذا رَكبَ وَجْهَهُ السّوَاد ، وتَرَكّبَ سائِرُ جَسدِه مِن الرّماد ، فهو جِنيٌّ ذَميم ، وشيطانٌ رَجيم . وقد شرعَ ذلك الخَنّاس ، في الإفْسَاد والوَسْوَاس ، وتَعَاطى إيذاء أكابِرِ النّاس ، وأنّهُ في هذه الأيام ، نفي إلى بلادِ الشام ، فَلَمْ يُوَافِقْه ذلك المقَام ، لأنه مهاجرُ الأنبياءِ الكرام ، وهذا مجبولٌ على سجَايا اللّئام ، وطباعِ أهلِ الفسادِ والإجرام ، فأَقَام فيها بالاضطرار والاضطِرام ، مُدّةَ أشهرٍ وعدةِ أعْوام ، وأخذَ في الإضلالِ والتضْليل ، فأضَلَّ خَلْقاً كثيراً عن سَواءِ السبيل ، وتَستّر ذلك الجان ، بحجابِ الانتسابِ إلى جنسِ الإنسان ،

---

[1] القَيْل : من ملوك اليمن في الجاهلية ، دون الملك الأعظم ، ويقصد به هنا الملك عموما .

[2] القيل : القول .

ولبسَ بشقِّ العصا ثوبَ العصيان ، فَكَمَنَ كُمُونَ الشوكِ تحتَ ورقِ الـوردِ والريحـان ، واحتمَى فى حمى الشقاقِ والنفاقِ بشقائقِ النعمان ، والحقُّ أنّهُ مـن نسـلِ العفـاريت ، وكان عند الجن مقيلُه والمبيت ، ومن ألبانهم له غذاءٌ وتربيت[٣] فقال له الملك هُديت ووُقيت ، فإن يكنْ عندك من ذلك شيٌ ، فَشَنِّفْ من جواهِر حكمِـه أُذُنَـيَّ ، فـإنّكَ حكيمُ الجنِّ والإنس ، وكريمُ النوعِ والجنس .

قال الحكيم : نعم أيها الملكُ العظيمُ أنا جهينةُ الأخبار[٤] ، ومُزَيِّنَةُ الأخيار ، وحَكَمَ الحِكَمْ ، وَلِي فى البيانِ أَعْلَى عَلَمْ . أمّا هذا الشخصُ المذكـورُ فإنـه بالفسـقِ والفسـادِ مشهور ، ورقُّ شَرِّه فى البلادِ منشور ، وكتـابُ عنـادِه بـينَ العبـادِ مسـطور ، وبيـتُ حَسَدِه لِنِعَمِ اللهِ تعالى على خُلّصِ أوليائِه بـالفجورِ معمـور ، ولـه صفـاتٌ تعيسـةٌ ، وأخلاقٌ خسيسةٌ ، تأنفُ مَرَدَةُ الشياطينِ منها ، وتستنكفُ العفاريتُ عنها ، وكَـمْ لـه من دواهى ، شَرُّهَا غيرٌ متناهى ، لا يفى بذكرِها هذا الخطاب ، ولا يسعُ سَرْدَها هـذا الكتاب ، بَلْ وَلاَ يقومُ بذلك دَفْتَرٌ ولا حِسَاب ، ولكنَّ البعرةَ تدُلُّ على البعير ، فَقِسْ من هذا التقدير ، الكثيرَ علـى اليسـير . وقـد كـان أرَادَ نشـرَ الفسَـاد ، ببـلادِ العـراقِ وبغداد ، فعَاكَسَهُ القدَرُ وأحاد ، فَنُفِيَ مـن تلـك البـلاد ، فَوَصَـلَ إِرَمَ ذاتَ العمـاد[٥] وتعاطى أسبابَ ماهو عليه من الزندقةِ والإلحاد ، فأثارَ أصنافَ الفـتنِ وأنـواعَ العنـاد ، وابتدعَ من الشرِّ والبدعِ ما يخرجُ عن حصرِ التعـداد ، وهـو علـى مـا هـو عليـه مـن المناكَدةِ والمجاحـدة ، وقصـده الأعـوج من تعديلِ أقوالِ الرافضةِ والملاحدةِ ، وسيوضحُ

---

[٣] تنشئة وتنمية .

[٤] يقال : فلان جهينة الأخبار أى يعرف يقينها :

[٥] إرم ذات العماد : أعظم المدن فى زمانها ، وأكثرها بهاء وجمالا ، تقع بين حضرموت وصنعاء ، من بناء شدّاد ابن عاد .

لذلك مُصنَّفٌ مُتّسع على حدةٍ . ولقد بلغني أيها الملكُ الهمام ، أنه حصلَ له في ذلك المقام ، مع عالمٍ من علمائِها الأعْلام ، قضايا كَبَتْهُ على خَيشُومه ، وأظهرَ بها ذلك العالِمُ دسائسَ خُبْثِهِ وَشُومه[6] مثل ما اتفق لعالِم الإنسان مع شيطانِ العفاريتِ وجان الجان ، في غابر الدهرِ وماضي الزمان . فقال القَيْلُ العظيم : أخبرْنا بذلك أيها الحسيبُ الكريم .

فقال ذكر أنَّ في الأزمانِ الغابرةِ ، كانتْ صنوفُ الجنِّ للإنْسِ ظاهرةٍ ، تتراءَى بأشكالٍ مختلفةٍ ، وتتزيا[7] بأمثالِ غيرِ مؤتلفة ، وتُظْهِرُ لهم الخيالاتِ العجيبة ، والصورَ المموّهةَ الغريبة ، فتضلُّهم ضلالاً مبينا ، وتأتيهم من بين أيديهم ومن خلفهم وشِمالاً ويمينا ، وتُخاطبهم مشافهة ، وتُوافيهم مواجهةَ . ففي بعضِ الأيام ، ظهرَ ببلادِ الشام مهبطِ الوحي ومهاجرِ الأنبياءِ الكرام ، ومحطِّ رحالِ الرجال ، من أهلِ الفضلِ والإفْضَال ، رَجَلٌ من العُبَّاد ، وأفرادِ الزُّهَّاد ، فاقَ الأقرانَ بالصلاح ، وساد أهلَ الزمانِ بالورعِ والفلاح ، وحاز طَرَفَيْ العِلْمَ والعَمَل ، فَكَمَّلَ كثيراً منهم بعد ما كَمل ، واستمر يدعو الخلقَ إلى خالقهم ويحثُّهم في الإنابةِ والتوكّلِ على رازِقِهم ، ويَرضونه ويُرضيهم في الطاعة ، واتباعِ السُّنّةِ والجمَاعة ، ويُقَبِّحُ الدنيا في أعينهم ويحذِّرُهم غدراتِها في مَكْمَنِها عند مَأْمَنِهم ، وكان لنفَسه المبارك نقوشٌ في النفوس ، يجذبُها إلى ما يريدُ جَذْبَ الحديدِ المغناطيس .

ففي مُدَّةٍ يسيرة ، تبعه طوائفُ كثيرة ، وانتشر صيتُه إلى الآفاق ، وَصَفَا للعباد

---

[6] مخفف شؤمه .

[7] يقال تزيا بزى غيره أى لبس كما يلبس ، والمقصود هنا "التحولات" أو التشكيلات التى يتقمصها الجن (على مختلف الصور والأشكال والهيئات) .

وقتُ الطاعةِ وراق ، وضُرِبَتْ إليـه أكبـادُ الإبـل[٨] ، وامتـلأتْ بـه الدنيـا مـن العلْـمِ والعمَل ، واضطـرب أمـرُ المـردة ، والشـياطينُ العنـدَه ، وتعطلّـتْ أسـواقُ الفسـوق ، وخرج عرقُ المعـاصي مـن المعـروق ، وَتَخَمَّلَـتْ العفـاريت ، وتنكّسَـتْ أعـلامُ الجـنٌ المصـاليت[٩] ، وضَـلَّ سـبيلَ الضـلالِ كُـلُّ مـاردٍ خريــت[١٠] ، وبطلـتْ زخـارفُهم وتَمْويهَاتُهُمْ ، وعُطِّلَتْ وَساوِسُهم وتَشْويهاتُهم ، وأهانَهم الناس ، وكَسَدَ الوَسْواس ، وفسد فِعْلُ الخنّاس[١١] . فلما ضل سعيُهم ، وكـاد يقـعُ نعيُهـم ، اجتمـعَ العفـاريتُ العتاة ، والشياطينُ الطغاة ، والمردةُ العصاة ، إلى إبليسِهم العنيد ، وهو شيطانٌ مُريـد ، صورتُه من أقبحِ الصُّوَر ، له أظـلافٌ كـأظلافِ البقـر ، ووجـهٌ كالتمسـاح ، وشـكلٌ كالرماح ، وخرطـومٌ طويـل ، ورأسٌ كـالفيل ، وعيـونٌ مشـقوقةٌ بالطـول ، وأنيـابِ الغول ، وشعرٌ كالشَّيْهَم[١٢] ، وجلـدٌ كـالأرقم[١٣] ، وهـو يلهـثُ كـالكلاب ، ومـن ورائه عدّةُ ذئاب ، فشكوا إليه حالَهم ، وأطالوا فى الشكوى قالَهم . وقـالوا : ياشـيخَ التلبيس ، وابنَ عمِّ إبليس ، لقد عُمِّرَتْ المدارس ، وَبَطُلَتْ منها الوَسَاوِس ، وتَعَمَّـرَتْ المساجد ، بكلِّ راكعٍ وساجد ، وقائمٍ وقاعد ، وقارىءٍ وجاهد ، فَطُرِدَ كـلُّ شـيطانٍ مارد ، وتمشى سنن الحلال ، فوقف منا الاحتيال ، وَأُمِرَ بالمعروف ، فوقعْنا على الأمر المخوف ، وكثُرتْ الحُجَّاج ، فتقطعتْ منـا الأَوْدَاج ، وأُدِّيَـتْ الزَّكَـوَاتُ والحقـوق ، فَطُرِدَ منّا كلُّ عقوق ، وقام الحق ، فنام الفسق ، وعُبِدَ الله فى المغاراتِ والكهـوف ، واشْتدَّ علينا السبيل فَعَلَى مَنْ نطوف ، ولم يبقَ لنا علـى بـني آدم سـلطة ، وصرنـا فـى

[٨] يقال : فلان تضرب إليه أكباد الإبل أى يرحل إليه فى طلب العلم ونحوه .

[٩] القوية البارزة والظاهرة الواضحة .

[١٠] الخريت : الدليل الحاذق بالدلالة ، والماهر فى الأمور المستعصية .

[١١] الخناس : الشيطان .

[١٢] الشيهم : حيوان من القوارض له شوك طويل كأنه المسالّ ، من فصيلة القنافذ .

[١٣] الأرقم : ذكر الحيات أو أخبثها .

بحارِهم أقلّ من نقطة ، وعند جهرِهم بأذكارِهم أَذَلّ من ضَرْطة ، لا وَسَاوِسُنَا تؤثّر فى أفكارِهم ، ولا بمجالسُنا تعطّلُ من أذكارِهم ، ولا تَخيُّلاتِنَا تتراءَى لأبصارِ أسرارِهم ، فإنْ استمرَّ الحال ، على هذا المنوال ، لا يبقى لنا فى الدنيا مقام ، ولا بين الجنِّ والإنسِ كلام .

فلما وعى العفريتُ فَحْوى هذه الشكوى ، وتأمَّل ما فى مطاويها من نازلةٍ أحاطتْ بهم وبلوى ، اشتعلتْ نيرانُ غضبِه ، وتأججتْ شُوَاظَّاتُ لهبه . ثم قال : أَمْهِلونى أتلوّى ، واتركُونى أتلوّم وأتروّى ، وأفتكر فى هذه البليّة ، وأكشفُها عن جلية ، فإنَّ الأمورَ لا تنتجُ لمعانيها ، ما لم يتأمَّل من فراغِها فى جوانبِها ونواحيها ، وتحقيقُ المسائلِ إنما يوجدُ من محكميها وحاكميها . وكان هذا العفريتُ العاتي ، المارد الغيرُ المواتي ، تحت يدهِ وأمرهِ ، من مقتبسي تلبيسهِ ومكرهِ ، والشياطينِ المردة ، وأغوالِ العفاريتِ العَنَدَة ، طوائفُ شتىً ، وأُممٌ لا تُحْصَى ، ومِمَّنْ فَاقَهُم في المكرِ والمراءِ أربعةُ أشخاصٍ كبراء وزراء ، كلٌّ منهم في الشيطنةِ والموَاَلسَةِ ، ومعرفة طُرقِ الوَسْوسة ، كأبي عليّ بنِ سينا[١٤] في علم الهندسة ، غايةٌ لا تُدْرك ، ونهايةٌ لا تُستَدرك . فاجتمع هذا الغولُ بوزرائِهِ ، ورؤساءِ أشياعِهِ وكبرائِهِ . ثمَّ قال لهم : أفتوني في أمري ، وساعدونى على فِكْري ومَكْري ، ووجَّهَ الخطابَ لكبيرِهم الذى علّمهم السحر ، المشار اليهِ في الدهاء والمكرِ . وقال لهُ : ما رأيُك في هذه القضيَّة ، والمواقفِ الرديَّة ، والداهيةِ الدهية ؟ فقال الوزير : يا مولانا الأمير ، وصاحبَ المكرِ والتدبير ، إنَّ العقلاءَ ، وذوي التجاربِ من الحكماء ، تفرَّسوا بأمرٍ قاطع ، من الوقائعِ القواطع ، فقالوا : شيئان لا بقاءَ لهما : الروحُ في الجسد والسعدُ في الطالع ، وهذا هو الصواب ، ولكل أجلٍ كتاب ، وما دام الأجلُ باقياً ، والسعدُ راقياً ، ومُنَادِمُ السَّلامةِ

---

[١٤] ابن سينا (٩٨٠ – ١٠٣٦ م) الفيلسوف والطبيب المسلم المعروف ، يلقب بالشيخ الرئيس .

ساقياً ، وحافظُ العوارضِ واقيا ، لا ينفعُ الجَدّ[15] ، ولا يدفعُ الجَدّ[16] ، ولا يرفعُ الجَهْد ، ما أَثْبَتَ السعد ، فإذا تَمَّ الأجل ، وبطُلَ من السعدِ العمل ، انتكسَ السعدُ وانقلب ، وفارقتْ الروحُ بلا سبب ، وإذا كان كذلك ، فهذا الرجلُ الناسك ، سعدُهُ عمال ، وطالعُهُ في إقبال ، فكلُّ سهمِ مكرٍ فَوَّقْناهُ إلى نَحْوِ حياتِهِ يعودُ علينا ، وكلُّ رُمْحِ فكرٍ صوَّبنا سِنَانَهُ إلى شاكلةِ بقائِهِ يرجعُ إلينا . فالرأيُ عندي أن نتربَّصَ حتى تدورَ به الدوائر ، ولا نهتمّ باحتيالِ محتالٍ ولا مكرِ ماكر ، إلى أن تنقضي مدتُهُ ، ويسقطَ من سعدِ طالعهِ قوَّتُهُ ، فعند ذلك يفيدُ سعيُنا ، ولا يضيعُ كدُّنا .

فقال العفريتُ للوزيرِ الثاني : يا أفضلَ جاني ، أنتَ ماذا تقول ، وكيف تشيرُ أنْ نصول ، في ميدانِ هذا الأمرِ ونجول ؟ فقال : رأيُ مولانا الوزيرِ سديد ، وكلُّ ما أشاره بهِ فهو أمرٌ مجيد ، ولكن كيف يُهمَلُ أمرُ العدوّ ، ويركنُ مع وجودِهِ إلى قرارٍ وَهُدُوّ ، وإذا كان طالعُهُ في قوَّةٍ فإهمالُهُ يزيدُ في قوَّتهِ ، والتهاونُ في أمرهِ مساعدةٌ في معاونتهِ ، ومعاونةٌ في مساعدتهِ ، وهذا من علامات العجزِ والانكسار ، ومِنْ أقوى الأدلةِ في الانحطاطِ والصَّغَار ، وأنَّ الأرباب ، وضع عالَم الكونِ والفسادِ على الأسباب ، فلا بدَّ من تعاطيها في هذا الباب ، وبَذْلِ المجهودِ في معاملاتِ الأعداءِ والأحباب ، ولم يقتصرْ الشارعُ ، على التقديرِ والطالع ، إذ فيهِ حَسَمَ مادَّةَ الشرائعِ ، والتعرُّض لإبطالِ حكمِ الصانع ، فعندي أنْ نبذلَ الجهدَ في حسْمِ مادَّتِهم ، وتعاطي

---

(15) الجد : المكانة والمنزلة .

(16) الجد : الحظ .

كسرِ شَوْكتِهم ، وبذلِ الجهدِ والجد ، بما تصلُ إليهِ اليد ، وثباتُ الأقدام ، فـي إثبـاتِ الإقْدام ، كما قال الشاعر ، وهو سلّم الخاسر[١٧] ، في ثبت الجاسر .

مَـنْ راقـبَ النّـاسَ مَـاتَ غمّـا   وَفـازَ باللـذّةِ الجَسـور

وهذا الشاعرُ المسمَّى ، أخذهُ من أخينا بشار الأعمى[١٨] ، مَنْ لنا بوجودِهِ أُنْس ، وهو شيطانُ الإنس ، حيث يقول ، ذلك الغول :

مَنْ راقبَ الناسَ لَمْ يَظْفَرْ بحاجتِهِ   وَفـازَ بِالطيِّبـاتِ الفاتِكُ اللّهِجُ

فَاعْزِمُوا على هدمِ ما يبنون ، وَصَدْمِ ما يعنون ، والأخذِ في تمزيـقِ جلدتِهـم ، وتفريـقِ كلمتِهم ، إذْ لا اطّلاعَ لنا على مساعدةِ الطّالع ، ولا حَدَّ لبقاءِ الأجـلِ فضـلاً عـن أن نقـولَ : هـذا الحـدُّ جـامعٌ أو مـانع ، وهـذا الـرايُ عنـدي أَوْلي ، ورأيـك يـا رئيـسَ التلبيسِ[١٩] أعلى ، ودونك ياغول ، هذا القول :

إذا كـانـتْ الأعــداءُ نملاً فإنّهـم   إذا لَمْ تَطَأْهُم أصبحوا مِثْلَ ثعبـان

ومن هذا المقال ، يا أبا الأغوال :

واللصُّ ليـس لـهُ دليـلٌ سـاتـر   نحـو الـذي يبغي كَنَـوْمِ الحارِسِ

والأصـلُ في هـذا اكلِّـهِ حَسْـمُ مـادَّتِهم ، وردُّ حـادَّتِهم ، وذلـك بـإهلاكِ مُرْشِـدِهم ، وإفسـادِ زَاهدِهـم ، فـإنْ قَدَرْنـا على إهلاكـهِ ، وتمزيـقِ حبائلِهِ وأشراكِـهِ ، تشـتّتَ شَمْلُهم ، وتَبَتّتَ حلّهم وقلّهم .

---

[١٧] هو : سلم بن عمرو ، من الشعراء الموالى فى العصر العباسى . نشأ فى البصرة وكان شـاعراً مطبوعـا ، يتظـاهر بالخلاعة والمجون ، وزاد شاعرية وقدرة بالشعر على يد بشار بن برد ، لأنـه كـان راويتـه وتلميـذه . أخـذ عنـه واغترف من بحر شعره ، وكان يأخذ أقواله ويعيد صياغتها شعراً على نحو ما فى المثال المذكور فى المتن . توفى سنة ١٨٦ هـ .

[١٨] من فحول الشعراء فى العصر العباسي الأول ، توفى سنة ١٦٧ هـ . ومن الجدير بالذكر أن بشاراً غضب غضبا شديداً إلى حد القطيعة ، عندما علم أن تلميذه وراويته سلماً قد سرق هذا المعنى منه ...

[١٩] التلبيس : التدليس ، الخداع والمخالطة فى الأمر حتى لاتعرف حقيقته ، ومنهـا التبس عليه الأمـر ، أى أشـكل واختلط .

فقال العفريتُ للوزيرِ الثالث ، وكان أنحسَ عابث ، قُلْ لي أيُّها الوزيـر : مـا سَنَحَ لك من التدبير ، في هذا الأمرِ المبير[٢٠] ، والخطبِ الخطير ، ومـاذا تـرى فيـهِ وتُشـير ؟ فقال : لا شكَّ أنَّ الطباعَ تميلُ إلى ما تسـمعُهُ ، ومـا يُلقـى إلى النفـس لا بـدَّ أنْ يُؤثِّـرَ موقعُهُ ، وما أشار به ودبَّرَهُ الوزيران ، وهما نِعْمَ المشيران ، فهو لا يخلـو عـن فوائـد ، بل هو مُتَحَلٍّ بعقودِ الفرائد ، وإنّي لأعلمُ أنّهُ أثّرَ في لخواطِـر ، كمـا يُؤثِّـرُ في الريـاض السُّحْبُ المواطِر . وبالجملةِ فَلِلْكَلَامِ تأثـيرٌ في النفـس ، كمـا تظهـرُ آثـارُهُ في الحـس ، ولهذا تـرى رقيقَ الشعر ، يفعلُ مـا لا يفعلُـهُ دقيـقُ السِّـحْر ، وجليـلُ العبـارةِ فيـهِ مـن الإثارة ، ما يشجعُ الجبـان ، وينشـط الكسـلان ويسـخّي البخيـل ، وينجّـي الذليـل ، ويسـحرُ الأرواح ، ويسخرُ الأشباح ، ويعطـفُ القلـوب ، ويؤلـفُ بـين المحـبِّ والمحبـوب ، ويصيرُ العدوُّ صديقا ، وغليظُ الأحرارِ رقيقا ، وتأمَّل يا نَبيه ، مـا قيـل في البديه :

حديثٌ إذا نادمتُ دهري به انتخى | وَكَفَّ عن الإيذا وعاد إلى الإخـا
أذكِّرُهُ أخـلاقَ مـالِكِـهِ الـذي | تعلّـم منـهُ العلمَ والحلمَ والسـخا
أنـالُ بهِ ما لا يُنَـالُ بـقـوّةٍ | وأرواحُ أشبـاحٍ أتت بعد شمخـا

وهذه قضيَّة ، تحتاج إلى إعْمَال الرَّويَّة ، وإمعانِ النظر ، وتدقيقِ الفِكَر ، وعندي الرأيُ السعيدُ السديد ، والفكرُ الحميدُ المجيد ، أنَّ التعرُّضَ إلى هذا الرجلِ الدَّيِّن ، الداعي إلى طريق الحقِّ البيِّن ، ليس بمحمود ، ولا طالع قاصدِهِ بمسعود ، فإنهُ على الحق ، متشبثٌ بأذيالِ الصدق ، ومَن قصدَ مصادَمةَ الحقِّ اصطدم ، وفي مهاوي الهـلاكِ ارتـدم . وقـد كان في بني اسرائيل ، رجلٌ مـن أهـلِ التبجيـل ، عـاملاً بـالتوارةِ والإنجيـل ، مشـغولاً بالعبادة ، باذلاً في إقامةِ الحقِّ اجتهادَه ، فتعرَّض لهُ جماعة ، من أهل الفسقِ والخلاعة ، فتعاطوا إهلاكَـهُ ، وفجعـوا بـه نُسَّـاكَه ، فقتلـوهُ بغيرِ حـق ، فَغَـارَ لـهُ الدِّيـنُ وَرَقّ ،

---

[٢٠] المهلك .

فأخبرني مَنْ لا يُتّهمُ بكذبهِ ، أنّهُ قُتلَ سَبْعَمائةِ ألفِ نفسٍ بسببِهِ ، فذهبَ بسببِ ذلك الصالح ، من بني إسرائيل الصالحُ بالطالح ، ومَنْ كان مع الحق ، هادياً إلى الصدق ، فإنَّ الله تعالى معهُ ، ومَنْ كانَ الله معهُ منعهُ ، وحرسَهُ وما ضيَّعهُ ، ومن تصدَّى لضياعِ ما حَفِظَ الله ، وعزم على ابتذالِ مَنْ أعزَّهُ مولاهُ وكلاه ، فقد قصد خرابَ عُمْرِهِ وعِمَارتِهِ ، وباع رأسَ مالِ تجارتِهِ وربحَهُ بخسارتِهِ ، وجنى بيَدِهِ على نفسهِ ، وحفر بِيَد تدبيرِهِ مهواةَ رَمْسِهِ . واسمعْ يا نِعْمَ العوْن مَا جَرَى لمؤمِنِ آل فرعوْن ، حيثُ كان على السَّدَاد ، داعياً إلى سبيلِ الرشاد ، وقصد إهلاكَه أهلُ الفساد ، فقال : وأفوضُ أمري إلى الله إنَّ الله بصيرٌ بالعباد ، فغلبوا هنالِكَ وانكسروا ، ووقاه الله سَيِّئَاتِ ما مكروا . وأيضاً لو قتلنا هذا الرجل ، وكانَ على أيدينا لهُ حِمَامُ الأجَل ، فلا شكَّ أنهُ يقومُ مقامَهُ ، مَنْ يَلُمُّ عظامَهُ ، ويزمُّ زمامَهُ ، ويحيا بعد أيّامهِ ؛ فيقيمُ شعارَهُ ، ويكتبُ ما قدَّم وآثارَهُ ، فإنَّ تلامذتَهُ كثيرة ، وطوائفَ جماعتِهِ غزيرة ، فينتظمُ لهم بعدَهُ الأمر ، ولا يضرمُ لنا من كيْدنا الجمر ، وإذا علموا أنَّ ذلك منّا ، حذَرَهم ، وصوَّبوا إلينا عداوتَهم ومكرَهم ، ثُمَّ عمدوا على استئصالنا ، واستعدُّوا لقتالنا ، لأنّا أهلكْنا معتقدَهم ، وهَدَمْنا عمادَهم ومعتمدَهم ، ولا يمكنّا بعد ذلك طلبَ المسَالمةِ والسَّلامة ، وتستمرُّ العداوةُ بيننا وبينهم إلي يومِ القيامة ، مع أنَّ عداوتَنا قديمة ، وبالجملة فعاقبةُ مَنْ عادى أولياءَ اللهِ وخيمة . إذا تقرَّرَ هذا القولُ وثبتَ بطريقِ المعقول ، فاعْلَمْ أيُّها الغول ، والشيطانُ المهول :

أنَّ الرأيَ الصواب ، في هذا المُصَاب ، أنْ نبادرَ إلى هذا الرجلِ وجماعتِهِ ، بإفسادِ طاعتِهم وطاعتِهِ ، وحيث لا يَتَيَسَّرُ لنا المواجهة ، ولا الخطابُ والمشافهة ، ولا الإضلالُ في الظاهر ، بصورةِ المتجاهر ، فنُزَيِّن لهم حبَّ الدنيا وشهواتِها ، والميلَ إلى زينتها وَلَذّاتِها ، والركونَ إليها ، والاعتمادَ عليها ، ونُلقي إليهم طُولَ الأمل ، وبُعْدَ

الأجل ، فَنُثَبِّطهم بذلك عن العمل ، وندعوهم إلى التهاونِ والكســل . ثـمَّ بعـد ذلـك نجلو خدودَ عرائسِ الحرصِ على أبصارِ أفكـارِهم ، وقـدودِ موائـس[٢١] الشُّحِ وحـبٌّ المالِ على أعينِ خيالاتِهم وبصائرِ أسرارِهم ، فإذا ذاقتْ ألسـنةُ عقولِهِـم حـبَّ الدنيـا ، وتمكّنتْ في أدمغةِ سويدائِهم[٢٢] الرغبةُ في الاباء والأبنا[٢٣] ، سُلِبُوا حـلاوةَ الطاعـة ، وتفرقتْ منهم الجماعة ، وزاغوا عن الطريقِ الأقوم ، وراغوا عـن السـبيل الأَمَّـم[٢٤] ، فنتوصَّــل إذ ذاك منهـم إلى مقاصـدِنـا ، ونوقعهـم - كيفمــا اخترنـا - في مصــائدِ مراصدِنا ، لأنهم هبطوا من سماءِ المنازعــةِ إلى الأرض ، وأهلكـوا بـأيديهم أنفسَـهم إذ بغى بعضُهـم علـى بعـض ، فتحاسـدوا وتحاشـدوا ، وتدابـروا وتفـاخروا ، وتكـالبوا وتضاربوا ، وتواثبوا وتجانبوا ، وتناهبوا وتســالبوا وتلاسـبوا[٢٥] ، وتقـابلوا وتقـاتلوا ، وتفرَّقوا وتمزَّقوا ، وتحرقوا وتمرقوا[٢٦] ، وانحاز كـلٌّ منهـم إلى ناحيـة ، وأعجـب كـلٌّ برأيِهِ فلا تُعرفُ الفرقةُ الناجية ، إذ تفرَّقتْ أهواؤُهم ، وتصادمتْ آراؤُهم ، وجذبتهـم أغراضُهم إلى الانحناء ، وجلبتهم أمراضُهم مع الأهواء ، ومال كلٌّ منهم إلى صـواب ، وأَيِسَ[٢٧] منهم إلى الصوابِ الأوب[٢٨] ، وتعدَّد الخلقُ الذِّمْر[٢٩] ، ولبس كلٌّ لصاحبه جلد النمر . ثمَّ بعد ذلك زلّوا وأزلوا ، وضلّوا وأضلـوا ، فتمكنّـا فيهـم كمـا نريـد ، وتصرَّفنا فيهم تصرُّفَ الساداتِ في العبيد ، وسلطنا عليهم دواعـي الغضـبِ والشـره ،

---

[٢١] قَدّ مائس : قوام ميّاس متبختر في مشيته .

[٢٢] قلوبهم .

[٢٣] مخفف : الأبناء لضرورة السجع .

[٢٤] الأَمّم : المقصود القويم .

[٢٥] تلاسبوا : تلاسعوا وتضاربوا : يقال لسبته العقرب أو البعوضة أو نحوهما : لسعته .

[٢٦] حرج بعضهم على بعض ، فساداً وعدوانا .

[٢٧] أيس : يئس وانقطع رجاؤه .

[٢٨] القصد والاستقامة ، ومن معانيها أيضا : الطريقة والعادة ، والجهة والناحية .

[٢٩] الذِّمر : الداهية الذى يحضّ على الحرب والعدوان والتهديد .

ولعبنا بشيوخِهم لعبَ الصبيانِ بالكرة ، فنصوبُ لهم أقوالَهم ، ونزخرفُ لهم أفعالَهم ، كما قال من خلقهم وأحوالهم ، وزين لهم الشيطان أعمالهم ، ولا نقصد بذلك إلاّ كبراءهم ، وفضلاءهم وعلماءهم ، وزهادهم ورؤساءهم ، وحكامهم وحكماءهم ، ولا نفترُ عن مكابدتهم ، ولا نميلُ عن مكايدتهم ، ونجري في عروقهم ، ونسكنُ في فُروقهم[٣٠] ، ونحركُهم في رعودِهم وبروقِهم ، فإنْ تحركوا إلى خَيْرٍ سكّناهُم ، وإنْ سكنوا عن شرٍّ حرَّكناهم ، وإنْ عزموا على الآخرةِ صَدَدْنَاهم ، وأنْ جزموا إلى مواطن برٍّ رددناهم ، وإنْ أَمُّوا مفسدةً قُدنَاهم ، أَو هَمّوا إلى معصيةٍ سقناهم ، ولا بُدَّ لهذا العملِ الكثيرِ من تأثير ، وَلِبَيْذَقٍ[٣١] جدٍ في المسيرِ أن يصير . وبالجملة فنبذلُ في كُلِّ عامةَ جُهْدِنا وجدِّنا ، ولا غضاضةَ في ذلك علينا لأنَّهُ صنعة أبينا وجَدِّنا ، وقد أَخْبَرَ بذلك جَدُّنَا اللعينُ ، لما حالفَ ربَّ العالمين ، كما أخبر فى الكتابِ المبين ، فى قوله ﴿فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمعين﴾[٣٢] .

فإذا رآهم الناس ، وقع بينهم الباس[٣٣] ، حصل منهم الياس[٣٤] ، وتراجعوا عنهم ، وهربوا منهم ، وفسد اعتقادُهم فيهم ، بل قتلوهم بأيديهم ، فإذا ظهر فسوقُهم ، وكسد سوقُهم ، فإنْ شئنا أوقفنا حالَهم ، وإنْ رمنا إلى الهلاك نسوقُهم ، وأوثق ما يتوصَّل به إليهم من الأسباب ، هي حالةُ الانفرادِ والإعجاب ، وحالةُ

---

[٣٠] فروقهم : الفرق من الرأس : الفاصل بين صفين من الشعر . والفرق والفروق من الرحال : الشديد الفزع .

[٣١] البيدق : الدليل فى السفر .

[٣٢] سورة ص : ٨٢ .

[٣٣] الباس : مخفف البأس ، الشدة .

[٣٤] الياس : مخفف اليأس ، الإحباط .

الاجتماعِ للكذّاب ، فإنَّ الإعجابَ يهوي في النار ، والكذبُ يخرّب الديار . ونـاهيك قضية التاجرِ ، مع عَبْدِهِ الكذّاب الفاجر . فسأل شيخُ الجنِّ عن بليَّةِ ذلك القِنّ[٣٥] .

[١/٤] قصة التاجر مع العبد الفاجر

(الذى يكذب مرّة فى كل عام)

فقال : وَرَدَ فى الخبر ، عن شـخصٍ معتبر ، قـال : كـان بمكـان تـاجرٌ ذو مـال ، وزوجةٌ ذاتُ جمال ، كلٌّ يهوى صاحبهُ ، ويرعى جانبَهُ ، ويفديهِ بروحِـه ، ويترشـف رُضَابَه[٣٦] في غَبوقِهِ وصَبوحِهِ[٣٧] ، كأنّهما زوجُ حَمام ، وفيٌّ بذمام[٣٨] . ففي بعـضِ الأيّام قال أحدُهما لرفيقهِ ، وهو يرشفُ من كأسِ عقيقهِ ، شَهْدَ رُضَابه بخمرةِ ريقــهِ : لو كان لنا عُبَيْد[٣٩] ، يتعاطى ما لنا من حاجةٍ ويخلصنا من جميلةِ عمرٍ وزيد . فذهــب التاجرُ إلى سوقِ الرقيق ، فوجد مع النخّاسِ عَبْداً ذا قَـدٍّ رشيق ، ينـادى عليـه : أبيعـهُ بكذا ، على ما فيه من أذى . فقال : وما عيبُهُ ؟ قال : كذبُهُ لا على الدوام ، وإنما هو مرَّةً فى كلِّ عام . فقال : عَيْبٌ هَيِّنٌ ، وشَـيْنٌ لَيِّـنٌ[٤٠] ، فاشـتراهُ ، وأتـى بـهِ إلى دارهِ وارتضاهُ ، فاستمرَّ في خدمةٍ حسنة ، حتى أتى عليه سنة ، ونَسيَ سـيدُهُ عيبَـهُ ، وأمـن رَيْبَهُ ، وجرَّبَ بالأمانةِ يدَهُ وبالطهارة جيبَه . فلمّا مضـى عليـه عـام ، كـان سـيدُهُ في الحمَّام ، فأتى البيـتَ في بعـضِ الحوائـج ، في صـورةِ الجمـلِ الهـائج ، شـاهقاً ناشـرا ،

---

[٣٥] القِنّ : العبد الذى كان أبوه مملوكا لمواليه .

[٣٦] الرضاب : الريق المرشوف .

[٣٧] الغبوق والصبوح : شراب الغبوق أى ما يشرب العشي ، وهو خلاف شراب الصبوح أو الصباح .

[٣٨] الذمام : العهد .

[٣٩] عبيد ، تصغير : عبد .

[٤٠] الشين خلاف الزين ، أى القبح والعيب ، والشين اللين : القبح المقدور عليه أو العيب البسيط السهل .

صائحاً ثائرا ، صارخاً : وا ويلاهُ ، وا سيدهُ ، وا مولاهُ . فسئِل ما لك ؟ لا أحسنَ الله حالَك ، ولا أنعشَ بالَك . فقال : رَمَحَ البغلُ بسيدي فَمَا تَمالك ، أنْ تهالك ، وسلّم الروحَ لخالِقها وقال لوارثِهِ تسلّم مالك ، فأُقيمَ العزاءُ والسخام[٤١] ! وتركهم وأتى للحمّام ، وهو يبكي وينوح ، ويصرخُ ويصيح ، فسأله مولاهُ ، ما دهاهُ ؟ فقال : وقع البيت ، على كُلِّ مَنْ أَوَيْت ، ولم يبقَ في الدار ، نافخُ نار ، فهلك الكبيرُ والصغير ، ونُهب ما فيها من جليلٍ وحقير . فخرج وهو يستغيث ، من حديثِ ذلك الخبيث ! فوجد أهلَ البيتِ سالمين ، ورَآوْه من الناجين ، فعزم على خباطِه[٤٢] ، فذكر لهُ ما سلَف من اشتراطه .

ثم إنهُ استقام ، ونسي هذا الكلام ، ومضى عليهِ عام ، فاستأنفَ ذلك الخبيث ، أمرَهُ العبيث ، وقال لامرأةِ مولاهُ ، يا هنتاهُ[٤٣] إنْ كنتِ نائِمةً فاستيقظي ، وخذي حذْرَكِ وتيقظي ، واعْلَمِي أنَّ نِيّةَ صاحبِكِ ، أنْ يلقي حَبْلَكِ على غاربكِ[٤٤] ، لأنّهُ قد عشق عليكِ ، ونَبَذَ حَبْلَ حلّكِ إليكِ ، وتعلّقَ قلبهُ ببنتِ رجلٍ كبير ، ولا ينبئكِ مثلُ خبير ، وقد حملني على نصيحتِك الشفقة ، وما أسديتِ إليَّ من إحسانٍ وصدقة ، فبادري قبل حُلولِ الباس ، ونزول الفاس في الراس ، فأثّر فيها هذا الحديث ، فاستشارت ما تفعلهُ ذلك الخبيثَ . فقال : لو ظفرتِ بشيءٍ من شَعْرِهِ ، لكفيتُك مؤونةَ مَكْرِهِ ونُكْرِهِ ، فإنَّ لي صاحباً منجما ، وأستاذاً معلما ، يرقى[٤٥] الشعور ، ويجعلها في النحور ، وإذا وجد إلى خيشومِهِ مساغَهُ ، ودخل البخورُ دماغَهُ ، صار

---

[٤١] السخام : السواد كناية عن الحداد .

[٤٢] خبط فلانا : أى ضره ضربا شديداً .

[٤٣] كناية عن المرأة (ولا تستعمل الا فى النداء) والأصل للرجل . .

[٤٤] كناية عن الرغبة فى الطلاق أو الشروع فيه .

[٤٥] من الرُّقْيَة .

عبداً لكِ على الدوام ، وحظيتِ عندَهُ بالمرادِ والمرام ، وارتقيتِ إلى أعلى مقام ، ولكنْ ينبغي أنْ يكونَ مِنْ شَعْرِ لحيتهِ ، النابتِ على تَرْقُوَتِهِ[٤٦] . قالت : وأنّي أصلُ إلى ذاك ؟ وقاكَ اللهُ شرَّ أذاك ! فقال : إذا نام ، وغرق في المنام ، فاحْلِقِي منهُ بموسَى ، لتَكُفِّي الضَّرَرَ والبُوسى[٤٧] وأنا آتيكِ بموسى يحلقُ الشعور ، فافْعلي ذلك من غير أنْ يكونَ لهُ شعور ، فاتفقا على ذلك الاتفاق ، وأتاها بموسى حَلاّق .

ثمَّ توجَّه إلى مولاهُ ، وقد أضمر لهُ ما دهاهُ ، وقال : أشعرتُ ياذا الفضائل ، أنَّ زوجتَك البديعةَ الشمائل ، تغيَّرَ خاطرُها عليك ، وتقدَّمت بالإساءَة إليك ، ولولا أنَّكَ شفيقٌ عليَّ ، وعزيزٌ ومكرَّمٌ لديَّ ، ما أنبأتُكَ من أخبارِها بشيّ ، فإنِّي أُريدُ أنْ يكونَ ما أنهيتُهُ إليك مكتوماً ، إلى أنْ يصيرَ عندك مُحَقَّقاً معلوماً ، وقد أرسل إليها مَنْ يخطبُها ، وأمَالَها عنك بما يرغبُها ، واتفق معها أنها تقتلُك وتستريح ، وتصبحُ في فراشك وأنتَ ذبيح ، وذلك يقومُ بدِيَتِك ، وقد أرسل إليها من الجواهرِ والأموالِ أضعافَ قيمتِك ، فإنْ أردتَ مصداقَ هذا الكلام ، فَتَثَاقَلَ عندها في المنام ، ليزول الشكُّ باليقين ، وتتحقَّقَ أني من الصادقين ، فأثَّرَ هذا الكلامُ فيهِ وخاف من مَكْرِ النساءِ ودواهيه . فلما أقبلَ العِشاء ، وأحضروا العَشَاء ، تناولَ من ذلك الطعام ، ونهض إلى الفراشِ لينام ، وأظهرَ بين القوم ، أنَّهُ غرق في النوم ، وغمض عينيهِ وانحطّ ، وسال لعابهُ وغطّ ، فنهضتْ الزوجةُ إليهِ ، وفتحتْ الموسَى ودخلتْ عليهِ ، ومدَّتْ يَدَهَا إلى لحيتِهِ ، ووضعتْها على تَرْقُوَتِهِ ، ففتح عينيهِ ، فرأى آلَةَ الموتِ مُتَوَجِّهَةً إليهِ ، فما تمالَك أنْ وثبَ عليها ، وجثم إليها ، وخرج زمامُ تفكرِهِ ، عن يَدِ تامُّلهِ وتدبّرِهِ ، وخطفَ الموسَى من كفِّها ، وسقاها كاسَ حَتْفِها . فلما رأى فَوَرَانَ الدم ،

---

[٤٦] الترقوة : عظمة مشرفة بين ثُغرة النحر والعاتق .

[٤٧] مخففة : البؤسى بمعنى البؤس ومن معانيها العذاب و الشقاء والخوف .

أدركه لاَحِقَ الندم ، وبد تبدَّل الوجودُ بـالعدم ، ووقـع القـالُ والقيـل ، واشـتهر أمـرُ القتيل ، وعلق في شركِ الاقتناص ، وعُومِلَ في صاحبِهِ بالقصاص .

وإنما أوردتُ هذا الكلام لتعلمَ ما أَهْلَكَ الأنام ، وأَوْقعهم في شَرَكِ الآثام ، والكفـرِ والفسوقِ والحرام ، مثلُ الكذبِ في الكلام ، وهو لنـا أوثـقُ زمـام ، ولجذبهـم إلى مـا قصدناهُ من المرام ، أحكمُ خِطَام[48] ، وأعظـمُ خِـزَام[49] . فاستحسـن العفريـتُ هـذا الرأيَ واستَصْوَبَـه ، وأعجبـه مـا تضمنـه مـن معـانٍ واستغربه ، ثـمَّ قـال : رأيـتُ يـا أصحاب ، مِنَ الرأيِ الصواب ، أنْ أجتمـعَ بهـذا العـالِم الزاهـد ، العـاملِ العـابد ، في محافلَ غاصَّة ، وأسألهُ عن مسائلَ عامَّـةٍ وخاصـة ، وعـن أسـرارٍ رقيقـة ، أُطالبـه فيهـا بمجازِها والحقيقة ، وأنا أعرفُ أنه يفحمُ عن جوابي ، ويلجمُ عند أوَّلِ خطابي ، فـإذا عجز عن جوابِ المسائل ، في تلك الجموعِ والمحافل ، تحقق الحاضرون جهله ، فنبـذوه من أوَّلِ وَهْلة ، واعترفوا لنـا بـالفضْلِ الوافـر ، والعلْـمِ الغزيـرِ المتكـاثر ، فصـاروا لنـا أوِدَّاء[50] ، والفضْلُ ما شهدتْ بِهِ الأعداء ، ورجعوا عن اعتقادِهِ ، ونفضوا أيْديَهم من محبَّتِهِ ووداده ، وربَّما سَعَوْا في دمارِه ، وخرابِ ديارِه ، فيكفونـا أمْرهُ ، ويزيحـون عنـا شرَّه . وأقلُّ الأقسام ، أنَّ جماعة ذلك الإمام ، إذا رَأَوْا ما لنـا في الفضْـلِ مـن تجـارة ، وعلموا أنَّ رأسَ مالِ إمامِهم الخسارة ، التهوْا بالسهو ، وسَهَوْا باللهو ، وانفضوا عنـهُ وتركـوهُ ، وهـذا إنْ لم يكونـوا سـفكوهُ وسـبكوهُ[51] ، كمـا فعـل صـاحبُ البسـتانِ

---

[48] الخطام : الزمام . ما وضع على خطم (أنف) الجمل ليقاد به .

[49] خزام أو خزامة : حلقة من الشعر ، توضع في ثقب أنف البعير ، يُشدّ بها الزمام .

[50] أصدقاء ، أحباء .

[51] سبكوه : أذابوه .

بالمزرعة ، من الغَدْرِ والتفْخيذِ[٥٢] مع غرمائِه الأَرْبَعَة . فسأل الوزراءُ عن غديرِ ذلك الغدرِ كيف جرى ؟

[٢/٤] حكاية صاحب البستان مع غرمائه الأربعة

قال العفريت : كان من "تكريت"[٥٣] ، رجلٌ مسكين ، ينظرُ البساتين ، ففي بعضِ السنين ، قدم قريةَ "منين" ، وسكنَ في بستان ، كأنَّهُ قطعةٌ من الجنسان ، فاكهةٌ ونخلٌ ورمَّان ، ففي بعضِ الأعوام ، أقبلتْ الفواكه بالأنعام ، ونشرتْ للثمارِ ملابسَ الأشجارِ من الأذيالِ والأكمام ، فألجأتْ الضرورةُ ذلك الإنسان ، أن خرج من البستان ، ثمَّ رجع في الحال ، فرأى فيه أربعةَ رجال : أحدُهم جنديٌّ والآخرُ شريف ، والثالثُ فقيهٌ والرابعُ تاجرٌ ظريف ، قد أكلوا وسقوا ، وناموا واتَّفقوا ، وتصرَّفوا في ذاك تصرُّف الملاَّك ، وأفسدوا فساداً فاحشا ، خادشاً ومارشا[٥٤] ، وناوشاً وناكشا ، فأضرَّ ذلك بحالِهِ ، ورأى العجزَ في أفعالِهِ ، إذ هو وحيد ، وهم أربعةٌ وكلٌّ عتيد ، فسارعَ إلى التأخيذ[٥٥] ، وعزم على التفخيذ[٥٦] ، فابتدأ بالترحيبِ والبشاشة ، والإكرامِ والهشاشة ، وأحضر لهم من أطايبِ الفاكهة ، وطايَبَهُم بالمفاكهة ، وسامحَ بالممازحة ، ومازح بالمسامحة ، إلى أنْ اطمأنوا ، واستكانوا واستكنّوا ، ودخلوا في اللعب ، ولاعبوهُ بما يجب . فقال في أثناءِ الكلام : أيها السادةُ الكرام ، لقد حزتم أطرافَ المعارفِ والطُّرَف ، فأيُّ شيءٍ تعانون من الحِرَف ؟ فقال أحدهم : أنا

---

[٥٢] التفخيذ : التأخير في المعاقبة .

[٥٣] مدينة على الضفة اليمنى لنهر دجلة ، شمالي سامراء بالعراق .

[٥٤] مرش وجه الأرض : خدشها ، والمقصود عاث الأربعة فيها فساداً .

[٥٥] المؤاخذة والمعاتبة ، باللين ثم بالشدّة .

[٥٦] الحساب والعقاب ، مع تأخير العقوبة .

جندي . وقال الآخر : أنا رسولُ اللهِ جَدّي . وقال الثالث : أنا فقيه . وقال الرابع : أنا تاجرٌ نبيه . فقال : واللهِ لستَ بنبيه ، ولكن تاجرٌ سفيه ، وقبيحُ الشكلِ كريه ، أما الجنديُّ فإنّهُ مالكُ رقابِنا ، وحارسُ حجابِنا ، يحفظُنا بصولتِهِ ، ويصونُ أنفسَنا وأموالَنا وأولادَنا بسيفِ دولته ، ويجعلُ نفسَهُ لنا وقاية ، وينكي في أعدائنا أشد نكاية ، فلو مدَّ يدَهُ إلى كلٍ منا ورزقِه ، فهو بعض استحقاقِه ودونَ حقِّه . وأمَّا الشريفُ فإنَّ جَدَّهُ هدانا ، ومن النارِ أنجَانا ، وقد مَلكنَا كرامةً وحبا ، لقوله تعالى : ﴿قُلْ لاَ أَسْأَلُكُمْ عليه أَجْراً إلاَّ المَوَدَّةَ فى القُرْبى﴾[٥٧] وقد تَشَرَّفَ به اليومَ مكاني ، وحلّت به البركةُ عليَّ وعلى بُسْتانى . وأمَّا سيدُنا العالِم ، فهو مرشدُ العالَم ، وهو سراجُ ديننا ، الهادي إلى يقيننا . فإذا شرَّفونا بإقدامِهم ، وَرَضَوْا أَنْ نكونَ من خُدَّامِهم ، فلهمْ الفضْلُ علينا ، والمِنَّةُ الواصلةُ إلينا . وأمَّا أنتَ يا رابعَهم ، وشرَّ جان تابعَهم ، بأَيِّ طريقٍ تدخلُ إلى بستاني ، وتتناولُ سَفَرْجَلي ورُمَّاني ؟ هل بايعتني بمسامحة ، وتركتَ لي المرابحة ؟ أو لك عليَّ دَيْن ، أو عاملتني نسيئةً دونَ عَيْن ؟ أَلَكَ عليَّ جميلة ، وهل بيني وبينك وسيلة ، تقتضى تناوُلَ مالي ، والهجومَ علي مِلْكِي ومنالي ؟! ثمَّ مدَّ يدَهُ إليهِ ، فلم يعترضْ من رِفقائِه أحَدٌ عليه ، لأنهُ أرضاهم بالكلام ، واعتذر عما يتطرَّقُ إليهِ مِنْ مَلاَم ، فأوثقَهُ وِثاقاً مُحْكَما ، وتركهُ مُغْرَما .

ثمَّ مكثَ ساعة ، وهو على الخلاعة ، مع الجماعة ، وغامز الجنديَّ والشريف ، على الفقيهِ الظريف . فقال : أيُّها العالِمُ الفقيه ، والفاضلُ النبيه ، أنت مُفْتى المسلمين ، وعالِمٌ بمنهاجِ الدين ، على فتواك مدارُ الإسلام ، وكلمتُك الفارقةُ بين الحلالِ والحرام ، بفتواك تُستباحُ الدِّماءُ والفروج ، فَمن أفتاكَ بالدخولِ في هذا الخروج ؟ أفتني ياعالِمَ الزمان ، محمد بنُ إدريس أفتاك بهذا أم النعمان ؟ أَمْ أحمدُ بنُ

---

[٥٧] قرآن كريم ، سورة الشورى : ٢٣ .

حنبل ؟ أَمْ مالك ، فَسَّحَ لَكَ بذلك ؟ وإلاّ فما بالُك ، تعوثُ وتعبثُ بما ليس لك ؟!
أما سمعتَ قولَ مُعِزِّ العلماءِ وَمُجلِّها ، ومُذِلِّ الجهلاءِ لجهلها ﴿يا أَيُّها الذينَ آمنوا لا تَدْخُلُوا بيوتاً غيرَ بيُوتِكم حتى تَسْتَأْنِسوا وَتُسَلِّموا على أَهْلِها﴾[٥٨] وإذا ارتكبَ مثلُك هذا المحظور ، وتعاطَى العلماءُ والمُفْتُون[٥٩] أقبحَ الأمور ، فلا عَتَبَ على الأجنادِ والأشراف ، ولا على الجهلاءِ الأجلاف ، ثم مَدّ يدَهُ إلى جلابيبِهِ ، وأوثقهُ بتلابيبِهِ ، فأحكمهُ وثاقا ، وآلمهُ رباقا[٦٠] ، فاستنجدَ بصاحبيْهِ ، إلى جانبيْهِ ، فما أنجداهُ ، ولا رفداهُ[٦١] .

ثمَّ جلس يُلاهِي ، الجنديَّ الساهى ، وغامزه على الشريف ، ذي النسبِ الظريف . ثم قال : أيُّها السيِّدُ الأصيلُ النجيب ، الجيدُ الحسيب ، لا تعتبْ على كلامي ، ولا تستثقلْ ملامي ، أمَّا الأميرُ فإنَّهُ رجلٌ كبير ، ذو قدرٍ خطير ، له الجميلةُ التامَّة ، والفضيلةُ اللامَّة ، وأنتَ ياذا النسبِ الطاهر ، والأصلِ الباهر ، والفضلِ الزاهر ، سلفُك الطيب أَذِنَ لى ، في الدخول إلى ما لا يحلُّ لك ؟ أم جَدُّك الرسولُ أفتاك باستباحةِ الأموال ؟ أم زوجُ البتولِ أنباك أنَّ أموالَنا لآلِ البيْتِ حلال ؟ وإذا كنتَ ياطاهرَ الأسلافِ لا تتبع سُنَّةَ آبائِك الأشراف ، من الزهدِ والعفاف ، فلا عَتَبَ على الأوباشِ والأطراف ! ثمَّ وثب إليهِ ، وكتَّف يَدَيْه ، ولم يعطفْ الجنديُّ عليهِ ، ولم يبقَ إلاَّ الجنديُّ وهو وحيد ، فانتصفَ منهُ البستانيُّ كما يريد ، وأوثقهُ رباطا ، وزاد لنفسهِ احتياطا . ثم أَوْجَعَهُمْ ضَرْبا ، وأشبعهم لَعْناً وسبا ، وجمع عليهم الجيران

---

[٥٨] قرآن كريم ، سورة النور : ٢٧ .
[٥٩] جمع مفتى ، وهو مَنْ يتصدّى للفتوى بين الناس .
[٦٠] ربطه بالربق أو الحبل ربطا شديداً مؤلما .
[٦١] رفد : دعم وأعان .

واستعان بالجلاوزة[٦٢] وأصحابِ الديوان ،وحملَهم برباطِهم ، وعَمْلَتهم تحتَ آباطهم إلى بابِ الوالي ، وأخذ منهم ثمنَ ما أخذوهُ من رخيصٍ وغالي .

وانَّما أوردتُ ماجرى ، لتعلموا أيُّها الوزرا ، أنَّ التفخيذَ بين الأعداء بالتأخيذ ، أمْرٌ من السهامِ في تنفيذِ الأحكام وأحكامِ التنفيذ ، وهذا قبل تعاطي أسبابِ البَيْلَسَة ، وفتحِ أبوابِ الوسوسة ، فإنَّهُ يقال ، في الأمثالِ "عقدةٌ تَنْحَلُّ باللسان" لا يؤخّرُ حلُّها إلى الأسنان ، ونعْمَ ما أرشد ، مَنْ أنشد .

فكَمْ عقدةٍ أغنى اللسانُ بحلِّها تراختْ وقد أعيتْ نواجذَ أسنان

ثم قال العفريتُ للوزيرِ الرابع : ماترى في هذا الأمرِ الواقع ؟ فقال : حيث تردَّد الأمرُ بين آراءٍ مختلفة ، وأقوال متفاوتةٍ غيرِ مؤتلفة ، وأُقيم على كُلِّ قيل ، برهانٌ ودليل ، فتعدَّد النقل ، وتبلَّد العقل ، وعميَتْ وجوهُ الترجيح ، ودُرِسَتْ طرقُ التصحيح ، فلا يمكنُ القولُ بأحدِها ، ولا الميلُ إلى مفردِها ، فإنَّ ذلك ترجيحٌ بلا مُرَجِّح ، وتصحيحٌ بلا مُصحِّح ، فربَّما يُتصوَّرُ الشيءُ خيراً ، وتكون عقباهُ شراً ، ويتوهم شراً ، فتظهر قصاراهُ خيراً . وقد قال مُنَزِّلُ الفرقان ، على أشرفِ جنسِ الإنسان ﴿وَعَسَى أَنْ تكرهُوا شيئا وهو خَيْرٌ لكُمْ ، وعسى أنْ تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم﴾[٦٣] وكَمْ من قضيَّةٍ يتصوَّرها الفكرُ صوابا ، وينهلُ عمَّا تتضمَّنهُ من خطإٍ مآبا ، وكذلك النَفْس ، تتصوَّرُ شيئاً بصفةٍ وهو بالعكسْ ، ولذلك شاهدٌ من وقائع الحسّ ، فليس على ذلك معوَّل ، وشاهدهُ قضيَّةُ المضيفِ مع ولدِهِ الأحْوَل . فقال العفريتُ ، وكيف ذلك أيها الخرِّيت[٦٤] ؟

---

[٦٢] رجال الشرط أو الشرطة . المفرد جلواز .

[٦٣] قرآن كريم ، سورة البقرة ، آية : ٢١٦ .

[٦٤] الدليل الحاذق بالدلالة والماهر فيها .

[٣/٤] قصة المضيف مع ولده الأحول

قال الوزير : أخبرني شخصٌ فاضل ، أنّهُ كان رجلٌ كامل ، كريمُ الشمائل ، محبوبُ الخصائل ، مرغوبُ الفضائل ، غزيرُ الثراء ، يحبُّ الفقراء ، عَذْبُ الموارد ، مترصِدٌ للصادر والوارد ، لا يسألُ الضيف ، مِنْ أيْنَ ولا كَيْف ، وهو كما قيل "للضيفِ والسيف" ورحلةِ الرجالِ في الشتاء والصيف . فنزل في بعضِ الأيّامِ ضيفٌ من أصحابهِ الكرام ، فزاد في إكرامه ، وأحضر ما طاب من طعامِه . فلما رفع السماط ، ووضع لِلْبَسْطِ بساط ، قال لضيفهِ الصديق : عندنا قارورةٌ من الشرابِ العتيق ، كنتُ أذخرتُه لِنَزْلِك ، وأعددتُه لمثلك ، وما عندي سواها ، فإنْ رأيتَ أحَضرناها ، وتعاطيْنا الراح ، لطلبِ الانشراح ، فإنها مادةُ الأفراح ، كما قيل :

وما بقيتْ من اللذّاتِ إلا   أحاديثُ الكِرامِ على المدَام

فسمع الضيفُ مقالَه ، وتحمّلَ جميلتَه ودعا له ، وأجاب سؤالَه . فأشار المضيفُ المفضَّل ، إلى ولدِه الأحول ، فقال : اذهبْ إلى المقصورَة ، فإنَّ هناك قارورَة ، وإياك أنْ تنكسر ، فإنَّ صَدْعَ الزجاجِ لا ينجبر ، وما بنا ضَيْرُها ، ولكن ما عندنا غيره . فتوجَّه إلى ذلك المكان ، فتراءى لهُ قارورتان ، فرجع من وقتهِ ونادى لمقته : أيُّها الأبُ المفيد ، هناك قارورتان فأيُّهما تريد ، فخجلَ من ضيفِه وغضب ، لئلا ينسبَ إلى اللؤمِ والكذب . فقال لابنهِ يا ابنَ البظرا ، اكسرْ إحداهما وهاتِ الأخرى ، فأخذ العصا وضرب أحدَ ما كان تراءى للبصر ، فلم يكنْ غيرُ وعاءٍ واحدٍ وقد انكسر ، فخرج إلى أبيه ، وهو من الفكرِ في تيه ، وقال امتثلتُ ما أمرت ، وأخذتُ العصا وضربت ، فانكسرت إحدى القارورتين ، ولا أدري الأُخرى ذهبت إلى أين . فقال : يابُنَيَّ إنَّ الخطأ منك وإليك ، والخطأ في ذلك كان من نظر عينيك .

وإنما أوردت هذا المقول ، لتعلمِ أيها الغولُ المهول ، أن أقوى طرفِ العلـمِ العين ، وإذا حصل في إدراكِها الخللُ والشَّين ، تراءى الصدقُ بصورةِ المَيْن ، والشيءُ الواحدُ بشكلِ اثنيْن ، وهذا أمرٌ محسوس ، لا تنكرُه النفوس ، فكيف ترى تكون ، عينُ الفكرِ المصون ، وهي بأنواعِ الحجبِ محجوبة ، وبتخيُّلاتِ الوهمِ وقضاياهُ مشوبة ، ومرآتُها إنما هي المعاني ، دونَ المحسوسةِ المشاهدة المباني . فعلى هذا ينبغي التأمُّلُ في عُقْبى هذه الحوادث ، والتدبُّرُ في قصارى هذه الأمورِ الكوارث ، ثمَّ الأخـذُ في تعاطيهـا ، والشروعُ في أسبابِ تلافيها ، إنما يكونُ بعد إمعانِ الأنظار ، وإنعامِ التدبُّر والأفكار . ثم اعلمْ أيها الرئيس ، الداهي النفيس ، شيخَ المكر والتلبيس[٦٥] ، والبيلسة[٦٦] والتدليس[٦٧] ، أن الله القديم ، القادرَ الحكيم ، لم يَخْلِقْ في الموجودات ، ولم يُوجِدْ في المخلوقات ، أعزَّ جوهراً من الإنسان ، فإنهُ فضَّلهُ على جنسيْ المَلَكِ[٦٨] والجان ، واختصَّهُ بتدقيقِ النظر ، وعميقِ الفكر ، وسرعةِ الإدراك ، فهو مع عدمِ الحراك ، يحكمُ وهو ساكنٌ على ماتحت الثرى وفوق الأفلاك ، وشملَهُ بعوائدِهِ ، وعوّدَه بفوائدِهِ ، ولطف به في مصادرِه ومواردِه ، فهو أرحمُ بهِ من والدتِه المشفقةِ ووالدِه ، ووكل بحفْظه الكرامَ الكاتبين ، وملائكتَهُ المقربين ، وربَّاه في حجر نعمتِه ، على موائدِ لطفِهِ وكرمِهِ ورحمتِهِ ، كما تُربي الوالدةُ الشفيقة ، والظِّئْرُ[٦٩] الرقيقةُ الرفيقة ، وألهمهُم العلمَ الغزير ، والقدرَ الخطير ، والرأيَ والتدبير ، وأطلعهم على غامضِ الأسرار ، ودقائقِ الأفكار ، وأنَّ علمَنا بالنسبة إلى علمِهِم ، وحلمَنا في القياس إلى

---

[٦٥] التلبيس اختلاط الأمر والتباسه حتى لاتعرف حقيقته .

[٦٦] اشتباه الأمر الى حد السكوت والحيرة وانقطاع الحجة إضلالا وتضليلا .

[٦٧] التدليس : المكر والخديعة والظلم والخيانة .

[٦٨] الملائكة .

[٦٩] المرضعة لغير ولدها .

ثباتِهم وحلمِهم ، كنسبةِ علمِ الفــلاّحِ المغـتر ، إلى علـمِ الطبيـبِ المعـبر[٧٠] ، بحسـنِ النظر . قال العفريت ، أخبرني بذلك ياشيخَ المصاليت[٧١] .

[٤/٤] قصة الفلاح الذى ادّعى الطبابة وتعبير الرؤيا

قال الوزير : أخبرني شيخٌ كبير ، أنّهُ رأى في منامه "فلاّح" كأنّـهُ خـرج مـن بطنـهِ مفتاح ، فلمَّا أصبح الصباح ، جاء إلى رجلٍ من أهلِ الصلاح ، يُعَبِّرُ المنامات ، وكـان ذا كرامات ، فقصَّ عليهِ رؤياه ، وطلب منهُ تعبير[٧٢] مارآه . فقال لهُ : يارئيس ، هذا منامٌ نفيس ، لا أذكرُ ما فيهِ من تعبير ، إلاَّ بدينارٍ كبـير ، فحصـل لـهُ بشـارة ، فناولـهُ ديناره . فقال : يولدُ لك ولدٌ ذكر ، يكون سبباً للفتـوحِ والظفـر . وكـان لـهُ زوجـةٌ حامل ، بقي لها أيامٌ قلائل ، فولدت أيمنَ غلام ، بعدَ ثلاثةِ أيّـام ، فاستبشـر الفـلاح ، بالظفرِ والنجاح . ثمَّ بعد مُدَّة ، حصل للفلاحِ شدَّة ، من مرضٍ آلمهُ وأصـاب قدمَـهُ ، فجاء إلى مُعَبِّر المنام ، وشـكا إليـهِ الآلام ، وقـال : ألمـي في قدمـي ، ضـاعف هَمِّـي ، وأضعف هِمَمِي . فقال لهُ الطبيب : لا بأسَ ياحبيب ، هذا داءٌ هيِّن ، وعلاجهُ بيِّـن ، أعطني ديناراً ثانيا ، أصفْ لك دواءً مشافيا ، فأعطاهُ ما اشتهى ، واسـتوصفهُ الـدوا . فقال ضمدهُ بعُجَّةِ بيض كثيرةِ الأبزار[٧٣] ، وَضَعْ عليه عسلاً مسخَّناً على النار ، ففعل ذلك فَبرِئَتْ قدمُه ، وزال بالكليّة ألمهُ .

ففكر الفلاَّحُ في فعلِ المعبِّر الطبيب ، وقولِهِ المصيب ، وأمرِهِ العجيب ، فإنّـهُ بـأدنى عبـارةٍ عـبَّر المنـام ، وبـأوهى إشـارةٍ أزال الآلام . فـرأى الراحـة ، في تـرك الفلاحـة ،

---

[٧٠] المعبِّر : الذى يفسر الأحلام .

[٧١] الجنّ الشديد القوى النشيط .

[٧٢] التعبير : تفسير الأحلام .

[٧٣] الأبزار : التوابل .

والاشتغال بعلمِ الطبِّ والتعبير ، فإنّهُ أمرٌ هيِّنٌ يسير ، وبأدنى أمرٍ حقير ، يحصلُ المالُ الكثير ، فباع آلاتِ الزراعة ، وعزم على تعاطي ما في الطب والتعبير من صناعة ، وجمع كتباً ودفاتر ، وكراريسَ مخرَّمةً مناثر ، ووسَّع أكمامَه ، ووضع على رأسِهِ عمامةً كغمامة ، وجَمَعَ عقاقيرَ وأوراق ، وبسط بسطَهُ في بعض الأسواق ، وأشار على لسانِ مُخْبِرٍ(٧٤) ، أنَّ المكان الفلاني فيهِ طبيبٌ معبِّر ، وهو أستاذُ الزمان ، وعلامةُ الأوان ، وتلامذتُه في الطبِّ حكماءُ اليونان ، وفي التعبير ابنُ سيرين وكرمان ، وتصدَّر كأبي زيدٍ وساسان ، عاملاً بما قالهُ شيخُ البيان ، وهو

الطبُّ أهونُ علمٍ يُستفادُ فَطِرْ	بين الأنامِ به طَيْرَ الزنابير
واجمعْ لذاك كراريسا منثَّرةً	وجملةً من حشيشٍ من عقاقير
وَضَعْ على الرأسِ بقياراً تُدَوِّرهُ	كقبَّةِ النَّسْرِ في وزنِ القناطير
واجمعْ مَعَاجينَ مِنْ رُبٍّ تخلِّطها	واسحقْ سفوفا وإكحال العواوير
وَسَمِّ ما شئْتَ من أسماء مغربةٍ	كالسند والهند والسرحا وخنفور
وقُلْ من الهند جا هذا ، ومن عدنٍ	هذا ، وهذا أتى من مُلْك فغفور
وذا من البحرِ ؛ بحر الصين معدنهُ	وذا من البربر المدعو ببربور
فإن رأيتَ بالاستسقاء ذا ورمٍ	فقُلْ تَوَرَّمَ من لَسْعِ الزنابير
إنْ اقشعرَّ فَقُلْ بردٌ عراهُ وإن	يحمُّ قُلْ جَرُّهُ وَهَجُ التنانير
وإنْ أتاكَ مريضٌ لا تخفْ وأَشِرْ	بما ترى من دواءٍ دونهُ البوري
فإنْ يعشْ قُلْ دوائي كان منعشهُ	وإنْ يمتْ قُلْ أتاهُ حُكْمُ مقدور
كذلك الرملُ والتنجيمُ خُذْهُ على	هذا المثال وخُضْ في علمِ تعبير
فإنْ أصبتَ فقُل عِلْمي ومعرفتي	وفي التخالفِ قُل ضِدّ المقادير
وإنْ رأيتَ فقيهاً فِرَّ منهُ ولا	تنطقْ يُخَطِّئك في فسقٍ وتكفير
وأنتَ تحتاجُ في هذا وذاك إلى	ذوقٍ ومعرفةٍ مَع حُسْنَ تدبير

---

(٧٤) مُعْلِن ، يقوم بالدعاية له والإعلان عنه .

فاتفق أَنَّ زمامَ[٧٥] خليفةِ الأنام ، رأى في المنام ، شيئاً هالهُ ، وغيَّر حالَـهُ ، فحصـل لهُ في رأسهِ صداع ، وفي فؤادِهِ أوجاع ، فسمع بهـذا الربعِ[٧٦] الجديـد ، وأنَّـهُ أستاذٌ مفيد ، فأَرسل إليهِ ، وعرض ما رآهُ عليه . فقال : هذا منام ، يدل على خيرٍ وإنعـام ، وبقـاءِ ذكرِ الزمام ، على الدهرِ والأعوام ، ولكن لا أُعـبرُ هـذه الأحـلام ، إلاّ بدينـارٍ تمام ، فناولهُ دينارا ، وأظهر لذلك استبشارا ، فقال لهُ : يولدُ لـك غـلام ، بعـد ثلاثـةِ أيـام . فضحـك الزمـام ، مـن هـذا الكـلام ، وقـال : يـا إمـام ، أنـا رئيـسُ الخـدَّام ، طواشي[٧٧] ، بلا شي ، لا زوجةَ ولا سرية ، ولا آلـةَ ولا شـهية ، فمـن أيـن لي هـذه السعادة ، ولا فرحتُ بحسن الحسنى فـأنَّى تحصـل هـذه الزيـادة ، فَـلاَ تَسْـخرْ مـني ، وَكُـفَّ كلامَك عني ، وأخبرْني بتعبيرِ هـذا المنـام ، ودعْ عنـك المـلام . فقـال : حقّـا أَقول ، وأنا جرَّبتُ هذا المقول ، وقد عبَّرتُ هذا التعبير ، وَلاَ يُنْبئك مثلُ خبير . فقـال الزمام : ياأخي دَعْ هذا المقام ، فإنَّ وجودَ الولدِ مني محال ، وأنا رجلٌ بي وجع ، ومـا بقي فيَّ منتجع . فقال : وماذا تشكو ، وألمك في أيِّ مكـانٍ هـو ؟ فقـال : في فـؤادي أوجاع ، وفي رأسي صداع . فقال : يازينَ مَنْ فاخر ، أَعطِني ديناراً آخر ، أَصف لك أَيسرَ دواء ، يحصلُ لك منهُ العافيـةُ والشـفاء ، فدفـع إليـهِ الدينـار ، وطلـب منـهُ دواء الدُّوار ، وما بفؤادِهِ مـن ألم ، أَورثـهُ الوَهَـجُ والضَّـرم . فقـال يـا أبـا الفيـض ، ضَمِّـدْ رحلَـك بعجَّـةِ بَيْـض ، مضافـاً إليهـا عسـلٌ مشـتار ، وليكـن ذلـك مسـخَّناً بالنـار ، فاستشاط الطواشيُّ غضبا ، وفَاَر كالنار شُوَاظاً[٧٨] ولهبا ، وعرف أَنَّـهُ جـاهل ، وعـن

---

[٧٥] زمام القوم : قائدهم ومقدمهم وصاحب الأمر فيهم .

[٧٦] الطبيب القريب من منزله (طبيب الحيّ) .

[٧٧] الطواشي : الخصيّ .

[٧٨] الشواظ : اللهب لا دخان له .

طرقِ العلمِ غافل ، فأدَّبهُ التأديبَ البالغ ، وردَّهُ إلى ما كان عليهِ من منادمةِ السالغ[٧٩] واستمرَّ على كلاحتهِ ، بعد رجوعِهِ إلى فلاحتِهِ .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، يا غولَ الأغوال ، لتعلمَ أننا إذا اشتغلنا بمناظرتهم ، اشتغلنا في محاورتهم ، لأنَّهُ في دقيقِ الأسرار ، وعميقِ الأفكار ، وتحقيقِ الأنظار ، لا يقاومُ أحدٌ جنسَ الإنسان ، فكيف يستطيعُ الجان ، معارضةَ مَنْ أيَّدَهُ اللهُ تعالى برفيعِ المعاني وبديعِ البيان ، فإذا قابلناهم في المباحثِ بالمعارضة ، تعود مَسْئلتنا علينا بالمناقضة . فلمَّا رأى العفريت ، خَوَرَ[٨٠] ذلك الصفريت[٨١] ، وأنَّهُ نكل[٨٢] عن المقاومة ، ونكص[٨٣] عن المصادمة ، خاف أنْ تكونَ آراءُ الوزراءِ تبعاً لرأيه في عدمِ لقائهِ ، وظنَّهم مستحسنين لدهائهِ ، مستصْوِبين لآرائِه ، فأرخى عنانَ الكلام ، ليقفَ على ما عندهم من مَرام ، وكان عزمُهُ المباحثة ، والمعابثة والمباعثة ، والتصدِّي للإقدام ، وإلقاء المسائِل بحضرةِ الخاصِّ والعام ، لكن مشى معه[٨٤] أمَامَ الوزراءِ ليرى ما هُمْ عليهِ من الآراء . فقال للوزير : نعم ما قلْتَ أيها الوزير ، والرأي ما أشرتَ من الرأيِ والتدبير ، فإنَّ اللهَ تعالى خلقنا من النار ، وطبعُها الإهلاكُ والدَّمار ، وإحراقُ كلِّ رطبٍ ويابسٍ وباردٍ وحار ، والظلمُ والخسار ، والإفناءُ والجهل والبوار ، وطلبُ الرفعةِ وعدمُ القرار ، وإفسادُ ما تجدُهُ من غَيْرِ فَرْقٍ بين نفَّاعٍ وضرَّار ، وخَلَقَهم من تراب ، وإليه الإياب ، وطبعهُ الحلمُ والسكون ، والترابيَّةُ والركون ، والعلمُ والعدل ،

---

[٧٩] الأبرص والقارح .

[٨٠] الخور : الضعف والانكسار .

[٨١] الصفريت : الجن القوى النشيط الشديد .

[٨٢] نكل عن الأمر : جَبُن ونكص .

[٨٣] نكص عن الأمر : أحجم عنه ، ورجع عما كان قد اعتزمه .

[٨٤] مشى معه : تظاهر شيخ العفاريت بالموافقة على رأى الوزير الثالث ، أمام سائر الوزراء ، وسايره في قوله ، حتى يقف على نواياهم جميعا وحقيقة مواقفهم دون مجاملة أو نفاق .

والإحسانُ والفضل . ومع هذا فلو خرجوا عن مادَّةِ ما جُبلوا عليهِ ، وتلبسوا بغيرِ ما نُدبوا إليهِ ، ولو أدنى الخروج ، وراعوا ما للمارج[٨٥] من مروج ، لتحكّمنا فيهم كما نختار ، ولَلَعبنا بهم كما يلعب بالكرة الصّغار ، ونحن إذا خرجنا عن دائرةِ طبعنا ، وتخالفتْ أوصافُ أصلِنا وفرعِنا ، ونقلنا إلى دائرةِ الخيرِ عن جادَّة الشرِّ أقدامَ صنعنا ، لا يقعُ لنا منهم صيد ، ولا يؤثّرُ لنا فيهم سيفُ كَيْد . فإذا عجزنا عن الإيذاءِ في الظاهر ، لم يبقَ إلاّ الإغواءُ مِن باطنِ الضمائر ، والتعلّقُ بأسبابِ ما نصلُ اليهِ من الحيَلِ البواطنِ والظواهر . فقد قال الحكماءُ وأهلُ التجارب ، ومَنْ ابتُلى من مكايدِ الدهرِ بالنوائب ، ومُني من ذلك بالعجائبِ والغرائب : إذا تصدَّى الإنسانُ وقصدَ غريمه ، وعجز عن مقاومتِه في الحكومةِ والخصومة ، فعليهِ بهدمِ ذلك الجبل ، بمغناطيس الخداعِ ومعاويلِ الحيل ، ويستعينُ في ذلك بأهلِ النجدة ، وذوي البطشِ الشديدِ والشدَّة ، فيتوصَّلُ بهم إلى حسمِ ذلك الداء ، ولو كانوا أعداءً غيرَ أوِدَّاء ، فتسليطُ بعضِ الأعداءِ على بعض ، من أيمنِ سنَّةٍ بلْ من أحسنِ فَرْض ، ولقد أحسنَ مَنْ قال :

تفرَّقت غنمي يوماً فقلتُ لها ... يارَبُّ سَلِّطْ عليها الذئبَ والضَّبُعا

ولا يوجدُ في هذا الباب ، لجمعِ شملِ الأعداءِ أوثقُ من تفريقِ الأحباب ، ومصداقُه قولُه تعالى ﴿لَوْ خَرَجُوا فيكُم ما زَادُوكُمْ إلاّ خَبَالاً﴾[٨٦] وما قويتْ أعضادُ الإسلامِ إلا باجتماعِ كلمةِ الأنصارِ والالتئام ، ولهذا قصدَ مَنْ نافقوا ، لما ترافقَ الأنصارُ وتوافقوا ، أنْ يتشاققوا ويتفارقوا ، فأنزل عليهم ﴿وَاعْتَصِمُوا بحَبْلِ اللهِ جميعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾[٨٧] وهذا الفنُّ يحتاجُ إلى فكرٍ عميق ، ومكرٍ دقيق ، وعقلٍ كبير ، وفعلٍ كثير ، ومصيبِ

---

[٨٥] المارج : الشعلة الساطعة ذات اللهب الشديد .

[٨٦] قرآن كريم ، سورة التوبة : ٤٧ .

[٨٧] قرآن كريم ، سورة آل عمران : ١٠٣ .

رأي وتدبير ، وسلوكٍ في طريق اصطناع ، كما فعلت الفأرة من الخداع . فقال الوزير : ينعمُ مولانا الباقعة[٨٨] ، بتحقيقِ هذه الواقعة .

[٥/٤] حكاية الفأرة والأفعوان

فقال سمعتُ أنَّ بعضَ التجَّار ، كان لهُ بستانٌ في دار ، وإلى جانبهِ حاصل[٨٩] ، فيهِ المَغْلُ[٩٠] المتواصل ، وفي ذلك الحاصلِ وكرٌ لشاطر ، من شطارِ الفار[٩١] لهُ عِدَّةُ منافذ ، وإلى الجهاتِ طرقٌ ومآخذ ، أحدها إلى جهةِ البستان ، والبستانُ كأنهُ جَنّةُ رضوان ، فكانت الفارة ، ذاتُ الشطارةِ والمهارة ، تَأْخُذُ من الغلاّت ، وأطايبِ الطعامات ، ما يكفيها غداءً وعشاء ، صيفاً وشتاء ، وفي وقتِ المصيف ، تخرجُ من ذلك المنزلِ اللطيف ، إلى جهةِ البستان ، فتتمشَّى بين الغدران ، وتترقّى إلى أعلى الأغصان ، وتتمرَّغُ في المروجِ والرياض ، وتتبختَرُ في ظلالِ الدّوْحِ والغياض[٩٢] ، ثمَّ تعودُ إلى وكرِها ، وتأرز[٩٣] إلى حجرِها ، وكان عَيْشُها هَنِيّا ، وأمرُها رضيّا ، ومضى على ذلك دهرُها ، وانقضى في أرغدِ عَيْشٍ أمرُها . ففي بعضِ الأحيان ، خرجت على العادةِ للتنزهُ في البستان ، فَمَرّ بِسَكنها أُفعوان ، فرأى مكاناً مكينا ، وسكناً حصينا ، بالأطعمةِ محفوفا ، وبطيبِ الأغذيةِ مكنوفا ، فدخلهُ واستوطنه ، وترك ما سواهُ من الأمكنة .

---

[٨٨] الباقعة : الداهية ، ورجل باقعة : ذو حيلة ودهاء وحذر .

[٨٩] الحاصل : المخزن .

[٩٠] المغل : ألبان الإبل والشياه .

[٩١] الفار : اسم جنس الفيران أو الفئران .. وسيرد بهذا اللفظ طيلة الحكاية .

[٩٢] الغياض جمع غيضة ، وهي الأجمة أو الموضع الذى يكثر فيه الشجر ويلتف .

[٩٣] تأرز : تلجأ .

فلما رجعت الفـأرةُ إلى مكانِها المـألوف ، وجـدتْ بـهِ العـدوَّ الظـالمَ العسـوف ، فأَحاط بها من الأمرِ المخوف ، ما يحصلُ من الذئبِ إذا عانقَ الخروف . فأسرعتْ إلى أُمِّها ، وشكت إليها نوائبَ غَمِّها ، وما دَهِمَها من نـوازلِ همّهـا . فقـالت أُمُّهـا : لا شكَّ أنَّكِ ظلمْتِ أَحدا ، أو وضعْتِ على ما ليس لك يـدا ، أو تعديْـتِ الحـدود ، أو عاملْتِ مُغْرَمـاً بـالصدود ، فجوزيـتِ بـإخراجكِ مـن وطنِـك ، وإبعـادِكِ عـن مقـرِّكِ وسكنكِ ، ومَن ظلم ضعيفاً عاجزا ، سلّط الله عليهِ قويًّا لاكـزا[٩٤] . وقـد رأيـتُ يـا أُنْسي ، في حديثٍ قدسي "اشتد غضبي على مَنْ ظَلَمَ مَنْ لا يجـدُ لـهُ نـاصراً غـيري" . فلا تُطيلي الكلام ، ولا تتصوري أنّكِ ترجعين إلى ما لـكِ مـن مقـام ، ولا طاقـةَ لـكِ على مقاومةِ الثعبان ، فَدَعِي تعبَ الخاطرِ واطلبي لكِ مأوىً غيْرَ هذا المكان .

فتوجَّهتْ إلى مَلِكِ الفارِ والجرْذان ، وشكتْ ما بها مِنْ ذلك الشـيطان ، وقـالت : أنا في خدمتِك ، ومعدودةٌ من رعيَّتك ، عمري على ذلك مضي ، وزماني في إخلاصِ العبوديةِ انقضى ، وأبي كان في خدمةِ أبيك ، وجَدِّي عبدُ جَدِّكَ وذويك ، لم نـزلْ في رقِّ الطاعة ، متمسكين بحبلِ سُنَّةِ الولاءِ مع الجماعة ، كلُّ ذلك لأمرٍ يَدْهَم ، أو نازلةٍ تقدم ، فنستدفعُ ذلكَ الخطبَ بخطابكم ، ونستكفي هولَ ذلك النازلِ بجنابكم . والآن لقد وقعتْ حادثة ، بالبابِ عابثة ، وبالأفكارِ عائثة ، ولـلأرواحِ كارثـة ، وذلـك أنـي خرجتُ من مسكني لطلبِ قُوتي ، ثمَّ رجعتُ إلى مبيتى ، فوجدتُ ظالماً قـد استحوذ عليه ، وغاصباً قـد دخـل إليـهِ ، وهـو ثعبـان ، مـا لي بـهِ يـدان ، وقـد ترامـيتُ علـى جنابك ، أستدفعُ هذا البلاءَ بك . فقال مَلِكُ الفار : ياسائبةَ الأشـفار[٩٥] ، مَـنْ تَـرَكَ مالَهُ سائبا ، فقد جعلهُ ذاهبا ، وقال ذوو الاعتبار ، وأُولو الأبصـار ، ينبغـي بـلْ يجـبُ

---

[٩٤] لكزه : ضربه بجُمْع كفه فى صدره ضربات قاضية .

[٩٥] الأشفار جمع شفير ، وهى الحرف أو الجانب أو الناحية .. وهى هنا للدلالة على أنه لاضابط لها ولا رابط .

على الدزدار[٩٦] ، وحافظِ القلعةِ والحصار ، أنْ تكـونَ رحلَـةُ ذاتَ عـرجٍ وانكسـار ، لئلا يكونَ دينارُ وجودِهِ خارجَ الدار ، وأنتِ أيّتها الفارة ، فرطتِ في أمركِ والمفـرِّطُ أولى بالخسارة ، وقد خاب منكِ المسعى ، لأنهم قـالوا "أظلـمُ مِنْ أفعـى" ومِنْ ظُلْـمِ الأفْعوان ، أنّهُ لا يَكِدُّ نفسَهُ في حفرِ مكان ، وتهيئةِ مبانٍ ومغان ، ولكنّهُ حيث وَجَـدَ مَسْكنا ، اتخذهُ لنفسِهِ مقاماً ووطنا ، وهذا قد عرف مكانكِ النزه ، وهو جبّارٌ شـره ، فلا يزايلُهُ[٩٧] ولا يقابلُه ، ومِنْ أين يلتقي مثلَ هذا المأوى ، وفي المَثـل "عَـرَفَ الكلْـبُ بَيْتَ العميا" . فالأوْلَى أنْ ترتادي للكِ موضعا ، فتتخذيهِ مقاماً ومرتعا .

فقـالـت الفـارة ، وقـد تـأثرتْ لهـذه العبـارة : يـا أيُّهـا السـلطان ، ومَلِـكَ الفـارِ والجرذان ، فما فائدةُ خدمتي وانقيادِ أبي ، وطاعةِ جَدّي الكبيرِ الأبـيّ ؟ وإذا كنتُـم في الدنيا لا تنفعوننـا ، وفي الآخـرة لا تشـفعون لنـا ، ولا تدفعـون في الأُولى ، صدمـات الدواهي والبلا ، ولا تحمون الأوِدّاء[٩٨] ، عن مواطىءِ أقدامِ الأعداء ، ولا تدفعـون في الأُخرى ، نوائبَ الطامّةِ الكبرى ، ولا تحلونا بمالكم من الاستيلاءِ غـرف الدرجـاتِ العلى ، فأيُّ فائدةٍ لكم علينا ؟ ونعمةٍ منكم تُسدى إلينا ؟ وهل أنتم إلاّ كمـا قيـل ؟ في الأقاويل :

إذا لم يكُن لي منك عزٌّ ولا غنى ولا عندما يغتالني الدهْـر موئلُ
فكـلُّ التـفـاتٍ لي إليـك تكرُّمُ وكلُّ سـلامٍ لي عليـك تفضلُ

فقال ملكُ الفار : ياقليةَ الاستبصار ، العديمـةَ العقـلِ والافتكـار ، إذا اجتهدنـا في ردِّكِ إلى مكانكِ ، وكنّا على الثعبانِ كجندكِ وأعوانِك ، فهل تَشْـكّين ، يامسـكينةُ وبنـتَ مسكين ، في أنّ الأفعى تتوجّـهُ إلى سـلطانِها ، وتخبِرُهُ بشـأنِها ، وأنّهـا أُخرِجَـتْ مـن

---

[٩٦] الدزدار : الجندى أو الحارس المسلح ، وهى كلمة فارسية معناها : حاكم الحصن .

[٩٧] لا يزايله : لا يفارقه .

[٩٨] الأوداء : الأصدقاء والأولياء .

مكانها ، وتستنصرُ بأعوانهِ ، وتنتصرُ على سلطاننا بقوَّةِ سلطانهِ ، وتستجيشُ ، وتستغيثُ ، وتُغري علينا ذلك الخبيث ، كما فعل الرافضيُّ العادي ، العلقميُّ البغدادي ، حين دعا التتارَ الطَّغَام[٩٩] لخرابِ مدينةِ السلام[١٠٠] ، ومن بعده الذميمَ نابذةَ الإمام ، وقصد دمارَ ديارِ الشام ، ولا طاقةَ لنا بعساكرِ الحيّات ، ونحن في أحيائِهم كعساكرِ الأموات ، فتذهب الأموالُ والأرواح ، وتتعب القلوبُ والأشباح ، ومع هذا الأمرِ المعلوم ، حصولُ القصدِ والظفرِ موهوم ، فبا لله اتركيني واذهبي ، واطلبي لك مسكناً غيرَهُ ولا تتعبي . فقالت : هذا منزلي القديم ، وميراثي عن سلفي الكريم ، وأين أذهب ، وفيمَنْ أرغب ، إنْ لم تغثْني هلكتُ ، واندهلتُ وانسلبت . فقال : لا تطيلي القول ، فلا قوةَ لنا ولا حَوْل .

فلما أيستْ الفارةُ المكّارَةُ الغدارة ، تركتْ سلطانَها وذهبت ، وسلكت طريقَها وانقلبت ، وأنشدت ، فأُرشدت :

أبِعَيْنِ مُفتقرٍ إليك نظرتَني ... فحقرتني وقذفتني من حالق

لستَ الملومَ أنا الملومُ لأنّني ... أنزلتُ آمالي بغيرِ الخالقِ

ثم غاصتْ في بحرِ الفكر ، وتشبَّثت بأذيالِ المكر ، واستعرضتْ على مرآةِ أفكارِها وَجُوهَ الحيَل ، واستورتْ من زنادِ[١٠١] آرائها شَرَرَ النظرِ في الجدل ، وأخذتْ تطوفُ في أكنافِ البستان ، فعثرتْ في طوافِها على ذلك الأفعوان ، نائماً تحتَ وردة ، متطوقاً في أهنأ رقْدة ، فرقيتْ غُصناً من الأغصان ، فلاحَ لها الباغيان[١٠٢] قد سَقَى البستان ، وهو تعبان ، متكئاً في الرياضِ على مسكبةِ ريحان ، فاغتنمتْ الفرصةَ

---

[٩٩] الطغام : أراذل الناس وأوغادهم .

[١٠٠] كان ذلك سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م .

[١٠١] يقال : ورى الزند أى أخرج ناره ، وأوقدها .

[١٠٢] الباغيان : البستانى .

ونزلتْ إليهِ ، وَقَرُبَتْ منهُ ودارت حواليهِ ، ثمَّ وثبتْ على وجههِ ، وكان نائما ، فانتهضَ مرعوباً قائما ، فذهبتْ واختفتْ ، وبذا القدرِ اكتفت ، فرجعَ ونام ، وغرقَ في المنام ؛ فدخلتْ في قميصِهِ ورقصت ، فاستيقظ متعجباً منزعجاً فرآها فهربتْ ونكصت . ثمَّ عاد واتكا[103] ، بعدما غضب وانتكى[104] ، فوثبتْ على وَجْههِ ، وأدخلت ذَنَبَها في أنفهِ ، فنهض مستيقظاً مجدا ، فرآها واقفةً لا تتعدَّى ، فقصدَها فهربتْ ، ثم رجع فآبتْ وأتتْ ، فنام في مسندِه ، فَقَرُبَتْ منهُ وعضّتهُ في يده ، فأنكتْهُ وآلمتْهُ ، وأوهجتْه بما أضْرَمَتْهُ ، فَطَفَرَ من مرقدِه ، وأخذ عصناً بيدِهِ ، وقصدها ، وقد ذاقَ نكدَها ، فهربت غيرَ بعيد ، فرأى وجهَها من حديد ، فتبعها فمشت ، ثمَّ وقفتْ وارتعشت ، تُطْمِعُهُ في صيدِها ، وهو غافلٌ عن كَيْدِها ، فتبعها وهي قائدة ، حتى انتهتْ به إلى الحيَّةِ الراقدة ، فعندما رأى الثعبان ، نسي أفعالَ بِنْتِ الجرذان ، فقتلَ تلك الأفعى ، و لم يَخِبْ للفأرة مسعى .

وإنَّما أوردتُ هذه الحكاية ، لتقفوا منها على طريق النكاية ، وليعلمَ الضعيفُ إذا كان لهُ أعدا ، كيف يوقعُهم في مصائدِ الرَّدى ، واذا استعمل اللبيب ، العقلَ المصيب ، والفكرَ النجيب ، وساعدَه فى ذلك قضاءٌ وقدر ، نال مىا أمل ، وَأمِنَ ما حَذر ، وأفلح أمرُه ، ونجح فكرُه ، وهذا إذا كان الضعيفُ مظلوما ، والقويُّ ظالماً غشوما ، كما أنتم عليه ، مما توجهتم إليه ، من معاداةِ شيخِ الشام[105] ، المستحقُّ للتبجيلِ والإكرام ، والتعظيمِ والاحترام ، فإنّه على الحقِّ وأنتم ظالمون ، وقاصدُ الصدق وأنتم كاذبون ، يريدون "أن يطفئوا نورَ ا الله بأفواهِم وا اللهُ مُتِمٌّ نورَه ولو كره الكافرون" فهذا أمرٌ مشكل ، وداءٌ معضل ، فأنّى تَصِحُّ أبدانُكم ، وقلوبُكم مرضى ،

---

[103] مخفف : اتكأ .

[104] انتكى : هزم غضبه .

[105] بطل هذا الباب الحكائى الذى يسعى العفريت ملك الجن أو غول الأغوال للقضاء عليه .

ومَنْ يحبُّكم وأنتم محسوبون من البغضا ، وكيف تُقْتَفُون وأنتم على الباطل ، وفى أيّ ذوقٍ يَحْلَي ما منكم من عاطل ، وأنا أخاف - أيْ أجلاف - أنْ تُسْفِرَ هذه القضايا ، بعد ارتكابِ البلايا ، وتحمل المشاقّ والتعب ، بإقتحامِ مواردِ الهلاكِ والنصب ، عما هو أشدُّ وأنكى ، وأحرُّ لعينكم وأبكى ، كما أصاب مضيفُ العراق ، من زوجتِه زبيدةَ ذاتِ النطاق ، حين بدا منها الزنبور ، على حافّةِ التّنُّور[١٠٦] فقال الوزيرُ للعفريتِ : أفدْنا هذا الصوتَ يا ذا الصيْت .

[٦/٤] قصة زبيدة ذات النطاق

قال نزل فى بعضِ الرُّسْتَاق[١٠٧] ، من بلادِ العراق ، فقيرٌ نحيف ، على مسكينٍ ضعيف ، وكان بعضَ أيامِ الخريف ، والبردُ الشديد ، يقطعُ الحديد ، بعدما طبخوا وتعشوا ، سَجَروا النار ليتدفوا ، فبقي كلٌّ من الحضور ، يتدفأ على جانبِ التنور ، فقعد الضيفُ مقابلَ زوجةِ المضيف ، فظهر من تحتِ نطاقِها وَجْهُ ذلك الحِرّ الظريف ، ولاح من تحت السجيف[١٠٨] كأنه قرصٌ أو رغيف ، أو قَنْدٌ[١٠٩] عسليٌّ نظيف ، أو خَدٌّ جندي نتيف ، أو القمرُ شُقَّ نصفين ، أو بدرٌ لاح من تحت ذيل حنين ، فلما أحسَّ بحرارةِ النار وظهر على وجهه الاحمرار ، صار يتلمَّظُ ويتحلّى ، ولسانُه من الحر والدفء تَدَلّى ، فَلَمِحَهُ الضيفُ وهو يتثاءب ، فتمطّى قائمُ رمحِه ونحوَه قام وتصاوَب ، وقد قيل فى الأقاويل : عُضْوان متعاونان وهما اليدان ، وعُضوان مختلفان وهما الرجلان ، وعُضوان متتابعان وهما العينان ، وعُضوان متصاحبان وهما اليد

---

[١٠٦] التنور : الفرن يُخبَزُ فيه .

[١٠٧] الرستاق أو الرزداق ، معرب عن الفارسية ، ومعناه القرية أو محلة العسكر أو البلد التجاري .

[١٠٨] السجاف : الستر ، والسجيف : حواشى أو أطراف الثوب .

[١٠٩] القند : عسل قصبِ السكر إذا جَمُد .

والفم ، وعُضوان متباغضان وهما الإست والأنف ، وعضوان متوافقان وهما العين والأير ، وكان الضيفُ يسارِقُه النظر ، ويترشّفُ شِفاهَه بلسانِ الفكر ، ويَوَدُّ فى مطالعةِ جبينِه لو أَتْبَعَ العَيْنَ بالأثر ، وجعل يتغنّى ويترنّم ويهيمُ بما يتكلم :

ليس فى العاشقين اقنعُ مِنّى   أنا أَرْضَى بنظرةٍ من بعيد

فتنبه أمام هواءِ الهاجد ، وجعل يقوم يوقع وهو راكعٌ ساجد ، وسلّم على محرابه أحسنَ التحيات ، ويتشهّدُ رافعاً أصبعَه بالسلامِ والصلوات ، ثم غلبتْه الحيْرة ، فأخذ يجلدِ عميْرة[110] ، فنظر صاحبُ البيت ، فرأى الضيفَ غارقا فى ذيْت وذيت ، مشغولا بكيْت وكيت[111] متأمّلا معنى هذا البيت :

وعند الملتقى انكشف المغطى   ... ...[112]

فأراد أن ينبه ربَّةَ البيدار على هذا العثار ، لتستَر حالها ، وتغطى ما لها بطريقةٍ لا يؤبه إليها ، ولا يقفُ ضيفُها عليها ، فمدَّ يَدَهُ إلى سفود ، وحرّك به النارَ ذاتَ الوقود ، فعلق من النارِ فى الطرف ، وما شعر بذلك أحدٌ وما عرف ، ثم لعب ساعةً بذلك العود ، وأوصل فى خِفْيَةٍ طرفَه إلى ذلك الشقّ المعهود ، لتتيقظَ فتتحقّظ فَشَوَّطَها وأَحَرّها ، وأحرقَ رأسَ السفودِ بَظْرَها ، فالْتأمتْ وانضبطَت ، واحترقتْ واختبطت ، وتحركتْ بزعجةٍ فضرطت ، فزادتْ فضيحةُ العينِ فضيحةَ الأنفِ والأذن ، ولم يحصلْ من تلك الحركةِ إلاّ الخجالةُ والغبن .

---

[110] الاستمناء باليد ، إثر رؤيته لصاحبة البيت أو ربّة البيدار - أى سيدة الحسن والجمال - كما سيجئ وشيكا فى المتن .

[111] كناية عن الواقعة او الأحدوثة التى كان الضيف مشغولا بها ، ذلك أن عبارة ذيت وذيت كناية عن الأخبار والأقوال ، وعبارة كيت وكيت كناية عن الأحوال والأفعال .

[112] حذف عجز البيت لكونه خادشا لحياء بعض القراء .

وإنما أوردت هذه الحكايات ، لتتأملوا في الغاياتِ والنهايات ، فإنّ مَنْ لا يراقب ما يأتي في العواقب ، ما الدهرُ له بصاحب . وهذا الرجلُ الصالح ، القيِّمُ الراجح ، ما فاق أقرانَه ، وسادَ أصحابَه وإخوانَه ، غلا بشيءٍ تقدّم به عليهم ، وتحقّق موجبُ تقدّمه لديهم ، وذلك درجاتُ العلمِ والعمل ، فبذاك ساد الرجلُ وكمل . وقال مُنَزِّلُ الآياتِ وخالقُ البريّات ﴿يَرْفَعِ اللهُ الذينَ آمنُوا منكُمْ والذين أُوتُوا العِلْمَ درجاتٍ﴾[113] وقد برع في أنواعِ العلوم ، واطلع على حقيقتِها من طريقَيْ المنطوقِ والمفهوم ، وأنتم عن طريقِه غافلون ، وعن حقيقةِ ما هو عليه ذاهلون . واعلموا أنّ طريقَة واحدةٌ وهي الحق ، وطرقُكم متعددةٌ وكلُّها فسق ، وأتباعُه على اتباعِه متحالفون ، وأنتم في طرائقِكم القِدَدِ[114] متخالفون . فقد قال الله تعالى في مُحْكَمِ تنزيله ﴿وَأَنّ هذا صِراطي مُستقيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تتّبِعوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بكُم عَنْ سبيلِه﴾[115] وقال بعضُ أهلِ الفضل ، وكلامُه في بيانِ الحقِّ فصل ، ما ناظرتُ ذا فنون إلا غلبتُه وما ناظرني ذو فنٍ إلا غلبني . وإنما أخشى إنْ ناظرتُ هذا الرجلَ الكاملَ الفاضل ، أنْ لا أحصلَ منه على طائل ، ويُظهرُ فَضْلُه قصوري ، فينهدمُ بنيانُ قصوري . فقال الوزراء ، بعد أن اتفقت الآراء ، كلمةً واحدة ، متفقةً متعاضده : نعمَ ما رأى مولانا الرئيس ، صاحبُ التدليس ، وإسنادُ التلبيس ، وأنْجَبَ أولادِ إبليس ، ونحن أيضا يا باقعة ، نخشى عاقبةَ هذه الواقعة . ولقد جرى مثلُ هذا المجرى ، بين بُزُرْجِمِهْرِ ومخدومِه كسرى ، في قضيةٍ فاق فيها الوزير ، مخدومَه الكبير ، فسأل العفريتُ وزراءه عن بيان ذلك الشان ، كيف كان ؟

---

[113] قرآن كريم ، سورة المجادلة : ١١ .

[114] القِدَد جمع قِدّة وهي الفرقة من الناس أو الجان تختلف آراء أفرادها اختلافا بيّنا .

[115] قرآن كريم ، سورة الأنعام : ١٥٣ .

[٤/٧] قصة الوزير بزرجمهر مع كسرى

فقالوا بلغنا أيّها الخنّاس ، الملقي الوسواس ، في صدور الناس ، أنَّ بُزُرْجِمِهْرَ الوزير ، كان ذا علمٍ غزير ، ورأيٍ وتدبير ، وبديهةِ جوابٍ تُفْحِمُ الكَلَدَّ والتفكير . وكان حكيمَ زمانهِ ، وعليمَ أوانهِ ، وممّن فاق في الفضلِ والحكمِ سائرَ أترابهِ وأقرانِه ، وكان مقرباً عند مخدومِه ، يزيدُ – في كل وقتٍ – في تكريمِهِ وتعظيمِه ، وتوقيرِهِ وتفخيمه ، ويصغي إلى نصائحِهِ ، ويعدّ قربَهُ من أعظمِ مناجحهِ ، ويصبرُ على كلامِهِ الصادع ، ووعظِهِ القارع ، ونصحِهِ الفادع[١١٦] ، لما فيه من الفوائدِ والمنافع ، والحِكَمِ والبدائع ، وقد قيل "مَنْ أحبَّك نَهاك ، ومَنْ أبغضك أغواك" فكان الوزيرُ يبادرُ قبلَ سائرِ الخَدَم ، في وظائفِ الخِدَم ، ويعجّلُ من الليلِ والظلم[١١٧] ، حتّى كأنهُ يوافقُ النجم ، أو يسابقهُ في الرجم[١١٨] ، ومع ذلك كلّ يوم ، يجد مخدومَهُ راقداً في النوم ، فيقرعُهُ بالغفلة ، وينقمُ عليهِ هذه الفعلة ، ويُعلنُ بالندا[١١٩] ، وينادي في الملا[١٢٠] ، فيقولُ أَفِقْ يامحجوب ، وتيقّظْ حتّى تظفرَ بالمطلوب ، فَمَنْ بَاكَرَ نجح ، ومَنْ غَلَس[١٢١] المطلوب أفلح ، ومَنْ تخلّف في النوم ، سبقهُ إلى المنزلِ القوم ، وفاته المطلوب ، ولا يدركُ المحبوب ، واتركْ لذّةَ الكرَى ، فعندَ الصباحِ يَحْمَدُ القومُ السُّرى[١٢٢] .

---

[١١٦] الفادع : المولم .

[١١٧] الظلم : الظلام ، أى أن الوزير كان يبادر إلى عمله ولما يظهر نور الصباح .

[١١٨] الرجم : الشهب وهى ما يظهر فى السماء كأنها نجوم تتساقط .

[١١٩] مخفف : النداء .

[١٢٠] مخفف : الملأ .

[١٢١] غلس : ظلمة آخر الليل إذا اختلطت بضوء الصباح .

[١٢٢] السرى : السير عامة الليل . والعبارة فى أصلها مَثَلٌ يضرب فى احتمال المشاق حتى تحمدَ العاقبة .

وكان كسرى يجدُ لهذا الكلامِ ، أنواعاً من الآلام ، لأنــهُ كـان يطيـلُ السـهر ، إلى وقت السَّحَر ، عاكفاً على المدام ، وسماعِ الأنغام ، ومغازلـةِ الغـزلان[١٢٣] ، ومعـاقرةِ الندمان ، وإحياءُ الليلِ عمرٌ ثان ، فإذا نـام واسـتراح ، امتـدَّ نومُـهُ إلى الصبـاح ، فـلا يوقظُهُ إلاَّ عياطُ[١٢٤] الوزير ، وصراخُ ذلك الصائحِ النذير . فلما طـال عليـهِ المطـال ، وغلب عليـهِ مـن ذلـك المـلال ، أرصــدَ للوزيـرِ في الطريـق ، مَن مَنَعَـهُ عـن التبكـيرِ بالتعويـق . فتصدَّى لهُ الرصْد ، وأعـروا رأسَـهُ والجسَـد ، وأخـذوا قماشَـه ، وسـلبوا رياشَه ، فرجع إلى بيتهِ مكرها ، ولبس ثياباً غيرَها . فأبطأ في ذلك اليـوم ، وتخلّـفَ في الخدمةِ عن القوم ، و لم يجئْ إلا وقد استيقظَ كسرى من النوم ، وهو جـالسٌ في صـدرِ الإيوان ، وحواليه مباشـرو[١٢٥] الديـوان ، وسـائرُ الـوزراء والأركـان ، وعامـةُ الجنـدِ والأعوان ، كـلٌّ في مقامِه ، ضـابطٌ زمامَـه ، فـأدَّى بُزُرْجمِهْـرُ وظـائفَ الخدمـةِ علـى عادتهِ ، ووقفَ في مكانِه مع جماعته . فقال كسرى : ما دعا مولانا الوزيـر ، في هـذا اليومِ المنير ، إلى التخلُّفِ والتأخير ، وتَرْكِ التبكـير ، وإنشـادهُ بالتبكـير ، قَـوْلَ الشـاعرِ الكبير :

بَكِّرا صاحبيَّ قبلَ الهجير إنَّ ذاك النجاحَ في التبكير

فقـال : إنَّ الحرامـي ، عـارضني أمـامي ، وقصدنـي في ظلامـي ، فـأخذ شاشـي ، وسلبني قماشي ورياشي ، فرجعتُ إلى كِناسي[١٢٦] ، وجدَّدتُ زينتي ولباسـي ، فهـذا سببُ تأخـيري ، وعـدمُ تبكـيري ، وموجـبُ تخلُّفـي عـن وعظـي وتذكـيري . فقـال كسرى : ما أفادك التذكير ، إلاَّ الغرامةَ في التبكير ، ولـولاه مـا سُلِب القمـاش ، ولا

---

[١٢٣] الغزلان : الحسان .

[١٢٤] عياط : صياح .

[١٢٥] مباشرو الديوان : كبار الموظفين الإداريين .

[١٢٦] الكِناس : بيت الظبي أو موئله الذى يستتر به فى الشجر ، والمقصود هنا بيت الوزير .

ذهبَ الرياش ، ولا قام الحرامي بالمعاش ، فأين الفَلاَحُ في القيامِ قبلَ الصباح ؟ فقال بزرجمهر في الحال ، وقد أصاب في الجواب : ليس ذلك كذلك يا إمامي ، وإنما بكّر قبلي الحرامي ، و لم أباكرْ أنا بالنسبة إليهِ ، فرجع فائدةُ تبكيرِه مني عليه . فعجبَ كسرى من خطابِه ، وسرعةِ بديهتِه فى جوابه .

وإنّما أوردتُ هذا القول ، بين يديْ إمامنا الغول ، وشيخِ المردةِ المهوال ، ليعلمَ أنَّ كسرى وإنْ كان عالما ، وفاضلاً وحاكما ، أذعن لكلامِ ، وزيرِه واتّبع رأيَ مُشيرِهِ ، وأنصفَ من نفسِه ، إذْ أدرك الوزيرُ بفهمِهِ ما لم يدركْهُ هو بحسِّه . فاسترسل معهم العفريتُ فيما هم عليه ، والتخلّفُ عمَّ ندبهم إليهِ . وقال : فبأيِّ الحبائِل نصيدُهم ، وبماذا نكيدُهم ؟ فقال أحدُ الوزراء : بالنساء فإنهنَّ زمَّارة المِحن ، وطبلُ الفتن ، والطبلُ لا يضرب تحتَ الكساء ، وهنَّ أعظمُ وسائلِنا ، وأحكمُ أوهاقِنا[١٢٧] وحبائلنا ، وناهيك ما قالَهُ العزيزُ العليمُ الذى جبلهن على غيرِ تقويم ، وَفَطَرَهُنّ على الكيد ، ﴿إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾[١٢٨] وجعل كيدَنا بالنسبة إلى كيدِهِنّ سخيفا ، فقال ﴿إنّ كيدَ الشيطانِ كانَ ضعيفا﴾[١٢٩] وقال سيدُ الساداتِ ورئيسُ الرؤساء "ما تركتُ بعدى فتنةً أضرَّ على الرجالِ من النساء" وقال الولي ، ومن قدره الرفيع علي :

إن النساءَ شياطينٌ خُلِقنْ لنا ... نعوذُ با للهِ منْ شَرِّ الشياطين

وقال من أجادَ فى المقال ، وشنّفَ المسامعَ بالأقوال ، حيث قال :

وما حزَّ أعناقَ الرجالِ سوى النّسا ... وأيُّ بلاء جاءَ لسنَ لهُ اهلا
فكم نارِ شرٍّ أحرقتْ كَبِدَ الورى ... ولم يكُ إلاّ مَكْرُهُنَّ لها أصلا

---

[١٢٧] أوهاقنا : واحدها ، وهق ، وهو الشَّرَك أو الفخّ ، والجمع أشراك وأفخاخ .

[١٢٨] قرآن كريم ،سورة يوسف : ٢٨ .

[١٢٩] قرآن كريم ، سورة النساء : ٧٦ .

وأنّهنَّ أشراكُ الأشراك ، وأوهاقُ الأزهاق ، وأسـواقُ الفسّـاق ، ومصـائدُ المصـائب ، ومراصدُ النوائبْ . وحَسْبُك يا ذا الدها ، مـأوى ذلـك الحكيـمِ حـين سـها ، وأذعـنَ لزوجةِ الرئيسِ إذْ نبَّهتْهُ على ما عنهُ لها[١٣٠] . فسال العفريتُ عن تلك الحالة ،وبيانِ ما فيها من المقالة .

[٨/٤] من حكايات كيد النساء

فقـال : ذُكر أنَّ حكيماً مـن العلمـاء ، وعالمـاً مـن الحكمـاء ، أُولـع بضبـطِ مكـرِ النسـاء ، وشرع في تدوينِهِ صباحاً ومساء ، وصار يجولُ البلدان ، ويطـالعُ ذلـك كـلَّ ديوان ، ويكتبُ ما يكونُ وما كان ، ويحـررُ مـن ذلـك الأوزان ، بالمكيـالِ والميزان ، فنزل في بعض الآنـاء[١٣١] ، علـى حـيٍ مـن الأحيـاء ، فصـادف ذلـك التعيسُ بِنْـتَ الرئيس ، فتلقَّتهُ امرأةٌ ظريفة ، ذاتُ شمائلَ لطيفة ، وحركاتٍ رشيقةٍ خفيفـة ، وقابلتْـهُ بالترحاب ، وفتحتْ للدخولِ الباب ، فأقبل عليها ، وترامى لديها ، فأنزلتـهُ في صـدرِ البيت ، وأخذت معهُ في كَيْتٍ وكيت ، كأنَّها معرفةٌ قديمة ، وحديثةٌ كريمـة ، وكـان زوجها غائبا ، قد قصد جانبا ، فشرعت في نُزُل[١٣٢] الضيـف ، لئـلاً تُنسـب إلى بخـلٍ وحَيْف . فأخذ يطالعُ في ديوانِـه ، ويسرّحُ سـوائمَ طرفِـهِ[١٣٣] في في ظـرفِ بسـتانه ، يشغلُ أوقاتِه ، ويتفكّر ما فاته ليتعاطي إثباته .

---

[١٣٠] لها يلهو بمعنى سها يسهو .

[١٣١] الآناء : ساعات الليل .

[١٣٢] نُزُل الضيف : ماهُيّيء له ياكل فيه وينام وبه يتحقق كرم الضيافة .

[١٣٣] نظرات عينيه .

فقالت ا[illegible] ريم[١٣٤] ، ما هذا الكتابُ العظيم ، أيها الفاضلُ الحكيم ؟ فقال : شيءٌ صنفتُه ، وكتابٌ ألّفتُه ، وهو في الغُرْبَةِ أنيسي ، وفي الوِحْدَةِ جليسي . فقالت : يا ذا الحكْمِ والحلم ، ما فيهِ من فنون العلْم ؟ فقال : سرٌّ مصون ، وأمرٌ مخزون ، ودرٌّ مكنون ، لا يجوزُ إبداؤه ، ولا يحلُّ إفشاؤه . فقالت : يا ذا الشكلِ الظريف ، والوصفِ اللطيف ، والعلمِ المنيف ، هذا التعريف ، لا يليقُ بالتصنيف ، فإنَّ فائدةَ التصنيفِ الاشتهار ، وثمرةَ العلمِ الانتشار ، ودونك ما قاله الكئيب ، فى مخاطبةِ الحبيب .

أذِقْنِي مِن رُضَابِكَ يا حبيبى   فَمَا للشّهدِ دونَ الذوقِ لَذّة

وما أخذ الله على الجهّالِ أن يَتعَلّمُوا ، حتى أخذَ على العلماء أن يُعَلِّموا . فقال : الأمرُ كذلك يازينَ الأمور ، ولكن هذا عِلْمٌ يُصانُ عن ربّاتِ الخدور . فقالت : إن الله الجليلَ الذات ، الجميلَ الصفات ، ذكر المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، وما منع نساءَ الأنصارِ الخيِّراتِ الأطهار ، أنْ يَسْألْنَ المصطفَى المختار ، عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام ، عن غُسْلِ المرأةِ فى الاحتلام ، ولا أنْ يلجْنَ معه المخاضة ، فى السؤالِ عن الحائضِ والمستحاضة . فجمَع فى ميدانِ الامتناع ، وأصرَّ على الممانعة والدفاع . وقال : ياحَصَان[١٣٥] ، هذا سرٌّ يصان ، لاسيما عمّن في دينهِ وعقلِهِ نقصان . فأغراها هذا المقال ، على الإلحاحِ في السؤال ، وزادتْ في اللجاج ، ومارت في الاحتجاج ، وترامتْ لديهِ ، وأقسمتْ بدلالةِ الدالِّ عليهِ .

فقال : هذا علمٌ لم أُسْبَقْ إليهِ ، جمعتُ فيهِ مَكْرَ النساء ، ومَنْ أجادَ منهنَّ ومَنْ أساء ، ومَنْ تعاطتْ لطائفَ الحيل ،وخفيَّ الفِعْلِ وخفيفَ العمل ، ومَنْ دعت بدعاها ، حتى بلغت مناها ، ومَنْ وقعتْ في الشدائد ، فاحتالت بدقيقِ فكرِها لتلكِ

---

[١٣٤] الريم : الظبى الخالص البياض ، وضرة الريم تعنى الزوجة البيضاء الفائقة الحسن والجمال .

[١٣٥] حصنت المرأة : عفّت وحصنت : تزوجت ، فهى حصان ، وهى أيضا محصنة أى عفيفة .

المكائد ، وتخلّصتْ من شَرَكِ المصائد . فلما سمعت ، ما قال وَوَعَتْ صَكّتْ وجهَها ، وأعربتْ تَقَهْقُها ، وتمايلتْ تمايلَ القضيب ، وقالت : سرٌّ غريب ، وأمرٌ عجيب ، وضيعةُ عمرٍ حاصل ، فيما لا تحتهُ طائل ، وشُغْلُ سِرٍّ وَبَال ، في جَمْعِ أمرٍ مُحال ، لقد ركبتَ المشاق ، وكلّفتَ نفسَك ما لا يُطاق ، ونسفْتَ الرملَ بالكربال[١٣٦] ، وغرفتَ البحرَ بالغربال ، ووزنتَ الطور[١٣٧] بالمثقال ، وتحملتَ الدلَّ بالأثقال ، فارجعْ عن هذا الغلط ، ولا تَرُمْ ذلك الشَّطَط ، فإنَّ مكرَ ربّاتِ الخدور ، لايدخلُ ضبطهُ بِسِفرٍ[١٣٨] تحتَ مقدور . فقال لها : أنتِ غبية ، وعن هذا الكلام غنية ، وإنْ كنتِ فاضلةً زكية ، أنا قد بلغتُ في ذلك الغاية ، وأحطتُ بهِ بدايةً ونهايةً ، ووقفتُ على مجملِهِ ومفصله ، فَلَمْ يَشُذَّ عني شيءٌ من آخرهِ وأوّلِه . فسلّمتْ وما تكلّمتْ ، وغالطَت وما بالطت[١٣٩] ، وسارتْ وما مارت[١٤٠] ، وفوَّضتْ إليهِ هذا التحقيق ، وسلكتْ معهُ غيرَ هذا الطريق ، حتى كأنَّ هذا الكلام ، في هذا المقام ، شيئاً فَرِيًّا ، ونسياً منسيا .

ثم نزلتْ من برجِ المنازلةِ ، وأخذتْ تلك الغزالةُ في المغازلة . وانتهى بها المقال ، إلى هذا السؤال ، فقالت : أيها اللبيبُ الماهر ، ما معنى قول الشاعر :

يُهَدِّدُني بالرمحِ ظبيٌ مُهَفْهَفٌ ... لعوبٌ بالبابِ البريّةِ عابثُ
ولو كان رُمْحاً واحداً لا تَّقَيْتُهُ ... ولكنه رمحٌ وثانٍ وثالثُ

---

[١٣٦] الكربال : مندف القطن .

[١٣٧] الطور : الجبل الضخم .

[١٣٨] السفر : الكتاب الكبير .

[١٣٩] ما بالطت : ما جادلت أو اجتهدت في دحض رأيه .

[١٤٠] ما مارت : ما أثارت نقاشا و وافقت .

فالرمحُ الواحدُ قامتُه والرمحُ الثانى ما حوتْه راحتُه ، وقُلْ لى يا أبا الحارث ، ماهو الرمحُ الثالث ؟ فقالَ ذلك النبيه : قبل ما يُظْهِرُ من تثنيه ، فإنْ هَزّ لينَ أعطافِه ، وسرعةَ انعطافِه ، تراه العينان ، كأنه رمحان . وقيل : ما يظهرُ من ذلك المهفهف ، عند هزِّه الرمحَ المثقف ، فإنه يتراءى للعين ، الشكل الواحد اثنين ، ولهذا نظير ، فى اليوم المطير . وأحسنُ مثال ، عند رَشْقِ النبال ، وفى تدويرِ المحجَنِ وفتلِ الصولجان ، عند سرعةِ الدوران ، وقيل : كان معه رمحان ، فعدَّه واحداً وهما اثنان ، وعندى يادميةَ القصر ، أنه ليس المرادُ الحصر ، وإنما المرادُ التكثير ، ياضُرَّةَ البدرِ المنير ، لأنَّ عِطفَه ، كلما انهز هزه ، حصلَ فى صدرِ المتيّمِ وَخْزَه ، ورمحُ قامتِه يتثنى ويتقصّف ، فتارةً يميلُ وأخرى يتثقف ، لطعنِ العشاقِ يخطرُ ويتهفهف ، فالمتيّمُ لا يبرحُ من قَدِّه فى طعنات ، كما لم يزلْ من سهامِ جَفْنِه فى محزّات و خزّات ، وهو من المجازِ المرسل ، إذ المرادُ الطعنُ من ذلك الأسَل . وكان قصدُه أن يَسْرُدَ الأعدادَ لا إلى غاية ، ويبلُغ بها إلى ما لا نهاية ، فيقول ثانٍ وثالثٌ ورابع ، وخامسٌ وسادسٌ وسابع ، فَلَمْ تَسَعْ القافية ، يا من هي بوصلِها شافية ، ورُضَابها عافية ، ونظيرُ هذا ياجرة ، أنْ تستغفر لهم سبعينَ مرة ، ولبس المرادُ الحصر ، يارقيقةَ الخصر ، وياعينَ العين ، فى السبعين ، حتى لو زاد على هذا العدد ، لَغَفَرَ لهم الواحدُ الصمد ، بل المرادُ أنه لا يغفرُ لهم ولو زاد . فقالت : ياصاحبَ البيانِ وربِّه ، إنما عنى بالرمح الواحد ......[١٤١] فأفصحتُ له بالكلام ، عما لها من مرام ، كأنها ثالثةُ بناتِ همام ، فَخَجلَتْ عينُ الرجل واستحت ، لِمَا أفصحتْ عن مقصودِها وأوضحَتْ . فقالت : حييت وحييت ، لا تَستَحِ واصنعْ ما شيت[١٤٢] ، فحرّكَتْ بهذا الكلامِ العابث ، من الشيخ الحكيمِ الرمحَ الثالث ، فَمَدَّ إليها يدَ الفاجرِ العائث ، وذهب لُبُّ ذلك الرجلِ الحازم ، وراودَها

---

[١٤١] لفظ خادش للحياة ، ويقصد به هنا العضو التناسلى للرجل .

[١٤٢] شيت : شئت .

مُراودةَ العازِم الجازم ، وصارتْ تلك اللاّعة[١٤٣] ، بين الإطماعِ والمناعة ، تتثنّى وتنقصّف ، فتارة تتقّف ، وأخرى تتخسّف . وبينما هما فى المجاذبة ، والمداعبة والمطايبة ، وهى تنزوى وتلين ، وتصعبُ وتستكين ، إذْ تراءى لها زوجُها من بعيد ، فقالت جاء زوجى وهو عنيفٌ عنيد ، فَسُلِبَ القرار ، وطَلَبَ الفرار ، ووقعَ ذلك الحكيمُ النبيه ، فى فتنةٍ فيها الحليمُ سفيه ، ودهمَه ما هو أهمّ مما هو فيه ، من دواهِى العشقِ ودواعيه ، ونسى العشقَ والعشيق ، وطلبَ الخلاصَ من المضيق ، وأظهرَ صورةَ حاله ، ما علاه الشاعر فى قاله :

سالت مجرّباً طباً عليما ... خبيراً بالوقائع مستعاذا

وقلتُ الشهدُ أحلى أم رُضاب ... أم .....[١٤٤] الذى للروح حاذى

فقال وحقِّ ربى النفسُ أوْلى ... إذا جَرُّ الجزَا هذا وهذا

واشتغلَ الحكيمُ بنفسه ، وخاف حُلُولَ رمسِه ، وكان فى طرفِ البيتِ صندوقٌ مقفل ، عليه سترٌ مُسْبَل ، ففتحتْ له الصندوق ، ورعتْ له – بإخفائه عن زوجها – الحقوق ، وأمرتْه بوُلوجه ، ليكفى من زوجها شرّ خروجه ، فشكر لها صُنْعَها وامتثل ، وانْسَلّ إلى ذلك اللّحْدِ الضيِّقِ ودخل ، فأقفلتْ عليه أغلاقَه ، وأحكمتْ وثاقه . ثم تلقتْ زوجَها بالترحاب ، ودخلتْ معه فى الأطعمةِ من كلِّ باب ، وقدمتْ له ما أكل ، وانسدحتْ له فركبَ وَوَكَلْ ، ثم قالت : أخبرُك ياحبيب ، بوقوعِ أمرٍ غريب ، وحادثٍ بديعٍ عجيب ، وهو أنه قَدِمَ حكيم ، فاضلٌ حليم ، عالمٌ عظيم ، فأكرمتُ نُزُلَه ، وبوّأتُ منزلَه ، وكان معه كتاب ، فيه العجبُ العجاب ، فسألتُه عما حوى ، فقال مكرُ النسا ، فقلتُ له هذا شىء لا يحصى ، ولا يحصر ، ولا يجمعُه ديوانٌ ولا دفتر ، فَلَمْ يُسلِّم إلىّ ، ولم يُعَوِّل علىّ ، وذكرَ أنه أنْهَاه ، ولم يدعْ

---

[١٤٣] اللاعة : المليحة من النساء ، البعيدة من الريبة ، وان كانت تطمع الاخرين فيها بحديثها ودلالها .

[١٤٤] لفظ خادش للحياء .

من مَكْرِ النسا فنًا إلاّ أَوْدَعَه إيّـاه ، فمـا وسـعنى إلى أنّـى غازلتـه ، وداعبتُـه وهازلتُـه ، فطمِعَ مِنْ لِينِ محاورتى ، فى حُسْنِ مزاورتى ، وطلبَ منى ذلك العَقُـوق ، مـاهو أعـزُّ من بيْضِ الأنوق[١٤٥] ، وبينا نحن فى العيش الرغيد ، وإذ بك أقبلتَ مـن بعيـد ، كـلُّ ذلك والحكيمُ يسـمعُ قولَهـا ، ومـا تُخبرُ بـه بَعْلَهـا ، فلمـا سمعَ الـزوجُ هـذا الكـلامَ اضطرب ، وزمجرَ واصطخـب ، وقـال : وأيـن هـذا الفاسـق ، الفـاجرُ المنـافق ؟ وا للهِ لأذيقنّه كأسَ التلف ، ولأُلحقنّه بِمَنْ سلف ، فلمْ يبقَ فى الحكيمِ مفصلٌ إلا ارتجـف . فقالت : ها هو فى الصندوقِ مختفى ، فَخُذْ ثأرَك منه واشتفى ، فنهضَ وصاح : هاتى المفتاح ، فعلم الحكيمُ أن عمرَه ذهب وراح .

وكان سبقَ مِنْ زمان ، بين الزوجيْن عَقْدُ رِهـان ، أنـه مَـنْ فَتَـحَ منهمـا الصنـدوقُ غَلَبْ ، وأقام لصاحبه بما طَلَب . فلما ذكرتْ له حكايةَ الحكيم ، تُذْعِنَـهُ عَقْـدَ الرَّهْـنِ القديم[١٤٦] ، وذُهِلَ لشدَّةِ الغَيْرة ، وَوُفور الحيْرة ، وتوجّه إلى الصندوق ، فبمجرّدِ مـا فتحَ القُفْلَ المغلوق ، صاحتْ عليه : غلبتُك يامعشـوق ، فَـأَدِّ مـا ثبـتَ لي عليـكَ مـن الحقُوق . فَتَذَكَّرَ عَقْدَ المراهنة ، ولم يَشُكّ أن كلامَها كان مُدَاهنة ، فضحِك بعـد مـا كان عبس ، وألقى المفتاحَ من يَدِهِ وجلس ،ولعنَها ومكرَهـا ، ولعبهـا وفكرَهـا ، ثـم اصطلحـا وانشـرحا ، وزاد نشـاطاً ومرحـا . ثـم خـرج فـى ضروراتـه ، وتوجـه إلى حاجاتـه ، فـأقبلت تلـك العـروس ، إلى الحكيـمِ المحبـوس ، وأفرجتْـه مـن الاعتقــال ، وذكرتْ له هذه المناقلةَ والانتقال ، وقالت : أيُّها الحكيـمُ العظيـم ، هـل كتبـتَ هـذه المناقلةَ في كتابِك الكريم ؟ فقال : لا وا للهِ الرحمنِ الرحيم ، وإني قد سـلمتُ إليـكِ ، وتبتُ إلى ا للهِ على يديكِ .

---

[١٤٥] الأنوق : العقاب أو الرَّخَمَة .

[١٤٦] تُلْزمه خسارة الرهان إذا فتح الصندوق .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، لأعرضَ على شيخِ السعالى وإمامِ الأغوال ، أن النساءَ في هذه الحركة ، أعظمُ متشبثٍ وأقوى شبكة ، وَهُنَّ لِسَلْبِ اللُّبِّ من الرجال ، أضعافُ فِتْنةِ المسيحِ الدجَّال ، خَلْقهنّ أَعْوَج ، وخُلُقُهن أَهْوَج ، وَرَأْيُهُنّ غيرُ سديد ، والرجالُ لهنَّ أذلُّ عبيد ، وإنْ كنَّ ناقصاتِ عقلٍ ودين ، فهنَّ كاملاتٌ في سلبِ العقلِ المتين ، والفكرِ الرزين ، وأَذْهَبَ لِلُبِّ الرجلِ الحازم ، والعقلِ السديدِ الجازم . وهل أخرج آدمَ من جنَّةِ المأوى ، إلاّ قصَّةٌ صدمتْهُ من قِبَل حوّا[١٤٧] وما قَتَلَ هَابيلَ قابيل[١٤٨] ، إلاّ بفتنةِ الزوجةِ كما قيل ، وكذلك قصة من أوتى الآيات فانسلخ منها ، وقد عرف كل ذلك إبداءً وإنها[١٤٩] . وغالب من عصى الله وأساء ، إنما كان سببُ كفرِهِ وإخزائهِ النساء . فلا تعترضوا على هذا الرأي المتين ، ولا تتعرَّضوا لهذا الرجلِ فإنَّهُ على الحقّ المبين ، ولا تقصدوا لمعارضتهِ وسؤالِه ، فربما يكون مجالُكم أضيقَ من مجالِه ، وإنّا لا نقدرُ على مناقشتِه ، ويظهر جهلنا وعجزنا عند مباحثتِه .

فقال سائرُ الوزراء[١٥٠] ، هذا الرأيُ أَصْوَبُ الآراء ، فإنّا إلى الآن ما بارزناهم بالمخاشنة ، وانّما كنا نأتيهم بالمخادعة والمحاسنة ، فنزيّن لهم الباطل ، ونحلّي لهم العاطل ، ونشوّه وجهَ الحق ، ونسوّد طلعةَ الصدق ، إلى أنْ ظهر هذا الرجلُ ونحن على ذلك ، فوقف في طريقِنا وأراهم الدربَ السالك ، وعلا شانهُ ، ووضح برهانهُ ، ونحن على ما نحن عليهِ من الإغواء ، وإلقائهم في مهاوي الأهواء ، والحربُ بيننا

---

[١٤٧] مخفف : حواء .

[١٤٨] قابيل أكبر أولاد آدم وحواء . نشب بينه وبين أخيه هابيل خلاف ، بسبب التنافس على الزواج من أجمل المرأتين الأختين ، كما تقول الأسطورة ، غير أن الكتب المقدسة تشير إلى أن قابيل قدم قربانا لله من ثمار زرعه ، و لم يقبل . فى حين قدم هابيل قربانا من الغنم ، فَقُبل . فحنق قابيل على أخيه وقتله ، واستحق لعنة الله (التكوين : ٤) وقد وردت القصة أيضا فى القرآن الكريم (سورة المائدة : ٢٧ - ٣١) .

[١٤٩] مخفف : إنهاء .

[١٥٠] وزراء الجنّ .

وبينهم سجال ، فَلَوْ كاشفناهم بسوءِ الفعال ، انكشف لهم زَيَـفُ نقدنـا ، وبطـل مـا كنا نسوّلهُ بجهدنا ، فإذا ظهر الحقُّ مـن البـاطل ، وتميَّزَ الحـالي مـن العـاطل ، أخـذوا حذرَهم ، وضبطوا أمرَهم ، وداروا بالعداوة ، ومروا بالملوحة بعد الحلاوة ، ثم ظَفُرُنـا بهم موهوم ، ونَصْرُنا عليهـم غيرُ معلوم ، فمـا نظفرُ إلاّ بالندامـة ، ونرضـى إذْ ذاك بغنيمةِ السلامة ، ويستمرُ هذا العارُ علينا إلى يومِ القيامة ، وقد قيل :

لا تسعَ في الأمرِ حتّى تستعدَّ لهُ　　　سَعْيٌ بلاَ عُدَّةٍ قَـوْسٌ بلا وَتَـرِ

فعند ذلك استشاط العفريتُ غضبا ، وطار شراراً لهذا واشتعالاً ولهبا ، وقال : لقـد عظّمتم من شأنِ الإنسان ، وأَوْهَنْتم بل أهنتم جانبَ إخوانِكم الجان ، وضيعتم حقوقَ الإخوان ، وأبطلتُم حكايةَ السعالي والغيلان ، ونَسِيتُم فِتَنَ جَدِّكُمْ الأعلى الباقيـةَ علـى ممر الزمان ، ونحن أدقُّ حيلة ، وأجلُّ جماعةً وقبيلة ، وأوسعُ ذكـراً ، وأسـرعُ مكـراً ، وأقدمُ وجوداً ، وأعظمُ جنوداً ، وأغزرُ علمـا ، إدراكـاً وفهمـا ، ولا أرى لكـم هِمَّـةً صادقة ، ولا عزيمةً موافقة . وأنا ما قلتُ لكم ما تقدَّمَ مـن القـول ، إلاّ لأخْـبُرَ مـا في فرائضِ عِلْمِكم من الردِّ والقول ، فَلاَ أقوالُكم سـديدة ، ولا أفعـالُكم رشيدة ، ولقـد حلَّ لكم الصَّغار ، وسطا بكم من الإنس والصَّغار .

وأمَّا أنا فلا بدَّ لي من المباحثة ، والمناقشةِ والمنابثة ، والإلقـاءِ للمسـائل ، والأبحـاثِ في الرسائل ، من غيرِ وسائط ولا وسائل ، ليهلكَ مَنْ هَلَكَ عن بيّنة ، ويحيا مَنْ حَيِـيَ عن بيّنة . فاعلموا ذلك وتحققوهُ ، ثم أمعنوا النظرَ فيهِ ودَقِّقوهُ ، وهذا هو الرأيُ الـذى صممتُ عليهِ ، فَلْيتوجَّهْ كلٌّ منكم بقلبهِ وقالبهِ إليه ، ويقُلْ في ذلك غثّه وسمينه ، ويلْقِ هِجَانَ[١٥١] قوْلِهِ وهجينة ، ولا يدَّخرْ شيئاً من آرائهِ ، فلا بدَّ لي من إلقائـهِ . واعلمـوا أن الوليَّ الخرار ، الذى هو إلى جهةٍ جار ، لو اتفقـت الآراءُ علـى صـرفِ جريانِـه إلى

---

[١٥١] هجان القول : أجوده وأكرمه وأفضله .

جهةٍ أخرى ، وأنْ يسدَّ عن هذه الجهةِ المجرى ، فإنهم لو قصدوا ذلك من أسفل الوادى ، لسخر منهم الحاضر والبادى ، ولا يتهيأ لفاعله ما يتمناه ، حتى يسد طريق الماء من أعلاه ، وأنتم إنْ قصدتُم معالى الأمور ، وإهلاك رؤوسِ الجمهور ، ثم تعمدتُم الأراذل ، وتبدّلْتم الأكابرَ بالأوغادِ والأسافل ، فإنكم إذاً أغمار ، وقد ضيعتم في غيرِ حاصلٍ الأعمار ، وقد قيل :

إذا كُنْتَ لا بــُدَّ مستربـا   فَمِــنْ أعْظَمِ التَــلِّ فاسْتَتِرِبِ

وما اللُّجَيْنُ[١٥٢] كالرصاص ، والجروح قصاص ، ولا يكافأُ الرَّبيسُ إلاّ بالربيس[١٥٣] ، ولا يقابلُ النفيسُ بالخسيس ، وأيُّ فخرٍ للملوك ، إذا نازلوا السُّوقَةَ والصعلوكَ ، وقد قيل :

أَلَمْ تَـرَ أَنَّ السَــيفَ يَـزْرِي بِقَــدْرِه   إذا قُلْتَ هذا السيفُ أمْضَى مِنَ العصا

وما اكتفى صنداي‍دُ قريشٍ يومَ بدر ، بدون أكْفَائِهم[١٥٤] في النسبِ والقَدْر ، وماذا تفيدُ بَيْلَسَتُكم ، وتجدى شَيْطَنَتُكم ووسوستُكم ، وأنتم أولو الزعارة ، وذوو الشطارةِ والدعارة[١٥٥] إذَا قُهِرتُم من الإنس ، وعَلاَكُم أضعفُ جنس ، وهُمْ أقصرُ أعمارا ، ونحن أطولُ أطوارا ، لم نزلْ نصادمُ الجبال ، ونقتحمُ الأهوال ، ونظهرُ كما شئنا فى باب الخيال ، ومن قبل جَدُّنا اللعين ، جادلَ ربَّ العالمين ، فقال في حقِّ جَدِّهم ﴿أَنَا خَيْرٌ منهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نارٍ وَخَلَقْتَـهُ مِنْ طِينٍ﴾[١٥٦] وقال ﴿لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾[١٥٧]

---

(١٥٢) اللجين : الفضة .

(١٥٣) الربيس : الشجاع من الرجال ، ومن معانيها أيضا الكثير من المال وغيره . والكبش المملتىء لحما وشحما وهى العنقود الممتلىء كذلك .

(١٥٤) أكفاؤهم : نظراؤهم .

(١٥٥) الزعارة والدعارة والشطارة : ضروب من لصوصية الحيلة والخداع .

(١٥٦) قرآن كريم ، سورة الأعراف : ١٢ .

(١٥٧) قرآن كريم ، سورة الحِجْر : ٣٩ .

وقال ﴿ثُمَّ لآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِم وَمِنْ خَلْفِهِم وعَنْ أَيْمانهم وعَنْ شَمائِلِهم وَلا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شاكِرِين﴾[١٥٨] وهم يموتون ، وهو من الْمُنْظَرين[١٥٩] . على كلِّ حالٍ نحن أقوى منهم وأجرا[١٦٠] ، وأعرفُ بطريقِ الخبثِ والمكرِ وأدرى .

وبالجملةِ الحكمُ على الشيْءِ فَرْعٌ عن تصوّره ، والشخصُ لا يحكمُ على شيءٍ إلا بعد تصوّرِه وتقرّره . وهذا الإنسانُ ، إلى الآن ، لا سَبَرْنَاه ، ولا خبرناه ، ولا عَرَفناه ولا عُرِفناه ، فكيف تقطعون له بالغلبة ، وتفضلّون علينا مسيره ومنقلبه ، وإن لم تفصحوا بالعبارة ، فقد دللتم على ذلك بالإشارة ، وكنيتم عنه بالتلميح ، والكنايةُ أبلغُ من التصريح ، هذا ونحن كم قد أَضْلَلْنا من حكيم ، وأَذْلَلْنا من عليم ، وأَفْسَدْنا من عقائد ، وعَقَدْنا من فسائد ، ونَصَبْنا لهم مصايد ، وأَرْصَدْنا عليهم من مراصد ، وأَبْطَلْنا من طاعات ، وعَطَّلْنا من خيرات ، وأَخْلَلْنا من صلوات ، وأَحْبَطْنا من زكوات ، وَمَنَعْنا من حجّات وصدقات ، وضيعنا من ميراثٍ ونفقات ، وأسقطنا من أعمالٍ صالحات ، وكم لنا في الشرِّ من سوق ، ومن سوقٍ إلى فسوق ، وإلقاءٍ في حرام ، وتسربلٍ بمظالمَ وآثام ، وكم لنا من إحكَام أَحْكام ، على القضاةِ والحكام ، يستحلّون بها السُّحْتَ والحرام ، ويأكلون بها أموالَ الأيتام ، ويستبيحون بها الدماءَ والفروج ، وكم دخلنا فيهم فأخرجنا منهم الإسلامَ أخفى خروج ، وكم لنا فيهم من مصائبَ لعصائب ، وحواصبَ مناصب ، وكتائبَ توائب ، وعجائبَ نواهب ، وغرائبَ نوادب ، نَسْلُبُهم بها دينَهم ، ونَمْنَعُهم اعتقادَهم الحق ويقينَهم ، وكم لنا في سكونِهم إلى الطاعات من حركات ، وفي ركونهم إلى الخيرات من سقطات ، وكم لهم إلى الطاعاتِ من هِمَم ، فبرّدتْها وساوسُنا فحصل منها في أحشائهم الضرم ، وفي

---

[١٥٨] قرآن كريم ، سورة الأعراف : ١٧ .

[١٥٩] المنظرين : أي أمهله الله حتى يوم القيامة .

[١٦٠] مخفف : أجرأ .

وجودِ خيرِهم العدم ، وفى صحّةِ إيمانهم السقم ، وفى شبابِ صدقِهم الهرم ، وفى سكونِ أمانِهم الضرباتُ والألم ، وفى دائرةِ حلالِهم الحرامُ والحرم ، وكَمْ وكَمْ وكَمْ وكَمْ . ونحن الآن على ما كُنّا عليه ، وهو الذى طُبِعْنا عليه ، وندُبنا إليه ، دَأْبنا عن الحقِّ إضلالُهم ، وعن الصراطِ المستقيم إزلالهم[١٦١] ، وإلى الباطلِ دلالتُهم وإدلالُهم ، نُزَيِّنُ لملوكِهم الاجتراء ، ولكبرائِهم الافتراء ، ولرؤسائِهم الازدراء ، ولعلمائِهم المراء ، ولزهّادِهم الرياء ، ولتجّارِهم الرباء[١٦٢] ، ولأمرائهم سَفْكَ الدما ، ولنسائهم السلاطةَ والزنا ، ولخواصّهم الغيبةَ والنميمة ، ولعوامّهم الخوضَ فى كلِّ جريمة ، وللمشايخِ قولَ الزور ، ولنسائهم الوقاحةَ والفجور . وهذا دَأْبنا ودَأْبهم ، ولم تزلْ أَوْهَاقُنا[١٦٣] ورقابُهم ، فإنْ قلْنا نصلُ هذا الواصل ، فإنَّ هذا تحصيلُ الحاصل ، وإنْ قلنا نستأنفُ عملاً جديدا ، فإنا لم نتركْ فى ذلك ما يبقى مزيدا ، وقد بلغنا فى ذلك كلِّه الغاية ، وها نحن ملابسون منه ما ليس وراءه نهاية ، ولم يبقَ إلا المقابلةُ فى المقاتلة ، والمباشرةُ بالمكاثرة ، والمفاتحةُ فى المقابحة ، والمكالحة فى المناكحة[١٦٤] .

فلما سمع الوزراءُ هذا الكلام ، عرفوا أَنَّ أسبابَ دولتِهم آذنتْ بانصرام ، غيرَ أنهَّم لم يقدروا على المخالفة ، فما وَسِعَهم إلاّ المطاوعة والموالفة ، لئلا ينسبَهم إلى غرض ،

---

[١٦١] زلت قدمه : زلقت ، وزل فى منطقه ورأيه : أخطأ ، وزل عن مكانه تنحى عنه .

[١٦٢] الربا بمعناه المعروف .

[١٦٣] أوهاق جمع وهق وهو الحبل فى أحد طرفيه أنشوطة يطرح فى عنق الدابة والإنسان حتى يؤخذ .

[١٦٤] يعنى بهذه العبارات الخمسة الأخيرة : إعلان الجنّ الحرب على هذا الشيخ العابد بعد أن نجح (الجنّ) بكل السبل المشروعة وغير والمشروعة فى إضلال الإنسان وتضليله عامة . ولولا ظهور هذا الشيخ العابد الزاهد ، والعالم الفاضل بكل ما يمثله من قيم روحية إسلامية لاستمر سلطانهم على الإنس ومن ثم فلا بدّ من إعلان الحرب عليه ، ولا مناص من ضرورة الإيقاع به وهزيمته حتى ينفضّ المؤمنون والأتباع من حوله . ويستعيد الجن – بهزيمته – سيادتهم على الإنس ، ومن الجدير بالذكر أن الجنّ الكافر كان يظهر للبشر حتى ذلك الوقت ، ويشاركهم الحياة على الأرض ، وجهاً لوجه .

فيصيبهم منهُ عَرَضٌ أَو مَرَض ، فحسَّنوا لهُ رأيَ المصادمة ، ومباحثةَ العالِمِ والمقاومـة ، واتفقت الآراءُ أَنْ يُرْسِلوا للعالِمِ أَوَّلا ، وانتخبوا مَنْ يصلحُ أَنْ يكونَ مرسلا ، فيحمِّلُـهُ العفريتُ في الرسالة ، ما تتضمَّنهُ من الحماسة والبسالة ، حسـبما يـراهُ رأيُهُ التعيـس ، وفكرهُ المدبرُ الخسيس . وكان في شياطينهِ المردة ، وغيلانهِ العتاةِ العَنَدَة ، عفريـتٌ مـن الجنّ ، ماردٌ مِسنّ ، اسمهُ صن بن مصن ، قد أَضـلَّ عقـائد ، وأَزلَّ قواعـد ، وأشـربَ بُغْض بني آدم ، وغَمَّس طائفةً منهم في نارِ جهنَّم ، بعد مـا غَطَّسَهم مـن المعـاصي في يَمّ[١٦٥] ، لا يمنعهُ وجومٌ عن الهجوم ، ولا يخافُ الرجوم[١٦٦] من النجوم ،طالمـا أَطـال البوائق[١٦٧] في المغاربِ والمشارق ، وأَضرم نيرانَ الإفسادِ بين الخلائِق ، وملأَ مـا بـين الخافقيْن من مواقعِ الصواعق ، وفوَّح نتانةَ الوسـاوس ، وفسَّـاءَ الظَّربـان في المجـالس ، وانقضَّ للشرِّ والفتنِ على كلِّ قائمٍ وجالس ، فكم لهُ توفيقٍ بين الجَرَامَيْن ، وتفريقٍ بين الخلاَّين ، وسفـكِ دماءٍ بـين الأَخويْـن ، وإلقـاءِ البغْضَـة بـين المحبيْـن ، والعـداوةِ بـين الإلفيْن ، والعربدةِ بين السكارى ، والحروبِ بين المسلمين والنصارى . وبالجملةِ فقـد أُوتي من الوسوسة والتلبيس ، صنوفاً كثيرةً فاق بها على ذُرِّيَّة إبليس .

فانتدبه العفريتُ الملم ، إلى هـذا الأمـرِ المهـم ، وأمهـلاهُ[١٦٨] إلى أَنْ انسـلخَ إهـابُ الضو ، ثمَّ طـار في عنـانِ الجـو ، حتى وصـلا إلى سـفحِ الجبـل ، متعبـدِ ذلـك العـالِم البطل ، الذي ملأَ الدنيا بالعلمِ والعمل . ثمَّ كَمَن العفريتُ في مغارة ، وأرسل رسـولَهُ بالسفارة ، يقول : أَبلغْ عالِمَ الإِنْس ، صاحبَ الكرامات والأنـس ، ومقـربَ حظـيرةِ

---

[١٦٥] اليم : البحر .

[١٦٦] الشُّهب .

[١٦٧] البوائق : الشرور والدواهي ، جمع بائقة .

[١٦٨] ألف الاثنين هنا تشير إلى أن الفاعل اثنان هما شيخ العفاريت ، والعفريت الذى ندب نفسه لاستدعاء الرسـول (من العفاريت أيضا) .

القدس ، عن شيخ العفاريت ، الطغاةِ المصاليت ، أنّي من قديم الزمان ، وبعيدِ الحدَثان[١٦٩] ، أضللتُ كثيراً من الناس ، بالمكرِ والخداعِ والوسواس ، وفي أمثالي نزلت ﴿قُلْ أعوذُ بِرَبِّ النّاس﴾[١٧٠] وابنُ عَمّي هو الوَسْواسُ الخنّاس[١٧١] ، وكان من جنسِ بني آدم ، كذا كذا ألف عالم ، خدامي ومعي ، وجندي وتبعي ، منهم رؤوسُ الزهّاد ، وعلماءُ العباد ، وعلى محبتي مَضَوْا ، وباتباع أوامري قَضَوا . فأنا فتنةُ العالم ، وأعدى أعداءِ بني آدم ، الشيطانُ الرجيم ، وإبليسُ الذميم ، اسمُ ذاتي ، ووصفُ صفاتي . أنا مُقتَدَى الشياطين ، ورأسُ العفاريتِ المتمردين ، ومحلُّ غضبِ ربِّ العالمين ، خُلِقْتُ من مارجٍ من نار ، وطُبِعتُ على إلقاءِ البوَار والدَّمار ، رجومُ النجومِ إنما أُعدَّتْ لأجلي ، وعتاةُ الغُوَاةِ لا تصل رؤوسُها إلى مواطىءِ رجلي ، إلاّ من خطفَ الخَطْفَة ، فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ آيةَ منعتى ، وإن الشياطينَ لَيوحون إلى أوليائهم طرازَ خلعتى ، أأسجدُ لِمنْ خلَقْتَ طيناً مقامَ مقالى ، لأَحْتَنِكَنَّ[١٧٢] ذُرِّيَّتَهُ إلاّ قليلاً مجالَ جدالى ، لعنه الله . وقال : لأتخذَنّ من عبادِك نصيباً مفروضاً منشورى القديم ، يَعِدُهُم ويُمَنِّيهم وما يَعِدُهم الشيطانُ إلا غرُوراً مرسومى الكريم ، الشياطينُ تستمدُّ من زواخرِ مكري ، والأعورُ اللعين[١٧٣] يقتبسُ من ضمائرِ فكري ، لم تمرّ قضيَّةٌ في الزمانِ الغابر إلاّ ولي الشركةُ فيها ، ولاحدثتْ محنةٌ لنبي ولا ولي إلاّ وأنا مُتعاطيها ، حَدِّي إبليس ، نهض لجدِّي التعيس ، وإلى نحوِ آدم هوى ، فعصى ربَّهُ فغوى ، وأنا قضيتُ بالتسويل[١٧٤] ، حتى قَتَلَ قابيلُ

---

[١٦٩] تقلبات الدهر وحوادث الزمان .

[١٧٠] انظر : قرآن كريم ، سورة "الناس" ، الآيات : ١ - ٦ .

[١٧١] الوسواس الخناس : الشيطان .

[١٧٢] أحتنك الذريّة : استولى عليها واستمالها .

[١٧٣] المسيخ الدجال .

[١٧٤] سوّل له الشر : حبّبه إليه ، وسهّله عليه ، وأغراه به ، وغير ذلك من تسويلات الشيطان .

هـابيـل[١٧٥] ، وحلْـتُ[١٧٦] بقومِ نـوح ، عـن النصـوح ، وأرشـدتُ المجوس ، إلى عبـادةِ النار ووضعتُ الناقوس ، وأضللتُ عاداً وثمود ، وشداداً ونمرود ، وبعثتُ على عبادةِ الأصنام ، فى البيت الحـرام ، وعلـى كيفيـةِ إلقـاءِ إبراهيـم ، فـى نـارِ الجحيـم ، وهديْتُ قَوْمَ لوط ، إلى الخـوضِ في الثّلـوط[١٧٧] ، ومحـافرِ القلـوط ، وسوَّلتُ لأولاد يعقوب ،وحاولتُ في قضيَّةِ أيوب ، وتَصَدَّيْتُ لأمِّ اسمعيل ، وعارضتُ ابنَها وهـو مع الخليل ، وأنسيتُ يوشعَ قصةَ الحـوت ، وسـاعدتُ على صـاحبِ الحـوت ، جلستُ بالعصيان ، علـى تَخْتِ[١٧٨] سليمان ، وحضـرتُ وقعـة طـالوت ، وسـاعدت عليه جـالوت . وأنـا كنـتُ العـون ، لهامـانَ وفرعـون ، وبحُسْـنِ ضبطـى قَتَـلَ موسـى القِبْطـى[١٧٩] ، وأنـا فتنتُ داود ، وأغويـتُ قـارونَ اليهـود ، وسـلطتُهم علـى الوالـدةِ والمولـود ، ودللتُ على نشر زكـريا ، وذبـحِ يحيـى ، وَجَـرَّأْتُ علـى قتـلِ الأنبيـاء ، والأوليـاء ، وتوصَّلتُ بتزيين الوَسْواس ، لقاتلي الذين يأمـرونَ بالقسْطِ من النـاس ، ودعـوتُ إلى عبـادةِ العجـلِ قـومَ موسـى ، وسـاعـدتُ في التفريـقِ والإضـلالِ بين أمَّـةِ عيسى ، وكـم أغويتُ من رهبـان ، بما زخرفـتُ مـن صلبـان ، وقد بلغني من جميع مسترقي السمعِ وطنٌّ على أذنـي ، ووعـاهُ خـاطـري ووقـر في ذهني ، وأنـا أشـارفُ التخـوم وأسـارقُ النجـوم ، وأسـابقُ الرجـوم : أنَّ لي أسمـاء ، تُـذكـرُ في السـماء ، منها الغليظُ الرقبة ، وشيخُ نجدٍ وأزبُّ العقبـة[١٨٠] ، والمقيـمُ فـى

---

[١٧٥] انظر الهامش رقم ١٤٨ فى هذا الباب .

[١٧٦] حلت : وقفت حائلا دون إيمان قوم نوح به .

[١٧٧] الثّلوط : الغائط غير المتماسك كناية عن رذيلة أو خطيئة اللواط .

[١٧٨] عرش سليمان وقد جلس عليه إبليس عندما تشبه بسليمان . إبان محنته ﷺ .

[١٧٩] القبطى : المصرى .

[١٨٠] أزب العقبة أو العقبات بمعنى خصب العقبات ، دائم العوائق ، متواصل التعويق ، كناية عن وقف الحال وسدّ السبيل وصدّه .

الدَّسْت[١٨١] البيضه ، والغويُّ على انقض عهدِ بني قريظه ، والمحرضُ على أُحُدٍ وبدْر ، من الصناديد كلَّ جليلِ القدر ، والمشهورَ فى أُحُدٍ بالندا ، والملقى العربَ بالردةِ إلى الرَّدَى ، وأنا المتسببُ في قتلِ عمرَ وعثمان ، وإهلاكِ عليٍّ أميرِ الشجعان ، والغويُّ في وَقْعَتَيْ الجملِ وصفّين ، والملقى الفتنَ بين جنودِ المسلمين ، وإن شرِّى سَرَى إلى يزيدَ وفاضَ للحجّاجِ والوليد ، وبي تكثرُ البدع ، بين الجماعاتِ والجمع ، ويظهرُ من الفتنِ ما بطن ، ويغلبُ من التتار ، وأهلِ البوار والخسار ، أنواعُ الشرورِ والجدال ، إلى حين يظهرُ الدجّال ، وتستمرُ إليَّ هذه الأمور ، إلى يومِ البعثِ والنشور .

وبالجملةِ والتفصيل ، أنا شيخُ التكفيرِ والتضليل ، وتلك صنعتي من الابتداء ، وحرفتي إلى الانتهاء . ثم إنَّك نَبَعْتَ في هذا الزمان ، وظهرت في هذا المكان ، تريد أنْ تهدمَ ما بَنَيْتُهُ ، وتعوجَ بصلاحِك ما بفسادي سوَّيْتُهُ ، وتردَّ كلامي ، وتعاكسني في مرامي ، وأنا كنتُ في قديمِ الزمان ، من قبل أن توجدَ أنتَ في هذا المكان ، ناديتُ بالشرِّ بين بنيهِ ، وشهرت في ذويه ، قولي :

كلُوا واشربُوا وازْنوا ولُوطوا وقامِروا ... وَهَيَّا اسرقُوا سرًّا وخُوضوا الدِّما جَهْرا

ولا تتركوا شيئاً من الفِسْقِ مُهْمَلا ... مصيرُكم عندى إلى الجنّةِ الحمرا

وكانوا قد سمعوا وأجابوا ، وأطاعوا وأنابوا ، وشملي بهم منتظم ، وأمري بتفريقِ كلمتِهم ملتئم ، وأسهمُ مرامي المشئومة ، نافذةٌ في المشارقِ والمغارب ، وسيوفُ مناشيرى المسمومة ، قاطعةٌ في الأعاجمِ والأعارب ، كم لي في الأطراف ، والآفاقِ والأكناف ، من قاضٍ ونائب ، ومانعٍ من الخيرِ وحاجب ، وأميرٍ وصاحب ، ووزيرٍ وكاتب ، ومشيرٍ وحاسب ، وجليسٍ ونديم ، وتابعٍ وخديم ، وناظرٍ وعامل ، وناقصٍ وكامل ، وكم لي من جابي ، منوطٌ بتفريقِ قلوبِهم وجمعِ سُوَيْدائها إلى بابي ،

[١٨١] صدر المجلس . وبيضة الدست : سيد المجلس .

وكم لى فى المدارس ذو وَساوس ، وفى الجوامعِ والبيعِ والصوامع ، من مذكرٍ وواعظ ، وإمامٍ وحافظ ، ومقرىءٍ وعابد ، وشيخٍ وزاهد ، وكم لي "في الزوايا ، من خبايا" وفي أصحابِ الروايات ، من درايات ، وفقيهٍ في النادي ، فَاقَ الحاضرَ والبادي ، يعلّمُ لي في الشيطنة أولادي ، وفي البيلسة حَفَدتي وأجنادي . وأما سائرُ الفساق ، فى الآفاق ، وسكانُ الأسواق ، وقطانُ الجبال والرستاق ، ورجالُ الصحارى والأوراق ، فكلُّهم لى عشاق ، وإلى دِينى مشتاق ، وَسَلْ عنى أربابَ الحانات ، وسكانَ الخانات . وبالجملة غالبُ الطوائف ، وأربابُ الوظائف ، على باب خدمتي واقف ، وعلى طاعة مراسيمي ليلاً ونهاراً عاكف ، مُنَايَ مُنَاهُمْ ، ورِضَايَ رضاهم ، وإنْ خالفَ بعضَ سِرِّي نجواهُمْ ، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحاتِ وقليلٌ مَا هُمْ .

وأنت[١٨٢] الآن جئتَ برايتك وسالوسك[١٨٣] ، وطامّتك وناموسك[١٨٤] ، تبدِّدُ عني عساكري ، وتشرّدُ من بني الإنس عشائري ، وتشتّتُ جموعي ، وتُخْلِي من الفسق والفساق ربوعي ، من غيرِ أنْ تشاورَني ، ولا تخبرَني ولا تحاورَني ، ولا تبحثَ معي ولا تناظرني ، وها أنا قد جئتُ إليك ، ونزلتُ كالقضاءِ المبرمِ عليك ، أُريد أنْ أُناظرَك في أنواعٍ من العلوم ، وأسألَك عن حقائقِها من طريقِ المنطوقِ والمفهوم ، بحضرةٍ من الجن والإنس ، وسائرِ نوعِ الحيوانِ والجنس ، فيظهرُ إذْ ذاك جهلُك ، فينبذُك قومُك وأهلُك ، ويتركُك معتقدوك ، ويتراجعُ عنك مريدون ، وأُفسِدُ بينَ العالَم صيتَك وأُتلفهُ ، فاجْعلْ بيننا وبينك موعداً لا نُخْلِفُه .

---

(١٨٢) الخطاب موجه إلى الشيخ العابد على لسان شيخ العفاريت .

(١٨٣) السالوس : النظم والمبادىء .

(١٨٤) الناموس : القانون والشريعة .

فلما وصل رسولُ العفريت ، الكافرُ ، الصفريت ، إلى الشيخ العابد ، والعالِم الزاهد ، الجاهدِ المجاهد ، فعندما وقع نظرُ الشيخ عليهِ ، ووصلت سهامُ لحظاتِهِ إليهِ ، كادَ أنْ يذوبَ كالملح ، وأن لا يقومَ الفسادُ للصلح ، فَبُهِتَ الذي كفر وأخذتهُ الدهشةُ والخور ، وغلب عليه الانبهار ، وكاد يحترقُ من الأنوار ، واستولى عليهِ الرجيف[185] ، وسقط من الوجيف[186] ، فما أبدى ولا أعاد ، ولا قام للصلاحِ ذلك الفساد . فقال لهُ الشيخ : ما لك ؟ وما أحالَكَ وغير جَالَكَ ؟ وما موجبُ دخولك عليّ ، وأنت غيرُ منسوبٍ إليّ ؟ فقال : كُفَّ عني أنوارَك ، وأَطْوِ عنّي أسرارَك ، حتى أقول ، فإنيّ رسول ، فما لي طاقةٌ برؤيتك ولا سِواغ[187] ، وما على الرسولِ إلاّ البلاغ . فقال : رسولُ أيِّ طعين ، وشيطانٍ لعين ؟ فقال : أنا رسولُ محبِّك العفريتِ المشقوقِ الحوافر ، الواسعِ المناخر ، المسلوبِ المفاخر ، أبي السعالي[188] ، الكافرِ العالي ، قد أقبل إليك في جمعٍ كثير ، وعددٍ من الجنّ غزير ، ومعه رؤوسُ العفاريت ، والعتاةُ المصاليت ، والطغاةُ المفاليت ، وقد حمَّلني إليك رسالة ، تتضمَّنُ من الخبثِ شجاعةً وبسالة ، إنْ شئتَ أدَّيتُها ، وإنْ أبيت ردَّيتُها . فقال : قُلْ ما تريد ، وأَبلغْ ما معك عن ذلك العنيد ، وأوجزْ ما تقول ، ولعنَ اللهُ المرسِلَ والرسول . فأبلغَ الرسالةَ وأدَّاها ، وأسال في أوديتها مؤدَّاها .

فقال الزاهد ، وكان بالأحوالِ خبيراً "وإذا أردنا أن نُهلِكَ قريةً أَمَرْنا مُترفيها فَفَسَقُوا فيها فحقَّ عليها القولُ فَدَمَّرْناها تدميرا" واللهِ ما لكم شبةٌ في هذا الكيد ، إلاّ الحمارُ في الوحْلِ والحمامُ في شبكة الصيد ، قُلْ لمرسلك : **أرى قدمَك ، أراق دمَك ،**

---

[185] الاضطراب الشديد لخوف أو فزع .

[186] الاضطراب والخوف والفزع .

[187] السَواغ : كل ما تساغ به الغُصّة . ويقال : أسِغْ لى غصتى أى أمهلنى ولا تعجلنى ..

[188] الغَوْل الأكبر .

وهـواك أهـواك ، وأفعالَك أفعى لك ، وسؤالَك أسـوا لـك[189] ، وخيـالَك أخبى لك ، فـأَوْلى لـك أَوْلى لـك ، ولعنَ اللهُ أَوْلي لـك[190] ، لاشـكَّ أَنَّ اللهَ تعـالى أراد دمارَكم ، وأَنْ يمحوَ آثارَكم ، ويخليَ ديارَكم ، فتستريح البلادُ من فسادِكم ، والعبـادُ من عنادِكم . أمَّا أنا فأذلُّ الخلق ، واحقرُ الداعين إلى الحق ، ولكنْ بعونِ اللهِ وقدرتـهِ وإلهامِهِ وقوَّتهِ لي من العِلْمِ والفضلِ ما أُجيبُه ، ويقتلُه من خوْفِه به وجيبُه[191] وسيظهرُ في الجمعِ على رؤوسِ الأشهادِ عويلُه ونحيبُـه ، وسيُبيِّنُ اللهُ في سُنَنِ الخلـقِ فروضَـه ، ويكشفُ صحيحَ الحقِّ ومريضَه ، وإذا ادَّعى بدعاوي طويلةٍ عريضـة ، فـإن اللهَ تعـالى قتلَ نمرودَ العاتي ببعوضة "يريدون ليطفئوا نورَ اللهِ بأفواهِهم واللهُ متمٌّ نـورَهُ ولـو كـرِه الكافرون"[192] أما سمعَ ذلك الملعون ، وعَلِمَ الشقيُّ المغبون ، أنَّهُ ليس لهُ سلطانٌ علـى الذين آمنوا وعلى ربِّهم يتوكلون ، إنمـا سـلطانهُ علـى الذيـن يتولَّونـه والذيـن هـم بـهِ مشركون . فمتى أراد يحضر ، ويسبُرُ نفسَه وخَصْمَهُ ويخبر ، ويصحب معهُ مَـنْ يريـدُ من كلِّ جنيٍ عنيد ، وشيطانٍ مَريد ، فإنَّ الحقَّ يحـق فيبطـلُ البـاطل ، ويتميـزُ في حلبـةِ السباقِ الخالي من العاطل ، فردَّ هذا الجوابَ الرسول ، وكشف عن حقيقةِ المقول .

ثمَّ إنَّ العفريتَ المخذول ، سأَل الرسول ، عن أَوضاعِ الشيخِ الزاهد ، وأحوالـهِ في المساجدِ والمشاهد ، وما شاهده من أُمورِهِ وحكاياته ، وحركاتهِ وسـكناتهِ ، وأخلاقـهِ ومعاملاتهِ ، وكيفية هيئتهِ وصورتهِ ، وما شاع عنهُ في قومهِ من سيرته . فقال : رأيـتُ رجـلاً سـعيدَ الحركاتِ كـاملَ البركـات ، صورتُـهُ جميلـة ، وأَوصافُـهُ نبيلـة ، وهيئتُـهُ جليلة ، بدنُهُ نحيل ، وفضلُهُ عريضٌ طويل ، وكلامُهُ الصادع ، في أمثالِنا ثقيلٌ قـاطع ،

---

[189] أسوا لك : مخفف أسوأ لك (مركبة) .

[190] أولي لك : أوليائك (مركبة) .

[191] الوجيب : يقال وجب القلب بمعنى خفق واضطرب ورجف وجبن .

[192] في النصّ تضمين لآية قرآنية ، انظر سورة الصف ، آية رقم ٨ .

فقذفَ الله في قلبهِ الفزع ، وأخذتْهُ نوافضُ الرعبِ والهلع . فقال : أمَّـا والله إنَّ هـذه الأوصاف ، لصعبةُ الأعراقِ والأعراف ، وستطرحُنا وراءَ جبلِ قاف ، وإنَّها لسيمةُ الصَّلاح ، وعلامةُ الفوزِ والنجاح ، وأنَّهم لهم المنصورون ، وحزبُ الله الغالبون . ولقد نَدِمْتُ على مراسلتهِ ، وكان الأوْلى سلوكَ طريقِ مجاملتهِ ، ولكنَّ الشروعَ مُلْزِم ، ولابدَّ أن أُتمَّ ما عليهِ أعزم . فواعدهُ إلى وقتٍ معلوم ، ثمَّ إنَّهُ أحضر وأحضر معهُ مِنْ جندهِ كلَّ جنيٍّ ظلوم ، وعفريتٍ غشوم ، ومتمردٍ مشوم ، ومخلوقٍ من قبلُ من نارِ السموم . واجتمع من بني آدم عند الشيخِ تلامذتُه ، وأصحابُه الصالحون وجماعتُه ، وكانوا الجمَّ الغفير ، والجمعَ الغزير . **واشترطوا بعد ما خبطوا واختبطوا ، وحلوا وارتبطوا ، أنَّهُ إنْ أجابَ الشيخُ سؤالاتِ العفريت ، وسرى في نادِهم سريَان النارِ في الكبريت ، لا يظهرُ بعد ذلك اليوم ، لبني آدم أحدٌ من أولئك القوم ، بل يكونون عن الأبصارِ مختفين ، وتحت الأرضِ في الجزائرِ والخرائبِ كزنادقةِ بغدادَ منتفين ، وإنْ عجزَ الشيخُ عن جوابِ سؤالهِ ، يهلكهُ العفريتُ مع خَيْلِهِ ورجالهِ .**

ثمَّ شرعَ العفريتُ في الرسائل ، وإلقاءِ المسائل . فقال : العالَم على كَمْ قِسْمٍ بالعرضِ والجسم ؟ وهل للعالَمِ مُوجِد ؟ وهل هو واحدٌ أم متعدد ؟ فقال الزاهدُ الإمام : العالَم على ثلاثةِ أقسام : **الأولُ** مفرداتُ العناصرِ كالترابِ والماء ، والنارِ والهواء ، وتسمىَّ الأُسْطُقُسّات[١٩٣] ، وأُصولَ الكائناتِ والمركّبات ، من هذه الأجزاءِ المفردة ، لا تستمرَّ على حالةٍ واحدة ، ولا تخلو من حركةٍ وانتقال ، ودأبها التغيرُّ من حالٍ إلى حال . **الثاني** الأجرامُ العلويَّة ، كالسمواتِ وكواكبِها المضيَّة ، وهي

---

[١٩٣] وردت فى النسخ المطبوعة هكذا : الاستقصاءات ، والاستفاضات ومادام المقصود بهذين اللفظين هو العناصر الأربعة : الماء والهواء والنار والتراب ، فإن المصطلح الطبى (والفلسفى) الصحيح فى نظرية الطبّ اليونانية الذى يشير الى هذه العناصر الأربعة هو "الأسطقسات" ومن ثم أثبتناه فى متن النص . (انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ٨٢) .

متحركةٌ بالبروج ، ولحركتها دائرةٌ ما لها من مركزها خروج ، فهي متحركةٌ من بعضِ الجهات ، ساكنةٌ كالفصوصِ في المرَّصعات ، وتُوصفُ في حركتها بالصعودِ والهبوط ، والارتفاعِ والسقوط ، والرجوعِ والإقبال ، واستقامةِ الحال ، والاحتراقِ والانصراف ، والانحطاطِ إلى الحضيضِ والأشراف ، ويُحكمُ عليها بالافتراقِ والاقتران ، والتربيعِ والتثليثِ والتسديسِ في السَّيَرَان ، والمقابلةِ في الرجعة ، وبطءِ السيرِ والسرعة ، وينسبُ إليها ما يحدثُ في العالم السفلي ، من جزئي الوقائعِ والكلي ، ومن نحوسةٍ وسعادة ، ونقصٍ وزيادة ، وخيرٍ وشر ، ونفعٍ وضر ، وتأثُّرٍ وتأثير ، وقليلٍ وكثير ، وانحرافٍ واعتدال ، وحدوثٍ وزوال ، يسند هذه الأشياءَ على الحقيقة ، وذلك لقصورِ فهمهِ وقلّةِ العقل ، كقولِ الجاهلِ أنبت الربيعَ البقلُ ، وبعض مَنْ لم يكنْ لهُ إدراك ، يزعمُ أنَّ هذا إشراك ، ولا يسندُ هذه الحوادث إليها ، ولايعوّل في ذلك أبداً عليها ، لا بالحقيقة ولا بالمجاز ، ولا يسلّمُ في ذلك إلى طريقةِ المجاز ، والمحققون من العلماء ، والراسخون في العلمِ من حكماءِ الفقهاء ، يسندون هذه الحوادثَ والتأثير ، إلى قدرةِ اللطيفِ الخبير ، الصانعِ القدير ، الفاعلِ المختار ، الذي يخلقُ ما يشاءُ ويختار ، فإذا نسبوا هذه الأفعال ، إلى غيرِ ذي الجلال ، فإنّما يجعلونها في ذلك الباب ، كالآلاتِ والأسباب ، كتأثيرِ الخبزِ في الإشباع ، والنارِ في الإحراق والإيجاع ، وكفعلِ الماءِ في الإرواء ، والدواءِ في الأدواء ، وإنّما ذلك كلُّهُ بتقديرِ صانعها ، وما أودعَهُ فيها من خواصٍّ بدائعها ، وصفاتِ ودائعها ، كخاصيَّةِ الإسهالِ المودعةِ في السَّقْمُونْيا[١٩٤] ، وخواصِّ التصبيرِ وغيرِهِ[١٩٥] الكامنةِ في الموميا[١٩٦] ، والإسكارِ في الخمر ، والإحراقِ في الجمر ، وقد رأينا القوّةَ النامية ، عُقَيْبَ الأمطارِ

---

[١٩٤] السَّقَمُونْيا : نبات يستخرج من جذوره راتينج مسهل .

[١٩٥] من أنواع الحنوط .

[١٩٦] الموميا : الجثة المحنطة فى قبور المصريين القدماء .

الهامية ، والشمسُ حامية ، تهيجُ وتنمو ، وتموجُ وتزكـو . وهـذا الصنيـعُ البديـع ، إذا حَلّتْ الشمسُ في بُرْج الحَمَلَ في وقتِ الربيع ، وإذا نُقلتْ إلى بُـرجِ الأسـد ، احـترقَ ذلك الجسد ، وعند نقلها إلى الميزان ، ينقلب هذا الزمـان ، وكـذا إذا تحوَّلـتْ الغزالـةُ إلى برجِ الجدْي ، فكأنّهُ بلغ إلى محل الهدي ، فتمـوتُ إذْ ذاك قـوةُ الزمـان ، ويضعـفُ لذلك غالبُ الحيـوان ، وهـذا كلّـهُ مشـاهدٌ محسـوس ، لا يمكـنُ أنْ تنكـرَهُ النفـوس ، خواصٌ وَضَعَها خالقُ الكون ، يُستفادُ بعضُها من الطعمِ والريحِ واللـونِ ، وبعضُهـا لا يدَرك ما أُودع فيهِ ، إلاّ بإرشادِ خالقِهِ ومنشيه ، هكذا جرتْ سُنّةُ العزيزِ الوَّهاب ، أنَّ الأحكامَ والوقائعَ تُناطُ بالأسباب ، وقد يتخلّفُ منها الأثرُ عن المؤثّر ، لِيُعْلَمَ من ذلـك وجودُ القاهرِ المدبّر ، وأنّها مقهورةٌ تحت الأمر ، ومقسـورةٌ قسرَ العقـلِ مـع الخمـر . ولولا أن ذلك من سِـرٍّ جسيم ، لَمَـا خفـي علـى الإنسـان أغلـب مـا صنعـه الخـالق الحكيم ، و لما تخلفتْ النارُ عن إحراقِ إبراهيم ، ولما ولدتْ مَرْيَمُ عيسـى ، ولا أَغْـرَقَ البحرُ القبط[١٩٧] وأنجى بنى إسرائيل وموسى ، فكمْ من آكلٍ وهو جيعـان ، وشـاربٍ وهو عطشان ، ومتدثرٍ يتدفأُ بالنار وهو بردان ، والفلكُ الأعظم محيطٌ بهذه الأجرام ، ونسبتُها إليهِ كنقطةٍ للبحر الطام ، متأثرةٍ بتأثيرهِ ، دائرةٍ بتدويرهِ ، يتصـرَّفُ فيهـا علـى حَسْبِ ما شـاء باريهـا ، وصرّفـهُ فيهـا منشيها ، فـاطرُ السمواتِ والأرض ، جـامعُ الخلائق ليوم العرض ، وكما هي محاطةٌ بالدئرةِ الفوقانية ، كذلـك هـى محيطـةٌ بـالكرةِ التحتانية . القسمُ الثـالثُ : العقـولُ والنفـوسُ الملكيـة ، وهـي أشـرفُ مـن الأجـرامِ العلويـة ، ومقـامُ هـذه العقـول ، في مقـامٍ عزيـزِ الوصـول ، يسمَّى أعلـى عِلّيـين ، وجواهرُها لا تُوصفُ بتحريكٍ ولا تسكين ، ولا بهـذه البسـاطةِ والـتركيب ، وأمرُهـا بديع ، وشأنُها عجيب . وأَمَّا العَرَضُ فمـا لا يقـوم بذاتـهِ ، وهـو في العـالَم كـالألوانِ

---

[١٩٧] المصريون .

والروائح والطعومِ وأصواته . وأمَّا الجسمُ فما تركّب من جوهريْن فأكثر ، وما قام بنفسِه يسمَّى الجوهر .

وأمَّا الموجِدُ للعالَم فهو واحدٌ لا يتثنّى ، واحدٌ لا يتجزّأ ، ولو لم يكنْ للعالَم صانِع ، لكان العالَمُ أضيعَ ضائع ، وهل رأيت مصنوعاً بلا صانع ، وسقفاً مرفوعاً بلا رافع ، وهل نفيُ الصانع[١٩٨] إلاّ مكابرة ، وما يجحدُهُ إلاّ النفوسُ الكافرة . فقال العفريتُ : فما الدليلُ على وجودِ الصانع ، العقلُ والنقلُ أم أحدهما متبوعٌ والآخر تابع ؟ فقال العالِم الزاهد : قد أطبقتْ العقلاء ، وأجمعتْ الحكماء ، **أنَّ العقلَ دليل على وجودِ الصانع ، وبهِ الدلالةُ والشرعُ لهُ تابع ، وكما هو الدليل على وجود الذات ، كذلك هو الدليل المستقل على إثبات الصفات ، وهي صفات الكمال ، ونعوت الجلال** . فقال العفريتُ : فما الدليلُ على وحدانيتهِ ؟ فقال الزاهدُ : كلٌّ من العقلِ والشرعِ كافٍ في دلالته . قال العفريتُ : فما المرادُ من عالَم الكونِ والفساد ؟ فقال العالِم : معرفةُ أُمورِ المبدأ والمعاد . قال العفريتُ : فما أفضلُ ، العقلُ أم النقل ؟ فقال العالِم : **كلٌّ منهما حجَّةُ اللهِ ، قد أسند لهُ من عبادهِ مَن يراه** . وذلك أنَّ الله لما أرشدنا إلى الدينِ القويم ، وثبَّتَ أقدامَ توحيدِنا على الصراطِ المستقيم ، نبَّهنا إلى أن المقصود ، من الدخولِ في دائرةِ الوجود ، معرفةُ مُوجِدنا المعبود ، كما قال مَنْ يقولُ للشيء كُنْ فيكون ﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنْسَ إلاّ لِيَعْبُدون ، ما أُريدُ منهمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُون﴾[١٩٩] ثم طلَب مراضيهِ ، بما تبرزُ بهِ أوامرهُ وتقتضيه ، وذلك هو الرشاد ، يا ذَا المكرِ والعناد ، إلى المعارفِ الإلهيَّةِ وما بهِ نظامُ المعاشِ ونجاةُ المعاد ، وليس لنا دليلٌ في العلمِ والتعريف ، سوى طريقتين مرشدتين إلى التوقيف ، على أُمورِ

---

[١٩٨] نفي الصانع : إنكار وجوده .

[١٩٩] سورة الذاريات : ٥٧ .

المبدأ والمعاد وما بينها في دارِ التكليف : إحداهمـا مـا جُبلنـا عليـهِ ومـا اكتسبناهُ من العقل ، وثانيتهما ما بلغنا من الأخبارِ الصحيحةِ والنقل . فـالعقلُ لا يدخـلُ في إثبـاتِ المعارفِ الإلهيَّة ، ولا في هذا البابِ المقدَّمِ من الأُمورِ المعاشيَّة والمعاديَّـة ، وهـو حجَّـةُ اللهِ القاطعـةُ البالغـة ، وأَصـلُ براهينـهِ السـاطعةِ الدامغـة ، وبواسـطتهِ استعبد عبـادَهُ الكَمَلَة ، وإلى مَن خَصّه بهِ أرسل رُسُلَه ، ثمَّ العقلُ حوَّز إرسالِ الرسـل ، ولا يُـرد مـا تقوَّى بهِ لتوضيح السبل ، والنقلُ لا يأتي بما ينـاقضُ العقـل ، وإنَّمـا يـردُ بمـا يُزَكّـى قضاياهُ ويصقُلُ مرائِي أحكامِهِ أَحسنَ صقل ، ونظيرُ ما حصل للعقـلِ بالشـرعِ مـن الاستئناس ما حصلَ للكتابِ[٢٠٠] من معاضدةِ السنَّةِ والإجماعِ والقياسِ ، ولـو ورد المنقول بما يناقض المعقول ، لأشْبَهَ فرعاً يُوجَدُ ما لهُ من أُصول . إذا أَقبلـتْ مواكـبُ الأوامرِ الإلهيَّةِ على لسانِ الرسول ، خضعتْ جماجمُ العقـول ، منقـادةً بزمـامِ الانقيـادِ والقبول ، سامعةً لما يردُ منها ، مطيعةً لما يصدرُ عنها ، فتارةً يظهرُ للعقـلِ مـا للأوامـرِ الشرعيَّةِ من الحكم ، كنـارٍ على عَلَـم ، وتـارةً يعجـزُ عـن الاطـلاع على ماتضمنّتـهُ الأحكامُ النقليَّةُ من الحكم ، فإذا ورد الشرعُ بحكمٍ وكـان للعقـلِ في حكمتـهِ إدراك ، آثرهُ وأَكّدُه واستمسك بهِ في تصرُّفاتهِ أقـوى استمسـاك ، وإنْ لم يكـنْ لـهُ في إدراكـهِ مدخل ، نادي بلسانِ العجزِ والتسليمِ سبحانَ مَنْ لا يُسْئَلُ عمَّـا يفعـل . والحـاصل أنَّ سلطانَ العقول ، في ممالكَ خليفةِ الشرعِ وولايتهِ معزول ، ومِـنْ جُملـة مـا ورد علـى لسانِ السمع ، على لسانِ عدوِّك صـاحبِ الشـرع ، الصـادقِ فـى المقـال ، ممـا ليـس للعقلِ فيهِ مجال ، أحوالُ المعاد ، ومبدؤها ما يطرأ على العباد ، في حدِّ هذا الكونِ مـن الفساد .

---

[٢٠٠] يعنى المولف : القرآن الكريم .

فقال العفريتُ : أخبرني يا ذا الإنسانُ مخلوقٌ مِّماذا ؟ وما الآدمية ؟ والنفسُ الإنسانيَّة ؟ وهل هي واحدةٌ أو متعددة ؟ ومآلُها إلى أين ، بعد وقوعِ البين ؟ فقال العالِم : الإنسانُ مخلوقٌ يا مَصْفَعَة[٢٠١] ، من هذه العناصرِ الأربعة ، التي مرَّ ذكرُها ، وتبيَّن أمرُها ، الترابُ والماء ، والنارُ والهواء ، فإذا تمازجت ، واعتدلتْ إذا تزاوجت ، حصل لها من التركيبِ أمزجةٌ ثمانيةٌ ولا على الترتيب . والآدميَّةُ عبارةٌ عن القُوَّةِ المُمَيِّزَةِ بين الحسَنِ والقبيح ، والفاسِدِ والصحيح ، والحقِّ والباطل ، والحالي والعاطل ، والخيرِ والشر ، والنفعِ والضر ، والمميزةُ لهذه الأشياءِ الفارقة ، يُقال لها النفسُ الناطقة . وهي ثلاثةُ أنواع ، يا خارجَ الطباع : أحدها الروحُ الطبيعيةُ القائمةُ بالكبد ، وهي مِنْ الأغذيةِ تستمد . الثانيةُ الروحَ الحيوانيَّة ومقامها القلب ، أيْ كلب[٢٠٢] ، وللأبدان منها حراك ، واستمدادُها من حركاتِ الأفلاك . الثالثة الروحُ النفسانيَّة ، ومقامُها في الدماغ ، ومنه الحركاتُ الذهنيّة ، والقوَّةُ التامَّةُ القويَّة ، تطلبُ غذاءها من الروحِ الطبيعيَّة ، والقوَّةُ المميزةُ تطلبُ ما يسعدُها في الداريْن من الروح النفسانيَّة ، ويُبعدُها في المقاميْن عن الأسباب الشقيَّة ، واستدادُها وقوَّتُها من الأجرامِ العُلْويَّة . وأعلى مقامات هذه النفسِ الحكمة ، والحكمةُ أوفى منحة ، وأوفرُ نعمة ، وقد قال تعالى ﴿يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ومَنْ يُؤْتَ الحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كثيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إلاّ أُولُوا الألْبَابِ﴾[٢٠٣] ومصيرُ هذه الأرواحِ إلى عَالَمِ الغياب ، لأجلِ الثوابِ والعِقاب . وقيل حقيقةُ نفسِ الإنسان ، أيُّها الماردُ الشيطان ، لطيفةٌ روحانيَّةٌ ، ودقيقةٌ ربَّانيَّة ، لها تعلُّقٌ ربَّاني ، بقلبِهِ وقالبِهِ الجسماني ، وهي المدركةُ العالمة ، العارفةُ الفاهمة ، بها يتكلّم

---

[٢٠١] المصفوع الكثير الصفع .

[٢٠٢] جرّ السجع (والجناس الناقص) إلى أن يسبّ الشيخ العابد - على لسان المؤلف - شيخ العفاريت ، مخاطبا إياه بقوله : "يا كلب" .

[٢٠٣] قرآن كريم ، سورة البقرة : ٢٦٩ .

الإنسان ، وتبصرُ العينان ، وتسمع الأُذنان ، وتبطش اليدان ، وتمشي الرجلان ، وهي المخاطبةُ والمعاتبة ، والمثابةُ والمعاقبة ، والمطلوبة والمطالبةُ ، ويُطلق عليها لفظُ القلبِ تارة ، ولفظُ الروحِ أُخرى ، ويقالُ لها النفسُ مرَّة ، ولفظُ العقلِ أيضاً .

وابنُ آدم هو المخصوص بهذه الكرامات ، وبهذه النَّفْسِ دونَ سائرِ الحيوانات ، وإنْ كان يُطلقُ على الجميع أنَّ لها نَفْساً بالاشتراك ، لكن هذه النَّفْسَ الناطقةَ والنطقَ هو الإدراك ، واختُلف أيضا وتحيَّرتْ الألْبَاب ، في صنعِ ربِّ الأرباب ، وتاهت الأفكارُ والفطن ، في كيفيّةِ تعلّقِها بالبدنِ ، ولا يحصُلُ لأحدٍ على هذا وقف ، إلاّ بطريقِ الولايةِ والكشف . وهذا النَّفْسُ لَمّا كثرتْ صفاتُها ، وتضادَّتْ نعوتُها ، تخالفتْ أوصافُها وازداد في صفاتِها اختلافُها ، حتى قسموها ، فقالوا أنواعُها ثلاثة : ناطقةٌ وشهوانيَّة ، وغضبيَّةٌ رضيَّة . فالناطقةُ مسكنُها الدماغ ، ولها فيهِ مساغ ، والكبدُ مسكنُ الشهوانية ، والقلبُ مسكنُ الغضبيَّةِ الرضيَّة ، فأيَّةُ نفسٍ غلبتْ أُختَيها ، جذبتْ أحوالَهما وصفاتِهما إليها . وهذه يا أتعسَ زوبعة ، كالعناصر الأربعة ، فإنَّها إذا فسد مِزاجُها ، وعدلَ عن الاعتدالِ ازدواجُها ، عسر علاجُها واستحال إلى المطلوب الطالب ، وعجز عن المعالجةِ الطابب ، ففسد البيان ، وانهدمت الأركان . وقيل هما روحٌ ونفس ، بغير لَبْس ، وهما ضدَّان ، بل نِدَّان ، لا يجتمعان ، ولا يرتفعان وطبعُ النفسِ يا لئيم ، طبعُك طبعُ الشيطانِ الرجيم ، كالنارِ في جوهرِها ، وخاصَّةً عنصرها ، تُنسبُ إليها الصفاتُ الذميمة ، والخلالُ غيرُ المستقيمة ، كالجهلِ والغضب ، والحدَّةِ والصخب ، واللؤمِ والسفه ، والطيشِ والشره ، والحميَّةِ والشهوة ، والقسوةِ والجفوة ، والحسدِ واللجاج ، والحقدِ والاحتجاج ، والحرصِ والبخل ، والتواني والكسل ، والحمقِ والخيانة ، والفجورِ وعدمِ الأمانة ، والترفعِ والرياء ، والمخاصمةِ والمراء ، وسائرِ الأخلاقِ الذميمةِ ، والأوصافِ المشؤومةِ

الملومة ، والملكاتِ الخبيثةِ الرديَّة ، والحركاتِ الشيطانية ، فهي كالنارِ في إحراقِها وحدّتِها ، واستشاطتِها وشدتِها ، ودُخَانِها ولهيبِها ، وإهلاكِها وتعذيبِها ، وإقدامِها في إعدامِها ، وأكلِ ما تجدُهُ ، وما تصلُ إليه تفسدُه . وطلبِ العلو ، والغليانِ والغلو . وطبعُ الروح ، يا أنحسَ مجروح ، طبعُ الماء ، في النشوءِ والنماء ، يُنسبُ إليهِ كلُّ خُلقٍ كريم ، وطبعٍ سليم ، صافي الجواهرِ ما لامسهُ تَطَهّر ، شيمتُهُ الحياءُ والعلم ، والصدقُ والحلم ، والتفويضُ والتوكُّل ، والتسليمُ والتحمُّل ، والاحتمالُ والأناة ، والصبرُ والموافاة ، والتودُّدُ والإسداء ، والسكونُ والإعطاء ، والركونُ والبذل ، والرضا والفصل ، والحياءُ والعدل ، والتواضعُ والعفة ، وعدمُ الترفُّعِ والخفّة ، والسلامةُ والسهولةُ وسرعةُ الانقياد ، واللينُ والوداد ، والرقّةُ والصفاء ، والكرمُ وعدمُ الجفاء ، إلى سائرِ الأخلاق المحمودة ، والأوصافُ المطلوبةُ المودودة ، وأيّتهما قويتْ غلبت ، وجذبتْ الأخرى إليها وسلبت ، وسيَّرتْها على طبعها ، واستخدمتْها على ربعها ، فكم من شيطان ، يُرى في صورةِ إنسان ، ومن إنسانٍ غلبت عليهِ أخلاقُ الجان ، ومن جانٍ في صورةِ إنسان . ونظيرُ هذا الروحِ والبدن ، يدركهُ ذو العقلِ والفطن ، فإن الروحَ من عالَم نوراني ، لطيفٍ سماوي ، والبدنَ من عالَمٍ ظلماني ، كثيفٍ أرضي ، فأيّهما غلبَ على صاحبه ، جذبهُ إلى مركزهِ في جانبهِ . قال الله تعالى ، وعز كمالا ، وجل جلالا . ﴿يا عيسَى إنّي مُتوَفيكَ ورَافِعُكَ إليَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الذين كَفَرُوا﴾[٢٠٤] وقال جَلَّ عليا ﴿وَرَفَعْنَاه مَكَاناً عَلِيّا﴾[٢٠٥] وقال ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بها وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إلى الأَرْضِ﴾[٢٠٦] فالأنبياءُ عليهم السلام ، صارت أجسادُهم أرواحا ، والكفارُ مثلُك صارت أنفسُهم ظلمانية أشباحا . وقيل يا زوبعة ، الأنفسُ

[٢٠٤] قرآن كريم ، سورة آل عمران : ٥٥ .

[٢٠٥] قرآن كريم ، سورة مريم : ٥٧ .

[٢٠٦] قرآن كريم ، سورة الأعراف : ١٧٦ .

أربعة : أمّارةٌ وهي أنْفُسُ مثلِك الكفّار الطغاة ، ولوّامةٌ وهي أنْفُسُ العصاة ، وملهمةٌ وهي أنْفُسُ المخلصين ، ومطمئنةٌ وهي أنفُسُ الأنبياءِ والمقربين . والحقُّ يا جاحدة ، ماهي إلاّ نفسٌ واحدة ، لكن لما تجلّت في ملابِس الصفات ، وتكثّرتْ لها الأخلاقُ والسمات ، نَوَّعُوها ، وبمقتضى التنويع فرَّعُوها ، تنزيلاً للتنويع بالصفات ، منزلةَ التنويعِ في الذات ، فيُقال كانتْ نفسُ هذا شيطانية، فتَابَ فصارتْ رحمانية ، وكانت نفسُ ذاك أبيّة ، فصارت دنيّة ، قال مَنْ براها : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ، فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ، قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ، وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[٢٠٧] .

قال العفريت : أخبرْني أيُّها الباصر ، كيف تركيبُ هذه العناصر ؟ فقال الزاهدُ : بحسب الخفّةِ واللطافة ، والثقلِ والكثافة ، ولما كان عنصرُ الترابِ أثقل ، كان أركدَ من غيرِهِ وأنزل ، ومن فوقهِ عنصرُ الماء ، وفوقَ الماءِ عنصرُ الهواء ، ومِنْ فوقِ هذهِ الثلاثةِ عناصر ، عنصرُ النارِ وهو بها محيطٌ دائر ، وكذلك كلُّ عنصرٍ محيطٍ بما تحته ، وقد حقّقتُ هذا وعلمتُه . قال العفريتُ : أخبرني عن أقربِ الأشياءِ إليك . قال العالِمُ الأجل ، أقربُ الأشياء الأجل[٢٠٨] . قال : أخبرْني عن أبعد الأشياءِ عنك . قال العالم الأكبر ، ما لم يُقسم ولم يقدَّر . قال : أخبرْني عن الشيءِ الممكنِ عودةُ . قال : الدولةَ إنْ زالتْ ، وتغيرتْ واستحالتْ ، يمكنُ ردُّها ، ولا يستحيل عودُها . قال : أخبرْني عن الشيءِ المستحيلِ عودةُ . قال : الشباب ، بغيرِ شكٍ ولا ارتياب . قال : أخبرْني عَمَّا لا يمكنُ بالاكتساب ، ولا يُنالُ إلاّ بتوفيقِ الوهاب . قال : العقلُ الغريزي ، فإنّهُ وهبيٌّ عزيزي . قال : أخبرْني عمَّا لا يمكنُ ضبطُه ، ولا ينضبط ربطُه . قال : الدهرُ إذا ولّى ، والسعدُ إذا تجلّى . قال : أخبرْني يا ذا الجَدّ ، عن الهزْلِ الذي

---

[٢٠٧] قرآن كريم ، سورة الشمس : ٦ – ١٠ .

[٢٠٨] الموت ، يقال جاء أجله : إذا حان موته .

يُرادُ بهِ الجِدّ . قال : إبرازُ حِكَمِ الأمثالِ والآيات ، على لسانِ الحيواناتِ والجمادات . قال : أخبرْني عَّما لا يمكنُ الإحاطةُ بهِ ، ولا الوقوفُ على معرفةِ كُنهِهِ . قال : عظمةُ صانعِ الكائنات ، وخالق الموجودات ، تعالى أن يحاطَ به علما ، وتقدَّسَ أنْ تُدْرِكَ عظمتَهُ معرفةً ووهماً ، ولهذا قال سَيِّدُ المرسلين ، وحبيبُ ربِّ العالمين "لانحصى ثناءً عليك ، أَنْتَ كما أثنيْتَ على نفسِك" وقال "سبحانَك ماعرفناك حقَّ معرفتِك" وهذا مصداقُ قولِه تعالى ﴿وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾[٢٠٩] .

فلمَّا طالت المقاولة ، وانتهت إلى هذا الكلامِ المجادلة ، أقبلَ الليل ، وحلَّ بالعفريتِ وجُندِهِ الويل ، وتصدَّع المجلس ، وقام العفريتُ وهو مُبْلِس ، وتواعدُوا إلى الصباح ، عند قولِ "حيَّ على الفلاح" ، أنْ تجتمعَ الوجوهُ الصِباح ، لردِّ جوابِ الشياطينِ القباح ، فتفرقوا وقد أحاط بالعفريتِ الوَهْم ، ونفذ في أحشائهِ من سهامِ الذلِّ أقطعُ سهم ، وبات لا يقرّ لهُ قرار ، ولا يأخذهُ اصطبار ، وسَاوَرَهُ الافتكار ، وثَاوَرَهُ الهمُّ والدمار ، والغمُّ والبوار .

إلى أنْ أضاءَ الصبحُ كالحقِّ مقبلا   وَوَلّى ظلامُ الليل كالجهلِ مدبرا

فاجتمع مَنْ كان بالأمسِ حاضرا ، ومَنْ سمع بحضورِهم ولم يكنْ ناظرا ، من جموعِ الإنسِ والجن ، وأخذ كلٌّ مقامَه ، وابتدأ العفريتُ كلامَه ، وقال : ما منبعُ الصفاتِ الحميدة ، والشمائلِ السعيدة ، المارِّ ذكرُها ، القارِّ أمرُها ؟ وهي يا هذا نتيجةُ ماذا ؟ فقال العالِمُ المحقِّق ، العاملُ المدقِّق : هي ثمرةُ العقلِ القويم ، الهادي إلى الصراطِ المستقيم ، ويكفي العقلُ الشريف ، أنَّهُ مناطُ التكليف ، لهُ اللهُ يخاطب ، وبهِ يثيب ويعاقب ، وبهِ يأخذ وبهِ يعطي ، وتابعُهُ يصيبُ ولا يخطى[٢١٠] . وكلّما كان العقلُ أتمّ ،كانت محاسنُ الأخلاقِ أعمّ ، وكلما كان رأيُ العاقلِ أصوب ، كان في اقتناءِ

---

[٢٠٩] قرآن كريم ، سورة الأنعام : ٩١ .

[٢١٠] مخفف : يخطىء .

مكارمِ الأخلاقِ أرغب . قال العفريتُ : فهل هو نوعٌ متّحد ، أو طريقةٌ متعدّدة ؟ قال الشيخ : العقلُ نوعان ، وحُكْمُهُ واحدٌ لا يختلف فيهِ اثنان ، أحدهما العقلُ الغريزيُّ اللطيف ، وهو مناطُ التكليف ، يحدثُهُ الرحمن ، ويتدرَّج إلى بلوغ الإنسان ، فيكمل إمَّا بالسنّ أو الاحتلام ، ويجرى عليهِ إذ ذاك قلمُ الأحكام ، ويدخل في حيِّزِ المخاطبين من ذوي الأحلام ، ويترتبُ عليهِ الحسابُ والعقابُ من الحلالِ والحرام ، والثاني يحصلُ بالاكتساب ، والتجربةِ في كلِّ باب ، ولهذا يُقال : إنَّ الشيوخَ أكملُ عقلاً من الشباب . وقيل : مَنْ بَيَّضَتْ الحوادثُ سَوَادَ لِمَّتِه[٢١١] ، وأخلقت[٢١٢] التجاربُ لباسَ جدَّتِهِ ، وأرضعهُ الدهرُ من وقائعِ الأيام أخلافَ ذريَّتِهِ ، وأراه الله تعالى لِكثرةِ ممارسته ، تصاريفَ أقدارِهِ وأقضيته ، كان جديراً برزانةِ العقلِ ورجاحتِهِ ، فهو في قومهِ بمنزلةِ النبيِّ في أُمَّتِهِ . قال بعضُ الحكماء "كفى بالتجاربِ تأدُّبا ، وبتقلُّبِ الأيامِ عظة" . وقالوا "التجربةُ مرآة العقل" وقال :

أَلَمْ تَرَ أَنَّ العقلَ زَيْنٌ لأَهْلِهِ ولكنَّ تمامَ العقلِ طولُ التَّجارِبِ

قال العفريتُ : ما فائدةُ العقل ؟ قال العالِمُ : فائدتهُ الإرشاد ، في بيداءِ الجهالةِ إلى جادّةِ الرشاد ، والإعانةُ في الشدائد ، والوقوعِ في مصايدِ المكايد ، وحصولُ الخلاص ، من شَرَكِ الاقتناص ، وإجابةُ الإغاثة ، عند الاستعانةِ والاستغاثة ، وَمَدُّ المعونة ، إذا انكسرتْ من الجبلِ السفينة ، في بحرِ الملامة ، والخلاصُ إلى بَرِّ السلامة ، والإغناءُ من كنزِ السعادة ، والصبرُ عند استيلاء نوائبِ الفقر .

قال : فَمَنْ العاقلُ في العالَم ؟ ومَنْ يطلَق عليهِ هذا الاسمُ من بني آدم ؟ قال العالِم : العاقلُ مَنْ يحتملُ إذا أُضيم ، ومَنْ هو في الغضبِ حليم ، فإذا أُعطيَ شكر ، وإذا مُنعَ صبَر ، ويعفو إذا قدَر ، ويستهينُ بأُمورِ الدنيا ، ولا يغفلُ عن أُمورِ الأخرى .

---

[٢١١] شعر الرأس المجاوز شحمة الأذن .

[٢١٢] أخلق الثوب : بَلِيَ .

قال العفريتُ : ما الفائدةُ في حبِّ الدنيـا ، والرغبـةُ إلى مـا فيهـا مـن الأشياء ؟ ولأيِّ معنى غلبَ الحرصُ والهوى والرغبةُ فيها ، على أهلِها وبنيها ؟ قال العالِم : لأجلِ قيـامِ العالم ، وانتظامِهِ على المنهجِ الأقوم ، وبقائِهِ المطلوب ، إلى الأجـلِ المضـروب ، الـذي قدَّرهُ مُوجِدُهُ القديم ، الذي أنشأَهُ أوَّلَ مرَّةٍ وهو بكلِّ خلْقٍ عليم ، ولابـدَّ مـن أنْ تَتِـمَّ كلمتُه ، وتنفذ مشيئتُه ، ولولا الحرصُ والأمل ، لبطلَ العِلْمُ والعمَل ، فإنَّهما لحجـابِ الغفلـةِ يغشيان أعـينَ البصـائر ، ويغطيـانِ طـرقَ الاسـتدلالِ والضمـائر ، فلذلـك ذهلَت[٢١٣] العقولُ عن التأمُّلِ في العواقب ، واشتغلتْ بالتهائهـا عمّـا يجـبُ عليهـا أنْ تراقب ، ولولا طولُ الأمل ، لَمَا رجّى العمـل ، ولَمـا انتظَـم أمـرُ المعـاش ، ولا اهتـمَّ لادّخار قوتٍ ورياش ، ولا افتكر صاحبُ اليوم في أحوال غد ، ولارتفعتْ المعـاملاتُ وما داينَ أحداً أحـد ، ولا زرع زارعٌ ولا غـرسَ غـارِس ، ولا بنـى بـانٍ ولا اخْضَّرَ يابس ، ولانْقَرض إذ ذاك نظمُ العالَم ، وبانقراضِهِ تنقرض أُمورُ بني آدم .

قال العفريتُ : أخبرْني عن أصلِ الإنسان ، وممَّ جوهرُه وجوهـرُ المَلَـك والجـان ؟ قال الشيخ : أمَّا جوهـرُ المَلَـكَ فمِـن العقـلِ المحـض ، بـراهُ ربُّ السمواتِ والأرض ، ولذلك لا يصدرُ من الملائكة ، إلاَّ الشيمُ المباركة ، من الطاعـاتِ لمولاهـم ، والانقيـاد لأوامرِ مَنْ أنشاهم ، وامتثال ما أَمَرَ من أمرٍ مروم ، ومـا منّـا إلاَّ لـهُ مقـامٌ معلـوم ، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يُؤْمَرون . وأمَّا جوهـرُ الجـان ، وأصلُـك يـا أخـسَّ شيطان ، فمِن الأخلاقِ الذميمة ، والصفاتِ المشؤومة ، فلهذا لايوجدُ منكم إلا المكرُ والبيْلسة ، والشيطنةُ والوسوسة ، وأنْحِسْ بصفاتِكم مِنْ صِفة ، ولم يكنْ بينكـم وبـين الحقِّ معرفة ، فأنتم يا أنحسَ بغيض ، وأنجسَ نهيض ، مع الملائكـةِ في طَرَفَـيْ نقيـض . وأما جـوهـرُ الإنسان فَمِمّا اشتملتْ عليـهِ صِفَتـا المَلَـكَ والجـان ، فمَـن غلـبَ عقلُـهُ

---

[٢١٣] ذهلت : غفلت ونسيت .

شهوتَه ، أُلبسَ من مكارمِ الشيمِ خِلْعَتَه ، واضمحلّتْ ظلماتُ نفسهِ في أنوارِ الطاعة ، وتجلّت صفاتُ ذاتـهِ من سننِ الأبـرارِ في جماعة ، وخطّ رسمَ اسمِها قلمُ الكرامِ الكاتبين ، ﴿كلاّ إنَّ كتَابَ الأبرارِ لفي عِلّيِّين . وَمَا أدْرَاكَ مَا عِلّيُّون ، كتابٌ مرقومٌ يَشْهَدُهُ المقرَّبون﴾[٢١٤] فهو وإنْ كان بجسمانهِ مع الإنس ، لـهُ حضورٌ وأُنْس ، لكن يَسُرُّهُ في عالَمِ الملكوتِ حضرةُ القدس ، فهو بصفاتهِ المباركة ، أشرفُ من الملائكة . ومَنْ غلبتْ شهوتُهُ عقلَه ، واستولتْ على قلبهِ حُجُبُ الغفلة ، فانغمسَ في بحرِ الشهوات ، واستحوذتْم أنتم عليهِ بذميمِ الصفات ، وأشقاه القدرُ السابق ، ولم يَعُقْكُم عن التصرّفِ فيه عائق ، فهو بالنهارِ ساهٍ ، وبالليل لاهٍ ﴿اسْتَحْوَذَ عليهِمُ الشيطانُ ، فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ ، أُولَئكَ حِزْبُ الشيطانِ ، ألاَ إنَّ حِزْبَ الشيطانِ هُمُ الخاسِرون﴾[٢١٥] فهو أخَسُّ من أرذلِ الحيواناتِ ، وأدنى من أدكِّ[٢١٦] الجمادات ، فقد خابَ مآبا ، وتَعِسَ انقلابا ، ويقولُ يوم القيامة : ياليتني كنتُ ترابا .

قال الراوي فلمّا انتهى الكلام ، إلى هذا المقام ، أمسك العفريتُ عِنانَـه ، وأخرسَ اللهُ لسانَـه ، وظهر فضلُ الزاهدِ وعلمُـه ، ووفورُ حِكَمِـه وحُكْمُـه وفَهْمُـه ، وأنّـهُ أصاب ، فيما أجاب ، ولزم العفريت ، ومَنْ معهُ من الجن والعفاريت ، وطوائفِ المَرَدَةِ والشياطين ، والعَنَدَةِ المتمردين ، وذوي الإبلاس ، والوَسْوَاسِ الخناس ، ما شرطوهُ على أنفسِهم من التخفّي وعدمِ الظهور ، والتفرُّقِ في الخرائبِ والكفور ، فتفرّقوا واختفوا ، ومُصَلَّمين[٢١٧] ومجدّعين[٢١٨] انتفوا ، وسكنوا الخرائبَ

---

[٢١٤] قرآن كريم ، سورة المطففين : ١٨ – ٢١ .

[٢١٥] قرآن كريم ، سورة المجادله : ١٩ .

[٢١٦] أدك : أضعف ، أقل ، وهى المهدمة التى استوت بالأرض .

[٢١٧] المصلّم : الأصلم الذى قطّعت آذانه كناية عن الذلّ والمهانة .

[٢١٨] المجدّع : الأجدع ، وهو الذى قطعت أنفه وجدعت ، كناية عن الذل والمهانة .

والحمَّامات ، والحاناتِ والخانات ، فلـم يظهـروا بعـد ذلـك للإنـس ، وحصـل منهـم بذلك للإنسِ الأُنس ، واستراحوا من مشاهدةِ طلعتهـم القبيحـة ، واستـمرَّت إلى يـوم القيامة من تلك القبائح مستريحة .

وهذا آخر الباب ، والله أعلم بالصواب ، والحمد لله

رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد

وآله وصحبه أجمعين .

الباب الخامس

في نوادر ملك السباع
ونديميه أمير الثعالب وكبير الضباع

قال الشيخُ ابو المحاسن ، المرتوي من بحارِ الحكمةِ بماءِ غيرِ آسن : فلمَّا أنهى الحكيم ، هذا البابَ العظيم ، عن عالَمِ الإنسِ والشيطانِ الرجيم ، تنبَّه الملكُ لغزارةِ حكمهِ فأفرغ عليهِ خلعَ إحسانهِ وكرمٍ ، وغمَّسهُ في غديرِ فضلهِ ونعمهِ . ثمَّ أمرَ أنْ يقوِّيَ الطباع ، ويذكر نوادرَ الوحوشِ والسباع ، لتنبسطَ النفسُ وترتاض ، وتتحلَّى بعقودِ عقيدِ هذه الأحماض[1] ، فقبَّل أرضَ العبوديَّة بشفاه الأدب ، وانتهضَ لأداءِ ما عليهِ من المراسيمِ وَجَب ، وقال : كان في بعضِ الغياض ، أسدٌ رَبَّاض[2] ، عظيمُ الصورة ، كريمُ السريرةِ والسيرة ، وافي الحشمة ، عالي الهمَّة ، كثير الأسماءِ والألقابِ ، عزيزُ الأصحاب ، كبيرٌ بين الأمراءِ والحجَّاب ، والوزراءِ والنوَّاب ، يُدعى في جوانب مملكتهِ ، وأطراف ولايتهِ ، بحيدرةَ وبَيْهَس ، وضيغم والدَّوْكَس ، والغَضِبِ والضِّرْغَامِ والعنبس ، والطَّيْثار والهِنْدِس ، والغَضَنْفَرِ والهِرْمَاس ، والغضبانِ وأبي العبَّاس[3] ، إلى سائر الأسماءِ والألقابِ والكُنى ، وكثرةُ الأسماءِ تدلُّ على

---

[1] الأحماض : يقال أحمض القوم أى أفاضوا فيما يؤنسهم من الحديث الشائق والكلام الممتع .. والمزل يراد به جدًّا.

[2] رباض : مقيم ، رابض .

[3] حيدرة ، وبيهس ، وضيغم ، والدوكس ، والغضب ، والضرغام ، والعنبس ، والطيثار ، والهِنْدِس ، والغضنفر ، والهِرْماس ، والغضبان ، وأبو العبَّاس : جميعها أسماء وصفات وألقاب وكنى للأسد القوى الجريء الذى تهابه سائر أسود الغابة .

شرفِ المسَمَّى ، وهو مطاعٌ في ممالكِه وولاياتِه وأقاليمِه ، مترشفٌ ثغورَ الامتثالِ بشفاهِ أمثلتِه ومراسيمه ، وكان لهُ من خواصِّ الندُّماء ، وكبراء الجلساء ، نديمان كندمانيْ جذيمة[4] ، يُلازمان حضرتَهُ وَيَلِجَان حريمه ، أحدُهما ثعلبٌ يُدعى أبا نَوْفَل[5] ، وآخرُ ضبعٌ يسمَّى أخا نَهْشَل[6] ، طبعُهما ظريف ، وشكلُهما لطيف ، ومحاضرتُهما مرغوبة ، وصحبتُهما مطلوبة . وكان في خدمتِهِ دُبٌّ هو وزيرُهُ ، ومعتمدُهُ ومشيرُهُ ، كافلٌ أمورَ مملكتِه ، ومدبرٌ مصالحَ رعيتِهِ ، والملك مفوضٌ أمورَ الرعيةِ إليهِ ، ومعتمدٌ لِما يعلمُ من كفايتِهِ عليه ، ومشغولٌ ليلاً ونهاراً بمعاشرةِ نديمَيْه . فاتسعَ خيالُ الوزير ، وأخذ في مجالِ التفكير ، إلى النديمَيْن ، لكونِهما ناصحيْن قديمين ، ربَّما يصدرُ منهما عند الملكِ ما يحطُّ منزلتَه ، ويُفسدانِ للحسدِ الذي لم يَخْلُ منهُ جَسَدٌ صولتَه ، واستحوذَ عليهِ هذا الخيال ، واتّسع في ميدانه المجال ، فكان خائفاً على وظيفتهِ ومنصبه ، مترقِّباً منهما ما يكونُ عزلهُ بسببهِ ، فنشأ من ذلك في خاطرِه حساوة[7] ، أورثتْهُ قساوة ، وجذبتهُ إلى عداوة ، وَوَقَرَ في قلبهِ ذلك وتأكّد ، وطال عليهِ من الدهرِ الأمد . فكان يترقّبُ لهما الفرص ، ليوقعهما من الغُصَص في قفص ، ويسابقهما قبل انتيابه[8] ، ويتغذّى بهما قبل أنْ يتعشيا بهِ . ويقول لا بُدَّ من تنظيفِ الطريق ، قبلَ حصولِ التعويق ، وقد أحسنَ مَنْ قال ، وأتقنَ في المقال :

---

[4] وقد قتل نديميه فى لحظة سكر ثم ندم بعد ذلك ندماً كبيراً .

[5] من معانى النوفل : البحر ، ورجل نوفل : معطاء وظريف ، والنوفل أيضا : الشاب الجميل لكن أبا نوفل هنا اسم للثعلب أو بالأحرى كنية له .

[6] من معانى النهشل أيضا : الذئب ، الصقر لكن أخا نهشل هنا اسم للضبع أو بالأحرى كنية له .

[7] حساوة : غلظة ونفور .

[8] انتيابه : أن تحل به نائبة أو مصيبة .

ومَن لَمْ يزُحْ عن دربهِ الشـوكَ قبـلَ أنْ يطـأهُ فـلا يعتبْ إذا شـاكَ[9] رجليـهِ

وأقلُّ الأقسام ، أنْ يبعدَهما عن حضرةِ الملكِ الهمام . فاتّفق أنَّ في بعضِ الأسحار ، تجاذب الملكُ ونديماهُ أطرافَ الأسمار ، فأثّر فيهم السهر ، لطيبِ السمر ، في ضوءِ القمر ، وحلاوةِ ما جَنَوْا منهُ من ثمر ، عاملين بما قيل :

متى ما أصادفُ مَنْ أحبُّ بخلوةٍ أصـرّحُ بما أرجـوه من مُتكتّمِ
يقولُ فأصغي أو أبـثُّ فيـنثـن ليسـمعَ قـولي كالمشوقِ المتيَّمِ
أسـامِـرُهُ لا أنْ أمـلَّ حديثَـه وآمـرهُ كلَّ الأمور سـوى نَـمِ

فأخذت الملكَ عيناهُ[10] ، فاستند إلى متكاهُ ، فانحلَّ من طرفهِ وِكـاهُ[11] ، فلم يتمالكْ أبو نوفل أنْ ضحك ، لمّا غنَّتْ زمّارةُ الملك ، فتنبَّه من ضحكهِ ، وتعجَّبَ من جراءتهِ وفتكهِ . ثمَّ استمرَّ متناوِماً ، لينظرَ ما يصدرُ منهما فابتدرَه أخو نهشل وزجرَه ، فقال : ويلك ماذا رأيت ، وأيَّ عجبٍ سمعتَ ووعيت ، حتّى ترتبَك في الضحك أما قرأتَ وفهمت ، وسمعتَ وعلمت ، أنَّ الضحكَ بلا سببٍ من قلّةِ الأدب ، وأن الحشَمَ ، وسائرَ الخدم ، ومَن نادم الملوكَ وجالسَهم ، يحترم أمورَهم ويعظم مجالسَهم ، سواء غابوا أو حضروا ، ناموا أو سهروا ، قاموا أو قعدوا ، استيقظوا أو رقدوا ، وقد قيل : رُفِعَ قَلَمُ الحساب ، والضبطُ والعتاب ، عن الصبيِّ والمجنونِ اوالعاشقِ والمفتون ، وكذلك السكران ، والنائمِ ولا سيما السهران ، وعُذْرُ النائمِ يامسكين ، أعظمُ من عذر الباقين ، فإنَّ النومَ أخو الموْت ، وفيهِ ما ليس في غيرِهِ من الفَوْت . وقد قال صاحبُ الشرعِ ، الذى زكا منه الأصلُ والفرع ، حفظه

---

[9] شاك : دخل الشوك فى قدميه .

[10] أخذت الملك عيناه : كناية عن النوم .

[11] متكاه : المتكأ أو المسند ، وكاه مخفف وكاءه وهو الخيط الذى يُشدّ به اللباس أو الصرة أو الثوب أو غير ذلك .

ا للهُ بجنودِ الصلاةِ والسلامِ وبحرسَه "يعتذرُ عن النائمِ العينِ وكَاءَ[١٢] أَلْسِه[١٣] ، وقال ذو الصدْقِ والتصديق ، "رُفِعَ قَلَمُ التكلِفِ عن النائمِ حتى يفيق" وإنما اعتبرَ الشرعُ أحوالَ النيام ، وَسَاوَاهُم باليقظى[١٤] صوناً لبعضِ الأحكام ، في نحوٍ من خمسٍ وعشرين مسألة ، ضبطَها من الفقهاء [الحكماء] الكَمَلة . ولقد طالعتُ فى كتابِ الأخلاق ، أنَّ ا للهَ الكريمَ الخلاّق ، حيث جعل جنساً من الأمم ، فى طبائعِ وصفاتِ متساوي القدم : فلا يعتب أحدٌ أحدًا ولا يزدريه ، ولا ينقم عليه عيباً هو فيه ، وعلى الخصوص إذا صدرَ من الملوكِ شيءٌ يعاب ، فلا يحمل ذلك منهم إلاّ عَلَى الفضل والصواب . وكلُّ ما كان فى غيرِ الملوكِ معتبة ، فإنه إذا صدر من الملوك يُعَدُّ مَنْقَبَةً[١٥] . ويجبُ على مَن يجالسُ الملوك ، وكان لهُ في خدمتِهم سلوك ، واختص بمحاضرتهم ، واستعدَّ لمناظرتهم ، أنْ لا يبصَر منهم إلاّ المحاسن ، ولا يخبرَ عنهم إلاّ بالأحاسن ، وقد قيل : مَنْ جالسَ الملوكَ بغير أَدبٍ حبسه ، فإنّهُ خاطرَ بروحِهِ وعرّض للبلاءِ نفسهُ ، وقال ا للهُ الأعظمُ فى كتابه المحكمِ لنبيه ﷺ ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[١٦] ولهذا قال ﷺ "شيبتنى هودٌ وأخواتُها" .

وماساد العجمُ والعرب ، إلا بسلوكِ طريقِ الأدب . وقال عليه الصلاة والسلام "أَدّبَنِي رَبِّى فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي" فقال المغفّل ، أبو نَوْفَل ، إذا طَهُرَ القلبُ من الخيانة ، وعاملت اليدّ بالأمانة ، وَتَنَقّى العِرْضُ من العيوب ، وكان اللسانُ غيرَ كذوب ، وزكت النفسُ بالحلم ، وعريت عَن الجهلِ بلباسِ العلْم ، يصلحُ لها أَنْ تَسْخَرَ بكلِّ

---

[١٢] الوكاء : المتكئ نائما أو بالأحرى الاتكاء نوما .

[١٣] أَلِسَ فلان ألْسا : اختلط عقله . (كناية عن هلوسته أو ما يتفوّه به نائما) .

[١٤] اليَقَظى : اليقاظى واليقّاظ عكس النيام .

[١٥] منقبة : فضيلة .

[١٦] قرآن كريم ، سورة هود : ١١٢ .

أَحد ، وتفخرَ على أكبرِ مَنْ يكونُ ولو أنَّهُ الأسد ، وأنا إذا طَار بهذه الصفاتِ طيري ، فَلاَ عليَّ إذا ضحِكْتُ على غيري . فقال أخو نهشل : لا تقُلْ ذلك لا ، واستعِذ باللهِ من الجهل والخُيَلا[17] . واعلمْ يا ذا الكرامات ، أنَّ الجاهلَ يُعرفُ بثلاثِ علامات : إحداها يا محبوب ، أنْ يرى نَفْسَهُ عاريةً عن العيوب ، الثانيةُ يا رفيقَ الخير ، أنْ يرى نفسَه أعْلَمَ من الغير ، الثالثةُ أنْ يرى أنَّهُ انتهى في فنونِ العلْم والنُّهى ، وبلغ أعلى المراتب ، وهذا أكبرُ المعايب . وقالت الحكماء : إذا رأيتَ نفسَك عاريةً عن العيوب ، وتصدَّيْتَ لِتتبُّع عثراتِ الناسِ بالغيوب ، وَفَتَّشْتَ عن عيوبهم الجيوب ، فأنتَ حينئذٍ غارقٌ في بحرِ العيوب ، وبالذي أنت طالبُهُ مطلوب ، وانظرْ يا ذا السكينة ، ماذا قاله الإمامُ مالكٌ رضيَ الله تعالى عنه حَبْرُ[18] المدينة "لِيكُنْ جُلُّ مطلوبِك ، حرصُك على تَفَقُّدِ عيوبِك" وقُم بذلك عن نفسِك وذاتِك ، مقامَ حُسَّادِك ورُقبائك وعُدَاتك[19] . وقال ذو هدى ، وما قال سدى :

لكلِ فتى خُرْجٌ من العيب ممتلي على كتفهِ منهُ ومن أهلِ دهرهِ
فَعَيْنُ عيوبِ الناسِ[20] نُصْب عيونِه وعينُ عيوبِ النفسِ من خلفِ ظهرهِ

فقال أبو نوفل صدقتَ ، ونصحتَ إذ نطقتَ ، فجزاك الله عني خيرا ، ووقاك شرًّا وضيْرا . ولكن يا أخي وقعتْ هفوة ، على سبيلِ السَّهْوَة ، وحصلتْ زلّة ، على غَفْلة ، واللفظُ عن غيرِ نظر ، كالسهمِ إذا رُمي عن الوتر ، لا يمكنُ ردُّهُ ، ولا وقوفهُ وصدُّهُ ، كما قيل :

القَوْلُ كاللّبنِ المحلوبِ ليس له رَدٌّ وكيفَ يَرُدُّ الحالِبُ اللبنا

---

[17] مخفف : الخيلاء .

[18] الحبر : العالم الفقيه .

[19] عُداتك : جمع العادى ، وهو العدوّ .

[20] نُصب : أمام .

ولكن الذنبَ والاجترا[٢١] ، إذا لم يشتهرا ، لا يتوجّه عليهما العتاب ، ولا يستحقُّ مرتكبُهما العقاب ، إذا استغفر وأناب ، وأنا وإن وقع مني الخطا ، آمن بحمد الله من شرّ الجزا ، ومن المؤاخذة بالجريمة ، وإنْ كانتْ عاقبتُها وخيمة ، لأنّها بينك وبيني ، وأنتَ بمنزلةِ روحي وعيني ، ورفيقي وصاحبي ، ومُراعي حقّي وجانبي ، فَسِرِّي عندك مَصُون ، وأمري عن الإشاعةِ مخزون . وقد قال الحكماءُ ذوو التجارب ، لا تُودِع السرَّ إلاّ عندَ صاحب ، صدوقٍ صديق ، ومحبٍ شفيق ، وأنت هو ذاك الموثوق ، فاطْرَحْهُ من سويداءِ قلبك في أسفلِ الصندوق ، فإنْ استمرَّ عندك ساكنا ، صرتُ من وَبَال أمرهِ آمِنا ، ولا يبعد ذلك من شفقتك ، وسابقِ صداقتِك ، ووفائِك بالمروَّة ، وقيامِك بحقوقِ الأُخوَّة . وأسألُ إحسانَك أنْ تجيبَ لصاحبِك القديمِ مَرْجُوَّة . قال أخو نهشل : أعجبُ لأبي نوفل ، كيف يغفل ، أمَا سمعْتَ يا عاقل ، قول القائل ، من علاماتِ الجاهل : أن يقرضَ مالَهُ باللُّطف ، ثمَّ يتقاضاهُ بالفظاظةِ والعنف ، وأنْ يودِعَ سرَّهُ ، وخفاياهُ وأمرَهُ ، عند مَنْ يحتاجُ أنْ يتضرَّعَ إليهِ ، ويقسمَ في إخفائهِ واكتتامهِ عيهِ ، ثمَّ يحلفهُ أن لا يُبْديه ، ولا يذكرهُ لأحدٍ ولا ينهيه ، وقد قالت الحكماء : لاتُودِعْ أحداً سرًّا فإنْ فعلتَ فَاتَكَ السرّ ، لأنّ كتمانَهُ قَيْدُ همٍّ وعناء ، وإبداءَهُ كَيْدُ هلاكٍ وبلاء . وقد قيل :

وكلُّ سرٍّ جاوزَ الاثنينَ شاع ... وكلُّ علمٍ ليس في القرطاس ضاع

لم يقصد بالاثنين ، إلاّ الشفتين . وقال الشاعر :

إذا ضاق صدرُ المرءِ عن سرِّ نفسِهِ ... فصدرُ الذي يُسْتَوْدَعُ السِّرّ أضيقُ

وقال أيضا :

لا تُودِعَنَّ وَلا الجمادَ سريرةً ... فمِن الحجارةِ ما يسيرُ وينطقُ
وإذا المحكُّ أضاع سِرَّ أخٍ لَهُ ... وهو الجمادُ فَمَنْ به يُسْتَوثَقُ

---

[٢١] الاجترا : مخفف الاجتراء .

وقال أيضا :

صُن السرَّ عنْ كلِّ مستخبرٍ   وحاذرْ فما الحزمُ إلاّ الحذَر
أسيرُك سِرُّك إنْ صنتَهُ   وأنتَ أسيرٌ لهُ إنْ ظهَر

وكلّما تحرَّك بهِ اللسان ، انتشر في الكونِ والمكان . وناهيكَ يا تامر ، قضيَّة الحرامي مع الطامر . قال أبو نوفل ، كيف تلك يا أخا نهشل ؟

[١/٥] قصة الحرامي مع الطامر

قال : بلغني أنَّ رجلاً من الحرامية ، واللصوصِ الكرارية[٢٢] ، كانت نفسُهُ ذاتُ الخيانة ، تحرِّضُهُ على الدخولِ من حواصلِ الملكِ[٢٣] إلى الخزَانة ، وإنها لِرُؤيةِ الخِزَانةِ مُشْتاقه ، ولَمعانَقَةِ فاسقِ التحرّمِ عَشّاقه ، وكان جاهداً في أن يعطيَها ، من مُنَاها ما يرضيها ، ولكن كانتْ نجومُ الحرَّاسِ بالرصد[٢٤] ، ولرجوعِ ذلك الشيطانِ كلُّ يعدّ ، وكَتَمَ ذلك السرَّ عن الإخوان ، ومضى عليهِ برهةٌ من الزمان ، وهو يُكابدُ اكتتامه ، ويخافُ من السوءِ ختامه ، والقدرُ كائن ، والكائنُ حائن ، إلى أنْ طَفَحَ عليهِ ما قصد ، وغلا خَمْرُ سرِّهِ في قلبهِ وقذفَ بالزبد ، فطلب صاحباً يتلفّظُ بهِ إليهِ ، ويعتمدُ في اكتتام سرِّهِ عليه ، واختلى في حجرتِه ، فقَرَصَهُ برغوثٌ في حنجرتِه ، فمدّ يدَهُ إليهِ ، وأفشى سرَّه معتمداً عليهِ ، وقال في خاطرِه ، عند إفشاءِ سرائرِه ، لا لهذا لسانٌ يقدرُ على البيان ، وعلى تقديرِ أنْ لَوْ كان ، فهو مثل ولدي ، تربىَّ من دَمِ كَبِدي ، ولحمِ جسدي ، واطّلع على عورتي ، فلا يقصدُ عثرتي ، ولا يكشفُ سرِّي ، ولا يهتِكُ ستْرِي ، ثمَّ أدْنَى فَاهُ حتّى وافاه ، وقال : يا

---

[٢٢] الكرارية : يعنى اللصوص الذى لاينقبون المنازل ، وانما يصعدون عليها بالكَرّ ، وهو حبل من ليف يصعد به.

[٢٣] حواصل الملك : خزائن الملك بعامة ، بما فيها خزانة الذهب والفضة (الأموال) .

[٢٤] الحراسة والمراقبة .

أبا طامر[٢٥] ، وكاتمَ السرِّ في السَّرائر ، إني عزمتُ كالمنهمك ، على الدخول إلى خزائن الملك ، لأستصفيَها ، وآخذَ ما فيها ، فاكتمْ هذا السرَّ عني ، وامصُصْ مـ شئتَ من الدم منّي ، ثمَّ طرحهُ في سراويلهِ ، واستمرَّ في نِيَّتهِ على أباطيلهِ . ثمَّ قصد في بعض الليالي ، ما كان يخلو بهِ على التوالي ، ويرصدُهُ في المكامن ، من الدخول إلى الخزائن ، فلاحتْ لهُ فرصةٌ فانتهزها ، واستعمل دقائقَ صنعِه وأبرزها ، وانتقل من ذلك إلى المبيت ، ولَطِيء[٢٦] تحتَ سريرِ الملكِ كالعفريت ، والملكُ نائمٌ فوق السرير ، على فراشِ الحرير ، معانقٌ الظبيَ الغرير ، وخرزةُ التاجِ عند رأسهِ تقدّ[٢٧] : كأنها سراجٌ متّقد . فقصدَ اللصُّ أخذَها ، واقتطاعَها وفلذَها ، فأمهل القوم ، إلى أنْ استغرقوا في النوم ، وبينما هو متفكرٌ فيما بهِ ، إذ خرج البرغوثُ من ثيابهِ . ودخل إلى جسدِ السلطان ، وقصَّ عليهِ بلسانِ القَرْص ، كلَّ ما كان من شأن اللصّ . فنهض الملكُ من مرقده ، فرأى نقطةً على جسده ، فطلب النور ، لينظر الأمور ، فرأى برغوثاً طار ونزل تحت السرير ، فقَصُّوا أثرَهُ على المسير ، فوجدو الحرامي الكسير ، فربطوهُ كالأسير ، ووقع في الأمرِ العسير ، بالأمرِ اليسير ، فصار كما قيل :

مشى برجليْهِ عَمْداً نحوَ مصرعِه ليقضيَ الله أمراً كان مفعولا

وإنَّما أوردتُ هذا المثل ، لتعلمَ يا أبا نوفل ، أنَّ سرًّا في الفؤاد ، لا يُؤمنُ عليه الجماد ، فضلاً عن متحرّكٍ من حيوان ، ونعوذُ باللهِ إنْ كان من جنْسِ الإنسان

---

[٢٥] أبو طامر : كنية البرغوث ، لأنه يطمر الى أسفل أو في الأرض بمعنى يثب ويقفز ويستخفى ، فلا يُرى إلا أثره .

[٢٦] لطيء : لزق بالأرض واختبأ ، ولم يكد يتحرك ، واللطاة اللصوص يكونون بالقرب منك يلازمونك كامنين .

[٢٧] تقدّ : تتلألأ .

وقد قيل : للحيطانِ آذان ، ومن أمثالِ العجمِ الأوباش : للديوان آكواش[٢٨] . فلمَّا انقضى هذا الكلام ، وكان الأسدُ قد استوفاهُ على التمام ، وقد أثار في أحشائهِ لهبا ، نهض من مرقِدهِ ممتلئاً غضباً ، واستحال وتحرَّك وأمر بأبي نوفل فقبضوا عليهِ ، ووضعوا الغُلّ[٢٩] في رقبتِهِ والسلاسلَ في يديْهِ ورجليْه ،وأمر إلى السجنِ برفعهِ ، بعد التنكيلِ بهِ وصفعِه ، فتشوش خاطرُ صديقِه ، وجليسِهِ ورفيقه . ثمَّ انقضّ المجلسُ النظيم ، ودخل الملكَ إلى الحريم . فتوجَّه أخو نهشل ، إلى السجنِ المقفَل ، ولام صاحبَهُ أبا نوفل ، وزاد في التعنيف ، وقال أيُّها الأخُ الظريف ، ألَمْ تعلَمْ أنَّ الشخصَ إذا تكلَّم ، يُضْبَطُ كلامهُ عليهِ ، ويعودُ محصولَ ما يلفظُ به إليهِ ، وقد قال الربُّ المجيد ﴿مّا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إلاّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عتيد﴾[٣٠] وأنَّ كثرةَ الكلام ، تضرُّ بالنفسِ أكثر ممَّا يضرُّ بالبدنِ الطعام ، وكلُّ هذا المصاب ، إنَّما جاء من قِبَلِ الإعجاب ، وكثرةِ الكلامِ والغرور ، وعدمِ التأمُّل في عواقبِ الأمور ، قال الشاعر :

ما انْ ندمتُ على سكوتي مرَّةً ولقد ندمْتُ على الكلامِ مرارا

قال حكماءُ الهند ، وفضلاءُ السند ، ما دام الكلامُ في الفؤاد ، ولم يبدُ منهُ على اللسان باد ، ولم يصبْ منهُ سائلُ حرف ، في صَدَفَةِ الآذانِ أو وِعَاءِ الطرف ، فهو كالبنتِ البكر ، المشهورةِ الذكر ، كلُّ أحدٍ يخطبُها ، ويميلُ إليها ويطلبُها ، ويتمنّى أنْ يراها ، ويترشَّفَ لَماهَا[٣١] ، فإنْ أُلقي إلى المسامع ، ووعاهُ كلُّ ناظرٍ وسامع ،

---

[٢٨] آكواش :آذان تسترق السمع ، والكلمة فارسية الأصل وقد جمعت جمعا عربيا ، مفردها كوش (بكاف فارسية) بمعنى القول الذى تسمعه الأذن وتتناقله . اما كلمة ديوان فلعلها كلمة ديوار (وتروى ايضا ديوال) ومعناها الجدار اما كلمة ديوان فمعناها المكان أو المجلس ، والمؤلف بهذه الصياغة حاول تعريب المثل الفارسى مبنى ومعنى ليتفق والمثل الشعبى العربى .

[٢٩] الغُلّ : قيد من حديد أو جلد يجعل فى عنق السجين أو الأسير أو المجرم ، أو فى أيديهم .

[٣٠] قرآن كريم ، سورة ق : ١٨ .

[٣١] اللمى : سمرة فى الشفة تستحسن .

فهو كالعجوزِ الشوهاء ، إذا سلَوها وقلَوها(٣٢) ، وهي تلازمُ صباحاً ومساء ، ويفرُّ منها الرجالُ والنساء ، ويحيدُ كلُّ أحدٍ عنها ، فإذا تكلّمتْ أُسكِتَتْ وإذا سلّمت أُعْرِضَ عنها . وقال بعضُ الحكماء : اللسانُ أسد ، وهو حارسُ الرأسِ والجسد ، إنْ حبستَهُ حرسَك ، وإنْ أطلقتَهُ حبسَك ، وإنْ سلطتَهُ افترسَك . وقالوا : الكلامُ أسيرُك ما لم تُبْدِهِ فإنْ تكلمتَ بهِ فأنت أسيرُه . قال بعضُ الحكماء : أنا على ما لَمْ أَقُلْ أَقْدَرُ مِنّي على ما قُلْت . وقال عيسى صلواتُ اللهِ عليه : العافيةُ عشرةُ أجزاء ، تسعةٌ منها في الصمت إلاّ عن ذكرِ الله ، وواحدٌ منها في تركِ مُجالسةِ السفهاء . وقال نبيُّ الحرمَيْن وإمامُ الثقلَيْن(٣٣) صلواتُ اللهِ وسلامُه عليه : الصمتُ حِكْمَة . وقال عليه الصلاة والسلام : البلاءُ مُوَكّلٌ بالمنطق . وقال الحكماء السكوتُ يستُرُ عليبَ الجهلِ ويعظّمُ حُرْمَةَ الملوك . ولقد آذَيْتَ نفسَك ، وتسبَّبْتَ فيما أَوْجَبَ حبسَك ، وأقلقتَ وَدُودَك ، وأشمتَّ حَسُودَك ، ولقد كانت حِصَّتِي من بلائك ، ومما دهاني من شدَّةِ عنائك ، أعظمَ من كلِّ حِصَّة ، وقصتي في ذلك أعجب من كلِّ قصة ، إذْ أنتَ رفيقي وزميلي ، وفي حضرةِ الملكِ ومنادمتهِ عديلي ، نشأنا على ذلك ، وسلكنا في الموافقةِ والمرافقةِ أقومَ المسالك ، وكنت المرجوَّ لمخافي ، وإيابي في مطافي ، ومُشتكى حَزَني ، ومشتفى شجني ، ومخزنَ أسراري ، وأعظمَ أستاري ، وراويةَ أخباري ، في أحباري ، وراويةَ أسفاري ، في أسفاري(٣٤) ، ومن أين أَلْقَى مثلَك رفيقا ، أو أجدُ صديقاً شفيقاً ، وأنتَ صاحبُ السرّاء ، ومُصاحِبُ الضرّاء ، وأنشد :

---

(٣٢) القِلى : البغض والهجر .

(٣٣) الثقلان : الجنّ والإنس .

(٣٤) الجناس بين أسفارى الأولى والثانية ، يكمن فى أن أسفارى الأولى بمعنى كتبى ، مفردها سِفْر ، و أسفارى الأخرى ، من السَّفَر ، أى عند سفرى وغيابى .

ومِنْ إينَ أَلْقَي بعد سبعينَ حجةٍ   رفيقا كمَنْ أرضعتْهُ قهوةُ الصِّبا
أديباً أريباً لَمْ أَمَلّ مقامَهُ   ولا مَلّني يوماً حكيماً مهذباً

ويعزُّ عليّ ، ويعظمُ لديّ ، أن أراك في هذه الحالة ، ثم أجرى سحائبَ دموعِه الهطالة ، وقال :

على الحرّ أنكى أنْ يَرَى حَزِناً[٣٥]   في محنةٍ ضاقَ عنها دونَهُ الحيلُ

ولقد تحيَّرتُ في هذا الأمرِ المهول ، وما أدري قصاراهُ إلى ماذا يؤول ، وليلةُ الغمِّ الصّراح ، عَمّاذا يُسفرُ فيها الصباح . فأنْكِيء لذلك أبو نوفل وبكى ، وتضرّع إلى الله وشكا ، وقال يا أعزَّ الأصحاب وأحبَّ الأحباب ، لقد أثَّرَ عندي ما قلتَ من الكلام ، أكثر ممّا أصابني من الآلام ، كيف يُغتفرُ لأحد الجانبين ، ويُطلق أحدُ القيدين ، وأنّى يُعتذرُ بالقضاءِ والقدرِ لإحدَى الغُصَّتَيْن[٣٦] وهل شيءٌ فى عالَمِ السكونِ والفساد ، جاء خارجاً عما قدّره الله وأراد ، وكلّنا في هذا سويَّة ، والعبدُ مقهورٌ مع المنية . ولكن الجَدَّ[٣٧] إذا أقبل ، ولاحَظَ بسعدهِ وتفضّل ، فكلُّ حركةٍ تصدرُ من الغبيِّ العاجز ، يعجزُ عن مقاومتِها البطلُ المبارز ، وكلُّ قول يتفوّه بهِ الجاهل ، يدعُ دليلُ معانيهِ أدلّةَ العقلاءِ في مجاهلَ ومذاهِل ، ودعاميصُ[٣٨] ذوي الآراء المنضبةِ المناهل ، تلقي من عقنقلِ[٣٩] الحيْرَةِ في مجاهِلِها مناهل ، فيصيرُ كلُّ وجهٍ إليها مائل ، وكلُّ إنسانٍ بها قائل ، وقَوَامُ كلِّ سعدٍ وقبولٍ إليها قابل ، كما قيل :

وإذا السعادةُ لاحظتْك عيونُها   نَمْ فالمخاوفُ كلُّهنَّ أمَانُ

---

(٣٥) الحزِن : الحزين (والحزْن من الناس من خشنت معاملته) .

(٣٦) الغُصَّة : ما اعترض فى الحلق من طعام أو شراب .

(٣٧) الجد : الحظ أو السعد .

(٣٨) دعاميص : مفردها دعموص بمعنى الطفل أو بالأحرى آراء الأطفال غير المسؤوله .

(٣٩) العقنقل : الوادى العظيم المتسع ، أو الكثيب العظيم المتداخل الرمل .

واصْطَلَدْ بهَا العَنْقَاء[٤٠] فهِيَ حَبَائِل   واقْتَدْ[٤١] بها الجَوْزَاءَ[٤٢] فَهي عِنـانُ[٤٣]

ونعوذُ با للهِ من ليلِ السَّعْدِ إذا أدبر ، وصبحِ الخمولِ إذا أسفر ، فإنَّ اللبيب ، إذ ذاك يخطىءُ ما كان يصيب ، ويفعلُ العاقلُ ما لا يرتضيه باقِل[٤٤] ، فيكون جهدُ النفْس ، زيادةً في العكس .

وإذا تولى[٤٥] الجدَّ يحتاجُ الذكيُّ   في رأيهِ قبل الزوالِ مراحـا

وانقلابُ الدهرِ وانعكاسِ الزمان شيمةٌ معهودة ، وخصلةٌ معدودة ، كما قيل :

ومَنْ ذا الذي ما غَرَّهُ صَرْفَ[٤٦] دَهْرِهِ   فَأَضْحَكَهُ يومـاً ولم يُبْكِهِ سَنَـة

وأنا كنتُ غافلا ، وإنْ لم أكُنْ جاهلا ، وقد يكونُ الشخصُ عَمَا تَحَقَّقَهُ ذاهلا ، وذلك لِمَا كان عَوَّدني الزمان ، وألفتُهُ من سالفِ الدوران ، وإرخاءِ العِنـان ، ونيلِ الأماني والأمان ، وإسبالِ ذيلِ النعم ، والإحسانِ الدائمِ والكرم ، فمشيتُ علـى مـا كنتُ أعهدُه ، وفي نفسي أجدُه ، وأيضاً كانتْ لـذَّةُ عشرتِك ، ونعيـمُ صحبتـك ، وحسنُ موافقتك ، وعِزُّ مرافقتِك ، أنساني كلَّ بليَّـة ، وأَمِنْـتُ بذلـك كـلَّ رذيَّـة ، نألهاني عن التنكُّد ، ودهتني غفلةٌ عن التزُّع والتبـُّد ، مثل ما أصاب ذلـك الهدهُـد . قال أخو نهشل ، أسرد ذلك المثل .

---

[٤٠] العنقاء : طائر عظيم فى طيرانه ، وقيل طائر وهمى (عنقاء مغرب) يضرب بـه المثل فـى طلـب المحال الـذى لاينال.

[٤١] اقتَدْ : فعل آمر من اقتدى ، بمعنى خُذْ بمقودها (السعادة .

[٤٢] الجوزاء : أحد بروج السماء بين الثور والسرطان (كناية عن البعد الارتفاع) .

[٤٣] عنان : مقود . سير اللجام الذى تمسك به (استعارة) .

[٤٤] باقل : هو رجل من قبيلة إياد يضرب به المثل فى العيّ والحمق .

[٤٥] تولى : انصرف الحظ وأدبر .

[٤٦] صرف الدهر : نوائبه وحِدْثانه .

[٢/٥] قصة الهدهد والصبي

قال : ذكروا أنَّ الله مُجْرِي الخير ، علّم بعضَ عبيدِه الصلحاءِ مَنْطِقَ الطيْر ، فصاحبَ منها هُدْهُدا ، وازداد ما بينهما تودُّدا . ففي بعضِ الأيّام ، مَرّ بالهدهدِ ذلك الإمام ، وهو في مكانٍ عال ، ملتفتٌ إلى ناحيةِ الشمال ، وهو مشغولٌ بالتسبيح ، يسبّحُ الله بلسانِه الفصيح ، فناداه يا صاحبَ التاج ، والقَباء(٤٧) والديباج(٤٨) . لا تقعدْ في هذا المكان ، فإنهُ طريقُ كُلِّ فتّان ، ومطروقُ كُلِّ صائدِ شيطان ، ومقعدُ أربابِ البنادق ، ومرصدُ أصحابِ الجَلاهِق(٤٩) . فقال الهدهد : إني عرفتُ ذلك ، وأنه مَسْلَكُ المهالك . قال فلأي شيْءٍ عزمتَ على القعودِ فيهِ ، مع علمك بما فيهِ من دواهيه ؟ قال أرى صبيّا ، وأظنه غويّا ، نصب لي فخا ، يرومُ لي فيهِ زخا(٥٠) ، وقد وقفتُ على مكائِده ، ومناصبِ مصائِده ، وعرفتُ مكيدَتَهُ أين هي ، وإلى ماذا تنتهي ، وأنا أتفرّجُ عليه ، وأتقدّمُ للضحكِ إليهِ ، وأتعجبُ من تضييعِ أوقاتهِ ، وتعطيلِ ساعاتهِ ، فيما لا يعودُ عليهِ منهُ نفع ، ولا يفيدُهُ في قفاهُ سوى الصَّفْع ، وأسْخَرُ من حركاتِه ، وأُنبّهُ مَنْ يَمُرُّ على خُزْعَبلاَتِهِ(٥١) . فتركهُ الرجلُ وذهب ، وقضى حاجتَه وانقلب ، فرأى الهدهدَ في يَدِ الصبيّ ، يلعبُ بهِ لَعِبَ الخِليِّ بالشجيِّ(٥٢) ، ولسانُ حالهِ ، يلهجُ بمقاله :

كعصفورةٍ في يَدِ طفلٍ يهينُها ... تُقاسي حياضَ الموتِ والطفلُ يلعبُ

---

(٤٧) القباء : ثوب يلبس فوق الثياب أو القميص ويتمنطق به .

(٤٨) الديباج : الحرير .

(٤٩) الجُلاهِق : البُندق الذى يرمى به جمع جَلاهِق .

(٥٠) زخا : من زخّ الجمر : اشتد وهجه ، وزخ الشيء : دفعه ورمى به حقداً وغيظا .

(٥١) الأباطيل ، واحدتها الخُزعبل (بضم الخاء) الباطل .

(٥٢) الخلّيّ من الناس : الفارغ البال من الهمّ ، وعكسها الشجيّ : المحزون ، وفى المثل "ويل للشجيّ من الخليّ" .

فلا الطفلَ ذو عقـلٍ يَـرِقّ لحالها ولا الطيرُ مطلـوق الجنـاحِ فيهـربُ

فناداهُ وقال : يا أبا عبّاد ، كيف وقعتَ في شَرَكِ الصيَّاد ، وقلـتَ لي إنّـك وعيـت ، ورأيتُ ما رأيت . فقال : أما سمعتَ أنَّ الهدهدَ إذا نَقَرَ الأرضَ يعرفُ مسافةَ ما بينـهُ وبينَ الماء ، ولا يُبصرُ شَعْرَةَ الفخّ ؟! وذلك لينفذَ ما كتبـه الله تعـالى وقـدّره ، مـن قضائه وقَدَره ، وناهيك فى قضيةِ القضاء والقدر ، قضيةِ آدمَ أبي البشر ، مع موسى الكليم ، عليهما الصلاةُ والتسليم ، لَمّا جرتْ عليه أحكامُ القضاءِ والقـدر ، فتمَّـتْ مشيئةُ اللهِ تعالى السابقةُ فى عِلْمِه ، وجرى ما لَمْ تُدركْه عقولُ الفحـولِ فـى ميـدانِ إرادته ، من سوابقِ حُكْمه وحِكْمته ، وأنشد الهدهد :

يا سائلى عَمّا جـرى والعينُ مبصرةُ القـدر

أوَمَا سـمعتَ بـأنّ إذا جاء القضا عَمِيَ البصر

وقال أيضا :

إنْ كنتُ أخطأتُ فما أخطأ القَدَر إنّ القضاءِ إنْ أتى يَعْمَى البصر

واسمعْ أيُّها العاقلُ قولَ القائل :

إذا أرادَ الله أمـــراً لامـــرئٍ وكـانَ ذا عَقْلٍ وسَمْعٍ وبَصَر

وحيلـةٍ يفعلُهـا فـى دفـــعِ ما يأتى به محتومُ أسبابِ القدر

أصَـمّ أذنيـه وأعْمـى قلبَـه وَسَلّ منه عَقْلَهُ سَـلّ الشَعر

فَلا تقلْ فيما جرى كيف جـرى فكـلُّ شَـيْءٍ بقضـاءٍ وقـدر

وأنـا لَمّـا اغـتررتُ بحدَّةِ بصـري ، ذهلـتُ عمـا يجـولُ في فكـري ، فتغطّـتْ حـدَّةُ استبصاري ، فوقعتُ في فَخِّ اغتراري ، أمَا سمعتَ ياهُمَـام ، قـولَ الإمـام "إذا حَلَّـتْ المقادير ، ضَلّتْ التدابير" . ثمَّ قال أبو نوفل ، وقد أثّر فيهِ كلامُ أخي نهشل :

دَعْ عنكَ لَوْمِي فإنّ اللّوْمَ إغراءُ وَدَاوِني بالّتى كانتْ هِيَ الـدَّاءُ

وإنّما أوردتُ هذه الحكاية ، لتحققَ عني مـا في تقريعِك وتوبيخِك مـن نكاية ، وتعلمَ أن الأمورَ كلّها ، جلّها وقلّها ، جاريةٌ على وفقِ ما قضاه الله تعالى وقـدّره ، وأثبتَ فى سابقِ عِلْمِه فى اللـوحِ المحفوظِ وسطّره ، وإن كـانت الأحكـامُ في هـذا الباب ، تُضافُ إلى العِلَلِ والأسباب ، ولا شَكَّ فى هـذا ولا ارتيـاب ، فقـد مـرَّ أنَّ الذهول ، شغلني عن الفضلِ بالفضول ، وأن العذرَ غيرُ مقبول ، فإنَّ الجهَل لا يكونُ حُجَّة ، ولا مخلـص لسـالكِ الأسْـواءِ المحجَّـة ، وقـد طـال الكـلام ، والحـقُّ بيـدِك والسلام . وأمَّا الآنَ فَجُلُّ المقصود ، من لطفِك المعهـود ، وبـذلِ المجهـود ، وتذكّـرِ سابقِ العهود ، وقديمِ الصداقة ، وأكيدِ المحبـة والعَلاقـة ، عَطْـفُ الخواطـرِ الملكيَّـة ، ورجوعُها على ما كانت عليه من الصدقـاتِ السنيَّة ، والعواطـفِ الملوكيَّـة ، وأقـلُّ الأقسامِ الخلاصُ من هـذه البليَّة ، وعلمُك قد أحاط ، بـأوثقِ منـاط ، أنـي شـخصٌ وحيد ، بين ملازمي الخدمة فريـد ، لم يكُنْ لي أخٌ سـواك ، وأنـتَ مُشتكايَ وأنـا مُشتكاك ، وهـذا أوانُ الفتـوّة ، وزمـانُ المـروَّة ، وعـدمِ التخلّـي عــن الأخــوان ، والانبعاثِ بالهمَّةِ الثابتةِ الأركان ، والسعي في خـلاصِ الصاحِب القديـم ، مـن هـذا البلاءِ العظيم ، وأسـألُك بسـالفِ الخدمـة ، والمـودَّةِ ذاتِ القِدْمـة ، أنْ لا تذكـرَ مـا سلف ، من التقصيرِ الموجِبِ للتلَف ، فإني معترف ، أني للذنب مقترف ، وأنشد :

جاوزتَ في اللّومِ حدًّا قد أضرَّ بهِ ... من حيثُ قدّرْتَ أنَّ اللّومَ ينفعُهُ

وإنّي إذا تفكّرت ، وتصورتُ ما وقع إذا تذكّرت ، وإنْ كان قد مضى ، يضيقُ بـي الفضا ، وأَغْرَقُ في عَرَقِ الحيا وتَسْوَدُّ في عينيّ الدنيـا ، فكأنّـه في هـذا القبيـل ، عـني قيـل :

كـأنَّ فـؤادي في مخاليبِ طائـرٍ ... إذا ما ذَكَرْتُ الحبَّ يشتدُّ بي قَبْضا

وهذا القدْرُ من الإعلانِ يكفي ، وإني "استحلي" إذا "مرَّ" بخاطري غُصَصَ حَتْفـي . ثمَّ علا زفيرُهُ وشهيقه ، وبدا من لهيبِ قلبهِ بريقُه ، ومِنْ وادي دمعِـهِ عقيقُـه ، حتّى خيفَ عليهِ غريقُه وحريقُه ، ورقَّ لهُ عدوُّهُ وصديقُه ، وبكى لبكائهِ رفيقُه .

قال أخو نهشل ، اعلمْ أيُّها الأخُ المفضَّـل ، أنّـي لم أقُـلْ ذاك الكـلام ، للعـدوانِ والملام ، فضلاً عن إيحاشِ قلْبٍ وإيلام ، ولكن لمّا تألَّمَ جناني[٥٣] ، أجرى الله ذلـك على لساني ، ولم يكُنْ لذلك الحديثِ باعث ، ولا قصدٌ عابثْ ، أو عائث ، ولكـنَّ صَفْـوَ المحبّةِ وَوُفورَ الصدق ، أوْجَبَا التلفُّظَ بذلـكِ النطـق ، وكيـف لا أُدركُ دقـائقَ المعاني ، وأنا لها منْ ثمارِ فضائِلك جاني . وأمَّا بذلُ الاجتهـاد ، مـن أهـلِ الـوداد ، فهل يخطرُ ببالك ، غيرُ ذلك ، ويأبي الله والأخلاقُ الكريمة ، وما علمتُـهُ مـن همَّـةٍ وشيمة ، وفواضلِ فضائل ، من موانحِ خصائلك اقتبستُها ، ومطارفِ معارفٍ على منوالِ سجاياكَ نسجتُها ، أنْ اتخلّفَ عن التعلّقِ بأهدابها ، وأُغلـقَ أبـوابَ مقاصدِهـا في وجوهِ طلاّبهـا ، وأنـا إنْ لم ابذلْ مجهـودي ، وأصـرفْ موجـودي ، في مسـاعدةِ خِلّي وصديقي ، وصاحبي ورفيقـي ، بمـا تقتضيهِ المروءةُ والفتوَّة ، والصداقةُ القديمـةُ والأخوَّة ، وإلاّ فأيُّ فائـدةٍ في وجودي ، لوالدي ومولودي ، وطارفي وتليدي[٥٤] ، وصديقي وَوَدُودِي . وقد قيـل أربعـةُ اشياء فـرضُ عـين ، في شريعةِ المروءةِ على المحبـين ، وكذلـك الأخـوان ، وسـائر الأصحـابِ والخـلان ، الأول : المشـاركةُ في النوائب ، وتعاطِي دَفْعِها مـن كـلِّ جـانب . الثـاني : إذا ضـلَّ أحدُهـم عـن طريـقِ السداد ، يردونهُ إلى سبيل الرشاد ، ولا يتركونَهُ على غيرِ الصواب ، بل يسـتلطفونَهُ بألطفِ خطاب . الثالث : إذا صـدَر مـن أحدِهـم نـوعُ جفـاء ، يلاقونَـه بالوفـاء ،

---

[٥٣] الجنان : القلب .

[٥٤] طارفي وتليدي : حديثي وقديمي من المال وغيره .

والصفا ، ولايتركونَهُ على شَفا ، ولا ينسون الوفاء القديمَ بالجفاءِ الحادث ، فربَّما يتفرَّعُ على ذلك ما يؤكِّدُهُ من العوائث . الرابع : لا يؤاخذونَ المقصِّرَ في حال الغضب ، بل يُرجئون عقوبتَهُ إلى أن يُطفأ اللهب ، فربَّما يتعدَّى بواسطةِ الغضبِ الحد ، فيقعُ بسببِ ذلك بين الأصحابِ نكد .

ثمَّ أنَّ أبا نوفل ، قال لأخي نهشل : المبادرةُ أولى إلى التلافي ، لئلاَّ يسابقَ الجنودُ إلى تِلافي ، وهذا المصابُ إنَّما جاء بَغْتَة ، وأخذ قلوبَنا وأسماعَنا بَهْتَة ، فاستعملْ فكرَكَ القويم ، وتوجَّه إلى التداركِ بقلبٍ سليم . فقال : ها أنا أذهبُ على الفورِ لهذا المطلبِ النافع ، وأقوي العزيمة واجتهدُ في دَفْعِ الموانع ، فأوَّلُ ما ابتدئ بقصدِ الملك ، وانظر ما يصدرُ منهُ قولاً وفعلاً في هذا الأمر المشتبك ، فأبني على ذلك ما يناسبُه ، وأجاريهِ فيما يميلُ إليهِ خاطرُهُ ولا أجاذبه . ثمَّ توجَّه إلى الأسد ودخل عليهِ ، فوجد الدُّبَّ جالساً بين يديهِ ، وقد بلغَهُ قضيَّةُ النديم ، وأنَّهُ حلَّ به العذابُ الاليم ، فاغتنمَ الفرصة ، وبَادَرَ ليتمَّ على أبي نوفل الغُصَّة ، ويتعاطي في أمرِهِ قِصَّةً وحِصَّة[**] ، فأراد أخو نهشل أن يفتتحَ الكلام ، ثمَّ افكر في أنَّهُ ربَّما يعاكسهُ الدُّبُّ في المرام ، وأنَّهُ إذا أقام في المناقضة ، لا يمكنهُ مقابلتهُ بالمعارضة ، وإنْ سكتَ فالسكوتُ رضا ، وإنْ وافق فعلى غيرِ مرادِهِ مضى ، فأمسك عن الكلام ، ورأى السكوتَ مُقتضى المقَام . ثمَّ أمعنَ النظر ، وأجالَ قِدَاحَ الفِكْر ، فرأى أنَّهُ إنْ انفصَل المجلس ، من غير أنْ يفحصَ بشيءٍ وينبس ، ربَّما يفوتِ المقصود ، أو يسابقهُ بالمعاكسة عدوٌّ أو حسود ، لاسيمَّا مثل الوزير ، الرفيعِ الخطير ، صاحبِ الرأي والتدبير ، وهو عدوٌّ قديم ، وفي طرقِ الخِزْي نظيرُهُ عديم ، فإذا بادرَ الملكَ بالكلام ، ربَّما يقع منهُ فلتةٌ بمقام ، كما قيل :

[**] قصة : مظلمة ، وحصة : شكوى ، وكلاهما : المظلمة والشكوى ، على سبيل الفتنة والبغضاء .

أتاني هَواها قبلَ أنْ أعرفَ الهَوى   فصادفَ قلباً خالياً فتَمَكّنا

فتلقّاهُ الملكُ بقبول ، فيصولُ كما يختارُ في ميدان الفتكِ ويجول ، فتنعقدُ الأمور وتتقصّد ، وتنعقفُ[٥٦] الأخلاقُ الأسديّة وتتعرّد[٥٧] ، فرأى الأوْلى المبادرة بالكلام ، والوقوف في مقامِ الشفاعةِ أنسب بالمقام ، فإنْ عارضَ أحدٌ عرف أن جوهرَ كلامِهِ عَرَض ، ولا تصدَّى إلاّ لغرض ، وكانَ الملكُ قد سمع كلامَهُ ، بعد معرفةِ سلامتِهِ وإلقائهِ على أبي نوفل عَذْلَهُ ومَلاَمهُ ، وكلامُهُ بلا شكٍّ مقبول ، وما لأحدٍ عنه عدول ، وكان الدبُّ منتظراً خروجَهُ من عندِ الملك ، حتى يختليَ بالكلامِ معهُ وينهمك . فأدرك أخو نهشلٍ هذا المرام ، فوقف في مقامِ الدعاءِ وبادر بالكلامِ ، ثمَّ قال بعد وظائفِ الدعاء ، والقيامِ بما يجبُ من مراسيمِ الثناء : العلومُ الشريفة ، والآراءُ المنيفة ، محيطةٌ أنَّ من عادةِ الملوكِ العظام ، وأخلاقِ السلاطينِ الكرام ، العفوَ عن الجرائم ، والإغضاءَ عن العظائم ، لا سيما إذا صَدَرَ ذلك من أحدِ المخلصين ، والعبيدِ المتخلصين ، على سبيلِ السهوِ والخطا ، لا على سبيلِ العمدِ والاجترا .

مَنْ ذا الذي ما ساءَ قَطْ   ومَنْ لَهُ الحُسْنَى فَقَطْ

وإنَّ العبدَ الأقل ، أبا نوفل ، الواقعَ في الخطرِ الخطير ، المعترفَ بالذنب والتقصير ، متوقعٌ غَفْرَها من صدقاتِ الحضرةِ الملوكيةِ ومراحِمِها ، وما اعتادهُ من حِلْمِها الشاملِ ومكارِمِها . ومحتّمٌ على الملوكِ القيامُ بقبولِ الشفاعة ، دونَ سائرِ الخدمِ والجماعة ، خصوصاً وقد كان رفيقاً نديماً ، ومصاحباً قديماً ، ولا يقصِدُ الملوكُ بذلك إلاّ سَوْقَ الحسناتِ الكثيفة ، إلى دفاترِ الصدقاتِ الشريفة ، وقصدِ الخير ، وذهابِ الأسى والضير ، وانتشار صيتِها في الآفاقِ والأطراف ، بالعلمِ والحلمِ

---

[٥٦] تنعقف : انعقف الشيء : انحنى وتلوى (= تتلوى) .

[٥٧] تتعرد : عرّد النجم : مال للغروب مجاوزاً كبد السماء (= تحيد أو تميل) .

والعفوِ والصفحِ والفضلِ والعدلِ والألطاف ، فَلاَنَ الأَسَدُ من هذا الخطاب ، وعَرَفَ أن قَصْدَ الشافعِ من هذا إنما هو الثوابُ والصواب ، فأطرقَ مليًّا ، و لم يحرِ من الأجوبةِ شيًّا . فتأثَّر الدبُّ الخبيث ، والعدوُّ القديمُ لهذا الحديث ، وخاف أن يكونَ السكوتُ رضا ، وإنْ هو رضي يفوتُ منهُ المنى ، والإطراقُ علامةُ الحلم ، والسكوتُ في الحربِ دليلُ السلم ، ومَن فوّت الفُرصة ، وقع في غُصَّة ، ومتى يقعُ أبو نوفل المحتال ، في مثلِ هذا العِقَال ، وما أظرفَ مَقَال ، مَنْ قال :

وإنْ رأيتَ غرابَ البَيْنِ في شَرَكٍ	فاذبحْ وكُلْ وَ ذَرِ الأفراخَ في عنقي

وقد قيل :

إذا صارت الأعداءُ نَمْلاً فإنّهم	إذا لم تَطَأْهُم أصبحُوا مثلَ ثعبان
وكمْ ذا يقاسي من أذاه وقرصِه	على ضعفِه إنْ صارَ دَاخِلَ آذانِ

فانبرى وانْبَرَم ، وتصدّى للمعاكسة ذلك البَرَم[58] ، وغطّى دسائسَ لؤمهِ بنقوشِ الكرم ، وقال : اعلمْ أيُّها النديمُ القديم ، ومَنْ هو للملكِ أوْفى خديم ، أنَّ الواجبَ على جميعِ الخدام ، أن يكونوا في الصدقِ متساوي الأقدام ، ولايقدّموا على نُصْحِ الملكِ غرضا ، ولا يطلبوا سوى رضاه على النصيحةِ عَرَضاً[59] ولا عِوَضا ، فلا يصادِقوا الخائن ، ولا يصدّقوا المائن[60] ، ولايواطئوا الخاطى[61] ، ولا المذنبَ المتعاطي ، ولو بالكلامِ الواطى ، ولا يخْفُوا الخيانةَ والجناية ، ولا يرعوا في ذلك أدنى الرعاية ، فمساعدُ السارقِ سارق ، ومعاضدُ المارقِ مارق ، والقيامُ مع الجاني جناية ، وإخفاءُ الخيانةِ نكاية ، وفي هذا الكلامِ كفاية ، ومَنْ اعتذرَ من جنايةِ

[58] البَرَم : الذى لا يدخل مع القوم فى الميسر لبخله ، والمقصود هنا ذو الخصلة الكريهة .

[59] عرضا : هدفا أو غرضا من أغراض الدنيا الزائلة العارضة .

[60] المائن : الكاذب .

[61] الخاطى : مخفف الخاطىء .

جان ، لا سيما إنْ كانت فى حَقِّ ملكٍ أو سلطان ، فهو شريكٌ فيها ، بل أعظمُ جُرْماً من متعاطيها ، لأنَّ عِظَمَ الجناية – ياذا الدراية – إنما هو بحسبِ المجني عليه ، وأن ذلك الوهنَ عائدٌ إليهِ ، لا على مقدار الجاني ، وأنتَ لا تجهلُ هذه المعاني . ولهذا قال بعضُ أهلِ الأفضال : إنَّ تعاطي الفساد – ياذا الرشاد – ليس فيه صغيرة ، وإنَّ كلَّ ما يخالف الأمرَ كبيرة ، وذلك بالنظرِ إلى الجنابِ الأقدس ، القاهرِ تعالى وتقدّس .

فقال أخو نهشل : كلامُ مولانا الوزيرِ هو المفضّل ، وما أشار بهِ هو الصوابُ المعدّل ، ولكنْ يا مولانا الوزير ، علمُك الخطير ، خبيرٌ بأننا كلُّنا محلُّ الخطأ والتقصير ، ولا يسعُ الكبيرَ منا والصغير ، إلا الحلمُ الغزير ، والعفوُ عن كثير ، وقلْ لي مَنْ هو البريءُ عن الهفوة ، والذي لا يتوقّعُ من مولانا الملك عفوَه ، وإنْ لم تقعْ الشفاعة ، في الجاني وذي الخلاعة ، ومخالفِ سُنّةِ الجماعة ، فالمحسنُ لا يحتاجُ إلى شفاعة ، ومَن لم يجبرْ المكسور ، ويأخذْ بيد المحقور ، فما يجدُ عندَ انكسارِهِ جابرا ، ولا يؤخذُ بيدِه حين يصيرُ عاثرا ، وقد قيل ، مِنْ مثلِك الفضيل ، وصاحبِ الأدبِ الجزيل :

إذا أصبحتَ فينا ذا اقتدارِ وأمرُك في رقابِ الخلق جاري
أَقِلْ[٦٢] وأقبلْ عِثاراً واعتذاراً فمَن يَقْبَلْ يُقَلْ عندَ العِثَارِ
فما زال الصغارُ ترومُ عفواً وغفرانُ الكبائرِ مِنْ كِبَارِ

وأَحْسَنُ العفوِ يا ذا السلوك ، عفوُ السلاطينِ والملوك ، لاسيمَّا إذا عظُم الجرم ، وكبُر الإثم ، فإنَّ العفوَ إذْ ذاك صادر ، من ملكٍ ذي سلطانٍ قادر ، مع قوَّةِ الباعثِ على المؤاخذة ، والقدرةِ الشاملةِ النافذة . وغيرُ الملوك ، من العاجزِ والصعلوك ،

---

[٦٢] أَقِلْ : فعل أمر من أقال عثرته أى صفح وعفى عنه وتجاوز عن أخطائه وقبل اعتذاره عن عثاره أو عثراته .

عفوُهم إنما هو عَجْزُ خَشْيَة ، أو لتمشيةِ غَرَض مشية . والملوكُ إنّما يؤثرُ عنهم الخلالُ الحميدة ، والخصالُ الشريفةُ السعيدة ، والأكابرُ يعفون ، والأصاغرُ يهفون ، وقد قسم الحكماءُ والحكّام ، مايقع من الذنبِ والآثام ، أربعةَ أقسام ، فاسمعْ يا كبير : هفوةٌ وتقصير ، وخيانةٌ ومكروه ، وحرروا ذلك وضبطوه ، وذكروا لكُلٍّ جزاءً قَرَّرُوه : فجزاءُ الهفوةِ العتاب ، وبهِ نطقَ الكتاب ، وجزاءُ التقصيرِ الملامة ، على ما أورث من ندامة ، وجزاءُ الخيانةِ العقوبة ، فإنّ في ارتكابها للعاقلِ صعوبة ، وأعظِمْ بعقابِها مثوبة ، وما يرتكبُ المكروهَ إلا الغافلُ المعتوه ، وجزاؤهُ أيضاً بمثله ، وهذا على مقتضى العقلِ وعدلِه ، والذي صدر في سابقِ القدرِ من المخْلِصِ أبي نوفل ، إنما هي هفوةٌ بها زَلّ ، وجزاؤهُ على هذا الحساب ، إنّما هو العقاب ، وقد استوفاهُ وزيادة ، وفي هذا لمولانا الملكِ الإرادة ، فإنْ شاء عاقب على الذنب الصغير ، وإنْ شاء عفا عن الجرم الكبير . والهفوةُ لا يكادُ يسلمُ منها الخَوَاصّ ، فضلاً عمَّن هو في شَرَكِ العبوديةِ والاقتناص ، ولأنْ يؤثرُ الفضلُ عن الملك ، وعلى طريقِ عفوهِ يُسْلَكُ الدَّرْبُ المستلَك ، خيرٌ من أنْ يؤثرَ عنهُ لنفسِهِ الانتقام ، ويخلّد ذلك على صفحاتِ الأيام . ولاشك أنَّ سيرةَ العفوِ والفضل ، أفضلُ من القصَاصِ والعدْل ، وذلك هو اللائقُ بالحشمة ، والأوثقُ للحرمة ، والأجدرُ لناموسِ السلطنة ، والأبقى على ممرِّ الدهورِ والأزمنة . وقد قال سيدُ المرسلين ، وحبيبُ ربِّ العالمين "ينادى منادٍ يومَ القيامةِ مَنْ كان له عندَ اللهِ يَدٌ فَلْيَقُمْ فلا يقومُ إلاّ مَنْ عفا" وقال رسولُ اللهِ ﷺ "إن العفوَ لا يزيدُ العبدَ إلا عِزًّا فاعفُوا يعِزّكُمْ الله" . ولقد كان جماعةٌ من عظماءِ الملوكِ والأكابر ، يبحثون عَمَّنْ تعاطى الذنوبَ والإجرامَ من الصاغر ، لا سيما لمن يتعرّض لذاتِ الملكِ ونفسهِ ، ويستعينُ بطوائفَ على فسادِهِ من أبناءِ جنسه ، فإذا قَدَرُوا عليهم عَفَوْا ، وتلذّذوا بالعفوِ والإحسان واستعفوا . وحسبُك يا أبا جهينة ، ومَنْ فضلُهُ أعذبُ مُزَيْنَة ، واقعةُ ابنِ سليمان ، المخلدةُ على

ممرِّ الأزمان ، وما تضمنتْ من مكارمِ الأخلاق ، التى تعطرتْ بها الآفـاق ، فتوجَّـه الأسدُ إليهِ ومال ، وقال : أخبِرْنا يا أخا نهشل كيف كان هذا المثال ؟

[٣/٥] واقعة ابن سليمان الأموى

قال : لما انتهت أيامُ بني أمية ، وتطـرّزت خِلَـعُ الأيـامِ بـأعلامِ الدولـةِ العباسـية ، وأشرقَ بطلعةِ أبي العباسِ السفاح ، في دياجيرِ الدهرِ أيمنُ صباح ، بأحسـن فـلاح ، اختفتْ نجومُ أفلاكِ بني أمية ، وكواكـبُ مَـنْ بقـي مـن تلـك الزواهـر المضيـة[٦٣] . وكان منهم إبراهيمُ بـنُ سـليمانَ ، بـنُ عبـدِ الملـك بـنُ مـروان ، وجعـل السـفّاحُ يتطلَّبُهم ، ويُرَغِّبُ مَنْ يدري بهم ، ويُرَّهبهم ، إلى أنْ ظهرَ ابنُ سليمان ، وكان من أمرهِ ما كـان . فحكى أنَّهُ بالحِيرة ، مختفيًا في همٍّ وحيْرة ، قال : ففي بعض الأيـام ، تراءتْ لي على سطحٍ سوادُ أعلام[٦٤] ، فوقع في نفسي ، وغلبَ على حدسِي ، أنها قد جاءت لطلبي ، راغبةً في عَطَبي ، فتنكـرتُ في الحـالِ واختفيـتُ ، وخرجـتُ مـن الحيرةِ وإلى الكوفةِ أتيتُ ، فدخلتُها خائفـاً أترقّـب ، ولم يكُـنْ لي فيهـا مـترصّدٌ ولا مترقّب ، ولا صديقٌ أركنُ إليهِ ، ولا صاحبٌ أعوّل عليهِ ، فصرتُ في تلك البـلاد ، مثل المتنشدِ ببغداد :

بغـدادُ دارٌ لأهـلِ المالِ منعمةٌ ... وللمفاليسِ دارُ الضَنْكِ والضِّيقِ
ظَلَلْتُ حيرانَ أمشي في أزِقَّتِها ... كأنّي مصحفٌ في بَيْتِ زِنْـدِيقِ

فأدَّاني المسير ، إلى بابٍ كبير ، منظرهُ جليل ، وداخلهُ دِهلـيزٌ طويـل ، ليـس فيـهِ أحـد ، من الحجّاب والرصَْد ، فدخلتُ إليه ، وبهِ مكانٌ فجلستُ عليهِ ، وإذا برجلٍ جسيم ، جميلِ الشكلِ وسيم ، على فرسٍ جواد ، مع طائفةٍ من الأجناد ، فدخل إلى

---

[٦٣] المضيّة : المضيئة .

[٦٤] كانت أعلام الدولة العباسية سوداء اللون .

دِهليزِ الباب ، وفي خدمتِه غلمانُهُ والأصحاب ، إلى أنْ نزلَ عن دابَّتِهِ ، وانفـردَ عـن جماعته . فلماً رآني في وجيفٍ ووَجَل ، قال : مَنْ الرجل ؟ فقلـتُ : خـلاكَ الـذم ، مختفٍ على دم ، واستجرتُ بجوارِك ، ونزلتُ في ديـارِك . فقـال : أجـارك الله ، لا تخفْ من سواه ، ثمَّ أدخلني فـي حجـرةً لطيفـة ، تشتمل علـى أشياءَ ظريفـة ، قـد جعلها مَضْيَفَةَ ، ينزلُها كُلُّ مَنْ قصدَهُ جهلَهُ أو عرفَهُ ، فمكثتُ عندهُ حَوْلاً ، أصـولُ في نِعَمِهِ صَوْلاً ، ولايسألُني فِعْلاً ولا قَوْلاً ، بل كان يركبُ من الأسحار ، وينزلُ إذا انتصفَ النهار ، وذلك كلَّ يوم ، لا تأخذُهُ عن ذلك سِنةٌ ولا نومْ فسـألتهُ في بعـضِ الأيَّام ، ونحن في أهنأ مقام ، وقد صرتُ عَيْبةَ سِرِّهِ[٦٥] ، ومرآةَ قلبـهِ وصـدره ، عـن ركوبه ونزوله ، وموجبِ تنقلهِ وحلوله .

فقال : إنَّ إبراهيمَ بنَ سليمانَ بنَ عبدِ الملـك بـنَ مـروان ، قتـل أبـي صَبْرا[٦٦] ، وأورثني بذلك نكداً وضرّا ، وأوهجَ في فؤادي لهباً وجمراً ، وقد دارت على بني أُمية الدوائر ، وبلغني أنَّهُ بالكوفةِ مختفٍ حائر ، فأنا كلَّ يوم أركبُ إليهِ ، وأفتـشُ عليـهِ ، لعـل الله يوقعني بهِ ، لأشفي قلبي بقتلهِ من كَرْبهِ ، فـآخذ بثـاري ، وأكتشـف عـني عـاري ، وأطفئ لهبي ، وآخـذَ ثـأرَ أبـي . قـال ابـنُ سـليمان : فعجبـتُ مـن قضـاءِ الرحمن ، وكيف ساقتنى أرجلى ، إلى شبكةِ مقتلى ، وأمشانى القضاءُ برجلـى ، إلى مَنْ هو دائرٌ على قتلى ، فاستَحْيَيْتُ منـهُ ومـنَ الله ، وكرهـتُ عنـد ذلـك الحيـاة ، فسألتهُ عن اسم أبيه ، لأتحقَّقَ ما يُبديهِ ويُنهيهِ ، فأخبرني فعرفتُهُ ، وتذكرتُ أني أنـا قتلتُهُ . فقلتُ : يا هذا وَجَبَ عليَّ حقُّك ، وأنا غريمُك ومسترقُّك ، وقـد قـرَّبَ الله خُطاك ، وأَنَالَكَ مُتَمَنَّاك . فقال : : وما ذاك ؟ فقلتُ أنا ابراهيم ، الذي علـى طلبـهِ

---

[٦٥] عيبة سره : موضعه .

[٦٦] قتله صبرا : حبسه حتى مات .

تهيم ، وأنا قاتلُ أبيك ، فافعلْ بي ما يرضيك ، وخُذ ثارَك وأطفىءْ نارك . فقال : كأنَّهُ طال بك الجفاء ، وأضرَّ بك الاختفاء ، فأردتَ بالموتِ الخلاص ، واستندتَ لدعوى القصاص . فقلتُ : لا والله ، الذي علم السرّ وأخفاه ، بل قلتُ الحق ، وفُهْتُ بالصدق ، وخلاصُ الذمَّةِ في الأولى ، أخفُّ من قصاصِ الأخرى وأوْلى ، أنا فعلتُ بأبيكَ الأذى ، في يومٍ كذا ، ومكانِ كذا ، بسببٍ كذا . قال : فلما علم ذلك مني ، وتحقَّقَ أنَّهُ صَدرَ عنيَّ ، احمرَّتْ عيناهُ ، وانتفختْ شفتاهُ ، وقامتْ عروقُهُ ، ولمعتْ بروقُهُ ، وأزبدتْ شدوقُهُ ، وأطرقَ إلى الأرض ، وكادَ يأكلُ بعضهُ البعض ، وجعل يرجفُ ويرعد ، ويزأرُ كالأسد ، ويتململُ كريشةٍ تقلّبها الريحُ في قاعِ البلد ، واستمرَّ على ذلك زماناً ، يتأمل فيما يفعلُهُ بي إساءةً وإحسانا ، إلى أنْ سكنتْ رعدتُهُ ، وبردتْ هِّمتُهُ ، فَأَمِنْتُ سطوتَهُ ، وقَهَرَ جدّى سورتَه . ثمَّ أقبل عليَّ ، ورفعَ رأسَهُ إليَّ ، وقال : أمَّا أنتَ فَستلقى أبي غدا ، فَيقْتَصُّ لهُ منك جبّارُ السما ، وأمَّا أنا فلا أخفِرُ ذمتي[٦٧] ، ولا أضيعُ جواري وحرمتي ، ولا يصلُ إليك مكروهٌ مني ، ولكن قُمْ واخرجْ عني ، فلستُ آمنُ نفسي عليك ، ولا أقدرُ بعدَ اليومِ أنظرُ إليك . ثمَّ دفع إليَّ ألفَ دينار ، وقال استعِنْ بها على ما تختار ، فلمْ آخذْها ولانظرتُ إليها ، وخرجتُ من دارِهِ ولم أعرجْ عليها ، ولم أرَ أكرمَ من ذلك الرجلِ ولا أحلم ، ولا أعظمَ مكارمَ منهُ ولا أجسم .

وإنَّما أوردتُ هذه الحكاية ، وقى الله مولانا الملكَ شرَّ النكاية ، ليعلمَ أنَّ الذنبَ الكبير ، يستدعي العفوَ الكثير ، ممَّنْ قدرُهُ عظيم ، وحسبُهُ جسيم ، ونسبُهُ كريم ، كما قيلَ فى محكمِ الكتابِ الحكيم ﴿وَلاَ تَسْتَوِى الحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالتى هِيَ

---

[٦٧] الذمة : العهد والإجارة .

أَحْسَنُ فإذا الذى بينَك وبينَه عداوةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيم . وَمَا يُلَقَّاهَـا إِلاّ الذيـنَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إلاّ ذُو حَظٌّ عَظِيم﴾[٦٨] .

فقال الوزير : ناموسُ السلطنةِ وحشمتُها ، وهيبةُ الملكِ وحرمتُها ، لها شـروط ، كلٌّ منها محرَّرٌ مضبوط ، وبالمحافظةِ عليهِ محوط ، لابدَّ من إقامـةِ أركانِهـا ، وتشـييدِ بنيانها ، ويجبُ الوفاءَ بها على الملوكِ والمالك ، ويُفترضُ القيامُ بهـا علـى سـلاطينِ الممالك ، والإخلالِ برعايتها وهنٌ في الولاية ، فلا غِنَـى عـن العمـلِ بهـا ورعايتهـا أحسن رعاية ، فمن ذلك أن لا يسامحَ جماعة ، ولا يغفلَ عنهم وعن كيدِهم سـاعةً فساعة ، ولا يركنَ إليهـم في إقامةٍ ولا سـير ، حيـث لا يصـدرُ عنهـم للملـك ولا للمملكة خير ، فمنهم مَنْ يعزِلُ الإنسانَ عن منصبهِ ، مـن غـيرِ وقـوفٍ لعزلـه عـن سببهِ ، ومنهم مَنْ يوالي أعداءَ الملك ، وهو ذو اجتراءٍ منهمك ، ومنهـم مَـنْ يراعـي مصلحةَ نفسِهِ ، ويقدمُها على مصلحـةِ مخدومهِ في حالَيْ رخائهِ وبأسهِ ، ومنهم مَـنْ يفشِي سرَّهُ ، ولا يراعي خيرَهُ وشرَّهُ ، ومنهم مَـنْ يتعـرَّضُ لسـقطِهِ وغلطِـهِ ، لتغيـيرِ خاطرِهِ وسخطِهِ ، ومنهم مَنْ ينتقصُ حرمَتَهُ ، وينتهكُ عظمتَه وحشمتَه ، ومنهم ذو الطبعِ اللئيم ، المفسدِ في الحريم ، ولاشكَّ أَنَّ أبا نوفل ، المهملَ المغفل ، قد ارتكـبَ بعضَ هـذه الصفات ، وهو متلبِّسٌ بأشنعِ الحركات ، وهذا يدلُّ علـى لـؤمِ أصلِـهِ ، وشؤمِ محلهِ ، وسوءِ طويتهِ ، وفسادِ نيَّتهِ ، ومَنْ أكرمَ اللئيمَ فهـو الملـوم ، وهـذا أمـرٌ معلوم ، وقد قيل :

إذا انتَ أكْرَمْتَ الكريمَ مَلَكْتَهُ ... وإنْ أنتَ أكْرَمْتَ اللئيمَ تمرَّدا

فقال أخو نهشل الفقير ، لا تقُلْ ذلـك أيُّهـا الوزيـر ، فـإنَّ أبـا نوفـل عبـدٌ خديـم ، ومخلصٌ قديـم ، وظريفٌ نديـم ، ومحـبٌّ صديـق ، وودودٌ شـفيق ، أمـينٌ ثقـة ، ذو

[٦٨] قرآن كريم ، سورة فُصلت : ٣٤ - ٣٥ .

وفـاء ومقة[٦٩] ، محبٌّ ناصح ، وجليسٌ صالح ، لم يعلمْ مولانا الملكُ عليه إلاّ الخير ، ولم يزلْ يسيرُ في طريقِ العبوديَّةِ أحسنَ سير ، ولم يطّلعْ منهُ علـى شـيءٍ يعيبُـه ، ولا يشينُهُ في الدارَيْن ولا يريبُه ، بل هو ملازمٌ لوظائفِ عبوديَّتِه ، مباشرٌ لما يجـبُ عليـهِ من شرائطِ خدمتِه ، لم يصدرْ عنهُ أبداً غشٌّ لمخدومه ، ولا خروجٌ عن امتثالِ أوامـرِ مرسومِه ، فإن صدرتْ منهُ هفوةٌ نادرة ، أو سهوةٌ بادرة ، أو جفوةٌ سادرة ، فحلـمُ مولانا الملكِ لا يقتضي ، بل ولا يرتضي ، إطراحَ هذه الأوصافِ المتعاضدة ، لأجـلِ هذه الزَّلَّةِ الواحدة ، كما قيل :

فإنْ يكُنْ الفعلُ الذي ساءَ واحداً فأفعالُـهُ اللاتـي سَـرَرْنَ أُلُـوفُ

مع أنَّهُ حَصَل لهُ من كَسْرِ الخاطر ، وإحراقِ القلبِ وإغراقِ الجفنِ الماطر ، مـا لا يجبُرُهُ[٧٠] إلاّ العواطفُ السلطانيَّة ، والمراحـمُ الشـريفةُ الملوكيَّـة ، ونظـرةٌ مـن الحُنـوِّ والعطف ، وذرَّةٌ من الشفقةِ واللطف تكفيه ، ومن أليمِ الجفاءِ تُنْجيـه ، وبعـد شِـدَّةِ المماتِ تحييه ، وإلاّ فلا نعرفُ أحداً يجبُرُ كَسْرَ ذلك الوهنِ أبداً ، إلاّ الآلاء السلطانية من يَدِ العلوّ ، تعالى مقامُها إلى درجاتِ السموّ ، والعطفِ والحنوّ . ثمَّ عطـفَ علـى الدُّبّ ، وقد حفر لإيقاعِهِ في الجُبّ[٧١] ، وقال : أما أنا مع قلّة البضاعة ، واحتقـارِ مقامي بين الجماعة ، فقد أقمتُ نفسي لما وجبَ عليها في مقامِ الشفاعة ، فلا أقصّرُ فيها ولا أرجعُ عنها ، ومَنْ يشـفعُ شـفاعةً حسـنةً يكُن لـهُ نصيـبٌ منهـا ، وأسـألُ صدقاتِ مولانا أبـي اللمـاس[٧٢] ، المسـاعدةَ في إنجاز هـذا الالتمـاس ، وأنْ يكـونَ

---

[٦٩] مقة : حب وإخلاص بغير غرض أو هوى .

[٧٠] يجبره : يصلح شؤونه ويعطف عليه ويصلح حاله ويعوضه ما فقده .

[٧١] الجب : البئر الواسعة .

[٧٢] أبو اللماس : مَنْ يُلتمس منه قضاء الحاجات (يعنى الملك الأسد) .

شريكا لي في إحرازِ هذا الجُعْل[٧٣] ، والوصولِ إلى أنواعِ الفضل ، من هذا الفصل ، فإنهُ يردُّ عنا فئة "ومَنْ يشفع شفاعةً سيئة" وأرجو من وزيرِ الممالك ، أن لا يقعَ منـهُ مخالفةٌ في ذلك ، فإن مَنْ سكَنَ الكرمُ في ربعـهِ ، لا يصـدرُ منهُ إلاّ مـا يليـقُ بكـرمِ طبعهِ ، واللئيمُ يتكلّف ، بل يحسد عليه ويتأسف ، إذا شرعَ فى مكـارمِ الأخـلاق ، وتعاطى فيها ما لم يقسّمْه له مقسّمُ الأرزاق ، ترى وجوهَ محاسِنِها ، فـى مكامِنِهـا ، تتسترُّ منه بأنقاب النشـوز[٧٤] وأبكارَ خدورِها ، فـى قصورِهـا ، تـتراءى لعينِـه فـى صورةِ شوهاء عجوز[٧٥] ، فلا يطاوعُه لسانُه فى طيبِ المقامِ إلى طيـبِ المقـال ، ولا يبعثُه جنانُه إلى مباشرةِ حسنِ الفعال ، فيصير كما قيل :

يرادُ من القلبِ نسيانُكم　　　وتأبى الطبـاعُ على الناقـل

والناسُ على دينِ ملوكِهم ، سالكون طريقَ سلوكِهم ، وحيـث كـان مولانـا الملـكُ مجبولاً على الشفقةِ الكاملة ، والمراحمِ الشاملة ، فكلّنا يجبُ على ذمتنا ، ويلزمَ دائرةَ هِمَّتِنَا ، أَنْ نَتَخلَّقَ بأخلاقِهِ العلية ، ونتشبَّثَ بأهدابِ شمائِلها الرضية ، ونتعاونَ جميعاً على التزيُّنِ بملابسةِ ملابِسها البهية ، ونستضىءَ بل نهتديَ في دياجيرِ المعاشِ بدرارِى أفلاكِ صفاتِها الزكية ، فإنَّ العبدَ فيما يتعاناه ، مجبولٌ من طينةِ مولاه ، وأنَّ اللهَ جلَّ وعلا ، لايضيعُ أمرَ مَنْ أحسنَ عملا .

قـال : فأُلجم الدبُّ ذو الساقطة ، بمـا فعلـهُ بـهِ مـن المغالطـة ، ثـمَّ أمسـكوا عـن الكلام ، وانتظروا ما يصدرُ من الضرغام ، فلم يُبْدِ خطابا ، ولا أنهى جوابا ، سوى أنْ قال : صِلُـوا في الرحـال ، ولا تبـدوا ولا تعيـدوا ، ولا تنقصـوا في هـذه القضيـة ولاتزيدوا ، حتى أُمعن فيها النظر ، وأستشيرُ فيها مُشيرَ الفكـر ، فمهمـا أشـار إليـهِ

---

[٧٣] الجعل : الأجر والثواب ، وأنقاب واحدها نقاب .

[٧٤] وذلك لخساسة نفسه .

[٧٥] وذلك لرداءة طبعه ، وكل بئر بما فيها تنضح .

الرأي ، وأرشد إلى اتباعه الهدى ، فيما يتعلقُ بحاله ، تقدمتُ إليكم بامتثاله . فلما انصرفوا توجه أخو نهشل إلى الحبس ، وذكر لأخيهِ ما جرى بينهُ وبين ذلك النحْس ، ثم قال : أبشرْ بالنجاح ، والفلاحِ والصلاح ، فقد رأيتُ في جبينِ الفوزِ نورَ صباح ، ولاشك أنَّ الله الغفور ، يُجري على يدي ولساني من الأمور ، ما يجلبُ السرور ، ويُذهبُ الشرور ، فكُنْ أوثقَ صبور ، وإنْ حصلَ في الطريق ، عقبةُ تعويق ، فلا يكُنْ في صدرِك حَرَج ، فإن وراءها بابَ الفرج ، فإن الظفر ، مقرونٌ بالصبر ، والصبرُ مشفوعٌ باليسر ، وقد أجاد صاحبُ الإنشاد :

اصْبِرْ على ما جرى من سابقٍ قِدَمَا ... فمركبُ الصبرِ بالإمهالِ تَلْحَقُهُ

فشكر لهُ جميلَ سعيهَ ، ثم عرض على مشيرِ وعيهِ ، فقال : كنتُ أرى أن هذه القضيةَ تؤخّر ، ويُرجى السعيُ في أمرِها ولا يُذكر . وسبب ذلك أن الطالعَ قد أدبر ، والحظُّ عن المساعدة قد تأخر ، وإذا تحرك الشخصُ والسعدُ ساكن ، وتبسم الدهرُ والزهرُ باكٍ ، وطلب شُكْرَ مسالمته وهو شاك ، فهو كقاطعِ البحرِ بالمرَاكِن[٧٦] ، والباني على ثَبَجهِ[٧٧] أماكن ، لا يصلحُ لهُ عمل ، ولا ينجحُ لهُ أمل ، فيشبه إذْ ذاك الحمار ، المعصوبَ العينين في المدار ، يقطعُ بالمسيرِ زمانَه ، ولايفارقُ مكانَه . كذلك مَنْ يتعاطى الأعمال ، ولا سعدَ غير عمال ، فلا يستفيدُ إلا التعويقَ والتبعليد ، ففي تلك الحال ، ينبغي الإمهالُ لا الإهمال ، إلى أنْ يتوجَّه السعدُ بالإقبال ، فعند ذلك مُدّ الشباك ، وصِدْ السِّمَاك ، فإنَّ السعدَ أتاك ، والدهرَ واتاك . وناهيك قصةُ كسرى القديم ، مع وزيرهِ بُزُرْجمِهْر الحكيم ، فسأل أخا نهشل ، بيانَ ما نقل ، من المثَل ، أخوه أبو نوفل .

---

[٧٦] المراكن (جمع مِرْكَن) : وعاء تغسل فيه الثياب .

[٧٧] ثبجة : المتوسطة بين الجيد والرديء ، يعني أرضا مبهمة غير صالحة .

[٤/٥] قصة ضياع خاتم كسرى

فقال : بلغنى أنَّ كسرى أراد التنزّه ، فشى إلى حديقةٍ عِنانَ التوجّه ، وطلبَ الحكيمَ بزرجمهر ، وجلسا تحت دوحةٍ زهر ، على بركةٍ ماءٍ أصفى من دموع العشاق ، وأنقى من قلوبِ الحكماء ، ثم طلب طائفةً من البط ، لتلعبَ قُدّامَه فى البِرْكَةِ وتنغَطّ ، وجعلَ ينادمُ وزيرَه ، ويتلقفُ منه حِكَمَه المنيرة ، ويتعرّج على البطّ وهو يلعب ، ويتأمّلُ فى أنواعِ حكمِ الصانعِ القديمِ ويطرب ، وصار يعبثُ بالخاتمِ فى إصبعه ، ويُسرحُ فى رياضِ الصنعِ سوائمَ منظرِه ومَسْمَعِهِ ، فسقطَ الخاتمُ من إصبعه ، وهو ساه . وشاهد بُزُرْجِمِهْر هذا الأمرَ فما أبداه ولا أنهاه ، فالتقمتْه بطة ، وغطّتْ فى الماء غطة ، وكان فيه فَصٌّ ثمين ، وكسرى به من المغرمين ، فلمّا سوّدَ قلمُ الاقتدار ، بياضَ النهار ، وأكْمَلَ مَشْقَه[٧٨] على قِرْطاسِ الأقْطار ، أَذِنَ كسرى للوزيرِ بالانصراف ، وقد أسبغ عليه خلعَ الإنعامِ والإسعاف ، ودخل كسرى إلى الحرم ، وافتقدَ من إصبعه الخاتم ، فلم يتذكرْ ماجرى له ، ولا وقف على كيفيةِ هذه الحالة . فأرسلَ بطلب الوزيرِ البارع ، وسأل منه عن خاتمه الضائع ، وكان الوزيرُ قد نظر فى الطالع ، فرأى أن الكلامَ فى أمرِ الخاتمِ غيرُ نافع ، فلو تكلم بصورةِ الواقع ، ذبحَ جميعَ البطّ وما وُجدَ لأنَّ الطالعَ مانع ، فكتمَ أمرَه وكلّمَه بكلامٍ لحقيقةِ الحدِّ جامعٍ مانع . ثم انصرفَ وذهب ، واستمرَّ كسرى على الطلب ، ولم يزلْ بزرجمهر يراقبُ الأوقات ، وينظرُ فى أحوالِ الساعات ، إلى أنْ استقامَ الطالع ، وزالَ من السّعدِ المانع ، وتيمَّن الفال ، وحسُنَ البال ، وحال الوَبَال ، فتوجه بزرجمهر إلى خدمةِ مخدومه ، وأخبرَه بما كان مخفيًّا من أمرِ الخاتمِ فى

---

[٧٨] مشقة : نموذج للخطّ الجيدّ ، يحاكيه المتعلم لتحسين خطه . والعبارة كناية عن انتهاء ضوء النهار ودخول الظلام .

جَيْبِ مكتومِه ، وأنه سقطَ من إصبعه ، وهو على البِرْكَةِ في موضعه ، فبادرتْ بطّة ، إلى الغَطة ، فاختطفتْه وابتلعتْه ، بعدما التقمته ، فأحضروا البطّ جميعَه ، وذبحوا من عَرَضِه[٧٩] واحدةً بديعة ، فوجدوا الخاتمَ في حشاها ، ولم تُحْوِجْ إلى ذبحِ سواها . ثم سأل كسرى الحكيمَ الأديب ، لِمَ لَمْ يُخبِرْهُ بهذا الأمرِ الغريب ، في أوّلِ وقوعِه وصدورِه ، وما موجِبُ تأخيره . فقال : كان إذْ ذاك الجَدُّ في انعكاس ، والسعدُ في انتكاس ، والطالعُ في سقوط ، والنجمُ في هبوط . وأما الآن فالطالعُ استقام ، والسعدُ كالخادمِ أقام ، ونجمُ السعودِ قد حال ، عنه الهبوطُ والوبال ، وفي استقامة السعد ، وإقبالِه من بُعْد ، يفعلُ الشخصُ ما شا[٨٠] ، فالدهرُ معه جارٍ سواء جاري أو ماشي .

وإنما أوردتُ هذا النظير ، لتعلمَ أن معاندةَ التقدير ، أمرٌ خطير ، وخطبٌ عسير ، فَرُبَّما يفرغُ الإنسانُ جهدَه في المبالغ ، ويكون الأمرُ فيه ممانعةٌ ومراوغة ، فينعكسُ المرام ، ولم يحصلْ سِوى إضاعةِ أيام ، ولم أذكرْ هذه المفاوضة ، إلاّ على سبيلِ العَرَض لا المعارضة ، لما أعلمُ منك من وُفورِ الفضيلة ، وإن مقاصدَك على كلِّ حالٍ جميلة ، فقال أخو نهشل : الأمرُ كما زعمت ، وأشرتَ بهِ ورسمت ، ولكنْ خشيتُ إنْ لم أُبادر ، يسبقني عدوٌّ غادر ، أو حسودٌ ماكر ، أو مبغضٌ مكابر ، فينهي إلى المسامع ، ما ليس بواقع ، فلم تشعرْ أيُّها البطل ، إلا وقد وَلَجَ قَلْبَ الملكِ أنواعٌ من مكرٍ ودَخَل ، فيصير كما قيل :

أتاني هَوَاها قبلَ أنْ أعرفَ الهوى فصادفَ قَلْباً خالياً فَتَمَكَّنَا

لاسيما وقد تقرَّرَ في الأمثال ، عند غالبِ الرجال ، أنَّ الدعوى لِمن سَبَق ، لا لِمن صَدَق . وبالجملةِ يا أبا عويلة ، إذا كانتْ مقاصدُ الشخصِ جميلة ، فإن الله تعالى

---

[٧٩] عرضه : وقع اختيارهم على واحدة بالصدفة ، عرضاً ، من جانب البط الذى تمّ جمعه وإحضاره .

[٨٠] شا : مخفف شاء .

ينجحُها ، ولا يفضحُها ، ويدبّرُها ، ولا يدمّرُها ، وإنْ كان في الظاهر وعند البادي والحاضر ، يظهرُ في بعضِ القضايا نوعُ همٌّ وغَمّ ، لكنَّ ذاك لَسِرٌّ لم يطلعْ عليه إلاّ مدبرُ العالم ، وإذا فوّض الشخصُ الأمور ، إلى العزيزِ الغفور ، الذى هو مدبِّرُ الطالعِ والغارب ، وفى الحقيقةِ ربُّ المشارقِ والمغارب ، وعَلِمَ أن مقاليدَ الأمورِ بِيَدِ تدبيرِه ، وأن ملوكَ الأرضِ تحتَ تصريفِ تقديرِه ، وتسخيرِه ، استراحَ فى كلِّ المطالع ، وأخلَص التَوَكُّلَ فَنَجَّاهُ اللهُ من كُلِّ الوقائع ، وأَوْصَلَه إلى ما رام من المطامع .

وحسبك قضيةُ الناصحِ الأستاذ ، الأمينِ الدمشقيِّ مع الخائنِ جاسوسِ بغداذ[٨١] ، وهي طويلةٌ طائلة ، في مجلدةٍ كاملة ، وأيضاً لم أُبادرْ بمفاتحةِ السلطان ، في أمرِك يا أعزَّ الإخوان ، إلاّ لِئَلاّ أُنسبَ إلى تهاونٍ وتوان ، وما من شروطِ المروّة ، والصداقةِ والأخوَّة ، أنْ يتخلّفَ الفَطِن ، في مثلِ هذا الموطن ، عن مساعدةِ الأصحاب ، ومعاونةِ الأحباب ، ولاسيما صديقٌ مثلك ، وحبيبٌ متسمٌ بفضلك ، وأنّي لا أدعُ من أنواعِ الاجتهاد ، وما يحسنُ ببالي في الإصدارِ والإيراد ، شيئاً إلا فعلتُه ، ولا أمراً إلاّ قدَّمتهُ ، ولا فكراً إلا استعملتُه ، ولو بذلتُ في ذلك روحي ومالي ، وخيلي ورجالي ، وأنّي مباكرٌ بابَ الملك ، وملازِمُهُ كأحسنِ من سَدِكِ[٨٢] ، فإنْ رأيتهُ مُكْرِماً مقامي ، مُصْغِياً إلى كلامي ، خاطبتُهُ بما يليق ، وسلكْتُ في الشفاعةِ وحُلْوِ العبارةِ أوضحَ طريق ، وإنْ شاهدتُ في خُلُقِهِ شكاسة[٨٣] ، وفي طبعِهِ شراسة ، وصعوبةً وشماسة ، سلكتُ سبيلَ حُسْنِ السياسة . وفي الجملةِ استعملُ عِلْمَ الفراسة ، وفي كلِّ حُكْمٍ نظيرَهُ وقياسَه ، وأستعينُ

---

[٨١] بغداذ : مدينة بغداد ، ولفظها بالذال على أصلها الفارسى ، واستوجب نطقها بالذال الضرورة السجعية ،

[٨٢] سدك : سدك بالشيء : لزمه .

[٨٣] شكاسة : سوء خلق ، أو عُسْر فى معاملته .

بالأقرباء ، والأوِدَّاء ، وأغالطُ المُناقِضَ والمعارضَ من الأعداء ، وأقصد النّجْحَ وأراقبُهُ ، وارتقبُ السّعدَ وأخاطبُه ، وأسلُكُ مع كُلِّ أحدٍ ما يناسبُه . فالعدوُّ أقتلُه ، والحسودُ أختلُه[٨٤] ، والعذولُ أفتلُه[٨٥] ، والمُخِبُّ أحتلُه[٨٦] والمبغضَ أبتلُه[٨٧] ، ومَنْ تَصَلَّبَ في المدافعةِ أَمثُلُه[٨٨] ، إلى أنْ ينقضيَ هذا الامر ، وينطفيءَ منه الجمر ، ويُقبلَ مُبَشّرُ الأماني بالطبلِ والزمر .

ثمَّ أنّهُ بات مفكّراً ، وبادر إلى الصباح مبكّراً ، وأَمَّ[٨٩] أبوابَ السلطان ، قبلَ سائرِ الخدمِ والأعوان ، فوجدَ الدُبَّ قد سبقه ، وجلسَ من عَينِ المكروه في الحَدَقَة ، وقد فَوَّقَ سَهْمَ الكيد ، وصوَّبهُ إلى شاكلَةِ الصيد ، ولم يبقَ إلاّ إطلاقه ، ليشدَّ من المرمى وثاقَه . فقبَّل النديمُ الأرضَ وأعلن سلامَه ، وقطعَ على أبي حميدٍ كلامَه ، وعارضَ ملامَه ، وناقضَ مرامَه ، وقال : أدامَ اللهُ أيَّامَ السعادة ، وأعوام الحسنَى وزيادة ، المستمدةُ من بقاء مولانا السلطان ، وعَمَّرَ دهرَه المخلَّدَ على تعاقبِ الزمان ، وأوطأَ قِمَمَ الأممِ مواطيءَ قدمه ، وأطابَ بطيبِ حياتهِ معايشَ عبيدِهِ وخدمِه ، كانت المواعيدُ الشريفة ، والآراءُ المنيفة ، سبقتْ بالتأمُّل في أمرِ عبدِها القديم ، وخديمِها الفقيرِ العديم ، وجالبِ سرورِها "أبو نوفل" النديم ، مع ما كان لائحًا ، وعلى صفحاتِ الرضا واضحا ، من شمائلِ الأخلاقِ الملوكيَّة ، ومكارمِ الشيمِ السلطانيَّة ، أنَّ مراجمَها ستأخذُ بِيَدِ العاثر ، وتقيلُ عثرتَهُ بحسنِ المآثر ، بحيث

---

[٨٤] اختَلَه : أراوِغه وأخدعه .

[٨٥] أفتله : أصرف وجهي عنه وألتوى منه .

[٨٦] المخبّ : المراوغ المخادع الغشاش . وأحتله : أحتال عليه (وقد حذف حرف العلة لضرورة السجع) .

[٨٧] أبتله : أجعله مبتليا بمصيبة (حذف حرف العلة لضروزة السجع) .

[٨٨] أمثله : أجعله أمثولة وعبرة .

[٨٩] أمّ : قصد وتوجّه .

يشرحُ الحاسر ، ويربحُ الخاسر ، والمملوكُ يسألُ مراجمَها ، ويرجو مكارمَها ، أنْ لا تخيّبَ بتحقيقِ ظنّهِ وَهَنَه ، وأنْ تجري مماليكُها وعبيدُها ، على مَنْ عَوَّدَها من الصدقاتِ قديمها وجديدها ، ثمَّ أنشد ، وإلى الرضا أرشد :

أرجو أبا العباسِ أن يَرْوِي لنا عن ثغرِهِ الضحاكِ نوراً يُقْتبس

فاقرأ : تبسم ضاحكاً من قولها متهللاً لحوي ولا تقرأ : "عبس"[٩٠]

فتبسَّم أبو العبّاس ابتسامة ، ظهرت منها للرضا علامة . فاشتعل الدبُّ من القيظ ، وكاد يتمزَّقُ من الغيظ ، وعلم أنَّ عِقْدَ أمرِهِ انفرط ، ونَجْمَ سعدِهِ من فَلَكِ السعدِ سَقَط ، وأنّهُ لم يكتسبْ من مكايدِ القساوة ، إلاّ هاتيكَ العداوة ، وانكشفَ عندَ مالكِهِ ما وَطِئَهُ من مُغَطّى ، وقرأ كلُّ أحدٍ حديثَ ذلك الموطّا[٩١] ، وغلب عليه الوجدُ في الحال ، فخرج عن دائرةِ الاعتدال ، وسكَر من خمرةِ العداوة فطفَح ، وعربَدَ وشطَح .

فقال : كلُّ مَنْ ستر على أعداءِ الملك ، فهو في الخيانةِ والجنايةِ مشترك ، وكلُّ مَنْ شفَعَ في الجاني ، فهو في قَيْدِ العصيانِ عاني ، بل هو أشدُّ من المباشر ، إذْ هو معاشر ، للمتعاطي ومكاثر ، والإبقاءُ على المعصيةِ شرٌّ منها ، والرضا بكفرِ الكافرِ فتنةٌ يُفرُّ عنها ، وما أظنُّك أيُّها النديم ، العارفُ القديم ، لمعرفةِ هذا القدرِ عديم ، فإنْ أبيتَ الاّ الإصرار ، ومساعدةَ الفُجّار ، ومعاونةَ الأشرار ، فأنتَ حينئذٍ مُسْتَخِفٌّ لهيبةِ وَليِّ نعمتِك ، مستنقصٌ حرمةَ مالِكِ رقبتِك ، طالبٌ لابتذالهِ ، مستهينٌ بمقامِ جلاله ، راضٍ بتسليطِ الأنذال ، والأوغادِ والأرذال ، على انتهاكِ

---

[٩٠] عبس : يعنى سورة "عبس وتولى" فى القرآن العظيم .

[٩١] الموطّا : مخفف الموطأ .

حرمتِه ، وابتكاكِ[٩٢] أستارِ حشمته ، ونحن لا نرضَى بذاء الذِّمامة[٩٣] ، ولا كيدَ للمخالفِ ولا كرامة .

فعند ذلك استشاطَ الغضنفر ، وتـأثّر لكلامِ الوزيرِ وتغيَّر ، وزأر وهَمَر[٩٤] ، وزفر زفرةً وزمجر ، وكاد أن يثبَ على أبي جَمْهَر[٩٥] ، ثُمَّ إنَّهُ تماسك ، وتناسَى الغدرَ وتناسك ، وقال : يا أبا سَلمة[٩٦] كَبُرَتَ كَلِمَة ، غيبةٌ الأصحاب ، والنميمةُ بين الأحباب ، وساءتْ حركة ، وبئستْ ملكة : تناسى الحقوق ، وتحاسى[٩٧] العقوق ، وإطراح جانبِ الصديقِ والصدوق ، والرفيقِ الشفوق ، وإضاعةِ خدمةِ الخديم ، لاسيمَّا النديمُ القديم ، ولم تزلْ الأصاغر ، تستمطرُ مراحمَ الرؤساءِ والأكابر ، ولم تبرحْ الملوك ، تعطفُ على مسكينِها الصعلوك ، أنَسيتَ ما قلتُ لك في حقيقة مَنْ مَلَك ، وهو :

ليس المليكُ الذي تَشْقَى رعيتُهُ وإنما المَلْكُ مَوْلىً يحفظُ الخِدَما

وأيضا لم تزلْ الأصحابُ تساعدُ أصحابَها ، وتستعطفُ عليها ملوكَها وأربابَها ، وترفعُ بحسنِ السفارةِ من ستائر الدهشةِ حجَّابَها ، ويُثبتون بذلك الأجرَ العظيم ، والثوابَ الجسيم ، والثناءَ العاجل ، والجزاءَ الآجل ، في صحائفِ مخاديمهم ، ويعدُّون ذلك أربحَ معاليمهم ، ويبذلون في ذلك الجهد ، ويبلغون فيه غاية الكَد ، وذلك ممَّا يجب عليهم ، ويتقدَّم بالمحافظة عليهِ إليهم ، كما قيل :

---

[٩٢] ابتكاك : قطع أو اقتلاع أو نزع .

[٩٣] الذمامة أو الذِّمام : وهى العهد والأمان والكفالة . ومن معانى الذمامة أيضا : الإشفاق من الذم واللوم .

[٩٤] همر : دمدم بغضب ، وضرب الأرض برجليه .

[٩٥] أبو جمهر : جمهر له الخبر ، أو عليه : أخبره ببعضه على غير وجهه ، وأخفى عنه المراد . (وأبوجمهر هنا تعنى الضبع) .

[٩٦] أبو سلمة : من أسلمه لغيره بمعنى خذله وأهمله وتركه لعدوه . (يعنى الوزير الدُّبّ) .

[٩٧] تحاسي العقوق : تقصيها والبحث عنها ، وأيضا : تجرّعها أو احتساؤها جرعة بعد جرعة .

يستعطفــون الأكــابــــر   يستعبــــدون الأصــاغــــر
يحيون رســـمَ الأوائـــل   يعلمـــــون الأواخـــــر

وأيُّ فائدةٍ واستفادة ، أيُّها الوزيرُ أبا قتادة[٩٨] ، في رعيَّة ملكٍ لا تتّفق قلوبُهـم ، ولا تُستَرُ بينهم عيوبُهم . ولا تطهَّر بالصفـاءِ جيوبُهـم ، ولا تتجـافى عـن مضـاجعِ الجفاءِ جُنوبُهم ، ولا يتساوى في الوفاءِ حضورُهـم وغيوبُهم ، تراهُم في الغيبـةِ يقـتّ بعضُهـم بعضـاً قتَّـا ، ويرعـون لحومهـم قتّـا[٩٩] ، كبهـائمَ لاَقَـتْ في قَتـا[١٠٠] ، وفي الحضورِ تحسبُهم جميعاً وقلوبُهم شتّى . ثمَّ إنْ كَان أخـو نهشـل ، يسـاعدُ أخـاهُ أبـا نوفـل ، فذاك شيءٌ يجبُ عليـه ، ويُنـدبُ إليـه ، فإنَّـهُ صاحبُـه القديـم ، وجليسُـه القويم ، وإنْ تخلّى عنه ، فماذا يُرجى منه ، وحَجَرُ النوائبِ هـو محـكُّ الأصحـاب ، وجَمْرُ المصائبِ يُظهرُ من تِبْرِ الصداقةِ اللُّبـاب . وقـد قـامَ في هـذه النوائـب ، بعـدَّةِ أشياء كلُّها عليهِ واجب ، أوَّلُها : القيامُ بحقِّ أخيـه ، والسعيُ في خلاصِـهِ مـن هـذا الأمرِ الكريه . ثانيها : ساقَ إلى صحائفي الحسـنات ، وقصـد لي رَفْـعَ الدرجـات . ثالثها : طلب رضا خاطري ، وما يشرحُ صدري ويسرُّ سرائري . رابعها : مباعدتي عن الآثام ، وخلاصُ ذمَّتي مـن الوقـوعِ في الحـرام ، فربَّمـا يحمِلُـني العنـود ، والخلـقُ الشَّرُود ، علـى التعـدَّي في الحـدود . خامسـها : اشـتهارُ اسمي بـالفضل ، وعـدم المؤاخذةِ بالعدل ، فيشيع في الآفاق ، عني مكارِمُ الأخلاق . سادسها : انتشارُ صيتي بحسن الوفاء ، والقيامُ بحقوق الإخوانِ وعدم الجفاء . سابعها : أنَّهُ غـرس في قلـوبِ الأماثلِ محبَّتَهُ ، وزرع في أرواحِ الأفاضلِ مودَّتَهُ ، وإنْ كان صَدَر ، من أبي نوفل مـا

---

[٩٨] أبو قتادة : الوزير الدب ، والكنية هنا مشتقة من القتاد ، وهو نبات صلب له شوك كالإبر .

[٩٩] قتا : كذبا مهيأ ومزوّرا . غيبة واغتيابا .

[١٠٠] قتاً : هنا بمعنى : جنس نباتات عشبية كَلَئيّة وهي ايضا الفِصْفِصة اليابسة ، واحدتها قتة .

صَدَر ، فإنَّه اعترفَ بالذنبِ وعنه اعتذر ، فنعملُ معه بالظاهر ، وا لله تعالى يتولَّى السرائر ، كما قيل :

اقبلْ معاذيرَ مَنْ يأتيك معتذِرا   إنْ بَرَّ عندَك فيما قال أوْ فَجَرَا
فَقَدْ أطاعَك مَنْ أرضاكَ ظاهِرُه   وقد أجَلَّكَ مَنْ يعصيك مستترا

ولو بلغت هذه الحكاية ، غايَة الشرِّ ونهايَة النكاية ، ما تُدانى واقعة الملك الصافح ، عن عدوِّهِ الموذي[101] المسافح . فقبَّل الدبُّ الأرض ، وقام في مقام العرض ، وسأل الملكَ بيانَها ، لِيَعْلَمَ بحسنِ التصريفِ فرزانَها[102] ، ويقيس عليها أوزانَها .

[٥/٥] قصة خصم السلطان بين الوزير الكذوب والوزير الصدوق

فقال : ذكر أنَّ بعضَ السلاطين ، تصدَّى لهُ عدوٌ من الشياطين ، يحرِّضُ عليهِ الأعادي ، ويفسدُ عليهِ الحاضرَ والبادي ، ويجتهدُ في إقامتِهِ ومسيرهِ ، في إزالةِ الملكِ عن سريرهِ ، ويُغري[103] بهِ العساكر ، فيقابلهُ ظاهراً بالنواكر ، وباطناً بالمواكر ، وما فسُد منهُ ما فسد ، إلا بدواعي الحقدِ والحسد ، فجعل الملكُ يسترضيه بالهباتِ فلا يرضى ، ويستدنيهِ بالصلاتِ فلا تزيدهُ صِلاتُهُ إلا بُعْداً ونقضا ، كما قيل :

إلى كم يُداري القلبُ حاسدَ نعمةٍ   إذا كان لا يُرْضيهِ إلا زوالُها

فاضْطُرَّ الملك من أُمورهِ ، واشتغل لإيقاعِهِ بنذورهِ ، وجعلَ ينصبُ لهُ شَرَكَ الوقائع ، ويجتهدُ في ايقاعِهِ بكلِّ دانٍ وشاسع ، وذلك الباغي أحذرُ من الغراب ، وأسهرُ من طالعِ الكلاب ، والملكُ لا يقرُّ لهُ قرار ، ولا يطيبُ لهُ عيشٌ لا بالليل ولا

---

(101) الموذي .

(102) فرزانها : تصنيفها وتمييزها للإفادة منها .

(103) يغرى به : يحرِّض عليه العساكر للثورة عليه .

بالنهار . فكان من أحسن الاتفاق ، أنْ علق ذلك الباغي ببعضِ الأوهاق[١٠٤] فحُمل إلى حضرةِ الملك ، وهو في قيدِ البلاءِ مشتبك ، فلما رآهُ في قيد النكد ، بادر إلى الأرض فسجد ، وقال : الحمدُ للهِ المغيث ، حيث أمكَن منك أيْ خبيث . أترى هذا في المنام ، فهو أضغاثُ أحلام ، أم سمح الزمان ، بأهلِ العدوان ، وأنا يقظان . ثم شرع في السبِّ والتحديع ، والتوبيخِ والتقريع ، وأقسم بفالق الإصْباح ، وخالقِ الأرواح ، ورازقِ الأشباح ، ليفعلنَّ بذلك النبّاح ، من النكال والجراح ، ما فعل المصطفى عليه الصلاةُ والسلام مع سرّاق اللقّاح ، ولْيذيقنّه كأسَ الباس ، ولْيجرعنّهُ من خمر المنيَّةِ أمرَّ كأس ، ثم أمرَ الجلاد ، أنْ يأتيَه بِمَا لَهُ من النطْعِ والسيفِ والعتَاد . فعلم ذلك الزنديق ، أنّهُ وقع في الضيق ، وأنهُ لا يُنْجيهِ أخٌ ولا صديق ، ولا افتداءٌ بشقيق ، ولا حميمٌ وشفيق ، فضلاً عن مالٍ ومنال ، أو خيلٍ ورجال . فلما غسل يدَهُ من العيش ، استهوتهُ الخفّةُ والطيش ، فشرع في السباب ، ودخلَ في الشتْمِ من كلِّ باب ، ورفَع بفاحشِ الكلامِ الصوت ، وقال ما بعد الموتِ مَوْت .

فسأل الملكُ أحدَ الوزراء ، ماذا يقول من الافتراء ، هذا الظالم المجتري ، الباغي المفتري ؟ فقال : يدعو بدوامِ البقاء ، ورفعةِ مولانا الملكِ والارتقاء ، ويقولُ ما أحسنَ العفوَ عندَ المقدرة ، واللطفَ والكرمَ أيامَ الميسرة ، وإنْ لم يكُنْ ثَمَّ مجالٌ للمعذِرة ، ولو جعلَ العفوَ شُكْرَ المقدرة ، لَكَانَ أوْلى ، وأعلى مقاماً في مكارمِ الشيمِ وأحْلى ، كما قيل :

ما أحسنَ العفْوَ من القادِرِ   لاسيما لغيرِ ذي ناصر

---

[١٠٤] الأوهاق : جمع وهق ، وهو الحبل فى أحد طرفيه أنشوطة ، يطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ ذليلا .

ويترحَّمُ على أسلافِ مولانا السلطان ، الذين كان شيمتُهم العفوَ عن ذوي العصيان ، وكان ذلك منتهى لذّتِهم ، وغايةُ أمنيَّتِهم . وما أحدرَ مولانا الملكَ أن يُحْيِي مكارمَ سلفِهِ ، ويجعلَ العفوَ كلمةً باقيةً في خلفِهِ ، ولا زال يقولُ ، من هذا المقول ، حتى لانَ لـهُ القلبُ القاسي ، ورقَّ لـهُ قلبُ الملكِ الجاسِي[١٠٥] ، فأمر بإطلاقهِ ، ومَنَّ عليه بإعتاقِهِ .

وكان أحدُ الوزراء ، وأركانُ الأمراء ، شخصٌ يعاكسُ هذا الوزير ، ويناقضُـهُ فيما يراهُ ويشير ، وبينهما مرَّتْ أسبابُ عداوة ، أحلى في مذاق طبعيْهما من الشهدِ والحلاوة ، كلٌّ مترصدٌ للآخَرِ زلّة ، متوقعٌ لإيقاعِـهِ في شبكةِ البلاءِ غَفْلَة . فحين رأى شقّةَ الحال ، نُسجتْ على هذا المنوال ، وجدَ فرصةً للمقال ، فتقدَّم وقال : ما أحسنَ الصدق ، وأيمنَ كلام الحق ، خصوصاً في حضرةِ المخدوم ، وهذا أمرٌ معلم ، عدوٌّ مبين وحسودٌ مهين ، لم يتركْ من أنواعِ العداوةِ شيئاً إلاّ تعاطاه ، ولا من الإفسادِ والشرِّ صنفاً إلا هيَّاه[١٠٦] ، قد أهلَكَ الحرثَ والنسل ، وبَدَّل جَنّتَيْ الصلاحِ من الفساد بخِمْطٍ[١٠٧] وأَثْل[١٠٨] ، إلى أنْ أمكنَ اللهُ تعالى منهُ ، وحان تفريغُ الخواطرِ الشريفةِ عنهُ . ثمَّ إنّـهُ في مثلِ هذا المقام ، بين الخواصِّ والعوامّ ، يَثْلُبُ الأعراض ، من الأمراض ، وَيَجْهَرُ بالسّوء من القول ، ويصرفُ في الخنى والسّب ما لهُ من قوَّةٍ وحَوْل ، كيف يحلُّ السكوتُ عن جرائمِه ، وتغطيَة مساويهِ وعظائمِهِ ، فضلاً عن أنْ تتجلّى سيئاتُهُ في خِلَعِ الحسنات ، وتتحلّى شوهاءُ سواخطِ أدعيتِه بملابس أحسنِ الدعوات ، ومع هذا يُطلبُ لهُ التوقُّعُ والخلاص ، والإطلاقُ من شركِ

---

[١٠٥] الجاسي : الصلب الغليظ .

[١٠٦] هياه وأعدّه .

[١٠٧] خمط : ضرب قليل الحمل (الثمار) من كل شجر .

[١٠٨] أثل : شجر طويل غير مثمر ، كثير الأغصان متعقدها ، واحدته أثلة .

الاقتناص ، وهو على ما هو عليه ، من الاساءةِ المنسوبةِ إليه . أمّا والله يا مولانا الهمَام ، وسلطانَ الأنام ، ما قال إلاّ كذا وكذا من قبيحِ الكلام ، وتناولَ العِرْضَ المصونَ بالسبِّ والدعاءِ والملام .

فتغيَّر خاطرُ الملك وتعكّر ، وتشوَّش صافي خاطرِهِ وتكدَّر . ثم قال : أيها الوزير ، ذو الصدقِ في التحرير ، والله حقّك ، إنّ كَذِبَ هذا الوزيرِ عندي خيرٌ مِنْ صدقِكَ ، فإنّهُ بكذبِهِ أرضاني ، وإلى طريقِ الحقِّ هداني ، وأصفى خاطري من الكدر ، وأطفأَ ما كان تلهَّبَ في غيظي من شرر ، ونجّاني من دمٍ كنتُ أُريقهُ ، ولا يهتدي إلى كيفية استحلالِهِ طريقة ، فأصلحَ بذلك ذاتَ البَيْن ، وأصار المتعادِيَيْن أحسنَ محبَّيْن ، وخلَّدَ ذكري بجميلِ الصفات ، وسلك بي طريقَةَ أجدادي الرُّفات[١٠٩] . وأمَّا أنتَ فكدَّرتَ عيشي ، وآثرتَ غضبي وطيشي ، وأسمعتني الكلامَ المرّ ، وقد مسَّني منك الضرّ . وأمَّا أنا فقد أعتقتُ هذا وأطلقتُه ، فلا أرجعُ في إيذائِهِ وقد أعتقتُه ، وقد ثبتَ لهذا الوزيرِ عليَّ حقوق لا ينكرُها إلا ذو عقوق ، ولا تَسَعُها الأوراقُ والرُّقوق[١١٠] ، فكذبُهُ عندي خيرٌ من صدقِك ، وباطلُهُ أحلى على قلبي من حقِّك . ولهذا قال ذو الأفضال "ما كلُّ ما يُعلَمُ يقال" .

وإنّما أوردتُ هذا الكلام – ياكرام – لتعلموا أنَّ السلطانَ بمنزلةِ الإمام ، وأركانَهُ لهُ تبعٌ في القعودِ والقيام ، ولا يتمُّ الائتمام ، إلاّ بالاتّفاقِ بين الرفاق ، فإذا كان الجماعةُ مجمعين ، طائعين لإمامِهم مستمعين ، استقام القيام ، وانتهوا من جميلِ التحياتِ إلى السلام . ولا يقعُ لهم انتظام مع مخالفتِهم لحال الإمام ، هذا قائمٌ وهذا قاعد ، وهذا راكعٌ وهذا ساجد ، وهذا نائمٌ وهذا هاجد . وأيضاً السلطانُ بمنزلةِ

---

(١٠٩) الرُّفات : الموتى الذين أصبحوا رفاتا ، أى حطاما وفُتاتا .

(١١٠) الرقوق ، واحدتها الرَّق وهو جلد رقيق يكتب فيه .

القلبِ والراس ، وبمنزلة الأعضاءِ رؤساءِ الناس ، وباقي الرعية خَدَمٌ للرأس والأعضاء ، منتظرين لما تبرز به المراسيمُ من الزجْرِ والإمضاء ، فإذا اتفقتْ الأعضاءُ واصطلحت ، انتظمتْ أُمورُ كلٍّ من الرأس والرعية وانصلحت ، وإذا وقع اختلافٌ وتباينٌ في الأعضا ، صار كلٌّ من الرأسِ والقلبِ والرعيةِ مرضى ، ولقد صدقَ مَنْ قال وهو رسولُ الله ﷺ : المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيانِ يشدُّ بعضُهُ بعضا . وخلاصةُ هذا الكلام ، أنَّ قصدي أنْ تكونَ أحوالَ رعيتي على النظام ، لا يقعُ بينهم شقاق ، ولا تنافرٌ ولا نفاق .

وأما أبو نوفل فيكفيهِ حياؤُهُ وخجلتُه ، فقد انتهت وتمَّت عقوبتُه ، وأخذ حدُّه حدَّهُ ، لايليق بكرمي أنْ أردَّهُ ، وهذا الذي ورثْتُهُ عن أسلافي ، وهو الحقُّ اللائقُ بمحاسنِ شيَمي وأوصافي . فلما سمع الوزيرُ هذا الكلام ، وجرح فؤادَهُ نَصْلُ هذا الملام ، نَدم غايةَ النَّدم ، وعلمَ أنهُ قد زلّت به القدم ، وأنّهُ لا حاجتَهُ قضى ، ولا على صديقهِ أبقى ، ولم يستفدْ مما أبداهُ من فَحَم[111] ، سوى إظهار معاداة أبي النجم ، وأنهُ إذا تخلّص من حبسِهِ وكربِهِ ، ورجعَ عندَ الملكِ إلى منادمتِهِ وقربِهِ ، لا بدّ أنْ يتصدَّى لمعاداتِهِ وسلبه ، ولا يفيدُهُ بعدَ ذلك أفعالُه ، ولا يسمعُ في أبي نوفل أقوالُه . فانصرفَ من عندِ الملكِ الطيثار[112] ، لا يدري أين يضعُ قدمَهُ من الافتكار ، حتّى وصل إلى منزلِهِ ، واختلى في فكرِهِ بعملِهِ ، وفرَّع للمخلّص من هذه الورطة طُرُقا ، وتفرّقَتْ رُوَّادُ أفكارِه في منازلِ الخلاص فِرَقا ، فأدَّى نصيبُ الروّادِ من الآراء ، ومفيدُ القصّادِ من الشورى ، إلى السعي في مصالحةِ أبي نوفل ، وإزالةِ ما وقعَ من الغبارِ في وجوهِ الصداقةِ وتخلّل . ثم أدَّى افتكارُهُ ، وأورى من زندِ رأيهِ

---

[111] الفحم : من فَحِم فَحَماً : غلظ شدقه واتسع .

[112] الطيثار : صفة من صفات الأسد تشير إلى كثافة شعر رأسه (لبدته) قياسا إلى شعر جسمه .

شرارَه ، إلى أنْ الذي وقع منهُ قد اشتُهر ، وعلِمَ بهِ أصحـابُ البـدوِ والحضـر ، فـإذا طلبَ من بعدهِ الصلح ، فذلك في غايةِ القُبْح ، إذْ كلُّ مَنْ في حِجْرهِ حجْز ، يتحقَّـقُ أنَّ ذلك خَوَرٌ وعجز ، فصار يتردَّدُ بين هذه الأفكار ، ويتـأمَّلُ مـا فيهـا مـن تحقيـقِ الأنظـار ، وتدقيقِ الأسـرار . فبينما هـو في بحـرِ الافتكـار ، يلطمُـهُ المـوجُ ويصدمُـهُ التيار ، دخل عليهِ صفيٌّ لهُ صافي الوداد ، وهو ظبيٌّ أغـرٌّ - يدعـى مبـارك الميـلاد - ذكـيٌّ الجنـان ، فصيـحُ اللسـان ، دقيـقُ النظـر ، عميـقُ الفكـر ، ذو رأيٍ صـواب ، وشـفقةٍ كاملـةٍ علـى الأصحـاب ، فـرآهُ مطرقـاً إلى الأرض ، في فكـرٍ ذي طـولٍ وعـرض ، فسلّم عليهِ ، وتقدّم بالسؤالِ إليهِ ، عن تشـوّر[113] بالهِ ، وتـوزُّعِ حالهِ ، فطلب الوقوفَ على ما نالَهُ ، لينظرَ عاقبةَ أمرهِ ومآله ، فأخبره بموجبِ ذلـك ، وانّـهُ قد سُدَّت في وجهِهِ المسالك .

فقال مبارك الميلاد : ياصحيحَ الوداد ، أنتَ قد زعمتَ أنَّ مولانا السـلطان ، قـد ترك أبا نوفل الندمان ، وطرحَهُ إطراحاً لا رجعةَ فيهِ ، وأنهُ بعد اليـومِ لا يذكـرُهُ ولا يدنيهِ ، وأنَّ عثرتَهُ لا تُقال ، وغصّتَهُ لا تزول ، وقصتَهُ لا تزال ، هيهـاتَ هيهـات ، يا أبا الترهات ، الملوكُ إن لم يعرفوا حقوقَ خَدَمِهم ، ولم يثبتوا في ديـوانِ إحسـانِهم قِدَمَ قَدَمِهم ، خصوصاً هذا الملك العظيم ، الذي أنفاسُ شِيَمِه تُحيي العظْمَ الرميـم ، ونحن قد زَجَيْنا عمرَنا في خِدَمِه ، وأذاقنا بردَ عفوِه وحلاوةَ كرمِه ، وغذاءُ أرواحِنـا إنما هو غوادي حلمِه ، وروائحُ نعمه ، مع أنَّ أبا نوفل ، لم يقعْ في محـذورٍ معضـل ، يوجبُ تناسي ذِمَمَه ، وابتـذال حرمتِهِ وحرمِـه ، وانّـهُ استغفرَ وأنـاب ، واعتـذرَ وتـاب . واعلـمْ أيُّهـا الوزيـرُ الأكـرم ، أنَّ ذوي النُّهـى والحِجْـر[114] ، إذا أرادوا

---

[113] شوّر : تشتت باله نتيجة فعل مُخجل .

[114] الحِجْر : العقل .

الشروعَ في أمرٍ ، تـأمّلوا في مبـداه ، غايتَـهُ ومنتهـاه ، وهـذا التقريرُ ، كـالجلوسِ المقصودِ من عملِ السرير ، فإنّما تنبعثُ لصنعتِهِ النفوس ، إذا علمت بحصول الرفعة عليه من الجلوس ، كما قيل :

فإيّاكَ والأمْرَ الذي إنْ توسّعَتْ مواردُهُ ضاقتْ عليْكَ مصادِرُه

أمَا بَلَغَكَ يا أخى ، وأكرمَ سخي ، حكايةُ التـاجرِ البَلْخِيّ ؟ قـال الوزيـر : أخـبرنى بكيفية هذا التنظير .

[٦/٥] حكاية التاجر البلخى

قال مباركُ الميلاد : بلغنى من أحدِ العبـاد ، الذيـن طـافوا البـلاد ، أنـه كـان فـى مدينةِ بلخ[١١٥] تاجرٌ ، كثيرُ العروضِ والمتاجرِ ، عريضُ المالِ والجاه ، غزيـرُ الضيـاعِ والمياه ، تُكاثِرُ نقودُه الرمال ، وتُباهى خزائنُه معادنَ الجبال ، وتُفـاخرُ جواهُـره دُرَرَ البحار ، وتسامى بضائعُه تلالَ القفار ، تراجعَ عنه الحظّ ، وعامله الزمانُ بعادةِ طبعِه الفظّ ، وأدبرتْ عنه من الدنيا القوابل ، ونزلتْ بساحةِ موجودِه بـالإعدامِ النـوازل ، وولتْ وفودُ مَعَايشه فكادت تَقدّ السلاسِل ، فصار كلّمـا عـاملَ مُعاملـةً انعكسـتْ عليه ، حتى نَفَذَ جميعَ ما بين يديه . فلم يَرَ لنفسـه أوْفَـقَ مـن التغـرّبِ عـن وطنـهِ ، والإقامة فى سكنٍ غيرِ سكنِه ، فأخذ بعضاً من المال ، وخرج مـن بـلادِ الشـرقِ إلى بلادِ الشمـال ، وداومَ فى الأرض على الضرب ، حتى انتهى إلى بلادِ الغرب ، فأقـام بها دهرا ، يتعاطى معاملةً وتضجْرا ، إلى أن زادَ مالُه وأثرى ، ورجعَ إليـه بعـضُ مـا ذهبَ من يديه ، ثم اشتاقَ إلى بلده ، ورؤيةِ زوجتِه وولدِه ، فتجهّـز إليهـا ، وسـار

[١١٥] بلخ : مدينة تقع بين شرق إقليم خراسان وجنوبى نهر جيحون ، فتحها العرب سنة ٦٥٣ م .

حتى نـزل عليهـا ، وأراد الدخـولَ إلى دارِه ، فأوْقفـه مُشيرُ افتكـاره ، إلى إعمـالِ النظـر ، فى حادثِ القضاءِ والقدر ، وأنشدَه الزمان ، بلسان البيان :

للكـونِ دائـرةٌ من قبلنا صنعتْ   لاَ بى تضيقُ ولا مِنْ أَجْلِكَ اتَّسَعَتْ

والسرُّ فى جَيْبِ غَيْبِ اللهِ مكتتمٌ   فلستَ تدرى يد التقديرِ ما صنعت

فرأى أن يدخلَ متنسِّيا ، متنكـرا متخفِّيـا ، ويتوصـلَ إلى دارِه ، ويتجسسَ أحـوالَ كبارِه وصغـارِه ، وما حـدثَ عليهـم مـن الحـوادث ، وتقلبـاتِ الزمـانِ العـائث ، فتوجّه لما أظلم ، إلى داره وهو يترنم :

يا للهِ قُـــلْ لي خَبَرَكْ   فَـلي زَمَـانٌ لَـمْ أَرَكْ

إلى أَنْ وَصَلَ إلى الباب ، وما عليـه حـاجبٌ ولا بـوّاب ، فـرأى البـابَ مقفـلا ، والقنديلَ عليه مُسْبَلا ، وكان يعرفُ للسطوحِ دَرْبـاً خفيّـا ، فاستطرق منـه وارتفـع مكاناً عليّا ، وأشرف من الكُوَّة ، فرأى ربَّةَ البيـتِ المرجـوَّة ، فـوقَ سـريرِ الأمـان ، مُعَانِقَةً فَتى من الفتيان ، كأنهمـا لفـرْطِ العنـاق ، كانـا مَيِّتَيْـنِ مـن أَلَـمِ الاشتياق ، فبعثْهما قيامةُ التلاق ، فتلازما والتفّت السّاقُ بالسّاق ، ولسانُ حـالِ كـلٍّ منهمـا ، يروى عنهما :

عانقتُ محبوبَ قلبى حينَ واصَلنى   كأنني حـرفُ لامٍ عانـقتْ أَلِـفَـا

فتبادَر إلى وهله[116] لغيبوبةِ عقلـه ، أن ذلـك الشـابَ الظريـف ، معاشـرٌ حريـف ، أفسد زوجتَه ، مغتنما غيبتَه ، وأنه فى تلكِ الليلة ، إستعمل قوله :

لا تَلْقَ إلاّ بليـلٍ مَنْ تواصِلُه   فالشمسُ نَمَّامَةٌ والليْلُ قوّاد

فَسَلَّ السكين ، وقَصَدَ قَتْـلِ ذلـك المسكين ، وصمَّـمَ علـى النـزولِ إلى البيـت ، وإثـارةِ الفتنِ بكيتٍ وكيـت ، ثـم استـتاب وهلـه[117] ، واسـتراب عقلـه ، وأخـذ

---

[116] أوّل ما تبادر إليه .

[117] فزعه وضعفه .

يتفكر ، ويتأمّلُ ويتدبر ، واحتضرَ أحوالَ قرينته ، وأنها في العفّةِ مجبولةٌ من طينتِـه ، وأنـه لم يعلـمْ عليهـا إلا الخير ، وعـدمَ ميلِهـا عـن حلالها إلى الغير ، فطلـب قَبْلَ الفضيحة ، لزوجتِـه طريقـةً مندوحـة ، ظريفـةً ممدوحـةً ، فـإنّ مُـدَّةَ غيبتـه طـالت ، وزوجتُه كانتْ حالتُها حالت ، فلا بُدّ أوّلاً من الوقوفِ عليها كيف استحالت ، ثم كفَّ عن الذبح ، ونزل عـن السـطح ، وقصـد جـارةَ دارِه ، ودارةَ جـارِه ، وطـرقَ بابَها ، واستنبحَ كلابَها ، فخرجت إليه عجـوز ، كـانت إلى دارهِ تجـوز ، فسـألتْ مَنْ هو وما مراده ، ومن أين إصدارُه وإيرادُه . فقال : إنِّى رجـلٌ غريـب ، ليـس لى بهذه البلدةِ خليلٌ ولا قريب ، وبلادى أرضُ مكة ، كنت أتـرددُ إلى هـذه السـكة ، وأعاملُ التجار ، وكان لى فى هذه المحلةِ بجـيرٌ وجـار ، مـن التجـارِ الكبـار ، كنـتُ آوى إليـه ، وأنزلُ فى قدومى عليـه ، اسمُه فلان ، وقد مَرّ علينا زمان ، وعاقنى عنـه نوائبُ الحِدْثان . والآن قدمتُ إلى هـذا المكان ، وقـد قصـدتُ داره ، ولا أدرى أيَّ جـرادٍ عـاره ، ولم أعرفْ له خبرا ، ولا رأيتُ عينـاً ولا أثـرا ، فهـل تعرفـين كيـفَ حالُه ؟ وإلى ماذا آل مآلُه ؟ فقالت : نعم ، زالتْ عنـه النِّعَـم ، وألجأتْـه الحـال ، إلى الترحَال ، فرحل منذ سنين ، وكنّا فى جوارِه من الآمنين ، وانقطع عنا خَبَرُه ، وعن زوجتِه عينُه وأثرُه ، وطال عليها منظرُه ، فدعتها الضـرورةُ والإعـدام ، إلى عـرضِ حالِها على الحكّام ، فأذن لها قاضي بلخ ، فى إبطالِ نكاحِهـا بالفسـخ ، ففسـخت نكاحَها واعتدّت[118] ، وطلبتْ نصيبَهـا واسـتدّت . ولقـد أوحشـنا فراقُـه ، وآلمنـا اشتياقُه ، غيرَ أن زوجتَـه قـامتْ مقامَـه ، وأفـاضتْ علينـا إحسـانَه وإنعامَـه ، وهـى متشوقةٌ إلى رؤيته ، متشوفةٌ إلى مطالعِ طلعِته ، متلهفةٌ على أيـامِ وصالِـه ، متأسـفةٌ

---

[118] قضت عدّتها بعد الطلاق .

على ترشّفِ زلالِه . فلما وقف على صورةِ الحال ، سجد شكراً للهِ ذى الجلال ، وحمد الله على الثبات ، فى مثلِ هذه النائبات .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، لتعلمَ فضيلةَ التأمّلِ فى المآل ، والتفكرٌ فى عواقبِ الأحوال . قال الدبُّ : دَعْنا من هذا الكلام ، والأخذِ في الملام ، واسعدنى في التدارك ، فإنّك نعمَ المشارِك ، قبل انفلاتِ العِنان ، وانقلابِ الزمان ، وخروج زمانِ التلافي من أناملِ الإمكان ، وانتقالِ حَلِّ عُقدتهِ من اللسانِ والبنان ، إلى الأسنان . فقال مباركُ الميلاد : الرأيُ عندي يا أبا قتاد ، المبادرةُ إلى الصلحِ والإصلاح ، ليحصلَ النصحُ والفلاح ، والأخذُ في المصافاة ، وسلوكُ طريقِ الموافاة ، والعملُ به باطنا وظاهرا ، والاستمرارُ عليهِ أوَّلاً وآخرا ، ومحوُ آثارِ العداوة ، وتناسي أسبابِ الجفاءِ والقساوة ، واستئنافُ المودَّةِ الصافية ، والمحبَّةِ الوافية ، وصرفِ القلبِ نحوَ دروسِ فقْهِ الخلّةِ الشافيةِ والكافية ، حتّى يقولَ مَنْ رأى وسمع : الحمدُ للهِ آلتْ العاقبةُ إلى العافية . ثمَّ اعلمْ أنّهُ لا يصفُو لك صاحب ، وخاطرُك عليهِ للتكدُّرِ مصاحب ، ولا يخلصُ لك صديق ، ولبنُ خلُوصِ محبَّتِك إياه مُذيق ، وقاطعُ بغضِك في الطريق ، وشوكُ سعيك راكبُ التعويق ، والقلوبُ في المحبَّة تتجازى ، إنْ حقيقةً فحقيقةً وإنْ مجازاً فمجازاً ، وكلُّ شيء بمقدارٍ وميزان ، وكما تدينُ تدان ، وقلّما تجدُ مَنْ تحبُّهُ ويبغضُك ، وتربُّهُ[119] ويرفضُك ، وتصفو لهُ ويتكدَّر ، ولا تتغيَّرُ عليهِ ويتغيَّر ، ودونَك يا ذا الكرامات ، ما قالَ صاحب المقامات :

وكِلْتُ للخِلِّ كما كالَ لي   على وفاءِ الكيلِ أو بَخْسِه .

وقال ، مَنْ أحسن المقال :

---

[119] تسعى إلى إصلاح أمره .

والعينُ تُعرفُ من عَيْنَيْ مُحَدِّثِها إنْ كان من حِزْبِها أو مِنْ أعادِيها

وأنا ما أقولُ هذا الكلام ، إلاّ من قولِ خيرِ الأنـام ، عليه أفضلُ التحياتِ وأكملُ السلام "الأرواحُ أجنادٌ مجنَّدةٌ فما تعارفَ منها ائتلف ، وما تناكرَ منها اختلف" وإنَّما يقعُ التعارفُ من الجهتين ، والتناكرُ من الطرفين . وَلاَ تُغَالِطْ نفسَك ، وتكابرْ حسَّك ، أن يحبَّك مَنْ تكرَهُهُ ، ويزينك مَنْ تُشوِّهُهُ ، ويُقرِّبُكَ مَنْ تقصيه ، ويقيمَك مَنْ ترميه ، ويرفعَك مَنْ تضعُه ،ويأخذَ بيدِك مَنْ تدفعُه ، كما قيل ، في الأقاويل :

والناسُ أكْيَسُ مِنْ أنْ يمدَحُوا رجلاً ما لَمْ يَرَوْا عندَهُ آثارَ إحسانِ

واعلمْ أنَّ غالبَ الإخوان ، في هذا الزمان ، مسلوبُ الإنسانيَّة وإنْ كانَ في زيِّ الإنسان ، مَنْ أحسنتَ إليهِ أسا[120] ، ومَنْ تَرَفَّقْتَ لـهُ قسا ، ومَنْ نفعْتَهُ ضرَّك ، ومَن أمِنتَهُ غرَّك ، ومَنْ سكَّنْتَ أُوامَهُ[121] بزُلاَل[122] فضلِك حرَّك ، وقد أجاد ، صاحبُ الإنشاد :

جزى اللهُ عنَّا الخيرَ مَنْ ليس بيننا ولا بينَهُ وُدٌّ ولا نتعارفُ

فما سامَنَا خَسْفاً ولا شفَّنا أذىً من الناسِ إلاّ مَن نودُّ ونألفُ

وإذا كان هذا فيمَنْ تُحسِنُ إليهِ ، وتسبغُ ملابسَ أفضالِك عليهِ فكيف يكونُ حالُ مَنْ تُضمِرُ لهُ النَّكال ، وتتمنَّى وقوعَهُ في شَرَكِ العُقَال ، أنَّى تراهُ يصفو لك ، ويتقاضَى سؤالَك ومأمولَك ، وهو مترقبٌ غيلةَ غَوْلِك ، متوقعٌ منك أن يصيرَ مقتولَك ، فماذا عسى أنْ تبلغَ منهُ سؤالَك ومسؤولَك ، أو ترى من محبَّتِهِ ومودَّتِهِ مأمولَك ومحصولَك . وإنَّما أوردتُ هذه المقامات[123] ، وإنْ كانتْ من فضلاتِ علمِك ، ورشحاتِ قَلَمِك ، أتتْنا متقدِّمات ، إلاّ لتعاطي أسبابَ الصُّلْحِ أوَّلاً في

---

[120] أسا : أساء .

[121] الأوام : حرارة العطش .

[122] زُلال : الماء العذب ، الصافي من كل شيء . (استعارة)

[123] المقامات : الأحاديث والعظات .

نفسِك ، ثمَّ تستعمل الوسائطَ فيهِ من أبناءِ جنسك ، فينتجُ المقصود ، ويصفو الوردُ والمورود ، كما قيل :

فإنَّ القلـوبَ مرائي الصفات　　　كما السيفُ مرآةُ وَجْهِ الذوات

قال الدبُّ : أنا أُلقي الزمام ، في هذا المقام ، لنيلِ هذا المرام ، إلى يدِ تدبيرِك ، وأكتفي في رعيِ رياضهِ برائدِ رأيك وتقديرِك ، فإنَّ فكرَك نجيب ، وسهمَ رأيك مصيب ، فافعلْ ما تختار ، وأذقْنا من رائقِ رأيك المشتار[١٢٤] . فقال : تُقْسِمُ أولاً باللطيفِ الخبير ، أنّك أصفَيْتَ الضمير ، من الغِشِّ والتكدير ، وكَرَعْتَ من واردِ الصفاءِ الزُلالَ النمير ، ونفضْتَ يدَ المحبَّةِ والإخاء ، من علاقاتِ البغضاءِ والشحناء ، حتى يجيبَ دَعيي ، ولا يخيب سَعْيي ، وأبذلُ مجهودي ، في نَيْلِ مقصودي ، وأبني على أساس ، وأسلُكُ مع الناس ، مسلَكَ الناس .

فبادرَ [الوزير] باليمين إلى اليمين ، وأشهدَ عليهِ الكرامَ الكاتبين ، أنَّهُ صَقَلَ مرآةَ محبَّتِه عن صدأ المداهنة ، وجلا طريقَ مودَّتِهِ من غبارِ المباينة ، وأنَّهُ يكتفي من غديرِ الغدرِ بما جرى ، ويطوي حديثَ الشحناءِ فلا سمعَ الواشي بذاك ولا درى ، فليبذلْ مباركُ الميلاد ، جهدَهُ في السعي في إصلاحِ الفساد . وعقَدا على ذلك العهد ، وتوجَّهُ مباركُ الميلادِ من بعد ، وقصد منزلَ أخي نهشل ، فرآهُ فيمَنْ ثارَ هُمُومه في مشغل ، وقد غرقَ في بحرِ الأفكار ، هائماً لا يقرّ لهُ قرار ، فسلَّم عليهِ ، وتقدَّمَ بالسؤالِ عن حالِهِ إليه ، وآنسَهُ بالمحادثه ، وذكرَ لهُ الدهرَ وحوادثَه ، وتذاكرا ما وقع من الدُّبّ ، وكيف أظهرَ نواقضَ الحب ، وبارزَ بالعداوة ، وأبرز بأدنى حركةٍ موجباتِ القساوة . ثمَّ أخذ أخو نهشل في العتاب ، وفتح لمباركِ الميلادِ من جهةِ صاحبِهِ وعتابهِ الباب ، فاعترفَ عن صاحبِهِ ، بأنَّ الظلمَ في جانبه ، وأنَّهُ كان حصلَ

---

[١٢٤] الصافى ، كالعسل المشتار الذى تمّ جنيه من الخليّة صافيا من غير شوائب (خاصة أول قطفة) .

لهُ من الوهْمِ الكاذب ، ما أَوْرَثَهُ الوقيعةَ في جانبِ الصاحب ، وأنَّهُ ندمَ على ذلك ، واعترف بأَنَّ فعلَهُ حالِك ، و لم يَسَعْهُ إلاّ الاعتذار ، وجَبْرُ ما وقعَ لأبي نوفل من الانكسار ، بالسعي في مساعدَتِهِ ، والقيام معهُ في جماعتهِ ، والتوجُّه إلى حضرة المخدوم ، والتلافي بمَرهمِ التصافي ما سبق من جراحاتِ الكلامِ والكُلُوم[١٢٥] . ثمَّ إذا حصل من الخواطرِ الشريفة الإغْضا[١٢٦] ، وأثمر في رياضِ العفوِ لجاني الخدم فواكِهُ الرضا ، يستأنفُ سوْقُ المحبَّةِ عقودَ المبايعة ، ويروّجُ تاجرُ الصداقةِ على مشتري الحشمةِ في مظانِّ رغباتِها بَضَائِعَه ، إلى أن يتزايدَ الوداد ، ويتأكّدَ بين الجميع عالمُ الاتحاد ، فانهضْ يارئيسَ الأصحاب ، وأَنيسَ الأَحباب :

فَالْعُمْرُ أَقْصَرُ مُدَّةً ... مِنْ أَنْ يُدَنَّسَ بالعِتَابِ

ثُمَّ نهضا جميعا ، وأتيا أبا نوفل سريعا ، فوجداهُ في أحرجِ مكان ، وأوهجِ زمان ، محفوفاً بالأحزان ، مكنوفاً بالأشجان ، وما حالُ مَنْ جفاهُ أحبّاه[١٢٧] ، وأقصاهُ مولاهُ ، وصار وهو جان ، غريمُه السلطان . فلمَّا سلّما عليهِ ، وجلسا إليهِ واعتذر مباركُ الميلاد ، بعد إظهارِ تباشيرِ الوداد ، أنَّ موجبَ تقصيره ، في السؤالِ عنهُ وتأخيرِه ، أنَّ قلبَهُ الوامق[١٢٨] ، وطرفهُ الوادق[١٢٩] ، لم يطاوعا على رؤيتِهِ في تلك الحال ، ولا سمحتْ قدمُهُ بالتقدُّم إليه وهو مشغولُ البال . ثُمَّ تفاوضا في اسبابِ الصلح ، وقصدَا أبوابَ النُجْح . فتجاذبوا أطرافَ الطرائف ، وتفكّهوا على موائدِ التحف واللطائف ، وما زالوا ينسجون خِلَعَ الوِفَاق ، ويمزقون شُقَقَ الشِّقاق ، إلى أن انعقدتْ أهدابُ المحَبَّة والوِدَاد ، وانحلّتْ عقودُ الحقودِ والكياد ، وتحقّقَ كلُّ أحدٍ

---

(١٢٥) الكلوم : الجروح .

(١٢٦) الاغضاء ، بمعنى العفو والتغاضى أو التسامح الملكى .

(١٢٧) أحباه : أحباؤه .

(١٢٨) الوامق : الشديد الحبّ .

(١٢٩) الوادق : ذو العين الحمراء من كثرة البكاء وشدّة الحزن .

من كبيرٍ وصغيرٍ ، ومأمورٍ وأميرٍ ، وجليلٍ وحقيرٍ ، بحصولِ خالصِ المودَّةِ بين النديمِ والوزير :

ولمّا أنْ تراءَى الفجرُ يحكي جبينَ الحبِّ أوْ رأيَ اللبيبِ

توجّه الوزيرُ ومباركُ الميلاد ، وأخو نهشل.ورؤوسُ الأجناد ، مع سائرِ الأمراءِ والوزراء ، والأعيانِ والكبراء ، حتى انتهوْا إلى السُّدَّةِ العليّة ، والحضرةِ الملكيَّةِ السلطانيَّة ، فقبَّلُوا أرضَ الطاعة ، ووقفوا في مواقفِ الشفاعة ، ونشروا من الدعاءِ والثناء ، ما يليقُ بجنابِ الملوكِ والعظماء ، وذكروا النديمَ أبا نوفل ، .بما يستعطفُ بهِ الخاطر المفضَّل ، حتّى عطفتْ عليهِ مراحمُه ، وانمحتْ من جريدة الانتقامِ جرائمُه ، وسمح بإحضارهِ لديه ، ليسبلَ ذَيْلَ الكرمِ والعفو عليه ، ثمَّ يشملُهُ ثوبُ الرضا ، وخِلَعُ العفوِ عمَّا مضى . فاسرَعَ نحوَهُ البشير ، .بما اتّفق من الجماعةِ مع الوزير ، ثمَّ وصلَ القاصد ، وهو لهُ مراصد ، فتوجَّه منشرحَ البال ، منبسطَ الآمال ، حتّى دخلَ على حضرةِ ذي الدولة والإقبال ، وقبَّل الجَدَالَة[١٣٠] ، ووقفَ في موقفِ الخَجَالة ، لا يرفعُ طرفا ، ولا ينطقُ حرفا ، فرسم بالتشريفِ والخلع ، ليرفعَ عنهُ التخويف والهلع ، فتضاعفتْ الأدعيةُ الصالحة ، والأثنيةُ[١٣١] الفائحة :

بغاديةٍ من ذكرهِ قد تمسَّكتْ بطيبٍ ثَناً يُحيي الزمانَ ورائحة[١٣٢]

وأُقيمتْ حرمتُه ، واستمرتْ عليهِ وظيفتُه . ثم إن الملكَ انتقل من المجلسِ الغاص ، إلى مجلسٍ خاص ، واجتمعَ بالخواص ، وعمَّ الخطابَ لكلِّ ناصّ ، ومحدِّثٍ وقاصّ ، فقال : لِيَعْلَمْ الوزيرُ والنائب ، والأميرُ والحاجب ، والصديقُ والصاحب ،

---

[١٣٠] الجدّالة : الأرض .

[١٣١] الأثنية : المدائح (واحدتها ثناء) .

[١٣٢] اختلفت النسخ المطبوعة والمخطوطة فى هذا البيت ، منها هذه القراءة :

بغاوية من ذكره قد تمسّكت بطيب ثنا يحيى الزمان روائحه

والجنديُّ والكاتب ، والمباشرُ والحاسب ، والراجلُ والراكب ، والآتي والذاهب ، وليبلّغْ الشاهدُ الغائب ، أنَّ مقتضَى الرياسة ، في الشرعِ والسياسة ، على ما قدرهُ حكماءُ الملوك ، وسلكوا بعبادِ اللهِ تعالى أحسنَ السلوك ، أنَّ كلَّ واحدٍ من الغني والصعلوك ، لاسيمًا مَن لهُ من الأمرِ شي ، أو نوع مباشرةٍ على ميتٍ أو حي ، له مقامٌ معيَّن لا يزايلُهُ ، ومكان مبيَّن لا يقابلُهُ . قال الحيُّ القيومُ ، ذو الملكِ الديمُوم ، حكايةً عن متصرِّفي ملكِ الديوم ﴿وَمَا مِنّا إلاّ لَه مَقَامٌ مَعْلُوم﴾[١٣٣] وعلى هذا جرت سنتُه ، وورد كلامُه وعلت كلمتُه ، وبه أمر الشرع ، والإنسان مدنّي بالطبع . فالواجبُ على كلِّ مَنْ أقامَهُ الله ، في خدمةِ ملكٍ وَلّاه ، أو سلطانٍ علاه ، أنْ يلازمَ مقامَهُ ، ويلاحظَ في صفٍّ جماعتهِ إمامَهُ ، ويراقبَ ما يصدرُ عنهُ ، فقد قيل : إيَّاك وما يُعتذرُ منهُ ، فإذا رام أن يتكلّمَ بكلام ، بحضرةِ الإمام ، أو بحضورِ أحدٍ من الخواصِّ والعوام ، يَسْبُرُ كلامَهُ أولاً بمسبارِ التفكُّر ، ويعيِّرُهُ بمعيارِ التأمُّلِ والتبصُّر ، ثم يسبكُهُ في بوتقةِ الفصاحة ، ويسكُبُهُ في قالبِ الملاحة ، ويصوغُهُ بآلاتِ حُسْنِ الانسجام ، ويرصِّعُهُ بجواهرِ مقتضى المقام ، فإذا صيغَ على هذه الصياغة ، وقعدتْ على صورةِ سَبْكِهِ نقوشُ البلاغة ، وأخرج لهُ غَوَّاصُ الفكْرِ من بحرِ المعاني والبيان ، فرائدَ أفكارٍ لم تظفرْ بها أصدافُ الآذان ، وخرائدَ[١٣٤] أبكارٍ لم تفترعْها فحولُ الأذهان ، ازدانتْ بها من حور جنانِ الجنان ، ومقصوراتِ خيامِ الدهورِ والأزمان ، آنسات لم يَطْمِثْهُنَّ إنسٌ قبلهم ولا جان[١٣٥] ، فاختلب ببهائهِ القلوبَ والأرواح ، واستلب بروائهِ الأموالَ والأشباح ، واستمال الخواطرَ ، وسحب الأياديَ المواطر ، وصار الدهرُ من بعض رواته ، وأشنافُ ما يرويهِ عنهُ

---

[١٣٣] قرآن كريم ، سورة الصافات : ١٦٤ .

[١٣٤] خرائد : واحدتها خريدة ، وهي اللؤلؤة لم تثقب .

[١٣٥] لم يباشرهن أحد .

معلّقةٌ بآذانِ نيّاتهِ . وإنْ وقع والعياذُ با لله منهُ ما يُورُث الندمَ والحزن ، وأخرجَ سهمَ الكلام من قوسِ العجلةِ لا اكتال ولا اتّزن ، حصل في سوقيْ ظاهرهِ وباطنِه الغَبْنُ[١٣٦] والغَبَن[١٣٧] وأصابه ما أصابَ نديمُ فغفور الختن ، فنهض الجماعةُ وللأرضِ قبّلُوا ، وعن كيفيّة هذا الخبرِ سألوا .

[٧/٥] قصة نديم الملك

فقال الملك : ذكر المخبرون ، وأخبر المذكرون ، أنه فى قديمِ الزمن ، كان عند فغفورِ الختن ، ندمان[١٣٨] ، كاملُ المعانى فى البيان ، ذو نعمة جزيلة ، وصورةٍ جميلة ، وفضائلَ فضيلة ، مبرزٌ فى العلم ، كاملُ المودّةِ والحلم ، محبوبُ الصورة ، مشكورُ السيرة ، طاهرُ السريرة ، ثقيلُ الراس ، خفيفُ الروحِ والحواس ، قد جال وجاب ، وبَلا[١٣٩] الأعداءَ والأصحاب ، وترشّحَ لمنادمةِ الملوكِ والأمراء ، ومجالسةِ السلاطينِ والوزراء ، وهو خصيصٌ بملكِ الختن والصين ، مقبولٌ عند الملوكِ والسلاطين . اتفق له فى بعضِ الليالى ، أنه كان عند جنابِ مَلِكِه الغالى ، وعنده جماعةٌ من العلماء ، وطائفةٌ من الأخِصّاء والندماء ، وهم يتعاطون كؤوسَ اللطائف ، ويتواطون[١٤٠] على ما فى الدنيا من طُرَفٍ[١٤١] وطرائف[١٤٢] ،

---

[١٣٦] الغَبْن (بسكون الباء) : النقص والغلبة ، ومن معانيها : الاختباء ، وغير المرئى .

[١٣٧] الغَبَن (بفتح الباء) : الضعف والتقصير ، ومن معانيها أيضا : ما قطع من أطراف الثوب فأسقط .وهى كذلك الموضع الذى يخفى فيه الشيء .

[١٣٨] النديم ، المصاحب على الشراب ، المسامر للملوك .

[١٣٩] بَلاَ يبلو : اختبر .

[١٤٠] يتواطون : يتفقون .

[١٤١] طرف جمع طرفة ، وهى كل شيء مستحدث عجيب .

[١٤٢] الطرائف أو الطراف : الحديث النادر المستحسن .

ويتذكرون عجائبَ الأقطار ، ويشنفون المسامع بخصائصِ الأمصار . فقال النديم : رأيتُ فى بعضِ الأقاليمِ من الأراضي الحامية ، والبلاد القاصية ، حيواناً كبيرا سريعَ السير ، متردداً شكلُه بين شَكْلَيْ الجملِ والطير ، يضربُ به فى الدبدبةِ المثل ، فيتعاطى التَعَلُّلَ فى الكسَل ، إنْ قيلَ له احملْ يقولُ أنا طير ، وإنْ قيلَ له طِرْ يقول أنا جمل . وذكر أن اسمَه النعام ، وسائرَ أوصافِه وأعضائِه على التمام ، فتعجّب الحاضرون من هذه الصفات ، والأشكالِ البديعةِ والهيآت . ثم قال : وأعجبُ من هذه الصفات ، أن هذه الدابةَ تأكلُ الجمرات ، وتلتقطُ الحصيات ، وتختطفُ الحديدةَ المحماةَ من النارِ تزدردُها ، ولا يتألَّمُ لذلك فمُها ولا جسدُها ، وتُذَبِّبُ[143] كلَّ ذلك معدتُها ، ولا يتأثرُ بها لسانُها ولاترقوتُها . فأنكرَ بعض الحاضرين هذا المقال ، لكونه لم يشاهدْ هذه الأحوال ، ولا رأى ولا سمعَ خَبَرَ طَيْرٍ يأكلُ النار ، ويبلعُ الأحجار ، ونسبوه إلى المخارفةِ[144] فى الأخبار ، فتصدّى لإثباتِ ما يقول ، بطريقيْ المنقول والمعقول ، فلم يسعفْ كلامُه القَبول ، على ما أَلفَتْهُ منهم العقول ، لأن الحيواناتِ ، بل وسائرَ الجمادات ، إذا اتصلتْ بها النارُ مَحَتْ منها الآثار ، وهذا طيْرٌ من الأطيار ، من لحمٍ ودمٍ فكيفَ لاتحرقُه النار . فاتفق الجمهورُ على تكذيبِ هذه الأخبار ، وقالوا المثل المشهور ، إنما هو موضوعٌ على لسانِ الطيور ،

---

[143] تُذَبِّبُ : ما أسرع ما تبتلع وتهضم .

[144] وردت هذه الكلمة على هيئتين : إحداهما : المخارقة (نسبة إلى خوارق الأخبار ، أى عجائبها ، والأخرى : المخارفة (نسبة إلى خرافة ، أو التخريف فى الحكى ، أو سرد الخرافات التى لا أصل لها (= الأكاذيب) وهى الهيئة التى آثرناها فى المتن المحقق . لموافقتها معنى السياق .

فيمَنْ تردَّدَ بين الأمور ، فيقال : "هذا القفير[١٤٥] ، كالنعامـةِ لا يحمِلُ ولا يطير" . ومِثْلُ هذا المضرب ، ياشيخَ المشرقِ والمغرب ، قولُهم طارت به عَنْقَاءَ مُغْرِب[١٤٦] .

فقال النديم ، ، الفاضلُ الحكيم : أنا رأيت هذا بـالعين ، فلـم يزدهـم إلا تـأكيد المَيْن[١٤٧] . وقالوا : قد علطتَ ولزمتَ الغلط ، فوقـع مـن أعينهـم بهـذا الكـلام إذ قالوا هذا كذبٌ وسقط ، فحصل لذلك النديم ، مـن الخجالـةِ والنـدمِ أمـرٌ عظيـم ، واسـتمر فـى حَصْر ، حتـى منعـه السـلطانُ مـن الدخـولِ إلى القصـر ، وصـار بـين الأصحابِ يشار إليه بـ "يا كذّاب" ، فَلَمْ يَسَـعْ ذلـك الأُسـتاذَ إلاّ السـفرُ مـن تلـك البلاد ، والتوجُّهُ إلى العراقِ وبغداد ، وأخذ من طَيْرِ النعـام عـدة ، واسـتعمل عليهـا رجالا مستعدة ، ونقلها إلى الصين ، فى عِدّةِ سنين ، تارة فى البحـر ، وأخـرى فـى البر ، وقاسى أنواعاً من البؤس والضرّ ، وتكلّف جمْـلاً مـن الأمـوال ، وتحمّـل مـع المشاق مِنَنَ الرجال ، فما انتهى به السير ، إلا وقد ماتَ غَالِبُ تلك الطير ، فوصـل إلى حضرةِ ملكِ الخطا ، واشتُهر فى المملكةِ أن النديمَ الفلانيّ أتى ، فـاجتمع النـاسُ لينظروا ، وأمر الملكُ الخاصَّ والعامَّ فحضروا ، وأحضروا النعـام ، فـى ذلـك المحفَـلِ العام ، وطرحَ لها الحديدَ المحمَّى فخطفتْه ، والجمرَ والحصَى فالتقفتْه ، فتعجّب الناسُ لذلك ، وسبحوا الله مالكَ الممـالك ، وعلِـمَ الصغـارُ والكبـارُ أنـه يخلُـقُ مـا يشـاءُ ويختار ، فشمِلَه الملكُ بمزيدِ الإنعام ، واعتذروا إليه عَمّـا مضـى مـن مـلام ، وزادتْ رفعتُه ، ونفذتْ كلمتُه ، إذ قد أثبت مُدَّعَاه ، وحقّق بشاهدِ الحسِّ معنى ما ادّعاه .

---

[١٤٥] القفير : الزبيل .

[١٤٦] عنقاء مغرب : طائر عظيم يبعد فى طيرانه ، وقيل إنه طائر وهميّ . عموما يضرب به المثل فى طلـب المحـال الذى لاينال .

[١٤٧] المين : الكذب .

ففى بعضِ الأوقاتِ تذاكروا ما فات ، وانجرّ بهم الكلام ، إلى ما مَرّ من حديثِ النعام ، فقال النديم : أيُّها الملكُ الكريم إنى تكلّفْتُ على هذه الأطيار ، كذا وكذا ألف دينار ، وقاسيْتُ من المشقةِ فى الأسفار ، وعانَيْتُ من شدائدِ الأخطار ، ما لا تقاسيه عيدانُ النار ، واستمريتُ فى هذا العذابِ الأليمِ المهين ، وفى سجنِ المشاقِّ بِضْعَ سنين ، حتى بلغتُ تحقيقَ مرامى ، وتصديقَ كلامى ، ولولا عنايةُ مولانا السلطان . لما ساعدنى على مقصودى الزمان ، ولَمَا زال عنى اسمُ الكذّاب ، إلى يومِ الحساب ، فتبسَّم السلطانُ وقال : لقد أتيْتَ بمحاسن ، وما قصَّرتَ ولكن ، كما يحتاجُ فى إثباتِ تصديقِها ، والخروجِ من عهدةِ تحقيقِها . إلى صرفِ المالِ الجزيل ، وتجشّمِ مَشَقّةِ السفرِ العريضِ الطويل ، وتحمّلِ مِنَنِ الرجال ، وركوبِ الأخطار والأهوال ، وإزعاجِ الروح والبدن ، وإضاعةِ جانبٍ كبيرٍ من العمرِ والزمن ، لأيِّ معنى يتفوّه بها العاقل ، ولماذا ينطقُ بها مستمعٌ أو ناقل .

وإنما أوردت هذا المقول ، ليعلمَ أربابُ المعقول ، من جلساءِ الملوكِ والعظماء ، ورؤساءِ الأمراء والزعماء ، خصوصاً خواصَّ القدماء ، وعوامَّ الندماء ، أن شيئا يُحتاجُ فيه إلى تعبِ النفس ، وقيدٍ و نكالٍ وحبس ، ثم استعمالِ مِنَنِ جماعة ، وأصحابٍ يتقدمون إلى الشفاعة ، لا ينبغى للعاقلِ أن يحومَ حولَه ، ولا يعقدُ أبداً عليه فعلَه وقولَه .

فتقدَّم مباركُ الميلاد ، وبذَلَ فى أداءِ وظائفِ الدعاءِ الاجتهاد ، وقال : إنما كان عاقبةُ هذا الأمر ، وإطفاءُ نائرةِ هذا الجمر ، واداؤه إلى انتظام عقودِ السعد ، واشتمالهُ على جمعِ الخواطرِ من بَعْد ، بميامِنِ الخواطرِ الشريفة ، وشرفِ ملاحظتِها المنيفة ، وتوجُّهِ مساعدتِها لخدَمِها ، وشمولِ عواطفها على عبيدِها وحشمِها ، وإقبال طالعِها السعيد . ولولا ذلك لما انتظمَ لنا شَمْلٌ أيُّها العبيد ، فالمنّةُ في هذا كلِّهِ

للصدقاتِ الشريفة ، والجميلةِ لعواطفِ مِنَنِهَا المنيفة . ونظيرُ هذا الشان ، ما جرى للخارجِ على الملكِ أنوشروان ، فسأل الملكُ المطاع ، عن هذا المضَاع .

[٨/٥] قصة أنوشروان مع بعض الخارجين عليه

فقال : ذكر أهلُ التاريخ ، بأعالي الشماريخ[١٤٨] ، أن كسرى أنوشروان ، جَاهَرَهُ أحدُ الملوكِ بالعصيان ، وانتدبَ لمحاربتِه طائفةً من الأعوان ، فتوجَّه كسرى إليه ، ووثَب وُثوبَ الأسدِ الضاري عليه ، ورأى التواني فى أمرِه والتأخير ، من جملةِ الإخلالِ والتقصير ، فقابلَه قاتِلا ، وقاتَلَهُ قائِلا :

إذا استحقرتَ أدنى مَنْ تعادى   بِمَا لَكَ من يدٍ ونَدَى وطاقَه
فما استحقرتَ إنْ أَهْمَلْتَ إلا   أمورَك وهُوَ ذا عينُ الحمَاقة

فلمّا توافقا ، واصطدما وتثاقفا[١٤٩] ، انكسرَ ذو الطغيان ، وانتصرَ أنوشروان ، وقبضَ على العدّو ، وحصل الأمان والهدُوّ ، وقُصَّ طائرُه ، وتفرقتْ عساكرُه ، وحُمِلَ وقد سيمَ خَسْفا وكِسْرا ، إلى الملكِ العادلِ كِسرى ، فتقدّم بالإحسانِ إليه ، وجعل العفوَ شكراً لقدرتِه عليه ، وبالغَ معه فى اللطفِ والإحسان ، وأنزله عنده فى بستان ـ ترتعُ النزاهةُ فى ميادينِ رياضِه ، وتكرعُ الفكاهةُ من رياحينِ حياضِه ، وأفاض عليه من خِلَعِ الإنعام ، وإِدْرَاراتِ الفضلِ والإكرام ، ما أزال دهشتَه ، وأحال وحشتَه ، وأبدى استعبادَه ، وأبعد استبعادَه . فلمّا حصل أُنْسُه ، وهدأتْ نفسُه ، أخذ فى تنجيزه ، وإبلاغِه إلى مأمَنِه وتجهيزِه ، فأبى إلاّ الإقامة ، والتلبُّثَ بدارِ الكرامة ، وسأل الصدقات ، وما لها من عميمِ الشفقات ، مُجاورةَ محلِّها ، والإقامةَ تحت ظلِّها ، واغتنامَ مشاهدتها ، والتشرّفَ بميامنِ طلعتِها ، مُدّةَ أيام ،

---

[١٤٨] الشماريخ : غرر الأخبار وأكثرها أهمية وصدقا .

[١٤٩] تثاقفا : تخاصما وتجالدا بالسلاح .

فإنها محسوبةٌ من العمرِ العزيزِ بـأعوام ، فأجـابتْ مسؤولَه ، واستنجزتْ مأمولَـه ، وكان فى ذلك البستانِ نخلةٌ كنخلةِ مريم ، قد يبستْ من الهرم ، ولما تعاوَرَتْهـا يَـدُ القِدَم ، فلم تصلحْ إلا للضّـرَم ، فأرسـلَ يسـألُ الصدقـاتِ الجذلـة ، أن تهبَـه تلـك النخلة ، فاستزلّ كسرى عقله ، وأجـاب قصـده وسؤلَه ، وَ وَهَبَـه تلـك النخلـة ، فكان كلَّ يومٍ يتوجَّهُ إليها ، ويسندُ ظهرَه ويعتمدُ عليهـا ، وهـو فـى أرغـدِ حـال ، وأمنِ مآل . فبعدَ عِدّةِ شهور ، طلب - إلى التوجُّهِ - الدستور ، فاسـتدعاه وأكـرمَ مثواه ، وأجاب قصدَه ومتمناه ، وأسبغَ عليـه نعمَـه وفضلَـه ، وسـأله عـن موجـبِ سؤالِه النخْلَة ، وسببِ طلبِه الإقامة ، ثم سؤالِه التوجّه بالسّلامة . فقال : أما سـببُ الإقامةِ بهذا البلـد ، فلجـوارِ مولانـا الملـكِ الأمجـد ، والاستسـعادِ بمشاهـدةِ وجهـه الأسعد ، فإن طالعَه قويٌّ سعيد ، ومجاورَتَه للسعادةِ تفيد ، ويحصلُ منهـا لُمجَاوِرِهـا المزيد ، فأردتُ أنْ يكونَ لى منها نصيب ، ويلاحظُنى منها سَهْمٌ مصيب :

فَـإنْ تَلْـمُمْ بقَفْرٍ عَادَ رَوْضـاً ... وإنْ تَمْرُرْ بمِلْـحٍ صـارَ شَهْـدا

وإنْ يخطُرْ ببالِكَ نَحْسُ نَجْـمٍ ... يَعُدْ فى الحالِ من رَيَّاكَ سَعْدا

فصرتُ مشمولاً بميامنَ من ظلّها ، مغموراً بفائضِ وابلِها وطلِّها . وأما طلبى النخلـةَ اليابسة ، فإنّى تفاءلتُ بهـا مـن حظِّـى مسـاعدةً ومناحسـة ، فكنـتُ أتـردّدُ إليهـا ، وأُعوّلُ فى ذلك عليها ، فمـا دامـتْ فـى قُحُـول[١٥٠] ، كـان جـدِّى وسـعدِى فـى نحول[١٥١] ، إلى أنْ رأيتُهـا قـد خضـرت ، وأَطْلَعَـتْ واستبكرت ، فـأقبلَ سَـعْدى وَحيـا ، وعاد بعد أن ماتَ حَيّا ، وساقطت نخلة سعدى من ثمـرات السـعادة رطبـا جنيا ، فعلمتُ أن طالعي الهابطَ عادَ إلى الأَوْج ، ورسولَ حظّى دخل فى دينِهِ نـاسُ الإيناسِ فَوْجاً بعدَ فَوْج ، وأَرْمَـلَ جـدِّى ازدوج ، بِبِكْـرِ الآمـالِ وكـان لهـا أحسـنَ

---

[١٥٠] قحول : جَدْبٌ ، قحلت الأرض : يبست وأجدبت .

[١٥١] نحول : هزال وضعف وانحطاط .

زَوْج ، كـل ذلـك ، أيْ أعظـم مثلـك بسـعدِ فَـالك[١٥٢] ، وجـوَارِ دارِ جلالِـك ، ومشاهدةِ أنوارِ جمالِك ، واستماعِ كلامِك ، وانتجاعِ كَمَالِك ، فمـنْ بعـد إسـعادِ السّعد ، كلُّ سَهْمِ أملٍ فوَّقْتَه ونحو شاكلهِ قَصْدٍ أَطْلَقْتَه ، أَصَبْـتَ الغَـرَض ، وحُـزْتَ جَوْهَرَه بلا عرض ، فإذا أسعفَ السعدُ النفس ، لا يعيقُها معه نحسن .

وإنما أوردت هذا القـوْل ، يـا ذا الكرامـةِ والطـوْل ، ليعلَـمَ الحضّـار ، والسـادةُ النُّظار ، أنّ استقامتَنا وإقبـالَ سـعدِنا ، وانتظـامَ أمورِنـا وجدنـا ، إنمـا هـو بالتفـاتِ الخواطرِ للشريفـة ، وشمول أحوالِنا بملاحظتِها المنيفة ، واسْتدامةِ بركاتِهـا ، وميـامنِ حركاتِها ، كما قيل ، في ذا القبيل :

تَلْقَى الأمانَ على حِياضِ محمدٍ تَوْلاءُ مخرفةٌ[١٥٣] وذئبٌ أطلسُ
لا ذي تخـافُ ولا هـذا جـرأةٌ تُهْدى الرعيّةُ ما استقامَ الرّيّسُ

وكما أن الرعيةَ لا يستقيمُ حالُها إلا بالملكِ الراعي ، فإنّها كالراعيةِ ينتظمُ لها أمرٌ إلا بالراعي ، كما قيل :

لا يصلحُ الناس فوضى لا سراةَ لها ولا سـراةَ إذا جُهّالُهُمْ سـادُوا[١٥٤]

كذلك الملكُ يا ذا الدرجاتِ العليَّة ، لا يصيرُ ملكاً إلاّ بالرعية ، ولو لم يكنْ العاشقُ مشوقا ، لم يكنْ المعشوقُ معشوقا ، ولو لم يوجـدْ الرامِـقُ[١٥٥] بـالأملِ مسـوقا ، لم يَصِرْ الملكُ المأمولُ مرموقا ، وقد عنى هذا المعنى ، مَنْ في رياضِ المعاني أعنى :

وأحـقـر صـبٍّ فيـك يهدي سناؤه كأعظمهم إذ مِنْ هَـواكَ تعظّـمـا

---

[١٥٢] فالك : مخفف : فألك .

[١٥٣] تولاء مخرفة : تولاء ، تعنى الجماعة من الناس ببيوتها وصبيانها ومالها . والتَّوْلَة والتُّوَلَة : الداهيه . ومخرفـة : فاسدة العقل .. والتعبير والمقصود بقول الشاعر "تولاء مخرفة" الرعية أو بالأحرى العامة (الغوغاء ، السـوقة ، الدهماء ... إلخ) ، والمقصود بالذئب الأطلس : رئيس الجماعة أو الراعى .

[١٥٤] سراة الناس : خيارهم وأعيانهم .. وملوكهم .

[١٥٥] الناظر ، من رمق يرمق فهو رامق .

فـلا تحـتـقرْهُ إنْ تملَّكْتَ قـلبَـــهُ | فلولا الهوى ما كنتَ ملكاً مفخَّما
ففي موقـفِ العشّـاقِ منك وظيفــةٌ | لكـــلٍّ فــلا يخفـــي لها متقـدَّمـا
وكـــلٌّ لَــهُ وجـدٌ يـليـقُ بحـالِــهِ | وكـلٌّ لـهُ حـالٌ يُـوافيـك مُغرمـا
أَلَـمْ تَــرَ أنَّ الله أوجــدَ حكـمــةً | ذُبــابـاً وعِقْـبـانـاً وبَقًّـا وضَيْـغَـمـا
وكـلٌّ لـهُ نَـفْـعٌ وضـــرٌّ مُـخصَّـصٌ | فـسبحانَ مَنْ قد خصّ طوراً وعمَّما

والله تعالى لكمالِ قدرته ، وإسبالِ ذيلِ رحمتـه ، خلَـق الكبـيرَ الأعلـى ، محتاجـاً لخدمةِ الصغيرِ الأدنى ، وجعَل الحقيرَ الأدنى ، محتاجاً لرحمـةِ الكبـيرِ الأعلـى . ولهـذا أعظمُ الخلْق ، مَن خَلَقَ الخَلْق ، وأحـوجُ الخلْقِ إلى الخَلْق ، وهـو غــنيٌّ عـن الخلْـق . وقيل : أيُّها الملكُ السَّنِيّ ، الإنسانُ بطبعهِ مدنيّ ، وبمقدارِ كثرةِ الرعيَّة ، واشتراكِهم في الصفاتِ المرضيَّة ، وانقيادِهم لأوامرِ مالِكِهم السنِيَّة ، تصيرُ درجـةُ الملكُ عَلِيَّـةً كمـا كـان ، في زمـنِ نـبيِّ اللهِ سـليمان ، صلـواتُ اللهِ عليـه وسـلامُه ، وتحيتُـه وإكرامُه . ولقد جرى في عصـرِه بـين الطيـور ، مفاوضـةٌ بـين اللَّقْلَـقِ والعصفـور . فسأل ملكُ الآساد ، عن تلك المفاوضةِ مباركَ الميلاد .

[٩/٥] قصة اللقلق والعصفور

فقال : بلغني يا سلطانَ الأسود ، أنَّ نَبِيَّ اللهِ سـليمانَ بـنَ داود ، عليهمـا السـلام ، كان في سيرانه ، مع خَوَاصِّ أركانِه ، فمرَّ بذلك الطلب ، على شجرة دُلْـب(١٠٦) ، لِلَقْلَقٍ(١٠٧) فيها عُشّ ، قد بناهُ كأحسـن عـش ، وقـد اسْتوْكَرَ في عشّـهِ عصفـور ،

(١٠٦) دُلْب : الدُّلب : جنس شجر للتزيين ، من الفصيلة الدُّلبية ، وهو من الزهريات ، يحب الماء .

(١٠٧) اللَّقْلَق أو اللقلاق : طائر من الطيور القواطع ، وهو كبـير طويـل السـاقين والعنـق والمنقـار ، أحمر السـاقين والرجلين والمنقار .

واحتمى بجوارهِ من مؤذيات أبي مذعور ، فكانا يتخاصمان ويتقاولان[١٥٨] ، ويتواصمان[١٥٩] ويتصاولان . فوقف النبيُّ الكريم ، واستوقف الجندَ العظيم ، ليسمعَ ما يقولان ، وينظرَ كيف يجولان ، فسمع اللقلقَ يقولُ ، وهو يجولُ ويصول ، ويخاطبُ العصفورَ ، بمجمعٍ من الطيور : أُشكرْ لي حُسْنَ الصنيع ، حيث أنزلتُك في حصني المنيع ، لا حيَّةَ ترقى إليك ، ولا جارحَ ينقضُّ عليك ، ولولا أنَّ لك عندي مُناخاً ، ما أبقت لك الحيَّةُ ذاتاً ولا فراخاً ، وإنَّما سَلِمْتُمْ بجواري وبقُرْبكم من داري . فوثب أبو محرز[١٦٠] ، وتوسَّط الجمعَ وهو يجمز[١٦١] ، ونادى بين الأطيار : أنسيتَ أبا خديج[١٦٢] أيْ جار ، وأنا في المدار حولَ هذه الديار ، آناءَ الليلِ وأطرافَ النهار ، ألقطُ النملَ الكبارَ والصغار ، ولولا أنا حارسُ مُناخِك ، ما أبقى لك النملُ أثراً ولا لفراخِك ، فكلٌّ منّا محتاجٌ إلى جاره ، مغتبطٌ بجواره ، آمنٌ بهِ في سربهِ ومطارِه ، فارفعْ من بيننا هذا النكد ، ولا يمنُّ منّا أحدٌ على أحد ، فالحقوقُ ما تضيعُ بين الجيران ، كما تُراعى بين الأصحابِ والإخوان ، وكما تدينُ تُدان . ومع هذا فكلُّنا نصلى على نبيِّ اللهِ سليمان ، ملكِ الإنسِ والجان ، وسلطان الطيورِ وسائرِ الحيوان ، فإنَّهُ بحُسْنِ عدلهِ اعتدلَ الزمان ، وبيُمْنِ فضلهِ صَلُحَ الكائنُ والمكان . ونحن أيضاً كذلك ، نشكرُ اللهَ ربَّ الممالك ، إذْ منَّ علينا بهذا السلطان المالك ، ملكِ الوحوشِ الأكابر ، وكاسرِ السباعِ والكواسر ، المشفقِ على الضعفاء

---

[١٥٨] يتقاولان : يتجادلان ، ويتقول كل منهما على الآخر .

[١٥٩] يتواصم : يصم بعضهما البعض بالعيب .

[١٦٠] أبو محرز : كنية العصفور هنا .

[١٦١] يجمز : يثب ويقفز .

[١٦٢] أبو خديج : كنية اللقلق هنا .

والأصاغر ، فلم يخلُ من فضلهِ سبعٌ ولا طائر . ثمَّ نهضوا فوقفـوا ، ودعـوا للمـلك وانصرفوا .

هٰذا آخرُ البابِ ، واللهُ أعلمُ بالصوابِ والحمدُ للهِ

ربِّ العالمين ، وصلى اللهُ وسلم على

سيدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين

الباب السادس

في نوادر التّيس المشرقي والكلب الأفرقي

قال الشيخُ أبو المحاسن، من ماءِ معارفِهِ غيرِ آسن، ومَن لمدودِ أرضِ الفضلِ من فضائِلِه رَواسٍ، وفي مشحونِ بحرِ العلمِ من فواضِلِهِ مُواسٍ: فابتهج الملكُ لهذا الكلام، وارتاح لِما تضمّنهُ من الحِكَمِ والأحْكام، واستزاد أخاهُ من عقودِ هذا النظام. فقبّل الأرضَ في مقامِ الخدَّام، وقال:

بلغني يا ملكَ الأنام، أنَّ راعياً كان يرعى ثَلَّةً[1] من الأغنام، وحَيْلَةً[2] من المعْزِ الجسام، وفي ماشيتِهِ تَيسٌ مُطاع، كلُّها لهُ أتباع، وهو قديمُها، وقائدُها وزعيمُها، وأبو نتاجها، وحمو نعاجِها، وأصلُهُ من الشرق، لم يكُنْ بينَهُ وبَين إبليسَ في الشّيطنةِ فَرْق، اسمُهُ الذميم، التيسُ الزنيم[3]، وكان بواسطة الفحولةِ والكبر، والتقدّمِ في الحضرِ والسفر، يستطيل ويصول، وينطحُ الكباشَ والوعول، ويكسرُ أصحابَ القرونِ من الفحول، فيجرحُ ضعيفَها، ويطرحُ نحيفَها، ويضربُ بخالصِها لفيفَها، إلى أن أبَاد أعيانَها، وأعجز رعيانَها، وطال منهُ العقوق، فذهب بهِ الراعي إلى السوق، ليبيعَهُ ويستريح، ويخلّصَ الماشيةَ من شرِّه ويريح. فبينما هو

---

[1] الثَّلَّة (بفتح الثاء المشددة): الجماعة من الغنم.

[2] الحيْلة: القطيع من المعز أو الغنم.

[3] اللئيم المعروف بلؤمه وشرّه.

يطوف ، إذا برجل مهولٍ مخوف ، طويلِ القامة ، كبيرِ الهامة ، كأنه زِبْنِيّ[4] القيامة ، شَثْنِ[5] اليدين ، أزرقِ العينين ، أسودِ الخُفَّين ، بثوبٍ وسخ ، وطرطورٍ سنخ[6] ، وسطُهُ محزوم ، بسيرٍ ميزوم[7] . فصادفَ الراعي ، وهو في السوقِ ساعي ، فَمَدَّ يَدَهُ إلى التيس ، وقال بكمْ هذا يا أبا الكَيْس ، فوقع بينهما الاتفاق ، ووقع الزنيمُ في شبكةِ الرباق[8] . فتأمَّلَ شَكْلَ القصّابِ ، وصورتَه القاضيةَ بالعُجاب ، فرأى رجلاً كأنّهُ من الشياطين ، معلقاً في وسطِهِ عدّةَ سكاكين ، فدخلَهُ الرعب ، ورجفَ من الرَّهْب ، وأدركَ بالفِراسة ، أنّهُ سَيُهْلِكُهُ ويحذفُ راسَه . وقال : ظني – والظّنُّ يُخْطِىء ويُصيب – أنّي وقعتُ مع هذا في يومٍ عصيب ، وأنّهُ قاصدٌ هلاكي ، ومقيمٌ عليَّ البواكي ، فالأَوْلى الاحتراز ، والتأهُّبُ قبل زمانِ الجزاز[9] ، فإنْ حصلَ خير ، فما في الاحترازِ ضَيْر ، وإنْ وقع على الإهلاك العزم ، فأتلقى سَيْفَهُ بما أعددتُهُ من ترسِ الحزم ، فوزن الجزارُ الثمن ، وشحط الزنيمَ بالرَّسَن[10] وأتى بهِ مطابخ ، فقطعها إلى مسالخ ، فَشَمَّ رائحةَ الزُّهُومَة[11] ، وأحسَّ من الجزارِ نكدَهُ وشومَه . فلما دخل المسلخ ، ورأى القصابين هذا يذبحُ وهذا يسلخ ، واللحْمَ شَقّات ، على الجدرانِ معلّقات ، وأَنْهُرَ الدماءِ كدموعِ العُشاقِ

---

[4] الزبني : شديد الدفع ، جلف عنيف .

[5] شثنت اليدّ : خشنت وغلظت ، وشثن اليدين : غليظهما .

[6] زنخ .

[7] قويّ غليظ .

[8] الرّبق : حبل ذو عُرَى أو حلقة لربط الدواب ، والجمع رباق وأرباق .

[9] الجزاز : وقت الجزّ ، والجزّ هو القطع (قطع الرقبة) ,

[10] الحبل .

[11] الزهومة أو الزهمة : الرائحة النتنة .

جارية ، ورؤوسَ الغنمِ وجلودَهـــا وأكارَعهـا كـل كاشـية[١٢] ، هـذه الكاشيةُ في ناحية، وهذه الكاشيةُ في زاويـة . فرجـفَ قلبُـه ، وازداد رعبُه ، والتجـأ إلى الله تعالى ، وتابَ إليهِ عما عليهِ من الذنوب مالا ، فما واطأ القصّابُ المصارع ، أنْ شدَّ من المشرقيّ الأكارِع ، وجَدَلَهُ على الجَدَالة[١٣] ، وأخرجَ لذبْحِـهِ الآلـة ، فلمـا رأى هذه الحالة تحقّق ما كان ظنُّهُ فاستحضَرَ بالَه ، وأيقنَ أنّهُ هـالكٌ لا محالـة ، فنظـر إلى القصّاب ، وذكر ما قيل في حقِّ الساب .

نَظَـروا إليـكَ بأعـينٍ مُـحْـمَـرَّةٍ   نَظَـرَ التيوسِ إلى شِفَارِ الجـازِرِ[١٤]

فوجدَ السكينَ كليلة ، ليس للذبحِ بها حيلَة ، فطلب المِسَنَّ ليحدَّها ، ويريح ذبيحتَهُ إنْ حدَّهـا ، فتركَهُ وذهبَ للمِسـنّ ، وقـد تحقّقَ الزنيـمُ مـا كـان ظـنَّ ، فتنفّسَ لـهُ البلاء، وارتخى عنهُ عقدُ القضاء ، فتمطّى في رباطِ الأكارع ، فمزَّقـهُ بحيْـل قـاطع ، ثمَّ وثَب ، وقَصَد الهرب ، وخرج من الباب ، وصاحوا عليه : هرّاب ، فلـم يلتفـتْ إلى الصوت ، وفرَّ فرارَ مَنْ عايَنَ الموت ، وطلب الخلاء ، وطريقَ الفضاء . فأدّى بـه الذهاب ، إلى بستانٍ بجوارِ بيـتِ القصّـاب ، فدخـل البسـتان ، وامتـد في الجريـان ، والقصابُ وراءه بهيئتِه المهولة ، والسكينُ في يَدِه مسلولة .

وكان قبل هذا الزمان ، بين زوجةِ القصّابِ وصاحبِ البسـتان ، مـا يكـونُ بـين الحرفاءِ والأخدان[١٥] ، وكانتْ كلّما وجدتْ فرصة، جعلتْ للبستانيّ مـن نفسِـها حصّة ، تنزلُ من بيتها إلى بيته ، وتغمسُ سراجَها من فتيلةِ قنديله وزيتـه ، فـاتفق أنّ في تلك الحال ، طلبَ كلٌّ مـن الحبيبـينِ الوصـال ، وكـان زمـانُ اشتغالِ اللحّـام ،

---

[١٢] كاشية : مقطعة ومنتزعة ، وكل قطعة إلى نظيرها .

[١٣] الجدالة : الأرض الناعمة .

[١٤] سكاكين الجزّار

[١٥] الحرفاء والأخدان : أبناء الحرفة الواحدة ، والأصدقاء (من المنحرفين هنا) وعشاق النساء في الحرام .

بالمعاملةِ مع الخاصِّ والعامّ ، فَلاشْتغال وَهْلِه ، لا يتردّدُ فيه إلى أهلِه ، فاغتنمتْ الزوجةُ غفلةَ الرقيب ، ونزلتْ من بيتها إلى بيتِ الحبيب ، فكان المحبان آمنين ، وقد تعانقا تحت دَوْحَةِ ياسمين ، فاتفق أن الهاربَ من الموتِ ودواهيه ، أخذ على مكانٍ هُمَا فيه ، والقصابُ يتبعُه رافعاً يدَه ، والسكينُ في يَدِه مجردة ، فَلَمْ تشعرْ إلاّ وزوجها رافعٌ الصوت ، واقفٌ على رأسِهما وبيدِه آلةُ الموت ، وما شعر بِدَوَاهِيهِمَا ، حتى عثر عليهما ، فقفزَ كلاهما من مكانِهما ، مفتضحيْن في مكامِنِهما ، فاشتغل القصّابُ بنفسِه ، والتهى بِنَعْجَتِهِ[١٦] عن تَيْسِه ، وكان الناسُ تابعيه ، فوقفوا على ماوقع فيه ، وقامتْ الغوغاء ، وقعدتْ للعارِ من البلاء .

فتفرَّسَ[١٧] النجاةَ من الرَّدَى ، فلم يزلْ في ميدانِ الجري جاريا ، حتى وصلَ إلى ثغرةٍ خرج منها إلى الصحراء ناجيا ، فانقطعَ عن ذلك الجنّي تابعُهُ ، ولم يوجدْ من شياطين الإنسِ رائيه وسامعُه ، فانتهى بِهِ التَّسيّار[١٨] ، في تلك الصحاري والقِفار ، إلى جبلٍ فآوى فيهِ إلى غار ، كان يأوي إليهِ مع المواشي أَوَانَ الأمطار ، فأمسى فيهِ تلك الليلةَ إلى وقتِ الإسفَار[١٩] :

فلما رأى الليلُ العبوسُ صنيعَه تبسّم فافتَرّتْ تباشيرُ فَجْرِه

فلمّا أصبح الصباح ، خرج إلى السراح ، وهو في نشاطٍ ومراح ، وجعل يرتادُ أنيسا ، ليكون جليسا ، أو رفيقا صالحا ، أو صديقاً ناصحا ، يتآنسُ بهِ في الغربة ، ويمسحُ بأناملِ مؤانستهِ ثِقَلَ الكُرْبَة ، وما يحصلُ على جبينِ راحتهِ من عرقِ القُرْبَة .

---

(١٦) زوجته الخائنة .

(١٧) الفاعل هنا هو التيس ، وقد صار يجرى كالفرس هاربا لمن الموت .

(١٨) السير أو المسار والمشي .

(١٩) إسفار ضوء النهار (الفجر) .

وبينما هو ينشرُ البيداءَ ويطوي ، إذا سمع نُبَاحَ كلْبٍ يعوي ، فترجَّى الخير ، وزوالَ الضير ، ثم قصدَ نحوَه ، فرآهُ مقبلاً من فجوَة ، فناداهُ أهلاً بأحبِّ الأحبابِ وأعزِّ الاصحاب ، المفضَّلِ على كثيرٍ ممَّن لَبِسَ الثياب . فلَّما دنا منهُ بادر إلى عناقِه ، وتباكَى لأليمِ فراقِه ، فتعانقا ، تعانقَ المحبيْن ، وتباثّا مباثَّةَ مَنْ مَضَّهُ البيْن . ثمَّ قال لهُ : اعلمْ يا لطيفَ الحركات ، وكثيفَ البركات ، أنَّ كلاًّ مِنّا غريب ، وكلُّ غريبٍ للغريبِ نسيب ، وأنا قد تفرَّسْتُ فيك ، وما تكادُ فِراستي تُخْطيك ، إنّك رفيقٌ صالح ، وشفيقٌ ناصح ، وأحسنُ مليحٍ مُمالح ، وفي طريقةِ إخوانِ الصفا قَيِّمٌ وراجح ، وانْ كانت الجنسيَّة بيننا مختلفة ، لكن القلوبَ بحمدِ الله تعالى مؤتلفة ، وكَمْ لكَ مِن أيادٍ سابقة ، وصدقاتٍ متناسقة ، وكَمْ حَطَطْنَا في المراعي ، وبِتْنَا في الحظائرِ نائمين وأنت لحفظِنا ساعي ، تحرسُنا من الغداةِ إلى الرواح ، ومن المساءِ إلى الصباح ، فأخبِرْني ما شأنُك ؟ وأين مكانُك وما اسمُك ؟ وما صنعتُك ورسْمُك ؟ ومجيئُكِ من أين ؟ وما حاجتُك في البَيْن ؟ قال : أمَّا اسمي فَيَسَار ، وأمَّا مكاني فَبِلادُ التتار ، وصنعتي راعي ، وسببُ مجيئي ضياعي ، ولي صاحبٌ اسمه أفرق[٢٠] ، من دشت قفجاق بن شقرق ، كنتُ في خدمتِه ، راعي ماشيتِه ، فأضْللت رعيّتي ، وضيَّعتُ حقَّ حرمتي ، وأنا أطلبُ وليَّ نعمتي ، لأمحوَ من وصمةِ الجفاءِ سيمتي ، فهذا شأني وجُلُّ بُغْيَتي .

قال الزنيم . أنا من حين شاهدتُ في وجهِكَ الأنوار ، علمتُ أنَّك يسار ، وأنك معدنُ الذكاء ، والألقابُ تنزل من السماء . وأمَّا طلبُك لصاحبِك ورعيَّتك ، فإنَّهُ دالٌّ على كمالِ مُرُوَّتِك ، ولا يُنْكرُ لك الرِّفاء[٢١] ، فإنَّ بينك وبينَهُ الوفاء ، مقامَ

---

[٢٠] إليه نسب الكلب الأفرقي . وهو من دشت قفجاق أى من صحرائه .

[٢١] الرفاء : الإصلاح والتآم الشمل والاتفاق .

الصدقِ والصفاء ، ولم يقعْ بينكما قطّ بُعْدٌ ولا جَفَاء ، وشهرتُك بحمدِ اللهِ بجميلِ الصفات ، التي قلَّما تجتمعُ في زكيٍّ الذّوَات ، ولا تصفو إلاّ للأولياء ، والبررةِ المبرزين الأصفياء ، من المسكنةِ والقناعة ، والجراءَةِ والشجاعة ، وحفظِ العهودِ والوفاء ، وكسرِ النفسِ والصفاء ، وعدمِ الحقدِ والحسد ، وإطراحِ العُجْبِ والنكد ، والحراسةِ والسهر ، وقيامِ الليلِ إلى السحر ، والتودُّدِ إلى الناس ، حتّى قال فيك ابنُ عبّاس : كلبٌ أمين ، خيرٌ من صديقٍ خؤون . وعندك من التهذيب ، وقبولِ التعلُّمِ والتأديب ، ما يصيِّرُ صيدَك مُذَكّي ، وسنُّك كالشَّفْرةِ مزكي ، وفي شأنِك يا ذا الوفاءِ والمنفعة ، قال الحارث بن صعصعة :

وما زال يرْعَى ذِمّتي ويحوطُني	ويحفظُ عرسي[٢٢] والخليلُ يخونُ
فَيا عَجَباً للخِلِّ يهتِكُ حُرْمَتِي	ويا عجباً للكلْبِ كيفَ يَصُونُ

ومن هذا الضرب ، ما رواهُ أحمدُ بنُ حرب ، عن ذي العتاب ، منادمِ الكلاب : إنَّ الكلبَ يكفُّ عنّي أذاه ، ويكفيني أذى سواه ، ويشكرُ قليلي ويحفظُ مبيتي ومقيلي ، فهو من بين الحيوانِ خليلي . ثمَّ قال أحمد بن حرب : تمنَّيتُ واللهِ أن أكونَ مثلَ هذا الكلب ، لأحوزَ هذه الصفات ، وأرقى هذه الدرجات . وأرجو اللهَ تعالى أن يُعَطِّفَكَ عليَّ ، ويُقَلِّبَ قلبَك ووَجْهَك إليَّ ، بحيثُ ترغبُ في صحبتي ، وتميلُ إلى صداقتي ، فترى إذ ذاك منّي بحمدِ اللهِ تعالى من الأخوَّةِ والصداقة والمُروَّةِ والرفاقة ، ما تنسى بهِ كلَّ صديق ، وتفضلُ بهِ الصاحبَ الجديدَ على العتيق ، فتترك سائرَ أصحابِك ، وتنتهي بي عن أعزِّ أوليائِك وأحبابِك ، خصوصاً بني آدم ، الذين أنت بهم أعلم ، مَنْ أذهبْتَ عمرَك في خدمتِهم ، والقيامِ بحقوقِهم وحفظِ حرمتِهم ، وحراسةِ مواشيهم ودورِهم ، وكمالِ فضلِك في حياطة بيوتِهم وقصورِهم ، ورعايةِ رعيانِهم ، وصيانةِ أهلِهم وجيرانِهم ، مع قناعتِك منهم ، بما يفضلُ عنهم ، من

---

[٢٢] زوجتى ، عروسى .

كِسْرَةِ خبزٍ شعير ، أو عَظْمٍ يابسٍ كسير ، أو فضلةِ مَرَقَة قدير ، وإضاعتهم حقوقَ خدمتِك ، ونسيانهم موجباتِ شفقتِك ، حتى لو وصل فَمُكَ إلى زادِهم ، أو إلى شيءٍ من عتيدِ عتادِهم ، رَمَوْكَ بالحطب ، ورضُّوا رأسَك بالحجارةِ والخشب ، ولو ولغتَ في إنائهم ، أو شربتَ من مائِهم ، ما قنعوا في تنظيفِه ، وتطهيرِه وتشطيفِه ، بمرَّةٍ ولا مَرَّتَيْن ، ولا اكتفوا في إزالةِ لُعَابِك بالعين ، بل دونوا الغسْلَ بالحساب ، وعفَّروا الوِعاءَ بالتراب ، ويعدُّون ذلك من التعبُّد ، ولا يرعون ما لَكَ من تحبُّبٍ وتودُّد .

وأنا أرجو أن ترتفعَ منزلتُك ، وتعلوَ درجتُك ، ويساعدَك ربُّ العرش ، حتى تصيرَ سلطانَ السباعِ وملكِ الوحش . وأجتهدُ في هذه القضيَّة ، إلى أن أبلغَ هذه الأمنيَّة ، وأكونَ السببَ في ذلك ، إلى أن تصيرَ رئيسَ الممالك ، فإنَّ لك عليَّ حقًّا قديما ، وفضلاً جسيما ، طالما نِمْنَا آمنين في ظِلِّ حراستِك ، ورعَيْنَا مسرورين مكْنُوفين بحياطتِك ، وأَجَلْنَا منك في الخاطر ، ما قال الشاعر :

فنحنُ بأوْفَى شكْرِها نَسْتَدِيمُها	بقاؤكَ فينا نعمةُ اللهِ عندنا

قال يسار : يا أخي جميعُ ما قررتَه صحيحٌ مقبول ، داخلٌ في الفضلِ خارجٌ عن الفضول ، ولكن أنا من جنسِ السباع ، مجبولٌ على ما لهم من الطباع ، ومع هذا فأنا عدوُّهم ، وبسببي يزولُ هُدُوّهم ، وأنا لم أعادِهم إلا فيكم ، ولا لي وادٌّ إلا في ناديكم ، فإنّ تربيتي بينكم ، وعيني مقارنةٌ عينَكم ، وأنا إليكم أقربُ مني إليهم ، ومعولي عليكم دونَ معولي عليهم ، وعلى هذا وجدتُ آبائي وأجدادي ، ونشأتُ من حين ميلادي ، والخروجُ عن طريقةِ الآباء ، دليلٌ على العقوقِ والإباء ، وهو أمرٌ مذموم ، وهذا شيءٌ معلوم . وقد قال صاحبُ الشرع : "الحبُّ يتوارث ، والبُغْضُ يتوارث" ، ولكن يا سليمَ الطباع ، وخصيبَ الرباع ، قولُك تصيرُ سلطانَ السباعِ

سخريةٌ مني واستهزاء ، ولا أستحق منك هذا الجزاء ، فإن معنى هذا القيل ، أمرٌ مستبعدٌ بل مستحيل ، إنّ أبا طاهرٍ[٢٣] نجسُ العين ، فإني من أين ، وهذا الهوس من أين ؟ فإنْ أردتَ إعانتي على ذلك ، وتكفّلْتَ لي برياسةِ الممالك ، فكِلانا في هذا الهوى سواء ، وإنْ صمَّمنا على ذلك فما لِجُنونِنا دواء ، وهذا الوسواس ، من خيالاتِ الإفلاس . وفي مثلِ هذا الحال ، قالَ مَنْ صدقَ في المقال "لا خَيْلَ عندك تُهديها ولا مال" . وأنا أعلم إنما تتكلمُ بما يطيِّب خاطري ، ويسُرُّ سرائري ، ويقربُّك في الحبِّ من ضمائري .

قال المشرقي[٢٤] ، لا تقُلْ ذلك يا تقي ، فأنا شاهدْتُ في جبينك مخايلَ السيادة ، ومن شمائلك تَقَاطُرَ السعادة ، وقد قيل ، يا فضيل : المرءُ يطيرُ بهمّتِهِ ، كما يطيرُ الطيرُ بجناحِه ، أمَا بلغك ياخيرَ عالم ، ماروواه الشيخُ علاءُ الدين بنُ غانم ، ذو الفضلِ الكثير عن تاجِ الدين ابنِ الأثير ، قال يسارُ أخبرْني بهذه الأخبار .

[١/٦] نبوءة الملك قطز

قال ابنُ الأثير[٢٥] ، وهو بالروايةِ خبير ، محرز أيدي المعانى ، عن الأمير حسامِ الدين البركة خانى : قال كنتُ فى عصرِ الشباب ، أصحبُ من صالحي الشباب ، الملكَ المظفر ، قُطُزَ الغضنفر ، وكان خُشداشى[٢٦] ، وبرؤيته انتعاشى فَكُنّا ونحن صبيان ، كأننا ظبيان ، غير أنا كنّا فى قِلّة ، فكنتُ أُفلّي قَمْلَه ، وأسرِّحُ رأسه ،

---

[٢٣] أبو طاهر : كنية الكلب (من أسماء الأضداد) .

[٢٤] المشرقى : التيس ، لأن أصله من الشرق كما ذكر المؤلف فى أول الباب .

[٢٥] ابن الأثير : المؤرخ المعروف (١١٦٠ - ١٢٣٤ م) صاحب كتاب الكامل فى التاريخ .

[٢٦] خشداش : لفظ فارسى معناه الزميل فى الخدمة . والخشداشية هم الأمراء الذين نشأوا مماليك عند سيد واحد ، فنبتت بينهم الزمالة .

وأذهبُ بأسَه ، وتقدمتُ إليـه ، بالشـرط عليه ، أن يعطيـني لكـلِّ قملـةٍ فلسـا ، أو أصفعُه صفعةً مَلْسا[٢٧] . ففي بعـضِ الأوقـاتِ أخـذتُ عنـه قَمْـلاً كثـيرا أو صفعتـه صَفَعات ، وقلتُ فى غضـون ذلك ، ونحن فـى حـالٍ حـالِك : أتمنّـى علـى ا للهِ عـزَّ وعلا ، أنْ يُعطيَني إمرةَ خمسين رجلا ، فقال لى : طَيِّبْ خـاطرَك ، وسُـرّ سـرائرَك ، فإنى أبلغُك سؤالَك ، وأعطِيك مسئولَك ، وأجعلُكَ أميرَ خمسين فارسا ، فابشرْ ولا تكنْ عابسا ، فصفعتُه صفعـة ، وقلتُ ويلك ! أنت تعطينـى إمـرة ورفعـة ؟! قـال : نعم ، وأَعْمُرُك بالنّعم . فصفعتُه أخرى ، وازددتُ نكْرا ، فقـال لى : عَلّـه ، ونحس المسلّة ، يا قليل اليقين ، أتريدُ شيئاً غيرَ إِمْرَةِ خمسين ، أنـا وا للهِ أعطيـك ، وأُعْليـك على ذويك . فقلت : ومن أين لك تعطينى وترضينى ؟ فقال : أملكُ هـذا الديـار ، وأكسرُ التتار ، وأحلُّ الكفرةَ والعُلُوج[٢٨] دارَ البوار ، فقلـتُ لـه : يـامفتون ، أنـت مجنون ، أَبقَمْلكَ وقِلّك ، وفقـرك وذُلّـك ، تملـكُ الديـارَ المصريـة ، وتصـيرُ سـلطانَ البرية ؟ قال : نعم ، ولا تعملْ زعم ، فإنى رأيتُ فى المنامِ النبيَّ ﷺ وقال لى : أنت تملكُ الديارَ المصرية ، وتكسرُ التتر ، ولاشكّ فيما يخبِرُ بـه النبيُّ مـن خـبر . قـال : فأمسكتُ عنه ، لأنى كنتُ أعرفُ الصدقَ منه . ثم تنقلَتْ به الأحوال ، وتنقـل إلى أن بلغَ الكمـال ، وتملّـكَ هـذه الديـار ، ثـم كسـرَ علـى عـينِ جـالوت التتـار[٢٩] ، وأعطانى ما وعدني به وأرضاني .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، لِتعلَم أنَّ سلطنَتَك غيرُ محال . وأنا أرجـو ا للهَ تعـالى أنْ يُيَسّرَ لِي القيام ، بجميعِ ما قلتهُ لك يا إمام ، وأنا أُجلسُـك علـى السـرير ، وأُقيـمُ في

---

[٢٧] ملساء ناعمة (خفيفة) .

[٢٨] العلوج ، واحدها علج وهو الرجل الضخم من كفار العجم وغيرهم .

[٢٩] عين جالوت : موقعة فاصلة فى التاريخ ، فيها هزم المماليكُ المصريون بقيادة قطز التتارَ لأول مرة ، وأوقفوا زحفهم الساحق الماحق على مصر والعرب وأوربا (وكان ذلك فى ١٢٦٠/٩/٣ م) .

خدمتِك الكبيرَ والصغير ، وأرفعُ رايةَ مراسيمِك ، وأنفذُ أوامرَها في ممالكك وأقاليمِك ، وأجعلُ جنودَ الوحشِ تحت رايتك ، وأقاليمَ القفارِ كلّها تحتَ ولايتك ، ولكنْ بشرطِ أنْ تتبعَ ما أراه ، ولا تخرج عن طورِهِ ولا تتعدّاه ، وتعملَ بكلِّ ما أشيرُ إليهِ ، ومهما أرشدتك إليهِ ، تعوّلُ عليهِ . فقال : أنا طوعُ يديك ، وجميعُ أموري منك وإليك ، فَقُلْ فإنّي سامع ، ولأمرِك طائع ، فانهضْ وعاني ، هذه الأماني ، عسى يصيرُ هذا الباطلُ حقا ، وينقلبُ هذا الكذبُ صدقا ، وقُلْ ما تقتضيهِ لأتبعَهُ وأرتضيه . قال : ترجعُ عمّا أنتَ عليهِ من الأخلاقِ السبعيّة ، والأوصافِ الكَلْبِيَّة ، من الحرصِ والشّره ، والتكلّب والتّره ، والنفسِ المتنمرة ، والطبيعةِ المذمرة ، وتصومُ عن الدماءِ واللحوم ، وعن تمزيق الحيوانات ، وتفريق الجماعات ، وتحملُ النفسَ على الأخلاقِ الجميلة ، والتلبّسِ بالأوصافِ الفضيلة ، من العّفة والكرم ، والعفوِ عَمَّنْ ظَلَم ، والقناعةِ بالنبات ، عن لحومِ الحيونات ، ومعاملةِ الكبيرِ والصغير ، بالفضلِ الكثير ، والبذلِ الغزير ، وتلافي خاطِر الخطيرِ والحقير ، ليسهلَ العسير ، وينقادَ لك المأمورُ منهم والأمير ، وهذا أمرٌ عليك يسير . وهذا لأنك طالما جرحتَ جوانحهم ، وكسرتَ جوارحَهم ، واصطدتَ سارحَهم ، وأبدتَ بارحَهم ، فهم منك مُتخوّفُون ، وإلى الإيذاء والضرّ منك مُتشوفون . وإذا رأَوْا شيئاً خلافَ العادة ، وعلموا أنّ ولايتَك فيها الحسنى وزيادة ، وأصابوا الخير ، من مواقعِ الضَّيْر ، ورأَوْا ما سَرّ ، من مواضع الشرِّ والضّر ، تَشَرَّبَ مَحَبَّتَكَ منهم الكبيرُ والصغير ، وأنهاك أنْ يراك من الوحوشِ العيرُ والنفير ، فيتخذك الغريبُ حبيبا ، ويصير البعيدُ منك قريبا ، فتصيدَ بالمحبة أرواحَهم ، كما كنتَ أولاً تبيدُ أشباحَهم . وإذا ضرب صيتُك في الأرض ، ونشر دُرَّهُ بالطولِ والعرض ، وتسامعتْ بك الوفود ، وتحقّقوا أنك عدلتَ عن خُلُقِكَ المعهود ، أقبلتْ إليك منهم الجنود ، وزان جيدَ جنودِهم من جواهرِ محبتِك عقود ، وانعقدتْ بينكم بالمحبةِ والولاء عقودُ

العهود ، فتوفّرتْ إذ ذاك جنودُك ، وعلتْ على رؤوسِ الأقرانِ راياتُك وبنودُك ، وجعلوا دارَك مأواهم ، وحماك مصيفَهم ومشتاهم ، مع أن هيبتَك في قلوبهم مركوزة ، وأسِنَّةَ مخافتِك في أحشائهم من قديم الزمان مغروزة ، وأعلى مَنْ فيهم يهابُك ويخشاك ، ويتوقى مكانَك ويتحاشاك .

قال يسار : اعلمْ يا خيرَ سار ، أنّ حبالَ الآمال ، ومطالعَ الخيال ، ما لم تتعلقْ بمأمول ، ولم ترتبطْ بأطرافِ سول ، فالنفسُ ساكنة ، والروحُ مطمئنةٌ هادنة ، والقلبُ فرح ، والخاطرُ منشرح ، إذ الطمعُ ذلٌّ وشين ، واليأسُ إحدى الراحتين . ومتى تعلّقتْ بذيلِ المطامعِ مخاليبُ الآمال ، وبلغتْ إلى حصولِ مأمولِ الخيال ، وقامت النفسُ في تحصيلهِ ، وتحركتْ الجوارحُ لنيلِ مأمولهِ ،وانبعثتْ الهمَّةُ إلى إدراكهِ ، وتعلّق القلبُ بسيرِ أفلاكهِ ، توزّعت الأفكارُ وتفرّقت ، وتمزّعت الخوطرُ وتمزّقت ، وركب لذلك كلُّ صعبٍ وذلول ، وتقاذفت النفسُ في كلِّ مخوفٍ ومهول ، وتقلدت بحمائل ، قول القائل :

إذا لم يكُنْ عونٌ من اللهِ للفتى ... فأوّلُ ما يجنى عليه اجتهادُه

ثم إذا لم يحصلْ المأمول ، ولم تبلغْ والعياذُ باللهِ النفسُ السول ، مع بذل هذا الجهد ، والمبالغةِ في السعي والكد ، ومقاساةِ التعب ، ومعاناةِ النصب ، ترادفَ النّكد ، وتضاعفَ السّهد ، وصارت النفسُ لهذا البدد ، وكان في جيدِ حياتها من فواتِ المقصودِ حبلٌ من مَسَد ، فلا تزالُ بين تشويشِ ضمائر ، وتقسيمِ خاطر ، وفكرٍ غائبٍ وَهَمٌّ حاضر . وهذا الأمرُ الذي عزمتَ عليه ، وهممتَ بالترقّي إلى الوصولِ إليه ، إلى عدمِ الحصول ، أقربُ منه إلى الوصول ، وأنا أخاف ، وذا غيرُ خاف ، أن يَغُرَّنا الطمعُ في هذه الحركة ، فينتزع من فراغِ أوقاتنا البركة ، ولا نحصلُ إلا على

مِثْلِ ما حَصَلَ لمالكٍ الحزينِ من السمكة . قال الزنيم : نَبِّئْني أيُّها العليم ، بذلك المَثَلِ القويم .

[٦/٢] حكاية مالك الحزين والسمكة

قال بلغنى أنه كان فى مكانٍ مكين ، مأوى لمالكٍ الحزين[٣٠] ، وفى ذلك المكانِ غياضٌ وغدران ، تضاهى رياضَ الجنان :

حَكَى بانُها قَدَّ الحبيبِ تمايُلا   فجُنَّ وفي هذا الجنونِ تَفَنُّنَا
فدارَ عليهِ النهرُ وَهُوَ مُسَلْسَل   فَقَيَّدَهُ إذْ قد جنا وتجنُّنا

وفي مياهه السِّماك[٣١] ، ما يفوقُ سابحاتِ السِّماك[٣٢] ، فكان ذلك الطير ، في دَعَةٍ وخير ، يزجى الأوقات ، بطيبِ الأقوات ، وكلّما تحرَّك بحركة ، كان فيها بركة ، حتى لو غاص في تلك البحارِ والغدران ، لم يخرجْ إلاّ وفي منقارهِ سمكة . فاتّفق أنّهُ في بعضِ الآناء ، تعسّر عليهِ أسبابُ الغذاء ، وارتجَّ لِفَوْتِ قوتِهِ أبوابُ العشاء ، فكان يطيرُ بين عالمِ المُلْكِ والملكوت ، يطلبُ ما يسدُّ الرمقَ من القوت ، فلم يفتحْ عليهِ بشيءٍ من أعلى السماك إلى أسفلِ الحوت . وامتدَّ هذا الحال ، عدةَ أيامٍ وليال ، فخاضَ يوماً في الرقراق[٣٣] ، يطلبُ شيئاً من الأرزاق ، فصادفَ سمكةً صغيرة ، قد عارضتْ مسيرَه فاختطفها ، ومن بين رجليه التقفها . ثمَّ بعد اقتلاعها ، قصد إلى ابتلاعها ، فتداركتْ زاهقَ نفسِها ، قبل استقرارِها في رمسِها ، فنادتْ بعد أنْ كادت ، أنْ تكونَ بادت : ما البرغوثُ ، ودمُه ، والعصفورُ

---

[٣٠] مالك الحزين : طائر من طيور الماء ، سمي بذلك لأنه بزعمهم يقعد قرب المياه ، فإذا نشفت حزن على جفافها ، وبقي حزينا ، ويعرف أيضا باسم البَلَشُون .

[٣١] السماك : السمك الكثير .

[٣٢] سابحات السماك : النجوم (كناية عن الوفرة والكثرة) .

[٣٣] النهر الصغير .

ودسمه ، اسمعْ يا جارَ الرضا ومَنْ عُمْرُنا في صونـهِ انقضى ، لا تعجلْ في ابتلاعي ، ولا تسرعْ في ضياعي ، ففي بقائي فوائد ، وعوائدُ عليكَ عوائد ، وهو : إنَّ أبي قد ملك ، هذا السمك ، فالكلُّ عبيدُهُ ورعيته ، وواجبٌ عليهم طاعتُـهُ ومشيئته ، ثـمَّ إني واحدُ أبويَّ ، وأريدُ منك الإبقاءَ عليَّ ، فإنّ أبي نَذَرَ النـذور ، حتى حصل لـهُ بوجودي السرور ، فما في ابتلاعي كبيرُ فائدة ، ولا أسدُّ لك رمقاً ولا أشغلُ لك معدة ، فتصير مع أبي الفضيل ، كما قيل : "فافقرْني فيمَنْ أحبّ ولا أستغني" ، فالأوْلَى أنْ أُقِرَّ عينك ، وأعرف ما بين أبي وبينك ، فأكون سبباً لعقودِ المصادقة ، وفاتحاً لأغلاقِ المحبةِ والمرافقة ، ويتحمَّل لك الجميلة ، والمنَّةَ التامَّةَ والفضيلة . وأمَّا أنا فأعاهـدُك إنْ أعتقتني ، ومننتَ وأطلقتني ، أن أتكفَّلَ لك كلَّ يوم بعشرِ سمكات ، بَيَاضٍ سمانٍ وَدَكَات[٣٤] ، تأتيك مرفوعة ، غيرَ ممنوعةٍ ولا مقطوعة ، يرسلُها إليك أبي ، مكافأةً لما فعلتَ بي ، من غيرِ نصب ، منك ولا وصب ، ولا كَدٌّ تتحمَّله ولا تعب . فلمَّا سمع البَلَشُون[٣٥] ، هذا المحون ، أغراهُ الطمع ، فما ابتلع ، فَسَهَا وَلَها ، ثم قال لها : أعيدي هذه الرمزة ، فبمجرَّدِ ما فتح فاهُ بالهمة ، املصت السمكة منهُ بجمزة ، وغاصت في الماء ، وتخلصتْ من بين فكَّي البلاء ، ولم يحصل ذلك الطماع ، إلاَّ قَطْعَ الأطماع .

وإنَّما أوردتُ يا ذا الدراية ، هذه الحكاية ، لتتأمَّلَ عُقبى هذا الأمرِ قبلَ الشروعِ فيه ، وتتدبَّرَ مُنتهى أواخرِهِ في مباديه ، فقد قيل : أوَّلُ الفكرِ آخِرُ العمل . قال المشرقي : اعلمْ يا مرتقي ، أنَّ مبنى الأمورِ في مجاريها ، وقواعدَ ما أسّس عليهِ مبانيها ، تقديرُ خالقِها وتدبيرُ باريها ، وماحَكَمَه وقضاه ، وأحْكَمَه وأمضاه ، لكنه

---

[٣٤] الودك : السمين الدسم .

[٣٥] البَلَشُون : مالك الحزين .

كَتَمَه وأَخفاه ، فلا تُدركُه العيونُ والأبصار ، بل ولا البصائرُ والأفكار ، فإنه عِلْمُ غيب ، وجهلُنا به ليس بعيب ، لأنه تنزّه أحداً صمدا ، قال تعالى ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ علَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾[٣٦] كما قيل :

على المرءِ أن يسعى ويبذلَ جَهْدَهُ ... وليس عليه أن يساعدَهُ الدهرُ
فإنْ نَالَ بالسعْيِ المُنَى تَمَّ أَمْرُه ... وإنْ غَلَبَ المقدورُ كان له عُذْرُ

وإن الله العليَّ الأعظم ، قد وضع أساسَ بنيانِ العالَمِ على الأسباب ،وفتح لتعاطي الأسبابِ الأبواب . فقال ذو الجلال : ﴿والّذين جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾[٣٧] وقال : ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ﴾[٣٨] وقا القائل :

إذا ما كُنْتَ في أمرٍ مَرُوم ... فلا تقنعْ بما دونَ النجُومِ
يرى الجبناءُ أنّ العجز حَزْم ... وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيم
فطعمُ الموتِ في شيءٍ حقير ... كطعمِ الموتِ في شيءٍ عظيم

وقال عليه الصلاةُ والسلام : "عُلُوُّ الهِمَّةِ من الإيمان" والمرءُ يسعى في تحصيلِ مرامِه ، ولا يتركُ شيئاً من أسبابِ قيامه ، فإنْ ساعده القدرُ بقدره ، انقاد إليه مرامُه بشَعْرَة ، وكان مصادمُه مساعدَه ، ومقاومُه معاضدَه كما قيل :

وإذا أرادَ الله نصرةَ عبدِه ... كانت له أعداؤه أنصارا

فيساعده إذ ذاك الكونُ والمكان ، ويمضي سهم أوامرِه رامي القضاءِ من قوس الزمان ، فيقيّضُ له المساعد ، ويتعبد له المقاربُ والمباعد . وحسبُك يا ذا الصولة ، ما اتّفق من السعدِ لعمادِ الدولة . فسألهُ يسار ، عن سرد هذه الأخبار .

---

[٣٦] قرآن كريم ، سورة الجنّ : ٢٦ .

[٣٧] قرآن كريم ، سورة الروم : ٦٩ .

[٣٨] قرآن كريم – سورة المُلك : ١٥ .

[٣/٦] قصة عماد الدولة البويهي

قال : كان رجلٌ صيَّاد ، لهُ ثلاثةُ أولاد ، كأنّهم حَمَك[٣٩] ، وقُوتُهم السمك ، تقلّبت بهم الأحوال ، حتى صاروا برياستهم على الدنيا أحمال ، وانتهوا في الرياسة ، وساسوا الخلقَ أحسنَ سياسة ، وانتشر أمرُهم ، وطاب في الدهر ذكرُهم . وممَّا ملكوهُ العراقان[٤٠] والأهواز ، وفارس وسُرَّتُها[٤١] شيراز ، أكبرهُم أبو الحسن علي بنُ بُوَيه[٤٢] الملقّبُ بعماد الدولة ، وكان في السلطنةِ ذا جوْلةٍ وصوْلة . ولّما انتهت أيّامُ حمولِه ، واتّصل بالسعدُ أسبابُ وصولِه ، حلَّ ركابُهُ بشيراز ، وصعد إلى حقيقة المُلْكِ من المجاز ، ووفدتْ عليهِ الوفود ، وأحاطت بهِ جموعُ الجنود ، وطالبَهُ أهلُ المراتبِ بالرواتب ، والروامكُ[٤٣] بالجوامك[٤٤] ، والرِّفاقُ بالإنفاق ، والأجنادُ بالأرفاد ، وأربابُ الولايات بالخلع والجرايات ، وأصحابُ الإقامات بالنفقات والإنعامات ، ولم يكنْ في خزائنهِ ، من ظاهرِ المالِ وباطنه ، ولا في ذخائرِه ، من ظاهرِ والرفدِ وضمائِره ، ما يسدُّ رمقَهم[٤٥] ، ويردُّ شَرَقَهم[٤٦] ، فتراكمتْ همومُه ، وتصادمت غمومُه ، وتوالت أفكارُه ، وتجاذب به من بحرِ الحَيْرةِ دَرْدُورُه[٤٧] وتيارُه ، لأنَّ أمرَهُ كان في مباديه ، وليلَ سعدِه في هواديه،

---

[٣٩] الحمك : الصغار من كل شيء .

[٤٠] العراقان : عراق العجم وعراق العرب .

[٤١] سُرّة البلاد : أفضل مواضعها وخير منابتها ، وهي أيضا أكرم المدن وأوسطها ، ويعنى بها شيراز .

[٤٢] تولى الحكم سنة ٣٢٠ هـ - ٩٣٤ م .العراقان : عراق العجم وعراق العرب .

[٤٣] الروامك : الخيل ، ويقصد طالبه أصحاب الخيل بمرتباتهم ومخصصاتهم (علف الخيل) .

[٤٤] الجوامك : جمع جامكية ، وهي مرتب خدم الدولة من العساكر والموظفين .

[٤٥] رمقهم : جوعهم وعيشهم ، والرمق بقية الروح .

[٤٦] شرقهم : ظمأهم ، والشرقة : الغُصّة .

[٤٧] الدردور : دوامة البحر التي يخشى فيها الغرق .

وقد قصرت عن طُول الطَّوْلِ أياديه ، وأشرفَ أمرُهُ علـى الاختـلال ، ومُلْكُـهُ علـى الاضمحلال ، ووقع في يومٍ لا بَيْعَ فيهِ ولا خِلاَل ، فدخـل إلى مكـانس[48] خـال ، وهو مشغولُ البال ، فاستلقى فيهِ على ظهرِه ، وغرقَ في بحارِ فكرِه .

فبينما هو يلاحظُ السقوف ، وأفكارُهُ بين تـردُّدٍ ووقـوف ، وإذا بحيَّـةٍ عظيمـة ، بجثّةٍ جسيمة ، من السقفِ خرجـتْ ودرجـت ، وفي مكـان آخـرَ وَلَجَـتْ ، فوثـب واقفاً ، ورقب خائفـا ، لئـلاّ تسقطَ عليـهِ ، ويصـلَ أذاهـا إليـهِ ، ودعـا الفرَّاشـين ، وجماعة فتّاشين ، بمعاول النبَّاشين ، وأمرَهم بنصبِ السُّلّم ، والفحْصِ عن الأرقـم ، وتتبُّعِ آثارِها ، وإطفاءِ شرارِاها ، فصعدوا الحيطان ، وحفروا ذلك المكان ، وخرقـوا سقفه ، فانفتحتْ لهم غُرفة ، كانت مخبأةٌ لِمَنْ تقدّمَه ، وضع فيها دينارَهُ ودرهمَـه ، وفيها عدَّةُ صناديق ، محكماتِ التوثيقِ والمغـاليق ، فـاطلعوهُ علـى تلـك الخبيَّـة[49] ، والتهوا عن طلبِ الحيَّةِ الجبيَّة[50] ، فأمرهم فنقلوها إليهِ ، ووضعوها بين يديهِ ، فـإذا فيها من الذهبِ النضـار ، خمسـمائة ألـفِ دينـار ، فعـرف أنَّ ذلـك عنايـةٌ ربانيَّـة ، ومواهبُ صمدانيَّةٌ رحمانيَّة ، فصرفَ المالَ في إصلاحِ حالِه ، وبذرَهُ في مزارعِ قلوبِ خيلِهِ ورجالِه ، فَثَبَّتَتْ أوتادُه ، واسـتقامتْ أجنـادُه ، وقويـت سـواعدُهُ وأعضـادُه ، وكان أمرُه قد أشرفَ على الاختلال ، وعِقْد نظامِه على الانفراط والانحلال .

وكـان مـــن تمـامِ هــذه السعادة ، وتعقيـبِ هـذه الحسنى بالزيـادة ، أنَّ الملـكَ المذكور ، بعد هذه الأمور ، وحصولِ هذا السرور ، وانتظامِ مصالحِ الجمهور ، أرادَ تفصيلَ قُماش ، وخياطةَ خِلَعٍ ورياش ، فطلب خيَّاطاً ثِقَـة ، ليقلّـدَهُ هـذه المنطقـة ،

---

[48] مكانس : منزل غير مأهول .

[49] مخفف خبيئة (الكنز المخبوء) .

[50] الغليظة المستوية .

فأُرشِدَ إلى خيَّاطٍ ماهر ، شكلهُ زاهر ، وفضلُهُ طاهر ، وحذقُهُ في صناعتهِ باهر ، إلاَّ أنّهُ أُطْروش ، حَقْلُ سمعِهِ بِدَبَى الوقرِ مَدْبوش[٥١] ، فما يصلُ مِلِكُ الكلامِ إلى سريرِ صِماخِهِ[٥٢] إلاَّ بزمرٍ وطبلٍ وجاووش[٥٣] . فدعاهُ فأجلسه بين يديه ، وطلب الثيابَ ليعرضَها عليهِ ، فتصورَّ الخيَّاطُ أنهُ سُعِيَ بِهِ إليهِ ، بسببِ وديعةٍ كانت لصاحبِ البلدِ لديْه ، وإنمَّا طلبَهُ ليُطالبَهُ ، فإمَّا أن يُؤَدِّيَها أو يعاقبَهُ ، فتقدَّمَ باليمين ، مثل المصارعين ، وأقسمَ با للهِ خالقِ المخلوق ، ورازقِ المرزوق ، إنها اثنا عشرَ صندوق[٥٤] ، لم يشعرْ بها مخلوق ، وأنّهُ لايدري ما فيها ، وأنّها مختومةٌ بختمِ مُعطيها . فتعجبَ عمادُ الدولةِ من كلامِه ، وسجدَ للهِ شكراً على إنعامه ، ثمَّ وجَّهَ معهُ مَنْ أتىَ بها ، ودخل إلى بيوتٍ ما فيها من أبوابها ، فكان ما فيها من الأموال ، ونفائسِ القماشِ العال ، جملٌ متكاثرة ، وأصنافٌ متوافرة ، واستولى على ذلك كلِّه ، وثبتَ بواسطةِ المالِ في ركابِ المُلْكِ واطِئُ نعلِه .

وإنمَّا أوردتُ هذا التنظير ، يا ذا الرأي والتدبير ، لتعلمَ أن مُسَبِّبَ الأسباب ، وميسِّرَ الأمورِ الصِعاب ، إذا دبَّر مصالحَ عبدِه ، وشَمِلَهُ بإحسانهِ ورفدهِ ، هون عليهِ كلَّ عسير ، وصغَّر عندهُ كلَّ كبير ، وأنت بكلِّ هذا بصير . قال يسار : صدقتَ ، وصواباً نطقتَ ، ولكنني نظرتُ إلى الدنيا ، ورزْتُ أحوالَها السفلى والعليا ، ورأيتُ كلَّما زاد الشخصُ حرصاً وطمعا ، ازداد لنفسهِ عبوديَّةً وتبعا ، وللدنيا رقا ، وللآخرةِ رشقا ، فصارت قيودُهُ أثقل ، وحسابُهُ أشدَّ وأطول ، وهمومُهُ أتمَّ ، وغمومُهُ أعمّ ، وأن الواثِقَ بالدنيا ، والراكنَ إلى ما فيها من أشيا ، كالجاعل لـهُ من

---

[٥١] الدَبى : الكثرة من (الجراد) . والوقر : الصمم . ومدبوش مأكول .

[٥٢] الصماخ : قناة الأذن الخارجية التي تفضي إلى طبلتها .

[٥٣] الجاووش : أو الجاووشي : آلة موسيقية تشبه العود تقريبا .

[٥٤] الصواب النحوي صندوقا ، لكن للسجع ضروراته . وكثيرا ما يصادفنا مثل هذا الأمر في الكتاب . .

السحابِ حصْنا ، ومن الحَباب كِنًّا[٥٥] ، وأيُّ وقايــةٍ تحصـلُ مـن السـحاب ، وأيُّ إيـواءٍ يصدرُ من الحَبَاب . ومَنْ تأمَّلَ الدنيا بعينِ التبصُّر ، وتفكَّرَ في تقلُّباتِها بمُصيبِ العقلِ والتدبُّر ، عدَّ جمْعَها شتاتا ، ووَصْلَها انبتاتـا[٥٦] ، ومَجيئَهـا ذهابـا ، وشـرابَها سرابا ، وإقبالَها إدبارا ، ونسيمَها إعصـارا ، وعطاءَهـا أَخْـذا ، وعهدَهـا نبْـذا[٥٧] ، وصلتَها فَلْذا[٥٨] ، ووهَبَها نهْبـا ، وإيجابَهـا سـلْبا ، وحربَهـا سَـلَما[٥٩] ، ووجودَهـا عدما ، وكثرتَها قِلاّ ، وعزَّها ذُلاّ ، وضحكَها نياحة ، وطلاقَهـا راحـة ، فلـم يكُـنْ عندهُ أحسن من فراقها ، ولا أرصن من طلاقها ، والقناعةُ منها بالكفاف ، والرضـا منها بالعفاف ، كمـا سـلك الفـلاّح ، صـاحبُ الماشـية واسـتراح . فقـال الزنيـم : أخبْرني كيف كان ذاك يا حكيم ؟

[٤/٦] حكاية الراعي والفلاّح

فقال : إنَّ مخدومي الذي كنتُ عنده ، أحفظُ ماشـيتَه لا تزيـدُ في القيـاس ، عـن ألفِ راس ، وإنْ حَصل من النِّتاجِ[٦٠] المعهود ، ما يزيدُ علـى هـذا القـدرِ المعـدود ، تصدَّق بهِ أو باعه ، أو وهبَهُ لبعضِ الجماعة ، ولو أراد لجعلها أُلوفاً مؤلفة ، وأضعافا مضاعفة . وكان في الجـيران ، والأصحـابِ والأخـوان ، مَـنْ هـو أقـلُّ منـهُ مـالاً ، وأقصرُ باعاً وأضيقُ مجالاً ، لهُ الألوفُ من المواشي ، وكذلك من الخدام والحواشي ، وهـم في كـلِّ وقـتٍ في ازديـاد ، وتضـاعفِ الأعـداد ، مـن الأصـولِ والأولاد ،

---

[٥٥] الكنّ : كل ما يردّ الحر والبرد من الأبنية ونحوها .

[٥٦] انبتاتا : انقطاعا .

[٥٧] نبذا : طرداً .

[٥٨] فلذا : قطعا .

[٥٩] سلما : استسلاما .

[٦٠] النتاج : ما تلده الإبل والماشية .

ومخدومي لا يقصدُ الزيادة ، وإنْ زاد شيءٌ أباده . فقال لهُ الراعي ، وكان عليها أشفقَ ساعي : يا مخدوم ، مَا لَكَ لا تريد ، أنْ تزيدَ ، مواشيك وحواشيك ، وتكثر بالرفق والرفد فواشيك[٦١] ، وبالورودِ والإصدار[٦٢] غواشيك[٦٣] ، فإنَّ المواشيَ تزدادُ فوائدُها ، وتتوفَّرُ عوائدُها ، باعتبار زيادةِ أصولِها ، وإدْرَار منافعِها ومحصولِها ، وجيرانُنا كانوا أقلَّ عدداً من هذا المقدار ، فصاروا بالتوفيرْ أكثرَ عدداً في الأغنامِ والأبقار ، فزادوا على مواشينا ، بعد أنْ كان أوساطُهم كحواشينا ، ولا أعرفُ لهذا موجبا ، ولا أدري لهُ سبباً غير الإهمال ، وقصدِ تضييعِ المال . فقال لهُ مخدومي ، هذا محيطٌ بهِ معلومي ، ولكن أيُّها الولد ، اعلمْ أنَّ أنواعَ العدد ، آحادٌ وعَشَرات ، وألوفٌ ومئات ، فالألوفُ غايةُ الأعداد ، إذا اعتبرنا التعداد ، والشيءُ إذا جاوزَ غايتَه ، وتعدى نهايتَه ، أخذَ في النقص ، وإذا بلغ مداهُ تراجع بالنكس .

وقد قيل : الشيءُ إذا جاوز حدَّه ، شاكل ضدَّه ، ومَن لم يقنعْ بالقليل ، لم يرضَ الجزيل ، ولقد أحسنَ المقال ، وصدق فيما قال ، مَنْ قال :

وما الدهرُ إلا سُلَّمٌ فبقدرِ ما	يكونُ صعودُ المرءِ فيهِ هبوطُـهُ
وَهَيْهَـاتَ ما فيـهِ يزولُ وإنما	شروطُ الذي يرقى إليهِ سقوطُـهُ
فَمَنْ كان أعْلَى كان أوْفَى تَهَشُّما	وفاءً بما قامت عليـهِ شروطُـهُ

وكثيرا ما رأيتُ ، وسمعتُ ووعيتُ ، عن أصحابِ الألوف ، القاصدين الازديادَ المألوف ، نزلتْ ألوفُهم إلى الواحدِ من الآحاد ، فاستولى عليهم لذلك الهمومُ والأنكاد ، فتكدرتْ خواطرُهم ، واشتغلت ضمائرُهم ، وأمَّا أنا فلم أعلمْ أن الفي

---

[٦١] يقال فشيت الأنعام : كثر انتاجها ونسلها واتسعت تجارتها .

[٦٢] من الوارد والصادر .

[٦٣] غواشيك : القادمون عليك ، الآتون إليك .

نقص ، ولا جاري حَلَبةِ مداهُ نكص ، فإذا عدّى غايتهُ ، ألزمتْهُ نهايتَه ، وكبحتُ جامحَ طرفِه ، وكففتُ طامحَ طرفِه ، طلباً للراحة ، ورغبة في الاستراحة :

فَكَمْ دقّتْ ورقّتْ واسترقّتْ فُضُولُ العَيْشِ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

وإنما أوردتُ هذا التمثيل ، لِتعلمَ يا ذا التفضيل ، أني ما دمتُ لهُ خادما ، وفي صفِّ الخدمةِ قائما ، ولم أتعدَّ طوري وهو مقامُ الخادميَّة ، إلى ما ليس لي وهو مقامُ المخدومية ، فأنا مستريح ، ولغيري مريح ، ونفسي مطمئنّة ، وجوارحي عن طيش السعيِ مُرْجَحَنّة ، واصحابي أحبابي ، وأحبابي أصحابي ، والخواطرُ صافية ، والمحبةُ وافية ، والصداقةُ باقية ، ومياهُ المودَّةِ في رياضِ الأرواحِ صافية ، وفي عروقِ الأشباحِ واقفةٌ جارية . فإذا رمتُ مع وجودِ هذه الحسنى الزيادة ، وقصدتُ التعدِّي إلى ما ليس له بهِ عادة ، فأنا بين أمريْن ، متقلبٌ على جمرتين : إمَّا عدمُ الحصول ، والانقطاعُ عن الوصول ، فتتضاعف المكدات ، وتترادف المقسمات ، وبحسبها تصل الهموم ، وتحصل الغموم ، كما مرّ سالفا ، وذُكر آنفا . وإمَّا الظفرُ بالمراد ، على حسب ما يُراد ، فبقدرِ ذلك يقع الصداع ، ويقومُ التحاسدُ والنزاع ، وأوّلُ ذلك معاداةُ الأصحاب ، ومعاناةُ الأحباب ، ومقاساةُ الأتراب[٦٤] ، وحصولُ الضغائن ، وبروزُ المكامن ، بواسطةِ الترفُّعِ عليهم ، وصدورِ المراسيمِ والتقدُّمِ بامتثالها إليهم ، فالأوْلى بحالي ، التفكُّرُ في مآلي ، واللائقُ بشوري ، أنْ لا أتعدَّى طَوْري ، ولا أتورطُ في هذا البحرِ العميق ، والبئرِ الغميق ، ولا أخرجُ عن سواءِ الطريق ، فتهوي بي طيرُ الهوانِ في مكانٍ سحيق .

وإني يسارٌ خائفٌ أنْ يردَّني زماني بما لاَقَى يسارُ الكواعبِ

---

(٦٤) الأتراب جمع ترب ، وهو المماثل في السّن .

قال المشرقي أبو زنمة ، ما أحسنَ هذه الكلمة ، وأيْمَن هذا النظر ، وأرصنَ هذه الفِكَر ، وأدّق معاني هذه المباني ، ولكنْ إذا رفعَك الله مَنْ يَضَعُك وإذا أعطاك مَنْ يمنعُك ؟ وقد قال ذو الجلال : ﴿ما يَفْتَحِ اللهُ للنّاسِ مِنْ رحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَها﴾[٦٥] وقال ﷺ "اللّهُمَّ لامانعَ لِما أعطيْت" :

وكلُّ النّاسِ تطْلبُ المعالي ... ونفسُ الحُرِّ تأبى أن تُضاما

فلّما بلغ بهما الكلام ، إلى هذا المقام . قال يسار اعلمْ يا فحلَ الفحول ، وإمامَ المعقولِ والمنقول ، أني ما بالغتُ في الامتناع ، إلاّ لأقفَ على ما فيك من طباع ، أسبر ثبوتَ قدمِك ، وثباتَك وراءَ كَلِمِك ، فلقد وجدتُك في هذا الأمرِ الخطير ، فوق ما في الضمير ، وفي مواطنِ الاختبار ، أثبتَ جناناً من ابنِ الليثِ الصفّار[٦٦] ، فانهضْ لقصدِك وحركتِهِ ، على خيرةِ اللهِ تعالى وبركته ، فإني وضعتُ عِنانَ جموحِ هذا المرام في يَدِ تدبيرك ، وجعلتُ واسطة هذا العقدِ جوهرةَ تفكيرِك . وسلكُ نظامِهِ ونظامُ قلادتهِ جودةُ تصويرك ، فإنّك أهلٌ لذلك ، وبرأيك تقتدى المسالك . فابتهجَ أبو زنمة بهذا المقال ، ووثب قائماً في مقامِ الخدمة ، وقال : حيثُ انشرحَ صدرُك لكلامي ، فسترى في وجهِك مجالسَ قيامي ، وأنا أعلمُ أنَّ معبودَك ، سيبلّغك مرامَك ومقصودَك ، ولكنْ يجبُ التيقظ ، وقبلَ الشروعِ التحفّظ .

أمّا التيقُّظ ، فلأمورٍ يجعلُها الملك مقتدى ، ولا يغفلُ عنها أبدا ، كما فعل الملكُ الظاهرُ الموفق ، أبوسعيد محمد جقمق[٦٧] ، حين اضطربت الأوامر ، واختلفت العساكر ، واصطدمت الأمور وخرج عليهِ من عساكرِهِ الجمهور ، وقلّ المعين ،

---

[٦٥] قرآن كريم ، سورة فاطر : ٢ .

[٦٦] يعقوب بن الليث الصفار : مؤسس الدولة الصفارية في سجستان وأفغانستان وكابول وخراسان ونيسابور . وذلك بمساعدة أخيه عمرو ، وذلك في سنة ٢٥٣ هـ / ٨٦٧ م .

[٦٧] تولى الحكم سنة ٨٤٢ هـ / ١٤٣٨ م .

وذلك في سنة اثنتين وأربعين[٦٨] ، فعصي "تنكرى" وترّس في حلب ، وقام بالراكمةِ الجلب ، وإينال الحلمي بالشام ، وكاتَبَهُ الطّغامُ والعظام ، وهرب بالقاهرةِ العزيز ، وأزّت[٦٩] الشياطينُ فاشتدَّ الأزيز ، وتخبّط بالصعيدِ العربان ، وفشا في عساكرِ الإسلام الطربان[٧٠] ، فَسَفُهَ الحليم ، وحَارَ الحكيم ، وضَلَّ كلُّ ذي رأي قويم ، فثبّت الملك الظاهر جاشهُ[٧١] ، وتعرف إلى الله تعالى فأزال استيحاشهُ ، وأصفى سرائرَه ، ولم تزلْ سيرتهُ طاهره ، فكان الله عونَه وناصرَه ، فأطفأ بأدنى لطفهِ شواظَّ تلك النائرة[٧٢] ، وقد بسط ذلك في سيرتهِ الظاهرةَ ، فتبدَّل الجحيمُ بالنعيم ، ورفع الله تعالى عن الإسلام والمسلمين العذابَ الأليم ، كلُّ ذلك بثباتِ القدم ، وعُلُوِّ الهمم ، ولم تحصلْ هذه الفعلةُ الزكيَّةُ الرائحة ، إلاّ بالطويَّةِ الطيبةِ والنيَّةِ الصالحة .

وأمّا التحفُّظ فَمِنْ موادِّ شرور ، ملتبس بها الجمهور ، منها الحقدُ والملال ، والكذبُ في المقال ، والحسدُ والاحتيال ، فإنَّ الحقودَ وقود ، والحسودَ لا يسود ، والكذوبَ يزول ، والملولَ لا يطول ، والمحتالِ مغتال ، وباقي النصائح ، الزكيةُ الروائح ، تأتيك بالسعد ، فيما بعد . وأنا الآن أقدمُ للبيان ، وأذكرُ الأهمّ ، وما فائدتُه أعمَّ ، قبلَ الشروعِ أمامَ المقصود ، وهو تأكيدُ مواثيقِ العهود ، فإنهُ إذا حَفّتكَ الجنود ، وأحاطَ بك أربابُ الراياتِ والبنود ، وأنتَ جالسٌ على السرير ، وفي خدمتِك المأمورُ والأمير ، والكبيرُ والصغير ، يعثرُ على استيفاءِ الخطاب ،

---

[٦٨] ولمائتانة للهجرة ، والإضافة من عند المحقق (٨٤٢ هـ) .

[٦٩] أزت : تحرك واضطرب ، أو صوّت من شدة الحركة والغليان ن والأزير الصوت والهيجان .

[٧٠] الطربان : الاضطراب والهيجان .

[٧١] مخفف جأشه .

[٧٢] نار الفتنة وشرّها .. أو ما يكون بين الطرفين من عداوة وشحناء .

واستيعابِ الجواب ، ولا يليقُ بعظمتِك ، ومقامِ حُرْمَتِك ، إطالةُ الكلام ، ولو اقتضاهُ المقام ، خصوصاً بحضور الخاصّ والعامّ ، ولو كان المتكلمُ أعزَّ الخدام ، وأقربَ الألزام ، فلا أقدرُ أن أتجرأ عليك ، وأنهيَ جميعَ ما أُريدُه إليك ، لأنّ قَصْدَ الخادمِ إقامةُ حرمةِ مخدومِهِ ، والمبالغةُ في حفظِ ناموسِهِ وتعظيمه ، وكثرةُ الكلامِ لا يُوَرِّثُ شيئاً من المقْت ، فلا حرج ، على كلامي كيفما خرج .

قال يسار : بارك اللهُ فيك ، وأبقاك لذويك ، فَمَا أدقّ نظرَك ، وأحسنَ في عواقبِ الأمورِ فكرَك ، وأصوبَ غوصَك على جواهرِ الانتقاد ، وأعربَ بَوْصَك[٧٣] إلى زواهرِ الاعتقاد ، فقُلْ ما بَدَا لك ، مما يزينُ حالي وحالَك ، فإنّ حرمتي حرمتُك ، وحشمتي حشمتُك ، فإنْ عظّمتني فقد عظّمْتَ نفسَك ، وإنْ وفّرت مالي فقد زِدْتَ كُدْسَك[٧٤] ، والخادمُ إذا لم يقصدْ رِفعةَ مخدومِه ، ويعدُّ ذلك من أكبرِ همومه ، ويسعى فيه ساعةً فساعة ، وفي كلِّ مكانٍ وعندَ كلِّ جماعة ، وإلاّ فيدلّ ذلك على خَساسةِ مقدارِه ، وقصور نظرِه ولؤمِ نجارِه[٧٥] ، وركاكةِ همَّتِهِ واستبذالِ حرمتِه . فقال أبو زنمة : أوّلُ شروطي يا ذا العظمةِ أنْ لا تقربَ المؤذين ، ولا تلتفتَ إلى الأشرارِ المغتابين ، ولا تضيعَ الأوقات ، في الإصغاءِ إلى القَيْنَات ، ولا تسمعَ كلام واش ، وتعدّ كلامَهُ أقلَّ من لاش . ثانيها أن لا تعجّلِ في فصلِ الحكومات ، بل تتعاطاها بالتفتيش والالتفات ، إلى أنْ تتجلّى صورتُها ، وتتعيَّنَ حقيقتُها ، فإذا وضحت لديْك ، وتجلّتْ مخدَّرةً حقيقتُها عليك ، اجهدْ فيها بالصدق ، واعملْ بما يقتضيهِ الحق . ثالثها أنْ لا تعوّدَ لسانَك الفحشَ والبذاءَة ، فإنّ في ذلك على المُلْكِ

---

[٧٣] وضوح رأيك وصفاء سريرتك وصدق مبادئك .

[٧٤] الكُدْس : المجتمع من كل شيء نحو الحبِّ المحصور والمال والدراهم .

[٧٥] النِّجار : الأصل والحسب .

أسوأ إساءة ، فإنَّ الكلامَ يؤثِّرُ في القلوب ، ويَنْفرُ من قبيحهِ الطالبُ والمطلوب ، وقد قيل :

جراحاتُ السِّنانِ لها التئامُ ولا يُلتامُ ما جرحَ اللسانُ

وقد قيل إن عيسى عليه السلام ، مر بجماعةٍ فى بعضِ الأيام ، فصادفوا كلباً أجرب ، فقال له : سَلَّمَكَ الله أذهب . فقال كلٌّ من أصحابه ، مما كان معبى فى جرابه ، من الاستنقاص ، وطلبِ البعد عنه والمناص ،وما سلّموا إلى عيسى حالَه ، بل سألوه عن كلامِه له ، وما دعا له . فقال : إنى عَوّدْتُ لساني ، ببيانِ ما فى جنانى ، وهو المقاصدُ الحسنة ، وتركُ الألفاظِ والعباراتِ الخشنة . وقيل : إنَّهُ مَرّ فى بعضِ الأوقات ، ومعه جماعات ، بكلبٍ من الأموات ، ملقى على مزبلةٍ فى جُملةِ القاذورات ، فوضع كلٌّ منهم يدَه على خَطْمِه[٧٦] ، وتكلّم فى رائحتِه عند شمِّه . فقال عيسى عليه السلام : ما أحسنَ بياضَ أسنانِه ، فقيل له عما سُمِعَ من بيانه . فقال : عَوّدْتُ لسانى بلفظِ الخير ، وأن لا يتكلمَ بما فيه ضير . وكما يجبُ على الملكِ كفّ اللسانِ الفصيح ، عن الكلامِ البذيِّ القبيح ، كذلك يجبُ عليهِ ، أن لا يصغى إليه ، ويتأمَّلَ قول الشاعر :

وَسَمْعُكَ صُنْ عن سَماعِ القبيح كَصَوْنِ اللسانِ عن النُّطْقِ بهِ
فإنَّك عند سماعِ القبيحِ شريكٌ لقائلِه فانتبه

ووُجد فى كتاب "آداب الصحبة" لأبى عبدالرحمن السلمى[٧٧] بيت ثالث :

وَكَمْ أزعجَ الحِرْصُ مِنْ طالبٍ يوافِى المنيةَ عن مطلبِه

---

[٧٦] خطمه : أنفه .

[٧٧] اسمه الصحيح والكامل : أبو عبدالرحمن محمد بن الحسين بن موسى المسلمى الصوفى ، توفى سنة ٤١٢ هـ والكتاب لا يزال مخطوطا .. فى مكتبة الأسد الوطنية ، بدمشق ، برقم ١٠٧ ، عام ٣٨٤٣ (٦٢٥ م ك مجموع ٥) . المحقق .

وهذا الأمرُ يا مخدوم ، لكــلِّ أحدٍ معلومٌ على العمـوم . وأمـا أكـابرُ السـلاطين ، والملوكُ الأساطين[٧٨] ، فَهَمْ أعلى مقاما ، أَن يكون الفُحْشُ لهم كلاما ، وأَنْ يجـريَ في مجالسِهم ، أو يُسمعَ من مُحادثِهم ومُجَالِسِهم . وكلُّ ملكٍ اعتاد مَجْلِسُه فاحشَ الكلام ، اختلَّ نظامهُ ومقتَهُ الخاصُّ والعامّ ، ونفرتْ عنــهُ قلـوبُ الرعِّيـة ، وبحسـبِ رغبةِ الرعيَّة ، تكونُ الممالكُ راضيــةً مرضيَّـة . وإذا نفـرتْ قلـوبُ الرعيَّـةِ كرهـوهُ ، وتوقعوا غيرَهُ ليقوموا معهُ وينصروهُ ، وإذا لم يوجدْ عقدوا الحقُود ، واستمروا أَذِلاَّءَ كاليهود ، والبغضةُ كامنة ، والحسـائفُ باطنـة ، فَتُقَـدَّمُ العـداوةُ وتتقـدّم ، وتتـأكّدُ وتتأزّم ، وإذا قُدُمِّت العداوة ، ذهبت من الصداقةِ الحلاوة ، فلا بُدَّ يوماً من الأيام ، أنْ تبرزَ رأسُها من جيبِ الانتقام ، وإذا وجدوا فرصة ، وثبوا عليهِ وقصـدوا قصـة ، كما جرى للفُرَيْرَة ، مع الهرَيْرَه[٧٩] . قال يسار : بيِّنْ لي هذه الأخبار .

[٥/٦] حكاية الفأر والقط والديك

فقال : ذكر شخصٌ معتبر ، من رُواةِ الخبر ، أنَّ في القديم ، كان رجـلٌ عديـم ، وعندهُ قِطٌّ ربّاه ، وأحسـنَ مَرْبَاه ، فكـان عنـدَهُ كـالولدِ الأعـزّ ، وأكـرمَ مـن ابـنِ الفراتِ[٨٠] عند ابنِ المعتزّ[٨١] ، وكان القطُّ قد عرف منهُ الشفقة ، وأَلِفَ منهُ المـودَّة والمقة[٨٢] ، فكان لا يبرحُ عن مبيته ، ولا يسعى لطلبِ قوتِـه ، فحصـل لـهُ هـزال ، وتغيَّر ما لهُ من أمر وحال ، لا عند صاحبه ما يغذيه ولا هو ذو قوَّةٍ على الاصطيـادِ

---

[٧٨] الأساطين من الملوك والعلماء هم الثقاة الحكماء المبرزون ،وهم أساطين الزمان . مفرده أسطون (معرب أُستون الفارسية) .

[٧٩] الفريرة والهريرة : تصغير فار وهرّة .

[٨٠] ابن الفرات : وزير عباسي من الأدباء (٨٥٥ - ٩٢٤) .

[٨١] ابن المعتز : خليفة عباسي ليوم واحد ، اكتسب شهرته من حيث هو شاعر وبلاغي وأديب ومولف .

[٨٢] الحب الصادق .

تغنيه ، إلى أنْ عجزَ عن الصيد ، فصار يسخرُ به من أراذلِ الفيران كلُّ عمروٍ وزيد ، وصار كما قيل :

خَلَت الرقَـــاعُ من الرِّخَـــا خِ[٨٣] وفَرْزَنَتْ[٨٤] فيها البيادِق[٨٥]

وتسابقتْ عُـــرْجِ الحميـــ رِ فقلتُ من عدمِ السَّوابِق

وسطا الغرابُ على العُقَـــ بِ وصادَ فرخُ البـــومِ باشـق

سكتتْ بلابِلَةُ الـزَّمَـــا نِ وأصبحَ الخُفَّاشُ ناطق

وأيضا :

وإذا خَـــلا الميـــدانُ مِـــنْ أسدِ رَقَصَ ابنُ عرسٍ وتومَّس[٨٦] النمس

وكان في ذلك المكان ، مأوى لرئيسِ الجَرْذَان ، وفي جوارهِ مخزنٌ لِسَمَّان ، فاجترأ الجرذان ، لضعفِ أبي غزوان ، وتمكَّنَ من نقلِ ما يحتاجُ إليهِ ، وصار يمرُّ على القطِّ آمناً ويضحكُ عليهِ ، إلى أن امتلأ وكرُهُ من أنواعِ المآكلِ والمطاعم ، وحصل لهُ الفراغُ من المخاوفِ والمزاحم ، واستطال على الجيران ، واستعان بطوائفِ الفيرانِ على العُدْوان .

فافتكر الجرذانُ يوماً في نفسه ، فِكْراً أدَّاهُ إلى حُلولِ رمسِه ، وهو أنَّ هذا القطَّ وإن كان عدوًّا قديما ، ومهلكاً عظيما ، لكنَّهُ قد وقعَ في الانتحال ، وضعفَ عن الاصطيادِ لقُوَّةِ الهزال ، وقوَّتي إنَّما هي بسببِ ضعفه ، وهذا الفتحُ إنَّما هو حاصلٌ بحتفِه ، ولكنَّ الدهرَ الغدَّار ، ليس لهُ على حالةٍ استمرار ، فربَّما يعودُ الدهرُ عليه ، وترجعُ صحبتُهُ وعافيتُهُ إليه ، فإنَّ الزمان ، الكثيرَ الدوران ، ينهبُ ويهَب ، ويُعطي

---

[٨٣] الرِّخَاخ : جمع رُخّ ، وهو طائر خرافيّ ، بالغ القدامى فى وصفه وقوته ، والمقصود به الملوك والسلاطين الكبار.

[٨٤] فرزنت : تمكنت فيه وانفردت به . (والفرزين : العبد) ومن معانيها أيضا : تحكمت وتقدّمت .

[٨٥] البيادق : واحدها بيدق ، وهو طائر من الجوارح فى حجم الباشق .

[٨٦] تومّس : اهتز طربا .

ما سلَب ، ويرجعُ فيما وهَب ، كلُّ ذلك مـن غـيرِ موجـبٍ ولا سـبب . وإذا عـاد القطُّ إلى ما كان عليه ، يتذكّرُ من غير شكٍ إساءتي إليه ، فيثورُ قلقُهُ ويفورُ حنقُه ، ويأخذهُ لأذايَ والانتقام سهرُهُ وأرَقُهُ ، فلا يقرُّ لي معهُ قرار ، فاحتـاج بـالاضطرار ، إلى التحـوُّلِ عن هـذه الديـار ، والخـروجُ عـن الوطـنِ المـألوف . ومفارقـةُ السـكنِ المعروف ، أمرٌ صعب ، مشومٌ[٨٧] الكعب ، فلا بدَّ من الاهتمام ، قبـلَ حلـولِ هـذا الغرام ، والأخْذِ في طريقةِ الخلاص ، قبلَ الوقوعِ في شركِ الاقتناص ، ثمَّ إنَّهُ ضـربَ أخماساً لأسـداس ، في كيفيَّةِ الخـلاصِ مـن هـذا البـاس ، فـأدّاهُ الفكـرُ إلى إصـلاحِ المعاش ، بينَهُ وبين أبي خراش[٨٨] ، ليدومَ لهُ هذا النشاط ، ويستمر بواسـطةِ الصلـحِ بسـاطُ الانبساط ، فرأى أنَّهُ لا يفيـدُه ، مـا يريـدُه ، إلاّ بـزرعِ الجميـل ، مـن كثـيرٍ وقليل ، خصوصاً في وقتِ الفاقة ، فإنهُ أجلبُ للصادقة ، وأبقى في الوثاقة ، ثمَّ بعـد ذلك يترَّتبُ عليها العهود ويتأكّدُ ما يقعُ عليهِ الاتفـاقُ من العقـود ، وهـو أن يلـتزمَ الجرذان ، أن يُقدِّمَ لأبي غزوان ، في كُلِّ غَدَاة[٨٩] ، من طيبِ الغِذاءِ ما يكفيهِ لغَـداءٍ وعشاء ، لأنَّ الشيخَ في الدرس ، قال : خيرُ المالِ ما وُقيت بهِ النفس ، إلى أن يصـحَّ جسدُه ، ويردّ إليهِ من عيشهِ رغدُه ، ويكـون ذلـك سـبباً لمعقـودِ الصداقـة ، وتـركِ العداوة القديمةِ المساقة ، وأن تشترطَ دوام المحبَّة ، وازدياد الـودادِ والصحبـة ، وأن لا يقصدَ أبو الهيثم[٩٠] أبا راشد[٩١] بشيءٍ من الأذى والشرورِ والمفاسد ، ويعمـل هـذا الهرُّ بموجب ما قال الشاعر :

---

[٨٧] مشؤوم .

[٨٨] كنية القط .

[٨٩] الغداة : ما بين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

[٩٠] كنية القط هنا .

[٩١] كنية الفأر هنا .

إنَّ الكرامَ إذا ما أسْهلوا ذكَـرُوا	مَنْ كـانَ يألفُهم في المنزلِ الخَشِنِ

ثُمَّ إنَّ الجرذان ، جمعَ من الأخبازِ والأجبان ، واللحمِ القديـد ، والمطعـمِ المزيـد ، مـا قدر على حَمله ، ونهضت قوَّتُهُ بنقله ، وقصد مقامَ الهرّ ، وسلّم عليـهِ سـلامَ مُكْـرِمٍ مُبرّ ، محبٌّ قديم ، وصديـق حميـم ، وقـدَّم مـا معـهُ إليـه ، وترامـى بكـثرةِ التـودُّدِ والاشتياقِ عليـه ، وقال : يعزُّ عليَّ ، ويعظم لديَّ ، أني أراك يا خيرَ جار ، في هـذا الضررِ والاضطرار ، ولكنَّ العاقبةَ إلى خير ، وسيُقبل السـعدُ بأحسـنِ طـير ، فتقـدَّمْ أيُّها الخيطل[٩٢] ، وكُلْ مـن هـذا المـأكل ، فـإذا سـددتَ خُلّتَـك ، كلَّمتُـك بشـيءٍ أستشيرُ بهِ خدمتك ، فإنَّهُ قد قيل :

إنَّ الصداقـةَ أولاَها السلامُ ومِنْ	يَغْـدِ السـلامِ طعامٌ ثمَّ ترحيبُ
وبعـدَ ذاك كلامٌ في ملاطفـــةٍ	وضِحكُ ثغـرٍ وإحسانٌ وتقريبُ
وأصْـلُ ذلك أن تبغي شمـائلهـا	بين الأحبَّـةِ تـأييـدٌ وتـاديـبُ
لم تنسَ غيباً ولم تملْ إذا حضروا	قـد زان ذلك تهـذيـبٌ وترتيبُ
إنَّ الكرامَ إذا مـا صادقوا صَدَقُوا	لم يثنهمْ عنـهُ ترغيبٌ وترهـيبُ

فتناولَ القطُّ من تلك السرقة ، ما سدَّ رمقَه ، وشـكر للجـرذان تلـك الصدقـة ، ولما أكل فمُهُ استحيت الحدقة . ثم قال لهُ : أنشِدْ ما أنت ناشد ، يا أبا راشد . قال إنَّ لى عليك من الحقوق ، مثلَ ما للجارِ الصدوق ، علـى الجـارِ الشـفوق ، وأردتُ أنْ يتأكّدَ الجوارُ بالصداقة ، وتترقى إلى درجةِ المحبةِ بأوثقِ عَلاقـة ، وإنْ كـانت بيننـا عداوةٌ قديمة ، فنترك من الجانبين تلك الخصلـةَ الذميمـة ، ونسـتأنف العهـود ، علـى خلافِ الخُلقِ المعهود ، وتدبيرَ الأمور ، على مصلحـة الجمهـور ، ونبـني القـاعدةَ في البين ، على ما يعود نفعُهُ على الجانبين . وأذكرُ لك أشياءَ تحملُكَ على تركِ خُلُقِـكَ القديم ، وتهديك في طريقِ الإخاءِ إلى الصراطِ المستقيم ، وهو أن أكْلـي مثلا ، مـا

---

[٩٢] الخيطل : السنور أو القط .

يُغذّي منك بدنا ، فضلاً عن أنْ يُظهرَ فيك صحّةً وسمنا ، ولكنْ إنْ أمَّنْتَنِي مكرَك ، وأعملت نظرَك وفكرَك ، ثم رغبتَ في صحبتي ، وعاهدتني على سلوكِ طريقِ مودّتي ، وأكّدتَ أيْ أبا غزوان[٩٣] ، ذلك بمغلّظاتِ الأيْمان ، إلى أن أستوثقَ باستصحابك ، وأبيتَ آمناً في مجيئك وذهابك ، ولو كنتُ بين مخاليبك وأنيابك ، فإنّي ألتزمُ لك في كلّ يوم ، إذا استيقظتَ من النوم ، بما يسدُّ خُلّتكَ ، ويُبقي مهجتَك ، صباحاً ومساء ، وغداءً وعشاء ، وإنْ قلتَ إنَّ ذلك شيءٌ مجهول ، فأنا أقدّرهُ بنظير هذا المأكول ، فإنَّ هذا الغِذاء ، يكفيك عَشاءً وغَداء . وما قصدتُ بذلك إلا رعايةً لحقِّ الجوار ، ولقد آنستني بتسبيحِك بالليلِ والنهار ، وأظنُّ وظني لا يخيب ، أنّك تُبْتَ إلى الله ورجعْتَ من قريب ، وكففتَ عن أذى الجيران ، وعففتَ عن أكلِ الفيران . ثم اعلمْ يا أسد الضَّياونِ[٩٤] ، أنَّ لي من هذه المؤونةِ عشرَ مخازن ، قد أعددتُها لمثلك ، وأنا أقدِّمُها لمنزلك ، وأدّخرُها لأجلك ، والقصدُ أنْ أكونَ آمنا من سطَواتك ، ساكناً في صدماتِ حركاتك ، وذلك إنما يُعْلَمُ بتأكيدِ الإخاء ، وتأييدِ المحبةِ والولاء .

فلما رأى الهر ، هذا البرّ ، أعجبتْهُ هذه النعَم ، وأطربَهُ هذا النغَم ، وأقسم طائعاً مختارا ، ليس إكراهاً ولا إجبارا ، أنّهُ لا يسلكُ مع الجرذان ، إلا طريقَ الأمانِ والإحسان ، وأنّهُ لا ينوء ، إليه بقصدِ سوء ، بحيث تتأكّدُ المحبّة ، وتزداد الصداقةُ والصحبة . فرجع الجرذان ، وهو بهذه الحركةِ جذلان ، وصار كلَّ يومٍ يأتي أبا غزوان ، بما التزم بهِ من الغذاء والعَشاء ، كلَّ صباح وعِشاء ، إلى أن صحَّ القطُّ

---

[٩٣] أبو غزوان : كنية القط هنا .

[٩٤] الضياون جمع ضَيْوَن : القط أو السنّور الذكر .

واستوى ، وسلمت خُلُوَاتُه[٩٥] بدنهِ من الخَوّ[٩٦] والخَوى[٩٧] وصارت المحبَّةُ تنعقدُ كلَّ يومٍ عقداً مجددا ، ويزدادُ كلٌّ منهما في الآخر محبّةً وتودُّدا .

وكان لهذا القط ديك ، وهو صاحبٌ قديم ، وصديقٌ نديم ، كلٌّ منهما يأنسُ بصاحبه ، ويحفظُ خاطِرَهُ بمراعاة جانبه ، فحصل للديك تعويق ، عن زيارةِ الصديق ، فغاب عنهُ مدَّة ، وكلٌّ منهما للفراق في شدّة ، فلم يتفقْ لهما لقاء ، إلاّ وقد حصل للقطِّ الشفاء ، وزال الشقاء . فسأل الديكُ صاحبَه ، بماذا صارت عِلّتُهُ ذاهبة ، وذاك الهزال ، بأيِّ شيْءٍ زال ، فأخبرهُ بأحوالِ الجرذِ أبي جوّال ، وأنهى أمرَهُ من الأوّلِ إلى الآخر ، وبالغ في الشّكرِ في الباطنِ والظاهر ، وأنّهُ كان سببَ حياتِه ، ونجاتِهِ من مخالبِ مُهلكاتِه ، وأنّهُ لم يكُن مثلُهُ في الأصحاب ، وقد صار أعزَّ الأصدقاء والأحباب . فغار الديكُ على الصاحبِ القديم ، وخشي أنْ يُفسدَ ما بينهما المفْسِدُ الذميم ، فضحك مستغربا ، وصفّق بجناحيهِ مُتعجّبا . فقال لهُ : ممَّ تضحك ؟ فقال : من سلامةِ باطنِك ، وانقيادِك لمداهنِك ، وحُسْنِ صنائِعِك ، مع المنافقِ مخادعك ، ومكارمِ أخلاقِك ، مع ناقصِ ميثاقِك ، وإصغائِك لهذا الخبيث بمُشَوِّهِ الكلامِ وَمُمَوِّهِ الحديث ، ومَنْ يأمنُ لهذا البَرِم[٩٨] ، الواجب القتل في الحِلِّ والحرم ، المفسد الفاسق ، المؤذي المنافق ، الذي خدعك حتّى أمِنَ على نفسِه ، واستطرق بذلك التمكُّنِ من أذاه ونحسِه ، فتسلّط في الأذى كما يختار ، وانهمك في الشرِّ آمِناً منك البوَار ، كلُّ ذلك بسببك ، ومكتوبٌ في صحائفِ كتبك ، مع أنك

---

[٩٥] القطع أو الأماكن التى سقط الشعر عنها وخلت منه بسبب المرض أو الجوع أو الهزال والعبارة كناية عن عودة العافية إلى بدنه .

[٩٦] الخَوّ : الجوع .

[٩٧] الخوى : خوىَ فلان أى تتابع عليه الجوع .

[٩٨] المُضْجِر ، الثقيل .

لستَ بمشكور ، ولا بالخير مذكور ، وإنّ الذي شاع وذاع ، وملأ عنك الأسماع ، أنك ستَحِلُّ عَقْدَه ، وتنكُثُ عهدَه ، وتنقضُ الأيمان ، وتجازي بالسيئةِ الإحسان ، وأنهُ لم يرَ منك ما يَسُرُّه ، وهو متوقّعٌ منك ما يضرُّه . وأعظمُ من هذا ، أنّه آذى ، وحشر فنادى ، وبالشرِّ بادَى . فقال[٩٩] : إنهُ أحياك بعد الموت ، وردَّك بعد الفوت ، ولولا فضلُهُ عليك ، وبِرُّهُ الواصلُ إليك ، لَمُتَّ هزالاً وجوعا ، ولَمَا عِشْتَ أُسبوعا ، ولكنه أشبعَ جوعَك ، وجلَب هجوعَك ، واستنقذ من مخاليبِ المنيةِ بعد ذهابك رجوعَك ، فشفاك وعافاك ، وصفا لك وصافاك ، وكفاك المؤونةَ وكافاك ، وأنك كافيتهُ مكافأةَ التمساح ، وجازيتَ حسناتِه بالسيئاتِ القباح ، ولم يكُنْ لإحسانهِ إليك ، ولا لما مَنَّ به عليك ، سببٌ ولا عَلاقة ، سوى طهارةِ نفسٍ زَكَتْ أخلاقَه ، ولا لإساءتك إليه ، سببٌ تنقمُ بهِ عليهِ ، إلاّ ما أسداه من مكارمِ شِيَمِهِ الواصلةِ إليك ، وفوائدِ نعمهِ السابغةِ عليك . وأشاع هذا كلّه ، في الشوارعِ والحاراتِ خصوصاً في هذه المحلّة ، ثمَّ أقسم بِمَنْ عطفَهُ عليك ، وساق فضلَهُ إليك ، وجعلَك محتاجاً إلى نوالِه ، وأسبلَ عليكَ لباسَ صدقاتِهِ وأفضالِه ، لَيَسْتَوفِيَنَّ منك ما صنعتَه وليحفظنَّ عليك ، ما عليه ضيَّعَهُ ، وليوقعنَّك في طوي بليَّة ، يعجزُ عن خلاصِك منها كُلُّ البريّة ، فيريحن منك جنس الفار ، ولَيُخلِدَنَّ ذكرَ هذه القضيةِ في بطونِ الأسفار . وبالجملة فهل سمعتَ أن جرذان صادقَ هِرَّة ، أو اتّفق بينهما مرافقةٌ في الدنيا ولو مَرّة ، ومناصحةُ القطِ والفار ، كمصادقةِ الماءِ والنار :

وانت كمودعِ الريحَ الترابا	فأنتَ كواضعٍ في الماءِ جمرا

---

[٩٩] مقول القول هنا على لسان الفأر ، ذلك أن الديك ادّعى كذبا أن الفأر راح يمنّ بصنيعه مع القط (وهو تقديم الطعام للقطّ وإنقاذ حياته) .

فلما سمع القطُّ هذا الكلام ، تألَّمَ باطنُهُ بعضَ إيلام ، وما صدَّق ولكن ظَنّ ، واشتغل خاطِرُهُ لأمرٍ عَنّ ، وتلهَّبَ واشتعل ، ومَن يسمعْ يَخَل ، وقال للديك : جزاك الله عني خيرا ، وما أكثر شفقتك طيرا ، ولكن مَنْ قال لك هذا المقال ؟ قال : أنت محب ، وعلى مودّةِ الجرذانِ مُكِبّ ، وقد قال سَيّدُ العربِ والعجم ، ﷺ : حُبُّكَ للشيْءِ يُعمِي ويَصُمّ ، قال الشاعر :

وَعَيْنُ الرِّضا عن كلِّ عيبٍ عَمِيّةٌ كما أَنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبدى المسَاوِيَا

ولقد غرَّك بلقيماتٍ من الحرام ، والسحتِ المنغمسِ في الآثامِ وجعلَها بمنزلةِ حبَّةِ الفخ ، فلا تشعرُ بها إلاَّ وأنت في السلخ ، قد وقعتَ ولا رفيقَ ولا أخ ، هناك يُعرف تحقيقُ هذا الكلام ، ولكن أنت الآن راقدٌ مثل النيَّام ، والكلامُ ما يفيد ، ولا بدَّ أَنَّ الله تعالى يجري ما يريد ، وما في إشاعةِ الكلامِ طائل ، وكأنَّك أنت القائل :

ظنَّ العذول بأنَّ عَذْلِيَ ينفعُ قُلْ ما تشا فعليَّ أنْ لا أسمع

وما قلتُ لك هذا الكلام ، إلاَّ من فرطِ الشفقةِ والضرام ، ورعايةِ لحقِّ ما وَجَبَ عليَّ من القيام ، وحفظاً للصداقةِ القديمة ، والمودَّةِ التى سحائبُها ديمة[١٠٠] ؛ وأنا لو غششْتُ كلَّ أحدٍ ما خطرَ لي أن أغشَّك ، وأن لا أستشهدَ على صدقي إلاَّ يقينَك الساكنَ عُشَّك . فَرَجَّح القطُّ جانبَ صدقِ الديك ، كفاك الله شر مَن يؤذيك . وقال في خاطرِه ، بعد ما أجال قِداحَ ضمائرِه : هذا الديكُ من حين انفلقتْ عنْهُ البيضة ، وسرحتُ أنا وإيَّاهُ من الصداقة في روضة ، وما وقفتُ لهُ على كذب ، ولا سمعتُ عنهُ أنَّه لزورٍ مرتكب ، مع أنهُ مؤذِّنٌ أمين ، بين ظهورِ المسلمين ، وهوُ بالصدقِ قَمين[١٠١] ، وما حمَلهُ على هذا إلاَّ المحبَّة ، وقديمُ المودَّةِ والصحبة ، وهو أبعدُ من أنْ يكذبَ ويخدع ، وأيُّ قصدٍ لهُ في أن يَغُشَّ ويتصنَّع .

---

[١٠٠] الديمة : المطر يدوم طويلا فى سكون .

[١٠١] جدير .كنية الفأر هنا .

وتردَّد أبو هريرة ، في تيهِ الحيْرة ، بين الديكِ والفُرَيْرة . ثمَّ قـال للديـك : وقـاكَ اللهُ شرَّ أعاديك ، فكيف أعرفُ صدقَ هذا الخبر ، وهل للدلالةِ على سوءِ طويتِهِ علامةٌ تُنظر ؟ قال : نعم ، وربِّ الحرَم ، علامةُ ذلك أنّهُ إذا دخل عليك ، ونظر إليك ، أن يكونَ منخفِضَ الراس ، مجتمعَ الأنفاس ، متوقعاً حلولَ نائبة ، أو نزولَ مصيبةٍ صائبة ، أو شمولَ بليَّةٍ غائبة ، متلفتاً يميناً وشمالا ، متخوفاً نكالاً ووبالا ، طائفاً يتنقب ، خائفاً يترقّب ، وذلك لأنّه خائن ، والخائنُ خائفٌ وهذا بائن . وبينما هما في المحاورة ، والمناظرةِ والمشاورة ، يتجاذبان القيلَ والقال ، دخل المفسدُ أبو جوَّال[١٠٢] ، وهو غافلٌ عن هذه الأحوال ، فرأى أبا اليقظان[١٠٣] ، يخاطبُ أبا غزوان[١٠٤] ، فَخَنَسَ[١٠٥] وقهقر ، وتخوّف وتشوَّر[١٠٦] ، وهو غافلٌ عمَّا قضاه اللهُ وقدره تقرَّر . فاشمأزَّ لرويتِهِ الديك ، وابرأَلَّ[١٠٧] وانتفض واشمعل[١٠٨] ، فارتعد الجرذانُ من شيخِ الديكة ، لمَّا رأى منهُ هذه الحركة ، وانتفش وانزوى ، وتقبَّض وزوى ، وأشبه بغدادياً بَلَعَ الدوا ، ونظر يميناً وشمالا ، كالطالبِ للمفرِّ مجالا ، والقطُّ يراقبُ أحوالَه ، ويتميَّزُ حركاتِهِ وأفعالَه ، فتحقّق ما قالهُ أبو سليمان ، ونظر إلى الجرذان ، نظرَ الغضبان ، وهمزَ واكفهرّ ، ورقصت شواربهُ وازبأرّ[١٠٩] ،

---

(١٠٢) كنية الديك هنا .

(١٠٣) كنية الديك هنا .

(١٠٤) كنية القط هنا .

(١٠٥) خنس : تأخّر .

(١٠٦) تشوّر : تردد ، وشعر بالخجل .

(١٠٧) ابرألّ : تحفّز للشر .

(١٠٨) اشمعل : وقف وارتفع متحفزاً للعدوان .

(١٠٩) ازبأر : انتفخ متضخما .

فاضطربَ الجرذان ، وطلبَ الأمان ، فنسي السِّنَّوْرُ[١١٠] العهودَ والأيمان ، ونفض عرقَ العداوةِ القديمةِ والعدوان ، وطفر على الجرذان ، وأدخلَهُ في حيِّزِ خبرِ كان ، وأخلى منهُ الزمانُ والمكان .

وإنما أوردتُ هذا التنظير ، أيُّها الصاحبُ البصير ، لفائدتين ، جليلتين عظيمتين : إحداهما ، الإعلامُ بالتحقيقِ أنّ العدوَّ العتيق ، لا يتأتّى منه صديق . ثانيتهما ، الإعلام ، بأن الواجبَ على الحكام أنْ لا يعجلوا بالانتقام ، فربما يورثهم الاستعجال ، الندامةَ في المآل ، في حالةٍ لا يفيد ، العذل والتفنيد ، وعند ذلك ، لا يمكنُ التدارك ، بل إذا نُقل إليهم ، وأُورد عليهم ، ما يثيرُ غبارُ الغضب ، ويحمي من نارِ السخْط اللهب ، لا يفلتون زمامَ التثبّتِ والتفكُّر ، من أناملِ التأنّي والتدبُّر ، خصوصاً السلاطين ، والملوكُ الأساطين[١١١] ؛ فإنّ قدرتَهم واسعة ، وأطرافَ أوامرِهم شاسعة ، وأوهاقَ[١١٢] اختيارِهم طويلة ، ومرامي المرادِ لمرامِهم مُنيلة ، وآذان الكونِ لأوامرِهم سميعة ، وعينَ المكان لمراسيمِهم مراقبةٌ مطيعة ، فمهما أرادوا من النفعِ أوصلوا ومهما اختاروا من الضرِّ فعلوا ، وذلك في كلِّ حينٍ ، ممسين ، أو مصبحين . ولذلك قالوا : القاضي ، لا يحكمُ حكماً إلا وهو راضي ، ولا يحكمُ وهو غضبان ، وهو مشغولُ الخاطرِ ولا غَرْثَان[١١٣] ، فإنْ وجدوا طريقاً إلى الخيرِ بادروا إليهِ ، وإذا قصدوا إيقاع شرٍّ توقفوا لديهِ ، ولايهملوه ، بل يسبروا غورَه ، إلى أنْ يقفوا عليهِ ، فربما يكونُ من مُدخلةِ عدوٍ أو حاسد ، أو بتعاطي مَنْ لهُ غرَضٌ

---

[١١٠] السنور : القط .

[١١١] انظر هامش رقم (٧٨) .

[١١٢] أوهاق ، مفردها وهق ، وهو الحبل فى أحد طرفيه أنشوطة ، يطرح فى عنق الدابة أو الإنسان حتى يؤخذ .

[١١٣] جوعان .

فاسد . ثمَّ اعلمْ يا ذا التبصرة ، والفضلِ والتذكرة ، إنّهُ مَنْ يعمــلْ مِثقـالَ ذرَّةٍ خـيراً يـرَه ، ومَنْ يعملْ مِثقالَ ذَرَّةٍ شرّاً يـرَه .

فلمّا وعى يسار ، هذا الحوار ، قال : ما أزهى هذه النصائح ، وأذكى ما لها مـن روائح ، وأنا أُقبلُ عليها وأَقْبلُها ، ولا يـزال مرتشـفُ سمعـي مُقبلهـا ، وعلـى ذلـك أعاهدُك ، ومهما رأيتَ غيرَهُ أعاقدُك ، فإنهُ للمُلـكِ عـينُ المصلحـة ، وللمَلِـكِ زيـنٌ ومَسْلَحة[١١٤] . وأيضاً فاشْتَرِطْ ما بـدا لك ، ممـا يزيـنُ حـالَك ، وصـونُ مـا لـك ومالَك . قال : وأريدُ أن تكـونَ حرمـتي موقّـرة ، وكلمـتي معتـبرة ، ومـنزلتي علـى أقراني مرتفعة ، ومكانتي في الممالكِ متسعة ، بحيث تكونُ مزيـتي ظـاهرة ، ومرتبـتي لأكفائى باهرة ، وكلامي في محـلِّ الإصغـاءِ والقبـول ، متصـلاً بالنجـاح في السـؤل والمسؤول فـإنَّ حُسْـنَ العهـد ، وحفـظَ الـودّ ، ورعايـةَ الحقـوقِ القديمـةِ السـابقة ، والخدمةِ المسـتمرةِ المتلاحقـة ، دليـلٌ علـى كمـالِ المـروءَةِ والوفـاء ، ونهايـةُ الفتـوَّةِ والصفاء ، لا سيما من الملـوك والأكابـر ، في حقِّ خَدَمِهم الأصاغـر . ففي الحقيقـةِ رفعةُ الخادمِ وكمالُ حرمتِه ، من رفعةِ مخدومِهِ وعزّته ، وكلُّ مَنْ رفع قَـدْرَ خدَمِـه ، وحافظَ على حفظِ حشمِه ، ومنع جانبَهم ، ورعى حاضرَهم وغائبَهم ، إنمـا حفـظ أَطراف حشمته ، وراعى جانبَ عظمتِه وحرمته ، وكلُّ كبيرٍ امتهن خُدّامَـه ، وأذلّ جماعتَهُ وقوّامَه ، ولم ينزلْهم منـازلَهم ، ولا عـرف فضـائلَهم ، وسـاوى بـأواخرِاهم أوائلَهم ، فإنّما أَضاع مكانةَ نفسِه ، ولم يفرّق في الفكـر بـين يومِـهِ وغـدِهِ وأمسِـه ، وإذا لم يصغ الملـكُ لكـلام الوزيـر ، واسـتقل بأوضـاعِ ناصحـة والمشـير ، فابتذلـهُ وانتهرَه ، واستقلّه واحتقرَه ، خصوصـاً في المجـامعِ والمحافـل ، بـين العسـاكرِ والجحافـل ، فأيُّ حرمـةٍ تبقى لهُ عند البقيَّة ، من سائرِ الخدَم والرعية ؟ وأيُّ مرسومٍ

---

[١١٤] سلاح وقوة .

وكلام ، يُسمعُ لهُ عند العوام ؟ فيتكدَّر خاطرُه ، وتتغيرَ سرائرُه ، فيدعوهُ ذلك والعياذُ با لله إلى شقِّ العصا ، إذ صار على بابِ مخدومِهِ معلّقاً كالخصا ، وقدرُهُ في المكانة ، وقولُهُ في البلاغة ، صار كالزيفِ في الصاغة ، والفَسْوِ[115] في الدِّباغة ، وناهيك أيُّها الخبيرُ ما قالتهُ لأُمِّها الزاغة . قال يسار ، أخبرْني بذلك يا جُهَيْنةَ الأخبار .

[٦/٦] قصة زاغة وأمها مع البومة وابنها

قال : ذكر أنَّ زاغة[116] ، في بلد مراغة ، انتشأ لها فرخة ، انتشر لها بين الطيور صرخة ، وكانت ذاتَ بهجةٍ لطيفة ، وصفاتٍ ظريفة ، وتربت يتيمةً[117] بالدلال ، وجمعت بين فنونِ الكمال ، فلماً بلغت مبلغَ الزواج ، خطبها من صنوفِ الطيرِ الأزواجُ وترادفت عليها الخُطّاب ، ودخلوا على أُمِّها في ذلك من كل باب ، فكانت تأبي عليهم ، ولا تلتفتُ إلى بذلهم ولا إليهم ، إلى أنْ بلغ خبرُها إلى بومة ، كريهةِ الوجهِ مشومة ، بينها وبين أمِّ الزاغةِ صداقةٌ قديمة ، فخطبتْها لابْنِها ، وأبانت للطيرِ مزيدَ غَبْنَها ، فاستشارت الأمُّ ابنتَها ، وأظهرتْ في ابنِ البومةِ رغبتَها . وقالت : أيْ ربيبةَ الخير ، قد رغبَ فيكِ أصنافُ الطير ، فكنتُ أُدافعُهم ، وأُسوِّفُ بهم وأُمانعُهم ، وقد اشتُهر صيتُكِ بين الكبراء ، وخطبَكِ منّي الأمراءُ والوزراء ، وأنا على المطاولة ، والردِّ والمقاولة ، وقد استحييتُ منهم ، واختشيتُ غائلةَ ما يصدر عنهم ، ولم أفعلْ ذلك ، إلاّ رعايةً لحالِكِ ، وخوفاً من زوجٍ ظالم ، بقدركِ غير عالِم ، يستضعف جانبَكِ ، ويكرهُ أهلَكِ وأقاربَكِ ، ثم لا نقدرُ على مقاومتِه ،

---

[115] الرائحة النتنة .

[116] من أنواع الغربان ، وهو صغير نحو الحمامة أسود برأسه ميل إلى البياض .

[117] يتيمة : فريدة لا نظير لها .

ونتعب في مرافقتهِ ومفارقتـه ، لا سيما أنْ صـار بينكما معاشقة ، فيصـير نِكَاحُكمـا كنكاحِ الدماشقة[118] ، كلٌّ يضمرُ السوءَ لصاحبِه حالةَ المعانقة ، وكـلٌّ يـا أحسـنَ طائرٍ ، معنيٌّ بما قال الشاعر :

رأيتَ الذى لا كُلُّهُ أنتَ قـادرٌ عليـه ولا عن بعضِه أنتَ صابرُ

ونعـوذُ بـا للهِ مـن اختـلافِ الـوداد ، وأنْ يصـيرَ نكـاحَ السُّنَّةِ كنكـاحِ أهـلِ بغداد[119] ، فكنتُ لهذه الأمور ، أخشى تقلُّباتِ الدهور ، وأردّ خطابَ الجمهور .
وقد خطَبَكِ ياكريمة ، ابنُ صاحبةٍ قديمة ، وهي البومةُ الفلانية ، وهي صاحبةٌ هنيّة ، وأخلاقُ ابنهِا رضيَّة ، وهو شخصٌ فقير ، ضعيـفُ الحـالِ حقـير ، نُقلِّبـهُ في أيدينـا كما نريد ، ونتصرفُ فيهِ تصرُّفَ المـوالي في العبيـد ، لا في الطيرِ جنسٌ يحبـهُ ، بـل كلُّهم يكرهُهُ ويسبُّه ، ولا لهُ ناصرٌ علينـا ، ولا جـارحٌ يـدلىٌ بـهِ إلينـا ، فهـو تحت طاعتِكِ كما تحبين ، وفي رِبْقَةِ إرادتِـكِ كمـا تريديـن ، لا كالحمَامِ يتطـوّقُ بطـوْقِ الفخر ، ولا كـالهدهُد يتتـوّجُ بتـاجِ الكـبر ، فمـا رأيُـك في هـذا الأمـر ؟ فقـالت الزويغة[120] مقالةً بليغة : "حفظتِ شيئاً ، وغـابتْ عنـكِ أشياءُ" مـا أصنـع بـزوجٍ مُمْتَهَن ، وَبِبُغْض الأجناس مُمْتَحَن ، مكسورٌ ، مهجور ، يُتَطَيَّرُ منـهُ بـين الطيـور ، هذا يخطفُه ، وهذا يلقفُه ، وهذا ينقرُه ، وهذا ينترُه ، وهذا يأسرُه ، وهذا يكسرُه ، وإذا لم يكُن للزوجِ حُرْمة ، ولا تُسمعُ لهُ كلمة ، خصوصا عند زوجتِه ، وأهلِ بيتـهِ وعترته ، فأيُّ قدرٍ يكونُ لهُ عند غيرِها ؟ وأنّى ينشرُ بالسَّعْدِ جناحَ طيرِها ؟ وقد قال ربُّ السـمواتِ والأرض ، ومـالكِ الطـولِ والعـرض ، والبسـطِ والقبـض ، والرفـعِ

---

[118] أهل دمشق .

[119] لعلّه يقصد زواج المتعة ؟!.

[120] تصغير زاغة .

والخفض : ﴿الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بعضَهم علَى بَعْضٍ﴾[١٢١] وقال مَنْ جعلهم قوّامين وذواتَنا مُنعوجة : ﴿وللرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾[١٢٢] ومقدارُ المرأةِ بين جيرانِها وأهلِها ، إنَّما يُعرفُ بقدْرِ حُرْمَةِ بَعْلِها ، وأنا كيف يبقى حالي ، وبالي ، وما عليَّ وما لي ، وبين جيراني وصواحبي ، وأهلي وأقاربي ، إذا كان زوجي ذليلاً مهينا ، محتقراً بين الناسِ حزينا ، واللهِ لا يكونُ لي بزوْج ، ولو بلغ رأسُهُ إلى الأوْج ، وما أمدُّ إليهِ باعي ، ولا يُرفعُ لهُ في مركبِ الزوجية شراعي .

وإنَّما أوردتُ هذا المثال ، يا شِبْهَ الغزال ، لأُبيِّنَ أنهُ إذا لم يكُنْ لي في دارِك عزّة ، ولا يرفعُ مكانتي ومكاني نشاطٌ وهزة ، فلا يرجوني الصديقُ الموافق ، ولا يخافُني العدوُّ المنافق ، فيختلُّ أمري ، ويضيعُ في غيرِ حاصلٍ عمري ، وإذا ما أُهملَ مرسومي ، تعدَّى الوهمُ إلى مخدومي . قال يسار : ابشرْ أيُّها الوزيرُ المشفق ، والكبيرُ المحقق ، والحكيمُ الماهرُ المدقق ، بالدرجةِ العلية ، والمرتبةِ السنية ، والكلمةِ المقبولة ، والوظيفةِ الفاضلة لا المفضولة . ولكنْ أنا أيضاً لي عليك شروط ، تزينُ عقودها الملتفاتِ في المروط ، هنّ لدارِ السعادة أبواب ، وللترقّي إلى درج السيادة أسباب ، ومثلُك لا يدلّ على صواب ، وهي : أن تتقلَّدَ العمل ، مبسوطَ الأمل ، بجميعِ ما قررتُه ، وتتعاطى ملازمةَ كلِّ ما حررتُه ، من إقامةِ ناموسِ المملكةِ المبجلة ، ورعايةِ شرائطِ السلطنةِ المفضلة ، ومحافظةِ جانبِ مخدومِك ، والإنهاءِ إلى مسامعِهِ جميعَ ما في معلومك ، وتقديمِ مصالحِهِ على مصالحك ، ومعاملةِ رعيتهِ بالجهدِ في نصائحك ، وكفِّهِ عن المظالم ، والعدولِ بهِ عن طريقِ المآثم ، والغيرةِ على دينهِ ، واعتقادِهِ ويقينه ، أكثر من الغيرةِ على دنياه .

---

[١٢١] قرآن كريم ، سورة النساء : ٣٤ .

[١٢٢] قرآن كريم ، سورة البقرة : ٢٢٨ .

وفي الجملةِ لا يكونُ المُلْكُ إلاّ لِلّه ، بحيث لا تكون ، من قبيل "لِمَ تقولـون مـا لا تفعلون" وإيّاك والرِّشا والبِرْطيل[١٢٣] ، والدخولَ لعَرَضِ الدنيا في الأبـاطيل ، وتـوقَّ ظُلْمَ الرعية ، للأغراضِ الدنيّة ، أو الأعـراضِ الدنيويـة ، واتّقِ دعـوةَ المظلـوم ، وأنْ يصلَ سهامُها إلى مولانا المخدوم . واعلمْ أننا إنْ بنينا أسـاسَ الأمـور ، على قواعـدِ الظُّلْمِ والشرور ، فنحن من الخاسرين ، ومن الذين ظلموا ، واللهُ لا يحبُّ الظالمين ، وسيقطعُ دابرَ القومِ الذين ظلموا ، والحمدُ للهِ ربِّ العـالمين ، بـل ابْـنِ الأمـورَ علـى أساسِ التقـوى ، فـإنّك بـالتقوى[١٢٤] تقـوى[١٢٥] ، وبراويتهـا تـروى ، فَمـن تحلّـى بالقضايا العاطلة ، وتشبّث بأذيالِ الأمورِ الباطلة ، ولم يقصدْ وَجْـهَ اللهِ في حركاتـهِ وسكناته ، وأدخلَ شوائبَ الرياءِ والسمعةِ في أعمالهِ وطاعاته ، لا يمشي لـهُ حـال ، ولا يصلح لهُ مالٌ ، ويصيبُهُ ما أصابَ السائح ، الذي ادَّعى إخلاصَ العملِ الصّالح ، ثـمَّ شـرَع في حركتِه ، وأخلـص فظهـرتْ آثـارُ براءَتِـه ، فلمّـا قصـد الأعـراضَ الدنية[١٢٦] ، فسد ظاهرُه بفسادِ النيّة . فسأل المشرقيّ ، عن حال ذلك الشقيّ .

[٧/٦] قصة السائح ذي الوجهين

قال : كان في أقصى بلادِ الصين ، طوائفُ غيرُ ذي عقلٍ رصـين ، أنبـت لهـم في بعض الجبال ، زَرّاعُ القدرةِ ذو الجلال ، في رياضِ النزاهـةِ والكمـال ، شـجرةً ذات بهجةٍ وجمال ، أصلُها في أرضِ الملاحـةِ ثـابت ، وفرعُهـا في أصـلِ المحاسـنِ نـابت ،

---

[١٢٣] الرشوة .

[١٢٤] الإيمان .

[١٢٥] تصير قويا .

[١٢٦] أي أعراض الدنيا الزائلة .

وغصنُها إلى سماءِ العُلا واصل ، وورقُها كعُقُـود الجُمَـان[١٢٧] بالبهـاءِ متواصـل ، لا سَمُومُ الصيفِ يزيلُ زهرتَها ، ولا عواصِفُ الخريفِ تذهبُ خضرتَهـا ، ولا صرصـرُ الشتاءِ يعرّي أغصانَها ، ولا لواقحُ الربيعِ تُذوي أفنانَها ، فأعجب بحسنها أهلُ تلـك الديار ، وأشربوها إشرابَ بني إسرائيل ، عِجْـلاً جَسَـداً لـه خُـوَار ، ثـمَّ تفـانوْا في حبها ، وتهالكوا على قربها ، فعبدوها كما عبـدوه ، واعتقدوهـا كمـا اعتقـدوه ، واستولي على عقولِهم الشيطان ، وصار يخـاطبُهم مـن الشـجرةِ واحـدٌ مـن الجـان ، فزادهم فيها اعتقادا ، وعمَّهم بعبادتها كُفراً وعنادا .

فقدِمَ تلك البلادَ فقيرٌ من السائحين ، وهو مـن عبَّـادِ اللهِ الصـالحين ، فلمَّـا رأى تلك الحالة ، أفزعهُ ذلك وهاله ، وأخذتهُ غيرة الإسلام ، وغضبـةٌ دعتـهُ إلى القيـام ، فأخذ فأساً وقصدَها ، ليقطعَ ساقَها وعضدَها ، فلمَّا قرب إليها ، وأراد وضعَ الفأسِ عليها ، سمع منها صوتاً خَوَّفَه ، وعن مرادِه أوقفـه ، فقـال : أيُّهـا الرجـلُ الصـالح ، والقادمُ السائح ، فَيم ذي الهمَّة ؟ وعـلامَ هـذه العزمـة المهمَّـة ؟ ومـا قصـدك بهـذه الصدمة ؟ فقال : غيرةٌ لله ، أيُّها المضلُّ اللاّه ، شجرةٌ تعبَـدُ مـن دون الرحمـن ، ولا يَغارُ لهذا الشانِ إنسان ، فَلأقطعنَّكِ أيَّتها الشجرةُ المضلّة ، ولأجعلنَّكِ حطباً ومُثْلَـةَ ، فإنَّك قد أضللتِ كثيراً من الناس ، وفعلتِ ما لم يفعلْهُ الوسواسُ الخنَّاس ، وإنَّـك لا تنفعين ، ولا تضرين ، سوى أنَّك إلى النـار تجرّين . فقالت : أيُّها الرجـــلُ الزاهـد ، الصـالحُ العـابد ، أنـا مـا آذيتُـك ، ولا ضررتُـك ، وإن رأيـتَ نَفَعْـتُك وبَرَرْتُـك ، وحاشـاك ، أنْ تؤذيَ مَنْ لا آذاك . وأنــا أعلـمُ أيُّهـا الرجـلُ الكبـير ، أنَّـك غريـبٌ وفقير ، وما أقدمَك على هذا الباس ، إلاّ الغربةُ والإفلاس ، فَكُفَّ عن هـذا الأمـر ،

---

[١٢٧] الجمان : اللؤلؤ .

وأطفىءْ نائرةَ[١٢٨] هذا الجمر ، وارجعْ إلى منزلك ، واشتغِلْ بطاعتك وعملك ، وأنا أوصلك كُلَّ نهارٍ دينارا ، ذهباً نضارا ، كاملاً وافياً معيارا ، يأتيك هيناً ميسرا ، كلَّ صباحٍ مبكّرا ، إذا استيقظتَ من رقدتِك ، تجدهُ موضوعاً تحتَ وسادتك ، وهذا هو الأَلْيَقُ بحالِك ، وأفرغُ لخاطرِك وبالِك ، وأخلصُ لك من ورطاتِ المهالك . وإذا أصلحتَ مع اللهِ سريرتَك ، وطهَّرتَ من أدناسِ الدنيا سرَّك وسريرتَك ، فاتركْ الناسَ ولو كانوا حيرتَك ، أو أهلَك وعشيرتَك ، وعليك بخويصةِ نفسِك ، فإذا أنقذتَها من الورطات فأمْسِكْ . وقد قال منزّلُ القرآنِ لِيحرسَكم ﴿ياأَيُّهاَ الذِين آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ﴾[١٢٩] فلما سمع بالدينار ، ألهاهُ الطمع والاغترار ، فبردت همَّتُه ، وضعفتْ في اللهِ قوتُه ، وتركها ورجع ، وترك القيامَ وهجع . فلمَّا أصبح الصباحُ ، وحاز بالصلاة الفلاح ، بادر إلى الفراش ، وطلب المعاش ، فوجد الدينار ، كما ذكرُ الشيطانُ وأشار ، فالتقفهُ وابتهج ، وتحقق أنه فتوحُ بابِ الفرج ، واستمرَّ على ذلك أُسبوعا ،والذهبُ عندهُ مجموعا . ثمَّ بعد ذلك قصدَ الفراشَ ، بسرورٍ واهتشاش ، فلم يجدْ شيئاً من الذهب ، فتحرَّق قلبُهُ والتهب ، فأخذَهُ الحنْقُ والقلق ، وأخذ الفأسَ وانطلق . فلمّا قرب من الشجرة ، نادتْهُ بألفاظٍ عَكِرَة : قِفْ مكانَك ، واذكرْ شانك ، وقل لي فى ماذا جيت[١٣٠] ، فلا حَييتَ ولا حُيِّيت ! فقال : جئتُ لأقطعَكِ ، ومن الأرضِ أقلعَكِ ، غيْرةً على الدين ، وقياماً بحقِّ ربِّ العالمين . فقالت : كذبْتَ إنّما غدرت وسَبَبْتَ ، وقمتَ وقعدتَ ، وبرقتَ ورعدتَ ، لِفقدِك الذهب ، الذي عنك ذهب . وإنّما كانت الغيرةُ الصحيحة ،والقوةُ المليحة ، الناهضةُ النجيحة ، القومةَ الأولى ، فإنها كانت

---

[١٢٨] النائرة : العداوة والشحناء .

[١٢٩] قرآن كريم ، سورة المائدة : ١٠٥ .

[١٣٠] مخفف : جئت .

والحقُّ قد تجلّى ، فلو قامت الخلائقُ لردِّك ، واجتهدوا في مَنْعِكَ وصدِّك ، لَمَا ظفروا بك ، ولا قاموا بحروبك . وأما الآن فهذه الغضبة ، غضبةُ الفاجرةِ الصخبة ، التي حصلت بواسطةِ عدمِ الدينار ، فهي التي آثارت منك ما أثار ، فلوْ دنوْتَ مني خُطوة ، وتقدمتَ من مقامك رَتْوة[131] دققتُ عنقَك ، وشققتُ زقّك ، وقد قُلْتَ إني لا أضرُّ ولا أنفع ، ولا أجلبُ ولا أدفع ، فأمَّا المنفعة ، ياصلمعة بن قلمعة ، فإنك رأيتَها ، في الدنانير التي لقيتَها ، فتقرر النفع ، يا مستحقَّ الصفع . وأمَّا المضرَّة ، فَقِسْها على المنفعةِ يا أبا مُرّة[132] ، فإن الذي لهُ قدرةٌ على المبرَّة ، ربَّما يقتدرُ على الإيذاءِ والمضرَّة ، وإنْ شئت تقدَّم ، وَجَرِّبْ لتعلم ، واخبُر ، واسبِرْ ، وانظرْ كيف أَنْثرُ منك الرأس ، بهذه الفأس ، وحقّق وصدّق ، أنّ كتفَك ، حملَتْ حَتْفَك . فَبُهِتَ الرجل ، وتحيَّر ، وخاف ، وخار وقهقهر ، وانقطع حبلُ رجائِه ، وأفلتَ يتلفَّتُ إلى ورائه .

وإنما ذكرتُ هذا لتعلم ، أيها الوزيرُ المكرم ، أن كلَّ أمرٍ لا يُقصدُ بِهِ وَجْهَ الله ، فإنَّ عقباهُ الندمُ وإنْ حَسُنَ أُولاَه ، وكلُّ قصدٍ ليس لغرضٍ صالح ، فإنَّ شجرةَ غراسهِ لا تُثمرُ إلاَّ الفضائح ، فَتَرْكُ الشروعِ فيهِ أَوْلى ، وَمَحْوُ صورتهِ من لوحِ الضميرِ أجلى . ومن لم يترك ما لا يعينه ، وقع فيما يعنيه ، وحلّ به من الفضيحةِ والإيلام ، ما حلَّ بذلك المفسِدِ فى مدينة السلام . فسأل الزنيمُ المشرقيّ ، البصيرَ الأفْرقيّ ، كيف كانت تلك الفضيحة ، ليأخذَ منها لنفسِه النصيحة .

---

[131] خطوة .

[132] أبو مّرة : كنية الشيطان .

[٨/٦] قصة مفسد في مدينة السلام

قال كان في مدينةٍ بغداذ[١٣٣] صانعُ حريرٍ أستاذ ، خبيرٌ له جار ، سَنِيُّ الجوار ، وزوجةٌ تخجلُ البدرَ عندَ الكمال ، والشمسَ قبل الزوال . وذاك الجارُ الجانى ، يدعى ابنَ الفرغانى ، ففى بعضِ مَطَارِه[١٣٤] ، لمح زوجةَ جاره ، فتعلّق قلبُه بها ، واشتعل من هواها نارُ أحشائه بهبوبها ، فأخذ يلهو بها ، إلى أنْ أفسدَها ، وإلى الضلالِ أرشدها . وكانَ الزوجُ مغرماً بها ، فوجد على حالِها منبها ، فصار يُراقبُها من كَلَفِه[١٣٥] ، ولا يغفلُ عنها لشدَّةِ شغفه ، ويجتهد فى كَفِّها عن الخيانة ، وأن تحفظَ الغيبَ وتؤدّيَ الأمانة . ففى بعضِ الأوقات ، رأى بعضَ الطرقات ، صياداً ومعه طير ، قد أوثقَ رجليْه بسير ، فسأله عن طيره ، وإلى أين قَصْدُه فى سيره . فقال : هذا من الجوارح ، والسوانح لا البوارح ، يحاكى الصوادح[١٣٦] ، ويباكي النوائح ، وفيه سرٌّ عجيب ، وأمرٌ غريب ، وهو أنه إذا كان فى بيت ، ورأى فيه على صاحبه كَيْتٌ وكيت ، أخبر زوجَها خَبَرَه ، وقصَّ عُجَرَهُ وبُجَرَه[١٣٧] ، وقد رغب فيه رئيسٌ يشتريه ، فأنا ذاهبٌ به إليه ، أقدمُه لديْه ، وأَمْتَنُّ به عليه . فَرَغِبَ فيه الحريريُّ واشتراه ، وأتى به إلى دارِه وقال لزوجتِه أكرمي مثواه ، وأحسني مأواه فإنه يُخْبِرُ بكلِّ ما رآه ، وهو من أحسنِ صفاته ، وأعجبِ أمورِه وحكاياته ، ومهما فعلت زوجةُ الإنسان ، ذكرَه على وَجْهِهِ كما كان . فقالت : نحن بحمدِ اللهِ فى بركة ، آمنون مما يُنْقَلُ عَنّا من حركة ، فإن رأى شيئا يَهُوله ، لا يكتمُه عَنّا

---

[١٣٣] بغداذ : بغداد ، ولفظها بالذال على أصلها الفارسي ، اتساقا مع دواعى السجع .

[١٣٤] المطارة : البئر الواسعة ، وربما كان يعنى : فى بعض تحركاته وتنقلاته .

[١٣٥] شدّة حبه .

[١٣٦] الصوادح : الطيور التى تطرب فى غنائها .

[١٣٧] قصّ عُجره وبجره : ذكر عيوبه وأسره كله ، ما أخفى منها وما أبدى .

بل يقولُه ، فتركه الزوجُ وذهب . فدخل الحِرِّيفُ الملتهب ، فرأى المرأةَ وحدَها ، والطيرَ عندها ، فأخذ في المهارشة ، ومدّ يَدَهَ للمناوشة ، فقالتْ : كُفّ يدَك واحفظْ الذمام ، فإنّه قد حصل علينا رقيبٌ نَمّام ، فَكُفّ يدَك ياحبيب ، لئلا نُصابَ ولا نُصيب ، وتفكرْ في قول الشاعر المصيب :

إذا ماخلوتَ الدهرَ يوماً فلا تَقُلْ خَلَوْتَ ولكن قُلْ عَليَّ رقيبُ

فقال : وأين الرقيبُ ياستَّ الجارِ والحبيب ؟ قالت : هذا الطير ، ليس غير ، فإن له خواصَّ عجيبة ، وفيه أشياءُ لطيفةٌ نجيبة ، منها أنّه نَمّام ، ومهما رآه أو سمع من الكلام ، فإنه يفضُّ عنه الخِتام ، ويذكرُه لصاحبِ البيتِ على التمام .فقهقه بصوتٍ عال ، وسخر منها وقال : صدق سيدُ المرسلين ، الذى قال "النساءُ ناقصاتُ عقلٍ ودين" ، ثم أقسم بحياتها ، وحُسْنِ ذاتها وصفاتها ، ليولجن [........][138] في الكثيب ، بمرأى من ذلك الرقيب ، حتى إذا أفرغ من أمره ، يمسح في منقاره [.........][139] ، ليعلمَها صحةَ ما أوهمها ، ثم حاورها وغلبها ، وساورها وقلبها ، وحل الصدر بالتكة ، وتعلقت الحلقة بالسكة ، وامتزجت الألف العربية بالكاف الكوفية . واستمرا في أخذ وعطاء ، بلا غَطاء ولا وِطاء ، كأنهما أفواجُ الحجاج ، أو ثباجُ الأمواج[140] ، في شيل وحط ، وقبض وبسط ، وهرْج ومرْج ، ودخْل وخرْج ، واستمر من نحو هذا التصريفِ في بحثِ الرفعِ والجر ، ومن علمِ المطاردةِ والركوبِ في صنعةِ الكرِّ والفر ، ومن علم الزندقةِ والإلحاد ، في عالَم

---

[138] لفظ حذفناه لأنه خادش لحياء البعض .

[139] لفظ محذوف ، خادش للحياء .

[140] ثَبَجَ البحر موجه متجمعا ثم مندفعا .

الحلولِ والاتحـــاد ، إلى أن دفق الإبريق العقيق ، في قـدح اللجين[١٤١] شـرابَ الرحيق ، وقد أنشد الحريف ، هذا النظم الظريف ، وهو :

لـو تنظـرُ الرقبـا وقـد عانقتُـه والشمـعُ مشتعـلٌ وبابي مقفـل

طــوراً أشاهــدُه وأرشفُ تـارة وأضمُّـه مـن بعـدِ مـا أتـامـلُ

وإذا تعـشّى ذيـلُ ثوبـي بانَ لي مـن جيبـه شيءٌ عليـه المقتـل

فلـمـا ســال الميزاب بما جـرى ، وقـضـى زيـــد منهـا وطـرا ، نهـض لِيُـبرَّ قسـمَه ، حسبما ميزه وقسمه ، وأدنى من منقـاره [........][١٤٢] وكـان للطـائر مـدة لم يتناول مأكـولـه ، فتصوره قطعـة لحمـة قدمه إليه طعمـه ، فأنشـب بخاليبـه فيـه ، فاسـتـغـاث بملء فـيـه ، وكـاد أن يغمـى عليـه ، واسـتـعـان بحبيبــةِ قـلبـه إليـه ، فأقبلتْ المرأةُ كالحـداةِ فأشـار عليهـا ، أن تكشـفَ عـن سـاقيهـا ، وتُـرِيَ الطـير [........][١٤٣] فربما يلتهى به ويترك آلته ، فتكشّفَتْ وأدنته إليه ، وعوّلَت فـي خــلاصِ صاحبِهـا عليـه ، فوثـبَ لشـدة قَرَمـه[١٤٤] ، وتأثيرِ الجـوعِ وألمـه ، ليلهم[١٤٥] ذاك الفلهم[١٤٦] ، فأنشب مخاليبَ رجلِه الأخرى ، في فَلْهمِ تلك البظرا ، فاشتبكا ، وفي البلاءِ اشتركا . وبينما هما فـي تعـاظِل الكـلاب ، وإذا بـالزوج قـد دخلَ من الباب ، فرآهما على تلك الحال ، من الاشتباك والاعتطـال ، ونقـل الطـيرُ ما قال بالأفعال ، دونَ الأقوال ، فَصَحَّ قولُه وفعلُه ، وفعل معهما مايجبُ فعلُه .

---

(١٤١) اللجين : الفضة .

(١٤٢) لفظ خادش .

(١٤٣) لفظان خادشان .

(١٤٤) شهوته للطعام والأكل .

(١٤٥) يلهم : يبتلعُ في مرة واحدة .

(١٤٦) الفلهم : فرج المرأة .

وإنما أوردت هذا البيان ، لأعلمَ أشرفَ جنسِ الحيوان ، أن الشروع ، فيما ليس فيه منفوع ، يجبُ الإبعادُ عنه ، والفرارُ منه ، وعدمُ الإصغاء إليه ، والتوجّهِ والإقبالِ عليه . ولهذا قال النبي النبيه ﷺ : "من حُسْنِ إسلامِ المرءِ تركُه ما لا يعنيه" . قال المشرقي : ما بقي يا تقي ، إلاّ أنْ ترتقي فلقد طال البيان ، وضاع الزمان .

فانهضْ هُديتَ إلى ما رُمْتَهُ عَجِلاً فالدهر عَاتٍ وللتأخيرِ آفاتُ

وكانت هذه المحاورة ، تحت ظل شجرة ، فيها وَكْرُ حَمامة ، وكان لها بالبلدِ إقامة ، في برج رجلٍ من أهلِ الزعامة . ثمَّ اختارت العزلة ، واحتسبتها نعمةً جزلة ، فاختارت هذا المقام ، ولها فيهِ عدَّةُ أعوام ، فسمعتْ جميعَ ما قالاه ، من مبدئهِ إلى منتهاه . فلما وعت ما اتفقا عليهِ ، وتداعيا إليه ، أخذت تضربُ أخماساً لأسداس ، وتتأمَّلُ فيما يتجلّى من عرائسِ معانيهِ من القَدَمِ إلى الراس ، وتُجيلُ في صُوَرِ مبانيهِ قداحَ النظر ، وتلاحظُ سيرةَ فحاويه بلوامحِ الفكر ، وتجوز مذاهبَه ، وتروز[147] عواقبَه ، وتقيسُ مداركَهُ بمعارجهِ ، وتميسُ في مداخلهِ ومخارجهِ ، فأدّى قائدُ فكرِها ، ورائدُ نظرِها ، إلى أنَّهُ ربَّما يكونُ لهما شان ، وعُلُوُّ مكانةٍ ومكان ، فإنَّ محاوراتِهما ، وما مَرَّ من مناظراتِهما ، كانت منطويةً على ذكاءٍ وفطنة ، وتجاربَ وحكمة ، وعلوِّ همَّة ، صادرةً عن فكر مصيب ، ورأيٍ لهُ في السدادِ أوفرُ نصيب ، ولم يبقَ لهما في القَدْر ، إلا مساعدةُ القضاءِ والقدَر . وإذا كان الأمرُ كذلك ؛ فالأليَقُ في قطعِ هذه المسالك ، المبادرةُ إلى التعرُّفِ بهما ، وإعانتُهما ، والتقرّبُ إلى خواطرهما ، ومساعدتُهما ، على ما هما فيهِ ، ومساعفتُهما بما تصل إليهِ اليدُ وتحويهِ ، لأنهما في حالة الشدة ، وزمانِ الانفرادِ والوحدة ، محتاجان إلى المساعدة ؛ والمساعفة والمرافدة ، وفي مثل هذه الحالةِ تظهرُ الفضيلة ، ويتحمّلان المِنّةَ والجميلة ،

[147] تروز : تختبر .

وتقع مساعدتي أحسنُ موقع ، ويتميزَ لي عندهما أرفعُ موضع ، فإنهُ إذا علا شأنُهما ، وارتفع بدون معاونتي قدرُهما ، ومكانُهما ، واجتمع عليهما الجنود ، وأقبل إليهما الوفود ، وكثرتْ الحفدةُ والأتباع ، وتكاثفتْ العساكرُ والأشياع ، فما يظهرُ لَمنْ يتقرَّبُ إليهما ، ويترامى لديهما ، إذ ذاك كبيرُ فائدة ، ولا كثيرُ عائدة .

ثمَّ إنها توكلت على الرحمن ، وصدحت على الأغصان ، بقولها :

سموتَ إلى العلياءِ نهداً على نهد[148] على الطائرِ الميمونِ والبشر والسعد

ثم هبطتْ ، وبين أيديهما سقطتْ ، فأذكرت قولَ الرئيس[149] هذا الشعرَ النفيس :

هبطتْ إليكَ من المحلِّ الأرفعِ وَرْقَاءُ ذاتُ تعزُّزٍ وتمنُّعِ

وقبَّلت الأرض ، ووقفت في مقام العرض ، ولزمت شرائطَ الحشمة ، وأدَّت مواجبَ الخدمة ، وهنَّأتْ نفسَها والكون ، بسلْطنة الملكِ يسار ذاتِ الصون ، وقالت : إني لكما نِعمَ العون ، وموطني في هذه الشجرة ، وأنا لأوَامِركما مؤتمرة ، وقد وعيتُ ما قلتماه ، وما دار بينكما وذكرتماه ، ورأيتهُ صادراً من مشكاةِ السعادة ، مشرقاً بأنوارِ السيادة ، سهامُهُ نافذةٌ في قلبِ الغرَض ، وسيستعبدُ جواهرَ الرعايا بأدنى عرَض ، فإنّ حسامَهُ مطبقٌ لفضلِ القصد ، وشأنَهُ سيبلغُ أعلى اليُمْنِ والسّعد ، وها قد جئتُ مبادرة ، واردةً منهلَ الطاعة وصادرة ، فَأْمُرَا لأمتثل ، وانْظُرَا لأحتفل ، وتحكّما لأُطيع ، وتكلّما فإنّي سميع ، فإنْ أشرتُما فالقصدُ

---

[148] النهد : الشيء المرتفع .

[149] الرئيس ، يعنى المؤلف به : ابن سينا الفيلسوف والطبيب المعروف ، والملقب الشيخ الرئيس (توفى سنة ١٠٣٦ م) ، وصاحب هذه القصيدة العينية التى مطلعها البيت المذكور فى المتن .

قاف[١٥٠] ، وإنْ استشرتما فالرأيُ كاف ، وإنْ خبرتما فالحزمُ واف ، وإنْ استنهضتُما فالعزمُ شاف ، وإن استخدمتُما فالعبدُ خادمٌ صافٍ مصاف .

فلمَّا رأيا من الحمامة ، هذه الكرامة ، تبسَّم الزنيمُ وتفاءَل ، وأشرقَ وجهُهُ وتهلّل ، وتيمّن بطلعةِ الورقا[١٥١] ، وعلم أنَّ أمرَهما يرقى ، وقال ليسار : هذا من علاماتِ اليسار ، وجبرِ الانكسار ، والخروجِ إلى اليمين من اليسار ، وعنوان السعود ، وحصول النجح والمقصود ، فإن مسبِّبَ الأسباب ، العزيزَ الوهّاب ، تبارَكَ وتعالى ، وجلّ جلالا ، هو مُسَهِّلُ الصعاب ، ومفتِّحُ الأبواب ، وإذا أراد أمراً هيَّأَ أسبابَه ، وفتح على الضعيفِ طاقتَه وبابه ، ووسّع رحابَه ، وسدّد إلى مرامى المرامِ لراميه نشابَه . وحصولُ مثلُ هذا الصاحبِ الصادق ، والرفيقِ الموافق ، والمعينِ المصادق ، أدلُّ دليل ، على أنّ الله الجليل ، يُيَسِّرُ هٰذا المطلوب ، ويظهرُ هذا النُّجْحَ المحجوب .

ثم إنهما استشارا الحمامة ، في كيفيةِ نَيْـلِ الزعامة ، والشروعِ في هذا الأمر ، والتوصّلِ إلى دعوةِ زيدٍ وعمرو ، وطريقة اشتهارِه ،وتعاطي أسباب انتشارِه . فقالت : أنا من جنس الطير ، ومشهورةٌ بينهم بالخير ، ولهم إليّ سكون ، وعلى مناصحتي اعتمادٌ وركون ، فالصواب ، في فتح هذا الباب ، دعوةُ الجمهور ، من الطيور ، وأنا به زعيم ، وفي الرسالةِ حكيم ، فإنْ اقتضى الرأيُ الرفيع ، توجهتُ ودعوتُ الجميع ، بعد التخبير والتشهير ، بين الكبير منهم والصغير : إن أبا الجراءِ[١٥٢] السلطان ، وأبا الجداءِ[١٥٣] الوزير ، وقد وقع الاتفاق ، في الآفاق ، على

---

(١٥٠) قافٍ : نافذ ، محقّق ، متّبع .

(١٥١) الورقا أو الورقاء : الحمامة لونها ما بين الأبيض والأسود .

(١٥٢) كنية الكلب .

(١٥٣) كنية التيس .

هذا الوفاق ، فَلْيبتهجْ سائرُ الطيـور ، بهـذا الفـرحِ والسـرور ، وليُقـرأ على رؤوسِ الجمهور ، هذا المقالُ المنشـور ، وليُبـادرْ إلى الخدمـة بـالحضور ، ولا يتخلـف أحـدٌ ومأمور ، والحذرَ الحذرَ من المخالفة ، وعدمِ الانقيادِ والمؤالفـة ، فقـد طـاب الوقـتُ وراق ، وزال المقتُ والشقاق ،والمسارعةُ في أقرب زمان ، ليأخذوا لأنفسِهم الأمان ولايركبوا من التعويق ، سوى مَتْنِ مسافةِ الطريق .

فأعَجب الملكُ والوزير ، من الهديل هذا الهدير ، فكتب بذلك بطاقـة ، وحملتهـا الحمامة بأحكم وثاقة ، ثمَّ أخذت إلى الجو ، ووقيت من الجوارح السوّ ، ثم هبطت إلى مجمع الطير ، وهو نادى الندى والخير ، فرأت منها خلقـاً كثيراً ، وجمعـاً غزيـرا فسلمت سلامَ المشتاق ، وعانقت عناقَ العشاق . فـترحبوا بمقدمهـا ، وسـألوا عـن مُغْرَب أحوالها ومعجمها ، وقدمـوا موائـدَ الضيافـة ، وأظهـروا السـرورَ واللطافـة ، فبثتهم كثرةَ الأشواق ، وما عانتهُ مـن ألَـمِ الفـراق ، وقـد حرَّضهـا شـدَّة الشـوق ، وساقها إليهم أشدّ سوق ، وبعثهـا أيضـاً بـاعث ، وهـو مـن أحسـنِ الوقـائع وأيمـنِ الحوادث . وذلك أنَّ شخصاً من أُصلاء بني سـلاق[١٥٤] ، الحـاكم علـى بـني زغـار وبني براق ، تولّى سلطنةَ السبـاع ، ومالكيـةَ الذئـابِ والضبـاع ، مضافـاً إلى ذلـك الحكم على الطيور ، والقيام بسياسة أمورِ الجمهور . وأقام لهُ في ذلك وزيرا ، كافياً ناصحاً مشيرا ، يُدعى أبا زنمة المشرقي ، من نسل تكابك الأرْتُقـي[١٥٥] ، وهـو مـن الفحول ، وكباشِ الوعول ، وقـد أرسـلوني إلى الجماعـة ، يـأمرونهم بـالدخول في رياض الطاعة ، ليحصلَ لهم الرعيُ والرعايـة ، والرفاهيـةُ والحمايـة ، ويـأمنوا صيـدَ الكائد ، وكيدَ الصائد .

---

[١٥٤] تشير الى الكلب ، ومن المعروف أن الكلاب الجيدة تنسب إلى قرية سلوق ، ومنها الكلب السّلوقي .

[١٥٥] نسبة إلى بنى الأرتق ، إحدى الأسر الأتابكية التركمانية الحاكمة (في ديار بكر) إبّان الفترة من ٤٩٥ – ٨١١ هـ / ١١٠٢ – ١٤٠٨ م) .

ثمَّ شرعت تبثُّ للكبير والصغير ، ما شاهدت من مخايلِ الملك والوزير ، وحسنِ شمائلهما ، ويُمنِ خصائلهما ، وما هما عليهِ ، ونُسبا إليهِ ، من الشجاعةِ والدين ، والعقلِ المتين ، والفضلِ المبين ، والقناعةِ والعفة ، والمجد الذي لا يُدرك وصفه . وإن الملك المعلوم ، قد عف عن تناول اللحوم ، وقد قنع بما يسد الرمق ، من حشيش النباتِ والورق ، وقد تكفل برفعِ المظالم ، وردعِ الظالم ، وإجراءِ مراسمِ العدل ، وإحياءِ مواسمِ الفضل . فإنْ أنابوا وأجابوا ، ربحوا وأصابوا ، وطالوا وطابوا ، وإنْ أَبوْا وصَبَوْا ، واهتزو للمخالفة وربوْا ، ثمَّ كسهم[١٥٦] الدمار وأركسهم[١٥٧] ، فلا يلوموا إلاَّ أنفسهم . فصدقّوها من أول وهلة ، والرائدُ لا يكذب أهله ، لأنهم كانوا بها واثقين ، ولكلامِها في الحوادثِ مُصدقين ، فما وَسِعَهم إلاَّ الطاعة ، والتوجُّهُ إلى خدمة الملك في تلك الساعة ، وبعد ما تبادروا بالتصديق ، طاروا بالفرح ودخلوا الطريق ، واستصحبوا من الخدم والتقادُم[١٥٨] ، ما يصلح للمخدوم من الخادم .

فلمَّا قربت الديار ، وَدَنَوْا من ولاية الملك يسار ، تقدمت الحمامةُ وسبقت ، وأخبرت الملكَ والوزيرَ بما فَتَقَتْ ورَتَقَت[١٥٩] ، فاستبشروا بما تقدَّم ، وبادر الوزيرُ لملاقاةِ المقدَّم ، فتلَّقاهم بالاحترامِ والتوقير ، وأكرمَ الكبيرَ منهم والصغير ، ومشى معهم بالإكرامِ والحرمة ، وأوقف كلاًّ منهم في مقامِ الخدمة . وحين استقرَّ بهم المُقَام ، افتتح الوزيرُ الكلام ، فأثنى على الله تعالى ، وضاعفَ التحيَّةَ على نبيِّه

---

[١٥٦] دقّهم دقًّا شديدا .

[١٥٧] ردّهم وأعادهم .

[١٥٨] الهدايا الثمينة .

[١٥٩] بما نسجت من الحديث ، لإصلاح ذات البين ، والمقصود المفاوضات الناجحة التى دارت بين الحمامة - الرسول والرعية من جنس الطيور .

وَوَالى ، ثمَّ امتدح الملكَ الزكيّ[160] ، بثناء يخجل المِسْكَ الذكيّ[161] ، وذكر بعد ذلك ، ما يتعلقُ بسياسة الممالك ، وأن الله منَّ بالملك عليهِ ، وساق سلطنةَ الوحشِ والطيورِ إليهِ ، وذكر مَقامَ كلٍ من الطيور ، وما وظيفتُه بين أولئك الجمهور ، فأطاع الكلُّ وتابعوا ، وعلى ما اقترحَهُ عليهم بايعوا ، وأنشدوا فأرشدوا :

ولحن أتينَا طائعِين ولم نكُن عصاةً فَرُمْ غيرَ الطيورِ عساكرا

ولمّا انقضى الوطر ، من قضايا الطير ، أخذوا في استدعاءِ جموعِ الغير ، من الوحوشِ الكواسر ، والبهائمِ والجواسر ، والهوامِّ النواشر ، والجوارحِ النواسر ، وأرسلوا من تلك الجماعةِ الحمامة ، وقلّدوها فيهِ طوْقَ الزعامة ، فتوجَّهت نحو الوحش ، وإلى كل قارح[162] من الصيد وجحش ، وكانوا بذلك قد سمعوا ، وللمشاورة فيهِ قد اجتمعوا ، فبلّغتْ الحمامةُ الرسالة ، وأظهرت ما فيها من بسالة ، وكان آخرُ ما وقع عليهِ الاتفاق ، الوفاقَ[163] وعدمَ النفاق ، وقصْدَ الارتفاق ، والتوجُّهَ إلى خدمة الملك يسارِ صحبةَ الرفاق ، وقالوا : لا شكَّ أن الكلبَ بالوفاءِ مشهور ، وبحسنِ الرعاية والحراسةِ مذكور ، ويقدرُ أنْ يرعانا من الإنسان ، ويحمينا من السباع ومؤذيات الحيوان ، وأوصافهُ مذكورة في الكتاب ، وناهيك بـ **"فضلِ الكلاب ، على كثيرٍ ممّن لبس الثياب"**[164] .

---

[160] الزكيّ الطاهر الشريف .

[161] الذكي : ذو الرائحة الذكية الطيبة .

[162] القارح من ذى الحافر : ما استتم الخامسة ، وظهر نابه .

[163] الوفاق : المبايعة .

[164] ثمة كتاب ذاع فى هذه الفترة بهذا الاسم تصنيف محمد بن خلف المرزبانى (ت ٣٦٦ هـ) والكتاب مطبوع فى القاهرة .

فتقدّم خُزَزٌ[165] من بين تلك البزز[166] ، يُدعى رئيس الأرانب ، محببٌ إلى الأقاربِ والأجانب ، وهو مشهورٌ بالحصافة ، موصوفٌ بالذكاءِ والظرافة ، والمعرفةِ التامَّة ، والتجربةِ المفيدةِ العامَّة ، بعيدُ الفكرِ في العواقب ، سديدُ الرأي حازمٌ مراقب ، وقال : يا معشرَ الأصحاب ، وأُولي الأبصارِ والألباب ، كيف خفي عليكم ، ولم يتضحْ لديكم ، عاقبةُ هذه الأمور ، وما فيها من عكوسٍ وشرور ، وهل يصلحُ للرياسة ، وإقامةِ السلطنةِ والسياسة ، أهلُ النذالةِ والخساسة ، المتصِفُ بالقذارة والنجاسة ، أوَمَا علمتم أنَّ من أفحشِ السباب ، الشتمَ بأخسّ من الكلاب ، أوَمَا سمعتم فى كلامِ مالكِ أزمّة القلب ، فى حقٍّ من عاملَه بالسلخ والسلب ، فَمَثَلُه كَمِثْلِ الكلب . أوَمَا قال صاحبُ الشرع ، فى حقٍّ ما ولغَ فيه الكلبُ بالسّبْع ، ثم التعفيرِ بالتراب ، وهو مذهبُ كثيرٍ من الأصحاب ، وأن لا يطهّر بالدباغة منه الإهاب ، لا أصلٌ تقي ، ولا وصفٌ نقي ، ولا نسبٌ طاهر ، ولا حسبٌ ظاهر ، ولا وجهٌ زاهر ، ولا شكلٌ باهر ، فإن كنتم نائمين انتبهوا ، وأعرضوا عمَّا قصدتم إليهِ وانتهوا ، **فلعن الله زمانا ، صار فيهِ التيس وزيراً والكلب سلطانا** ، ولقد أرشد مَن أنشد :

لقد جارَ صَرْفُ الدهرِ في كلِّ جانبٍ ... من الأرض واستولتْ علينا الأراذلُ[167]

هل المسخُ إلاَّ أَنْ تَرَى العُرْفَ مُنْكَراً ... أو الخَسْفَ إلاَّ حينَ تعلو الأسافِلُ[168]

فتصدَّى الهديلُ للجواب ، وقال : لا شكَّ ولا ارتياب ، أن المستحقَّ للسلطنة الإمامُ العادل ، والشخصُ الكاملُ الفاضل ، ولا يُقدحُ في هذا الفصل ، دناءَة

---

[165] الخُزَز : ذكر الأرانب ، وخُزَز الأرنب : ولدها .

[166] البزز : الهيئة ، الجمع .

[167] صرف الدهر : نوائبه .

[168] الخسف : الظلم .

الأصل . فقد قال القيومُ الحى : ﴿يُخْرِجُ الحيَّ مِنَ الميِّتِ ويُخْرِجُ الميِّتَ مِنَ الحيِّ﴾[١٦٩] وكلُّ من اتصف بالهمّة العلية ، والأوصافِ السنية ، ومكارمِ الأخلاق والشيم ، وانتشر بها صيتُه بين الأمم ، يستحقُّ أَنْ يراَسَ بين العرب والعجم . وأما الأنساب ، ففى نصِّ الكتاب ، قال من بقوله يهتدى المهتدون ﴿فإذا نُفِخَ فى الصُّورِ فَلاَ أَنْسَابَ بينهم يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَتَسَاءَلُونَ﴾[١٧٠] قال الشاعر :

كُن ابنَ مَنْ شئتَ واكتسبْ أدبًا ... فسوفَ يُغنيك ذا عن النَّسَبِ

إنَّ الفتى مَنْ يقول ها أنا ذا ... ليس الفتى مَنْ يقولُ كان أبي

وقال أيضا :

لَعَمْرُكَ ما الإنسانُ إلاَّ ابنُ يومه ... على ما تجلَّى يومُهُ لا ابْنُ أمسِهِ

وما الفخرُ بالعظمِ الرميمِ وإنَّما ... فخارُ الذي يبغي الفخارَ بنفسِهِ

وأمَّا الأوصاف ، فلا شكَّ ولا خلاف ، في أنَّ الكلاب ، فُضِّلَتْ على كثيرٍ ممَّن لبس الثياب ، وما ذاك إلاّ لأوصافٍ اختصَّتها ، وآثارٍ اقتفتها واقتنصتها ، وهي مشهورة ، وعن الكلابِ مسطورة ، ومن جملةِ محاسنهم مأثورة . وأمَّا الأوصافُ الذميمة ، فيمكنُ صيرورتُها مستقيمة ، وذلك بحسنِ التأديب ، والتربيةِ والتهذيب ، والتمرينِ والتشذيب ، حتى يصيرَ نابُهُ مُدْيَةً[١٧١] ، وهذا ليس فيه مُرْيَةٌ[١٧٢] ، ويجتزي بالفاكهة والبطيخ ، عن اللحمِ السليخ ،وبالخبزِ الشعير ، عن أكلِ لحمِ الحمير ، وناهيك يا أبا وثّاب ، ما قيل في الكلاب ، ولابسي الثياب :

وما ضرَّ أهلُ الكهفِ إيمانُ كلبِهِمْ ... ولكنّهم زادوا يقيناً على هدى

وما أفادَ العلمُ بَلْعَامَ وهو من ... بني آدم لّما إلى الأرضِ أخلدا

---

[١٦٩] قرآن كريم ، سورة الروم : ١٩ .

[١٧٠] قرآن كريم ، سورة المؤمنون : ١٠١ .

[١٧١] شفرة كبيرة .

[١٧٢] المرية ، بضمّ الميم وكسرها : الشك والجدل .

وهذا السلطان ، قد عاهد الرحمن ، أن لا يمزقَ حيوان ، ولا يذوقَ لحمان ، وأن يقنعَ بالكفاف ، ويسلكَ طريقِ العفاف ، وما ذاك لعجزٍ يُنسبُ إليه ، ولا لِوَهَن طرأ عليه ، بل سَمَتْ همَّتُهُ عن ذلك ترفّعا ، وسلك طريقَ الملوكِ في إحياء هِمَمِهَا ومعاليها تطبُّعا . "وبضِدِّها تتبيَّنُ الأشياء" . فإن أحببتم كان لكم الحظُّ الأوفر ، وإن امتنعتم "فقد أعذر مَنْ أنذر" وبلغ مَنْ حذَّر ، وما قصَّر مَنْ بصَّر ، والعاقلُ مَنْ يتبصَّرُ عيوبَهُ ، ويسلكُ من الخُلُقِ الجميلِ دروبَه ، وقد قيل لأميرِ النحل ، ذاك الأسدِ الفحل ، كرَّم الله وجهَه ، وجعل له إلى الرضوان أحسنَ وجهه : يا أميرَ المؤمنين ، وابنَ عمِّ سيِّدِ المرسلين ، ممن تعلمت الأدب ؟ قال : من قليلِ الأدب . يعنى إذا رأيتُ فى أحد ، خُلُقاً ذميماً أو وصفاً فسد ، بادرتُ إلى افتقاد نفسى ، وتأملتُ فى حدسى وحسى ، هل أنا مُحَلّى بذلك الوصفِ أم لا ؟ فإنْ لم يكنْ ، احتهدتُ أن لا يكون ، وإن كان ، أُبعِدُ عنه عرضي وأصون . وحسبك يا ذا الرتبةِ العالية ، استنكاف اللصِّ العاقل مِنْ قول تلك الزانية . فقالت الخُزَز[١٧٣] للحمامة ، أخبريني بذلك الاستنكاف يا ذاتَ الكرامة .

[٩/٦] قصة توبة بعض الشُطَّار بسبب امرأة بغيّ

قالت الحمامة : ذكر رواة الأخبار عن شاطرٍ من الشطار ، قد بلغ فى الشطارة ، واللصوصية غاية المهارة ، يسرق الوهمَ من الخاطر ، والرائحةَ من الطيب العاطر ، والنومَ من أجفان الوسنان ، واللماطة[١٧٤] من أسنان الجيعان ، ويأتى على كوامن الغيوب ، فضلا عن خزائن الجيوب ، ويلف الرخيص والغالى ، والوضيع والعالى ،

---

[١٧٣] الخزز : أبناء الأرانب ، والمراد هنا ذكر الأرنب ورئيسها والمتحدث باسمها .

[١٧٤] اللماطة : بقايا الطعام الذى يتخلل الأسنان .

وقد أعجز المقدّمَ[١٧٥] والوالى . ففى بعض الأوقات ، قصد جهةً من الجهات ، فبينا هو فى المناهضةِ والمناهزة ، غشيَه الوالى مع العسس[١٧٦] والجلاوزة[١٧٧] ، ومعهم امرأةٌ بَغِيّ ، قد خرجت عن الصّراطِ السَّوِى ، وهم يضربونها ، وعلى أفظعِ حالةٍ يسحبونها ، وهى تستصرخُ المسلمين ، وتستغيثُ أئمةَ الدين ، فلما أحسّ اللص بهم ، نكب عن دربهم ، وولاّهم عِطْفَه[١٧٨] وانزوى فى عَطْفه[١٧٩] ، وانتظر حتى يمرّوا ، فسمع المرأة وهم بها قد أضرّوا ، وهى تصيحُ بلسانٍ فصيح ، وتقول : يا أهلَ الإسلام ، وأمةَ خيرِ الأنام ، أنجدونى ، وارحمونى ، واسعدونى ، لا سرقتُ ولا نقبت ، ولا اختلست ، ولا سلبت ، ولا طمعتُ فى مالِ أحدٍ ولا نهبت ، ولا وقفتُ لأحدٍ فى درب ، وإنما أستنفقُ من حاصلِ دارِ الضرب ، وذلك ملْكي وحوزي وثمرة لوزي وجوزى ، بإشارة سهامِ ألحاظي المُلَوَّزَة[١٨٠] ، من قِسِيٍّ حواجبٍ بالجمالِ مُتَوَّزَة[١٨١] وسفارةِ نظامِ ألفاظى المعززة ، المشبه باب طريقها دُرَراً فى العقيقِ والرقيق مغرزة ، فمالى على أحد ثقل ، ولا طمعتُ فى مال أحد ، فيحصل له منى ملل .

فلما سمع قاصدُ الحرامِ هذا الكلام أفاق ، وصفا خاطرُه وراق ، وتنبه لقُبْحِ صنعته ، وأنَّ الزّواني تأنفُ من حرفته ، وتستنكفُ مما هو مفتخرٌ بفضيلته . فقال :

---

[١٧٥] رئيس الشُّرَط .

[١٧٦] العسس ، مفردها عاسّ ، وهو مَنْ يطوف بالليل يحرس الناس ، ويكشف أهل الريبة .

[١٧٧] الجلاوزة ، واحدها جلواز وهو الشرطي .

[١٧٨] مال بجانبه منزوياً عنهم ، مُتَنَصِّتاً عليهم فى الوقت نفسه .

[١٧٩] عطفه : منعطف .

[١٨٠] المُلَوَّز : الحسن المليح .

[١٨١] متوزة : جمالها طبيعى وخِلْقَة .

لعنَ الله فعلاً تنتقصه الخواطِي ، وتَباً وسُحْقاً لمتعاطيه من متعــاطى[١٨٢] ، ثـم عـاهد الله التَوَّاب ، ورجع إليه عن صنعةِ الحرامِ وتاب .

وإنما أوردتُ هذه المناقب ، ياشيخَ الأرانب ، لتعلمِ أن العاقِلَ مَنْ يتصفّـحُ جرائـدَ أعماله ، ويتأمّلُ صحائفَ حركاتِه وأحواله ، وأن هذا المِلكَ صفّى شـرابَ صفاتـه ، من كُدورات الهوى براووق المراقبة ، ونَقّى رياضَ ذاتِه من شوكِ الأخـلاقِ الذميمـة بمنكاشِ المعاتبة ، بقدر طاقته وإمكانه ، وهو مثـابر علـى ذلـك فـى غـالب أزمانـه ، ولايكلّف الله نفسا إلا وسعها ، وليس لك أن تعترضَ بأنّ النفـسَ لا تغـيِّرُ طبعَهـا ، وليس الأكْمَهُ[١٨٣] كالأرمد ، ولا السطيحُ كالمقعد ، ولا سحبانٌ[١٨٤] كباقل[١٨٥] ، ولا العاقلُ كالمتعاقل "ليس التَكَحُّلُ في العينـين كـالكَحَل"[١٨٦] وتخـرج يامسـكين ، بواقعة السلطانِ محمود بنِ سبكتكين[١٨٧] مع وزيرِه حسن الميمندي ، بسبب القضيـةِ الواقعةِ لابْنِ الجندى . فسأل أبو عكرشة أبا عكرمة عـن هـذه الواقعـة ، ليتبـينَ مـن التمثيل مواقعَه .

---

[١٨٢] انظر كتابنا : حكايات الشطار والعيارين ، الطبعة الثالثة ، الناشر : مكتبة ذات السلاسل ، الكويت .

[١٨٣] الأكمه : الأعمى .

[١٨٤] سحبان : ضرب به المثل فى البيان والفصاحة ، فقيل : أبلغ من سحبان ، وذلك فى الجاهلية .

[١٨٥] باقل : ضرب به المثل فى العيّ ، فقيل : أعيا من باقل ، وذلك فى الجاهلية .

[١٨٦] يعنى أن التطبع ليس كالطبع .. فالطبع دائما غلاّب .

[١٨٧] يمين الدولة محمود بن ناصر الدولة سبكتكين ، يعد المؤسس الحقيقى للدولة الغزنوية وقـد تـولى الحكـم سـنة ٣٨٨ هـ / ٩٩٨ م .

[٦/١٠] حكاية السلطان محمود بن سبكتكين مع وزيره

فقال إن السلطانَ محمود ، ذا الطالعِ المسعود ، الذى فتح بلادَ الهنود ، جرى بينه وبين وزيرِه مباحثة ، وقع فيها عن دقيقِ العلومِ منابثة[١٨٨] ، فى أن الطباعَ هل تقبلُ التغيير ، أم لا تستحيلُ عما جَبلَها عليه الفاطرُ الخبير ؟ فقال الوزير : نعم تقبلُ التغيير ، بواسطةِ التأديب ، وحسن التشذيبِ والتهذيب ، وقد شاهدنا الطباع ، من الوحوشِ والسباع ، بواسطةِ التعليم ، تركت الخُلُقَ الذميم ، واكتسبتْ الوصفَ المستقيم . فجريانُ هذا الإمكان ، أحرى أن يوجَدَ فى جنس الإنسان . فقال السلطانُ المظفر : لا تتحوّلُ الطباعُ ولا تتغير ، ولا يمكن صرفُها عما جُبِلَتْ عليه ولا يُتَصَوّر . قال مَنْ ليس فى كلامه اشتباه ﴿فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ النّاسَ عليْها لا تبْديلَ لِخلْقِ اللهِ﴾[١٨٩] وقال القائل : "وتأبي الطباعُ على الناقل" واستمر هذا الكلام ، بينهما عدَّة أيام ، إلى أن ركب السلطان ، وقصد السيران ، والوزيرُ فى ركابه ، بين خدمه وأصحابه ، فرأيا من بعد ، شابًّا من أولادِ أحدِ الجند ، وهو جالس ، على فرع شجرةٍ يابس ، يريد قطعَه ، لَمّا عدمَ نفعُه ، وقد جعل ظهرَه إلى طرف الفرع ، وهو عمّال بالمنشار فى أصله للقطع . فتأمل السلطانُ والوزير ، فى هيئة ذلك الظبي الغرير ، ثم قال السلطانُ للوزير بين الأعيان : وطبعُ هذا أيضا داخلٌ فى الإمكان ؟ وهو يقبل التغيير والتعليم ؟ ويمكن استحالته بالتأديب والتفهيم ؟ فَلَمْ يَحِرْ الوزيرُ جوابا ، لا خطأً ولا صوابا ، ثم أشار إلى بعضِ خَوَلِه[١٩٠] ، أن يذهبَ بذلك الشاب إلى منزله .

---

[١٨٨] المنابثة : المباحثة والمجادلة ، يقال نبث عن الأمر : بحث عنه وأظهره .

[١٨٩] قرآن كريم ، سورة الروم : ٣٠ .

[١٩٠] أتباعه وحشمه .

فلما نزل من الركوب ، أحضر ذلك الشابَّ المرعوب ، الغافلَ المحبوب ، ثم طلب له مؤدِّبا ، حاذقاً مهذبا ، وأمره أن يجتهدَ فى تعليمه ، ويبالغَ فى تأديبه وتقويمه ، ويوقفَه من العلومِ على دقائقها ، ويسلُكَ به إلى خفايا طرقِها وطرائقِها . فاشتغل بتربيته ليلاً ونهار ، وبذل مجهودَه فى ذلك سراً وجهارا ، إلى أن برع فى أنواعِ العلوم ، وضبطها من طريقيْ المنطوق والمفهوم . ولما فرغ من العلوم أدناها ، وأنهاها من مبتدئها إلى منتهاها ، شرع به فى علمِ إدريس ، وهو علمُ النجومِ النفيس ، واستطرد منه إلى علمِ الرملِ المنير ، وتوسل به إلى أن توصل إلى إخراج الضمير . فأتقن هذه العلوم ، لاسيما إخراجُ الضميرِ الموهوم .

فلما أتقن ذلك ، وسلك فيه أدقّ المسالك ، أحسن الوزيرُ إليه ، واستصحبه إلى الملك ودخل به عليه ، فَقَبَّلَ الأرض ، وأدَّى من شرائطِ الخدمة النافلةَ والفرض ، وقال للسلطان محمود : إن هذا هو ذاك الشابُّ المعهود ، وقد برع فى العلوم ، ووصل إلى استخراجِ الضمير المكتوم ، وقد بُدِّلَتْ بلادتُه بالذّكاء ، وصار فؤادُه كابنِ ذُكاء[١٩١] ، فإنْ اقتضت الآراءُ السلطانيةُ سَبَرَتْهُ ، واعتبرت فهمَه بعدما اختبرته . فأدخل السلطانُ يدَه فى كُمِّه ، ونزع خاتَمه من بُصْمِه[١٩٢] ، وأطبق يدَه عليه ، لِيَسبُرَ منتهى عمله ، وينظرَ ما قاله الوزير فى كيفية هذا التبديلِ والتغيير ، ثم أخرج يدَه من كُمّه ، وقال لِيُظْهِرَ نتائجَ عمله : لِيُخْبِرْنَا بما فى كفّي ، وعن حواسِّ العيونِ مخفي . فتقدّم الشاب ، ورفع الأَصْطُرْلاَب[١٩٣] ، ووضع أوضاعَ الحساب ، وخطّ ذلك النقى ، أشكال الحيان والنقى وسائرَ الأوضاع ، من الطريق

---

[١٩١] ابن ذُكاء : الصبح . يعنى صار فؤاده مُنيراً بالعلم .

[١٩٢] البُصم : فوت ما بين طرف الخنصر إلى طرف البنصر .

[١٩٣] الأصطُرْلاب أو الأسطرلاب : جهاز استعمله المتقدمون فى تعيين ارتفاعات الأجرام السماوية ، ومعرفة الوقت والجهات الأصلية .

والاجتماع ، ثم نظر وسبر ، وعبس وبسر[194] ، وقدر وافتكر ، وقال : دَلَّ الشكلُ والله أعلم ، أن ما حواه الكفُّ المكرم ، شيءٌ من المعادن ، محفوفٌ بَسْوَدَدٍ[195] أو سوادٍ بائن ، وهو فى أفضلِ الأشكالِ لأنه مستدير ، وفى أحسنِ الألوان لأنه مستنير ، وفى دائرتِه قُطْرٌ ومركز ، وفى وسطه ثُقْبٌ بمغرز ، وهو ثقيل : إما فى الثمن ، أو فى التحميل ، ثم تأمّل بعد الوقوف ، فى أن هذا الموصوف ، ماذا يكون ؟! فقال : كان والله أعلم فردة طاحون ! فضحك السلطان الكبير ، وخجل لذلك الوزير ، ثم قال السلطان ، أبى الله وله السُّبحان ، أن يكون باقل كسحبان[196] .

إذا كانَ الطِّباعُ طِباعَ سوءٍ ... فليس بنافعٍ أدَبُ الأديبِ

وإنما أوردت هذه المسائل ، لئلا يعترض قائل ، ويستدلَّ بمثل هذا الدليل ، على أن الطباعَ لا تقبلُ التغييرَ والتحويل . بل الطباعُ تتغير[197] ، "ومن ذا الذى يا عزُّ لا يتغير" ، فسبحان من يحول ولا يزول ، الذى وضع عالَم الكون على الانتقال والحلول ، وكلٌّ لجلالِ عظمتِه مُخبِتٌ[198] ، يمحق[199] ما أراد ويثبِّت[200] ، ويمحو ما يشاءُ ويُثْبِت[201] . ومذهبُ أهلِ الثبات ، فى المحْوِ والإثبات ، أن الكافرَ

---

[194] بسر : أظهر العبوس والتجهّم .

[195] سودد : مخفف سودد .

[196] باقل يضرب المثل فى العيّ ، وسحبان يضرب به المثل في البلاغة ، وكلاهما من العصر الجاهلى .

[197] إذا كان صاحبها ذا فطرة سليمة قابلة للتعلم . وهذا هو رأى المؤلف ، لأن سُنّة الكون ، وطبيعة الحياة قائمتان على التغير والتبدّل والتحوّل .

[198] خاضع خاشع ومطيع .

[199] يمحق : يهلك ويبيد .

[200] يُثَبِّتُ : يمكنه من الثبات عند الشدّة .

[201] يُثْبِت : يقرّ ويحقق ويصحح .

قبلَ الإسلام ، كافرٌ عند الملكِ العلام ، وبعد ما انخرط في سلك المؤمنين ، صار مؤمناً عند ربِّ العالمين . وعلى هذا التقدير والتقرير ، أيها الفاضلُ الكبير ، والعالمُ النحرير ، فالملكُ يسار ، نظر بعينِ الاعتبار ، وتنصَّل من رذائلِ الأوصاف ، وتخلَّقَ بأخلاقِ الأشراف ، من التلبّسِ بالعدلِ والإنصاف ، ولولا نِيَّتُهُ الصالحة ، ما صارتْ صَفْقَتُهُ في المبايعة رابحة ، ولا كانت كفّةُ فضلِه راجحةٌ ، ولا زايله النكد ، ولا أطاعه أحد ، والأعمال بالنيات ، وعلى مقدارِ النيّات العطيات . وجنسُ هذا الملك ، في الأوصاف المتباينةِ مشترك ، فإنه قد جمع بين خصائصِ الحيوان ، حتى كأنه سبعٌ بهَيْئَة إنسان ، كما قيل :

جَمَعَ الكلْبُ في خُلاَه صفاتٍ فهو سبعٌ بهَيْئةِ الإنسان

وكما قيل أيضا :

يكادُ إذا ما أبْصَرَ الضَّيْفَ مُقْبلاً يُكَلِّمُهُ من حُبِّهِ وَهوَ أعْجَمُ

وأنا يا مولاي ، أعرضُ عليكم هذا الراي ، وهو شاهدُ عَدْل ، وحُكْمٌ فصل ، وهو أن يقعَ الاتفاق ، على واحدٍ منكم مِنْ خُلّصِ الرفاق ، مَنْ تحقّقتم حسنَ آرائه ، وصدقَه في أنبائه ، وصحةِ دينه ، ورصانةِ عقلِه ويقينِه ، فأنطلقُ في ركابه ، إلى حضرة الملكِ وجنابه ، فيكتحل بأنوار طلعته ، ويشملهُ مَيَامِن رؤيته ، ويطالعُ جميلَ صفاته ، ليسكنَ إلى فضيلِ حركاته ، وينتقلَ من علم اليقين ، إلى عين اليقين ، فيزول باليقين الشكّ ، ويُظهر خلاصةَ الذهبِ بالحكّ . ثم يأخذ لكم العهدَ والميثاق ، بما يقعُ عليهِ الاتفاق ، وما ترضَونهُ وتَرَونهُ من الصواب ، ويردّ عليكم بذلك الجواب ، فإن وافق قصدَكم ، تؤكدون عليهِ عهدَكم ، وتتوجَّهون بقلوبٍ مطمئنّة ، وخواطرَ في حصولِ المرام مُسْتَكِنّة ، وإلاّ فَتَرَوْنَ رأيَكم ، فيما عليكم وما لكم .

فاستصوبوا هذا الرأيَ واسترضوه ، واستعذبوا لطيفَ معناهُ واستحسنوه ، وانتدبوا لهذا الأمرِ الخطير ، مَنْ يصلحُ أن يكونَ عند الملوكِ السفير ، فوجدوا ظبياً طيب العناصر ، قد عقدت على غزارة فضلهِ الخناصر ، من أعقل الجماعةِ وأذكاها ، وأحسنها رأياً وأدْهَاها . فقلّدُوهُ الزعامة ، وأرسلوهُ مع الحمامة ، على أن يجتمعَ بالملك يسار ، ويعاهدَه على ما يقعُ عليهِ الاختيار ، ثمَّ يسمعُ أقوالَه ، ويشاهدُ أفعالَه ، ويميّزُ أحوالَه ، ثمَّ يردُّ عليهم الجواب ، فيميزوا ما فيه من خطأٍ وصواب ، فيبنوا عليه ، ويرجعوا إليه . فتوجَّه الظبيُ والحمامة ، مستصحبيْن الأمنَ والسلامة . فلما قربت الديار ، سبقت الحمامةُ إلى خدمةِ الملكِ يسار ، وأخبرتهُ بصورةِ الأخبار ، وأنَّ الظبيَ في العقب ، مقبلٌ بما يحبُّهُ الملك ويجب . فأمر الملكُ الوزير ، أن يتلّقى الظبيَ الغرير ، مع جمع الطيرِ الكثير ، فتقدَّم الوزيرُ وقال : اسأل مولانا الملكَ المفضال ، إن صدر من هذا القاصدِ خطاب ، أن يُشار إليَّ بردِّ الجواب ، فإنَّ ذلك أعلى للحرمة ، وأدنى للحشمة ، وأقوى لناموسِ الملك والرياسة ، وأزهى لطاووسِ البسوق[٢٠٢] والسياسة ، فإن كان ذلك الجواب ، متحلياً جيدهُ بعقودِ الصواب ، كانت سعادةُ الملك الملهمة ، وفي خدم الملك مَنْ تصدَّى للأمر وأبرمه ، فإن خرج عن طريقِ الجادَّة ، فلا يُنسب إلى الملكِ تلك المادَّة ، بل يتلقّاه الملكُ بكرمه ، ويكونُ الخطأُ منسوباً إلى خدمه ، فأجابهُ إلى ما سأل ، وتقدَّم الوزيرُ للملاقاة مع سائرِ الخُوَل[٢٠٣] ، فتلقّوا الظبيَ بالترحاب ، وفتحوا في وجهِه للكرامةِ أوسعَ باب ، ومشوْا معهُ حتى وصلَ إلى الحضرة ، وشاهدَ تلك الحشمةَ والنضرة[٢٠٤] .

---

[٢٠٢] التعاظم والارتفاع والمجد .

[٢٠٣] الأتباع والحشم .

[٢٠٤] النضرة : النعمة والرَّوْنَق .

فقبَّل الأرضَ ووقف ، وعرف مقدارَ الملكِ واعترف ، وأدّى الرسالة ، وبيَّن للملكِ ما فيها من رِقّةٍ وجلالة ، فقابلهُ الملكُ بما يليقُ بحشمته ، وأجلسهُ بالقرب من حضرتهِ ، وخاطبهُ بما أذهب دهشته ، وآنسهُ بملاطفات جلت وحشتَه ، وسألهُ عَمَّنَ خلفَ وراءَه ، واستقصى في التفحُّص أحوالَه وأنباءه ، فَبَلَّغَ عبوديَّتَهم وطاعتَهم ، وأنّ الإخلاصَ والطاعَة شملت جماعتَهم ، وفتح فَم الدعاءِ بلسانٍ ذلق ، وخطابٍ طلق ، وكلامٍ غير معقد ولا قلق ، وأطال في الدعاء ، وأطنب في الشكر والثناء ، وسأل شمولَ المراحم ، وكفَّ كَفِّ المتعدي والمزاحم ، فإنهم انبسطوا وانشرحوا ، وابتهجوا باستيلاء هذا الملك وفرحوا ، وشكروا لله النعمة ، وأنّى يَفُون بشروطِ العبودية والخدمة . ثمَّ سأل أخذ الميثاقِ ، وتأكيدِ العهدِ بالإيثاق ، بالأمان والاطمئنان ، لـمَنْ وراءهُ من الوحوش والغزلانِ ، فأعطاهم الأمان ، وشملهم بالإحسان ، على أنْ لا يُراق لهم دم ، ولا يُهتك لهم حرم ، وإنهم يرعون حيث شاءوا ، ويسرحون حيث ذهبوا وجاؤا . وأنَّ الملكَ يسار ، حاكمَ سلوق وزغار ، وخليفةَ براق وكوباك والتتار ، قد عاهد الملكَ الجبار ، أنْ لا يتعرَّضَ لوحشِ القفار ، ولا لأحدٍ من أجناس الأطيار ، حتى ولا لحيتانِ البحار ، ولا يريقَ لهم دما ، ولا يقصدَ لهم أذى ولا ألما ، ويرعى جانبَهم ، ويقضي مآربَهم ، ويحفظ شاهدَهم وغائبهم ، ويمنعهم من مُناويهم[٢٠٥] ، ولا يسلط عليهم مَنْ يؤذيهم ، ما داموا تحت طاعتي ، وفي جواري وذِمَّتي .

فقبَّلتْ الغزالة ، بشفاهِ العبوديَّة خدَّ الجدالة[٢٠٦] ، وقالت : هذا كان المأمول ، وجلَّ القصدِ من الصدقات والمسؤول ، والذي جيء لأجله ، فقد حصل من

---

[٢٠٥] مخففة من مناوئيهم ، أى خصومهم .

[٢٠٦] الأرض (الناعمة) .

صدقاتِ الملك وفضله . ولكنَّ العلمَ العالي ، محيطٌ بأنَّ وحوشَ اليسيطِ أقوامٌ ضعاف ، ليس بينهم ائتلاف ، وهم طوائفُ كثيرو الاختلاف ، أجناسٌ متفرقة ، وأنواعٌ متمزقة ، ليسوا كقطائع الغنم مُجتمعين ، ولا كحُشار الخيل مُمتنعين ، ولا بعضهم لبعض مُتبعين . ثم لم تزل العداوةُ بينهم قائمة ، وعيونُ الصلحِ والاتفاقِ عنهم نائمة ، لا يضبطُهم ديوان ، ولا يحصرُهم حسبان ، ولا يمنعُهم من التعدّي سلطان ، القويُّ يكسر الضعيف ويعزّقه ، والشاكي يستطيلُ على الأعزلِ ويفرقه ، ولأجل هذا المعنى ، لا يمكنُ اجتماعُهم في مغنى ، بل البعضُ في قُلَلِ الجبال[207] متوطّن ، والبعضُ في سرب التلال متحصن ، والبعضُ متشبثٌ بذيلِ الكهوف والمغارات ، والبعضُ في سرب الآجامِ[208] والآكامِ[209] خوفَ الغارات ، وكلٌّ يخافُ حُلولَ البلاء ، قد اتخذ لذلك القاصعاء[210] والنافقاء[211] ، واستعدَّ بفنون الكيد ، خوفاً من جوارحِ الصيد . وإذا كان الأمرُ كذلك فاجتماعُنا متعسر ، وحفظُنا في الملك غيرُ متيسر ، فلا بدّ من ترتيبِ قاعدة ، تَعُمُّ منها جميعَ الوحوشِ الفائدة ، ويشملُ أمنُها غائبَ الملك وشاهدَه ، وإلاّ فالحاضرُ ليس بآمن ، وقلبُ الغائبِ غيرُ مطمئنٍّ ولا ساكن ، فَلْيفتكر للرعية في ضَابِطَة ، تكونُ الحرمةُ فيها للقريبِ والنائي باسطة .

فالتفت الملكُ للوزير ، وقال : أجبْ هذا السفير . فقال الزنيم : يا أحسنَ ريم ، هذه الأفكار ، من قصور الأنظار ، وعدمِ التأمّلِ والاستبصار ، وإلاّ فإن السلطان ،

---

[207] قُلل الجبال : قممها وأعلاها .

[208] الآجام : الأشجار الكثيرة الملتفة .

[209] الآكام : التلال .

[210] القاصعاء : جُحر يحفره اليربوع أو نحوه .

[211] النافقاء : جُحر اليربوع أيضا .

في كل مكان ، كلمتُهُ عليا ، ووجودُهُ كالشمس في الدنيا ، فكما أن الشمسَ إذا استوت ، وعلى سريرِ كبدِ السماءِ احتوت ، عَمَّ فَيْضُ شُعاعِها الجبالَ والآكام ، والتلالَ والآجام ، وانتشر على البحرِ والبر ، واشتهر على الفاجرِ والبَرّ ، فَرَبَتْ الأزهارُ والأثمار ، وشَبَتْ مشاعلُ الكلأِ في القفار ، وطبخت الغلالَ وفواكهَ الأشجار ، وصبغت في كوامنِ المعادنِ جواهرَ الأحجار ، كما قيل :

كالشّمسِ في كبدِ السماءِ محلُّها ... وشُعَاعُها في سَائرِ الآفاق

كذلك الملكُ العظيم ، إذا انتشر صيتُ[٢١٢] عظمتهِ وعدلُه في سائر الأقاليم ، شمل فضلُهُ الشريفَ والوضيع ، وبلغ جودَ جودِه الدنيَّ والرفيع ، وردع عدلُهُ الطائعَ والعاصي ، ووَسِعَ نوالُهُ الداني والقاصي ، وإنهُ كالغمام الصَّيِّبِ الصبيب[٢١٣] ، على الربيع الخصيب ، والديمةِ[٢١٤] المطبقة ، والمزنةِ[٢١٥] المغْدِقَة ، إذا انتشرت في الآفاق ، وصارت لأمّ عهدِ عاهدِها للاستغراق ، فروت الحضيض والبقاع ، وعمّت الوهادَ والتلالَ والتلاع[٢١٦] ، وخاطبها ظمآنُ الرياض ، وعطشان الغياض :

امْطُرْ عليَّ سحابَ جودِكَ مرةً ... وانظرْ إليَّ برحمةٍ لا أغرق

هذا ومتى انتشر في الأطراف ، أنكم التجأتم إلى هذه الأكناف ، وتطرَّز بشمولِ الصدقاتِ السلطانية ، مِنْ ملابسِ طاعتِكم الطِّرافُ والأطْراف ، منعت العواطفُ الملوكية ، والخواطرُ الشريفةُ السلطانية ، عوادي المعادي ، وكفّتْ أكُفَّ المُصادِم

---

[٢١٢] الصِّيت : الذكر الحسن .

[٢١٣] السحاب ذو الصَّوب ، أى المطر الغزير .

[٢١٤] الديمة : المطر يطول نزوله فى سكون .

[٢١٥] المزنة : السحابة تحمل الماء .

[٢١٦] التلاع : واحدها تلعة وهى ما ارتفع من الأرض ، ومسيل الماء .

والمُصادى ، فلا يجترئ أحدٌ على التعرُّضِ لكم ، ولا يخطرُ ببال مُخالفٍ أنْ يقطعَ سُبُلَكم .

قال الرسول : الأمر كما يقول ، مولانا الأمير ، وما أحسنَ هذا التقرير ، ولكنْ مع المراحمِ السلطانية ، وصدقاتِ العواطفِ الملوكية ، وحُسْنِ الطَّوِيَّة ، وإحسانِ النية ، فلا بد للسياسة ، وضبطِ الرياسة ،وقواعدِ الملك في الحراسة ، مِنْ ضابطٍ يبني عليهِ المَلِكُ لأمرهِ أساسَه ، لا يتميز به كبيرٌ دونَ صغير ، ولا يختصُّ برعايتهِ جليلٌ غيرُ حقير ، فإنّ من أحسنِ أوصافِ الملوكِ والأكابر ، أنْ لا يغفلوا عن تفقُّدِ أحوالِ الصعاليكِ والأصاغر ، ولا يقتصروا في ذلك على نوعٍ دونَ جنس ، كما يفعلُهُ لغلبةِ الهوى بعضُ حُكّامِ الإنس ، مع أنهم مسؤولون عن جليلها وحقيرِها ، ومحاسبون على كبيرِها وصغيرِها . وفى شأنهم قد قال مَنْ فى ضَبْطِ حركاتِهم وملكاتِهم استقصاها ، ووضع الكتاب ﴿فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾[٢١٧] وقد تنبَّه لهذا الفعل الرجيح ، أيُّها الوزيرُ النصيح ، والمنطيقُ[٢١٨] الفصيح ، أنوشروانُ وهو من الكفار ، واشتُهر عنهُ قضية الحمار ، فسأل الوزير ، بيان هذا التقرير .

[٦/١١] كسرى أنوشروان مع الحمار المظلوم

فقال الريم ، بلغنا أيُّها الكريم : أن أنوشروان ، بالغَ في نشرِ العدلِ والإحسان ، ومعاملةِ الرعية ، كبيراً وصغيراً بالسويَّة ، وبذل في ذلك جُهْدَه ، واستنهض

---

[٢١٧] قرآن كريم ، سورة الكهف : ٤٩ .

[٢١٨] المنطيق : البليغ .

لمساعدتهِ وُكْدِه[٢١٩] ، واختشى[٢٢٠] أنْ يُمنعَ المتظلمُ الفقير ، الأبوابَ بسبب حاجبٍ أو كبير ، لغرضٍ أو عرض ، أو ارتشاءِ مَنْ في قلبهِ مرض ، فيمشي مدلّسُ البراطيل[٢٢١] ، من خوفِ الأباطيل ، ويُضيِّعُ بحثَ صارخِ الحقِّ في أوقاتِ التعطيل ، فأدّاهُ قائدُ اجتهاده ، وانتهى به رائدُ مراده ، إلى أنْ يعقدَ في طاقِ مبيته ، ومجتمعِ خاطرِهِ عن تشتيته ، من محاذي السرير ، حبلاً من الحرير ، ويربطَ طرفَهُ الأدنى في حلقة الباب ، حيث لا حاجبٌ ولا بواب ، وهو مكانٌ مجتمعِ الجمهور ، ولا يُمنعُ أحدٌ فيهِ من الوقوف والمرور ، وأن يشدّ فيه أجراس ، من خالصِ الذهبِ لا النحاس ، بحيث إنَّهُ إذا حَرَّكَ الحبل ، صَوَّتَتْ الأجراسُ صوتاً أخرسَ من الطبل . ثم أمر مناديا أنْ يرفعَ صوتاً عاليا ، بأنَّ مَنْ كان شاكيا ، فعليهِ بتحريكِ ذلك الحبل ، ليقعَ الظالمُ في الكَبْل[٢٢٢] ، أو ينتصر المظلومُ من بعد ومن قبل ، فاشتُهرت هذه العادة ، ونال بها في الدنيا السعادة ، وعظُم صيتُه ، وخمدت عفاريتُه ، وانتصفت صفاريتُه[٢٢٣] . ففي بعضِ الظهائر ، عند قائلة الهواجر ، وأنوشروان في مبيته قد طاب ، اضطربت الحبلُ والأجراسُ أشدَّ اضطراب ، فَفَزَّ أنوشروان مذعورا ، وتصوَّر المحرِّك مظلوماً مقهورا ، فابتدر بطلبه ، لينظرَ في ظلمه وسببه ، فتبادروا إلى إحضارهِ واستكشافِ أخباره ، وإذا هو حمارٌ جَرِب ، جنبُ جسمِه من الجرب خَرِب ، ومَتْنُ ظهرِهِ من الحكّةِ نَقِب ، وقد هَدّ عمارةَ عمرِهِ هادِمُ الهرم ، وألهب حشيشَ حُشاشتِهِ من الجوعِ ماضي الضَّرم ، يُحَمِّلُهُ صاحبُهُ ما لا يطيقه ، ويقطعُ

---

[٢١٩] الوُكْد : السعي والاجهد .

[٢٢٠] اختشى : خاف وخشي .

[٢٢١] البرطيل جمع براطيل ، وهو الرشوة والبرطلة .

[٢٢٢] القيد .

[٢٢٣] شياطينه .

عنهُ قوتَهُ وعليقَه ، يؤذيه ولا يداويه ، ويدورُ به ولا يداريه . فطلب مَالِكَـهُ وعَتَبه ، ثمَّ زَجَرَهُ وضَرَبَه ، ثم أَمرَ بالنداءِ في الأسواق ، وامتدّ ذلك حتى بلغ الآفـاق ، وعـم الضواحي والـرزداق[٢٢٤] ، أنْ يُسلكَ بمـا ملكـت اليمـينُ الأرفـاق[٢٢٥] ، ولا يُقتّر عليها في الإنفاق ، وكـلُّ مَنْ عنـدَهُ دابـةٌ قـد استعملَها في صباهـا ، واستوفى في خدمتِه قواها ، يراعي حقوقَها إذا كبرت ، ولا يضيعُ ما قَدَّمَتْ بما أخّرت . وَصَـكَّ وَجْهَ ذلك الرجلِ صَكّاً[٢٢٦] ، وكتب عليهِ بفرض حمارِهِ صَكّاً[٢٢٧] .

وإنما ذكرتُ هذا المثال ، في معرض ما يُقال ، من أن عدلَ السـلطان ، خـيرٌ مـن خِصْب الزمان . وأيضاً فإنَّ قَصْدَ الملك إذا كان صالحا ، كان أَمرُهُ في جميع الأزمـانِ ناجحا ، وسخّر اللهُ لهُ مَنْ يرشدُهُ إلى قصـدِه ، ويعينـهُ علـى أُمـورِ شـعائره ويُحيـي ذكرَهُ من بعدِه ، وتدرّ على يدِهِ سحائبُ البركات ، ويجري منهـا علـى غـيرِ قصـده أبحرُ الخيرات ، وحَفِظَ كـلَّ مَـنْ إليـهِ يُنتسـب ، ورَزَقَـهُ كُـلَّ ذلـك مـن حيـث لا يحتسب .

وحاصل هذه المقدمة ، أنَّ المسؤولَ من الصدقات المعظمة ، أنّـهُ إذا ترامـى علـى أبوابِ عَدْلِها شاكي ، أو تعلّق بأسبابِ مَعْدَلَتِها متظلمٌ باكي ، تتصدَّى هـي بنفسِـها لكشـفِ ظلامتـه ، ولا تـتركُ الغـيرَ في فصلِهـا لإقامتـه . وإن الفقـيرَ مـن جماعتنـا ، والضعيفَ من أهل طاعتنا ، إذا مسّت الحاجةُ به إلى بَثِّ شكوى ، أو رفْـعِ بَلْـوى ، يتقـدَّمُ إلى شـكواهُ بـلا وسـاطة ، ليـأمَنَ في أمـرِه المغالطـة ، ويصـادفَ مقسـطةً لا

---

[٢٢٤] الرزداق أو الرستاق : الضواحي الريفية ، ومن معانيها أيضا : الأسواق التجارية .

[٢٢٥] الأرفاق : الرفق بالحيوان .

[٢٢٦] صكه على وجهه ، صفعه وضربه بقوّة .

[٢٢٧] وثيقة بمالٍ أو نحوه .

قاسطة[٢٢٨] ، ويتساوى في كلٍّ من مَشْرب العدْلِ والإنصاف ، ومراعى الفضلِ والألطاف ، الظباءُ والأسود ، والذئبُ والعَتُود[٢٢٩] ، والعقابُ والعصفور ، والحمامُ والصقور ، ولا يتقدَّمُ في الدعاوي ، من حيث التساوي ، الوجيهُ على الجاهل ، ولا النبيهُ على الخامل ، ولا الكبيرُ على الصغير ، ولا الجليلُ على الحقير ، فإنْ اقتضت الآراءُ العالية ، توليةَ عاملٍ في ناحية ، فليكُنْ مِمَّنْ لهُ شفقةٌ تامّة ، ورحمةٌ في أمرِ الرعية عامّة ، ويُعرَف ذلك بمَنْ جربتْهُ العلومُ الكريمة ، وتحقّقتْ أنَّ نيتَهُ في رعايةِ الرعيةِ مستقيمة ، قد صارت لهُ الشفقة مَلَكَةَ ، وكلٌّ من العدْلِ والإنصاف قد مَلَكَه . ولا تُوَلِّ أحداً لِغَرَض ، أو مَنْ في قلبهِ من أذى المساكين مَرَض . وإن الطبيعةَ إذا اعتادتْ عادة ، والسجيةَ إذا جُعلت لها بعضُ الأوصافِ قلادة ، سواءً كان ذلك مذموماً أو محمودا ، مقبولاً عند العقل والشرع أو مردودا ، فإنها تبرزُهُ في غالبِ الأوقات ، ولا تتخلّفُ عن مُلابستهِ في أكثر الحالات :

العَيْنُ تعرفُ من عَيْنَيْ محدّثِها ... إنْ كان من حِزْبِها أو منْ أعاديها

وكلُّ قضيةٍ لا يساعدُها القلب ، فمنتهاها على العكس والقلب ، ونظيرُها يا رئيسَ المداره ، قضيةُ مَنْ زَوَّجَتْهُ أمُّه وهو كارِه ، فسأل الوزيرُ من السفير ، تقريرَ هذا النظير .

[١٢/٦] قصة قوّال يرفض الغناء

فقال كان شابٌّ ، من العِراب ، قصدت امُّهُ تَأَهُّلَه ، فزوجتْهُ بامرأةٍ أرملة ، ولم يُكن لهُ احتياج ، ولا رغبةٌ في الزواج ، واختار التخلّي للصلاة ، على مذهب الإمامِ الشافعي رحمه الله ، ولكن فَرّ من العقوق ، وكتب على نفسِه الحقوق . فلّما

---

[٢٢٨] يصادف مقسطة لا قاسطة : يجد عدلاً لا ظلما .

[٢٢٩] العَتُود : من أولاد المعزى ، ما قوي وأتى عليه حول .

عقدت الوليمة ، وصممت العزيمة ، وجمعت النساء والرجال ، أرسلتْ أمُّهُ إلى حمارٍ لهم قوّال[٢٣٠] ، أُستادٌ[٢٣١] في صنعتهِ ، ماهرٌ في حرفتهِ فدعتْهُ إلى الجمع ، ليبتهجَ بحسنِ غنائهِ السَّمْع ، فيشغل الوقت ، ويُذهب المقت ، ويحصل للحضور ، النشاطُ والسرور ، فتخلّف وأبى ، وعن الحضور نبا . فَسُئِل عن تصلّفِه[٢٣٢] ، وسبب تخلفهِ . فقال : بلغني أنّ الزوجَ الخاطب ، غيرُ طالبٍ ولا راغب ، وإذا كان كذلك فلا يُغْنِي الغِناء ، إلاّ العناء ، ولا يؤثر في القلوب والأسماع ، بل تنفرُ عند سماعِهِ الطباع ، فكلُّ شيْءٍ لا يصدرُ عن رغبةِ القلب ، فإن إيجابَهُ لا يفيدُ إلاّ السلب ، فيضحكُ عليَّ القائِمُ والقاعد ، ويسخرُ مني الصادرُ والوارد ، ويروحُ تغزُّلي في البارد .

وإنّما ذكرتُ ذلك ، لأعرضَ على آراءِ المالك ، أنّهُ إذا أولج أمرَ الرعيَّة ، إلى أحدٍ من الخاصكية[٢٣٣] ، ينظرُ إلى شفقتهِ ، ويسير وفور مرحمته ، ثم يوليهِ عليهم ، ويتقدم بالطاعة إليهم ، فيستقيمُ إذ ذاك فعلُهم وفعلُه ، ويظهر في حركاته وسكناته عدلُه ، وليس العدلُ في القضايا تساويها ، ولا إجراؤها على نسقٍ واحدٍ يحويها ، بل معرفةُ مقاديرِها ، وبيانُ تقريرها ، في المبادىءِ وتحريرها ، ثم إجراؤها على مُقتضى مدلولِها ، وردُّ فروعِ كُلِّ مسألةٍ إلى أصولها ، ووَضْعُ الأشياءِ في محلّها ، وإيصالُ الحقوقِ إلى أهلها ، ومعرفةُ منازلِ أربابها ، وأوضاعُ أصحابها ، ومراتبُ

---

[٢٣٠] القوّال : المغنى أو المنشد ذو الصوت المطرب .

[٢٣١] أستاذ : (ذكرها المؤلف بالفارسية) .

[٢٣٢] رفضه .

[٢٣٣] الخاصكية : لفظ مملوكي جمع مفرده الخاصكي . وهم نوع من المماليك السلطانية يجعلهم السلطان فى حرسه الخاص ، ويتوجّهون فى المهمات الشريفة والجليلة .

طُلاّبها ، فَمَنْ لم يحقّقْ هذه الأمور ، أضاعَ مصالحَ الجمهور ، فأعطى غيرَ المحقِّ ما لا يستحق ، ومنع الحقَّ عن المستحق .

وقد قيل يا أبا السعود : إنَّ حقيقةَ الجود ، إعطاءُ ما ينبغى لمَنْ ينبغي ، وإلاَّ كان كالباذرِ في السباخ ، وأشْبَهَ في أمرِهِ أجيرَ الطَّبّاخ ، الذي لم يعرفْ معنى العدل ، فقصدَه فوَقَع في الجدل . فسأل الغزال ، شيخَ الأوعال[٢٣٤] ، عن هذا المثال .

[١٣/٦] حكاية فى التقليد الأعمى :

فقال : كان عند بعضِ الأشياخ ، من الطباخين أجيرٌ طباخ ، لهُ رغبةٌ منهمة ، على معرفة طبخِ الأطعمة ، وكيفية ترتيبها ، وصنعة تركيبها ، وكان مغرماً بذلك ، يسلُك فيهِ كلَّ المسالك ، ويَرِدُ فيهِ الموارد ، ويتبعُ كلَّ صادرٍ ووارد . ففي بعض الآناء ، وقف على طبيبٍ من الأطباء ، فسمعَهُ يقول : إنَّ أصلاً من الأصول ، العدلُ والتسوية ، بين الأطعمةِ والأغذيةِ والعقاقيرِ والأدوية ، فَمَنْ لم يستعملْ الاستوا ، في درجات الغذاءِ والدوا ، ضَلَّ عملُهُ وغوى . وأصلُ هذا المزاج ، ولا يُنكرُهُ إلا ذو لجاج ، فإن العناصرَ الأربعة[٢٣٥] ، منها المضرَّةُ والمنفعة ، وقد تولَّدَ منها السوداءُ والبلغم ، والصفراءُ والدم ، فمتى اعتدلتْ هذه المتولدات ، صَحَتْ الأبدانُ والذات ، ومتى عن الاعتدال عدلت ، أمْرَضَتْ وَقَتَّلَتْ ، وكذلك النَيِّرُ[٢٣٦] الأعظم ، والكوكبُ المضيءُ في العالم ، إذا حلَّ في مركز الاعتدال ، استقام للعالَم

---

[٢٣٤] شيخ الأوعال : التيس الذى يقوم بدور الوزير .

[٢٣٥] العناصر الأربعة فى نظرية الطب اليونانية هى النار والهواء والماء والتراب (وتقابلها : السوداء والبلغم والصفراء والدم ، على غير ترتيب) .

[٢٣٦] النير : المضيء (الشمس) .

الحال ، وطاب الزمانُ واعتدل ، وذلك عند نزولِـهِ في برجِ الحمَـل . فتصور ذلك الوهان ، أن المقصودَ التسـوية في الأوزان ، فـانصرف وهـو فرحـان ، وقصـد طعـامَ الزيرباج[٢٣٧] ، وعبى من مفرداتهِ ما يحتاج ، ثم إنّــهُ سـاوى بـين أوزانهـا ، وقصـدَ العـدلَ في ميزانهـا ، وخلـطَ كعقلـهِ أخلاطَهـا ، ووضعهـا في قِـدْرٍ وَسَـاطَهـا[٢٣٨] ، فخاب عملُهُ في عدْله ، وبان نقصُهُ في فضله .

فلما رعى الملكُ والوزير ، ما سلكهُ السفير ، في نظـامِ هـذا التقريـر ، شَـكَرا لـهُ مساعيه ، وأخصبا في الإكـرامِ والإعـزازِ مراعيـه ، وقـالا : جـزاك ا للهُ خـيراً عـن شفقتك ، وحسـنِ صنيعِك لِمُرْسِلِيك ورفقتك ، فمثُلك مَـنْ يصلـح للسـفارة بـين الملوك ، وتوليٍّ أمورَ الرعية من الغني والصعلوك ، فإنّك ناصحٌ لَمْن فوقـك ، شـفيقٌ على مَنْ دونك . ثم قال الوزير : إنَّ هذا الملكَ الكبير مقاصدُهُ العظيمة ، أن تكـونَ الأمورُ مستقيمة ، وأنْ يَصْلُحَ العبادُ والبلاد ، ويطمئنَّ المستفيدُ والمستفاد ، فـاحتفظْ أيُّها السفيرُ المنيرُ الضمير ، بما سمعتَ ورأيت ، وشـاهدتَ ووعيـت ، واجعَلـهُ مـن عنـوانِ أنبـائك ، ومقدّمـاتِ أفعـالِك وآرائـك ، وأَبْلِغْـهُ مَـنْ يَحُفُّـكَ مـن أمـامك وورائك ، ومهما وصلتْ إليه قدرتُك ، وأحاطت بـهِ يـدُك وكلمتُـك ، مـن إبـلاغِ الخير ، إلى مسامعِ الوحش والطير ، عن هذا الملكِ وأوصافه ، وتطلعِه إلى مراقي البرِّ والإحسانِ واستشرافه ، وما تسكن بهِ الخواطـر ، وتطمئـن بـه الضمـائر ، وتقـر بـه العيونُ بالسرور ، وتستقر به القلوبُ في الصدور ، فلا تَأْلُ فيهِ جَهْدا ، وأَوْسِـعْ فيـهِ جدّا ، ولا تنهَ في إنهائهِ حدّا ، فإن المجالَ واسع ، وميدانَ المقـالِ شاسـع ، وقـد أذن لك فيه ، وإنْ أخفيتَهُ في نفسك فا للهُ مبديه . ثم كتبَ لهُ بذلك مراسيم ، عـن ثغـرِ

---

[٢٣٧] الزيرباج : نوع من الأطعمة الريفية تتكون مكوناته من الباذنجان والثوم والكسبره واليقط .

[٢٣٨] ساط القدر : خلَط ما فيها وقلّبه ظهراً لبطن وتدبرّه .

الأماني مباسيم ، وأُفيض عليه خِلع الكرامة ، واضيف إليهِ الحَمامَة ، ورجع إلى أَهلهِ مغموراً بفضِله ، مسروراً بقولِه ، مشكوراً بفعله ، فائزاً بالمطلوب ، ظافراً بكل مرغوب ، فارغَ البال ، طيِّبَ الحال ، فاتصل بأهلهِ في دياره ، وهم في انتظاره ، فبادروهُ بالسلام ، وقابلوهُ بالاستلام[٢٣٩] . وقالوا : ما وراءك ياعصام ؟ فبلّغ الجواب ، بأرشقِ عبارةٍ وأليق خطاب . وذكر لهم ما رأى ، وسمع ووعى ، فانتشرت هذه الأخبار ، حتى ملأت الأقطار ، وتسامعَ بها وحوشُ القفار ، وفاح بطيب نشرها الأزهار ، فكان جميعُ البرِّ معطار .

ثمَّ اجتمع رؤساءُ الوحوش والبهائم ، وعُرَفاءُ الصوادِح[٢٤٠] والبواغِم[٢٤١] ، وكلُّ ساكنٍ في القفار من سائمٍ وحائم ، وأرسل كلٌّ الى أُمتهِ رسولَه ، يدعوها إلى ما يحصّلُ سولَها وسولَه . فلَبَّتْ كلُّ أمةٍ دعوةَ رسولها ، وأقبلتْ لاستماعِ المراسيم وقبولها ، فاجتمعوا في رياضِ مرجٍ أخضر ، وحلّقوا لاستماع المراسيم حول المنبر ، وأطرقوا وسكتوا ، واستمعوا وأنصتوا ، وتناولَ المرسومَ الصادحُ من الباغم ، وصعد على الغصن الناعم ، مطوَّقُ الحمائم ، وابتدأ باسمِ الكريمِ الغفور ، وقرأ على رؤوسِ الأشهادِ مضمونَ المنشور ، ودعاهم إلى الطاعة ، والدخولِ في سننِ السنّةِ والجماعة ، وأنهم لا يتأخّرون عن الحضور ، بعد الاطلاع على مضمون المنشور ، فإنّهُ فرمانُ[٢٤٢] أمانٍ ، لكلٍّ من أجناس الحيوان ، ولم يُبْقِ مقالاً لمتخلف ، ولا مجالاً لمتأخرٍ ومُسوِّف ، كما قيل :

فمَنْ جَاءنا طَوْعاً أَقَمْنَا بمجدِه ومَنْ يابَ لا يَعْتِبْ علينا فعالَنا

---

[٢٣٩] الاستلام : السلام والتقبيل .

[٢٤٠] الصادح : الطير وقد رفع صوته فأطرب .

[٢٤١] الباغم : الظبية وقد رق صوتها ولان حتى لا يبين .

[٢٤٢] فرمان : ما يصدره السلطان أو الملك من الكتب للولاة والوكلاء .

إلى آخرِ الرسالة ، مع ما تحمَّلَهُ الرسولُ من مشافهةٍ ومقالة ، ومن ملاطفاتٍ تشرحُ الصدر ، وتستنزلُ البدر ، وتوضحُ ما للمَلِكِ من جلالةٍ وقدر . فتلقّى الكلُّ هذا الكلام ، بآذانِ القبولِ والإكرام ، واتفقوا على التأهُّبِ والمسير ، والاحتفالِ بالكبيرِ والصغير ، وأخذوا في تعبية التقادم[٢٤٣] والخدم ، وفرضوا ذلك على ما لكلٍّ من طوائفَ وحشم ، وتصدَّعوا[٢٤٤] عن هذا المرسوم ، على أن يجتمعوا في يومٍ معلوم ، ثمَّ أعدَّ كلٌّ عتادَه ، وأكمل خدمتَهُ وزاده ، واجتمعوا لذلك اليومِ الموعود ، وتوجَّهوا إلى الخدمةِ في الطالعِ المسعود ، ولمّا دخلوا الدرب ، وضربوا في الأرض ، أيمنَ ضرب ، توجَّهتْ الحمامةُ بالبطاقة ، بهذه البشارةِ والطلاقة ، فانتشر هذا الخبر ، وملأ البدوَ والحضر .

فلمَّا وصل الطائر ، دَقَّتْ البشائر ، وسُرَّتْ الأهلُ والعشائر ، ثمَّ إنَّ الملكَ دعا الوزير ، وقال : اعلم أيُّها الناصحُ الخبير ، والبحرُ النحرير ، أنَّ الوحوشَ واصلةٌ إلى منزلك ، ويخفّها وحافرها[٢٤٥] نازلةٌ في ساحِلِك ، وأنَّ رايةَ سلطانِنا بعونِ اللهِ بالنصر نُشرت ، ووحوشَ الجنودِ والعساكرِ بحمدِ اللهِ تعالى على بساطِ بسيطِ الطاعةِ حُشرت . وفي هذه الجيوش ، أصنافُ الوحوش ، وطوائفُ السباع ، وأنواعُ الذئابِ والضباع ، وفيهم الفراعلُ[٢٤٦] والثعالب ، والعسابرُ[٢٤٧] والأرانب ، ولا شكَّ أنَّ هيبةَ الملك صادعة ، وحرمةَ السلطنة باسطةٌ فارعة ، وحضرةَ السلطانِ ذاتُ

---

[٢٤٣] تعبية التقام : تعبئة وإعداد الهدايا الثمينة .

[٢٤٤] تفرّقوا إثر سماعهم المرسوم فى هذا الاجتماع الطارىء .

[٢٤٥] بخفّها وحافرها : جميع صنوف الحيوانات .

[٢٤٦] الفرعل ، الجمع فراعل : أولاد الضباع .

[٢٤٧] العسابر واحدها عُسْبُر : وهو النمر ، وهو أيضا ولد الذئب .

جلال ، وإن كانت جامعةً لصفتيْ الجلالِ والكمال ، وما عند كلِّ أحدٍ مسكةٌ[248] للملاقاة ، ولا ثباتُ جَنانٍ عند المشاهدةِ للملك إذ رآه ، فَمَنْ لم يكنْ بيننا وبينه اجتماع ، فقد وَقَرَتْ هيبتُنا في قلبهِ على السماع ، ومَنْ تصدَّينا لهُ في ميادينِ الصيد ، وأفلت بعد معاناة الكَدِّ والكيد ، قد رأيته على العيان ، ولا يحتاج في معرفة قوَّةِ سلطاننا إلى ترجمان ، وعلى كلٍّ تقدير ، فمشاهدتُنا على غالبهم أمرٌ عسير ، لأنَّهُ ربَّما يتذكَّر منهم متذكِّر ، أو يتفكَّر منهم متفكِّر ، واقعةً سبقت ، أو سابقةً وقعت ، انجرح فيها من نَصْلِ أنيابِنا مفاصلُ عراقيبه ، أو تعلَّق بها من أشعارِهِ وأوبارِهِ مُشَاطَةُ جلابيبه[249] ، ومَنْ لم يُنْجِهِ منَّا ضُباحُه[250] ، ولم يكن سِلاحُهُ من كلاليبِ مخالبينا إلاَّ سُلاَحَه[251] ، فبمجرَّد ما يقعُ نظرُهُ علينا ، أو تمثَّل بالوقوفِ لدينا ، يرجفُ فؤادُه ، وينفض من عبيَّةِ كرشِهِ زاده ، فينكصُ من الخوف على عقبيه ، ولا يعرفُ أمْرَهُ من حواليه ، فيتبعونهُ ويحصلُ الفشل ، ويقعُ الخباطُ والخلل ، فيبهمُ ما أوضحناه ، ويفسدُ أضعاف ما أصلحناه ، وينهدمُ من أوَّلِ الأمرِ إلى آخرِهِ ما بنيناه ، ويتعوَّجُ من مستقيمِ السلطنةِ ما سوَّيناه ، فلا يحصلُ من عِزَّةِ المملكة ، إلاَّ على مِثْلِ ما حصل لأبي الحصين من شيخِ الديكة . فقال الوزيرُ : ينعم مولانا الأجل ، بتقرير هذا المثل .

---

[248] مسكة : قوة وتماسك عند لقاء الملك .

[249] بقايا أو قطع من جلده .

[250] الضُّبح : الصوت ، للإنسان والحيوان والطير .

[251] السُّلاح : كل ما يخرج من البطن من الفضلات .

[١٤/٦] قصة أبي الحصين مع شيخ الديكة

قال الملك : سمعتُ مُخبِرا ، أنَّهُ كان في بعض القرى ، للرئيس ديك ، حسنُ الخَلْق وَدِيك[٢٥٢] ، مرَّت بهِ التجارب ، وقرأ تواريخَ المشارق والمغارب ، ومضى عليهِ من العمر سنون ، واطلع من حوادثِ الزمان على فنون ، وقاسى حُلْوَهُ ومرَّه ، وعاني حَرَّهُ وقَرَّه[٢٥٣] ، وقطع للثعالب شباك مصايد ، وتخلَّص لابنِ آوى من ورطات مكايد ، ورأى من الزمان وبنيهِ نوائبَ وشدائد ، وحفظ وقائعَ لبناتِ آوى وثعالب ، وطالع من كتبِ حِيَلِها طلائعَ كتائب ، وأحكم من طرائقها عجائبَ وغرائب . فاتَّفق لهُ في بعضِ الأحيان أنَّهُ وقف على بعض الجدران ، فنظر في عِطْفيهِ ، وتأمَّل في نقش بُرْديهِ ، فرأى خيالَ تاجهِ العقيقيّ ، ونظر إلى خدِّهِ الشقيقي[٢٥٤] ، ونفض بُرَائلَه[٢٥٥] المنفش ، وسراويلَه المنقش ، والثوبَ الذي رَقَمَهُ نقَّاشُ القدرةِ من المقطَّع والمبرقش ، فأعجبتهُ نفسُه ، وأذَّن فأطربَهُ حسُّه ، وتذكر ما قالهُ الأسعد المادح ، في المعتصم بنِ صمادح ، وهو :

كأن أنوشروانَ أعطاهُ تاجَهُ	وناطت عليهِ كفَّ ماريةَ القِرْطا[٢٥٦]
سَبَى حُلَّةَ الطاووس حُسْنُ لباسِهِ	ولَمْ يَكْفِهِ حتى سَبَى المِشْيَةَ البطَّا

---

[٢٥٢] وديك : السمين ذو الودك (الدسم أو الشحم) .

[٢٥٣] القُرّ : البرْد . (وقد أوجب العرب الفتح هنا مع الحرّ للمشاركة) وقد أخذنا بذلك فى ضبط بنية الكلمة .

[٢٥٤] الأحمر ، نسبة إلى شقائق النعمان .

[٢٥٥] البُرائل : ما استدار من ريش الطائر حول عنقه ، ويقال برأل الديك أى نَفَش ريش عنقه متهيئاً للقتال أو غيره .. وأبو برائل كنية الديك .

[٢٥٦] قرط ماريّة : من أمثال العرب : خُذْه ولو بقرط مارية وهى مارية بنت ظالم الكندى ، من أشراف العرب .

فصار يتيهُ ويتبختر ، ويتقصَّفُ ويتخطر ، فاستهواهُ التمشي سويعة ، حتى أبعد عن الضيعة ، فصعد إلى جدار ، وكان قد انتصف النهار ، فرفع صوتَهُ بالآذان ، فأنسى صوتُهُ الكتانيَّ والدهان . فسمعهُ ثعلب ، فقال : "مطلب" وسارع من وَكْرِهِ ، وحمل شبكةِ مَكْرِه ، وتوجّه إليهِ ، فرآهُ فسلّم عليهِ .

فلما أحسّ بهِ أبو اليقظان ، طفر إلى أعلى الجدران ، ثمَّ حياهُ تحيةَ مشتاق ، وترامى لديهِ ترامي العشاق ، وقال : أنعش الله بدنَك وروحَك ، وروَّى من كاساتِ الحياةِ غَبُوقَك وصَبُوحَك ، فإنك أحييتَ الأرواح والأبدان ، بطيب النغمِ والصِّياح في الآذان ، فإن لي زماناً لم أسمعْ بمثلِ هذا الصوت ، وقاك الله نوائبَ الفوت ، ومصائبَ الموت ، وقد جئتُ لأسلِّمَ عليك ، وأذكِّرَك ما أُسدي من النعم إليك ، وأُبشِّرَك ببشارة ، وهي أربحُ تجارة ، وأنجحُ من الولايةِ والإمارة ، ولم يتفقْ مثلُها في سالفِ الدهر ، ولا يقع نظيرُها إلى آخرِ العصر ، وهي أنَّ السلطان ، أيَّدَ الله بدولتهِ أركانَ الإيمان ، أمرَ منادياً فنادى بالأمان والاطمئنان ، وإجراءِ مياهِ العدلِ والإحسان ، من حدائقِ الصحبةِ والصداقةِ في كلِّ بستان ، وأن تشملَ الصداقةُ كلَّ حيوان ، من الطيرِ والوحش والحيتان ، ولا يقتصرُ فيها على جنسِ الإنسان ، فيتشارك فيها الوحوشُ والسباع ، والبهائمُ والضباع ، والأَرْوَى والنعام ، والصقرُ والحمام ، والضبُّ والنون ، والذبابُ وأبو قلمون ، ويتعاملون بالعدلِ والإنصاف ، والإسعافِ دون الإعساف ، ولا يجري بينهم إلا المصادقة ، وحسنُ المعاشرةِ والمرافقة ، فتُمحى من لوح صدورِهم نقوشُ العداوةِ والمنافقة ، فيطيرُ القطا مع العقاب ، ويبيتُ العصفورُ مع الغراب ، ويرعى الذئبُ مع الأرنب ، ويتآخى الديك والثعلب . وفي الجملةِ لايتعدّى أحدٌ على أحد ، فتأمن الفارةُ من الهرة والخروفُ من الأسد ، وإذا كان الأمرُ كذا ، فقد ارتفع الشرُّ والأذى ، فلا بد

أنْ يُمتثلَ هذا المرسوم ، ويُترَكَ ما بيننا من العداوةِ والخُلُقِ المذموم ، ويجري بيننا بعد اليوم المصادقة ، وتنفتح أبوابُ المحبة والمرافقة ، ولاينفر أحدٌ منّا من صاحبه ، بل يراعي مَوَدَّتَهُ ويبالغ في حفظِ جانبه ، وجعل الثعلبُ يقرِّرُ هذا المقال ، والديكُ يتلفتُ إلى اليمين والشمال ، ويحتاطُ غايةَ الاحتياط ، ولا يلتفتُ إلى هذا الهذيان والخباط .

فقال الثعلب : يا أخي ، ما لَكَ عن سماعِ كلامي مرتخي ، أنا أبشرك ببشائرَ عظيمة ، لم تتّفقْ في الأعصرِ القديمة ، وإنّما برزتْ بها مراسيم مولانا السلطان الجسيمة ، وأراك لا تلتفتُ إلى هذا الكلام ، ولا تُسَرُّ بهذا اللطفِ العام ، ولا تلتفتُ إليّ ، و لا تعول عليّ ، وتستشرفُ على بُعد لِشَيّ ، فهلا أخبرتَني بما اضمرتَ ونويت ، وتطلعني فيما تتطاولُ إليه على ما رأيت ، حتى أعرفَ في أي شيءٍ أنت ، وهل ركنتَ إلى أخباري وسكنت ؟ فقال : عجاجاً ثائراً ، ونقعاً إلى العنان فائرا ، وحيواناً جاريا ، كأنه البرقُ ساريا ، ولا عرفتُ ما هو ، ولكنهُ أجرى من الهوا . فقال أبو الحصين ، وقد نسي المكر والمَيْن[٢٠٧] : با للهِ يا أبا نبهان ، حَقِّقْ لي هذا الحيوان فقال : حيوانٌ رشيق ، لهُ آذانٌ طوالٌ وخصرٌ دقيق ، لا الخيلُ تلحقهُ ، ولا الريحُ تسبقهُ ، فرجفت قوائمُ الثعلب ، وطلب المهرب . فقال أبو المنذر : تلبَّثْ يا أبا الحصين واصبرْ ، حتى أحقِّقَ رؤيتَه ، وأتبينَ ماهيتَه ، فإنه يا أبا الحصين ، يسبق طرفَ العين ، ويكادُ أبا النجم ، يخلف النجم في الرجم . فقال : أخذني فؤادي ، وما هذا وقت التمادي ، ثم أخذ يَسْلَح[٢٠٨] ، وولّى وهو يصدح ، بقولِه :

---

[٢٠٧] المَيْن : الكذب .

[٢٠٨] يخرج ما في جوفه من فضلات .

لابِسَ التـاج العقيقي   لا تَقِفْ لي في طريقي
إنْ يكُنْ ذا الوصفُ حقّا   فهو والله السلوقي[٢٥٩]

فقال الديك : وإذا كان ، وقد قلتَ إنّ السلطان ، رسم بالصلحِ بين سائرِ الحيوان ، فلا بأسَ منهُ عليك ، فتلبَّثْ حتى يجيءَ ويقبّل يديك ، وتُعقد بيننا عقودَ المصادقة ، ويصيرُ رفيقَنا ونصيرُ رفاقَه . فقال : أو ما زعمتَ يا أبا وثّاب ، أنَّ السلطانَ رسمَ للأعداءِ والأصحاب ، أن يسلكوا طرائقَ الأصدقاءِ والأحباب ، فلو خالفَ المرسومَ هذا الكلب ، لما قابلهُ المَلِكُ إلاّ بالقتل والصلب . قال : لعل هذا المشوم ، لم يبلغْهُ المرسوم ، ثمَّ ولّي هاربا ، وقصد للخلاص جانبا !!

وإنما أوردتُ يا نفيس ، هذا المثالَ لتقيس ، أحوالَ مَنْ دان ، لك من هذا الحيوان ، ولا تشقها بعصاً واحدة ، واحسبْ حال كل واحدةٍ على حدة ، فربما يكون في هذه البهائمِ ، مَنْ لا هو بأحوالِ الصلحِ عالِم ، ولم تبلغْهُ الدعوة ، وإنّما انضافَ بسبب رجوة[٢٦٠] ، أو آمن على سبيل التبعية والتقليد ، ولم يطلعْ على مواردِ الوعد والوعيد ، ولا وقفَ على ما وقع من الاتفاق ، ولا يلبث لمصادمةِ اللقاءِ وقت التلاق ، فيصدر منكم حركة ، تؤدى إلى قلة بركة ، وتستطرد إلى نفرةٍ وجفول ، فيدهمُنا هدم ما أسسناهُ على غفول ، ويقعُ من الفسادِ ما لا يمكن تلافيه ، ويضيعُ نقودَ جواهر جَهدنا وكَدِّنا فيه . وإذا كانت الدنيا محلَّ العوارض ، والغالبُ انّهُ عند مشارفةِ المقصودِ يحصلُ العارض ، والعاقلُ لا يغفلُ عن هذا الخطر ، فعند صفوِ الليالي يحدثُ الكدر ، وقد كفاك ، من ناداك ، بقولِهِ :

إذا قَرُبَتْ يداكَ إلى مرامٍ   وَقُلْتَ تَحوّلت نفسى مناها
فَلاَ تَأمَنْ من الدهرِ اختلاسا   بِحَوْلٍ فَمَكْرُهُ في ذا تناهى

---

[٢٥٩] السلوقى : كلب من كلاب الصيد الجيدة ، ينسب إلى قرية سلوق فى اليمن .

[٢٦٠] الأمل أو الطمع .

كَجَـــانٍ لم يصبْهُ الشـوكُ إلاَّ   وقد وَصَلَتْ يداهُ إلى جَنَـــاهـــا

فالرأيُ السديد ، يا أبـا سعيد ، يقتضـي أن تمضـيَ الحمامـةُ المطوقـة ، إلى تلـك الجموعِ المفرقة ، وتنادي في كل نادي ، بين الحاضر والبـادي ، والرائـحِ والغـادي ، بحقـائقِ الأمـور ، وتطيـب خـاطرَ الجمهـور ، ومـا هـم قـادمون عليـه ، ومَـنْ هـم الواصلون إليه ، ليعلموا أنّهم في صفقتهـم رابحـون ، وأنهـم علـى هـدى مـن ربهـم وأنهم مفلحـون . فتوجَّهـتْ الحمامـةُ بهـذه النقـوش ، وشـهرت النـداءَ في طوائـفِ الوحوش ، بما هم عليهِ قادمون ، وأنهم للملِكِ يسار خادمون .

ثم تبعها الوزير ، ومعه كلُّ أميرٍ وكبير ، من خـواصِّ المباشـرين[٢٦١] ، والأعيـانِ الملازمين ، وكبراءِ الأطيار ، ورؤساءِ الأخيار ، واستقبلوا ملوكَ الوحـوش والهـوام ، ورؤسـاءَ السـوائمِ[٢٦٢] والسـوام[٢٦٣] ، وقـابلوا ملتقـاهم بـالإعزازِ والإكـرام ، ووعدوهم بكلِّ خير وإحسـان ، ووصلـوا بهم إلى ميدان الأمان ، وحين حلّ عليهم نظرُ السلطان ، قبَّلوا الأرض ، ووقفوا في مقام العرض ، وأدّوا من واجـبِ العبوديـة النَفْلَ والفرض ، فأنزل كلاً في مقامه ، بعد أنْ أحَلَّهُ في محل إكرامـه ، وأفـاض عليـه خلع إحسانهِ وإنعامه ، وعلت منزلةُ الوزير ، وتقدم كما تقدم وأشـير ، وصفـا لهـم الزمان ، وعاش في ظلِّ عَدْلهم كلُّ ضعيفٍ من الحيوان ، وتقلّبوا في رياضِ الأمـاني ، على بساطِ الأمانِ .

وفـائدةُ هــذه الحكايـات ، تنبيـهُ أشـرفِ جنـسِ المخلوقـات ، وألطـفِ طائفـةِ المكـوّنات ، وهـو نوعُ الإنســان ، الـذي اختصـهُ الله تعـالى بأنـواعِ الإحســان ،

---

[٢٦١] المباشرون : كبار الموظفين فى الدولة .

[٢٦٢] السوائم : كل إبل أو ماشية ترسل للرعى .

[٢٦٣] السوام : كل ذى سم كالثعبان والعقرب ونحوهما .

وأيدهُ بالعقل ، وأمدهُ بالنقل . على أنه إذا كان هذا الفعلُ الجليل ، يصدرُ في التنظيرِ والتمثيل ، من أخسِّ الحيوانات ، وما لا يُعقل مـن الموجـودات ، فَلأَنْ يَصْـدُرَ مـن أُولي النهي ، وأُولي الفضلِ والمكارمِ والعُلا ، أَوْلى وأَحْرَى ، لا سيِّما مَنْ رفعَ الله في الدنيا مقدارَه ، وأعلى على قِمَمِ الخلائقِ منـارَه ، وحكّمـهُ في عبيـدهِ المستضعفين ، واسترعاهُ على رعيةٍ سامعين مطيعين ، وسلطهُ على دمائهم وأموالهـم ، وبسـط يـدَهُ ولسانَهُ في رفاهيتهم ونكالهم . والأصلُ في هذا كلِّه ، قَوْلُ مَنْ عَـمَّ عبيـدَه بفضلـه ، وبقولـه اهتـدى العـالمون ﴿وَتِلْـكَ الأَمْثَـالُ نَضْرِبُهَـا لِلنَّـاسِ وَمَـا يَعْقِلُهَـا إِلاَّ العَالِمون﴾[٢٦٤] .

آخـرُ البـابِ السـادس ، والحمـد لله رب العـالمين

وصلى الله على سيدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين .

آمين

[٢٦٤] قرآن كريم ، سورة العنكبوت : ٤٣ .

الباب السابع

في ذكر القتال بين أبي الأبطال الرئبال وأبي دغفل سلطان الأفيال

قال الشيخُ أبو المحاسن ، مَنْ ليس لهُ في الفضلِ مساوٍ ولا مواسٍ : فلما أنهى الحكيمُ حسيب ، كلامَهُ الأحْلَى من النسيب ، قبّله أخوهُ بين عينيهِ ، وأفاض خِلَعَ الإنعامِ عليهِ . ثمَّ استزاده ، وفتح لجامع فضله بابَ الزيادة . وكان قد وقع بين ملكِ الأفيال ، وبين ملكِ الأسود المسمَّى بالرِئْبال ، المكنّى بأبي الأشبال وأبي الأبطال ، مقالٌ أدَّى إلى جدال ، واتَّصل بحربٍ وقتال . فسأل الملكُ أخاه ، هل سمع من ذلك شيئاً وَرَعَاه . فأجاب بالإيجاب ، وذكر في الجواب ، الأمرَ العجاب ، فقال :

كان يا ملكَ الزمان في بعض أطرافِ الهنود ، من عساكرِ الأفيالِ جنود ، في جزيرةٍ ، عظيمةٍ كبيرةٍ لهم من جنسهم ، وجلدتهم ونفسِهم ، ملكٌ عظيم ، ذو جسمٍ جسيم ، وشكلٍ وسيم ، منظرهُ بديع ، وهيكلُه رفيع ، طويلُ الخرطوم ، واسعُ الحلقوم ، مبسوطُ الأذنين ، حديدُ العينين ، طويلُ الأنياب ، كأنهُ طَوْدٌ في جراب ، كثيفٌ في المرأى ، خفيفٌ في الموْطَا[1] ، عددُ جيشهِ غزير ، ومددُ جندِهِ كثير ، وهو فيهم ملكٌ كبير ، ذو قدرٍ خطير ، منفردٌ بالسرير ، وورثهُ كابراً عن كابر ، وكلُّ جيشِهِ رؤساءٌ وأكابر ، لأوامرِهِ طائعون ، ولما يراهُ تابعون ، فبلغهُ في بعضَ الأيام ، أنَّ في بعضِ الغياضِ والآجامِ مكاناً في غايةِ النزاهة ، معدنَ الفواكهِ

[1] الموطا أو الموطئ : موضع القدم ، والضغطة الشديدة .

والفكاهة ، ذا مياهٍ عذبة ، ومروجٍ رطبة ، أراضيها أريضة[2] ، ورياضُها طويلةٌ عريضة ، أطيارُها تُسكر بألحانها ، وأشجارُها تُخجل قُدودَ الملاحِ بأغصانها ، وأزهارُها زَهِرَة ، وأنوارُها نَضِرَة ، ونسيمُ الصبا والشَّمال تنشرُ إلى الآفاقِ طيبَ أنفاسِها العَطِرَة ، وأنَّهُ يصلحُ أن يكونَ لملكِ الأفيال مقاما ، مع أن فيهِ من الجبال والحصون معاصمَ وعصاما ، غير أنَّ فيهِ أسداً هصورا ، جمع فيهِ جنداً كثيرا ، ولا زال الناقلُ يصفُ ويُطنب ، ويُعجم في حسنِ شمائلها ويُعرب . حتى قال بعض الندماءِ الحاضرين من الكبراء ، لو قصد الملكُ ذلك المكان ، وجعلَهُ لنفسِهِ من بعضِ الإسكان ، وتنقّل إليهِ في بعض الأوقات ، وساعاتِ التفرُّجِ في المنتزهات ، لأراح نفسَهُ الخطيرة ، من وخم هذه الجزيرة ، ووجد لذَّةَ الطعام ، ونشوةَ الشرابِ على المدام . والأسدُ الذي فيها ، وإنْ كان مالِكَ نواحيها ، وَبِيَدِ تصرُّفه زمامُ نواصيها ، وجماجمُ قلاعِها وصياصيها[3] ، لكنَّهُ ملكٌ عادل ، وسلطانٌ فاضل ، تمنعه شهامتُه ، وكرمُ نفسِهِ وكرامتُه ، ورياستُه وزعامتُه ، أنْ يضايقَ الملك في ذلك ، أو يضيّق سلوكَها على سالك ، وإنْ شرع في الممانعة ، وأخذ في أسبابِ المدافعة ، بالمقارعة والمنازعة ، فالعساكرُ المنصورة ، وأعدادُهم الموفورة ، فيهم بحمد الله لذلك قوَّةٌ وكفاية ، ولهم في بداية الحروبِ هداية ، وفقاهةٌ ليس لشرحها غاية ، ولا لفروع أصولها نهاية ، يحيون في مباحثها النفوس ، ويُعيدون في مدارسِ الحربِ بتكرار الضرب فاني الشجاعة بعد الدروس ، فيكفُون الملكَ أمرَهُ ، ويكفّون أذاه وشرَّه ، ولا زال يفتل منهُ في الغالب والذروة ، ويقوّي بتمويهاتهِ دواعي الحرصِ والشهوة ، حتى اقتنصتهُ أشراكُ[4] المطامع ، وأوقعتْهُ في عبوديَّةِ شهوةِ تلك المواضع ، ودعتهُ

---

[2] أريضة : كثيرة الرياض .

[3] صياصيها : حصونها .

[4] أشراك جمع شرك ، وهو الفخّ أو حِبالة الصيد .

النفسُ الأبية ، وحميةُ الجاهلية ، وباعثُ العصَبيَّة ، إلى الاستيلاء على تلك الأماكنِ البهية ، والولاياتِ السنية ، والمساكنِ الزهية ، وإسامة سوارحِ اللحاظِ في مراعي نزهةِ تلكِ الغياض ، ومروجِ أراضي هاتيكِ الرياض . وأزعج في ذلك المقتضي ، وأسلمَهُ العدلُ والخُلُقُ الرضي ، وغلب عليهِ سيِّءُ الطباع ، واستولت عليهِ فوارغُ الأطماع ، وعشقها على السماع .

وكان عندهُ أَخَوَان هما لهُ عَضُدان ، هما وزيراه ، وفي مهامِّه مشيراه ، مسعداه في الأمور ، ومُنجداه في أحوالِ السرورِ والشرور ، أحدُهما : واسطةُ خير ، قليلُ الشرِّ عديمُ الضير ، قد جرَّب الزمانَ وعاناه ، وقالبَ قوالبِ وقائعهِ بالمقايسةِ ما قاساه ، اسمهُ "مُقبل" ، وهو كاسمه مفضل . والآخر : بالعكس ، فى جميعِ حركاتِه وَكْس[٥] ، وهو كاسمهِ "مُدبر" ، بكلِّ شيءٍ مُخبر ، قصدُه غبارُ فِتَنٍ يثيرهُ ، وعسكرُ بلاءٍ يُغيرُه ، وطالبُ أذى وعناءٍ يعيرُه ، أوسِرٍ يذيعُه ، أو مكرٍ يشيعُه ، أو متسوّقِ شرٍّ يبيعُه . وهما ملازمان الخدمة ، واقفان في مقامِ الحشمةِ والحرمة ، كالفتقِ والرتق ، والباطلِ والحق ، والكذبِ والصدق . وفي الإفسادِ والإصلاح ، كالمرهمِ والجراح ، ومُصلحِ الدرهم ومفسدِ الراح ، ومرشدِ العقل ومعتل الأقداح . و فى الوفاقِ والشقاق ، كالسمِّ والترياق . وفي الحكمِ والقضاء ، كالداءِ والدواء . وفيما يقعُ من الحوادث ، المفرحاتِ والكوارث ، كالحرِّ والبرد ، والشوكِ والورد .

فاختلى الملكُ بأخويهِ ، واستشارهما فيلما أُنهي إليه ، فقال أخوه المقبل : يامولانا أبا دغفل[٦] ، لَوْ لَمْ يكُنَ بهذا المكانِ أحد ، من أدنى الوحوش فضلاً عن الأسد ، لكان قصدُهُ ترفُّعاً وترفُّها ، والتوجُّهُ إلى الاستيلاء عليه موجّها ، فكيف وذلك في

---

[٥] الوكس : الخسارة والنقصان .

[٦] الدغفل هو ولد الفيل .

ولاية مالك ، وهو مـالكٌ صعب ، كـأبي حفص الصعب ، ملكٌ كبيرٌ عـادل ، وسلطانٌ خطيرٌ فاضل ، مطاعٌ في صاغيته[٧] ، متبوعٌ في حاشيتهِ ، عادلٌ في رعيتهِ ، سيرتُه مشكورة ، ومحاسنُه مأثورة ، وهيبتُه وبسالتُه غيرُ منكورة ، وهو جـارٌ حَسَن الجِوار ، لم يضبط عليه ، ما يقتضي انتزاع مُلكهِ من يديه ، ولم يتعرَّض إلى متعلقاتنا ، ولا آذى أحداً في ولايتنا ، وإن مولانا السلطان ، لم يصدر منهُ إلا العدلُ والإحسانُ إلى الأباعدِ والأجانبِ فضلاً عن الجيران ، لاسيمَّا الملوكُ والأكابر ، ومَن ورث المُلْكَ كابراً عن كابر ، ولقد تلقَّفْتُ من أفواهِ الحكماء ، وتشنَّفتْ مسامعي من جواهر ألفاظِ العلماء ، بثلاثِ نصائح ، هي من أحسنِ المنائح ، إحداها : احذرْ أيُّها الموفق ، أنْ تقع في دمٍ بغيرِ حق ، ثانيتها : إياك يا ذا التوفيق ، وأموالَ الناس بغيرِ طريق ، ثالثتها : إياكَ يا ذا الشيمِ الكريمة ، وهدمَ البيوتِ القديمة . واعلمْ أنَّ الله تعالى عمَّ رزقُه ، وخصّ كلَّ موجودٍ بما يستحقُه ، وقد أقام الأسد في تلك الأماكن ، وهو وإنْ كان متحركا فهو فيها ساكن ، ولو لم يستاهل ، لَما اختص بتلك المناهل ، وما ينكر هذا إلاّ جاهل ، أو مَنْ هو عن الحق ذاهل ، وحاشى أنْ تنسب يارئيسَ الأخيار ، إلى حسدٍ أو سوءِ جِار ، وعظمتُك تأنفُ عن ذميمِ الأخلاق ، وكيف وقد انتشر بالفضلِ صيتُها في الآفاق ، وإذا كان للشخصِ ما يكفيهِ ، فينبغي أنْ يقتصرَ عمَّا يطغيهِ ، ومن حسن إسلام المرءِ تركُه ما لا يعنيه ، وقد أحسن فى المقال من قال :

يا أحمدُ القنع بالذى أوتيتَه	إن كنتَ لا ترضى لنفسِك ذُلَّا
واعلمْ بأنّ الله جَلّ جلالُه	لم يَخْلِق الدنيا لأجلِكَ كلَّها

---

[٧] الصاغية : المستمعون إليه .

فالتفتَ الملكُ إلى المدبرِ ، وأشار إليه كالمستخبر ، ماذا تشير ، أيها الأخ والوزير ؟ فقال : جميع ما قررهُ مولانا الوزيرُ حقّ ، وجملةُ ما ذكرَهُ وحررَهُ صدق ، نصائحٌ ترشدُ العقول ، وتزينُ عقودَ المعقولِ والمنقول ، ولكن لا يخفى على كريمِ العلوم ، أنَّ الأسدَ حيوانٌ ظلوم ، غالبٌ طالبٌ ، وخلاصُ الرعية من شرِّهِ واجب . ويلزمُ كلَّ أحدٍ أن يخلّصَ الرعايا من ظلمِ الأسد ، ومولانا يبلغُه ظلمُه ، ولم يُحِطْ بأحوالِ الأسدِ عِلْمُه ، وإنهُ من أظلمِ البرية ، لِمَنْ تحت يدهِ من الرعية ، وإنهُ يجبُ على مولانا السلطان ، خلاصُ الرعيَّةِ منهُ على أيِّ وجهٍ كان . وأيضاً فإنَّ إنعاماتِ مولانا البارّة ، على كلِّ أحدٍ من الخَلْقِ دارَّة ، والخرجَ والكلف ، والكرمَ الذي بأناملهِ ائتلف ، كلَّ يومٍ في ازدياد ، والعساكرَ المنصورةَ كلَّ وقتٍ تزداد ، وإذا لم تتسع الولايات ، وتكثرْ الجهاتُ والإقطاعات ، كان يومُ الخرجِ[8] أكثرَ من الدخل[9] ، والمصروفُ من الخزانة كالوبل[10] ، والدخلُ كالطل ، وإذا زاد المصروفُ على الحاصل ، عجز الواصل ، وفرغ الحاصل[11] ، ودَلّ ذلك على ركاكة الهمّة ، وقصورِ النهمة . والملكُ يجب عليهِ ، والمندوبُ في شرعِ همّتهِ إليهِ ، أنْ يكونَ كلَّ وقتٍ جديد ، في فتحٍ سعيد ، وتَرقٍّ مزيد ، وتوسعةِ الممالك ، وتنزيهِ بساطِ السلطنةِ عن المنازعِ والمشارك ، والاستكثار من الجند والرعية ، واستجلاب خواطرهم الأبيَّة ، بالجوائز السنية ، والإنعامات السمية . ولا يجوزُ في ملّة الإسلام ، أن يتعدَّدَ الخليفةُ الإمام ، ولله درُّ القائل ، العليُّ الشمائل .

إذا ما لم تكُن مَلكاً مطاعا ... فكُنْ عبداً لمالِكِهِ مُطيعا

---

[8] الخرج : يقصد به مصروفات الدولة ونفقاتها .

[9] الدخل : يقصد به واردات الدولة .

[10] الوبْل : المطر الشديد .

[11] الحاصل : المخزن ، ويقصد به هنا ميزانية الدولة .

وناهيك ، يا ملكَ الممالكِ والممـاليك ، في علوِّ الهمّـة ، وصـدقِ العزمـة ، وغـوصِ الأفكار ، في استخلاصِ ممالكِ الأقطار ، قضيةَ فَحْلِ الرجل ، تيمورلنـك ، الأعـرجِ الدجَّال ، مع نائبهِ "الله داد" أحدِ القوّاد ، ونوّاب البلاد . فسأل أبو مزاحم ، أخـاهُ عديمَ المراحم ، عن تلك القضية ، وإيضاحها عن جلية .

[١/٧] قصة تيمورلنك مع نائبه

فقال : إن تيمورَ رأسَ الفسّاق ، الأعرج الذي أقام الفتنة على سـاق ، لَمّـا حَـلّ بالممـالك الروميـة ، في شـهورِ سنةِ خمسٍ وثمانيـة ، وأسـر مالِكَهـا ، واسـتخلصَ ممالكَها ، استمر في ممالكِ العربِ يصـول ، وفي فكـرهِ استخلاصُ ولايـاتِ الشـرقِ يجول . وكان أقصى ما انتهت إليه في الشرق مملكتُه ، ونفذت بسـهام أحكامـهِ فيـهِ أقضيتُه ، بلداً يسمى أشباره ، قد أعدّه لشياطينِ النهبِ والغـاره ، وبنـى فيـه قلعـة ، ونقل إليه من ذوي المنعة ، جنداً منتخباً من كـل بقعـة ، وهـو في بحر ممـالكِ المُغْلِ والتتار ، والحدُّ الفاصلُ بين ممالكه وولاياتِ عُبَّادِ الشمس والنار ، وأَمَّرَ على أولئـك الأجنـاد ، شـخصاً يُدعـى الله داد ، وهـو مـن خـواصِّ أمرائـهِ ، ورؤسـاءِ جنـده وزعمائه . فمن جملة ما أَمرَهُ بهِ ذلك المشـوم ، وهو مُخيِّمٌ ببـلادِ الـروم ، أنَّـهُ أبـرز إليهِ مُرَاسَلَة ، فيها أُمورٌ مجملة ومفصَّلة ، أَمَرَهُ بامتثالها ، وإرسالِ الجوابِ ببيانِ كيفيَّة حالهـا . منها أنّـهُ يُبيِّـنُ لـهُ أوضـاعَ تلـكِ الممـالك ، ويوضحُ كيفيَّـةَ الطـرقِ بهـا والمسـالك ، ويذكـرُ لـهُ مدنَهـا وقراهـا ، ووهدَهـا وذراهـا ، وقلاعَهـا (وصياصيها)[١٢] ، وأدانيها وأقاصيها ، ومفاوزَها وأوعارَها ، وصحاراها وقفارَها ،

---

[١٢] صياصيها : حصونها .

وأعلامَها ومنارَها ، ومياهَها وأنهارَها ، وقبائلَها وشعابها ، ومضائقَ دروبها ورحابَها ، ومعالمها ومجالَها ، ومراحلَها ومنازلها ، وخاليَها وأهلَها ، بحيث يسلكُ في ذلك السبيل الإطنابَ الممل ، ويتجنّبُ مآخذَ الإيجازِ خصوصاً المخِلّ ، ويذكرُ مسافةَ ما بين المنزلتين ، وكيفيةَ المسيرِ بين كلِّ مرحلتين ، من حيث تنتهي إليه طاقتُه ، ويصلُ إليه علمُه ودرايتُه ، من جهةِ الشرقِ وممالكِ الخطا[١٣] وتلك الثغور وإلى حيث ينتهى إليهِ من جهة سمرقند علمُ تيمور ، وَليعلَمْ أنَّ مقامَ البلاغةِ في معاني هذا الجواب ، هو أن يصرفَ فيهِ ما استطاع من حشوٍ وإطناب ، وتطويلٍ وإسهاب ، وليسلكْ في بيانهِ الطريقَ الأوضحَ من الدلالة ، وليعدلْ عن الطريقِ الخفيِّ في هذه الرسالة ، إلى أن يفوقَ في وصفِ الأطلالِ وتعريفِ الرسوم ، وحدودِ الدمنِ صفةَ الشيخِ القيصوم . فامتثل "ا لله داد" ذلك المثال ، وصوَّر لهُ ذلك على أحسن هيئةٍ وآنق تمثال ، وهو أنَّهُ استدعى بعدّةِ أطباق ، من نَقِيِّ الأوراق ، وأحكمَها بالإلصاق ، وجعلها مربَّعةَ الأشكال ، ووضع عليها ذلك المثال ، وصوَّر جميعَ تلك الأماكن ، وما فيها من متحركٍ وساكن ، فأوضح فيها كلَّ الأمور ، حسبما رسم بهِ تيمور ، شرقاً وغربا ، بُعداً وقربا ، يميناً وشمالا ، مهاداً وجبالا ، طولاً وعرضا ، سماءً وأرضا ، مرداءً[١٤] وشجراء ، غبراءَ وخضراء ، منهلاً منهلا ، ومنزلاً منزلا ، وذكر اسمَ كلِّ مكانٍ ورسمه ، وَعَيَّنَ طريقَهُ ووسمَهُ ، بحيث بيَّن فضلَهُ وعيبَه ، وأبرز إلى عالَمِ الشهادةِ غيبَه ، حتى كأنَّهُ شاهده ، ودليلُه ورائده . وجهز ذلك إليه ، حسبما اقترحهُ عليه ، كلُّ ذلك وتيمور ، في بلاد الروم يمور ، وبينهما مسيرةُ سبعةِ شهور . وكذلك فعل ذلك البطل ، وهو بالبلاد الشامية ، سنة ثلاثٍ وثمانية ، مع القاضي وليِّ الدين ، عمدةِ المؤرخين ، أبي هريرةَ عبدِالرحمن بنِ

---

[١٣] ممالك الخطا : فى الصين ، حيث الامبراطورية المغولية .

[١٤] المرداء : الأرض الخالية من النبات .

خلدون ، أغرقه الله في فَلَكِ رحمتِه المشحون ، وقد سألهُ عن أحوال بلادِ الغرب ، وما جرى فيها من صلحٍ وحرب ، وما وقع فيها من خيرٍ وشر ، ونفعٍ وضر . ثم أنّهُ اقترح عليهِ ، وتقدّم بالأمر إليهِ ، بوضعِ أوضاعها ، ورسمِ مدنِها وقلاعِها ، وحصونها وضِياعِها ، وتخطيطِ ولايتها ، وأشكالها وهيئاتها . فامتثل ذلك وأبداه ، وعلى حسب ما أختارَه واقترحه أنهاه ، وبيَّنَ ذلك مثلما ذُكِرَ أعلاه . فشاهد أوضاعَها ، وخبر وهَادَها وبقاعَها ، كأنَّ الحائلَ رُفع من البيْن ، وعاينَ عينَ ذلك الإقليم بالعيْن ، فانظر إلى هذا الأعتمي"[١٥] ، وهو "سطيح" نصف آدمي"[١٦] ، وهمته العالية كالبرق ، تضرب تارةً في الغرب وأخرى في الشرق .

وإنما أوردتُ هذه القضية ، ليقفَ سامعُها على مقدارِ الهمّةِ العليّة ، فلا يرضى الملكُ الهمامُ بالمنزلة الدنيّة ، ولا يقنعُ بالدرجةِ الوطيّة ، بل يجتهدُ في تكثيرِ الجندِ والرعية ، وفتحِ الأقاليمِ العربية والعجمية ، ولا يقتصرُ على الحالة السوية ، وإنما يلازمُ طلبَ الارتقاء بُكْرةً وعشية ، ويكون سعيُه كالشكر يطلبُ المزيد ، وكما يستديمُ طلبَ الزيادة ، من مولاه يستديمُ زيادةَ العبيد ، وإلا فيُنسبُ إلى قصورِ الهمَّة ، وإفلاسِ الذمَّة ، ونقصانِ الحرمة ، وبطلانِ الحشمة ، وأعظِمْ بها من وَصْمَة ، وبالعجزِ والتقصير ، يضيعُ حقوقُ المُلْك الخطير ، وتجدُ الرعيةُ للطعنِ مقالا ، وفي ميدانِ الإعراضِ عن الملكِ مجالا ، وهذا خلافُ موضوعِ الإمامة ، وعكسُ ما تقتضيهِ الرياسةُ والزعامة ، فإن موضوعَ السلطنة ، أنْ يتعاطى الملكُ مهما أمكنه ، من أسبابِ الفتح والفتوح ، وما يستميل بهِ من الرعية القلبَ والروح ، وذلك بالإحسانِ والإكرام ، والبذلِ والإنعام ، فَبِهِ تقوى رغبتُها ، وتزدادُ

---

[١٥] الأعتمي : البطيء الحركة الذى يعمل في العتمة .

[١٦] سطيح : كائن شبه أسطورى ، عاش فى العصر الجاهلى ، كان لديه قدرة بارعة على التنبؤ والكهانة .

محبتُها ، فإذا لم يكُنْ ذلك ، قَلَّ المملوكُ عن الممالك . واسمعْ قولَ الأديب ، ذى الرأي المصيب ، وهو :

إذا أهملتَ أمرَ العبدِ يوماً	وقصَّرتَ العليقَ عن الحمار .
توقّف في المسير أبو زيادِ	وقام العبدُ يجرى للفرار

وقيل : "والدَّرُّ يقطعُه جفاءُ الحالب" وقال أشرفُ جنسِ الإنسان "عُلُوُّ الهمَّةِ من الإيمان" فالرأيُ السديدُ عندي والذي بلغ إليهِ جُهدي ، إنفاذُ هذه العزيمة ، وسلوكُ طريقها القويمة ، وإبرازُها من مكانِ القول ، إلى ظواهرِ العمل والحول ، والاعتماد على ما قيل :

فلا تثنِ عَزْمَكَ خَوْفَ القتالِ	بِسُمْرٍ دقاقٍ وبيضٍ حدادِ
عسى أنْ تنالَ الغني أو تموتَ	فعذرُك في ذاك للنّاسِ بادِ
فإنْ لم تنلْ مطلَباً رُمْتَهُ	فليسَ عليك سِوَى الاجتهاد

فأقبل الملكَ على المقبل ، وقال : توَجَّهْ بكُلّيتك عليَّ وأَقبلْ .

ولا تبق مجهوداً برأيِكَ إنّهُ	سديدٌ ومَنْ يَقْفُ[17] السديدَ سديدُ

فإن القلبَ قد مال إلى العزم ، والأخذِ في التوجُّه بالحزم ، وترجح جانب الوثوب ، إلى جهة هذا المطلوب ، فأَمْعِنْ النظر ، وأَجِلْ قِداحَ الفكر ، ولاتُخْفِ رأياً يسنح ، في أيِّ جهةٍ ترجح . فقال : أفعل بشرط أنْ يُقْبَل : اعلمْ زادَكَ الله علماً ، وفضلاً وكرماً وحِلْما ، أن الذي رآهُ العلماء ، وأشار بهِ ذوو الحنكةِ من الحكماء ، أنّ مَنْ طلبَ وفورَ خيره ، وفائدةَ نفسِهِ فى مضرّةِ غيره ، لا يتمتعُ بتلك الفائدة ، ولا تُثمرُ معهُ تلك العائدة ، وهذا على تقديرِ حصولها ، والاستيلاءِ على فروعِها وأصولها ، وإن لم يظفرْ بها ، فلا تستفدْ النفسُ غيرَ كرْبها ، مع زيادة الحسرة ، وسوءِ الصِّيتِ في الشهرة ، ووفورِ الندم ، وزلةِ القدم ، وكلُّ مَنْ أراد تمشيةَ هواه ، ولم يلتفتْ إلى

---

[17] يقفو : يقصّ أثره ويسير على نهجه .

ما سِوَاه ، ورأى نفسَه أحقَّ من غيرِه ، فلا تطمع أبداً في خيرِهِ ، ولا يكـاد ، يسلمُ من الإنكاد ، ولا يصفو لهُ زمان ، ولا تدومُ لهُ أخِلاّء وإخـوان ، ولا تـزال دِيَـمُ[١٨] الهموم ، من غَمامِ الغُموم ، تهْمي على حدائقِ آمالِهِ ، وتسقي مـزارعَ أحوالِـه ، إلى أن تحظل[١٩] نخلاتُ نيّته ، وتيبسُ حقولُ طويّته ، ويحصدُهُ حـرّاثُ الفنـا ، ويدرسُـه دَرّاسُ الردى ، ويذري حبات وجودهِ الهوان في الهواء ، ويُنقلُ عن بَيْدَرِ الشقاء ، إلى طاحون البلاء ، فهناك يجدحُ سَـوِيق[٢٠] أفعالـهِ مـا يزيغـه ، فيحسـوهُ ويتجرّعُـه ولا يكادُ يسيغُه ، ويصهرُ بهِ ما في البطون ، ويُقال لهُ : ذوقوا ما كنتم تكسـبون . هـذا وإذا كان الدخلُ لا يفي بالخـرج ، وخيفَ من ذلك وقوعُ هـرجٍ ومـرج ، فيحسـن التدبير ، بتصرّفِ الملكِ الخبير ، وبكفايـةِ الوزيـر ، وتوفيرِ المشير ، يَجِـلُّ الحقـير ، ويكثرُ النزْرُ اليسير ، كمـا قيل :

قليـلُ المالِ تُصْلِحُـهُ فيبقَى ... ولا يبقـى الكثيـرُ مع الفساد

وبالخُلق الحسنِ وحُسْنِ السياسة ، تملكُ رقـابَ أولي الرياسـة ، فضـلاً عـن العوام ، وهذا بحسـب المقام ، ولا يتصوَّرُ أنَّ مجـرَّد المـال ، هـو شبكةُ صيدِ الرجـال ، فـإنَّ حِفْظَ الممالك ، هو وراء ذلك . وقد قـال رسـولُ خَلاَقِكـم[٢١] "إنكـم لـن تسـعوا الناسَ بأموالكم ، فسعُوهم بـأخلاقِكم" وشـيءٌ يحتـاجٌ في تحصيلِه ، والانقطـاعِ إلى وصولهِ ، إلى بذلِ أموالٍ وأرواح ، وكَدِّ نفوسٍ وأشباح ، وإتعـابِ خيـلٍ ورجـال ، وارتكابِ شدائد وأهوال ، وبعد حصولِه يتكلّفُ في محافظتِه وحراستِه وملاحظتِـه ، إلى تحمّل هُمومٍ وغُموم ، وكلامٍ وكُلوم[٢٢] . وآخرُ الأمرِ يخرجُ من اليد ، ولا يبقى

---

[١٨] الديمة : المطر الكثير فى صمت .

[١٩] تحظل : تُقصِّر .

[٢٠] يجدح السَّويق : يخلطه ويحركه .

[٢١] الخَلاَق : الحظ والنصيب من الخير .

[٢٢] كلوم : جروح .

إلاّ النكدُ والكـد ، فتزولُ في الدنيا اللـذات ، مـع معانـاة الكُـدورات ، وتجرُّع الغصصِ والمشقّات ، وتبقى في الآخرة التبعـات ، لَجديرٌ بـأَنْ لا يُلتفـتُ إليـهِ ، ولا يعوَّلُ عليهِ ، ولا يُهتمُّ لهُ بشان ، ويُستغنى عنهُ وإنْ احتيج إليهِ بقدرِ الإمكـان ، وإلاّ فمثل الذي يعلقُ بهِ فؤادُه ، ويربط بدوامِهِ وبقائِـه اعتقـادهُ ، ويتصـور ذلـك بفكـرِه الفاسد ، ونظرِه الكاسد ، كمثـل كِسْرىٰ لمـا مـات ولـدُه ، وتفتّـتَ عليـهِ كبـدُه ، وحصل لهُ عليهِ الاضطراب ، وردَّهُ عن خطئهِ البهلولُ[٢٣] إلى الصواب . فسأل أبـو الحجاج ، أخاهُ المحجاج ، عن بيانِ هذا الأمر ، وكيفية إطفاءِ هذه الجمر .

[٢/٧] حكاية كسرى وموت ابنه

فقال المقبل ، ذكر محدّثٌ معدل[٢٤] ، أن كسرى كان لهُ ولـد ، قـد سكن منـهُ سويداءَ الخَلَد[٢٥] ، يُخجل البدرَ ليلةَ تمامِهِ ، ويستميلُ الغصـنَ حالـةَ قيامِـه ، وكـان يحبُّه حبًّا جاوزَ النهاية ، وتعدَّى الحدَّ والغاية ، وكان لشدَّةِ شـغفه ، استبعد حلـولَ تلفِـه ، بل أحال وفاتَـه[٢٦] ، وأذهلـهُ عـن دَرَكِ الحـقِّ و فَاتَـهُ[٢٧] ، فأدركَـهُ الأَجَـلُ المحتـوم ، واستوفَى مـداهُ المعلـوم . فـاضطرب كسـرى لموتـهِ واضطـرم ، واصطـدم بصخورِ فراقِهِ واصطلم ، ولم يُقَرُّ لهُ قرار ، ولا طاوَعه اصطبار ، فوعظَه العلماءُ فما أفاد ، وثبَّته الحكماءُ بضربِ الأمثالِ فأَعْياهم المراد . وكان في بلدهِ رجلٌ بهلـول[٢٨] يتردَّدُ إليهِ ، ويدخلُ في أكثرِ أوقاتِهِ عليه ، فيلاطفُه في محاورتِه ، ويبتهـجُ بكلماتـه في

---

[٢٣] البهلول : السيدّ العظيم الحكيم ، الجامع لصفات الخير .

[٢٤] عوّل ، يوثق بروايته .

[٢٥] الخَلَد : البال والنفس .

[٢٦] أحال وفاته : استبعد موته .

[٢٧] فاته : فاته الأمر : سهى عنه وغفل .

[٢٨] البهلول : السيدّ الجامع لصفات الخير ، كما سبق .

مخاطبته ، فدخل عليهِ البهلـول ، وهـو كئيـبٌ ملـول ، لا تسـرُّ حالُـهُ صديقـا ، ولا يهتـدى إلى السكونِ طريقـا . فسألَـه عن حالـه ، ومـا أَوْجَـبَ تـوزّعَ بالـه ، وتغير أقولهِ . فقال : يا بهلولُ عدمت ولدي ، وقرَّة عَيْني وراحةَ روحي وجسدي :

لا صَبرٌ يُجـلِدي على فراقِــهِ   ولا معــينٌ على احــتراقــهِ

وقلتُ :

أوّاهُ من فرقــةِ الأحبـابِ أوَّاهُ   لقد كَوَى من حشا قلبي سُويدَاهُ

قال البهلول : نعوذُ باللهِ من ساعاتِ الذهـول ، يـا ملـكَ الأنـام ، إن عيسى عليـه الصـلاة والسـلام ، شكا إليهِ بعـضُ حواريـه ، شيئاً يشـابه مـا أنـتَ فيـهِ ، فقـال : عليه السلام ، كُنْ لربِّك كإلفِ الحمَام ، يذبحون فراخَـه ، ولا يفـارقُ مُناخـه ، ولا ينفرُ عنهم ، ولا يشكو منهم . ثم إن البهلولَ قال : وأنا لي إليكَ سؤال ، فأجبني بجوابِ شاف ، فإنّك ذو ألطاف ، فلا يكُنْ فيهِ جزاف . فقال : سل ، فكلامـك لا يمـل . قال : أكنتَ ترجو أن ولدَك لا يموتُ ابدا ، وأنّه يصيرُ في الدنيا مخلّدا ؟ فقـال : لا ، ولكن أردتُ أنْ يبقى مدَّة ، ويتمتعَ بشـبابهِ وبنعميهـا عـدة ، ويلتـذّ بطيـبِ المـآكلِ والمشارب ، ويقضي من أوطارِ الشبابِ المآرب ، ويؤنسَ أندادَه وصحبَه ، ثمَّ يقضي بعد ذلك نحبَه . قال : هَبْ أنّه عاش مهما رُمْت ، وقام وقعد في الدنيا كما قَعْدَتَ وقمت ، وعاش العيْشَ الطيب ، وهمَى عليهِ مـن سمـا ملاذّهـا الوابـلُ الصيـب[٢٩] ، وحصل لهُ من العيْشِ الهنيّ ، والعمر السنيّ ، أمثالُ الجبـال ، وأعـدادُ الرمـال ، فعنـد مفارقةِ العيش ، وحلولِ الخفّةِ والطيش ، هل يدفعُ عنهُ ذاك شرّا ، أو يرفعُ عنهُ بؤساً وضُرّا ، أو يجلبُ لهُ منفعة ، أو يَذْهَبُ من ذلك شَيْءٌ معه ، أو يفيدُه أدنى فائـدة ، أو يعـودُ عليه منهُ عائدة ؟ قال : لا . قال : فَلاَ تأسَ على معاش ، يكون عُقْبَى أَمْرِه إلى لاش ، وعمرٌ ذاك مصيرُه ، سواءٌ طويلُه وقصيرُه ، وكثيرُ تنعُّمِه ويسيرُه :

---

[٢٩] المطر المنهمر الغزير .

وإذا كـان مُنتَهى العمرِ مَوْتـاً فســـواءٌ طويلُـه والقصيـــر

فَعِشْ ما شئتَ في الدنيا وأدركْ بها ما شئتَ من صيتٍ وصوت

فَحَبْـلُ العمْرِ موصولٌ بقطـعٍ وخَيْـطُ العيْـشِ معقودٌ بمـوت

فَهَبْ أنهُ عاش ، ونَهَبَ الملاذَّ وحاش ، وعـلا في أرض التنعُّـم وغـلا وجـاش ، كـلُّ ذلك في المقدار ، على حسب مـا تختـار ، وأنّـهُ جـاءهُ القضـا ، وقـد قضَـى وطـرَه ومضَى ، ثمَّ قضَى نحبه وقضَـى . فَجَبَرَ بهـذا الكـلام كسرى ، وسـرّى عنـه همَّـه وأسراى . وقال الآنَ سَكَنْت ، فَنِعْمَ الناصحُ أنت .

وإنما أوردتُ هذا التنبيـه ، أيهـا الملـكُ النبيه لأعْـرِضَ علـى الخواطـرِ السـعيدة ، والآراءِ السديدةِ الرشيدة ، أنَّ الاقتصارَ عن هذا أوْلَى ، وألْيَـقَ بـالركونِ تحـتَ إرادةِ المولى . قــال المدبرُ المفنـنُ المعـبر : ثلاثـةُ أشـياء ينبغـي لطالبهـا ، أن لا يفتكـرَ في عواقبها ، الأول : الإسفارُ في البحار ، والغوصُ فيها إلى القرار ، فإنَّ طالبَ الجواهرِ النفيسة ، ومَنْ قصدَ أن يكونَ في صـدرِ التجارةِ رئيسَه ، لا يخشى من الغـرق ، ولا عنـدهُ من ذلك فَـرَق[٣٠] ، فهذا يعبّى بضائعَ المال ، وذاك يغطس إلى قعرِ الأوحَال ، وَكلٌّ منهما لا يتفكّـرُ في العاقبـةِ والمـآل . الثـاني : المقـدِم علـى الحـرب ، والرشـقِ والطعـنِ والضـرب ، ومصارعـةِ الأبطـال ، ومباشـرةِ أسبابِ القتـال ، لا يـنزعجُ لصوت ، ولا يفكرُ في الهزيمةِ والجراحِ والموت . والثالث : طالبُ الرياسـة ، والملكُ ذي السياسـة ، لا يفتكرُ في الاقتحـــام ، ولا يتوانَـى في الإقـــدام ، ولا يتــأمَّلُ في العواقب ، ولا يلتفتُ إلى المناقب ، ويلقى نفسَه في الأخطار ، ويضـربُ إلى أعمـاقِ الأقطار ، ويجعلُ جُلَّ همِّه بلوغَ الأوطار ، وقيل :

بِقَــدْرِ الكَـدِّ تُكْتَسَبُ المعالي ومَن طلَبَ العُـلا سهـرَ الليالى

تـرومُ العــزَّ ثم تنـــامُ ليــلا يغـوصُ البحرَ مَنْ طلَب اللآلي

---

[٣٠] الفرق : الخوف والتردد .

وقيل :

إذا هَـمَّ ، ألقى بين عينيه عزمةً ... ونكّب عن ذِكْرِ العواقبِ جانبا

قال المقبلُ الحكيم ، وتحسبونَه هيناً وهو عندَ اللهِ عظيـم : أولـو الألبـاب المميزون ، بين الخطأ والصواب الناظرون ، من مُبْتَدا الأمـور في أعقابهـا ، المستبصرون قبـلَ وقوعِها في مآلها ومآبها ، الآتون بيوتَ النوائبِ والنـوازلِ مـن أبوابهـا ، قـالوا : إذا تحصن أبو الحصين ، وأغلق عليـهِ مـن وراء جـدارٍ بَـابَيْن ، ثـم حاصَـرَه أسـدٌ مـن خـارج ، سَاوتْ قوَّةُ الخارج قُوَّةَ الوالج[٣١] . ولا شكَّ أنَّ حركةَ العساكر ، وقَطْعَ الفيافي والدساكر[٣٢] ، والتوجُّهَ إلى قتـالِ مَنْ هو ساكنٌ في سِرْبه ، محتاطٌ في أقليمِـه ودربِه ، متحصنٌ في قلاعِه ، مُتَدَرِّقٌ[٣٣] بحَجْفَةِ[٣٤] امتناعِه ، يحتـاجُ في الأمـوالِ إلى إخراج ، وفي الرجالِ إلى إزعاج ، وتحمّلَ أخطار ، وتجشمَ أسـفار ، وأَخْـذَ ضعفـاء تحتَ أقدام ، وهَدْمَ دورٍ وقَطْعَ أرحام ، ومع هـذا كلّـه حصـولُ المقصـودِ موهـوم ، والظفرُ بهِ غيرُ معلوم ، فإنْ حصلَ فقد مَرّ أن لا ثَباتَ ولا تَمَتّع ، وإنْ احتجبَ فهـو وراءَ سترِ التمنّع ، فكَمْ من دماءٍ حينئذٍ تُراق وقد كانت مصونَة ، وأموالٍ تُهْدَرُ وقد كانت مضمونة ، وأعراضٍ تُهْتَكُ وقـد كـانت محترمـة ، وأُنفُسٌ تـذلّ وقـد كـانت عزيزةٌ مكرمة ، والحقُّ في هذا مُتّضح ، ومَن نجا برأسِهِ فقد ربح .

وقد قَدّمْتُ هذا التقرير وهندسْتُ هذا التقدير ، لأنّ العـاقلَ المـاهَر في التجـارة ، كما يحسبُ الربحَ يحسب الخسارة . وكل هذا في العاجلـة ، فضـلاً عـن المحـذوراتِ الآجلة ، من غضبِ اللهِ وعقابِه ، وتوبيخِه وأليمِ عذابه . وإذا خرج الأمرُ عن اليد ،

---

[٣١] الوالج : الداخل .

[٣٢] الدساكر واحدها دسكرة ، وهي القرية العظيمة .

[٣٣] المتدرق : المُحتمي بتُرس من جلد .

[٣٤] الحَجْفة : الترس من جلود .

ودخل على القلبِ الاشتغالُ بالنكد ، وذهبَ المالُ والمنال ، ونقصت الأهبةُ والرجال ، وتناقصَ العَدَدُ والعُدد[٣٥] ، وتناكص[٣٦] المَددُ والمُدَد[٣٧] ، فأيُّ حرمةٍ تبقى للملكِ عند الرعايا ، وقد قَلّتْ عنهم منهُ الأرفادُ والعطايا ، وكيف يستقرُّ ملكُه ، أو يدورُ على فَلَكِ الثبات فُلْكُه ، فلا تخافُه الرعيَّة ولا يرجونَه ، ولا يسمعون كلامَه ولا يطيعونَه ، ويصيرُ كالسحابِ الخُلّب[٣٨] ، لا يُوثق منهُ بوعدٍ ولا يحصلُ منهُ مطلب ، إنْ تكلّمَ عابوا كلامَه ، وإنْ حكَم نقضوا أحكامَه ، وإنْ حَلَمَ قالوا عاجز ، وإنْ تقدَّم في الحرب قالوا مجنونٌ مبارز . وأما الغنيُّ ذو المال ، فهو على عكسِ هذه الأحوال ، فإنْ رأوْا منهُ فضلا ، كان لكلِّ مكرمةٍ أهلا ، فرفعوهُ إلى العَيُّوق[٣٩] ، وَكان المعظّمَ المرموق ، إنْ أعطى قليلاً استصغروا حاتماً عندهُ ، وأطنبوا بلسان الثناءِ في شكرِهم رفدَه ، وإنْ بخل قالوا مدبرٌ لا يضيعُ مالَه ، وإن كذب صدَّقوا قيلَه وقالَه . وفي الجملة حركاتُ الغنيِّ مستصوبة ، وكلماته مترشفةٌ مستعذبة ، وقد قيل :

إنْ ضَرَّطَ الموسِرُ في مجلسٍ	قيل لهُ يرحمُك الله
أو عطسَ المعْسِرُ في مَجْمَعٍ	سبُّوا وقالوا فيه ما ساه[٤٠]
فَمَضْرَطُ الموسِرِ عرنينُه	ومعطسُ المفلسِ مَفْساه[٤١]

وكما قيل :

---

[٣٥] العُدد : الاستعدادات .

[٣٦] تناكص : أحجم وتراجع ، ونقص .

[٣٧] المُدد : الوقت .

[٣٨] الخُلّب : السحاب يومض برقه حتى يرجى مطره ، ثم يخلف ويتقشّع .

[٣٩] العَيُّوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرّة الأيمن .

[٤٠] ما ساءه .

[٤١] عرنينه : ما صَلُبَ من عظم الأنف حيث يكون الشَّمَم .

الفَقْرُ يزْرِي بأقوامٍ ذوي حسبٍ   وقـد يُسَـوِّدُ غـيرَ السيِّدِ المالُ

ولقد رشفْتُ من أفـواهِ الحكمـاء ، ونصـائحِ البلغـاء ، بـل شـاهدتُ مـن النوائـب ، وتلقّفتُ من ذوي التجارب ، وتحقَّقْـتُ في الدهـرِ أبـي العجـائب ، أنَّ الفقـرَ شَـيَّبَ الفتيان ، وسقم صحيـحَ الأبـدان ، ومبعـدُ الأقـارب ، وجـاعلُهم أجـانب ، وقـاطعُ الأرحام ، ومانعُ السـلام ، ومبغضُ الأحبـاب ، ومفـرّقُ الأتـراب ، ومشتّتُ شمـلَ الأصحاب .

وبالجملةِ فالذي يجبُ على وليِّ الأمر ، التأملُ في قصارى هذا الأمر ، والتفكُّرُ في عاقبةِ هذه الحركة ، وما يحدثُ فيهـا مـن شـؤمٍ وبركـة ، وأن يجيـلَ قِـداحَ التدبُّـرِ ، والتبصُّرِ والتصبُّر ، ويتثبت في صدر هذا الموردِ المضيق ، وما فيهِ من مجالٍ أو ضيـق ، ولا يعتمـد فيهِ علـى القـوَّةِ والحـول ، وأسـبابِ الطـول والطـول ، وكـثرةِ الشـوكةِ والعُدد ، وإمدادِ العَدد والمدد ، مع عدمِ الاكـتراثِ بالأخصـام ، وقلّـةِ المبـالاةِ بكـلِّ أسدٍ ضرغام ، فإنَّ الأسدَ سـلطانُ السبـاع ، وملـكٌ عظيـمٌ كثـيرُ الجنـدِ والأتبـاع ، شجاعتُه مشهورة ، وشهامتُه مأثورة ، بهِ يضربُ المثل ، ويُشـبَّهُ كـلُّ بطـل . ونحـن وإنْ كان لنا عساكرُ كالجبال ، تهدمُ الحصونَ وتـدكّ القِـلال[42] ، لكـنْ مـا جرَّبنـا مصارعةَ الأسود ، ولا مارسْنا مقارعةَ النمورِ والفهود ، ولا نعرفُ طريقَ بلادِهـم ، ولا طريقةَ جدالهم وجلادِهم ، وأنَّ لهم في الحروبِ أساليب ، وفي افـتراسِ الفرائـسِ أنياباً ومخاليب ، فأخشي أن لا تتمَّ هذه الأمورِ ، وتقصُر حبالُنا عن مصادمةِ مـا لهـم من قصورٍ ، فيرجعُ وَبَالُ هذه الأمـورِ علينـا ، إذا ابتـدأْوهُ أوَّلاً منسـوبٌ إلينـا ، ولا نحصلُ إلاَّ على الندامـة ، والتوبيخ والملامة ، ويخاطبنا الحدُّ الوبيل ، بما قيل :

تبني بأنقاضِ دورِ الناسِ مجتهـداً   داراً سَتُنْقَضُ يـومـاً بعد أيَّـــام

---

[42] القلال : قُلّة كل شيء قمته وأعلاه (القلاع) .

وقال المدبر : ولا شكَّ إنَّ جوهرَ هذا النظام ، وعقودَ هذا الكلام ، صادرٌ عن فكرٍ بعيد ، ورأيٍ سديد ، وأمرٍ رشيد ، وتأملٍ في العواقبِ مفيد ، أصلُهُ الحكمة ، وفرعُه الشفقة ، وزهرُه المعرفة ، وثمره الفطنة . ولكن من حين استولى على المُلْكِ كِيُومرْث ، ومَرَثَ[43] على سريرِ التحكُّمِ أصبحَ الولايةِ أبلغَ مَرْث ، وسنَّ قواعدَ السياسة ، وأسَّس بنيانَ الرياسة ، وذلك زمانُ الابتدا ، وأوَّلُ ما تملَّك على الدنيا ، وإلى هذا اليوم ، لم يزل القوم ، من الملوك في رَوْم ، وطلبِ الزيادةِ والسوْم ، ولا عتبَ في ذلك ولا لوم ، وقل لي أيُّ مَلِكٍ مالِك ، تحكَّمَ في الممالك ، وسلك فيها المَسَالِك ، ولم يقصدْ فيها الولاياتِ الشاسعة ، ولا الأقاليمَ الواسعة ، ولم يطلب الترفُّعَ على الأقران ، وعلوَّ المكانِ بقدر الإمكان ، والملكُ عقيم ، والعاجزُ سقيم . وكيف يُتصَوَّر ، أيُّها الملكُ الأكبر ، أن تكونَ همَّةُ الملك ، أدنى من همَّةِ تاجرٍ في البحرِ ينهمك ، فإنَّ التاجرَ إذا افتكر في لذَّةِ الفائدة ، وما يعودُ عليه العائدة ، وغرَّتهُ كما يقال "التسع أواق[44] الزائدة" ، يضعُ جميعَ مالِه ، وما تصلُ إليهِ يدُه من خدمه ورجاله ، في الفلكِ المشحون ، ولا يرهبُ رِيَبَ المنون ، ويركبُ وهو أيضا فيهِ ، ولا يتلفتُ إلى عجائبِ دواهيه ، ولا يفتكرُ في الغرق ، ولا في جَبْرِ السفينة ولو انخرق ، ويسلّم قيادَه إلى متصرّف الهواء ، ونفسُه ومالُه إلى حاكمِ الماء ، ودونك يا ذا الحشمةِ ، والوافرَ الحرمة ، ما قاله العاشقُ العالي الهمّة :

إنْ تَـهْـوَ بـدراً فليكنْ	ابنَ الخليفةِ ذى السرير
أو ابنَ سلطانِ الورى	أو ذى الوزارةِ أو أميرِ
وتجنّب الأوغادَ والغوغا	وذا القَدْرِ الحقيرِ

---

[43] يقال مَرَثَ إصبعه : مَصَّه .

[44] أواق : مفردها أوقية ، وهى جزء من اثنى عشر جزءاً من الرطل المصرى والجملة عبارة مثلية تشير إلى الرغبة فى الاستزادة إلى حدّ الطمع والمغامرة . .

إن الخطيرَ هو الذي　　قد قام بالأمرِ الخطير

وأما قولُكم : عساكرُنا أغمار ، لا درايةَ لهم بتلك الديار ، ولا معرفة لهم بمصادمةِ الأُسود ، ومقاومةِ تلك الجنود ، فاعلمْ أيُّها الوزير ، الفاضلُ الكبير ، أنَّ الأسدَ ملكٌ كاسر ، وعلى سفكِ الدماء جاسر ، وأنَّ في رعيتِه مَنْ آذاهُ وأنكاه ، في ذويهِ وأبكاه ، وكسر جبراً واسترعاه قسرا ، واستولى عليه قهرا ، فهو منتظرٌ تنفُّسَ الزمان ، مترقِّبٌ انقلابَ الحدثان ، متوقِّعٌ أيُّها الفضيل ، معنى ما قيل :

إذا لم يكُنْ للمرءِ في دولةِ امرىءٍ　　نصيبٌ ولاحظٌ تمنَّى زوالَها

فإذا سمع بأحدٍ خرج على الأسد ، ولو كان أقلَّ الأعوانِ فضلاً عن ملكِ الأفيال ، بل قَيْلُ الأقْيَال[45] ، الفاضلُ في ذاتهِ ، الكاملُ في صفاتهِ ، العادلُ في رعيتهِ ، البارُّ بأهلِ ولايته ، المحسنُ إلى أهل مملكتِه ، المشفقُ الحليم ، الرؤوفُ الرحيم ، فبالضرورةِ يبادرُ إلى الملاقاة ، ويُسارعُ إلى ما كان يتمنّاه ، ويغتنم عبوديةِ الملكِ ويعدُّها غايةَ مرتجاه ، فيدلُّ على عوراتِ العدوِّ ومظانِّ عثراتِه ، ويرشد إلى طرائقِ نكاياتِه ونكباته ، وينادي في النادي : نلتُ مُرادي ، على رغمِ الأعادي ، ويعلنُ بإنشادي ، للحاضرِ والبادي :

إذا كانَ للإنسانِ في دولةِ امرىءٍ　　نصيبٌ وإحسانٌ تَمَنّى دوامَها

وأيضاً في ذلك الإقليم ، مَنْ هو متشبثٌ بامرٍ جسيم ، وهو ما له من مالٍ وأولاد ، وإقطاعاتٍ وعقارٍ وبلاد ، وسوائمَ ومواش ، وأثقالٍ وحواش ، فلا يمكنه التحوّلُ عن طريقنا ، ولا التحمّلُ لرعودِنا وبروقنا ، ولا قُوّة المقاومة ، ولا طاقة المصادمة ، فبالضرورة يصانعُ عن تعلقاته بالطاعة ، ويتشبثُ بذيل سُنَّتِنا مع الجماعة ، فنستمدُّ بآرائه ورُوائه ، ونستفيد فيما نحن بصدده دواءَه لدائه . فقال الملكُ للمقبل[46] : ما

---

[45] ملك الملوك .

[46] المقبل : اسم الوزير الذى يعارض الغزو والعدوان .

الجواب ، عن هذا الخطاب ؟ فقال : هذا المقال ، وإنْ كان لا يخلو عن الاحتمال ، ووقوعُه غيرُ محال ، لكنَّ الأقربَ إلى الذهن أن هذا لا يقع ، لأنهُ أمرٌ مبتدع ، ولأن طبائعَنا مخالفةٌ لطبائعهم وأوضاعَنا غيرُ أوضاعِهم ، وناهيك ، انَّ كلاب الحارة ، في النهب والغارة ، يمزّقُ بعضُهم بعضا ، ويتناحرون فيما بينهم حرصاً وبغْضا ، حتى إذا دخل بينهم ذيب ، أو حيوانٌ غريب ، توجّهوا إليهِ ، واتفقوا عليهِ ، فمزقوا أديمه[47] ، وهتكوا حريمه ، وجعلوا لحمَه لجماعتهم وليمة . وعند الأسد من الوحوش أنواع ، ما بين سباعٍ وضباع ، ونمورٍ وذئاب ، قرودٍ وذياب ، وفهود وكلاب ، كلّهم على طباعهِ ، متفقون على اتباعهِ ، وإنْ اختلفت عليهم الثياب ، لكنَّ الكُلَّ كلابٌ أولادُ كلاب ، وكلٌّ مِن هؤلاء ، على ما هُمْ عليهِ متفقو الأهواء ، لهُ على خَصْمِهِ ، في مجادلته وخَصَمه[48] ، دُرْبَةٌ في المساورة ووثبةٌ في المغاورة ، وأنواعٌ في الكرّ والفرّ ، ورَوَغَاتٌ في الخير والشرّ ، ومداخلُ ومخارج ، ومدارِكُ ومعارك ، وليس في عساكِرنا سوى الصدمات ، والحَطْمِ[49] بقوةِ النهضات والعزمات ، فإنْ أفاد هذا الاصطدام ، وإلاّ فما ثمَّ إلاّ الانهزام .

فلما بلغ المقبلُ في الكلام ، إلى هذا المقام ، وكان رسخ ، في قلب الملكِ من كلام المدبرِ[50] الوسخ ، فما أثّرَ نُصْحُ المقبلِ وما أفاد ، لأنّ النفسَ بطبعها مائلةٌ إلى الفساد . فشرع الملكُ واعتمد ، على التوجُّهِ إلى بلادِ الأسد ، وأمرَ رؤساءَ فيلةِ الهنود ، بجمعِ العساكرِ والجنود ، وأشيع ذلك في أطرافِ الممالك . فاطّلع على هذه الأحوال ، غرابٌ يكنى أبا المرقال ، كان لهُ وطنٌ وولد ، وسكنٌ في ممالك الأسد ،

---

[47] الأديم : الجلْد .

[48] الخصم : الجدل .

[49] التزاحم في الحرب .

[50] المدبر : الوزير الذى يدعو إلى الغزو والعدوان .

لكنهُ قَدِمَ جزيرةَ الأفيالِ للتنزُّه ، على سبيل التفرُّجِ والتفكُّه ، فشرع يتأمّلُ في هذه الأمور ، ويستنتجُ من قضاياها ما يتولّدُ من سرورٍ وشرور ، فانتهى سابقُ أفكاره ، في ميدانِ مضماره ، إلى أنَّ هذه القضايا ، تُسفرُ عن بلايا ورزايا ، وإراقةِ دماءٍ وخرابِ أماكن وهلاكِ رعايا ، سواء تمت للأفيال ، أو رجعت عليهم بالوبال . فخاف على سكنهِ ، ودمارِ أهله ووطنِه ، فأدَّى فكرُهُ الأسَدّ[٥١] ، أنْ يُطلعَ على ذلك الأسد ، ليتداركَه بحسنِ آرائه ، ويعترف للغرابِ بحسنِ وفائه ، فَبَكَّرَ بكورَه ، وقصد دورَه ، فوصل في أقربِ زمان ، ونادى الريبالَ[٥٢] أبا الزعفران ، وقال : الله الله ، إني أنا النذيرُ العريان ، وأطلع الأسد ، على هذا النكد ، وقرر معه حقيقةَ الأحوال ، وما عزم عليه ملكُ الأفيال . فتشوَّشت لذلك الخواطر ، وتصدَّعت لخوفه الأكابرُ والأصاغر . ثمَّ أمرَ السباع ، وطوائف الوحوشِ بالاجتماع ، مع رؤساءِ مملكته ، وأساطينِ خاصته ورعيته ، وذكر لهم هذا الأمرَ المهول ، وما عزم عليهِ ملكُ الفيول ، وأَذِنَ لكلٍّ واحدٍ منهم في ذلك بما يقول . فوقع الاتفاق ، من أولئك الرفاق ، أنْ يتفقَ أعيان ، كلٌّ جنسٍ من الحيوان ، على رئيسٍ من جنسِهم ، يقيمونه مقامَ نفسِهم ، يرضون بأقوالِه ، ويقتفون آثارَ أفعاله ، وليكُنْ من أهلِ الحصافةِ والكفاية ، واللطافةِ والدراية ، والشفقةِ العامة والمعرفةِ التامة ، يعقدُ معهم للمؤامرة[٥٣] ، مجلسُ رأيٍ ومشاورة ، فمهما وقع عليهِ الاتفاق ، وأجمع عليهِ الرفاق ، واستصوبه الأسدُ وارتضاه ، اتّبعوهُ وعملوا بمقتضاه . فتقدّمتْ طائفةُ الآساد ، إلى نأجٍ[٥٤] منها نهاد ، سبع يسود ، على طوائفِ الأسود ، طالما افترس

---

[٥١] الأسَدّ : السديد .

[٥٢] الريبال : مخفف الرئبال ، وهو الأسد .

[٥٣] المؤامرة : المؤتمر (للتفاوض) .

[٥٤] النأج : الأسد .

الأقران ، وانغمس في دماءِ الشجعان ، وأضاف جوارحَ الصيد ، فضلاتٍ ما افترسنه من عمروٍ وزيد ، كاسرٌ جاسر ، باسلٌ باسل ، حاسرٌ قاسر ، ظاهرهُ أبـيّ ، وباطنـهُ بالمكر غني :

أسـدٌ يسـود على الأسود زئيرهُ رعــدٌ وعينـاهُ بـروقٌ تخطف

فقدّموهُ واختاروه ، واستشاروا رأيَ رأيهِ وامتاروه .

واختارت النمورُ نمراً يمور ، سريعَ الوثبة ، بديعَ الضربة ، لطيفَ الحركات ، خفيفَ النهضات ، قويَّ الشِّمَاس[٥٥] ، خفيَّ الاختلاس ، كثيراً ما كسر أسامه[٥٦] ، وسامى أُسُود خفان فَأَسَرَ ضِرْغَامَه[٥٧] ، كما قيل :

نَمِرٌ تخافُ الأُسْدُ من وَثْباتِهِ وتحـارُ في حركاتِهِ وثَبـاتِـهِ[٥٨]

وقدّمتْ الثعالبُ ثعلباً لطيفَ الروغان ، ظريفَ الزوغان ، خفيَّ الحيَل ، قويَّ الميل ، طالما فَرّ من طبلٍ وأهال ، على الصيادين من أهوال ، وأحرق السَّلوقياتِ[٥٩] سُلاَحُه[٦٠] ، ونفذ في غالبِ الأسودِ بالمكرِ سلاحُه :

يضِـلُّ بني سَلُوقٍ من دَهَـاه فيخلصُ من مخالبهـا سـليما

واعتمـدتْ الذئـاب ، في هـذا البـاب ، على ذئبٍ فعلهُ عجيب ، وأَمرُه غريب ،

---

[٥٥] الشماس : الإباء ، وشَمَسَ : تأبى واستعصى ، وهمّ بالأذى .

[٥٦] الأسد .

[٥٧] الأسد .

[٥٨] قفزاته .

[٥٩] السلوقيات : كلاب جيدة تنسب إلى قرية سلوق باليمن .

[٦٠] سُلاحه : ما يخرج من البطن من الفضلات .

سديدُ الختلِ[٦١] والختْرِ[٦٢] ، شديدُ المكرِ والكسر ، طالما أفسد ثَلّـةً[٦٣] ، ودخـل في قطيعِ ماشيةٍ فقطعه كُلّه ، يُعجزُ الأسودَ والنمورَ والفهودَ ، شيمتُه الغدرُ والخديعـة ، ودأْبُه المكرُ وسوءُ الطبيعة :

وَقَدْ جمع الضّدين نَوْماً ويقظةً   يخافُ الرزايـا فهو يقظانُ نائمُ

فاختلى أبو الأشبال ، وشاورهم فيما دهمه من الأهوال ، وتوجّـه بالخطـابِ إلى الأسد ، وقال ما رأيك في هذا النكد ؟ فقال : لا تطلبْ النصـر ، في هـذا الحصـر ، إلاّ من مالِكِ العصـر ، ومصرِّفِ أحـوالِ الدهـر ، بـين الفـرج والقسـر ، وهـو الله سبحانهُ وتعالى ، وعـز شأنهُ وجلَّ جلالا . فإنّا مظلومون وهـم ظـالمون ، ونحـن مـا اعتدينا عليهم ، ولا تقدَّمنا بالظلم إليهم ، فسيردُّ الله كيدَهم في نحرِهـم ، وسيحيقُ بهم عاقبةُ مَكْرِهم . وهذا أمرٌ مقرر ، وأظنّه هو المقدر . وأمّا ما يتعلقُ بِنَـا و بِهِـمْ ، من الفـرارِ والصلـحِ أو حربهـم ، فـأذكرُه على التفصيـل ، وأخبرُ في ذلـك الـرأيَ الجميل . أما الفرارُ فلا سبيلَ إليه ، ولا معولَ أبدا عليهِ ، وأنّى ذلك وهـو عيبٌ مـا وُصِمَتْ به الأسود ، ولا لهم بـهِ وصـفٌ معهـود ، وبنـا يُضـربُ المثـلُ في الشـجاعةِ والبسالة ، وتتشبَّه بنا الأبطـالُ في الإقـدام لا محالـة ، وكيـف نـتركُ بلادَنـا ، وأهلَنـا وأولادَنا ، من أوّلِ وَهْلَة ، ونعزمُ علـى الرحلـة ، ولا صادمنـاهم ، ولا واقفنـاهم ! ولو فعلنا ذلك فهربنا ، وتركنا ما لنا وذهبنـا ، لفسـدت أمورُنـا ، وخربـت ممالكُنـا ودورُنـا ، ولانْفَـرَطَ نظامُنـا ، وتعـوّج قَوَامُنـا ، واستمرّت هـذه الملامـة ، إلى يـوم

---

[٦١] الخَتْلُ : الخداع والمراوغة .

[٦٢] الخَتْرُ : الإفساد والغدر .

[٦٣] الثَلّة (بفتح الثاء) : جماعة الغنم .

القيامة ، ولَدام علينا هذا العار، ولا يقرّ لنا بعد ذلك قرار . واعلمْ أيُّها الملك ، نوَّر اللهُ وَجْهَ السرير[٦٤] بك ، أن العمرَ السنّي ، ما مَرّ في العيشِ الهنيّ وقد قيل :

ما العمرُ ما طالَ بهِ الدُّهُور العُمْرُ ما طاب بهِ السُّرور

والعمر الذي يمرُّ في نكد ، لا يحتسبُه مِنْ ذوي الكفايةِ أحد ، وحسبك ما ذكره المترجم ، من حكايةِ الملكِ المعزولِ مع المنجّم ، فسأل أبو الأشبال ، سَرْدَ هذا المثال .

[٣/٧] حكاية الملك المعزول مع المنجم

فقال الأسد : ذكر القائل ، أنَّ أهلَ بابل ، كانت عادتُهم في دينهم ، وسلوكِ طريقهم مع سلاطينهم ، أنهم إذا اعتنوا بشخصٍ مَلّكُوهُ ، واتّبعوا طريقَ أمرِه وسلَكوه ، وبذلوا في طاعتهِ ما مَلَكُوهُ ، فإذا أرادوا عَزْلَه تركوه ، ونشزوا[٦٥] عنهُ وفركوهُ[٦٦] ، وأهملوا إحسانَه وفَذْلَكُوه[٦٧] ، وسكنُوا غيرَه في سريرِ المُلْكِ وحركُوهُ . فاتفق أنهم وَلّوا واحداً وأعزّوهُ ونصروهُ ، ثمَّ خذلوهُ ، وأقبلوا عليه أوَّلاً ثمَّ قتلوهُ[٦٨] . وكانت مُدّةُ ما بين ذلك يسيرة ، وعمرُ أيامِه في ولايته قصيرة ، فحصل لهُ أوّلاً السرور ، ثمَّ تراكمتْ عليهِ بالعزلِ الشرور ، فاحتوشتهُ الفكر ، وبات يصارعُ القضاءَ والقدر . ثم قال : لو راقبتُ في أوَّل الجلوس ، ما في الطالع من سعودٍ ونحوس ، ثمَّ اخترتُ لساعةِ ارتقائي ، وقتاً يطولُ في بقائي ، وذلك يكونُ

---

[٦٤] السرير : العرش .

[٦٥] نشزوه : خرجوا عليه وتفرقوا عنه .

[٦٦] فركوه : كرهوه وأبغضوه .

[٦٧] فذلكوه : فرغوا منه وأنهوه .

[٦٨] بمعنى قرّروا قتله .

نَجمي في برجٍ ثبت ، لَمّا انقلبتْ كواكبُ سعدي عن الاستقامة ولا نَبَت[٦٩] ، ولكنْ حيثُ فاتَ ذلك في الابتداء ، فأتداركه في الانتهاء ، فَلَعَلَّ ذلك يفيد ، ويردُّني إلى سريرِ السرورِ ويعيد . ثمَّ طلب منجِّما حاذقا ، ماهراً في صنعتهِ فائقا ، وقال : انظرْ في طالعِ جَدِّي ، وتأمَّلْ بُرْجَ نحسي وسعدي ، واخترْ لي ساعةً يصلُحُ فيها النزولُ عن السرير ، ويكونُ العَوْدُ إلى السرير ، بواسطةِ الناظرِ إليها غيرَ عسير ، فإنَّ الناظرَ إلى الطالع ، هو الجالبُ والمانع .

فامْتَثَلَ المنجِّمُ ما رسم ، وشرعَ في وضعِ الأشكالِ والقسَم ، ثمَّ قال : أَحسنُ ما نُظِر في الطالع المسعود ، من حين الميلاد فإنهُ أَوَّلُ الوجود ، فإذا أُخِذَ الطالعُ من ساعة الميلاد ، ترتَّب عليهِ ما يصدرُ على ذلك المولودُ من السعدِ والإسعاد ، ومن الخوفِ والرجاءِ في عالَم الكون والإفساد ، فهل اطَّلَعَ الملكُ في أيِّ ساعةٍ وُجد ، وكم أتى عليهِ من حين وُلد ؟ قال : نعم أعرفُ مدَّةَ عمري جَزْما[٧٠] ، وهي اثنان وعشرون يوما . فتعجب المنجِّمُ من مَقَالِه ، ولم يقفْ على حقيقةِ هذه الأسرار . فقال : مدَّة استيلائي على السرير ، هو هذا القدرِ اليسير ، وأنا لا أحسبُ العمر ، ولا أعتدُّ بوصالِ بيضٍ ولا سمر ، إلا هذه الأيامَ والليالي ، ولا أحتسبُ سواها عمراً ولو بيع باللآلي ، وقد قلتُ :

وَعُمْرٌ مَضَى بالهجْرِ لَسْتُ أعدّهُ ولكنَّني أقضيهِ في زمنِ الوصلِ

وإنَّما عرضْتُ يا بطل ، على رأيك السعيدِ هذا المَثَل ، لتعلمَ أنَّ أيَّامَ المحنةِ لا تعدّ عُمْرا ، ولو قضَى الإنسانُ فيها زماناً طويلاً ودهرا . وأمَّا الصلحُ يا ذا الركون ، فعلى أيِّ وجهٍ يكون ؟ ومن أين يقعُ بيننا وبينهم اتفاقٌ وسكون ، وليبسوا من

---

[٦٩] ابتعدت وتخلّت عني .

[٧٠] يقيناً .

جلدتنا ، ولا علـى مِلّتِنا ؟ وفي أيِّ عصرٍ وأوان ، ذلَّ الأسدُ واستكان ، وخضع للفيل ودان ؟ أو أعطى الغضنفرُ[٧١] النَّبّاجُ[٧٢] ، والضِّرغامُ[٧٣] الصعب النّاج[٧٤] لغيرِهِ الجزية والخراج ؟ وهو في الحقيقةِ سلطانُ الوحوشِ وواهبُ التاج ، فلم يبقَ إلاّ الاستعدادُ للمصادمة ، والتأهُّبُ للمقاحمةِ والمقاومة ، ولنا من ذلك في البيْن ، إحدى الحسنييْن : إمَّا الظفرُ بهم وهو المرام ، وإمَّا الشهادةُ فنموتُ ونحنُ كرام . وقد قال السيِّدُ السديد "مَنْ قُتِلَ دونَ ما له فهو شَهيد" ، وقيل يا حاتمَ طيّ ، حُسْنُ الثناءِ على الميتِ خيرٌ من سوء الثناءِ على الحيّ ، والموتُ في مقامِ العزَّة ، مع النشاطِ والهزَّة ، أرفعُ من الحياة بذلّةٍ ووَخْزَة ، وكسرةٍ ونخزة ، وقد كنتُ أنشدتُ ، وقديما أرشدتُ :

هو الموتُ إنْ لم تَلْقَهُ ضاحِكا فَمُتْ عَبُوسا بوجهٍ أقترِ اللونِ أغبرا
ومَنْ لم يمُتْ في مُلتقى الخيلِ مُقْبِلاً عزيزاً يمُتْ تحتَ السنابكِ مُدْبِرا

فأقبل الريبال ، على أبي مرسال ، وقال أيُّها النمر ، وصاحَب الخُلُقِ الزمِر[٧٥] ، ماذا تشير في هذا المهم ، والمشكل الذي دهم ؟ فقال : إنَّ الأفيالَ أكبرُ جسوما ، وأعظُم حلوما ، وأقوى في الضرب ، وأعدى في الحرب ، وقد استعدُّوا وأقبلوا ، وأتقنوا أمورَهم وأعملوا ، وأنا أخشى ، أن يكونوا أقوى بطشا ، وأن نعجزَ عن المقاومة ، في المصادمة ، فإنَّ فينا العاجزَ والضعيف ، والذميمَ الجثّةِ والخفيف ، ومَنْ لا عرف الأفيال ، ولا رأى تلك الأشكال ، فينفر من مصادمة الجبال ، فيطئوننا

---

[٧١] الغضنفر : الغليظ الجثة (من أسماء الأسد) .

[٧٢] النباج : قويّ الصوت (الزئير) .

[٧٣] الضرغام : الأسد الضاري الشديد .

[٧٤] لقوّته وسرعته وشدّة بطشه .

[٧٥] الزِّمِر : الحسن الوجه ، الشديد القوى .

تحت أخفافهم ، وتنكسر شوكتُنا في أوَّل مصافهم ، فلم يبقَ إلاَّ الفرار ، ولا يقرُّ لنا بعد ذلك قرار ، فيستولون عنوةً وقسراً على هذه الديار ، وينفرط النظام ، ونرضى عند ذلك بالسلامة والسلام ، ونقع فى البلاء العريضِ الطويل ، وانظر يامولاي إلى ما قيل :

هل للحرائرِ من صَوْنٍ إذا وصلتْ أيدى الرِّعَاءُ إلى الخَلْخَالِ والخَدَمِ[٧٦]

فعندي الرأيُ ذو الأصالة ، أن ينتخبَ الملكُ مَنْ يصلُح للرسالة ، ويحسنُ السفارة ، ويحسنُ العبارة ، فيسكن من فَوْرَةِ شغبهم ، وثورةِ لهبهم ، وسوْرَةِ غضبهم ، ويَعِدُهُم ويُمَنّيهم ، ويحسن التقريبَ ويُقصِّيهم ، وفي ضمن هذه الأوقات ، وأثناء هذه الحالاتِ يراقبُ أوضاعَهم ، ويَخْبُرُ جمعَهم وأجماعَهم ، ويتوصَّلُ إلى أسرارهم ، ويواصلُنا بأخبارِهم ، ويطالعُنا بما خَامَرَ أفكارَهم ، ويكتبُ ما قدموا وآثارَهم ، ونستمرُ على المراسلةِ ، والمقاولةِ والمطاولة ، فإنْ تيسّر رجوعُهم ، وانكشف بالهُوَيْنا جموعهم ، وإلاَّ فنكون قد استعددنا عن الاستبصار ، فنتعاطى أمورَ قتالهم بعد التأمُّل والاختبار ، وإن أمكننا أنْ نأتيهم بالليل ، ونحل بهم الدواهي والويل ، بعد أن يركنوا إلى جانبنا ، ويأمنوا من نوائبِ مصائبنا ، فربَّما نصلُ إلى بعض القصد ، أو يوافقُ بعضَ حركاتنا السعد .

فالتفت الدَّوْكَس[٧٧] ، إلى العَمَلَّس[٧٨] ، وقال : أيْ سِيد[٧٩] ، وذا الأمرِ الرشيد ماذا ترى ، فيما طرا ؟[٨٠] ، وكيف طريق القوم فيما جري ؟ قال السَّمْسَام[٨١] ،

---

[٧٦] الخلخال ، والحلقة تُشدّ فى الرُّسْغ ، والقيد .

[٧٧] الدوكس : صفة من صفات الأسد ، لأنه كثير الشعر ملتفّ اللبْدة .

[٧٨] العملّس : الذئب الماكر .

[٧٩] السِّيد : الذئب القوى .

[٨٠] مخفف طرأ .

[٨١] السّمسام : الذئب الخفيف اللطيف السريع .

يـا مولانـا الضِّرغـام ، الـذي سمعتـه مـن أولي التجـارب ، وتلقفتـه مـن الأصحـابِ والأجانب ، إنهُ من التوفيق ، إذا ابتُلي الشـخصُ بعـداوةِ مَـنْ لا يطيـق ، أنْ يدافعـه بالهدايا والتحف ، ويحابيَه بشيءٍ من الطرائفِ والنتف ، فإنَّهُ قيل في الأمثال "إن خيرَ الأموال ، ما اذُخر لدفعِ البؤس ، ووقيت بنفائسه النفوس" .

فَأَهَبَّ[٨٢] النهّاب ، بأبي وثاب : يا أبا الحصين ، ما رأيـك في البـين ؟ وأيُّ آراءِ الأصحاب ، أقربُ الى الصواب ؟ فتقدَّم الثعلبان ، وتكلم فأبان ، وقال : أسعدَ اللهُ الأحد ، مولانا الأسد ، وجعل رأيَه الأسَدّ ، وفعلَه على أعدائِه الأشَـدّ ، اعلـمْ أيهـا الدلهاث[٨٣] ، أنّ أمورَنا لا تخلو عن إحدى ثلاث : إما المقابلـةُ بالمقابحـة[٨٤] ، وإمَّـا المهادنةُ والمصالحة ، وقد تقرر ، فيما تقدّم وتحرّر ، بيـانُ كـلٍّ منهمـا ، ومـا يصـدرُ فيهما وعنهما . وأمّا الفَرارُ وتوليةُ الأدبار ، وتركُ الأوطانِ والديار ، فأُفٌّ لذلك من عار ، وسُبّة وشنار ، فما بقي إلا الحالةُ الثالثة ، وهي بعساكرهم عابثـة ، ولقلوبهـم كارثة ، وهي طريقـةُ الاحتيـال ، والتوصُّـل إلى إلقـائهم بطريـق المكـرِ في جُـبِّ[٨٥] الوبال ، فإن صائبَ الأفكار ، يعملُ ما لا يعملُـه الصـارمُ البتّـار ، فَبشِبَاكِ الحيلـة ، تُصادُ كلُّ فضيلة ، وتهونُ كلُّ حليلة . وأنا أُفصّل ما أَجملتُ ، وأُبين ما فصَّلتُ .

أمـا المقابلة ، والأخـذُ في أسباب المقاتلة ، فلا طاقـةَ لَنـا بـه ، ولا بـابَ لدخـولِ قِبابه ، لأنا عاجزون عن المصادمـة ، قـاصرون عـن المقاومـة ، محتـاجون إلى الطعـام والشـراب ، وبعضُ عساكرنا لا يعيشُ إلا باللحم والكبـاب ، وجيشُـهم الـذي قـد ملا ، وسدَّ الوهْدَ والفلا ، يقنعون بالحشيش والكَلا ، فلا يتكلّفون لحمـلِ زاد ، ولا

---

[٨٢] أهب : صاح .

[٨٣] الدلهاث والدلهام : الأسد .

[٨٤] المقابحة : المحاربة والمقاتلة .

[٨٥] جُبّ : البئر الواسعة .

يحتاجون إلى عدّة وعتاد ، وأيضاً أحوالُ عساكرِنا المفرقةِ المضمومة ، لاختلافِ أجناسِها وأنواعِها غيرُ معلومة ، فلا اعتمادَ عليهم ، ولا يتحقّقُ الركونُ اليهم ، فإنهم أجناسٌ مختلفة ، وطوائفُ غيرُ مؤتلفة ، وبينهم معاداة ، وفي جبِلّتهم النّفْرَةُ والمنافاة ، وبعضُهم غذاءُ بعض ، وفي قلبِه منهُ عداوةٌ وبغْض ، لو ظفر به كسرَه وأكلَه ، وإنْ استنصر بهِ خذله ، فهم كالقفلِ المجمع ، ولونُ اتفاقهم ملمع ، وأمّا عساكرُ الأفيال ، فبينهم اتفاقٌ على كلِّ حال ، لأنهم جنسٌ واحدا ، وما بينهم مخالفٌ ولا مناكد ، ولهم اعتمادٌ على قوَّتهم ، وعلى اتفاقهم وشوكتهم . والمعتمدُ على مثلِ عساكرنا ، إنْ لم يضبط بطريقةٍ كليةٍ أمرَ عشائرِنا ، ينفرط أمرُه ويخْمَدُ في ايقادهِ نارَ الحربِ جمرُه ، ويعلوه من بحر النوائبِ غمرُه ، ويظفر به من أعدائه زيدُه وعَمْرُه ، ويصيبُه من الحطّة ، ما أصاب الصيَّادَ من القطة . فسأل أبو الحارث ، عن بيان هذا الحادث .

[٤/٧] حكاية القط والصيّاد

قال الثعلب : ذُكر ان رجلاً ذا كيد ، كان مغرماً بالصيد ، وكان عنده قطٌ صياد ، يجترىءُ على النمسِ والفياد[٨٦] . فكان يوماً بين يديهِ ، فمرّ عصفورٌ عليهِ ، فظفر كالنمور ، وحصّلَ من الهواء العصفور ، فأعجب بهِ صاحبُه ، ثم قصد الصيدَ وهو مصاحبُه ، وحمله تحت إبطه ، وبالغ في حفظه وضبطه ، وركب جوادَه ، وتوجّه يرومُ اصطيادَه[٨٧] ، فرَقِيَ سفحَ جبل ، فخرج من وراء صخرةٍ طائفةٌ من الحَجَل[٨٨] ، فتوجّه إليهِ ، وألقى القطَّ عليهِ ، فطار الطيرُ وخاف القط ، وقصد

[٨٦] الفياد : جمع فَوْد ، وهو العُقاب .

[٨٧] صيده .

[٨٨] الحَجَل : طير في حجم الحمام (من رتبة الدجاجيات) .

رجوَعه إلى تحت الإبط ، فطفر إلى جبهةِ الجواد ، وأنشب فيها مخالبَه الحداد ، فجفلت الفرسُ من القطة ، وخبطت بفارسِها الأرضَ شرَّ خبطة أزهقت منها نفسَه ، وأبطلت حسَّه .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، ليُحترزَ أيُّها البطل ، في هذا الأمرِ من وقوع الخلل ، ويُفكر في أمر هؤلاء الجماعة ، وكيف ثباتهم في دعواهم السمع والطاعة ، فإنهم لا يصلحون للقتال ، خصوصاً مصادمةَ عساكرِ الأفيال . فالملكُ لا يعتمد على مثل هذا العسكر ، اللهمَّ إلا أنْ يتقررَ أمرُهم على صِدْقِ اللقاءِ ويتحرر . وأمَّا ما ذكره مولانا أبو سهيل ، في تبييت[٨٩] عساكر الأفيال بالليل ، فهو رأيٌ معتبر ، ولكن فيهِ نظر ، لأن ذلك إنَّما يكون ، إذا كان العدوُّ في سكون ، وعن توقّعِ النكبات في ركون ، فبينما هم في غفلتهم ذاهلون ، جاءهم بَأْسُنا بياتا وهم قائلون[٩٠] . وإمَّا إذا كانوا مستعدِّين ، يقظين مجدِّين ، وقد توجهوا للقتال ، وانتصبوا للمناضلةِ على هذه الحال ، فلا شكَّ أنهم أتقنوا أمرَهم ، وأخذوا أسلحتَهم وحذرَهم ، فأعدوا لكلِّ نائبةٍ نابا ، ولكلِّ نائغةٍ[٩١] بابا ، ولكلِّ حربٍ حِرابا ، ولكلِّ ضربٍ ضرابا ، ولكلِّ شدةٍ سدّة ، ولكلِّ عِدةٍ عُدّة ، لكلِّ جزةٍ جَمْزَة[٩٢] ، ولكلِّ فَرَّةٍ[٩٣] كَرَّة ، ولكلِّ أزمةٍ حزمة ، ولكلِّ كسرةٍ جزمة ، فربما يكونوا افتكروا منّا هذه المكيدة ، وأعدوا في مقابلتها داهيةً نصبوا لها مصيدة ، فنتوجّهُ إليها غافلين ، فننشب في

---

[٨٩] مهاجمتهم ليلا .

[٩٠] نائمون فى حصونهم أو كهوفهم .

[٩١] النائغة : البلوى ، النازلة .

[٩٢] جمزة : وثبة .

[٩٣] الوفزة : العجلة .

شَرَكِها ذاهلين ، فيُصيبُنا من النّكال ، ما أصاب الجملَ من الجمّال . فقال الريال : هات يا أبا الترهات ، أخبرنا يا أبا نَوْفَل ، أخبار الجمل المغفل .

[٥/٧] قصة الجمل والجمال

قال : كان جمَّال ، فقيرٌ ذو عيال ، لهُ جملٌ يتعيَّش عليهِ ، ويتقوَّت هو وعيالُه بما يصلُ منهُ إليهِ ، فرأى صلاحَه ، في نقل ملحٍ من الملاَّحة ، فجدَّ في تثقيلِ الأحمال ، وملازمتِه بأثقالِ الأثقال ، إلى أنْ آلَ حالُ الجملِ إلى الهزَال ، وزال نشاطُه وحال ، والجمّال لا يرقُّ لهُ بحال ، ويَجِدُّ في كَدِّه بالاشتغال . ففي بعضِ الأيّام ، أرسلَه مع السوام ، فتوجَّه إلى المرعى ، وهو ساقطُ القوَّةِ عن المسعى . وكان لهُ أرنبٌ صديق ، فتوجَّه إليه في ذلك المضيق ، ودعاهُ وسلَّم عليه ، وبث عظيمَ اشتياقه إليه . فلمَّا رأى الخزز[٩٤] هزالَه ، تألَّم له وسأله أحواله . فأخبره بحاله ، وما يقاسيه من عذابه ونكاله ، وأنَّ المِلْحَ[٩٥] قد قرحهُ ، وَجَبّ[٩٦] سنامُه وجرحَه ، وإنَّهُ قد أعيتْه الحيلة ، وأضلّ إلى الخلاص سبيلَه . فتألَّم الأرنبُ وتأمَّل ، وتفكَّر في كيفيَّةِ عَصْرِ هذا الدُّمَّل . ثمَّ قال : يا أبا أيُّوب ، لقد فزتَ بالمطلوب ، وقد ظهر وجهُ الخلاص ، من شَرَكِ هذا الاقتناص ، والنجاةُ من الارتهاصِ[٩٧] والارتصاص[٩٨] ، تحت حِمْلٍ كالرصاص ، فهل يعترضك يا ذا الرياضة ، في طريقِ الملاحةِ مخاضة ؟ فقال : كثير ، وكم من نهرٍ وغدير ، فقال : إذا مررتَ في خوض ، ولو أنَّهُ روض ، أو

---

[٩٤] الخزز : ذكر الأرنب .

[٩٥] الملح : أحولة الملح التى يحملها الجمل فوق ظهره ، ينقلها من مكان لآخر .

[٩٦] حبّ : قطع سنامه .

[٩٧] الارتهاص : الأحمال الثقيلة .

[٩٨] الارتصاص : ضم الأحمال إلى بعضها .

حوض ، فأبْرِكْ فيه وتمرغ ، وتنصَّلْ من حملك وتفرَّغ ، واستمر فيه يا أبا أيُّوب ، فإنَّ الملحَ في الماء يذوب ، وكرر هذه الحركة ، فإنَّك ترى فيها البركة . فإمَّا أنهَّم يُغَيِّرون حِمْلَك أو يخففوهُ ، أو تستريح بذوبهِ من الذي أضعفوهُ ، فتحمَّل الجملُ للأرنبِ المِنّة ، وشنّف بدرُ هذه الفائدةِ أذنَه .

فلما حمَّله صاحبُه الحِمْلَ المعهود ، ودخل بهِ في طريقه المورود ، ووصل المخاضةَ برك ، فضربوه فما قام ولا احترك ، وتحمَّل ضربه وعسفَه ، حتى أذاب من الحملِ نصفَه ، ثمَّ نهض انتهاضةً ، وخرج من المخاضة ، ولازم هذه العادة ، إلى أن أفقر صاحبَه وأباده ، فأدرك الجمَّالُ هذه الحيلة ، فافتكر له في داهيةٍ وَبِيلَة ، وعمد إلى عِهْنٍ[٩٩] منفوش ، وغيَّر في مقامرتهِ شكلَ النقوش ، وأوسق للحمل منهُ حِمْلا ، بالغ فيهِ تعبيةً وثقلا ، وسلط عليهِ الظما ، ثمَّ دخل بهِ إلى الما ، فلمَّا توسَّط الماء ، برك ، وتغافل عنه صاحبُه وترك ، فتشرَّب الصوفُ من الماءِ ما يملأُ البرك ، ثمَّ أراد النهوض ، فناء بهِ الرَّبوض[١٠٠] ، فقاسى من المشاق ، ما لا يُطاق ، ورجع هذا الفكرُ الوبيل ، على الجملِ المسكين بأضعافِ التثقيل ، فساء مصيرُه ، وكان في تدبيرِه تدميره ، وما استفاد إلاَّ زيادةَ النَّصَب[١٠١] ، وأمثال ما كان يجدهُ من التعب والوَصَب[١٠٢] .

وإنَّما أوردتُ هذا المثل ، عن الجمل ، ليعلمَ الملكُ والحضَّار ، أنَّ العدوَّ الغدَّار ، والحسودَ المكار ، يتفكرُ في أنواع الدواهِي ، ويفرّعُ أنواعَ البلايا والرزايا كما هِي ، ويبذلُ في ذلك جَدّه وجَهْدَه ، ولا يقصرُ فيما تصلُ إليهِ من ذلك يده ، فتارةً تُدركُ

---

[٩٩] عِهْن : الصوف المصبوغ ألوانا .

[١٠٠] الرَّبوض : الحمل الثقيل الضخم .

[١٠١] التعب والإعياء .

[١٠٢] الوجع والمرض والفتور فى البدن .

مكايدُه ، وتُعرفُ مصاديدُه ، وتارةً يغفلُ عن دواهيها ، فلا يشعُر الخَصْمُ إلاّ وقد تورَّطَ فيها ، وعلى كلِّ حال ، لا بدَّ للشخصِ لهُ وعليهِ من الاحتيال . وأمَّا طلبُ الصلحِ وإرسالِ الهدايا ، فمن أعظمِ المصائبِ وأكبرِ الرزايا ، فإنَّ ذلك يدلُّ على عجزِنا والخور ، وينادي على هَوَانِنا في البدْوِ والحضر ، ويجرِّىءُ علينا الغريب ، ويُذهِبُ حُرْمَتَنا عند القريب ، ودونك يا أبا العبَّاس ، ما أنشدتك في المقياس :

وما أنا مِمَّنْ فَرَّ من نارِ خَصْمِهِ لِظِلِّ حسودٍ أو إلى فَيْءِ شامتِ

ولكنّ الرأيَ الأنور ، أيها الوردُ الغضنفر ، أَنْ تُرسلَ إليهم رسولا ، عاقلاً فصيحا جميلا ، بصيراً بعواقبِ الأمور ، قد مارس تقلباتِ الدهور ، وقد ربَّى وتربَّى ، وعن الرذائل تأبَّى ، وبأنواعِ الفضائلِ تعبى ، وأحرم إلى كعبةِ محاسنِ الشيمِ ولبّى ، ولولا إن بابَ النبوّةِ استدَّ لَتنبى[١٠٣] برسالةٍ فحله ، تسفرُ عن بسالةٍ جزله ، تتضمنُ سؤالَهم ، عما أَوْجَبَ ارتحالَهم ، وسبب قصدِهم لبقعتنا ، وتوجههم لدخولِ رقعتنا ، وما موجبُ هذا الاعتداء ، ولم يصدرْ منا لهم إلا المحبةُ والولاء ، وحسنُ الجوار ، والإحسانُ إلى الكبارِ والصغار ، ومعاملةُ الغريب والقريب ، بالفضلِ المجيب ، والكرمِ الذى لا يخيب ، ويذكرُ لهم بسالتَنا وشجاعتنا ، وفي معاملاتِ المضاربةِ بضاعتَنا ، ويكشفُ لهم في ملابسةِ الحربِ والضربِ صناعتَنا ، ويحققُ عندهم ما عندنا ، من أُسودِ الحرب ، وفوارسِ الطعنِ والضرب ، وأجناسِ الوحوشِ الكواسر ، والسباعِ الجواسر[١٠٤] ، وأَصنافِ الفراعل[١٠٥] والعسابر[١٠٦] . ويتكلمُ بكلام ، يراهُ مقتضى المقام ، ومناسبٍ للحال ، ويوسّعُ في ذلك المجال . ويميِّزُ

---

[١٠٣] ادّعى النبوّة .

[١٠٤] الجواسر : جمع جاسر وهو الشجاع .

[١٠٥] الفراعل : الضباع وأولادها .

[١٠٦] العسابر : أولاد الذئاب ، والنمور أيضا .

أوضاعَهم وعساكرَهم ، ويسيرُ بمسبارِ العقلِ[107] أمورَهم وأوامرَهم ، ويسمعُ الجواب ، وما فيهِ من خطأٍ وصواب ، ويُوردُه إلينا ، ويعرضُه علينا ، فنعملُ بمقتضاه . وينظرُ الرأيُ السديدُ فيهِ ما ارتضاه ، ونبني على ذلك الأساس ، ونفصّل على ذلك القياس .

فاستصوبوا هذا الرأيَ من الآراء ، وطلبوا لهُ كفُواً من الأكفاء ، فوجدوا ذئباً هو من خواصِّ الحضرة ، ومن ذوي النباهةِ والشهرة ، لهُ في ميدانِ الفضائلِ كَرٌّ وَفَرّ ، وفي مظانِّ النفعِ والضر ، خيرٌ وشرّ ، قد جُرِّب في المصايد ، ودُرِّب في المكايد ، وهُذِّب في المصادرِ والموارد ، ورتِّب في المطارف والمطارد . أدنى فضائله حُسْنُ السِّفارة ، وإحدى فواضله ترتيبُ العبارة ، حلاّلُ المشكلات ، كشّافُ المعضلات ، فوقع عليه اختيارُهم ، ورضي بهِ كبارُهم وصغارُهم ، فحمّلَه الأسدُ كلامَه . وجعل البسملةَ مبداه ، والحسبلةَ[108] ختامَه ، ومن مضمونها بعد إبلاغ التحية ، والأثنية[109] السنية : إلى الحضرةِ العلية ، ملكِ الأفيال ، أبي مزاحمِ المفضال ، ألهمه الله هداه ، وصرفَ عنه رداه ، وبصّره مواقعَ الخير وهداه ، ولا شمّت بهِ أعداه ، وحفظه بالعشيِّ والغداة ، وجعل عقباه خيراً من مبتداه ، نُحيطُ علومَه الكريمة ، وآراءه العليةَ الجسيمة ، أنَّ قوَّتنا من قديمِ الزمانِ ظاهرة ، وهيبتَنا باهرة ، وصولتَنا قاهرة ، لم نزلْ نفترسُ الفوارس ، ونكرمُ أصنافَ الأضيافِ من الوحوشِ والطيرِ بالفرائس ، ويُضربُ بنا في الشجاعةِ والكرمِ الأمثال ، ويفرُّ من بين أيدينا أسودُ الأبطال ، ولا عارَ على مَنْ فرّ من بين يديْ الريبال[110] . وقد اتّصل بنا أنَّ ملكَ

---

[107] مسبار العقل : ما يعرف به غَوْرُ الرأي ونهايته . ويسبُر : يخبُر .

[108] الحسبلة : منحوتة من حسبنا الله ونعم الوكيل ، ومثلها البسملة منحوتة من "بسم الله الرحمن الرحيم" .

[109] الأثنية جمع ثناء وهو الأدعية .

[110] الريبال : مخفف الرئبال ، وهو الأسد .

الأفيال ، توجَّه إلينا بجنودِه ، وهيأ في ذلك أجناسَ عساكرِه وبنوده[111] ، وما علمنا لذلك موجبا ، ولا تقدَّمنا بعداوةٍ تنشي حَرْباً وحَرَبا[112] ، بل ولا تعرضنا لأحدٍ في مَلْكه ومُلْكه[113] ، وعَدْلُنا بحمدِ الله تعالى جارٍ في بحار الملكِ وفُلْكه ، والرعايا شاكرةٌ منّا ، ولم يُنشرْ سوى الذكرِ الجميل عنّا . فانعموا بردِّ الجواب ، وميِّزوا الخطأ من الصواب ، قبل أن يكشِّرَ الشرُّ نابَه ، ويفتحَ جرابَه ، ويحرِّشَ للهُرَيْرِ كلابَه ، ويسلخَ ليلُه إهابه ، ويكسرَ رائدُ الفتنة بابَه ، فتتفاقم الأمور ، وتتعاظم الشرور ، وتتلاطم بحارها وتمور ، عند التهاب شواظِّ الغيظ من الأسود والنمور ، مع أنَّ اعتمادَنا على اللهِ العظيم ، وتوكّلَنا على العزيزِ الرحيم .

فلما بلَّغ الذئبَ الرسالة ، وأدّى ما فيها من شجاعةٍ وبسالة ، وبيّنَ لملكِ الأفيال ، ما تضمنتُه من عظمةٍ وجلال ، استشاط ملكُ الأفيال ، وتغيَّرتْ لاضطرابه الأحوال ، ونظر من تلك الفيول ، إلى فيلٍ ظلومٍ جهول ، وبدر إليه[114] من غير تدبّر ، ولا تأمّلٍ في الأمورِ وتفكُّر ، وقال : اذهبْ إلى هذا المعتمدِ على كلامه ، الراقدِ في غفلة منامِهِ ، وقل لهُ متى مارستَ معركةَ الشجعان ؟ أو صارعت رجالَ الميدان ؟ وأنّى لك طاقةٌ بمصادمة الجبال ؟ ومن أين تعرفُ مقاومةَ الأفيال ؟ فاستيقظْ لنفسِك ، فَعَنْ قريبٍ تحلُّ برمسِك[115] ، واستعد لجنودٍ لا قِبَل لك بها ، فستشاهد ما لم تسمعْه من ضربها في حربها ، فلقد أتاك عسكرُ القضاءِ وبنودُه ، ولَيُحَطِّمَنَّكُمْ سليمانُ الأفيالِ وجنودُه ، فَلَيريقنَّ الدماء ، وليستأسِرَنّ الحرائرَ كالإماء ، وليدوسنَّ

---

[111] بنوده : أعلامه الكبيرة (فارسية معربة) .

[112] الحَرب : الويل والهلاك والدمار .

[113] في ماله أو في حكمه .

[114] أشار إليه وأمره .

[115] قبرك .

الأطفال ، ولترينَ منهُ الأنكادَ والأنكال ، وليظهرنَّ آثار الدمار والبوار ، بما لك من ممالكٍ ومساكنٍ وديار ، وليفعلنّ بولاياتك اما فعلَه بممالكِ الإسلامِ التتار ، وأنتَ بين أمرين ، وبخير النظرين : إمّا أن تطيعَ لأمرِنا وتنقاد ، وتسلمَّ إلينا ما بيدك من بلاد . وإمّا أن تختار ، طرقَ الفراقِ والفرار ، وتنجو منّا مَنْجى الذباب ، وتتنحّى عن طريقنا بما معك من كلابٍ وذئاب . وقد بالغنا في النصيحة ، بعبارتنا الصحيحة ، وأقوالِنا الفصيحة ، قبل إفشاءِ الفضيحة .

فوصل الفيلُ الرسول ، وأدّى هذا المقول . فتشوش الأسد ، وداخَله الغيظُ والنكد ، فأراد الإيقاعَ بالرسول الظِلومِ الجهول ، ثم تمالك ، وعن ذلك تماسك ، وقال : لولا أن عادةَ الملوك ، ودربَ السياسةِ المسلوك ، أنْ لا تُهاجَ[١١٦] الرسل ، ولاتُضيَّق عليهم السبل ، لقابلتُك على كلامِك الفجّ ، بما يجب من العج والشج[١١٧] . ثمَّ التفت إلى الثعلب وقال : يا أبا الحصين ، ماعندك في جواب هذين النحسين[١١٨] ؟ قال الثعلب ، أنت الأغلب ، هذا القيل ، أقوى دليل ، وأوضحُ سبيل ، على عدمِ عقلِ الفيل ، وأن فكرَه وبيل ، وبصيرتَه قد عميت ، وطرقَ هدايته قد خفيت ، وإنه غوى وأضلّ قومَه وما هدَى . وكلُّ مَنْ اعتمد على قواه وحولِه ، واستحلى غرورَ فعلِه وقولِه ، فقد زال وزَلّ ، وفي عقد البلاء حال وحلّ ، وهذا الجاهلُ السخيفُ الكثيف ، الثقيلُ الجثةِ الخفيف[١١٩] ، وقد استحقرنا في عينه ، فسيرى منا حلولَ حَيْنه[١٢٠] . وكلُّ مَنْ استحقر واستخف بعدوِّه ،

---

[١١٦] لا تعاقب ولا تؤذى .

[١١٧] الشدّة والثورة عليك ، بما في ذلك الضرب والقتل .

[١١٨] يقصد ملك الأفيال ورسوله .

[١١٩] الخفيف العقل .

[١٢٠] موته ، أجله .

فسيعدم حلاوة هدوّه[١٢١] ، وسيُحرم مواصلة مرجوّه . وقد قالت الحكماء الأخيار ، والعقلاءُ ذوو الاعتبار ، وأولو التجارب والاستبصار : لا تستحقرْ السقمَ والنومَ والدينَ والعدوَّ والنار . فالملكُ أعزّ الله نصرَه ، وأعلى منارَه وقدرَه ، وسلط على الأعداءِ قهرَه ، لا يلتفتُ إلى هذا الكلام ، ولا يتزعزعُ لهذه الأوهام ، ولايخَفْ من جهامةِ الأفيال ، فكل ما هم فيهِ باطلٌ ومحال ، بل يعتمدُ على اللهِ العزيزِ الجبار ، ويُصفي نِيَّتَه بالعدلِ والخيرِ مع الكبارِ والصغار ، ويقوّيَ جَنانَه[١٢٢] على الملاقاه ، وقد وافاه النصرُ وآتاه ، ولاَغَاهُ السعدُ ولاَقَاه ، فإنّ هؤلاءِ اعتدوا على ولايته وأتوها ، فسينزل الله تعالى عليهم جنوداً لم يروها ، فكم من مستضعفٍ حقير ، صدر منهُ بالحيلة أمرٌ خطير ، وبحسنِ التدبير ، ومساعدةِ مَنْ هو على كُلِّ شيء قدير ، تَمَّ له أمرٌ كبير ، وناهيك قصة الفارة ، مع رئيس الحارة ، وما فعلته ، إذ ختلته[١٢٣] إلى أنْ قتلته . فسأل حيدرة[١٢٤] ، عن تلك المأثرة .

[٦/٧] قصة الفارة مع رئيس الحارة

فقال بلغني أيها النفيس ، أنهُ كان رئيس ، ضَيِّقُ العطنِ خسيس ، لهُ زوجةٌ ذاتُ صيانة ، ودينٌ وأمانة ، لم تزل تتجنبُ الخيانة ، وتتعاطى العفّةَ والرزانة ، ولهُ دجاجةٌ تبيضُ على الدوام ، فيسرقُ بيضتَها أبو راشد[١٢٥] وهم نيَّام ، فإذا افتقد الرئيسُ بَيْضَتَه ، طالب بها زوجتَه ، فتحلفُ إنّها ما رأتها ، ولا تعرفُ يداً أخذتها ، فيؤلمها

---

[١٢١] الهدوّ : الهدوء .

[١٢٢] قلبه .

[١٢٣] خدعته بالمكر .

[١٢٤] من أسماء الأسد .

[١٢٥] كنية الفار هنا .

سبّا ، ويوجعُها ضربا ، ولا يصدّقُ قولَها ، ولا يرحم عولها . ففي بعضِ الأحيان ، رأت المرأةُ الجرذان ، وهو يجرُّ البيضةَ إلى جُحرِه ، وقد بلغ بها بابَ وكرِه ، فدعت بَعْلَها ، لتريَه الفارةَ وفعلَها ، فعلِم براءةَ ساحتِها ، وعمِلَ على راحتها ، واعتذر إليها ، وطلب الفارة وحَنَقَ عليها ، وأعملَ المكيدة ، ونصبَ للفارة دونَ البيضةِ مصيدة . فلما رأتْ الفارةُ الشرك ، علمت أن وراءَه الدرك ، فشعرت بما وضع عليه ، فلم تتقدمْ إليه إلى أنْ زار الجرذان ، أحدُ أقاربِه من الفيران ، فلم يجدْ شيئا يضيفُه ، فاعتذر إلى الضيفِ بما هو مخيفه ، وأراه من البيضة سعاد ، وأن دونها خَرْطَ القتاد[١٢٦] . وكان الضيفُ الغرّ ، لايعرفُ هِرًّا من برّ ، فحملَه السفهُ ، والحرصُ والشره ، على أنْ قال : أنا أخوضُ هذه الأهوال ، وأَرِدُ من الموتِ حوضَه ، وأصلُ إلى هذه البيضة ، ثمَّ قصد المصيدَة ، فقبضت وريدَه ، وفجعت بهِ وليدَه ووديدَه[١٢٧] . فتنكدت الفارةُ وتكدرت ، والتظت أحشاؤها وتسعَّرَت ، وتألّمتْ لموْتِ ضيفِها ، وبلغ جيرانَها حديثُ ضيفها ، فخجلت منهم ، واختفت عنهم ، وشاعت قضيتُها ، وذاعت بليتُها ، فلم تجدْ لبردِ النار ، سوى أخذ الثار .

فأخذت تفكرُ في وجهِ الخلاص ، فرأت أنّها لا تخلصُ من عتبِ الجيران إلا بالقصاص . فشرعت في تعاطي أخذ الثار ، من صاحب الدار ، وكان لها صاحبةٌ قديمة ، عقربٌ خبيثةٌ لئيمة ، معدنُ السمومِ في زُبَانِ إبرتها ، وطعمُ المنايا مودعٌ في شوكتها ، فتوجهتْ إليها ، وترامت عليها . وقالت : إنّما تُدّخر الأصحابُ للشدائد ، ولدفعِ الضررِ والمكائد ، وإنزالِ الداء ، بساحةِ الأعداء ، ولأخذِ الثارِ والانتقام ، من المعتدين اللئام . وقصتْ عليها القصة ، وطلبتْ منها إزاحةَ هذه

---

[١٢٦] دونه خرط القتاد : مثل يضرب للأمر العسير .

[١٢٧] وديده : مَنْ يحبّه .

الغُصَّة ، وأنْ تأخذَ لها بِضَرَبَاتِها القَصاص ، ليحصلَ لها بين جيرانِها من العتبِ الخلاص . فأجابَتْها إلى ما سألت ، وأقبلتْ إلى وكرِ الفارة بما اقتبلت ، وأخذاً في إعمالِ الحيلة ، قادت أفكارُهما الوبيلة ، إلى أنْ تخدعا صاحبَ البيتِ بالذهب ، وتُلقياه بذلك في اللَّهَب . ثم أمْهَلاه إلى أن دخل الليل ، وشرَعَا في إيصالِ الويل ، فأخرجتْ الفارةُ ديناراً وألقته في صحن الدار ، ووضعتْ آخرَ عند جُحرِ الفار ، وأظهرتْ نصفَ دينارٍ من ذلك الذهبِ ، وسترت النصفَ الآخرَ عند العقرب ، واستترت العقربُ بجناح السكون ، تحت ذيلِ الكمون ، وقد عبَّتْ في زُبانِها رَيْبَ المنون[١٢٨] . فلما أصبح الصباح ، نُودي بالفلاح ، وجد صاحبُ الدارِ ، في وسطها الدينار ، فتفاءَل بسعدِ نهارِه ، ولم يعلمْ أنَّهُ علامةُ دماره ، ففتح عينيه ، ونظر حواليْه ، فرأى عند جُحرِ الفار ، أخاً لدينار ، ففرح وطار ، ونشط واستطار ، وزاد في الطلب ، على بقيَّةِ الذهب . فرأى نصفَ دينار ، داخلَ جُحرِ الفار ، فمدّ يدَه إليه ، وأعمى القضاءُ عينيه ، عما قدَّره الله عليه ، فضربتْه العقربُ ضَرْبَة ، قضى منها نحبَه ، فبرد مكانه[١٢٩] ، ولاقى هوانه . وأخذتْ الفارةُ ثارَها ، وقضت من عدوِّها أوطارَها .

وإنَّما أوردتُ هذه الأخبار ، ليعلمَ الملكُ أنَّ حيلةَ صائبِ الأفكار ، تفعلُ ما لا يفعلُه العسكرُ الجرّار ، بالسيفِ البتّار ، والرمحِ الخطّار ، وبقليلِ الحيلة ، تَتِمُّ الأمورُ الجليلة ، فلا يهتمُّ الملكُ بجثثِ الأفيال ، ويشرعُ فيما هو بصدده من دقيق الاحتيال . وأنا أرجو من الله تعالى الظفرَ بعدوِّنا ، وحصولنا على غاية مأمولِنا ، ونهايةِ مرجوِّنا . فأوّلُ ما نعاملُهم بالوهمِ وإظهارِ الصولة ، والتخويفِ والإرهابِ

---

[١٢٨] رَيْبُ المنون : حوادث الدهر ، والمعنى هنا : الموت العاجل .

[١٢٩] برد مكانه : كنّى المؤلف بذلك عن موته .

بقوّةِ الدولة ، فإن الوهـمَ قتّـال ، والعـاقلَ المدبـرَ يحتـال . وطائفـةُ الفيـول ، عديمـةُ العقول ، وبالوهمِ يبلغُ الشخصُ مرادَه ، كما بلغ الحمارُ من الأسدِ ما أرادَه . فسأل ملكُ الآساد ، بيانَ حكايةِ أبي زياد .

[٧/٧] حكاية الحمار والأسد

فقال أبو الحُصين : أخبرني أبو الحُسين ، ذو المفاخرِ ناصر ، أنّـهُ كـان في بعـضِ الأعصارِ والمعاصر[١٣٠] ، حمارٌ في مدار ، يستعملونَه بالليل والنهـار ، إلى أن حصـل لهُ الكِبَرِ ، ورُمِي بالعبَر ، وابتُليَ باطناً بالجوع ، وظاهراً بالدُّبُر ، وعجزَ عن العمل ، وانقطعَ منه الأمل ، فتركه أصحابُه وأعتقوه ، وفي بعض المراعـي أطلقـوهُ . فصـار يمرح ، وفي تلك المروجِ يسـرح ، إلى أنْ خـرج إلى الصحـرا ، وانفرد في ريـاضِ الفلا ، فوصل إلى بعض الآجام[١٣١] ، وحصل له النشـاطُ التام ، الى أنْ صحَّ بدنُه وسمن ، وبرأ دُبُرُه وأمن . وأخذهُ البطر ، واستولى عليهِ الأشر ، واستخفّه الطيـش ، وطيبُ العيش ، وصار في تلك المراعـي ، يـتردَّدُ ذهابـاً وإيابـاً كالسـاعي ، فيسـدّي ويلحمُ في شَقّتِها ، ويفصـلُ مهما اختـار مـن مُزْهِـرِ خرقتهـا ، وينهـقُ على عـادةِ الحمير ، فيملأُ تلـك الأمـاكنَ مـن الشـهيق والزفير . وكـان في تلـك الآجـامِ أسـدٌ مُتَخيِّس[١٣٢] ، يسمّى الشبلَ ابنَ المتأنس ، كان أبوهُ ملكَ تلك الأمـاكنَ ، قـد نشـأ بها وهو فيها ساكن ، شابٌ غرير ، لم يكُن يعرفُ الحمير ، ولا طرق سمعَه شـهيقٌ ولا زفير ، بل ولا خرج من تلك الآجـام ، ولا عرف تصرفاتِ الأيّام ، وكان أبـوهُ قُتِلَ في الاصطياد ، وتفرقت عنه العساكرُ والأجنـاد ، فنشـأ وحيـداً يتيما ، واسـتمر

---

[١٣٠] الأعصار جمع عصر ، والمعاصر جمع معصرة .

[١٣١] الشجر الكثير الملتف .

[١٣٢] ذليل لا يغادر خيسه أى موضعه .

فيها مقيما . فلما سمع سوتَ الحمار ، أخذته الرعدَةُ والاقشعرار ، واستولى عليهِ الهلع ، فقعد عن الاصطيادِ وانقطع . وصار كلّما نهق ، هرب واختفى من الفَرَق[١٣٣] ، وغلب عليهِ الدهش ، إلى أن كاد يموتُ من الجوع والعطش .

وصار الحمارُ يتردَّدُ إلى عينِ ما[١٣٤] ، كان الأسدُ يُسكنُ منها سَوْرَةَ الظما ، فما اجترأ بعد ذلك على الورود ، وأضرّ به الخوفُ والانقطاعُ والقعود ، فلما كاد العطشُ أنْ يقتلَه ، توجَّهَ إلى العينِ محفوفاً بالحيْرةِ والوَلَه ، فوجدَ الحمارَ واقفاً عندها ، وأدرك الحمارُ خوفه منه بالدها ، فتقدّم إليهِ ، وصوّب نحوَه أذنيه ، وحملَق عينيه ، فبدرَ من الأسدِ صرخة ، اتبعها من بَوْله شخّة . وقال للحمار : إيش أَنت ، ولأيِّ شيْءٍ ها هنا سكنت ؟ وجعل يرجف ، وفي قيد الخوفِ يرسف . فعلم الحمار ، أَنَّ الأسدَ خار فقال : بجنانٍ جري ، وبيان قوي : أنا في هذا المكان ، أُفَرِّقُ رزقَ الحيوان ، وقد أقمتُ أحوش ، أرزاقَ الوحوش ، ثم أُقسِّمها بينهم ، وأملأُ جوفَهم وعينهم . فقال الأسدُ : إني جيعان ، ولي مدة عطشان ، فاعطني من الأكلِ رزقي ، وافرزْ لي من الماءِ حقي . فقال بوجهٍ مقطب ، أُدْنُ إلى الماءِ واشربْ ، فدنا وشرب ، وهو خائفٌ مضطرب . ثم قال : أنا جائع فاطْعِمْني ، وعَجِّلْ ولا تحرمْني ، فلي مُدَّة من الجوع ، لا قرارَ لي ولا هجوع . فقال الحمار : تعالى معي إلى موضعي ، لتعرف مكاني ، وتقرر جرايتَك في ديواني . فذهبا في طريق ، حتّى وصلا إلى نهرِ ماءٍ عميق ، فأرادا العبور ، فقال الأسدُ الهصور ، هذا الماءُ عميق ، وكَمْ فيهِ من غريق ، فاحْمِلْني في الذهاب ، وأنا أحملُك في الإياب ، فأجابَه الحمار وحمله ، وخاض بهِ ونقله ، فأنشب الأسدُ الأظفار ، في كاهلِ الحمارِ وثَقَّلَ عليه ،

---

[١٣٣] الخوف .

[١٣٤] عين ما : عين ماء .

فلم يتأثّر له و لم يلتفت إليه ، فزاد وَهْمُهُ من الحمار ، وقال هذا رأسُ الدُّعَّار[١٣٥] .
ثم سارا ساعةً أخرى ، فرأيا في طريقهما نهرا ، فطلب الحمارُ الوثوب ، وقال هذه نَوْبتي في الركوب ، ثم طفرَ على الأسد ، وثَقَّلَ عليه الجسد ، وتمكّن عليه ، وأرخى يديه ورجليه ، فتضرّر من ثقله ، وابتلى بشرّ عمله ، ثم تَوَرَّكَ عليهِ ، وأنشبَ في كاهلِه مساميرَ نعليه ، فماجَ الأسدُ ومار ، وقد أثّرتْ فيه حوافرُ الحمار . فقال لهُ : أثبتْ وآلِك[١٣٦] ، فما حَوَّلَكَ تحتى وأَحَالَك . فقال : يا أخي جِرْتُ في أمري ، لقد أوجعتني وقصمْتَ ظهري ، فكان يكفيني جوعي ، وقِلَّتي وخضوعي ، وما أدري هذا الضرّ والبلا ، من أين أقبلا ؟ فَقُلْ لي ما الذي أنشبتَه في كاهلي ، ونزّلتَ به من حافرك في ساحلي ؟ فقال : هذه مَسَامِك[١٣٧] ، لِطُلاّبِ الجراياتِ والجوامِك[١٣٨] ، وهي أربعون مسماك ، لا بُدّ أنْ تثبتَ كلُّها في قفاك ، حتى يترصّعَ لك اسمٌ في الديوان ، وإلاّ فالرزقُ لا يحصلُ بالهُوَيْنا بل بالهوان . فقال : يا أخاه ، اتركْني لوجهِ الله ، وأرفقْ بي رفقا ، وما أريدُ منك رزقا ، ودعني بالأمانة ، ووَفّر الجرايةَ على الخزانة ، ولا رأيتُك ولا رأيْتَنى ، ولا عرفتُك ولا عرفتَني ، فإني أتقوّتُ من حشيشِ الأرض وخُشاشِها ، واستعدّ لمعادِ نفسي بالرفق في معاشِها .
فنزل عنهُ الحمار ، وتركهُ وسار ، فهرب منه بعدما ودَّعه ، وولّى يلتفتُ يمينا وشمالاً لئلا يتبعُه .

وإنّما صَوَّرْتُ هذا النقش ، لتعلمَ يا ملكَ الوحش ، أنَّ الوهمَ يصدرُ كالسهم ، وهو عند براهمةِ الهند ، وحكماءِ السند ، أحدُ طرقِ العلم ، رقاكَ اللهُ إلى سُلَّمِ

---

[١٣٥] الدعّار جمع داعر وهو القوي الشديد الفاجر .
[١٣٦] آلِكْ ، تَحمّلْ .
[١٣٧] مسامك ومساميك ، واحدتها مسماك ، وهو عود للخباء ، بمعنى عمود يكون في الخباء يسمك به البيت.
[١٣٨] جوامك : رواتب .

السَّلْم . والوهمُ غالبٌ على الأفيال ، بل سَهْمُ الوهمِ يقتلُ كثيراً من الرجل ، فنرجو من اللهِ أنْ يبلغَنا مقصودَنا ، وننالَ من طالعِ الجَدِّ والحظِّ مسعودَنا ، وأنْ يُرْجِعَ أعداءَنا بالخيبة ، وفراغ العيبة . وهذا المثلُ الذي ضربتُه ، والتقريبُ الذى قربتُه ، إنّما هو مثلُ العاجزِ الضعيف ، مع القويِّ العسلوف[139] لا العسيف[140] . وأمّا نحن بقوّةِ اللهِ وحَوْله ، ومساعدةِ نصره وطَوْله ، فَقُوَّتنا قاهرةٌ قائمة ، وصدمتُنا بعونِ الله دعائمُها داعمة ، لم يحصلْ منا خوفٌ ولا خور ، ولا فزعٌ ولا جزعٌ ولا جور ، ففينا بحمدِ اللهِ قُوَّةٌ لمصادمتهم ، وقدرةٌ لمقاومتهم ، فَامْضِ لأمرِك ، فكأنّي بك ، وقد رجعتَ فائزاً بنصرك ، مجبوراً بكسرِ عدُّوك ، محبوراً بيُسرِك .

ثم إنَّهُ اقتضى رأيُ أبي الضراغم ، إعادةَ الذئبِ إلى أبي مزاحم ، برسالةٍ مضمونها : بَصّرَكَ اللهُ بعيوبِ نفسك ، وأراك عاقبةَ غدِك في صبح أمسك ، وجعلَك ممَّن اتبعَ الهدى ، وامتنعَ عن مواردِ ، الرَّدى ، اعلمْ أنَّ علماءَ الهند ، وحكماءَ البراهمة والسند ، امتازوا عن حكماءِ الأقاليم ، ووضعوا رقعةَ الشطرنج للتعليم ، وأنَّ واضعَ ذلك ، صَوَّرَ الرقعةَ بصورةِ الممالك ، وقسَّمَها بالسويّة ، وجعل لكلِّ قسمٍ جنساً من الرعية ، ووضعَ لهُ نوعاً من السيرِ لا يتعداه ، وبَيَّنَ لك منهم مكاناً لا يتخطاه ، وأنا أخافُ أنْ تتعدَّى بمكاناً هو مقامك ، وتقصدُ بيتَ الشاهِ ويفوت مرامُك ، ويناديك فرزين[141] العقل ، وأنتَ راحلٌ في النقل : يا ذا الهوس ، ماذا بيت الفرس ؟! فتقع وأنتَ تصرخ ، في لعبك بالنفسِ مع الرُّخّ ، فلا يفيدُك الندم ، وقد زلّتْ بكَ القدم ، وخرجتَ في لعبةٍ من رفعةِ الوجودِ إلى العدم ، وترى

---

[139] العسوف : العنيف .

[140] العسيف : الأجير المستهان به .

[141] فرزين العقل : من فرزان الشطرنج معرب فرزين ، وهو إحدى قطع الشطرنج فى منزلة الوزير والمقصود بفرزين العقل صواب الرأى وحسن المشورة فى تدبير الأمر .

تلاقي الموافاةِ فات ، ويقولُ خَصْمُكَ ، وقد رأى كَلاحَةَ وجهِك : شاةٌ مات . فلا تعتمدْ على جهامةِ جسدِك ، وكُفَّ عن حقدِك وحسدِك ، ولا تقصدْ حَرَمَ كعبةِ غيرِك بالفكرِ الوبيل ، فيُصيبَك مثل ما أصابَ أصحابَ الفيل ، حين أرسلَ الله عليهِم طيراً أبابيل ، ترميهم بحجارةٍ من سجّيل[142] ، وتصيرُ بعد وقوعِ الملاحم[143] وصدوعِ المقاحم ، أبا حرمان بعد كنتَ أبا مزاحم .

فلما قرأ الفيلُ هذه المطالعة ، غطّت حميَّةُ الجاهليةِ منهُ الباصرَةَ والسامعَةَ ، فأراد أن يأمرَ بإبطاءِ الرسول ، تحت أخفافِ الفيول ، لكن راجع عقلَه ، وأحضر وهلَه وردَّ الذيب ، بجوابٍ مخيب ، وسهمٍ غيرِ مصيب . وقال : استعدُّوا للقتال ، ومصادمةِ الأبطال ، ومقارعةِ الأفيال . ثم أمر بالعساكر فتجهَّزَتْ ، وبأمورِ الحرب فَتَنَجَّزَتْ ، وثار بغضبٍ أحمى من جمرِ الغضى[144] ، وسار بالعساكرِ الجرارةِ فملأَ الفضا . فبلغ الملك المظفر ، أبا الحارث الغضنفر ، ما فعلَه الأكلب ، فاستشار الثعلب . فقال : اعلمْ أيها الملك ، وقاك الله شرَّ المنهمك ، أنَّ الأفيال لا يعرفون إلاّ المصادمة ، والاندفاعَ مرةً واحدةً في المخاصمة ، وليس لهم في الحرب جِراب ، إلا الخراطيمَ والأنياب ، لا يعرفون الكرَّ والفرّ ، ولا يفرِّقون بين النصْبِ والجر . ولكن بعضُ العساكر ، لهُ في ذلك معارفُ ومناكر ، منها المواجهةُ والمشافهة ، والمصارعةُ والمقارعة ، والمدافعة والممانعة ، والمخاتلةُ والمخادعة ، والمناوشةُ والمهاوشة ، والمعانشةُ[145] والمهارشةُ ، والمكافحةُ والملاطحة[146] ، والمطارحةُ والمرامحة ،

---

[142] سجيل : الطين اليابس المتحجرّ .

[143] الملاحم : المعارك الكبرى التي تلتحم فيها الجيوش .

[144] الغضى : شجر من الأثل خشبه من أصلب الخشب ، وجمره يبقى زمانا طويلا لا ينطفئ .

[145] المعانشة : الاستفزاز والمطاردة .

[146] الملاطحة : المضاربة حتى الموت .

والمرافسةُ والمراوسة[١٤٧] ، والممارسةُ والمعاكسة ، والوثوبُ والمساورة ، والروغانُ والمصادرة ، والاحتيالُ والكيد ، والاغتيالُ للصيد ، والربوضُ في الكمين ، والنهوضُ من ذاتِ الشمال وذاتِ اليمين ، وكلُّ أربابِ هذه الملاعب ، وأصحابِ هذه المخارقِ والمذاهب ، في عساكرنا موجودون بجدّون ، ومن أبطالنا معدودون مُعدّون ، فلا بُدّ من ترتيبِ كلٍّ في مكانهِ ، وإيقافِهِ بين أضرابِه وأقرانِه ، وتعبيتهم[١٤٨] ، ثم تخبيتهم . وكان بالقربِ من ميدانِ النطاح ، وموضعِ جَولانِ الكفاح – وهو بَرّيّةٌ فقراء ، وأرْضٌ غبراء – أَنْهُرُ مياهٍ جارية ، وعليها جسورٌ وقناطرُ عالية ، فاقتضى رأيُ الأسد ، والفكرُ الأسَدّ أنْ يطلقوا ثغورَ المياه على البرية ، ويتركوا فيها لعساكرهم طُرُقاً ودورباً مخفيّة ، ثم إنهم عبروا تلك المياه ، وصفّوا العساكرَ للملاقاة ، فقدموا أمامهم الثعالبَ والكلاب ، وكلَّ سريعِ المجيءِ خفيفِ الذهاب ، وصفّوا وراءهم الذئابَ والنمورَ والفهودَ والببور ، ووقف الأسدُ بين الأسود ، في قلبِ الجنود ، بعد أن عبّأ الأطْلاب[١٤٩] ، وعرف مقام كلٍّ من القرانيصِ[١٥٠] والأجلاب[١٥١] . ثم إن الثعالبَ ونظراءَها ، ودخلتْ من الأفيالِ وراءَها ، وصارت تروغُ بينها ، وتلاعبُ على عينها حَيْنَها ، وتتعلّقُ بأذنابها ، وتتشبّثُ بعراقيبها وكِعابِها ، فزاد حنقُهم ، وثار قلقُهم ، وتقدَّموا واصطدموا ، وحطموا واضطرموا ، وبنارِ الحرب اصطلموا ، فناوشهم الببورُ البواسر ، وهاوشهم النمورُ الجواسر ، وهارشهم الأسودُ الكواسر ، ثم ولوا أمامهم مدبرين ، وقصدوا

---

[١٤٧] المراوسة : المعاينة وفعل السوء .

[١٤٨] التعبية : الاستعداد وإعلان التعبئة العامة .

[١٤٩] المطلوب (أخذ أهبة الاستعداد) .

[١٥٠] القرانيص : فرقة من المماليك القدامى .

[١٥١] الأجلاب أو الجلبان : فرقة من المماليك الجُدُد .

الطـرقَ المخفيَّـةَ عابـرين . فتصـوَّرَ الأفيـالُ أن جيـشَ الأسـدِ فـرّ ، وجنـدَه انحطـم وانكسـر ، وأن عسـكرَهـم غلـبَ وانتصـر ، فَحَطِمُـوا[١٥٢] يـداً واحـدة ، بهمـةٍ متعاضـدة ، ونهمةٍ متعاقدة ، وصدمةٍ متآكدة ، ففي الحال ارتدمـوا ، وفي الأوحـال ارتطمـوا ، وقُطِـعَ دابـرُ القـومِ الذيـن ظلمـوا . ثـم كَـرَّتْ عليهـم الأسـودُ والنمـورُ والفهود ، وسائرُ السباع ، والذئاب والضباع ، فوقعـوا في تلـك الفرائـس ، وقـوعَ الجياعِ على الهرائس[١٥٣] ، وعانقوهـم معانقةَ الأحبابِ للعرائس ، وأكلُوا وادخروا ، وحمـدوا الله تعالى وشكروا ، ومن بعـد ما ظُلِمُوا انتصـروا ، وأظهـر العـدلُ للحـقِّ منـاره ، وظهر سرُّ قولِه عليه الصلاةُ والسلام "مَن آذى جارَه وَرَّثَـه الله دارَه" والله لا يهدي القومَ الظالمين .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وصلى اللهُ على

سيِّدِنا محمدٍ خيرِ خلقِه وآلِه

وصحبِه أجمعين .

---

[١٥٢] تدافعوا واندفعوا .

[١٥٣] الهريس مطبوخا ، أو نوع من الحلوى يصنع من الدقيق والسمن والسكر .

الباب الثامن

في حكم الأسد الزاهد
وأمثال الجمل الشارد

قال الشيخُ أبو المحاسن ، مَنْ هو لجرعةِ الفضلِ أحسنُ حاسن : فلمَّا وعى الملكُ الجليل ، والقَيْلُ[1] الفضيل ، ما جرى بين الأسدِ والفيل ، من القالِ والقيل ، وانجرارِ ذلك إلى الضربِ الوبيل ، وعلم أنَّ عاقبةَ الظلمِ وخيمة ، وخاتمةَ التعدي والطمعِ مشومة ، أمَرَ رؤساءَ المملكة ، وزعماءَ السلطنة ، بالكفِّ عن الطمع ، وتجنبٌ الجبنِ والهلع ، ومعاملةِ الأهلِ والجار ، بحسنِ الخلقِ والجوار ، وانتشار ذلك بالإشهار ، في الولايات والأقطار . فالعاقلُ مَنْ اعتبر بغيرِهِ وكـفَّ كَفَّه عن أذاه وضيرِه ، ونشر مهما استطاع من موائدِ إحسانه وخيرِه ، وعدى عن التعدّى والعدوان ، لاسيمَّا إذا كان ذا قدرةٍ وإمكان ، وتحكّم في الفقراءِ والضعفاءِ وسلطان . فنهض الحكيمُ حسيب ، وقبَّل أرضَ العبوديَّةِ بشفاهِ التأديب ، وقال :

بلغني أيُّها الملكُ المفضال ، ممَّا يطابقُ هذه الأحوال ، أنَّهُ كان في بعضِ الأزمان ، وأنزهِ الأسكان ، سلطانُ الحيوان ، أسدٌ عظيمُ الخلقة ، جسيمُ الشفقة ، جليلُ المكارم ، سليلُ الأكارم ، قد بلغ في الزهدِ الغاية ، وفي الورعِ والعفةِ النهاية ، مع حُسْنِ الأوصافِ والشمائل ، وكرمِ الأعطافِ والفضائل ، قد جمع بين الهيبةِ والشفقة ، والصدقِ والصدقة ، وسَوْرَةِ[2] المُلْك وسيرةِ العدل ، وسيمةِ الفضل ،

---

[1] القيل : الملك .

[2] سورة : سطوة .

وشيمةِ الفضل . هيبتُه ممزوجةٌ بالرافة[3] ، وعاطفتُه مدموجةٌ في الصولةِ والظرافة ، قد عاهَدَ الرحمن ، بالكفِّ عن أذى الحيوان ، وأنْ لا يريقَ دما ، ولا يتناول دسما ، ولا يرتكب محرَّما ، يتقوَّت بنباتِ القفار ، ويقومُ الليلَ ويصومُ النهار ، يرعى في دولتِهِ الذئبُ مع الغنم ، وينام في كنفِ ضمانِه وكفالة مأمنه الثعلبُ والأرنب ، بعد حرِّ الحربِ والحرب ، في ظلِّ الضالِّ والسلم .كما قيل :

وَلِيَ البريَّةَ عدلُه فتمازجتْ أضْدادُها من كَثْرَةِ الإينَاس
تحنو على ابنِ الماءِ أُمّ الصقرِ بل يَحْمِي أخو القَضْباءِ أُخْتَ كُناسِ

وفي جواره دوحةٌ كثيرةُ الثمار ، غزيرةُ الأنهار ، نضيرةُ الأزهار ، رائقةُ الماء والكلا ، فائقةُ النُّشُو والنَّما[4] ، شائقةُ النشرِ والهوا ، رياحينُها طريَّة ، ومروجُها بهيَّة ، ومقاصفُها شهيَّة ، فكان الأسدُ ذو الزهادة ، إذا أطال اجتهادَه ، وأراد أن يريحَ نفسَه من مشاقِّ العبادة ، يتوجَّهُ إلى ذلك الروضِ الأريض[5] ، والمرجِ البهيِّ الغريض[6] ، والمرعى الطويلِ العريض ، فينتزهُ في نواحيه ، ويسرحُ سوائمَ طرفِه[7] فيه ، ويشغل صادحَ لسانه بتسبيحِ خالقه ومنشيه . فبينما هو في بعض الأوقات ، يتمشَّى في تلك الخضروات ، صادف دُباً عظيمَ الجسم ، مليحَ الوسم ، فقبَّل الأرضَ بين يديهِ ، وذكر أنَّهُ أقبل لينتمي إليهِ ، وأنَّهُ قد سمع بأوصافِ عدله ، ومكارمِ شيمه وفضله ، فَقَصَده ليتشبَّثَ بأذياله ، وينتظمَ في سلكِ خيله ورجاله ، ويزجي في خدمته باقي عمرِه ، ممتثلاً بَارِزَ مرسومِه ونافذَ أمرِه ، فتلقَّاهُ بالقبول والإقبال ، وشمَلَه بالفضلِ والإفضال ، وقال لهُ : طِبْ نَفْساً وَقَرَّ عينا ، لقيتَ زَيْناً ووُقيتَ

---

[3] الرافة : الرأفة .

[4] النشو والنما : النشوء والنماء .

[5] الأريض : كثير النبات .

[6] الغريض : الدائم الخضرة .

[7] سوائم طرفه : شارد نظره ، حيثما نظر .

شَيْنا . فانتظمَ في سلكِ خدمه ، وانغمر في بحرِ كرمه ، واشترط عليه أن يحتمي[٨] عن لحومِ الحيوان ، ولا يتعرَّض لإيذاءِ طائرٍ ولا إنسان ، فامتثل ذلك بالسمعِ والطاعة ، وسار على سُنَنِ السُّنَّةِ والجماعة . ثمَّ بعد مدَّةٍ يسيرة ، قصد الأسدُ مسيره ، وخرج يسيرُ على باكر ، وحولَه طائفةٌ من العساكر ، فلقي جَمَلاً ضلَّ الطريق ، وتاهَ عن الصاحبِ والصديق ، ونَسِيَه الجمَّالُ وتركَه الرفيق ، فبادر إليه جماعةُ الأسد ، وهمُّوا بتبضيعِه بالنَّابِ واليَد ، فإنَّهم كانوا لشدَّةِ القَرم[٩] ، ألهبت أحشاؤهم بالضَّرم ، فناداهم الأسَدُ : وَيْلَكُم كُفُّوا ، وعن التعرُّض إلى إيذائه عفُّو ، لئلاَّ يصيبَه من الكَيْد ، ما أصاب صاحبَ كسرى ذي الأَيْد[١٠] ، من كسرى لمَّا خرجَ صباحاً إلى الصيد . فقبَّل الجماعةُ الرَّغام[١١] ، وسألوا الإمامَ عن بيان ذلك الكلام .

[١/٨] قصة كسرى مع الأعور

فقال ذُكر أنَّ كسرى أرادَ يوماً الاصطياد ، فركبَ في جماعتِه وأهلِ طاعته ، وسار على الصباح ، وهو في نشاطٍ ومراح ، وانبساطٍ وانشراح ، فصادف رجلاً كريهَ المنظر ، مُشَوَّهَ الخِلْقة أَعْور . فتشاءمَ بطلعتِه ، وتعوَّذَ من رُؤيته ، وتطيَّرَ من صباحِه ، وتكدَّرَ صَفْوُ انشراحِه . ثمَّ أمرَ به فَضُرِب ، ولولا تداركَتْه الشفاعةُ لَصُلِب . ثمَّ تركَه وسار ، نحو صيدِ القفار ، فحاش الصيد ، واقتنصَه من عسكره عَمْرٌو وزيد ، ورجع مسرورا ، فرحاً مجبورا . وأدركَه المساءُ ، فصادف ذلك

---

[٨] يحتمي : يمتنع .

[٩] القرم : الجوع .

[١٠] الأَيْد : القوة والسلطان ، والنعمة والإحسان .

[١١] الرغام : التراب .

الرجلَ ملتفًا بكساء ، وكان ذا لُبٌّ صحيح وعقلٍ رجيح ، ولسانٍ فصيح ، فأبدى كسْرا ، ونادى كسرى ، فاستوقفه بعد ما استلطفه ، وقال : أيها الملِكُ العادل ، والمالِكُ الفاضل ، أسْألُكَ با للهِ الذي مَلَّكَكَ رقابَ الأُمَم ، وحكَّمَك في طوائفِ العربِ والعجم ، أَنْعِمْ عليَّ بردِّ الجواب ، وَبَيِّنْ لي الخطأ من الصواب ، فإنَّك عادلٌ حكيم ، فاضلٌ كريم .

فوقَفَ بعسكرِه ، واستنصَتَ لخبرِه ، وقال : هاتِ مقالَك ، وقُلْ ما بَدا لك . فقال : يا ملكَ ذا الأيد ، كيف كانت أحْوالُك اليومَ في الصيد ؟ فقال : على أتَمِّ ما نريد ، لقد حصَّله الساداتُ والعبيد . فقال : هل حصَل في أمورِ السلطنةِ وهنٌ أو خَلَل ، أو في الخزائنِ المعمورةِ نقصٌ وقلل ؟ قال : لا بَلْ أحوالُ السلطنةِ مستقيمة ، وَدِيَمُ الخزائنِ دارَّةٌ مقيمة . قال : فهل وردَ اليومَ من الأطراف ، خبرٌ يؤذِنُ بتشويشٍ واختلاف ؟ قال : لا بل الجوانبُ مطمئنّة ، والثغورُ من الأعداءِ والمخالفِ مستكنّة . قال : فهل أصاب أحدٌ من الخدم والأصحابِ والخُوَل[١٢] والحشَم مصاب ؟ قال : بل كلُّهم بخيرٍ آمنون من الضرر والضير . قال : فلِمَ ضربتني وأهنتني ، وعَلامَ كسرتني وطردتني ؟ قال : لأنَّ التصبُّحَ بك مشوم ، وهذا أمرٌ مشهورٌ معلوم . قال : سألتُك با لله الذي تتقلَّبُ في مواهبه ، أيُّنا كان أشْأمَ على صاحبه ؟ أنا تَصَبَّحْتُ بك وأنت تصبحتَ بي ، فأنتَ أصبتَ الذي ذكرتَ وقد علمتَ ما حَلَّ بي ، ومع هذا فإنما عِبْتَ وعَيَّبْتَ على الصّانع ، وذهلْتَ عَمّا أوْدَعه فِيَّ من أسرار وبدائع ، فإنه لا اختيارَ لي فيما فَطَرَني عليه ولا مُدافع ، ولا حيلة فيما قَدَّره علي ولا مُمانع ، واسمعْ ما قلت ، بعد ما وصلتَ في إهانتي وجُلْت :

لَقَدْ كان قَصْدِي أن أَسُودَ على الورَى	بقَدٍّ وطَرْفٍ كاملِ الخلْقِ بارعِ

---

[١٢] الخول : العبيد والإماء وغيرهم من الأتباع والحشم .

ووجـهٍ يفـوقُ البـدرَ والشمسَ بهجةً فعاكسني تقـديـرُ ربّـي وصـانِعـي

ثم خَطَر بالبال ، هذا المقال فَقُلْتُ :

وَدَدْتُ لَوْ أنّي أَحْسَنُ الخَلْقِ صورةً وأكملُ مِنْ بَدْرِ السَّما وَهْوَ طالِعُ

فـابدعني نقـشُ المصَـــورِ هكــذا ولا صُنْـعَ لي فِيما بِيَ اللهُ صانِعُ

فَتَنَبَّهَ كسرى لكلامِـه ، وأمَـر بإعزازِه وإكرامِـه ، وتـداركَ مـا فـرطَ منـه بإحسـانِه وإنعامِه .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، لئلا يكونَ هذا الجمـل ، مثـلَ ذلـك الرجـل ، لأنـه قـد تصبَّح بي ، فلا يرى أبداً مكروهاً بسببي ، بـل يـرى الخـير ، ويكفَـي أذَى الغـير ، وكذلك كلُّ مَنْ هو عندي ، ومنسوبٌ إليَّ من خَوَلي وجُندي . ثـم عـاد[١٣] ذلـك البعير ، وسأله عن جليلِ أمرِه والحقير . فأخبره أنّه تَاهَ عن أصحابه ، وأنـه مـن بعـد يتعلّق بغرز ركابه ، ويلازمُ خِدْمَةَ بابه كأصحابه . فـأكرَم مثـواه ، وأحسـنَ مُتَبَوَّأَهُ ومأواه ، إلى أنْ صار من أكبرِ الخدم ، وذا خَوَلٍ وحَشَم ، ورَأْسَ الندمـاء ، ورئيـسَ الجُلساء ، وأَمِنَ النَّكَدَ والبوس ، وسمن حتى صار كالعروس . فَحَسَدَه الدبّ ، لعدمِ اللُّبّ ، وعَزَمَ بمكرِه على إلقائِه في الجُبّ ، واشـتد بذلـك البَرِم[١٤] ، إلى أكـلِ لحـمِ الجملِ القَرم[١٥] ، فأخذ يضربُ في ذلك أخماسـاً لأسـداس ، واحتوشـه في قضيتـه ، لسوء طَوِيَّتِه ، القلقُ والوَسواس ، فلم يرَ أوْفَـقَ مـن إفسـادِ صورتـه ، واظهـارِ سـوءِ سريرتِه ، فيهلكُه ويكيدُه ، ويفتنُه ويبيدُه ، فيصلُ منه إلى مـا يريـده ، ويثمـرُ بمكـرِه الحسد ، ويصلح من شرهه ما فَسَد ، ويـروجُ منـه مـا كَسَـد ، فـأدّى فكـرُه إلى أنْ يُغْرِي به الأسد .

---

[١٣] عاد : زار .

[١٤] البرْم : الثقيل .

[١٥] القرم : السيّد ، والقرم من الفحول الذى يترك من الركوب والعمل .

فاختلى بالجمل ، وابتدى بالعمل ، وقال له لي معك كلام ، على كَتْمِه منك ألاَم ، ولكنّكَ لستَ موضعاً للسرّ ، لأنك لا تعرف هراً من بر ، وأنتَ سادجٌ ساكن ، سليمُ الفكرِ والباطن ، وقد قيل "الحماقة في الطويل" ولولا وفورُ شفقتي ، وحُنُوِّي عليك ومودَّتي ، ما فُهْتُ لك بكلمة ، ولتركتُك من التِّيه في ظلمة . وقالت الحكماءُ ذوو المعارف ، لاتُفْشِ سِرَّك إلى طوائف ، منها سليمُ الفطرة ، ومنها مُدْمِنُ الخمرة ، ومنها الكثيرُ الكلام ، ومنها المرأةُ والغلام ، فإنهم ليسوا محلَّ الأسرار ، وإنهم يفشونها بلا اختيار . وقد قيل "كَمْ إنسان ، أهلكهُ اللسان ، وكَمْ حرفٍ أدّى إلى حتف" . قال الجمل ، وقد أثّر فيه مَكْرُه ودخل : يا أخي أنا أتحقّقُ شفقتَك ، وصدقَك وصداقتَك ، وأعرفُ محبّتَك ، ونصحَك ومودّتَك ، وأنتَ لا تحتاج في تجربتي إلى دليل ، فلي في صحبتِك زمانٌ كَقَدِّي[16] طويل ، وأنا أؤكّدُ قولي بالأيْمان ، وأعقدُ على ما تلقيه إلى الجنان ، ولا أَتفَوَّهُ به لجمادٍ ولا حيوان . والشخصُ إذا لم يعرفْ منه ما يُراد ، فلا فرقَ بينه وبين الجماد ، واذكر ما قلتُ لك ، في درب ابن تلك :

ومَنْ كانَ ذا عيْنٍ ولا يُبصرُ الذي	أمامَه فهذا والضَّريرُ سَواءُ
وذو الجهْلِ خيرٌ من عَقولٍ علومُه	سراجٌ ولكنْ ليسَ فيهِ ضِياءُ

ثم أنشأَ أَيْماناً غلاظا ، إنه يبالغُ فيما يسمعُ منه احتفاظا ، ولا يُبْدي منه لاما ولا وفاءً ولا ظا[17] .

فَلَمَّا وقفَ الدبُّ على جوابِه ، وربطه بزمامِ تدبيرِه اختلى به ، وقال : تعلمُ أيها الصديقُ المبين ، إن مَلِكَنَا في غايةِ العفّةِ والدين ، وأعلى درجاتِ العبادِ والزاهدين ،

---

[16] القدّ : القوام ، القامة .

[17] مجموع الحروف - لفظ .

قد فَطَمَ نفسَه عن الطعوم ، خصوصاً عن الدماء واللحوم ، ولكنه في ذلك كلّه غيرُ معصوم ، فإنّه قد تربّى بِلَحْمِ الحيوان ، وتغذّى بافتراسِ الأقران ، وتعوَّد رضع الدماء ، وقُطعتْ سُرَّته على هذا الغذاء ، وَتَزَهُّدُهُ إنما هو تَكَلُّف ، وتعسُّفٌ وتصلُّف ، وتعففُهُ مُكابرة ، وَتَوَرُّعُهُ مُصابرة ، ولا بُدَّ للنفس أنْ تفعلَ خاصيَّتَها ، وتجذبَ شهواتُها إليها ناصيتَها ، وتطمحَ إلى مأرزِها[١٨] ، وتجمَحَ إلى مركزها ، وقال الله تعالى ﴿فِطْرة الله التى فَطَرَ الناسَ عليها لا تبديلَ لخلْقِ الله﴾[١٩] وإذا كان ذلك كذلك ، فاحتفظْ لنفسك ، واحفظْ نصيحتي وأمْسِكْ[٢٠] ، وتفكّرْ أحوالَ غدِك في أمْسِك ، فإنّك في صحبةِ الأسدِ على خطرٍ عظيم ، وخطبٍ جسيم ، فلا تغفلْ عمَّا قلتُ لك ، ولا تَظُنَنَّ أنّهُ لن يقتلَك .

فداخَلَ الجمَلَ من هذا الكلامِ الخَوَر[٢١] ، ولم يبقَ له طاقةٌ ولا مُصْطبر ، ثمّ ثبَّته التوفيق ، ونَخَلَ في هذا الأمرِ الجليلِ فكرَه الدقيق ، واستحضر رأيَه في أمرِه ، وأجال قِداحَ فكرِه ، وقال للذّبِّ المشوم : يا أخي فأيُّ ضرورةٍ دعتْ الأسدَ الغشوم ، حتى تعفف عن أكلِ اللحوم ؟ قال : أنا لا أشُكُّ في دينه ، ولا أرتابُ في حُسْنِ يقينه ، ولكنْ ربما تعودُ المياهُ إلى مجاريها ، وتُعطي القوسَ باريها ، وتتحرّكُ النفسُ الأبية ، والشهوةُ التي طالما ألقتْ صاحبَها في بلية ، لأنَّ الإنسان ، بل سائر الحيوان ، على ما يقتضيه الكونُ والمكان ، دائرٌ مع اختلافِ أخلاقِ الزمان ، فإنّ الزمانَ كالوعاء ، والشخصَ فيه كالماء ، فيعطيه من أخلاقه ما يقتضيه ، من كدرِه وصفائِه ، ولهذا

---

[١٨] مأرزها : طبعها وأصلها .

[١٩] قرآن كريم ، سورة الروم : ٣٠ .

[٢٠] أمسك : احفظ وتمسّك .

[٢١] الخور : الضعف والفساد والشك .

قيل "لونُ الماءِ لونُ إنائه" . وقد قيل "الناسُ بزمانهم ، أشبهُ منه بآبـائِهم" . ونـاهيك يا ذا الكرامات ، ما قيل في المقامات[٢٢] :

وَلَمّا تَعَامَى الدَّهْرُ وَهُوَ أَبُو الوَرَى ... عـن الـرُّشْـدِ في أَنْحائِـه ومقاصِـده
تَعَامَيْتُ حتى قيلَ إنّي أَخُو عَمَـى ... ولا غَرْوَ أَنْ يحذو الفتى حَذْوَ والدِه

والأسدُ في هذا الأوان ، ماشٍ علـى مـا يقتضيـه الزمـان ، وإنَّ الزمـانَ يتحـوّل ، وسيرجعُ الأسدُ إلى خُلُقِه الأوّل ، أَمَا بلغَكَ يـاذا الفطنـةِ الحيّـة ، قصـةُ الحـائكِ مـع الحيـة ، قال لا وَرَبٌّ البرية ، فأخبرني عن كيفية تلك القضية .

[٢/٨] قصة الحائك مع الحية

قال الدبُّ الأفّاك ، ذُكر أنَّ حائكاً من الحيّاك ، كـانت لـهُ زوجـةٌ تخجـلُ شمسَ الأفلاك ، صورتُها مليحة ، وسيرتُها قبيحة ، فشمَّ زوجُها روائح ، ما هي عليـه مـن القبائـحِ ، وخـاف أن يؤديَ إلى الفضيحـة ، فطلـب تحقيـق ذلـك ، ليوصلَهـا إلى المهالك . فقال لها : أريدُ ضيعة ، لأجلِ بيعة ، فأغيبُ أياماً يسيرة ، لفائدةٍ كثـيرة ، فَارْصُدِي بابَك ، واسْدُلِي حجابَك ، واحفظي مـن الشـرِّ جنابَك . فقـالت : بيتٌ أنتَ رئيسُه ، ومثلي قعيدتُه وعروسُه ، أنّى يحومُ حولَه فساد ؟ فـأدرِكْ سوقَك قبلَ الكساد ، وجهزتْه أسرعَ جهاز ، كالمتوجّه إلى الحجاز ، فسافرَ مِنْ غـير مريَّـة . ثـم رجع إلى البيتِ في خفيـة ، واختبأ تحـتَ السـرير ، لينظـرَ مـا يجـرى مـن الأمـور . فبـادرتْ إلى النـارِ ونفخـت ، وأسـرعتْ إلى الطعـام وطبخـت ، وخرجـت تدعـو مرامَها ، وقد هيأت طعامَها ، فخرج زوجُها من المخبا ، وأتى على الطعـام المُهيّـا ، ورجع إلى مكانِه ونام ، بعد أكلِهِ الطعـام ، فجـاءتْ المرأةُ بحريفهـا[٢٣] ، وقصـدت

[٢٢] المقامات : الأحاديث الوعظية .

[٢٣] الحريف : العشيق .

الطعامَ لمضيفها ، فصادفتْ يدُها الحصير ، فعرفت أن البلاءَ تحتَ السرير ، فأخذتْ تطلبُ المخْلَص ، من ذلك المقنص .

واتفق أنَّ الملكَ رأى مناماً هاله ، ولكنْ نَسِيَ هيئتَه وحاله ، فقصدَ مَنْ يخبرُه برؤياه ويعبرها له ، فنادى في الورى ، يطلبُ لمنامه مخبراً ومعبرا[٢٤] . وبينما تلك الفاجرة ، على حيلةِ الخلاصِ دائرة ، وفي بحر الأفكارِ حائرة ، سمعت المنادي ، في كل نادي : مَنْ يَدُلُّ الملكَ الهمَام ، على معبر المنام ، فله مزيدُ الإكرام ، والإنعامُ العام ، فسارعتْ المرأةُ إلى بابِ الأمير ، وقالت : قد سقطتَ على الخبير ، إن لي زوجاً حكيما ، بتعبير المناماتِ عليما ، لكنه يتعزّز ، وعن تعبيرِها يتحرّز ، فلا يفوه بالتعبير ، إلاّ بعد ضربٍ كثير ، وإنّه ليس له في ذلك نظير .

فأرسل وراءَه ، وأكرم لقاءَه ، ثم قال له ، بعد إكرامٍ أوصله ، ووعده بإنعامٍ وَصِلَة : رأيتُ مناماً راعَني ، وفي الحَيْرةِ والفكرِ أضاعني ، فَدَعْ عنك الاحتشام ، وأخبرْني عن ذلك المنام ، ثمَّ عَبّرْه لي ، فقد أُخْبِرْتُ أنّك حبيبٌ للهِ وليي . فقال : يامولانا الملك : أنا في الجهلِ منهمك ، حائكٌ فقير ، ليس لي من العلمِ نقير[٢٥] ، ولقد كَذَبَ عليّ ، مَنْ نَسَبَ العِلْمَ إليَّ ، والعينُ تعرف العين ، أنا مِنْ أين ، وتعبير الرؤيا من أين ؟! فما صدّقه ، ولا في كلامٍ استوثقه ، وصدَّقَ قولَ المرأةِ فيه ، وأمرَ بإيصاله ما يُنكيه ، ثمَّ طلبَ المقارِع ، وشدُّوا منهُ الأكارع ، وضربوه ضرباً أعسفه ، إلى أنْ كاد أن يتلفَه ، فنادى : الأمانَ الأمان ، أمهلني ثلاثةَ أيّامٍ من الزمان ، فتركوه وأمهلوه ، وَقَيْدَه أطلقوه .

---

[٢٤] المعبرّ : مفسّر المنامات أو الرؤيا .

[٢٥] نقير : ما نقر من الحجر والخشب ونحوهما ، والمعنى : لم يتعلم ، أو ليس له من العلم نصيب .

فصار يدورُ في الخرائب ، ويتضرّعُ تضرّعَ التائب . ففي ثالثِ الأيام ، وقد أيقنَ بحلولِ الحِمام ، دخل إلى مكانٍ خراب ، وأخذ في البكاءِ والانتحاب ، فنادته حيَّةٌ من الشقوق : ما لَكَ تنتحبُ ياذا العقوق ؟ فأخبرها بحاله ، وما جرى عليه من نكاله . فقالت : ماذا تجعل لي من الأنعام ، إذا أخبرتك بما رآهُ الملك في المنام ، ثم فضضتُ عن تعبيره مسكَ الختام ؟ قال : أكونُ لكِ عبداً وَصيفا ، وأعطيكِ مما أُعْطَى نَصيفا . قالت : إن الملكَ رأى في منامِه ، إن الجوَّ يمطرُ من غَمامه ، أُسُوداً ونموراً ، وفُهوداً وببور[٢٦] ، وأنَّ السماءَ في ذلك تمور . وتعبيرُ هذا المنام ، واللهُ العلاّم ، أنه يظهرُ في هذا العام ، للملكِ أعداءٌ كواسِر ، وحسَّادٌ جواسِر ، يقصدون هلكَه ، ويريدون ملكَه ، وسيطفىءُ نارَ كيدهم بمياهِ سيوفه ، ويسقيهم من رحيقِ فتوحه ، كاساتِ حتوفه . فكشفتْ غُمَّتَه ، ثم أصلحَ لباسَه وعِمَّتَه ، وقصدَ بابَ الملك ، ونادى غيرَ مرتبك ، وذكر المنامَ وعبرَه ، ووعدَ السلطانَ بالنصرِ وبَشَّرَه . فتذكَّرَ المنامَ وحقّقه ، واعتمد عليه وصدَّقه ، وأمر له بألفِ دينار ، وصار له عند الملكِ بذلك اعتبار . فأخذ الذهبَ مجبورا ، وانقلب إلى أهله مسرورا ، ثم افتكر ما اشترطه مع الحية ، فأبتْ عن الوفاءِ نفسُه الشقية ، وخاف أنْ تطالبَه بحصّتها ، أو تفضحَه بقصّتها ، فلم يرَ أوفقَ من قتلِها ، وسدِّ ذريعة سبلِها ، فأخذ عصا ، ورام بذلك مخلصا ، وقصد مأواها ، ووقف فناداها ، فخرجتْ مسرعةً إليه ، وأقبلت بالودادِ عليه ، فرأت العصا بيمينه ، فعلمتْ أنّه ناكثٌ بِيَمينه ، فولّتْ هاربة ، فضربَها ضربةً خائبة ، لكنه جرحَها ، وعمد إلى نفسِه ففضحَها ، وتركَها وذهب ، فائزاً بالذهب .

---

[٢٦] ببور : جمع ببر ، ولم تنصب لدواعي السجع .

فاتفق أنَّ في العام الثّان[٢٧] ، رأى السلطان ، مناماً أقلقه ، وعن نومِه أرَّقَه ، ومن شِدَّة أهواله ، محاه الوهم عن لوْحِ خياله . فدعا المعبّرَ المعهودَ إليه ، وقصَّ حالَه عليه ، وطلب منه صورةَ المنام ، وما يترتّبُ عليه من كلام ، فاستمهله الأيامَ المعدودات ، وقصَد رئيسَةَ الحيّات ، وناداها عجِلا ، ووقف في مقامِ الاعتذارِ خَجِلا . فقالت : أيُّ عُذرٍ ، وأيُّ غدر ، وكيف استحلّيت ما مضى من فعلك وَمَرّ ؟ بأي وجهٍ تقابلني وتخاطب ، وقد قصدتَ عطبي بعد ما خلصتُك من المعاطب ، وقابلتَ إحساني بالسوء ، ولكنَّ غدرَك بك يبُوء ؟ فقال : عَفَا اللهُ عما سلف ، والصداقةُ بيننا من اليومِ تُؤتَنَف[٢٨] . ثم أنشأ أَيْمانا ، إنَّهُ يبدِّلُ الإساءةَ إحسانا ، وإنَّهُ لا يخونُ ولا يمين[٢٩] ، فيما يقعُ عليه العهدِ واليمين ، بل يعودُ إلى العهود ، ومهما وقع عليه الاتفاق ، لا يمازجُه خُلْفٌ ولا نفاق . فقالت : أريدُ جميعَ الجائزة ، لأكونَ بها فائزة ، ولها حائزة ، فأجابها إلى ما سألت ، وعاهدها على ذلك فقبلت . وقالت : رأى الإمامُ في هذا المنام ، أن السماءَ تُمطرُ قردةً وفيرانا ، وثعالبَ وجرذانا ، وتعبيرُ هذه الرؤيا ، وكلمةُ الله هي العليا ، أنه في هذا العام ، والشهورِ والأيام ، يكثرُ اللصوصُ والعيارون والمكرةُ والطرَّارون ، ويظهرُ في العساكر ، كلُّ حسودٍ ماكر ، وشيطانٌ داعر ، ولكنَّ صولةَ المِلكِ تمحقُهم ، وصواعقَ سيوفِه تصعقُهم . فأسرع إلى السلطانِ وخبّره ، بما رآهُ في منامه وعبّره . فقال : بالحقِّ أتيْت ، هذا الذي كنتُ رأيت . ثم أمر لهُ بجائزةٍ سنية ، وخلعةٍ بهية ، فصار في عيشةٍ مرضية ، وحياة هنية ، وسلك طريقته الدنية ، فلم يلتفت إلى عهوده

---

[٢٧] الثان : الثاني .

[٢٨] تؤتنف : تستأنف .

[٢٩] يمين : يكذب .

القوية ، ونبذ عهد الحية الحيية . وقال : يكفيها مني كَفّي عنها ، فلا تطلبُ منّي ولا أطلبُ منها .

ثمَّ إن السلطانَ رأى في المنام ، في ثالثِ الأعوام ، مناماً آخرَ ونَسِيَه ، فارسلَ إلى المعبِّرِ فغشيه ، من يَمِّ الهَمِّ[٣٠] ما غشيه ، وسأله عما رآه ، وطلب منه تعبيرَ رؤيـاه ، فطلب المهلةَ كما كان ، وأحاط به موجُ الهمِّ من كلِّ مكان ، ولم يرَ بُدّاً من معاودةِ الحية ، فأتاها وبه من الحياءِ كيَّة ، وناداها بصوتٍ خاشع ، ووقفَ في مقامِ الذليلِ الخاضع . فخرجتْ فرأته ، فزجرتْه وزأرتْه ، وقالت : يا خائنُ يا كَذّاب ، يا ناقضَ العهدِ يا مرتاب ، يا قليلَ الحياء ، يا كثيرَ البذاء ، يا صفيقَ الوجه ، يا حقيقَ النَجْه[٣١] ، ترى بأيِّ لسانٍ تخاطبني ، وبأيِّ وجهٍ تقابلني ، وقد ختلتَ وقَتَلْت ، وفعلتَ فعلتَك التي فعلت ؟ فقال : لم يبقَ للاعتذار مجال ، ولا للاستقالة مقال ، وما ثم طريقٌ إلا معاملتُك بالإفضال ، فإنْ أَفْضَلْتِ أتممْتِ الإحسان . وإنْ رَدَدْتِ فعذرُكِ واضحُ البيان . وهذه المرّةُ الثالثة ، لا تكُنْ يمينُها حانثة ، ولا عهودُها ناكثة ، وأُشْهِدُ الله وكَفَى به شهيدا ، أني بعد لا أنقضُ لك عهودا ، ولا أُحِلُّ مما بيننا عقودا . فقالت : لا أخبرُك بشيّ ، إلاّ أنْ تعهدَ إليّ ، أن تعطيَني جميعَ ما تُعطَى ، وتكفَّ عما وقع منك من الخطا ، فسمع مقالَها ، وأجاب سؤالَها . فقالت : رأى الملكُ في منامِه ، كأنَّ الجوَّ أمطرَ من غمامه ، وأَمْلأَ الفضاءَ من خِرافِه وأغنامِه ، وتعبيرُ هذا المنام ، أنّهُ يكونُ في هذا العام ، من الخيراتِ والأنعام ، ما يشملُ الخاصَّ والعام ، فتطيبُ الأودّاء ، وتتصالحُ الأعداء ، وتطيعُ العصاة ، وتذعنُ البغاة ، ويوافقُ المخالف ، ويكثرُ المحبُّ والموالف ، فاحفظْ ما قلتُ لك ، فقد حَلَلْتُ مُشْكِلَك .

---

[٣٠] يمّ الهم : بحر الهموم .

[٣١] النجه : الردّ القبيح .

فتوجَّهَ بصدرٍ منشرح ، وخاطرٍ مطمئنٍ فرح ، وقصَّ المنـام ، وعـبَّر مـا فيـه مـن الأحلام . فطار الملكُ بالفرح ، وتَمَّ سرورُه وانشرح ، وأمر بالجوائز فصُبَّت عليـه ، وبالأموالِ فانهالتْ إليه ، فَنَعِمَ بتلكِ العطيّة ، والخلعِ السنية ، وقصدَ وَكْرَ الحيّة . ثم وقفَ وناداها ، وقدَّم إليها كل ذلك وأعطاها ، وشكر لها إحسانها ، وتحمّل جميلَها وامتنانها . فقالت له الحية : اعلمْ يا أَبْلَم[٣٢] ، أنّه لا عتـبَ عليـك ولا مـلام ، فيمـا جنيتَه أولاً من الآثام ، ولا ما ارتكبتَه من العداوةِ والمَيْـن[٣٣] ، في العـامَيْن الأولَيْـن ، ولا فضلَ لك في هذه السنة ، على ما فعلتَه من الحسنة ، فإنّ ذَيْنَكَ العـامَيْن ، كانـا مشتملَيْن ، على قِرَانِ النَّحْسَيْن ، فكان مُقتضى حالهما فسادَ الزمَان ، والعداوةَ بـين الأصدقاءِ والإخوان ، ووقوعَ البغضاءِ والشرور ، والحنـثَ والخلْـفَ وقـوْلَ الـزّور ، فجريْتَ على مقتضاهما ، حسب مرتضاهما ، والناسُ في طبـاعِهم وأيـامِهم ، أشبَه بزمانِهم منهم بآبائهم . وهذا الأوان ، قد انصلحَ الزمـان ، واستقام الطـالع ، وزال الحسدُ والتقاطع ، واقتضى الزمانُ الصلحَ والصلاح ، والموافقـةَ والفـلاح ، فمشـيتَ على موجبه ، وتشبثتَ بذيلِ مذهبه ، فَخُذْ مَالَكَ وانصرفْ به ، بارك الله لك فيه ، فلا حاجةَ لي به ، ولا يد لى لتقلبيه .

وإنّما أوردتُ هذا المثل ، أيُّها الجمل ، لتعلمَ أنَ الزمان ، لتقلّبه في الدوران ، يدفعُ بين الأصحابِ والإخوان ، ويباينُ بين الأصدقـاءِ والخـلان . والأسـدُ المجتهـد ، وإنْ كـان قـد زهـد ، وتـرك مـن أخلاقـه مـا عهـد ، فيمكـنُ عـودُه إلى حالـه الأولى ، فالاحترازُ منه في كل حالٍ أوْلى ، وها أنا قد أخبرتُك ، ومن سوءِ العاقبة حذرتُك ،

---

[٣٢] الأبلم : غليظ الشفتين .

[٣٣] المين : الكذب .

وعلى ما وصل إليه فكري أطلعتُك ، وفَرْطُ محبتي وشفقتي عليك ، اقتضى إفشاءَ هذا السرِّ إليك ، ومَن أنذر ، فقد أعذر ، ومَن بَصَّر ، فما قَصَّر .

قال الجمل : يا أخي فَلْنَتْرُكْ هذا المقام ونروح ، ونخدم مَنْ في خدمتهِ نستريح . قال الدبُّ الجاحد ، إذا كان هذا العابدُ الزاهد ، والراكعُ الساجد ، الذي قد تعفّفَ عن أكلِ اللحوم ، وليس له دأبٌ إلا إغاثةُ المظلوم ، قد عفَّ عن الدماء ، وقنع بأكلِ الحشيشِ وشربِ الماء ، لا تؤمنُ غائلتُه ، ولا تعتمدُ خاتلتُه ، فإلى أين نتحول ؟ وعلى مَنْ يكونُ المعوّل ؟ وأنّى نذهب ؟ وفيمَن نرغب ؟ قال الجمل : فكيف يكون العمل ؟ فلقد ضاقت بنا الحِيَل ، وتقطعتْ بنا السُّبل ، لا طريق للمفرّ ، ولا قرار للمستقرّ . فأفكر الدبُّ طويلا ، ثم رأى رأياً وبيلا ، وقال : أرى الرأيَ السديد ، والفكرَ المفيد ، أن نبادرَ إلى الأسد ، قبل وقوعِ النكد ، فنقصدُه بما يقصدُه ، ولا نوصلُه إلى ما يعتمدُه ، فالعاقلُ يفتكرُ في عواقبِ الأمور ، ويقيسُ بفكرِه السرورَ والشرور ، ويستعملُ الحزم ، وإذا قصدَ أمراً يصمّم العزم ، ونـاهيك قضية الثعبان ، مع ذلك الإنسان . قال الجمل : أخبرْني عن تلك القضية ، ومَنْ ذلك الإنسانُ وما تلك الحية ؟

[٣/٨] قصة الصيّاد والثعبان

قال أبو حميد[٣٤] الخبيث ، بلغني من رُوَاةِ الحديث ، أن شخصاً من الصيَّادين ، كان مغرماً بصيدِ الثعابين ، يتسبَّبُ[٣٥] بصيدِها ، ولا يبالي بكيْدِها ، فبينما هو يسعى ، إذ صادفَ أفعى ، شرُّها ناجز ، كما قال الراجز :

---

[٣٤] أبو حميد : كنية الدب هنا .

[٣٥] يتسبب : يجعل من صيدها سببا لمعاشه .

أَرْقَشُ ظَمْآنُ مَتَى عَضَّ لَفَظَ أَمَرّ من صبرٍ ومَقْرٍ[٣٦] وحظَظْ

وقد أثّر فيه الحرُّ بالحرق ، وهو نائمٌ في مكانٍ منطبق ، فاستبشر الحَوَّاءُ[٣٧] برؤيته ، وقبضَه من عقصتِه ، فلم يفقْ الثعبانُ من رقدتِه ، إلاّ وهو من الحاوي في قبضته ، فَتَمَاوَتَ وَامْتَدّ ، وارتخى فأسبلَ بَعْدَ مَا كان اشتدّ ، فظنَّ الصيَّادُ أنه مات ، وأن مرادَه منه فات ، فتحرَّقَ لذلك وتألّم ، وتأسّف عليه وتضرّم ، وحرق عليه الأُرَّم[٣٨] ، ورماه من يدِه ، ثم دار في خلدِه ، أنّ في بطنِه خرزةً بهيةً ، مشرقةً مضية[٣٩] ، فأخرج الشفرةَ وقصدَه ، ومد لتبضيعِه يدَه . فلمّا تحقّقَ الأرقم ، ما عزم عليه وصمّم ، خدعَه وختلَه ، وضربَه فقتلَه .

وإنما ذكرتُ يا أبا أيوب ، هذا المثلَ المضروب ، لتحقّقَ أن المبادرةَ إلى إهلاكِ العدو ، أقرُّ للعينِ وأجلبُ للهدُوّ ، ومَنْ فوَّتَ الفرصة ، وَقَعَ في غُصّة ، وأيُّ غصّة ، وهذا الأسدُ إنْ غفلْنا عن أنفسِنا أبادها ، وقصدَ دمارَها وفسادَها ، ولا يفيدُنا إذ ذاك الندم ، بعد ما زلّت القدم ، وتَحَكّمَ في وجودنا من مخالبه العدم .

فقال الجمل : اعلمْ أيُّها الرفيق ، الصديقُ الشفيق ، أن هذا الملكَ آوانا ، وأكرمَ مثوانا ، ولم نشاهدْ منه سوءا ، ولا من ظلمة باطنه آنسنا ضوءاً ، ولو قصد أذَانا ما وجد دافعا ، ولا مُمانعا ، وقد علمنا أنه تركَ الأذى ، وكفَّ عن الشرِّ والبذا ، تعفُّفاً لا تخوُّنا ، وتكرُّماً لا تكلّفا ، واختياراً لا اضطرارا ، وجبراً لكسرِنا لا إجبارا ، وأما أنا على الخصوصِ فلمْ أرَ منه إلا الجميل ، والفضلَ الجزيل ، والإحسانَ العريضَ الطويل ، فلأيِّ شيءٍ أشرعُ في أذى نفسي ، وأكدّرُ صافي

---

[٣٦] المقر : الصبّار ، الحنظل .

[٣٧] الحوّاء : الحاوي ، صائد الحيّات .

[٣٨] الأرم : يحرق عليه الأُرّم : يحك أضراسه بعضها ببعض من الغيظ .

[٣٩] مضيئة .

حدسي ، ولم يظهرْ لي منه أمارة ، لا بمقتضى ولا بدلالةٍ ولا بإشارة ، فضلاً عن سباقٍ أو سياق بعبارة ، وأنا لو متُّ كمدا ، ما قصدتُه بأذى ، ولا رديتُه برداء رَدِى ، والصوفّي ابنُ الوقت ، لا يتقيدُ بنكدٍ ولا مقْت . فإنْ قصدني بعد ذلكِ بَشرّ ، أو تعرّض لي بهلاكٍ وضرّ ، ولا يسعني معه إلا التفويضُ والتسليم ، والتوكّلُ على العزيزِ العليم ، مع أني لا أقدرُ على مقاومتِه ، ولا قوَّةَ لي في دفع مصادمته ، ولا طاقة لكسرِ أنيابه ومخالبيه ، ولا خلاص من أشراكِ أساليبه ، غير أنّي وإنْ كنتُ منسوباً إلى التغفل ، لا أَدَعُ مِنْ يدِي ذَيْلَ التوكّل . فبالتفويضِ يحصلُ النجاح ، وبالتوكّلِ يُظْفَرُ بالفلاح ، كما جرى لذلك الفلاّح ، مع الذئبِ والشجاع ، حالَ التوكّلِ على اللهِ تعالى والانقطاع . فسألَ أبو سلمة ، إيضاحَ هذه الكلمة .

[٤/٨] قصة الفلاح والذئب

قال أبو صابر ، بلغني من أحدِ الأكابر ، إن شخصاً فلاّحاً ، توجَّه إلى ضرورةٍ صباحاً ، من غيرِ رفيقٍ ولا حامل سلاحاً . فبينما هو في البيداء سائر ، صادفَه ذئبٌ داعر[٤٠] ، خاتلٌ خاتر[٤١] ، فقصدَه ليكسرَه ، فَفَرَّ وصعَدَ إلى شجرة ، فترصّد نزولَه ، وانتظرَه تحتَها ليغولَه ، فانعصر ، وعن ضرورته انحصر . وبينما هو في تلك البليّة ، وقعتْ عينُه على حيَّةٍ ردِية ، ذاتِ قرونٍ صاعدة ، وهي على بعضِ الفروعِ راقدة ، فازدادَ همُّه ، وأحاط به لِوَهْمِه غمُّه ، فاستمر بين بَلِيَّتَيْن ، وانحصر في ديوانِ داهيتين دهيتين ، فلم يرَ أوفق من التوكّلِ على الله ، والإعراضِ عمّا سواه ، فاعتمدَ متوكلاً عليه ، وفوَّضَ أمرَه إليه ، وبينما هو في تلك الشدّة ، وقد بلغ ضرّة حده ، وإذ برجلٍ مقبلٍ من الفلا ، وعلى عاتقِه عصا ، فقصدَه الذيب ، من قريب ،

---

[٤٠] داعر : ذو دهاء ، فاجر .

[٤١] خاتل خاتر : خادع مراوغ .

فلمّا رأى السلاح ، فرّ وله كلاح ، فنزل الفلاحُ من الشجرة ، وأزال الله تعالى همَّه وضررَه .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، لتعلمَ أن الله نعمَ المُتّكَل . فأخرجْ هذا الوِسْواس ، من القلبِ والراس ، ولا تبكِ سلفا ، ولا تعجَلْ تلفا ، ولا تخلعْ الحذاءَ يا ذا الرياضة ، قبل أنْ تصلَ إلى المخاضَة ، ولا تهتمّ لأمرٍ ما وقع ، فإن ذلك من شرِّ البدَع ، فإنْ قصدَنا بسوءٍ فالله يكافيه ، ويكفينا بحوله وقوته فيه . قال الدبُّ ذو الضرر ، هذا رأيُ القاصرِ في النظر ، العاجزِ في الفكر ، فأما ذو الفكرِ الثاقب ، فلا يغفلُ عن العواقب ، فكلُّ مَنْ قَصَّرَ عن العواقب نظرَه ، ولم يسددْ في الأمورِ فكرَه ، فهو كَمَنْ تعلّقت النارُ بأهدابه ، والتهبتْ لإحراقِ ثيابه ، وهو مشغولٌ عن إطفائها ، متساهلٌ في كشفِ أنبائها ، فلم يفقْ إلاّ وقد نشبت ، وأعضاؤُه بالنار التهبت ، فما تفيدُه الإفاقة ، وقد صار حراقة .

قال الجمل : يا أخي أَفِقْ من مُحالك ، وعالجْ فسادَ تصوّرِك وخيالِك ، وانظرْ قوّةَ جَلَدِكَ وكيفية حالِك ، أنا لحمي من صدقاتِ الأسدِ نَبَت ، وحبُّه في دمِي وعظامي ثبت ، كيف أَجْحَدُ نعمَه ، أو أُريق دمَه ، وأنا غرسُ صدقاتِه ، وبنيانُ نفقاتِه ، ورفيقُ حضرته ، وعتيقُ مِنّتِه ، مع أنّي لو نبذْتُ عهدَه فقطعتُ ما قطعت ، وعزمتُ على مناوشته ما استطعت ، أمَا وعيتَ في معاني ما رويت :

هِيَ العَنْقَاءُ تَكْبُرُ إنْ تُصَادَا فَعَانِدْ مَنْ تطِيقُ لَهُ عِنَادَا

تريدُ صيدَ العُقَاب ، بِفَرْخِ الغُراب ، أَمْ تقتنِصُ الذئاب ، بجروِ الكلاب ، وتبغي بالقرود ، كَسْرَ الفهود ، أم بالسنانيرِ تصيدُ الأُسُود . ولا واللهِ لا أقْصدُه بأذى ، ولا يطاوعُني قلبي على ذلك أبدا . ولو فعلتُ ذلك لسعيتُ في دماري ، وخرابِ دياري ، وجدعْتُ أنفِي بكفّي ، وبحثْتُ عن حتفِي بظِلْفي ، وجززتُ بيدي رأسي ،

وقطعْتُ قَدَمَيَّ بفأسي ، قَلَعْتُ بأصبعي مُقْلَتِي ، واستحفظتُ ملكَ الموتِ مُهْجتي ، ولَصِرتُ من أكبرِ المعتدين ، وأَفسدتُ ديني ودنياي والله لا يحبُّ المفسدين ، فاطْوِ عَنِّي هذا الكلام ، وارجعْ عن مفاوضتي بسلام ، ولا تَشَكَّك به جَنانَك ، ولا تحرِّكْ به لسانَك . وكانَ بالقربِ منهما وَكْرُ فارة ، وقد سمعتْ ما جرى بينهما من عبارة ، ووعت كلامَهما ، وما دار بينهما ، من كلٍّ منهما . فلما رأى الدبُّ المريد ، أن كلامَه للجملِ لا يفيد ، أمسكَ واحتشم ، وأخذَه في ذلك النَّدم . ولكنْ حَالَ من الجملِ الحال ، وأثَّرَ فيه هذا المقال ، واستولى عليه من الأَوْجال[٤٢] ، ما أَدَّاه إلي الهزال ، وصيَّرَه من الانتحالِ كالخال ، وذهب ما كان عليه من النشاط ، وداخلَه الهمُّ والاختباط ، وصارَ كلَّ يومٍ في انحطاط ، ولم يزلْ بين نَضْوٍ[٤٣] ورَازِح[٤٤] ، ورازِمٍ[٤٥] ونازِخ .

فتعجّب الأسدُ من حاله ، ولم يقِفْ على سببِ هزالِه . وكان عند الأسدِ غراب ، مقدَّمٌ على الأصحاب ، هو وزيرُه ومعتمدُه ، وصاحبُ أخبارِه وعضدُه ، فعرض عليه حالَ الجمل ، وما شهدَه منه من وَجَل . وقال : أنا عَفَفْتُ عن أَكْلِ اللحوم ، ورضيتُ من العيشِ بأدنى الطعوم ، وهذا أَمرٌ قد عُرف واستقر ، فما بال هذا الجمل لايأخذه مقر ؟ فاريد أنْ تعرفَ حالَه ، وتخبرني صدقَه ومُحالَه . فتوجَّهَ الغرابُ إلى منزلِ الجمل ، وقد أخلصَ في القولِ والعمل ، وسأله عن حاله ، وموجبِ هزالِه وانتحالِه ، وما سببُ هذا الرزوح[٤٦] ،

---

[٤٢] الأوجال ، مفردها وجل ، وهو الخوف والفزع .

[٤٣] النضو : المهزول من الحيوان .

[٤٤] رازح : أصابه الإعياء والهزال ، فلا يتحرك .

[٤٥] رازم : أصابه الإعياء والهزال ، فبرك مكانه .

[٤٦] الرزوح : الإعياء .

والرزومِ[٤٧] المؤدِّي إلى النزوح ؟ فما أحار جوابا ، ولا ذكر خطأً ولا صوابا . فصار الغرابُ يرتقبُه ، وحيثما توجَّهَ يعتقبُه . ففي بعضِ الأيام ، كان الغرابُ على بعضِ الآكام ، رأى الجملَ قد أقبلَ إلى الماء ، ليطفيءَ بشربه سَوْرَةَ الظماء ، فتخفّى الغرابُ واقتفى ظهره ، إلى أن قاربَه وكَمَنَ خلْفَ صخْرَة ، فسمعَه يقولُ بعد ما شرب ، وقد رأى السُّمَيْكاتِ في اللعب : لك الحمْدُ ياربِّ ما أرحمك ، وطوبي لَكُنَّ يا سَمَك ، لا مِنْ رئيسِكُنَّ تَخَفْن ، ولا من هيبتِه ترجفْن ، لا ملكٌ يَهُولُكُنّ ، ولا سلطانٌ يَغُولُكُنّ ، ولكنَّ البكاءَ على الجمل ، الذي ضاقتْ به الحيَل ، قد وقع في دَرْدُور[٤٨] البلاء ، ولا يهتدي إلى طريقِ النجاء ، بل ولا يدري عاقبةَ أمرِه المهول ، إلى ماذا تؤول ، أإلى الغرقِ والندامة ، أم إلى النجاةِ والسلامة . ثمَّ أخذ في الانتحاب ، إلى أن أبكى الغراب .

فلما رأى أبو القعقاع ، هذه الأوضاع ، قضى من الأمرِ العجاب ، ما يشيبُ منه الغراب . ثم توجّه إلى الأسدِ الشرى ، وعرض عليهِ ما جرى ، بتخبير المشترى . فتشوَّشَ فِكْرُه ، وتشوَّرَ أمرُه ، وضاق بالهَمِّ صدرُه ، وقال : أنا كَفَفْتُ عن الشرِّ والشره ، وعففتُ عن ذلك كأنْ لم يرَني ولم أره ، وتركتُ القرمَ والأذى ، وفطمتُ نفسي عن لذيذ الغذاء ، ليأمنني أصحابي ، ويأنسَ بي أحبابي ، فإذا لم يستقرّ خاطرُهم ، ولم تطمئنُ على محبتي سرائرُهم ، فأيُّ فائدةٍ لي في الحياة ؟ وكيف أخلُصُ في حَرَمِ المودةِ من كَدَرِ العيشِ إلى صفاه ؟ وكلُّ ملكٍ لا تصفو له رعيتُه ، ولا ترسخُ في قلوبِ جندِه مَحبَّتُه ، كيف يثبت سلطانُه ، أو يساعدُه عند الشدائدِ أعوانُه ؟ أنا بذلتُ جَهْدي وطاقتي ، وتشبثْتُ بأذيالِ الصلاحِ على قدرِ استطاعتي ،

---

(٤٧) الرزوم : الهزال .

(٤٨) دردور : دوامة البحر التي يخشى فيها الغرق .

ولم يبقَ إلاّ التضرّع ، والاستكانةُ والتخشّع ، إلى مُقَلِّبِ القلوبِ ، وعلاّمِ الغيـوب ، ليكشفَ هذه الغُمَّة ، ويصلحَ لي هـذه الأمّـة ، ويجلوَ عـن جبينِ الحـقِّ بَهيـمَ هـذه الظُّلْمَة . ثم تضرّع إلى عالمِ الأسرار ، ليطلعَه على حقيقـةِ هـذه الأخبـار . ثـم أَمـرَ باجتماعِ جماعته ، المقيمين علـى محبتـه وطاعتـه ، وعـرض عليهـم هـذه الأحـوال ، وطلب منهم استكشافَ ما فيها من الأهـوال ، وقـال : اعْلَمُـوا أنـي أَمَّنْتُكُـمْ مـن مخافتي ، وبذلتُ لكم بَذَلَ عُنْقي لَطَافتي ، وقد حقّقْتُم مَرَامِـي ، وصدَّقْتُـم كلامـي ، وعرفْتم أخلاقـي ، وشـدِّى أعلاقـي ، كُـلُّ ذلـك لتطيـبَ خواطرُكـم ، وتصفـو لي سرائرُكم ، ولم أفعلْ ذلك عَجْزاً ولا خَوَرًا ، ولا تهاوناً ولا ضجرا .

وأنا الآن آمرُكم بواحدة ، هي أَجلُّ فائدة ، أن لا تكتموا عنّي ، شـيئاً تكرهونـه منّي ، بل أَوقفوني عليه ، وأرشدوني إليه ، ثم أجهدوا أني أَمنعُه عـني ، فـإنَّ فيكـم أَجلَّ محبوبي ، مَنْ أهدى إليّ عيوبي . وقد قـال سيِّدُ الأنـام ، عليـه أفضـلُ الصـلاةِ والسلام ، اللّهُمّ أبلغْه افضلَ التحياتِ عنا "مَنْ غَشَّنَا فَلَيْـسَ مِنّـا" وإنمـا أَوردتُ هـذا الكلام ، في هذا المقام ، بحضورِ الخواصِّ والعوام ، على سبيل التحذيـر ، والإعـلامِ والتنذير . وأقسمُ باللهِ العليِّ الكبير ، اللطيفِ الخبير ، الذي منه المبدأُ وإليه المصيـر ، لم يكُنْ في خاطـري من أَحدٍ حقدٌ ولا حَسَـد ، ولا هَجَسَ بخـاطري لـهُ إيـذاءٌ ولا نَكَد ، وها أنا قد أخبرتُكم ، وباطلاعي أَمرتُكم ، فلم يبـقَ لي ذنـبٌ يُستغفرُ منـه ، ولا لكم في الإخفاءِ ما يُعتذرُ عنه ، وإن الله تعالى لا يعذّبُ بضـلالِ الأسـافل ، بـل يهب للأعالي الأراذل ، فإذا فسد الراس ، تغيرت الناس ، فحل البـاس . ولقـد قـال خالقُ البريةِ وباريها ﴿وإذا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيها فَفَسَقُوا فِيها﴾[٤٩] فقـام الحاضرون في مقـامِ العبوديةِ والـوَلاء ، وبسـطوا ألسنتَهم بـأنواعِ الثنـاءِ والدعـاء ،

---

[٤٩] قرآن كريم ، سورة الاسراء : ١٦ .

ونادوا بكلمةٍ واحدة ، متفقةٍ متأكدة : حاشا لله ما علمنا عليك من سُو[٥٠] ، و لم تزلْ تُطيِّبُ عِلَلَ تقصيرنا وتأسوا ، وتسترُ بذيلِ عفوك كلَّ عارٍ منا وتكسو . وكان هذا الكلامُ للأكابر ، وقد اجتمع البادي والحاضر . وأبو حميد[٥١] المفتن فيما بينهم حاضر ، فأدرك بهذا العمل ، أن الأسدَ شعرَ بشيءٍ من جهَةِ الجمَل ، فاستدرك فارِطَه ، وسلك سبيلَ المغالطة .

ثم اختلى بالأسد ، و لم يكُنْ معهما أحد ، وقال : كأنَّ مولانا الملك ، وقاه الله شرَّ المنهمك ، أحسَّ بشيءٍ أوجبَ تقريرَ كلامِه ، لطائفةِ جندِه وخدّامِه ، وأنا عندي كلام ، لم يطلعْ عليه أحدٌ من الأنام ، و لم أُبْدِه للملكِ بحضرةِ الجماعة ، لأنهُ ربما لا يقصدُ المِلكُ بهِ الإذعة ، ولا يمكنني إخفاؤُه ، وقد كان إبداؤه ، فاعلمْ ايها الملكُ الهمام ، كفاكَ الله شَرَّ اللئام : أنّهُ كما يستحقرُ العالمُ الجاهل ، كذلك يزدري الجاهلُ العاقل ، وذلك لقصورِ فهمه ، وعدمِ علمِه ، ومهما أحاط الخادمُ بمرتبةِ مخدومه ، وزاد عُلُوُّ قَدْرِه في معلومه ، ازداد في قلبه وجوارحِه ، مقدارُ تعظيمِه ، واستقرت هيبتُه في قلبه وروحِه ، وصارتْ كؤوسُ خَشْيتِه تنادمُه في غبوقِه وصبوحه . وقد قال ربُّ الأرضِ والسماء : ﴿إنّما يَخْشَى الله مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ﴾[٥٢] وقولُ النبى عليه الصلاةُ والسلام : "أنَا أعْرفُكُمْ بالله وأخشاكم لله" إشارةٌ إلى هذا المقام ، وكلّما ضعفتْ معرفةُ الخادم بالمخدوم ، قلّتْ قيمتُه عندَه وهذا أمرٌ معلوم . ثم اعلمْ ، يا ملكاً أعظَم : أن الجمل ، الطويلَ الأمل ، قد اغترّ بالملك ، حين كان في ذُرَى أمْنِه سلك ، وأحسن إليه غايةَ الإحسان ، وصار في

---

[٥٠] سو : سوء .

[٥١] كنية الدب هنا .

[٥٢] قرآن كريم ، سورة فاطر : ٢٨ .

عدمِ الوفاءِ كالإنسان ، وحصَل له من سَوْرَةِ غضبه الأمان ، فجهل قدرَه ، وتعدّى طوْرَه ، وقد قيل :

إذا أنتَ أكرمْتَ الكَريمَ مَلَكْتَهُ	وإنْ أنتَ أكرمتَ اللئيمَ تمرّدا
فَوَضْعُ النّدَى في موضعِ السيفِ بالعُلا[٥٣]	مُضِرٌ كَوَضْعِ السَّيْفِ في موضعِ الندا

وقال الله تعالى ﴿إنَّ الإنْسَانَ لَيَطْغَى ، أنْ رَآهُ استَغْنَى﴾[٥٤] وكلُّ نَفْسٍ لا تحتملُ الجميل ، وحَوْصَلَةُ العصفورِ لا تسعُ لُقمةَ الفيل ، وناهيك ما قد قيل ، في الأقاويل ، عن حماقةِ كُلِّ طويل ، فلا جَرَمَ فَسَدَ دِماغُه ، حين حصَل فراغُه ، وتطاولتْ نفسُه في مسراها ، إلى أشياءَ لا يمكنُ إفشاها ، ولا يتفوَّهُ بها مسلم ولا يرضاها ، لأن ذكرَها قبيح ، والكناية أبلغُ من التصريح .

فلما سمع الأسدُ هذا المقال ، عَلِمَ ببديهةِ العقلِ أنّهُ زُورٌ ومُحال . ثم أرسل إلى الغراب ، وذكر له هذا الخطاب ، لِيُمَيِّزَ خطاه[٥٥] من الصّواب ، ويبيِّنَ القِشْرَ من اللّباب . فلما أتى الغرابُ إلى حضرته ، وجلا صورةَ هذا القولِ على مرآةِ فكرتِه ، قال له : ضميرُك المبارَك ، في حَلِّ هذا المشكلِ لا يُشارَك ، فإنّهُ حَلاَّلُ المشكلات ، مُوضِّحُ المعضلات . وأما أنا فلا أسمعُ هذا الكلام ، ولا أقبلُ في الجمَل الملام ، فإني أعرفُ تواضعَه ومسكنتَه ، وصبرَه وطاعتَه ، وإخلاصَه وقناعتَه ، وأنّه صادقٌ في مَحبّتِه ، مُخْلِصٌ في عُبوديَّتِه ، وأعرفُ أنَّ خوفَه من المِلِكِ غالبٌ على رجائه ، وأنه مع ذلك مقيمٌ على سُنَنِ وفائِه ، وعُقودِ عُهوده وصفائِه ، ولو أرادَ الذهابَ لَذَهَبَ بسلام ، ولا في وظيفتِه قَيْدٌ ولا في وتيرتِه خُطَام . ثم قال الغراب : والغالبُ على ظَنِّ ذوي اللُّبّ ، أنَّ هذه الفتنَ أصلُها وأصلاها الدبّ ، لأنه قد تَقَرَّرَ وتحقّق ،

---

[٥٣] العُلا : الرفعة والشرف .

[٥٤] قرآن كريم ، سورة العلق : ٦ ، ٧ .

[٥٥] خطاه : خطأه .

واتفقَ كلُّ حكيمٍ موفّق ، أنّه إذا نَقَلَ نَاقِلٌ محمّق ، عن عاقلٍ ابتدى بالإحسان إساءَةً فلا يُصَدَّق ، فالملكُ لا يبادرُ في هذه القضية ، حتى يتبصّرَ الأمرَ عن جليّة ، وحاشاه أن يفرّطَ في خدمةِ المخلصين ، من غيرِ أنْ يتدبّرَ أمورَهم بيقين ، ويختلى بعبدِه الجمل ، ويتحقّق منه أصلَ هذا العمل ، بعد استجلابِ خاطره ، وتطييبِ سرائرِه وضمائرِه .

فاستصوب الأسدُ هذا الفصل ، واختلى بالجملِ ليقفَ منه على هذا الأصل ، وسَكّنَ جاشَه ، وأزالَ بلطيفِ الكلامِ استيحاشَه ، وشَكَرَ في خدمتِه مساعيه ، وطلب بملاطفته مراضيه . ثم طلب من الجمل ، تفصيلَ ما بلغه من جُمَل ، وأكّدَ قولَه بالأيْمان ، أنّه لو صدَر منه تقصيرٌ ونقصان ، ولو كان مهما كان ، فإنّه قد عفا عما هفا ، ولا يكدّرُ من عيشِه ما صفا ، ولا يمزّقُ رقيقَ حاشيةِ وفائِه بالجفا ، ولا يتقيّدُ بهفواته ، ولا يطالبُه ابداً بزلاّتِه ، فَلْيُطْلِعْه على جليّةِ الحال ، وليَذْكُرْ ما وقَعَ منه من أقوالٍ وأفعال . فافتكر الجملُ في معاهدته مع الدبّ ، وأنّه لا يفشي سِرَّ ذلك العديمِ اللبّ ، وكيف ينقذُه من غَضَا جمرةٍ شَبّ ، وقضا غَمْرَةٍ صبّ . فقال : إنْ قُلْتُ أَضَعْتُ صاحبي ، وإنْ سَكَتُّ قَصَّرْتُ في جانبي . ثم اختار كَتْمَ الأسرار ، وسلوكَ طريقِ الأحرار ، والوفاءَ بالعقود ، وعدمَ نَكْثِ العُهود . وقال : أسعدَ الله مولانا ، الذي بوجودِه أحيانا ، إني اتفكّرُ في عواقبِ الأمور ، وأنظرُ في تقلباتِ الدهور ، وأخشى سطواتِ السلطان ، وأخافُ من حوادثِ الزمان ، فلا أزالُ من هذا الخيال ، في انتحالٍ وهزال ، إلى أن صِرْتُ إلى هذا الحال ، فإن كان هذا ذَنْباً يُوجبُ العقوبة ، فإن إزالتَه عن خاطري فيها صعوبة ، وهذه أوهامٌ لا يمكنُ دَفْعُها ، ولا يكلّفُ الله نفساً إلا وُسْعها .

قال الأسد : فهل اطّلَعْتَ على ما يوجب ذلك ، أو يدلُّ على الإلقاءِ في المهالك ، وتضييقِ المسالك ، من حركاتِ أفعالي ، أو من فلتاتِ أقوالي ، أو تقلباتِ أحوالي ، أو نُقِلَ إليك ناقِل ، من جاهلٍ أو عاقِل ؟ فأُفْحِم الجملُ عن الجواب ، وأَطْرَقَ فلم ينطقْ بخطأ أو صواب . فقال الغرابُ : لا ينجيكَ إلا الصِّدْق ، وكَشْفُ أستارِ الريْبِ عن جبين الحقّ . وكان قد حضر هذه الفحوى ، خُلْدٌ[٥٦] أعمى ، وَهُمْ عنه غافلون ، وعن استماعِهِ ذاهلون . ففي الحال ، توجّه إلى الدبّ وقال ، صورة ما جرى ، بتخبير المشترى .

فعلمَ الدبُّ أنه افتضح ، وأمرُه اتضح . فنهضَ وما قَعد ، ودخل على الأسد ، فرأى الجملَ مُطرِقا ، لا يلوك منطِقا . فَمَدَّ صَوْلجانَ اللسان ، وخطفَ كُرَةَ البيان ، وسابقَ بالكلامِ خوفاً من الملام ، وقال بلسانٍ طلق ، كلامَ فاجرٍ مختلق : اعلمْ أيُّها الطويلُ الأبْلَم[٥٧] ، أنّك لو أمسكتَ عن كلامِك القبيح ، في وقتِك الفسيح ، لكانَ أصوب ، وأحسنَ وأعجب ، لكن لّما فُهْتَ بالعبر ، وأتيتَ بإحدى الكِبر ، وصدمتَ القضاءَ والقدر ، وخُنْتَ وليَّ نعمتِك ، وقصدتَ إهلاكَ الملكِ بقبيحِ شيمتك ، أزالَ اللهُ سترَك ، وأبدى أمرَك ، وفضحَك وقبحك ، وبلجامِ الخزي كبحك ، لا جَرَمَ جُرْمُكَ حَبَسَك ، وإثمك العظيمُ أخرسك . فأبهت الضرغام ، من هذا الكلام ، وشاب الغراب ، من هذا الأمرِ المشاب ، ووقعوا في الاضطراب ، والشكّ والارتياب ، واشتبه الخطأُ بالصواب ، وقالوا : إنَّ هذا الشيءَ عُجَاب . فقال الجمل للدب : يافقيدَ اللُّبّ ، يا قليلَ النَّصَفَة ، وعديمَ المعرفة ، وأنحسَ أَفّاك ، وأنجسَ سفّاك ، وأبخس بَتّاك[٥٨] ، أتظنُّني خائفاً من كلامِك وخطابِك ، عاجزاً عن

---

[٥٦] الخُلْد : الفأر الأعمى .

[٥٧] الأبلم : ذو الشفتين الغليظتين ، يعنى الجمل .

[٥٨] البتّاك : قاطع طريق .

ملامِك وجوابك ؟ أما كَفَى أني قَصَدْتُ سَتْرَ عوارِك ، وإطفاءَ نـارِك ؟ ومفتكـرٌ في تلافي قضيتِك ، وإخمادِ لهيبِ فِتْنَتِك وإهمادِ شرارِ مصيبتِك ، وعلى تقديرِ التسـليم ، وأني فُهْتُ بالكبرِ والأمرِ العظيم ، أكنتُ معك منفردا ، أم رأيتَ بيننـا أحـدا ، فـإنْ كانَ بيننا أحد ، فأحضرْه إلى حضرةِ الأسد ، فإني أَرْضى به وبما بَيَّن ، ولا دافـعَ لي فيما يشهدُ به ولا مطعن ، وإن كنتَ أنت وحـدَك ، فمـا منعـك عـن نُصْحِ الملـكِ وصَدَّك ؟ فأنت إذاً إما خائن ، وإما مائن ، وهذا أمرٌ محقَّقٌ بائِن ، ولولا أَيْماني ، التي ربطْتُ بهـا لسـاني ، لكنْـتُ أظهـرتُ البرىءَ والجـاني ، ولكـنَّ تحليفـي إلى الكتْمِ والسكوتِ ألجاني[٥٩] ، وسيظهرُ اللهُ الحقَّ ويفصل ، وللباطلِ صولةٌ ثـم يَضْمَحِـلّ . ووا للهِ مَا لَكَ مَثَل ، مع المسكين الجمل ، إلاّ امرأة النجّار ، لما أغلقتْ بابَ الـدار .

قال أبو الحارث الغضوب : أخبرْنا يا أبا أيوب ، كيف كان هـذا الحديـث ، لنطلـع على هذا الفعل الخبيث .

[٥/٨] قصة امرأة النجار

قال ذكـر رُواة الأخبـار ، أنـه كـان رَجُـلٌ نجـار ، لـه زوجـةٌ تُخْجِـلُ الأقمـار ، وتكسِفَ شَمْسَ النهـار ، كأنهـا الدنيـا تخـدعُ بملامـحِ صورتهـا ، وتصـرعُ بروائـحِ سيرتِها . فكانت كلّما رقدَ زوجُها وهو تعبان ، انسابت إلى الأخدان[٦٠] ، انسيابَ الثعبان ، فتقضي اللّيْلَ بانشراح ، فى عناقٍ وشـربِ راح ، إلى أن ينفجـرَ الصبَـاح ، ثـم تنثنى عائدة ، فلا يستيقظُ الزوجُ إلا وهي عنده راقدة . فَفَطِنَ فى بعضِ الأوقاتِ لِفِعْلها ، ورَاقبَ ليلةً خيَالَ ختْلِها ، فتراقَدَ فـى الفِـراش ، وذهبـتْ لطلـبِ المعـاش ، فنهض وراءها النجار ، وأوصد لَمّا خرجتْ بابَ الدار ، واستمرتْ هـى وصاحبُهـا

[٥٩] الجانى مخفف : ألجانى .

[٦٠] الأخدان : رفقاء السوء .

وزوجُها مستيقظٌ يراقبها ، فلمّا عادت راجعة ، وجدتْ الأبـوابَ مانعـة ، فطرقـتْ الباب ، من غير اكتراثٍ واكتئاب ، فناداها : يا خائنة ، اذهبي حيثُ كنتِ كامنة . فقالت : استرْ هذه الذنوب ، فإني من بعـدُ أتـوب . فقـال لهـا : لا والله الرحمـن ، حتى تُفْضَحِي بين الجيران . فقالت : المـوتُ أهـونُ مـن الفضيحـة ، فـاغفرْ لي هـذه القبيحة ، وأنا أحلفُ ياوَدُود[٦١] ، بالله الربِّ المعبود ، إنـي أتـوبُ ولا أعـود ، ثـم ألحَّتْ عليه ، وتضرّعت لديه ، فلم يفتحْ لها بابا ، ولا ردَّ عليهـا جوابـا . فقـالت : والله اللطيفِ الخبير ، لَئِنْ لم تفتحْ البابَ لأُلْقِيَـنَّ نفسـى فـى هـذا البـير ، ولأَرْمِيَنَّـكَ بقتيل ، بين الحقيرِ والجليل ، ثم عمدتْ إلى حجرٍ كبير ، وطرحتْه في تلكِ البير ، ثـم اختفتْ عند الباب ، لتنظرَ ما يبرزُه القضاءُ من الحجاب . فلمّا سمـع زوجُهـا خَبْطَـةَ الحجر ، تصوّر أنها تلك البغيُّ فابتدر ، وفتح البابَ وإلى نحو البئر طَفَر ، ولم يشـكّ أنَّ تلك البغي ، ألقتْ نفسَها في الطويّ ، فما وَصَل إلى البير ، ذلك الرجلُ الغريـر ، إلاّ وقد دخلـت ، وفـى وَسْطِ الـدارِ حصلـت ، ثـم أوصـدَتْ البـاب ، واستغاثتْ بالجـيرانِ والأصحـاب ، وأحكمـتْ الرِّتـاج ، وأوقـدتْ السِّـرَاج ، ومـلأتْ الدنيـا بالعياط[٦٢] ، وأخذتْ فى الهياطِ والمياط ، فاجتمعَ الجيران ، لينظروا ما هذا الشان . فقـالت : هـذا الرجـلُ الظـلاّم ، يـتركُنى كـلَّ ليلـةٍ حتـى أنـام ، ثـم يتوجّـه إلى الزَّوَاني[٦٣] ، ويدعنى أقاسى القلقَ وأُعاني ، وأتقلّبُ فـى أَرَقِـي وأشـجاني . فـأخذَ الرجلُ يحلفُ بالله ذى الجلال ، ويذكـرُ للحـاضرين حقيقـةَ الحـال ، فتـارةً يصـدَّق وأخرى يكذَّب ، وهو بين مصدِّقٍ منهم ومذبذب ، فلم يزالا فى عويـل وصيـاح ، إلى أنْ ظهر تباشيرُ الصباح ، فحضرا إلى القـاضي واختصمـا ، وشـهِدَ بعفّـةِ الرجـلِ

---

[٦١] الودود : المحب الصادق الود .

[٦٢] العياط : الصياح والصراخ .

[٦٣] الزوانى جمع زانية ، وهى البغيّ هنا .

الصُّلَحَاءُ والعُلَمَا ، وأظهرَ الله الحق ، وثبت على المرأةِ الخيانةَ والفسق ، ولولا ذلك لذهب البرىء غلطا ، وانقلبَ صوابُ المحقِّ الصادقِ خطا[٦٤] .

وإنما أوردتُ هذا المثل ، لتعلمَ أيها المَلِكُ البطل ، خيانَـة الـدُّبِّ وبراءةَ الجمل . والرجلُ إذا عجزَ عن فِعْل الشجعان ، يتشبَّثُ بحبائلِ الشيطان ، ويستعملُ مَكْرَ النسوان . ونظيرُ هذا الكَيَّاد ، ما وقع بين صادقِ دمشق وفاسقِ بغداد ، وهي قضايا جليلةُ الأبواب ، طويلةُ الذيولِ والأذناب ، قد دُوِّنَتْ في مُجَلَّدَةٍ لا يسعُها هذا الكتاب . ففكَّر الرِيبال[٦٥] ، في هذه الأحوال ، ثم أمر بهما إلى الاعتقال . وكان للملكِ سجّانٌ ذكيّ ، كنيته أبو الحصينِ واسمه ذكيّ ، فتسلمهما واحتفظ بهما . فلّما استقرا في قبضة الحبس ، واستمر أمرُهما تحتَ أذيالِ اللّبس ، توجهتْ الفارةُ التي كانت سمعتْ سِرَّ مناجاتِهما ، واطّلعتْ من أوّلِ الأمرِ على حكاياتهما ، إلى السجّان ، وهما في أضيقِ مكان ، وسألتهُ عَمّاذا آلَ إليه أمرُهما مِنْ شَان ، فأخبرها بحالهما ، وجهل عاقبة مآلِهما ، وأنه ليس بعالمٍ مَنْ المظلومُ منهما والظالم . فقالت الفارة ، أسألُك يا ذا الشطارة ، والذكاءِ والمهارة ، إذا ترجّح لأحدِهما الجانب ، وتَبَيَّنَ الصادقُ والكاذِب ، وَتَعَيَّنَ المرْضِي عنه والمغضوبَ عليه ، تطلعني على ذلك لأنظرَ إليه .

قال السجّانُ للفارة : لقد فهمتُ عنكِ بالإشارة ، وأدركتُ من فحوى العبارة ، أنَّ لكِ إطلاعاً على هذا الأمر وفرقاً جلياً بين تمره والجمر ، فإنْ كنتِ شَممْتِ من ذلك روائح ، فبادِري بأداءِ تلك النصائح ، فإنَّ قولَكِ مقبول ، ولكِ الفضلُ لا الفضول ، ولا تقصدي بهذا الإرشاد ، إلا مصلحةَ العباد ، وكشفَ الغمّة ، وبراءةَ

---

[٦٤] خطا : خطأ .

[٦٥] الأسد الرئبال .

الذمّة ، وردْعِ الظالم ، وخلاصَ ذمّةِ الحاكم . قالت الفارة : وأنا لا أقصدُ إلا إصلاحَ ذاتِ البين ، وشمولها بعاطفةِ الملكِ بحيث يصيران كالمحبيْن ، ويرتفع النكد ، ويحصل رضا الأسد ، ويُحْسَمُ الضررُ والضير ، وتُختم عاقبتُهما بخير . وأيضاً فإني سمعتُ من العلماء ، وضبطتُ من نصائحِ الحكماء ، ومقالاتِ ذوي الآراء ، أنهم قالوا : إيّاك والتكلّمَ في أمورِ الملك ببيضاءَ أو سوداء ، وأين بِنْتُ الجُرَد[٦٦] ، من ملكِ الوحوشِ الأسد . قال السجان : لا تقولي ذاك ، ولا تستحقري جدواك ، وما ترين في فتواكِ ، ودونكِ القول الصادر ، من نظمِ الشاعرِ الماهر ، وهو :

لا تحقرنَّ الرأيَ وهو مُوافِقٌ حُكْمَ الصَّوابِ إذا أتى من ناقِصِ
فَالدُّرُّ وهو أجَلُّ شيءٍ يُقتنى ما حَطَّ قيمتَه هَوَانُ الغائِصِ

وإن النصيحةَ كالعسل ، والحقّ يصدعُ كالأسل ، فالعسلُ يُعطي حلاوةَ ذوقِه ، سواءً كان في صحافِ الذهبِ أو في زِقّه[٦٧] . وقاصدُ الصوابِ والنصيحة ، ومَنْ أغراضُه لدفْعِ الفسادِ صحيحة ، يخاطرُ بنفسِه ومالِه ، ويُراقبُ ما فيه حُسْنَ مآله . وأفضلُ المعروف ، إغاثةُ الملهوف ، سمعتُ في المثلِ السائر : "أفضلُ الجهادِ كلمةُ حَقٍّ عندَ سُلْطَانٍ جائر" . وهذا الطوْر ، عند ملوكِ الجوْر ، فكيف وملكُنا أعدلُ الحُكّام ، وناصرُ دينِ الإسلام ، مُتّصِفٌ بمكارمِ الأخلاق والشيم ، ومعاملةِ الكبيرِ والصغيرِ بالمراحمِ والكرم ، فإن كنتِ تدرين بجهةِ الانتفاع ، أو لكِ على قضايا الدبِّ والجملِ اطلاع ، فقومي وانصحي ، وقولي تفلحي . كما فَعَلَ الوزيرُ المنتخب ، مع كسرى في حالةِ الغضب ، فسألتْ الفارة ، هذا المثل وأخباره .

---

[٦٦] الجرد : الجرذ ، وذلك لضرورة السجع .

[٦٧] الزق : وعاء من جلد للشراب وغيره ، مثل زقّ العسل هنا .

[٨/٦] قصة كسرى مع ولده وأمه

قال أبو الحصينِ السجّان : ذُكِرَ أنه كان لأنوشـروان ، زوجـةٌ فـاقَتْ النسـوان ، يخجلُ قَدُّها الأغصان ، وخدُّها البدرِ حيث لا نقصان ، كان أبوها من السـلاطين ، وملوكِ الأساطين ، وكان أوشروان قَتَلَ أباها وأخاها ، واتخذها لنفسِه واصطفاهـا ، وكان مشغوفاً بحبِّها ، متخوِّفاً من قربِها ، لئلاّ تتذكر قتيليْها ، فيستولى طلـبُ الثـارِ عليْها ، فلم يزلْ متحرِّزا من أفعالها ، مراقِباً تقلّبَ أحوالها ، فاتفق أنـه كـان جالسـاً معها على السرير ،وحولهما من الجـواري الحسـانِ كـلٌّ بـدرٍ منير ، وظبي غرير . فتاقتْ نفسُه إليها ، فَمَدَّ يَدَه ووضعها عليها ، فنظـرت إلى الجـوارى فـرأت أعينهـن إليها ناظرة ، فصارت بين طَرَفَيْ الانقيادِ والامتناعِ حائرة ، وكانت قـد سمعـتْ مـن أبيها ، ما رأته من أقاربها وذويها ، معنى ما قيل :

وإنى لأستحي من النرجسِ الذى   يراقبُنـا أنـى أقبِّـلُ مَنْ أهْوَى

فخطر ببالها أنه إذا استحيا من عيونِ النرجسِ وهى جامدة ، فكيف لا أستحي مـن عيونِ إنسانٍ فى مراقبتنا غير راقدة ، فغلبت عليها الحيْرة ، وإن جَـدَعَ الحـلالُ أنْـفَ الغَيْرَة . فانكمشتْ من كسرى ، وزادَها الحياءُ والهيبـةُ انقباضـا وكسـرا ، فجذبهـا بقوته إليه ، فانفلتَتْ منه لما استعصَتْ عليه ، فوقعَ عن سـريرِه العـالى ، وعـلا حلقـه التمر الغالى ، وتبسم بعض تلك الجوارى ، من غير اختيار . فـاضطرب لمـا اضطـرم فيه النار ، وتذكر ما كان تَوَهَّمُه من أخذِ الثار ، وَفَارَ دَمُ قلبه لما غار ، فدعا وزيـرَه الكبير ، ودفع إليه ربَّةَ السرير ، وأمرَه بإزهاقِ نفسِها ، وإسكانِها فى رَمْسِـها ، مـن غيرِ مراجعة ، ولا شفاعة ولا مدافعة . فحملها إلى منزله ، ووقع فـى صعـب الأمـرِ ومُشْكِلِه ، ولم يَرَ بُدًّا من إمضاءِ مرسومِه وامتثال أوامرِ مخدومِه . ثم تَدَبَّرَ فى المآل ، ونادتْه ربَّةُ الحجال : مهلاً أيُّها الوزير ، الناصحُ المشير ، ذو الـرأي والتدبـير ، هَبْنِـي

أنى أخطأت ، وعن مرضاةِ الملكِ أبطأت ، فما ذنبُ الذى فى بطنــى ، المودعُ من الملكِ و لم يَجْنِ فلا بأسَ أنك تستشيرُه ، فإنك ناصحُه ومشيرُه ، وإن كان لا بدَّ من قتلى ، واستقرّ الرايُ على نَبْلي[68] وبتلي[69] فاستمهلْه إلى أنْ أضع ، ثمّ تهلـكُ الأمُّ وتبقى التبع ، فإنه كان يُعطى النذورَ والأموال ، ويطلبُ الولدَ فى ظلمـاتِ الليـال ، ويدعو بذلك ربَّه ذا الجلال ، فعرض الوزيرُ على الملكِ ذلـك فـأبى ، واستعملَ فـى ضروبِ ضَرْبه أحدَّ عبارةٍ وترفق فَنَبَا ، فعرف أنّ أخلاقَه ثائرة ، وأنه لا بُدَّ أنْ تُطْفَـأَ تلك النائرةَ ، فإذا بَرَدَ قلبُه ، وهَمَـدَ كَرْبُـه ، يطالبُه بـالفرْعِ إنْ لم يطلـب الأصْـل ، وبعد القطعِ لا يمكنُ الوصْل ، كما قيل :

طَوَى الموتُ مابينى وبين أَحِبَّتِي ... وليسَ لما تطْوى المنيـةُ ناشـرُ

فرأى الوزير ، الرأيَ فى التأخير ، فأوْدَعها عند الحريـم ، وسـلك فـى الحـزْمِ الـرأيَ القويم ، وجعـلَ نفسَه لها وقايـة ، إلى أنْ أخـذتْ مُدَّتَهـا النهايـة ، فوضعـتْ وَلَـدًا ذكرا ، غصنَ بانٍ مثمراً قمرا . فقام الوزيرُ بتربيته ، وإصلاحِ رضاعِه وأغذيتـه ، إلى أنْ بلغ سَبْعَ سنين ، وهو كبدرِ الأفـقِ المبين ، مربّـى بـالدلال ، مغـذّى بالكمـال ، فكأنه فيه قيل :

جبيـنٌ تَحـارُ الشمسُ من لمعاتِه ... وقـد يغارُ الغُصْنُ من حركاته

وخَـدٌّ تعالى اللهُ لستُ مشبِّهـاً ... ولا مُشرِكاً أضْدادَه فى صفاته

رَمَى مُهْجَةَ المضْنَى بِأَسْهُمِ لَحْظِهِ ... فنام عليلاً وَهْـوَ فى سَكَـراتِـه

فركـب كسرى فى بعض الأوقات ، وخرج يصطادُ فى بعـض الجهـات ، فتبـدَّدَ العسكر ، وصار كالحجيجِ إذا نَفَر ، ووقع كسرى فى ناحيةٍ عن العسـكر منفـردا ،

---

[68] النبل : القتل بالنبال .

[69] البتل : فصل الرأس عن الجسد .

فصادف غزالَيْن يسوقان ولدا ، ويذكران فى ذلك القاع ، ما قاله عديٌّ ابنُ الرقاع

تزجى أغَنّ كأنَّ إبرةَ رَوْقِهِ   قلَمٌ أصابَ مِنَ الدَّواةِ مِدَادَهَا

فهجم عليهما ، ودنا إليهما ، فلمّا قصدَهما ، تركا وَلَدَهما ، ففَوَّقَ السَّهْمَ الخفيف ، نحوَ الخَشْفِ[70] الضعيف ، فلمّا رأتْ أُمُّه السهم ، دَاخلَها الوَلَهُ والوَهْم ، فقصدَتْ للسهمِ دون وَلدِها ، واستقبلتْ نصْلَ كَبِدِ القوسِ بكبدِها ، فأراد إطلاقَ السَهْمِ من الكبد ، ليصيبَ به نَحْرَأُمٍّ الولد ، فاعترضَه الفَحْلُ بصدرِه ، وتلقّاه دونَ نحرِها بنحرِه ، وجعل نفسَه وقايةً لأُمِّ وَلَدِه ، وَفَدَاهُما بروحِه وجسدِه .

فَتَذَكَّرَ كسرى وَلَدَهُ وأُمَّه ، وضاعفَ حزنه عليهما همّه وغمّه ، وتذكّر ما سلفَ منه فى حقّ زوجتِه ، وما عاملَها به حين وقعَ به من الغضب فى سَوْرته ، وتأمّلَ ما قالتْه فى حَقِّ قُرَّةِ مُهْجته ، وما أجابَ فى ذلك ، إلى أن وَرَدَتْ إلى المهالك ، وقال : إذا كانَ هذا الحيوانُ الباغِمُ المائق ، حَمَى حقيقتَه برمحه كحُماةِ الحقائق ، فَلِمَ لَمْ يفعلْ ذلك لحيوانُ الناطق ، ثم فاضتْ دموعُ عينيه ، فرمى القوسَ والسهمَ من يديه ، ورجع متفكرا ، وعلى ما فَرَطَ منه متحسّرا . ودعا الوزير ، الناصحَ المجيرَ والمستجير ، وذكر له ذلك النكد ، وما رآه من الغَزَالَيْن والوَلَد ، وتحرّق على فَقْدِ حَظِيّته ، وتألّم لمصاب فلذةِ كبدته . فَدَعا له الوزير ، وقال : الصبرُ نِعْمَ النصير ، كان قد سبق منى إشارة ، ولكنَّ المفرطَ أَوْلَى بالخَسَارة ، الصديقُ الصادق ، والرفيقُ الموافق ، يقولُ ما أصنع ، نَصَحْتُ فَلَمْ يسمع ، والخبيثُ المنافق ، والحسودُ المماذق ، يقول أردتُ أَنْ أقول ، ولكنْ تركتُ الفضول ، ولا حيلةَ للملكِ والوزير ، فيما جرى به قَلَمُ التقدير ، ثم دعا له وانصرف . وعبّى

---

[70] الخشف : ولد الظبية أول ما يولد .

حِمْلاً من الهدايا والتحف ، وألْبَسَ ابنَ الملكِ أفخرَ ملبوس ، وجهَّزَ أُمَّـه كمـا تجهَّـزُ العَرُوس ، وأضاف إلى ذلك من المراكبِ الملوكيـة ، والخدمـاتِ السـلطانية ، وأقبـل بهما إليه ، وعرَضَ كلَّ ذلك عليه . وقال : ياملكَ الزمان ، أنا رأيتُ هذا اليومَ فـى ذلك الأوان ، وعلمتُ أن الندم ، سيعمُّ من الرأسِ إلى القدم ، وها قد قَدَّمْـتُ إليـك من التُّحَفِ الدُّرِّ مع الصدف ، والوردِ والزهر ، والغصنِ والتمر ، والفرعِ والشجر ، والشمسِ والقمر ، مَتَّعَكَ الله بهما وَمَتَّعَهُما بك ، وحرسَ من الأسواءِ منيعَ حرمِك وجنابِك . فانجبر بذلك كسرى ، ونال بشرى ويسـرى ، وطـاب سيرا ومسـرى ، وسُرَّ صدرُه وانشرح ، وأغمى عليه من شدَّةِ الفرح ، وأنشد :

طَفَـحَ السُّرُورُ عَلَيَّ حَتَّى أَنَّـه ... من عِـظَـمِ ما قَـدْ سَرَّنِى أَبْكَانى

يا عَيْنُ قد صارَ البُكَا لكِ عـادةً ... تَـبْـكِـينَ مِـنْ فَـرَحٍ ومِنْ أَحْـزَانِ

ثم أمرَ بيساط السرور ، وجلس فى النشاطِ والحبور ، وأنشد :

أَهْـلاً وَسَـهْـلاً بالَّتِى ... جَـادَتْ عَلَيَّ بِمُهْجَتِى

أهـلاً بها وبوَصْلِهــا ... مِنْ بَـعْـدِ طُولِ الهِجْرَةِ

أَدِرْ الْمُـــدَامَ وَغَـنِّـنِـى ... أَهْـــلاً وَسَـهْلاً بالَّتِى

ثم أفاضَ خِلَعَ الإنعام ، والرِّضا والإكرام ، على الوزير ، وشكر له حُسْـنَ التدبـير ، وارتفعتْ عنده منزلتُه ، وتضاعفتْ فى الارتقاءِ مرتبتُه .

وإنما أوردتُ هذه الأمثال ، لتحذى على هذا المثال . فإنْ كـان عنـدَكِ مـا يزيـلُ الشكَّ والأغاليط ، ويُحِقُّ الحقَّ ويُمَيِّزُ الأخاليط ، فإنَّ في إبدائها مِنَّةً عظيمة ، ونعمةً على الملكِ جسيمة ، وستبلِّغينى بذلك العيشَ الهنِّي ، وترقِّيـني بـهِ إلى المقـامِ السـميِّ السنِيّ ، وإنْ أخَّرْتِ النصيحة ، فقد شاركتِ الخائن ، في الأفعالِ القبيحة .

قالت الفارة : ما أَدَقَّ ما نظرت ، وأحقَّ ما أشرت ، لا تردّد للعقـل ، في صحّـةِ هذا النقل ، ولكن مَنْ أنا في الرُّقْعَة ، ومَنْ يقبلُ للفارةِ حتى تَطْلُبَ الرِّفْعَة ، فـلا أنـا

في العِير ، ولا في النّفير . وإنّي من مبدأ أمري ، وطولِ عمري ، في زوايا الخمول ، أتحرّزُ من فضلاتِ الفضول ، لا لِصُحْبَةِ الملوكِ لي صورةٌ جميلة ، ولا في طريقةِ السلوكِ سيرةٌ نبيلة ، لا أمينة ولا ثقة ، وأَصْدَقُ أَسْمائي الفُوَيْسِقَة ، فكيفَ أصيرُ مُصَدَّقَة ؟ وقد أباحَ سيِّدُ العربِ والعجم ، معدنُ اللطفِ والكرم ،والمبعوثُ بمكارمِ الأخلاقِ والشيم ﷺ قَتْلي في الحِلِّ والحرم . فلو طلبتُ مصاحبةَ مَنْ فوقي ، لخرجْتُ عن دائرةِ طوْقي ، وصيرْتُ نفسي ضحكةً للناظرين ، وهزأةً للساخرين ، خصوصاً مَلِكَ الأسود ، وسلطانَ الوحوشِ من النمورِ والفهود ، ورَحِم الله امرءًا عَرَفَ قَدْرَه ، ولم يتعدَّ طورَه . ومن أعجَبِ العجَب ، أَنْ يُجْنَى مِنْ الشَّوْكِ العِنَب ، ولو فعلتُ ذلك ، لكنتُ كقردٍ حالك ، ذميمٍ هالك ، ادّعَى رياسةَ الممالك .

ومن أحسنِ الأمثال ، ما يُقال : إن السلطانَ للأنامِ بمنزلةِ الحمام ، البعيدُ عنه يطلبُ قربَه ، والداخلُ فيه يشكو كَرْبَه ، فَالأَلْيَقُ بحالي ، أَنْ لا أشغلَ بالي الخالي ، بما لا يليقُ بي ولا بأمثالي ، وحيثُ أشرتَ عليّ بأداءِ التصيحة ، وبيانِ الحالةِ الفاسدةِ من الصحيحة ، طلباً لمرضاةِ الملِكِ ، وصوناً لخاطرِه عن الأمرِ المشتبهِ المشتبك ، والفكرِ المريبِ المرتبك ، فأنا أمتثلُ مرسومَك ، وأودعُ ذلك معلومَك ، بشرط أَنْ لا تذكرَني بشفة ، ولا تشيرَ إلى اسمي بنكرةٍ ولا معرفة . فعاهدها على ما اشترطت . فَمَدَّتْ لسانَ القولِ وبسطت ، ثم ذكرتْ ما جرى بينَ الدبِّ والجملِ من فُصول ، وقررتْ براءَةَ ساحةِ الجملِ بالمعقولِ والمنقول .

فلما اتضَح لأبي الحصين السجانِ نزاهةَ عِرْضِ الجمل ، وأنَّ الدبَّ هو الذي أغراه على قَصْدِ الأسدِ وَحَمَل ، وتحقَّقَ ذلك بالبرهانِ القاطع ، والدليلِ الساطع ، توجَّهَ إلى حضرةِ الأسد ، وأخبرَه بما صَلح من الأمرِ وما فسد ، وإنَّهُ إنَّما تأخَّر عن خدمةِ مخدومه ، ليصل إلى ما في جيب الغيب من مكتومه . فلمّا تحقق الليث ، ما في

هذا الأمرِ من صلاحٍ وغيث ، ومَنْ هو الصالح ، من الدبِّ والجملِ والطالح ، أرسل إلى الغراب ، وعرض عليه هذا الأمرَ العجاب ، وطلَب منه الإرشاد ، إلى هَدْمِ ما بناه الدبُّ من الإيقاعِ وشاد . فقال الرأيُ عندي أن تجمعَ العساكر ، وتنادي للبادي والحاضر ، ويحضر الدبُّ والجمل ، ويُعرض على الجميعِ هذا العمل ، فإذا ظهرَ الحق ، وانكشفَ سِجَافُ[٧١] الباطلِ عن جبينِ الصدق ، وتَبيَّنَ الظالمُ من المظلوم ، وتعيَّنَ الصحيحُ من المثلوم ، يرى رأيُك السعيدُ ما يقتضيه ، ويسلُك ما يأمرُ به ويرتضيه ، ويجري على كلٍّ منهما ما يُحكم بتنفيذه ويمضيه ، بحيث لا يَنْتَطِحُ في ذلك عَنْزَان ، ولا يختلفُ عليك فيه اثنان . فلما كان ثاني يوم ، أمر الأسدُ بجمعِ القوم ، وإحضارِ الجملِ البري ، والدبِّ المفتري ، فحضر الكبيرُ والصغير ، واجتمع الأميرُ والوزير ، ثم علا الملكُ على السرير ، واثنى على اللهِ العليِّ الكبير ، وصلّى على البشيرِ النذير ، الشاهدِ السراجِ المنير ، ثم ذَكَرَ ما أَهَمَّه ، في هذه القضية المغمّه ، وذكر فضل هذه الأُمّة ، وما لها من رقّةٍ وجلالة ، وإنها لا تجتمعُ على ضلالة . ثم قال : ما تقولون في رفيقيْن ، شفيقيْن صديقيْن ، لم يكُن بينهما سَبَبُ مُكالحة[٧٢] ، ولا موجبُ منازعةٍ ولا مُجالحة[٧٣] ، سوى المحبةِ المليحةِ والممالحة ، والمودَّةِ الصافيةِ الصالحة ، يبيتان في فراش ، ويستعينان على حُسْنِ المعاش ، حَسَدَ أحدُهما رفيقَه ، وخان من غيرِ سببٍ صديقَه ، وسعى في إراقةِ دمِه ، وعدمِ وجودِه بوجودِ عدمِه ، فماذا يجبُ على هذا الحاسد ، المنافقِ في عملِه الفاسد ، الطالبِ ترويجَ باطلِه الكاسِد ، وقصدُه ذلك البري ، الصالحُ الغافلُ

---

[٧١] السجاف : الستر .

[٧٢] المكالحة : المحاربة والخصومة الشديدة .

[٧٣] المجالحة : المكابرة والمُشادّة ، والمكاشفة بالعداوة .

السري ، والسعيُ به إلى الحكام ، وإلقائهم بسببه في الآثام ، وارتكابِ هذه الجرائم ، وتحمّلِ مثلِ هذه العظائم .

فأجاب الجمهور : إن من أكبرِ الكبائرِ قَوْلَ الزُّور ، وقد قال ربُّ الكائنات ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلاتِ المؤمناتِ لُعِنُوا فِى الدُّنيا والآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[٧٤] وإن مرتكبَه الأثيم ، استوجبَ العذابَ الأليم ، ومَنْ هو هذا الجري[٧٥] ، الكذّابُ المفتري ، الذي يرتكبُ مثلَ هذه الأمورِ الهائلة ، والكبائرِ الوخيمةِ القاتلة ، والعظائمِ المؤذيةِ الغائلة ، خصوصاً في مثل هذه الدولةِ العادلة ، ولأيِّ شيءٍ يؤخّرُ جزاؤه ، ولا يُحسم دواؤه ، ولا يُضرَبُ ولا يُشْهَر ، ولا يؤمرُ بالمعروف في هذا المنكر . قال الأسد : فاكتبوا بما قلتم محاضِر ، وليعلمْ الغائبَ الحاضر ، حتى إذا وقع الاتفاق ، بين الأصحابِ والرفاق ، وارتفع في ذلك النزاعُ والشقاق ، وأجمع على ذلك العقلُ والسمع ، فَعَلْنا فيه ما يقتضي السياسةُ والشرع ، فأتبعوا شُروطَهم ، وكتبوا بذلك خُطوطَهم . فعند ذلك طلبَ الأسدُ أُمَّ راشد[٧٦] ، وأقامها في ذلك المحفلِ الحاشد ، واستنطقها بما تعلم ، واستشهدَها على الدُّبِّ بما أَجْرم . فشهدتْ في وجهه بما سمعت ، وَرَقَمَتْ بذلك خَطَّها ووضعَت ، وزكاها الحاضرون ، وشهدَ بعفّتها وزُهْدِها الناظرون ، واتفقت الكلمة ، من الكَمَلَة على صِدْقِها ، وحقيقةِ نطقِها . فَتَهَلَّل وَجْهُ الجمل ، بهذا القولِ والعمل ، وظهرت على صفحاتِ وَجْهِ الدبّ ، العديمِ الدينِ واللبّ ، علامةُ الانكسار والفضيحةُ والخسار ، ولم يسعْه إلا أنّه أذعن ، واعترف أن لا دافعَ لهُ في الشاهدِ ولا مطعن ، وأنهُ قد اجترم ، وطلب العفوَ والكرم .

---

[٧٤] قرآن كريم ، سورة النور : ٢٣ .

[٧٥] الجرى : الجريء .

[٧٦] كنية الفارة التى سمعت تحريض الدُّبِّ للجمل على خيانة الأسد .

فعند ذلك غَضِبَ الريبال ، ولم يبقَ للعفوِ بحال ، فزَأَرَ وَزَفَرَ ، وغضب الغضنفر ، وهمر[77] وزبجر ، وتطاير من أشداقِه الزبد ومن عينيه الشّرر ، ومن شمائلِ حركاتِه ممضياتُ القضاءِ والقدر ، ونعوذُ اللهِ من غضبِ الملوك ، خصوصاً على الفقيرِ الصعلوك ، ومَنْ احاطتْ به أوزارُه ، وقلّت أعوانُه وفنيتْ أنصارُه . ثم أمر الأسدُ بالدبّ ، أن يُلقى من البلاءِ في جُبّ ، وأن السباعَ تحتوشُه ، والضباعَ تنوشُه . ففي الحال ، من غير إهمال ، ولا توانٍ ولا إمهال ، نهشتْه الذئاب ، وافترستْه الكلاب ، وتخاطفتْه النمور ، وتناتفتْه الببور ، والتقمتْه السباع ، والتهمتْه الضباع ، فقطّعوه وبضّعوه ، ووزّعوه ومزّعوه ، وخزّقوه وحزّقوه ، وخرّقوه ومزّقوه ، ولم يكتفوا بِعَظْمِه وإهابِه[78] ، حتى لَحَسُوا من دمِه يابسَ ترابِه ، وكان قد اشتدّ بهم القرم[79] ، فأطفأوا بلحمِه ودمِه بعضَ الضرم ، وزال عن أبي أيُّوب الضرّ ، وارتفعت منزلةُ ذلك الحرّ ، وضاعف الله تعالى عن براءَةِ ساحتِه أنواعَ الحمْدِ والشكر .

وفائدةُ هذا المثلِ الجاري بين الدبِّ والجمل ، معرفةُ فضيلَةِ الأمانة ، ووَخامَةِ المكْرِ والخيانة ، فإنّ الله تعالى غيرُ مُضيعٍ أهله ، ولا يحيقُ المكرُ السَّيِّىءُ إلاّ بأهلِه ، كما قيل :

لأبْنَاءِ هذا الدَّهْرِ في الغَدْرِ أَسْهُمٌ	وَضَرْبُ خياناتٍ وطَعْنُ مكيدَة
وَمَا للفتَى منها طريقُ سَلاَمَةٍ	سِوى تُرْسِ تفويضٍ لربِّ البريّة
وَكُلُّ امرىءٍ رَهْنٌ بِنِيَّتِهِ وفي	كفالةِ ما ينوي وما في العَقيدة

---

[77] همر : دمدم بغضب .

[78] إهابه : جلده .

[79] القرم : شدة الجوع .

وليكُنْ هذا آخرُ بَابِ الأسدِ الصالح ، والجملِ الأمينِ الناصح . والعاقبةُ للمتقين ، والله الموفِّقُ والمعين .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وصلى اللهُ على سيدنا محمدٍ

خيرِ الخلائقِ أجمعين ، وحسبُنا اللهُ ونعمَ الوكيل ،

ولا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ العليِّ العظيم .



الباب التاسع

في ذكر ملك الطير العُقاب
والحجلتين الناجيتين من العِقاب

قال الشيخُ أبو المحاسن ، مَنْ هو لِثَوْبِ الفضْلِ كاسٍ[1] ، ولكأسِ الظرفِ حاسٍ[2] ، وفي حدائقِ الأدبِ أزكى آسٍ[3] ، ولأحداق الأدباءِ أذكى آسٍ[4] ، وفي عيونِ الأعداءِ أنكى آسٍ[5] :

فَلَمّا أَنْهَى الحكيمُ حسيب ، كلامَه الذي استعبد دُرَّ النسيب ، وذكر من النصائحِ والحكم ، عن ملوكِ العربِ والتركِ والعجم ، ومن مباحثِ الجنِّ والإنس ، ما حصل للسامعين به النشاطُ والأُنْس ، ثم استطردَ إلى فوائدِ البهائمِ والوحوش ، وَرَقَمَ في دارِ ضَرْبِ البلاغةِ من حُسْنِ الصياغة والرقوش[6] ، ما قعدَ لهُ من زواهرِ كلامِه على سَكَّةِ دينارِ الفصاحةِ أحْسَن النقوش ، وعقد بجواهر نظامِه لمفرق العدلِ في دارِ الملكِ إكليلَ العروش ، افتخر أخوهُ الفيلُ بوجوده ، وقدَّمه على جميعِ خواصِّه وجنودِه ، وأفاض على حدائقِ آماله زلالَ إحسانه وجودِه ، وقال لهُ : يا نديمَ

---

[1] من كسا يكسو : يرتدي ، وتقرأ بالتنوين لدواعي السجع مع أبي المحاسن .

[2] من حسا يحسو : يشرب ، وتقرأ بالتنوين لدواعي السجع .

[3] آس : شجر الآس ، وهو شجر مزهر دائم الخضرة .

[4] آس :طبيب .

[5] آس : من المواساة : العزاء .

[6] الرقوش : الكتابة : الحسنة المزينة والخطوط المزخرفة الجميلة .

الدَيْر ، وعديمَ الضيرْ ، وقديمَ الميْر[٧] ، ومُديمَ الخيْر ، وقد أفدتَ حِكَمَ سائرِ الحيوانِ فَكَرِّرْ علينا من حِكَمِ مَنْطِقِ الطيْر . فابتهج الحكيمُ في الساعة ، وانتهض ملبياً بالسّمعِ والطاعة . ثم إنه قال : أدامَ الله ذو الجلالِ أيامَ مولانا الإمام ، وشمل بذيلِ رأفتِه الخاصَّ والعام :

بلغني أنهُ كان ، في ممالكِ آذربيجان ، جبلٌ يسامي السِّماكَ في السموّ ، ويعالي الأفلاكَ في العلوّ ، غزير المياهِ والأشجار ، كثير النباتِ والثمار ، وفي ذيله شجرةٌ قديمة ، منابتُها كريمة ، أغصانُها مهدلة ، وثمارُها مسبلة ، كما قيل :

وفي أصْلِها وَكْرٌ لزوجٍ من الحَجَل[٨] كأنَّ ربّ رِضْوَانَ ألْبسها الحُلَل

هو وطنُها المألوف ، ومقرُّهما المعروف ، وَرِثَاهُ من أسلافهما ، وهو في الشتاءِ والصيفِ مرجعُ إيلافهما ، يُدعى الذكرُ منهما **النجديّ** ، والأنثى **غوغرةَ بنتَ السعديّ** ، ولذلك الجبلِ جَبَلٌ مقارِن ، من جهةِ الشرقِ يسمّى القارِن ، لو قصد البدرُ دورَه ، أو رفعَ رأسَه لينظرَ سورَه ، أو يحلّ فيه شعاعَه ونورَه ، لوقع عن قمَّةِ رأسِه طُرْطُورُه ، في قُلّتِه[٩] سرير[١٠] عُقَاب ، منيعِ الجناب ، هو ملكُ الطيورِ والجوارح ، وسلطانُ السوانحِ[١١] والبوارح[١٢] ، وصافاتِ تلك القلال[١٣] ، وكواسرِ هاتيك الجبال ، كلُّها تحتَ أمرِه العادلِ العال ، متوجٌ فوق رأسِه بإكليل ما

---

[٧] المَيْر ، أو الميرة : الطعام الذي يجمع للسفر ونحوه .

[٨] الحجل : طير في حجم الحمام من الفصيلة التدرجية من رتبة الدجاجيات ، ومنه عدّة أنواع ، أحمر المنقار والرجلين ، طيب اللحم .

[٩] قلته : قمة الجبل .

[١٠] سرير : عرش .

[١١] السوانح : الطيور تمر من اليسار إلى اليمين ، والعرب يتيمنون به :

[١٢] البوارح : الطيور التي تمر من اليمين إلى اليسار ، والعرب تتشاءم به .

[١٣] القلال : القمم ، أو أعالي الجبال .

يبرزُه من مثال . فكانت الحَجَلَتَانِ كلما فرختا وقاربت أفراخهما الطـيران عـزم أبـو الهيثم الكاسر ، بما معهُ من عقَابِينَ كواسر ، وجوارحِ الطيور ، ومَنْ تحتَ أمـرِه مـن الجمهور ، على التنزه والاصطياد ، فتحيط عساكرُه بتلك النواحي والبلاد ، فكـانوا كلّما وطئوا رَبْوَةَ مُهُودِهـا ، وسلَكُوا مـا بينَ أكْنافِهـا وبطُونِهـا ونهودِهـا ، تصـلُ طرّاشةُ[14] العساكرِ إلى الجبل ، الذي فيـهِ وَكْـرُ الحَجَـل ، فتذهـبُ أفراخُهمـا تحـتَ السنابك ، وتضمحلُّ تحتَ أقدامِ أولئـك ، فتقـعُ الحَجَلَتـان ، في النكـدِ والأحـزان ، وبالجهدِ والمشقّةِ البالغة ، يخلُصان هما من تلك الداهيةِ الثالغة[15] ، والنائبةِ الدامغة ، فَلَمْ يزالا في نكَد ، على فَـقْـدِ الولَد .

فافْتكَرَتَا في بعضِ الأيام ، وقد أثّر فيهما هذا الإيلام ، فيما هُمْ فيـه مـن النكَـد ، لفقد الولَد ، المتجدّدِ على طولِ الأمد . فقال النجديّ ، لبنْتِ السعديّ : قد كَبُرنَا ، وضـاعَ العُمْـرُ وحرْنَا ، وقاربتْ شمسُ عمرِنـا للأفـول[16] ، وأقـدامُ بقائنـا أنْ تـزِلَّ وتزول :

وَلَيْسَ لنا مَنْ يَذْكُرُ اللهَ بعدَنا   إذا ما انْتَشَبْنَا في مخاليبِ فَقْدِنا

ولا مَنْ يُحيي نَشْرَ آثارِنا ، إذا طوَى الموتُ بِسَـاطَ أعمارِنـا ، وقـد قضيْنـا العُمْـرَ في الأنكاد ، بفراقِ الأولاد ، ثم بعدَ الحياةِ ينمحِي اسْمُنا ، ويندرسُ بالكُلّيّةِ رسْمنا ، فلا حياةَ هنيّة ، ولا أخرى رضيّة ، وأيُّ هناء مع فِراق قُرَّةِ العيْن ، خصوصاً علـى وَجْـهِ المذلةِ والشيْن ، وما لنا نظير ، في هذا الدهرِ المبير[17] ، إلا مَنْ جَمَعَ المـالَ مـن حِلّـهِ وغيرِ حِلّه ، وتركَه بعدَ النكدِ البليغ والحرصِ إلى غيرِ أهْلِه ، فيصير كما قيل :

---

[14] طراشة : حركة الجيش الثقيلة ومقدمته (بما فى ذلك الخيل والدواب) وذلك حين يخرج للمعركة أو غيرها .

[15] الثالغة : الشادخة ، من ثلغ الرأس ونحوه ، أصابه وأسقطه فشدخه .

[16] للمغيب .

[17] المبير : المهلك .

تُؤَدِّيهِ مَذْمُوماً إلى غَيْرِ حَامِدٍ فَيَأْكُلُهُ عَفْواً وأَنْتَ دَفِينُ

ولا طاقةَ لنا في دَفْعِ جَيْشِ العُقَاب ، ولاحيلةَ إلى الخلاصِ من عِقَابِ هذا العُقَاب ، فذهبَ أكثرُ العُمْرِ في هذا الوَيْل ، وأَشْبَهنا النائمَ على طريقِ السَّيْل ، وإنْ غَفَلْنا عن أنفسِنا ربما اجتاحونا ، وطرحونا إلى مهلكةٍ تُديرُ علينا من العدمِ طاحونا ، فالرأيُ عندي أن نتركَ هذا الوطن ، ونرحلَ إلى مكانٍ لا نرى فيه هذه المحن ، فإنّه لم يبقَ لنا طاقةٌ على فِراقِ الولَد ، ولا قلبٌ يحتملُ هذا الحُزْنَ والنكد :

ذَابَ قَلْبِي بَيْنَ دَمْعٍ وَضَرَم فَارْحَمُونِي أَنَا مِنْ لَحْمٍ وَدَم

وذاك لأنّ المرءَ يحيا بلا رِجْلٍ ويَد ، ولا تلقاهُ يحيا بلا كَبِد . قالت : لقد أعربتَ عمّا في فكري ، وشرحتَ ما كان يجولُ في صدري ، وهذه محنةٌ قد أعياني في دائِها الدواء ، بلاءٌ عَمَّنا فكلُّنا فيه سَوَاء .

المرْءُ يحيا بلا ساقٍ ولا عَضُدٍ ولا يعيشُ بِلا قَلْبٍ ولا كَبِدِ

وقيل :

* بي مِثْلُ ما بِكِ يا حَمَامَةُ فانْدُبي *

وقد قلت :

وَلَمْ يَعْرِفْ حَرَارَةَ ما أُعَانِي سِوَى قَلْبٍ كَوَاهُ مَا كَوَانِي

وَأنا لَمْ أَخْلُ قطّ في وَقْت ، من هذا الفكرِ الذي أَوْجَبَه الهَمُّ والمقْت . واعلمْ أنّ سِهامَ آراءِ العقلاء ، ونبالَ أفكارِ ذوي النظرِ من الحكماء ، إنّما تَصْدُرُ من قوسٍ واحدة ، وتتوجّهُ إلى غَرَضٍ طريقتُه غيرُ متعدّدَة . وقال العقلاء ، وأولو التجاربِ من الحكماء ، بل أَطْبَقَ أربابُ العقولِ وأَئمّةُ الدِّينِ وأصحابُ الأصول : إنَّ قضايا العقلِ كلّها صادقَة ، وألسنَتَها فيما تحكمُه بالصوابِ والأصالةِ ناطقَة ، غير أنَّ كثيراً ما تَشْتَبِهُ القضايا العقليَّة ، لسوءِ التصوّرِ بالقضايا الوهميّة ، فيقعُ الخطأُ بوساطةِ الوَهْمِ في الفَهْم ، ويُنْسَبُ إلى العقلِ ذلك السهم ، وإلاّ فاتفاقُ العقلاءِ جمعا ، أن

القضايا العقليةَ لا يقعُ فيها الخطأُ قطعا ، وأن قضايا الحس ، لوقوعِ الاشتباهِ واللّبْس ، يُتصور أنها حق ، ويُقْضَى لها وعليها بالصِّدْق ، وإذا وقعَ الخطأُ لحصولِ الاشتباه ، وعدمِ التأمُّلِ والانتباه ، في القضايا الحسية ، والقضايا التي هي بحاسةِ البصرِ مَرْئية ، كما وقع ذلك في حادثةِ الطريقةِ البغدادية ، فوقوعُ الخطأ بالوَهْمِ أَوْلَى في القضايا العقلية ، لأن طرقَها أخفى وأحكامَها معنوية ، فسأل الذكرُ عن تلك البغداديَّةِ وما هذا الخبر ؟

[١/٩] قصة المرأة البغدادية مع زوجها وحرفائها الأربعة

قالت كان فى مدينة السلام بغدان[١٨] ، امرأةٌ من المتخذاتِ أخْدَان[١٩] ، اسمُ زوجِها زَيْد ، وهى أم عمروٍ وذاتُ كَيْد ، لها عدّة أخْدَان ، تدعو لِكُلٍّ بالإخْوان ، وكلٌّ ينشدُ فى السِّرِّ والإعْلان ، قوله

دَعَتْنِى أخَاها أمُّ عَمْرٍو وَلَمْ أكُنْ أخَاهَا وَلَمْ أرْضَعْ لَها بِلبَانِ

فاتفقَ أن زوجَها زيد ، دعاه أميرُ البلدِ إلى الصيد ، فركب معه وسار ، وخلت منه الديار ، فتسامعَ بذلك بعضُ أخدانها ، فتوجَّه منهم طائفةٌ إلى مكانها . فأَوَّلُ مَنْ سبق ، تاجرٌ ذو شَبَق ، فدخلَ بثيابٍ بيض ، وشاشٍ رحيض[٢٠] ، وهيئةٍ نظيفة ، وصورةٍ ظريفة ، فأسرعَ فى الدخول ، ومعه ما يليقُ من المأكول ، فتلقتْه بالترحاب ، وأخَذَا فى لذيذِ الخطاب . فما استقرّ به القرار ، حتى قرع قارعٌ بابَ الدار ، فظنته زوجَها ، وحققته بوجهِها ، فنهض خائفا ، وتحيّر راجفا ، وطلبَ

---

[١٨] بغدان : بغداد .

[١٩] أخدان : مفردها خِدْن : وهو صديق سِرّي (للذكر والأنثى) أو بالأحرى عشيق .

[٢٠] رحيض : مغسول :

مكاناً يخفيه ، وكِنًا يأويه ، فلم يكنْ فى دارها ، مخباةُ زوّارهـا ، سـوى طقيسـى[٢١] لطيفـة ، يُصْعَدُ إليهـا مـن سَقِيفَة ، فأرشـدتْه إليهـا ، فَرَقِـيَ عليهـا . وبـادرتْ إلى الاتحاف ، فإذا هو حريفٌ[٢٢] صرّاف ، ففتحتْ الأغْلاق ، وتعانقا تَعَانُقَ المشْـتاق ، فدخل بهيئةٍ زهراء ، بلباسٍ أخضر وعمامةٍ خضراء ، ومعه من الحلْوَى مجمع ، ومـن الزجاجِ أربع . فجلسا يتذاكرانِ الحوادث ، إذ طرق البـابَ ثـالث ، فقـالت . هَبَـطَ أَوْجِى ، وجاء زَوْجِى ، فَوَثَبَ فى رجْفة ، كأنه ورقـةُ سَعْفة ، فسـأل عـن مخبـاة ، وسترٍ يغشاه ، فأرشدتْه ربَّة الكريسى إلى طريقِ الطقيسى ، فصعـدَ اللاّحـق ، ولحـقَ السابق . وبادرتْ الرتاج ، ربَّةُ التاج ، وأُمُّ الأزواج ، فإذا هو أحدُ الظرفاء ، وثالثُ الحرفـاء ، رجـلٌ زيَّـات ، ومعــه مجمـعُ سـكرٍ نبـات ، فتلقتْه بـالتكريم ، وأجابتْـه بالتسليم ، فدخل بثوبٍ أصفر ، وشاشٍ معصفر ، فشرعا فـى الملاعبـة ، والملاطفـة والمداعبة ، فَدَقَّ الباب ، رابعُ الأصحاب ، فبـادر الزيّـاتُ الفـرار ، وطلـب مُختَفًـى للقـرار ، فَدَلَّتْـه فـى المفـر ، إلى المعهُـودِ والمقـرّ ، فصعـد إليـه ، ولحـق بصاحبيـه . وتوجَّهَت إلى الباب ، فإذا هو أحدُ الأحباب ، وهــو رجـلٌ قصـاب ، وعليـه ثيـابٌ سود ، وخُفُّهُ المعهود ، وعلى رأسِه مِئزرٌ ثمين ، وبيدِه خروفٌ سمين ، فقالت : أهلاً وسـهلا ، وأرفـع محـلا ، بـالحبيبِ النجيـب ، والبعيـدِ القريـب ، فدخــلا واشـتغلا بالخطاب ، والتهيا عن رتاجِ الباب .

وكان فى تلك المحِلّة ، شَخْصٌ أَحْدب أَبْلَه ، يدخلُ البيوتَ ويتمسْخَر ، فلا يُمْنَعُ من ذلك ولا يُزْجَر ، ويلاطفُه الأكابرُ والأعيان ، ولا تحتجـبُ منـه النسـوان ، فَمَـرَّ على بـابِ زيد ، فرآه لا أغلاقَ ولا قيد ، فدخلَ علـى غفلـة ، ولم يسـتأذنْ أهلَـه ،

---

[٢١] طقيسى : غرفة أو مقعد ينام فيه أهل البيت صيفاً لجودة تهويته .

[٢٢] الحريف : العاشق السرّى ، لأنه ينحرف إلى النساء خفية .

فلم يشعر به ، إلا بعدَ حلولِ ركابِه ، فوجمَ لرؤيتِه القصّـاب ، وخـاف مـن حلـولِ مُصَاب ، وتَشَوَّرَ وانحرَف ، فقالت له المرأة : لا تَخَفْ ، إنما هو أبله ، مسـخرة فـى المحِلَّة ، فأخذوا يتلاطفون ، ويتمـازحون ويتظـارفون ، إلى أن قَـرُبَ الليـل ، وفـاتَ النَّيْل . فطرقَ الباب ، ووصلَ الزَّوْجُ بلا ارتياب ، فَلَمْ يشعروا إلا والبلاءُ قد أقْبـل ، ومصـابُهم الأعظـمُ فـى أكنـافهم قـد نَـزَل ، فـاختبطوا والتبطـوا ، وانحلَّـتْ قُواهـم وارتبطوا ، وطلب القصَّابُ مخبا[23] ، فأرتْه للطقيسى دَرْبا ، وطلبَ الأحدَب ، مـن شرِّ زيدٍ المهرب ، فكان فى أرضِ البيتِ تَنّـور ، فـنزَل فيـه وهـو مَضْرُور ، وغطَّتـه بغطائِه ، وسترته ببعـضِ وِطائـه . ثـم توجَّهـتْ إلى البـاب ، وهـي فـى اضطـراب ، فدخل زيدٌ وهو سكران ، ومِنْ تأخيرِ فَتْـحِ البـابِ غضبـان ، وكـان قـد تنـاولَ مـع مخدومِه ، ولعبتْ بشيخِ عقلِه بنتُ كرومِه . فلمّا نزل عن السَّرْج ، رأى الزوجةَ فـى هَرْجٍ وَمَرج ، فأنكر حالَها ، وسألها ما لها ؟ فقـالت : كرِهْـتُ فَقْـدَك ، وخـاطري عندك ، فلا ذقتُ بُعْدك ، ولا عِشْـتُ بَعْـدَك . فقـال : تكذبـين أيْ دَفَـار[24] ، بـل تسخرين بى أيْ فجار[25] ، إنما أنـتِ فـى حركـة ، فـلا طـرح ا لله فيـك بركـة . فقالت : أنتَ مجنون ، وأيّ حركةٍ عندى تكون ، فشرعَ فى حَرْبِها ، واستطرد مـن سَبِّها إلى ضَرْبِها ، وعزم علـى تفتيشِ البيت ، والاطـلاعِ علـى مـا فيـه مـن كيـتٍ وكيت . فخشيتْ أن يخرجَ أمرُها عن دائرةِ الستر إلى "لـوْ كَـاَن وَلَيْـت" فتداركـتْ التفريطَ قبلَ وقوعِه وبادرتْ إلى تلافى التـلافِ بـالهيْت[26] ، فتشـكَّتْ مـن الأذى ، وقـد تناولَهـا بـالضربِ والبـذا . ورفعـتْ يدَهـا إلى الدعـاءِ بـالندا ، وقـالت : إلهـى

---

[23] مخبا : مخبأ .

[24] دَفَار : أَمَة داهية ، يقال لها إذا شُتمت أي دفار : يا منتنة .

[25] فاجرة .

[26] الهيت : الصراخ والصياح ، يقال هيّت به أى صاحت عليه .

وسيدى ، وسندِى ومعتمدِى ، إن كُنْتَ تعلمُ أنّى مظلومة ، وبـراءةُ سـاحتي عنـدك معلومة ، فأنزِلْ إلى أَمَتِـكَ مَلَكـاً من ملائكـةِ رحمتِك يخلّصهـا مـن هـذا الظّلـوم ، ويكشفُ سِتْرَ هذا السِّرِّ الموهوم . فبادرَ التاجرُ بالانتهاض ، ونـزل بثيابـه البيـاض ، ودخل عليه ، وقبضَ على أذنيه ، وصفعـه على خديـه . وقـال : اتركْهـا ياظـالم ، فإنك معتـدٍ آثـم ، وهـي بَرِيَّـة[٢٧] ، وشمائلُهـا زكيّـة ، وضربـه ضربتيْـن ، ولكمـه لكمتيْن ، ثم أَمَّ الباب ، وتركَ الأصحاب ، وشرع فى الذهاب .

فلما رأى هذا زيد ، عرف أنه خديعـةٌ وكَيْـد ، وقـال : يـا أفحـشَ الفواحِـش ، وأنهشَ النواهِش ، تريدين خدعي وسحري ، وخَـذْلي وخَتْرِي ، وتبغـين بما تبغين خَتْلِي ومكرِي ؟ أوَ لَسْتُ بعَرِيف ، أنه لـك حَرِيـف ؟ ثـم زادَ فـى سَبِّها ومـاد إلى كبِّها وضربِها . فقـالت : يـا إلهي ، وسيِّدِى وجَـاهِي ، إنْ كنـتَ تعلَـمُ ، أنَّ هـذا الأظلم ، أنكرَ الحق ، ورآه وما صدّق ، فأنزِلْ عليه مَلَكاً آخر ، ذا جنـاحٍ أخضـر ، يـأخذُ بحقّـي منـه ، ويكشـفُ سَتْرَكَ عنــه . فقــال الحرفـاء ، وكانـوا ظرفــاء ، للصيرفى : قُمْ غيرَ مخفيّ ، وشَدِّدْ عليه ، وأَوْصِلْ الأَلَمَ إليه . فنهض فى ذلك المعلم ، وبادر إلى السلّم ، ونزل إليـه ، ودخـل عليــه ، وقـال : اكْفُـفْ يـا ذا العـار ، عـن عفيفةِ الأستار ، فإنّها بريّة ، وعمَّا تظنّه عريّة ، ومَـدَّ يـدَه بِلَكْمِه ، وبـالغ فـى سبه وشتمِه ، ثم خـرج من الـدار ، وبـالغ فـى الفـرار . فقــال : يـا للدربــة ، مـن ذي القَحْبَة ، الناسُ بواحـدٍ وأنت بـاثنين ، وقـد جعلـتِ زوجَـك ذا القرنـين ، ثـم أخـذَ العصا ، وضربها ضَرْبَ مَنْ عَصَى .

---

[٢٧] بريّة : بريئة .

فقالت : يا إلهَ العالمين ، تعلَمُ أنَّ هذا من الظالمين ، أمدَّني بالمَلَكِ الأظفر ، صاحبِ الدرعِ والمِغْفَرِ[٢٨] ، والثوبِ المعصْفَر ، يبرِّئُ ساحتي ، ويهدئُ راحتي ، فإنِّي مظلومة ، وقصّتي معلومة . فقال الجزارُ للزيّات : قُمْ أرِنا الكرامات ، وقدِّمْ صنعتَكَ وهات . فنهض الزيات ، ونزل الى ذلك المفتات[٢٩] ، وقال : أيها اللئيم ، كُفّ عن الحريم ، وارجعْ عن لَوْمِ البري[٣٠] ، واقصرْ أيها المجتري المفترى ، ثم تناوله بعصاه ، إلى أنْ آلَمَ قفاه ، ثم تركَه ، في الحركَة ، وخرج هاربا ، وقصدَ جانبا . فقال زيد : يا أَوْسَخَ القِحَاب ، وأوسخَ ذواتِ السباب ، تعدِّين حُرَفَاءَكِ واحداً واحدا ، وتعرضينَهم عليَّ صادِراً وَ وَارِدًا ، ثم نهض بالعصا ، وتناولها مُغْلِياً وَمُرْخِصا ، فَمَادَتْ وآدَت ، وبادَتْ ونَادَت : إلهي هذا لم يعتبرْ بملائكتِك الكرام ، ولَمْ ينْزَجِرْ بهذا الضَرَمِ والإيلام ، فأمدَّني بملكِ النيران ، الزَّبْنِيِّ[٣١] الأسودِ الغضبان ، يُخْبِرْه بصدْقي ، ويأخذ منه حقّي ، ويفعل معه ما يَجب ، فإنَّ راجيك لم يَخِب ، فما عتم القصّاب ، أنْ زَمْجَرَ كَرَعْدِ السَّحاب ، وأخذ في الاضطراب والاصْطِخاب ، وأسرع في السلَّمِ الانْصِباب ، فلمّا سمع زيدٌ العياطَ والخياط ، وَزَمَاجِرَ الهياطِ والمياط ، بُهِتَ وأخذه الضّرَاط ، فدخل عليه في بغثرة[٣٢] وغدمرة[٣٣] ، وتَزَيَّا بصورةٍ بشعةٍ مُنكرة ، وخطفَ من يدِه العصا ، وضربه بها

---

[٢٨] المِغْفَر : زردٌ ينسج من الدروع على قدر الرأس ، يلبس تحت القلنسوة .

[٢٩] المفتات : الذى يفتت برأيه ويختلقه . (والهمزة مخففة) .

[٣٠] البرى : مخفف البريء .

[٣١] الزبنى أصلها الشرطي ، وجمعها زبانية ، أي الشرط ، وسمي بها بعضُ الملائكة لدفعهم أهل النار إليها . والفعل زبن بمعنى دفع ورمى بالشيء .

[٣٢] البغثرة :الكلام السريع الغاضب على غير نظام .

[٣٣] الغدمرة : الصخب والغضب واختلاط الكلام والصياح .

حتى شصا[٣٤] ، وقال : أيْ أنْحَسَ ذَميم ، وَأَتْعَسَ زَنيم[٣٥] ، أَمَا زَجَرَكَ وَنَهَاكَ ، وكَفَّكَ وَكَفَاكَ ، مَنْ تقدّم مِنَ الأمْلاكِ ، أَيْمُ اللهِ لَئِنْ لم تتركْها ، وفي مالِكَ ومنالِكَ تُشْرِكُها ، لَتُدَمَّرَنَّ ديارُك ، وَلَتَمْحُوَنَّ آثارُك ، ثم تركه وذهب ، وأودعه جَمْرَ اللّهَب .

فلما رأى الحال نُسِجَتْ على هذا المنوال ، استكان ، وطلب الأمان ، ومَعَكَ[٣٦] عينيه ، وَضَمَّ يديه ورجليه ، وجعل يتأوّه من أَلَمِ الضراب . وقال كأَنَّ الدُّعاءَ في هذه الساعةِ مُستجاب . ثم قال مِنْ شِدّةِ كَرْبه ، وحُرْقَةِ قلبه : إلهي ومولاي ، كما استجبتَ دعاءَها استجب دُعَاي ، وكما أنزلتَ من السماءِ لنصرِها مُلوكَها ، فأخرجْ لها من الأرضِ عفريتاً [..........][٣٧] وَلْيَكُنْ ذلك بمَرْأى مِنْ عيني وأمامي ، حتى يَسْكُنَ قَلْبِي ويبردَ أُوَامِي[٣٨] . فما صدّقَ صاحبُ التّنّور ، حين سمع الدعاءَ المذكور ، والنداءَ المقبولَ المشكور ، حتى طفرَ من مَجْثَمِهِ كالشّواظِّ المسجُور[٣٩] ، وأقامَ أمَامَ لهوِه المصابّ ، واستعمل من قواعدِ النحوِ الرفعَ والجرَّ والانتصاب ، ورفع العمودَيْن ، وأوْلَجه المحراب ، ولا زال ذلك الإمام ، يتردَّدُ في البيتِ الحرام ، وقد نال في الحَرَمِ أَمْنا ، حتى رَمَى الجمراتِ وأَمْنَى ، ثم قَبَّلَ فاها ، وخرج مسرعا من ذراها ، وخلّى الدارَ تَنْعِي مَنْ بَنَاها . ففتحَ زيدٌ عينيه ، وحَمْلَقَ حواليْه ، ثم قال : يا أَقْذَرَ القِحَاب ، هكذا يكونُ الدعاءُ المسْتجاب !

---

[٣٤] شصا : انتفخ وارتفعت يداه ورجلاه .

[٣٥] زنيم : اللئيم المعروف بشرّه .

[٣٦] مَعَكَ عينيه : دَعَكَ أو دَلَكَ عينيه دلكاشديدا ، غير مصدّق ما تراه عينه من أمر واقع .

[٣٧] كلمة خادشة لحياء البعض .

[٣٨] الأوام : حرارة العطش (النار المتقدة في قلبه) .

[٣٩] المسجور : المتّقد .

وإنما أوردتُ هذا الكـلام ، والتمثيلَ لـك يـا إمـام ، ليتبيَّـنَ لِكُـلِّ عـالِمٍ همـام ، وليتبصَّرَ أولو العقل والأفْهَام ، الفَرْقَ ما بينَ قضايا الحسِّ والعقـلِ والأوْهَـام . وقـد شبَّهَ العقلُ بجبلٍ عال ، عزيزِ المنال ، وكُلُّ مَنْ قَصَدَ الصعودَ إليه ، والارتقـاءَ عليـه ، لايصعدُه إلاّ من طريقٍ واحدة ، منها يوصَلُ منه إلى الفائدة . وسُلوكُ طريقِ المعاشرةِ مـع العقـلاءِ ، وذوي الآراءِ والأذكيـاء ، في العـداوةِ والصداقـة ، والكـدورةِ والزياقة[٤٠] ، واللطافةِ والكثافة ، والخوفِ والرجاء ، والابتداءِ والانتهـاء ، إنمـا هـو من بابٍ مُتّحِد ، لا من طريقٍ متعدد . ولأجلِ هـذا يـا مُتَبَصِّر ، سُلوكُ مثـلِ هـذه الطريـقِ معهـم مُتَيَسِّر ، لا مُتَعَوِّجَ ولا مُتعسِّر ، ورأسُ خَيْـطِ هـذا السُّموط[٤١] ، بالاستقامةِ والسلاحِ مضبوط ، بخلافِ الجهّالِ والخلعاء ، والحمْقَى والسُّفهاء ، فـإنَّ أمورَهـم منفرطة ، وأفكارَهم وآراءَهم غَيْرُ مُنْضَبِطَة ، فتتكـدرُ خُـوَارُ[٤٢] العقـلاءِ في تعليمهم ، ويعيا طبيبُ الفكرِ في تهذيبِ أحمقِهم وتأديبِ سفيهِهم ، وقيل : :

إني لآمَنُ مِنْ عـدوٍ عاقـلٍ ... وأخافُ خِـلاً يعتريهِ جُنونْ

والعقلُ فنٌّ واحـدٌ وطريقـةٌ ... أدْرى وأرْصَد والجنونُ فنونْ

ولهذا قيل : معاداةُ العاقل ، خيرٌ من مُصَافَاةِ الجاهل . ثم قالت غرغرة في أثنـاءِ هـذه القرقرة : وأمَّا ما ذكرتَ من البيان ، من مفارقةِ الأوطان ، وتَرْكِ هـذا المكـان ، أمَـا سمعتَ حديثَ أشرفِ جنسِ الإنسان "أنَّ حبَّ الوطنِ من الإيمان" وقـد ألفْنـا وطنَنـا وحُبَّه ، وقَلْعُ أُصُولِ محبّتِه من قلوبِنا صعبـه ، وهـو في معزلٍ عـن طُرُقِ الجـوارح ، ومَكْمَنٍ عن السـوانحِ والبـوارح ، وإنّمـا تعـرض لأولادِنـا تلـكَ الآفـة ، مـن تراكـمِ العساكرِ المصافة ، وما يحصل من أقدامها من كثافة ، وأنا أخافُ إنْ انتقلنا من هـذا

---

[٤٠] الزياقة : التزيّن والاكتحال والصفاء .

[٤١] السموط : مفردها سِمْط ، وهو الخيط ما دام الخرز ونحوه منظوما فيه .

[٤٢] خوار : صيحات وأصوات المعلمين فى تلاميذهم .

الوطن ، يخرجُ من أيدينا هذا السكن ، ولا نحصلُ على مأوًى يليق ، أَوْ لا تُوَافِقُنا الغُرْبَةُ أو يمنعُ مانعٌ في الطريق ، فنقصدُ الرِّبْحَ فيذهَب رأسُ المال ، فنخسر ما في أيدينا في الحال ، ولا يحصلُ المأمولُ في الاستقبال ، وكيف وهو مَسْقَطُ رأسِنا ، ومَحَلُّ أُنْسِنا وأُناسِنا ، فالأَوْلى بنا الرضا ، والانقيادُ لأوامرِ القضا ، وملازمةُ الوطنِ القديم ، والسكونُ تحت تقديرِ يَدِ العزيزِ العليم . وقد قيل : إنَّما يشفَى العليلُ إذا تركَ مشتهياتِ نفسِه ، وَقَيَّدَ مُتمنيَّاتِه في قَيْدِ حبسِه ، ولا بدّ للمُريدِ من ترْكِ المراد ، وللقانعِ من قَطْعِ النظرِ عن الازدياد ، والحرّيّة في رفضِ الشهوات ، وكلُّ ما هو آتٍ آت .

وأمّا وقائعُ الأولاد ، وحصولُ الأنكاد ، وما يقعُ منها بسببهم في كلِّ أوان ، فَنَحْسَبُها إحدى ما يحدثُ لنا من نوائبِ الزمان ، ونحن بل كلُّ المخلوقات ، عرضةٌ للنوائبِ والآفات ، وطُعْمَةٌ لسنابكِ المقدور ، ونَهْبَةٌ لحوادِث الدهور ، ولو انتقلنا عن وطننا ، وتحوّلنا عن سكننا ، وبَعُدْنا عن هذا الجانب ، ونزعْنا عن الأهلِ والأقارب ، وجاورْنا الأباعدَ والأجانب ، لا يطيبُ لنا مقام ، وتتكدرُ أوقاتنا على مَرِّ الأيام ، فلا نزالُ بين تَذَكُّرٍ للوطنِ المألوف ، وتحنّنٍ إلى الصاحبِ المعروف ، فيسْهُل عند هذه الأنكال ، مفارقةُ الأطفال . ثم اعلمْ ، أيُّها الصاحبُ الأعظم ، أنه لو تيسرَ لنا مع الانتقال ، وانتظامُ الأمورِ واستقامةُ الأحوال ، وحُفظتْ الأولاد ، وزالتْ الأنكاد ، وصفا الوقْت ، وزال المقْت ، فإنَّ الخاطرَ يشتغل ، ونار القلبِ بسببهم تشتعل ، فإنه من حين وجودِ الولد ، يتقيَّدُ بتعهُّدِه القلبُ والجسد ، وتُصرَفُ الهمَّةُ إلى القيامِ بمصالحِ معاشِه ، إلى حين ترعرعِه وارتياشِه ، ويزدادُ القلبُ تعلقاً بمحبّته ، ويتقيَّدُ الخاطرُ بالالتفاتِ إلى عَمَل مصلحته ، ويتضاعفُ ذلك يوماً فَيَوْمَا ، وشهراً فشهراً وعاماً فَعَامَا . فإنْ نابَه والعياذُ با للهِ نَحْوُ أَلَم ، أو أصابَه ضُرٌّ

أو سَقَم ، التهبتْ عليه الجوارح ، وانقلبتْ الهمومُ على القلبِ والجوانح ، فإنْ آل ذلك إلى مَوْت ، واستحال وجودُه إلى عدمٍ وفَوْت ، فهو المصيبةُ العظمى ، والطامةُ الكبرى . وإنْ سَلِمَ من هذه العاهات ، وبلغ سِنَّ الإدراك سالماً من الآفات ، ونجا إلى بَرِّ الشبابِ من بَحْرِ المخافات ، إزدادتْ كَلَفَته ، وتضاعفتْ مؤونتُه ، وركب الوالداهُ في ذلك كلَّ صعبٍ وذَلول ، وذهبا من مسالكِ الكَدِّ والكَدْحِ في كلِّ عَرْضٍ وطُول ، وتحملا أنواعَ المشاقِّ والآثام ، وارتكبا فيما اكتسبا أصنافاً من الحلالِ والحرام ، وهذا إذا كان مُطيعا ، ولأوَمِرِهُما مُنْقاداً سميعا . وأمَّا إذا ركبَ جُموحَ العُقُوق ، ونسي ما لهما عليه من حقوق ، فهي مصيبةٌ أخرى ، وداهيةٌ كبرى ، ويصيرُ كما قيل :

وَمِنْ نَكَدِ الدُّنيا على الحُرِّ أنْ يَرَى   عَـدُوًّا لهُ مَا مِنْ صَدَاقَتِهِ بُـدُّ

وعلى كلِّ تقدير ، وأنت بهذا خبير ، وبدقائقِه عليم ، إن الأولادَ بين الأبويْن وبين الآخرةِ سدٌّ عظيم ، ما يخلصُ مع الالتفاتِ إليهم للهِ طاعةٌ ، ولا على الانقطاعِ منهم إلى طريقِ الآخرةِ استطاعةٌ .

وناهِيَكَ ياذا الذكاءِ والفِطْنة ، إخْبَارُ مَنْ أنقذك من هذه المحنه ، ﴿إنَّما أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَة﴾ . فاسمعْ هذا الكلامَ بأُذُنِ التحقيق ، واسْلُكْ في سَبْرِ معانيه أوضحَ طريق ، وحقِّقْ ياذا الإرشاد ، أنّ وجودَ الأولاد ، عند ذوي البصيرةِ من النقّاد ، نقدٌ مُزيَّف ، ومتاعٌ مُزَخْرَف ، وسُمٌّ تحتَ حَلْوى ، وسُرورٌ فوقَ بَلْوى ، وعاريةٌ مَرْدُودَة ، بعد أوقاتٍ معدودَة ، وأيامٍ محدودة ، بل لُعْبَةٌ من خَشَب ، مُموَّهةٌ بالذَّهَب ، وطلاءٌ من نُضار ، على كوبٍ من فخار ، وقد نبَّه على هذا ربُّ العباد ، بقولهِ ﴿إنَّما الحياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ في الأَمْوالِ

وَالأَوْلَادِ﴾[٤٣] وكما أنَّ الأطفالَ الصغار ، الغافلين عن دقائقِ الأسرار ، إذا نظروا إلى اللُّعبةِ المزينة ، والخُشَيْباتِ المُصَبَّغَةِ المستَحْسَنَة ، الْتَهَوْا بها عن اكتسابِ الآداب ، وملازمةِ العلماءِ والمشايخِ والكُتّاب ، فيبلُغون وهم جاهلون ، وعن طرقِ اكتسابِ الكمالِ ذاهلون ، ويشيبون وهم أَحْداث ، ويتصورون أنّهم طاهِرون وهم أَخباث ، كذلك كلُّ مَنْ التفتَ إلى غيرِ اللهِ خاطرُه ، والتهتْ بأمورِ الدنيا من المالِ والولدِ سرائرُه وضمائرُه ، وحُرِمَ من الاطلاعِ على دقائقِ المُلْكِ والمَلَكُوت[٤٤] ، وفاته لذّاتُ الوقوفِ على دقائقِ الرغبوت والرهبوت ، فهو عن اللهِ تعالى محجوب ، وفي عساكرِ الأمواتِ وإن كان حيًّا محسوب ، كما قيل :

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ الموتِ مَوْتٌ لأَهْلِهِ	وأَجْسَادُهُمْ دُونَ القُبُورِ قُبُورُ
وإِنَّ امْرءاً لم يَحْيَ بالعلمِ قَلْبُهُ	فليس لَهُ حتّى النُّشُورِ نُشُورُ

قال اللهُ تعالى وكلمتُه العليا ﴿المالُ والبنونَ زِينَةُ الحياةِ الدُّنْيا﴾[٤٥] وهذا صريحٌ بالشهادةِ على ما نَقَلْتَه ، وجَلَوْتَ صداً قلبك بتقريرِه وصَقَلْتَه ، فَلاَ تَكُونَنَّ لاه[٤٦] ، وَلاَ تُعَلِّقَنَّ قلبَكَ بغيرِ الله ، قَوْلاً واعتقاداً وعَمَلا ، فالباقياتُ الصالحاتُ خيرٌ عند ربِّك ثواباً وخيرٌ أَمَلا ، واجهدْ ياحبيبُ في إصلاحِ قلبِك الكليم ، واصغِ لما قاله الحكيمُ الحليم ، متحرِّزاً من نكايةِ العذابِ الأليم ، عاملاً بما يُرضي السميعَ العليم ، ﴿يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ ولاَ بَنُونَ إلاّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٤٧] وإذا علمتَ هذا وحققتَه ، وحررتَه وصدقتَه ، فاعلمْ أنَّ الأَوْلَى بحالنا ، والأَحْسَنَ للنظرِ في مآلِنا ، أنْ

---

[٤٣] قرآن كريم ، سورة الحديد : ٢٠ .

[٤٤] الملكوت : عالم الغيب المختص بالأرواح والنفوس والعجائب ..

[٤٥] قرآن كريم ، سورة الكهف : ٤٦ .

[٤٦] الصواب : لاهيا ، (من ضرورات السجع) .

[٤٧] قرآن كريم ، سورة الشعراء : ٨٨ ، ٨٩ .

نعدَّ ما نحن فيه من جُمْلَةِ النِّعَم ، وأنَّ هذا الذى قُسِمَ لنا مــن القِسَــم ، فـى القِـدَم ، وأنْ لا ننقلَ عن دائرةِ الرضا والتسليم قَدَماً عن قَدَم ، وننظرَ ما يتولّـد مـن حـوادثِ الزمان ، ولا نرخيَ في ميـدانِ الطمعِ العِنان ، ونعرضَ على جامحِ الخاطر ، ما قـال الشاعر :

كم نـارِ باديةٍ شُبَّتْ لغيرِ قِرَى ... على بِقَـاعٍ وكَـمْ نـورٍ بلا ثَمَرِ

هَوِّنْ عليْكَ اموراً أنتَ تُنكِرُها ... فالدَّهْرُ ياتي بأنـواعٍ من العِبَرِ

قال النجديّ : جميعُ هذا المقول ، صادرٌ من مواردِ المعقـول ، موافـقٌ لمـا وَرَدَ بـه المنقول ، لقد غُصْتِ في بحرِ الفِطْنة ، على جواهرِ الحكمــة ، فمـا تركـتِ في ميـادن المسائل ، مقالاً لقائلٍ ، ولا مجـالاً لجـائل ، ولكـنْ لا ينبغـي للعـاقل ، أن يغفـلَ عـن حوادثِ الدهر ، ولا يسندَ ظهرَه لكواذبِ العصر ، فإن طوارقَ الآفـات ، وخـوارقَ العادات ، ومحنَ الزمان ، وفتنَ الدوران ، محتجبةٌ وراءَ أسـتار ، ومسـتورةٌ في أنـواع أطوار ، من الفلَكِ الدوّار ، له فى عِلْمِ الأدوار ، لُعَيْبَــاتٌ أبكـار ، يبرزُهـا للنظّـار ، فتلعبُ بالأفكـار ، ويذهـبُ فـى سـنا بـرقِ مخاوفِهـا إبصـارُ الأبصـار ، ويُخْطِـئُ فـى حركاتِها الرأيُ المصيب ، وَيَدْهَشُ فـى دُجـى حِنْدِسِـها[٤٨] الفَطِنُ الأريـب ، وقـد بادتْ الفكْر ، وعجزتْ القـوى والقـدْر ، وحـارت عقـول البشـر ، دونَ إدراكِ مـا يبرزُه كلُّ وَقْتٍ من الصُّوَر ، مــن وراءِ سـترِ الغيـبِ مستعدا للقضـاء والقـدَر ، ولم يعهدْ من الدهرِ الختونِ ، والزمانِ المجون ، إذا استقام أو قزل[٤٩] ، أوجـدّ أو هَـزَل ، أو أَمَرَ بنازلٍ فنزل ، أو وَلّى أو عَزَل ، أو أقبـل أو اعـتزل ، أو نقـضَ أو غـزل ، أنْ يُرسلَ قبل ذلك مُنْذرا ، أوْ مُبْصراً أو مُحذرا ، ليستيقظَ النائم ، أو ينهـضَ الجـاثم ،

---

[٤٨] الحِنْدِس : الليل الشديد الظلمة .

[٤٩] قزل : مشى مشية المقطوع الرجل .

أو يتحركَ القائم ، وإنما يحطمُ بغتة ، ويهجـمُ في سكتة ، ويأخذُ على بهتة ، فلا يُفْلِتُ منهُ فلتة ، ولا يمهل إلى لحظةٍ ولا لَفْتَة ، وقد قيل :

يا راقدَ اللّيْلِ مَسْرُوراً بأوّلِهِ | إنّ الحوادِثَ قَدْ يَطْرُقْنَ أَسْحَارا
لا تَرْكَنَنَّ لِلَيْلٍ طابَ أَوَّلُهُ | فَرُبَّ آخِرُ لَيْلٍ أَوْقَدَ النّارَ

وعلى هذا لو وقع منا غفلةٌ أو ذهول ، عند قدومِ هذا الجيشِ المهول ، فاخترم[٥٠] والعياذُ بالله واحداً منا ، ونحن أحسنُ ما نكونُ سكوناً وأَمْناً ، فكيف تَرَيْنَ يبقى حالُ الآخَر ، وهل يصيرُ إلا كما قال الشاعر :

ما حالُ مَنْ كَانَ لَهُ واحِد | يُؤْخَذُ مِنْهُ ذلكَ الواحِد

وإذا بقي أحدُنا منفردا ، وانعزل مُتوحِّدا ، ماذا يفيدُه الوطن ، والجيرانُ والسكن ، وهل تفي لَذَّةُ وصالِ أَلْفَيْ سَنَة ، بألَمِ فِرَاقِ تلك الساعةِ الخشنة ، كما قيل :

إنْ كانَ فِراقُنا على التّحْقِيقِ | هذه كَبِدِي أَحَقُّ بالتّمْزِيقِ
لَوْ دامَ لنا الوِصَالُ أَلْفَيْ سَنَة | ما كانَ يَفِي بساعةِ التّفْرِيقِ

وقال أيضا :

لاَ كانَ في الدَّهْرِ يَوْمٌ لا أراكَ به | ولا بَدَتْ فيه لا شمسٌ ولا قَمَرُ

وكلُّ مَنْ لم يفتكرْ في العواقبِ قبلَ حُلُولها ، ويتأملْ في تَدَارُكِها بِقَدْرِ الطاقةِ قبلَ نزولها ، ويطمئنُّ إلى سكونِ الزمان ، ويسندُ ظهرَه إلى مَسْنَدِ الحدثان ، ويحيلُ الكوائنَ على القضاءِ والقدَر ، ويرفعُ يَدَ التدبيرِ عن تعاطِي أسبابَ الحذر كَانَ كَمَنْ تَرَكَ إحدى زاملتيه[٥١] فارغة ، وحشا الأخرى من الأحجارِ الثقيلةِ الدامغة ، فأنّي يستقيمُ مَحْمَلَه ، أو يَبْلُغُ منزلَه ، فلا يزالُ حِمْلُه مائلا ، وخَطْبُه هائلا ، فالعاقلُ

---

[٥٠] اخترم : يقال اخترمته المنيّة : أخذته . واخترم الجيش أحدهم : قضى عليه وقتله .

[٥١] الزاملة : ما يحمل عليه من الإبل ونحوها .

يسعى فيما يظنُّ نفعَه ، ويبذلُ في ذلك غايةَ جُهْدِه وَوُسْعِه ، ولا يتركُ الطلب ، ولا يغفلُ عن السبب ، ويعملُ بموجب ما قيل :

فَلاَ وَأَبِيكَ لاَ أَدَعُ احْتِياطي وما لي في قَضَاءِ اللهِ حيلَه

وعلى كلِّ حال ، ياربَّةَ الحِجَال ، تعاطي الأسبابِ لا يقدحُ في الاتّكال ، وناهيكِ يا مليحةَ العمل ، حكايةُ الحمارِ مع الجمل . فَسَأَلَتْ غَرْغَرَة ، أن يبينَ ذلك ويذكره .

[٢/٩] حكاية الحمار مع الجمل

قال : بلغني ، أنَّهُ ترافقَ في المسير ، عَيْرٌ[٥٢] مع بعير ، فكان الحمار ، كثيرَ العِثَار ، مع أنَّ عينيه ، تراقبُ مواطئَ رجليه ، وكان الجملُ على عِظَمِ هامتِه ، وعُلُوِّ قامتِه ، وبُعْدِ عينيه ، عن مواطئِ يديه ورجليه ، لا تَزِلُّ له قَدَم ، ولايصلُ إليه ألم . فقال الحمارُ للبعير : أيُّها الرفيقُ الكبير ، ما بالي في المسير ، كثير التعثير ، دائم الوقوعِ والزلل ، والعثار والخطل ، لا أخلو من حَجَرٍ يدْمِي مِنّي الحافر ، أو عثرةٍ ترميني في حفرةٍ حافر ، مع أنَّ عيني ، تراقبُ يدي ، ولا تنظرُ سواهما إلى شي ، وأنتَ لا تنظرُ مواطئَ أخفافِك ، ولا تعرفُ على ماذا تقعُ رؤوسُ أطرافِك ، لا حجرٌ يصيبُ خُفَّك ، ولا شوكةٌ تخرقُ كَفَّك ، ولا جَوْرَةٌ تقعُ فيها ، ولا تَخْتَلُّ عن طريقٍ تمشيها ، ولا أدري هذا مِمّاذا ؟ قال أبو صابر : يا أخي نظرُك قاصر ، وفكرُك غيرُ باصر ، لا تراقبُ ما بين يديك ، ولا تنظرُ ما أمامَك ألَك أم عليك ، فإذا دهمَك ما دهاك ، عَجَزَ عنهُ نُهَاك ، فلا تشعرُ إلا وقد وَقَعْت ، وانخرق ما رَقَعْت ، فلا يمكنُك التدارُك والتلاف ، إلا وأنتَ رهينُ التلاف ، وأما أنا فأراقب ، ما يصيرُ من العواقب ، وأنظرُ أمامي الطريقَ على بُعْد ، فأميِّزُ المسلوكَ من قبلُ ومن

---

[٥٢] العَيْر : الحمار .

بَعْد ، فلا اصلُ إلى صعْبٍ إلا وقـد أذْلَلْتـه ، ولا إلى وَعْـرٍ إلا وقـد سَـهَّلْته ، ولا إلى وَهْدَةٍ إلا وقد عرفتُ طريقَها ، ولا إلى عقبةٍ إلا وقد كَشَـفْتُ واسِعَها ومضيقَهـا ، فَأَسْتَعِدُّ للأمرِ قبـل نزولـه ، وأتـأهّبُ للخطـبِ قبـل حلولـه ، وأحتـالُ لِقَطْعِه قبـل وصوله ، وأحلُّه قبل أنْ يُعقَد ، وأُقيمُه دونَ أنْ يُقْعَد ، وهذه قاعدةٌ للفقهاء ، وأصلٌ كبيرٌ للحكماءِ من العلماء ، إنهم قالوا : إنَّ الدَّفْـعَ أَهْـوَنُ مـن الرَّفْـع . ومِـنْ كَـلامِ الأَلِبّاء ، وأصولِ حُذّاقِ الأطبّاء ، قولُه :

الطِـبُّ حِفْظُ صِحَّةٍ بُرْء مَرَضْ　　　مـن سببٍ في بـدنٍ إذا عَـرَضْ

وإنما أوردتُ هذا المثل ، عن الحمارِ والجمل ، لتعلمي ياستَّ الحَجَل ، أنّـهُ لا بـدّ لنا من أخْذِ الأُهْبة ، قبل النكْبة ، فما كلُّ مَرَّة ، تَسْلَمُ الجرَّة ، وقد قَرُبَ وَقْتُ وضعِ البَيْض ، وبعده يَدْهَمُنا من سيلِ العسكرِ الفَيْض ، فلا بدّ من إعمالِ الفكرِ المصيب ، في وجْهِ الخلاصِ من هذا الأمرِ العصيب ، كما قيل :

* مَهِّدْ لِنَفْسِكَ قَبْلَ النَّوْمِ مُضْطَجَعًا *

قالتْ غرغرة ، الحكيمةُ المدبرة : جميعُ هذه الأخبار ، لا تخلُـو عـن دقيـقِ الأنظـار ، وتحقيقِ مصيبِ الأفكار ، وغامضِ معاني الأسرار ، وكلُّ عاقلٍ يقبلُه ويُقبّـل يديـه ، ويمتثلُه ويُقبل عليه ، وكلُّ فِكْـرٍ مصيـبٍ يجثـو للاقتبـاسِ بـين يديـه ، ولكـنْ طـلابُ الأغراضِ الدنيوية ، والمسارعون إلى نَيْلِ المُرادات والأُمْنِيَّة ، على فِـرَقٍ شَـتّى ، وأنـا أُفَصِّلُها حَتْما ، منهم مَنْ يبلـغُ الآمـال ، بقـوّةِ الجنـدِ وبـذلِ الأمـوال ، ومنهـم مَـنْ يساعدُه الدَّهْر ، ويُعاضِدُه مُعاونُ العصر ، وينهضُ لـه مُسْعَدُ التقديـر ، فيقـوم معـه كلُّ كبيرٍ وصغير ، كما قيل :

وإذَا أرَادَ اللهُ نُـصْـرةَ عَبْـدِهِ　　　كـانَـتْ لَـهُ أعْـدَاؤُهُ أنْـصَـارَا

فيقيّضُ له المساعد ، ويعضده القريبُ والمباعد ، فلا يحتـاجُ إلى كبـيرِ سَـعْي ، ولا في استماعِ النصيحةِ ونفعِها إلى وَعْي ، بل يصلُ إلى قصدِه ، بدون كدِّه ، وبغيرِ جَهْدِه

وجَدِّه ، فمهما فعل أنجح ، ومهما قصد أفلح ، وحيثما توجّـه أربح ، وأينمـا مـال أرجح . ومنهم مَنْ يحتاجُ إلى جَهْدٍ جهيد ، وسَعْيٍ مديـد ، وكـدٍّ طويـلٍ عريـض ، وجَدٍّ عريضٍ ، غيرِ غريض[٥٣] ، مع مساعدٍ نـاصح ، ومعـاونٍ صـالح ، وتعـاطي أسباب ، وقَرْعِ أبواب ، وفكرٍ دقيق ، ومسعدٍ رفيق ، حتى يبلغَ مُرادَه ، ويصـلَ إلى ما أرادَه . ومنهم مَنْ تغلبُ عليه العجلةُ والطمع ، وشِدَّةُ الحرصِ والهلـع ، فيسـارعُ إلى نَيْل ما يرومُه ، فيلقيه في هُوَّةِ الحرْمان حرصُه وشومُه ، فيقعُ من التعبِ والنصَبِ في هُوَّة ، ويُحْرَمُ لكونِه اعتمدَ على ما لهُ من حَوْلٍ وقُوَّة ، فيصيرُ كما قيل :

الحِرْصُ فَوَّتَنِي دَهْـرِي فَـوَائِـدَهُ ... فَكُلَّمَا زِدْتُ حِرْصـاً زادَ تَفْوِيتَـا

ومنهم مَنْ يتمنّى ثُمَّ يتكاسل ، ويرجو ويترقّبُ ويتساهَل ، فيُحْـرَمُ مقصـدَه ، ويـردّ عَجْزُه عن مرادِه يدَه .

وقد قيل في المثل " تَزَوَّجَ التَّواني بِنْتَ الكَسَل ، فأَوْلَدَ الزَّوْجَان ، الفَقْرَ والحِرْمَـان " فانظرْ يا ذا الركون ، والوقارِ والسكون ، نحنُ من أيِّ هذه الفِرَقِ نكـون ، وأنـتَ تعلمُ أنّا لا نقدرُ على مقاومةِ العُقَاب ، ولا أنْ ندفـعَ عـن أنفسِنا مـا يُنزلُ بنـا مـن عِقَاب ، فإنهُ إذا طار العُقَاب ، يبلغُ الثريّا السـحاب ، ونحن إذا تَحَرَّكْنـا في الهـوا ، فلا نقدرُ أن نرتفعَ عن وَجْهِ الثرى ، وقد قيل في المثـل كمـا تـرى : أَيْـنَ الثُّرَيَّـا مِـنَ الثَّرَى[٥٤] . وقيل مَنْ تَعَلَّقَ بخَصْمٍ هو أقْوَى منه فقد سَعَى في هلاكِ نفسِـه برجلِـه ، ووضعَ ترابَ الدَّمارِ على رأسِه بيدِه ، وكنتُ يا بدري ، أنشدتكِ من شعري :

وَمَنْ يَتَشَبَّث في العَدَاوَةِ كَفُّهُ ... بِأَكْبَر منْهُ فَهوَ لا شَـكَّ هَالِكُ

---

[٥٣] غريض : طريّ ، ضعيف .

[٥٤] الثريا : مجموعة من النجوم ، والثرى : الأرض .

وكان مَثَلُه مَثَلَ النملةِ الخفيفة ، التي نبتَتْ لها أجنحةٌ ضعيفة ، فتحرّكهـا دواعـي الطيران ، فتتصوّر أنّها صارَتْ كالنُّسُورِ والعقبان ، فبمجرّدِ مـا ترتفـعُ عـن الـثرى ، إلى الهوا ، التقمها عصفـور ، أو خطفها أصغرُ الطيور ، ولهذا قيل :

إذَا ما أرَادَ اللهُ إهـلاكَ نـمْلَـةٍ أطَالَ جَنَاحَيْهَا فَسِيقَتْ إلى العَطَب.

ونحنُ ما لنا اطلاعٌ على مَكَامِنِ الغيب ، فَنَزِّهْ نفسَك عن هواجسِ الرِيْب ، وليس لنا مساعد ، من الأقاربِ والأباعد ، ولا لنا مال ، ولا خيلٌ ولا رجال ، ونحن أقلُّ من أنْ يساعدَنا زمان ، أو يعينَنا على العُقَاب أعوان ، فلمْ يبـقَ إلاّ الركـون ، والاتكـالُ على حركاتِ السكون ، فماذا ندرى غـداً مـاذا يكـون . واعلـمْ أنّ حركاتِنـا مـع العُقَاب ، والجامعَ لنا معه من الأساب ، مُتحدةٌ في الحقيقة ، وطريقتُنا معه من جنسِ ما له من طريقة ، وهي الطَيْرِيَّة ، وكلُّنا فيها سَوِيّة ، وهو منها كإعجازِ القـرآنِ مـن الفصاحةِ في الطـرقِ الأعلى ، ونحـن منهـا كـأصواتِ الحيـوانِ في الطـرق الأدنـى ، فالأوْلَى بحالنا الاصطبار ، إلاى أنْ يصلَ لكسرِنا من عالَم الغيبِ الجبار ، كما قيل :

مَـهْلاً أبَـا الصّـقرُ فَكَمْ طَائِرٍ خَـرَّ صَرِيعـاً بَـعْـدَ تَحْلِيقِ
زُوِّجْتَ نُعْمَى لَمْ تَكُنْ كُفْأَهَا آذَنَـهَـــا اللهُ بِـتَـطْـلِـيــق

وقيل :

الأمْرُ يَحْـدُثُ بَعْـدَهُ الأمْـــرُ والعُـسْـرُ مُقْـتَـرِنٌ بِـهِ اليُـسْـرُ
وَحَـلاَوَةُ الصِّبْـيَــانِ مِنْ عَسَلٍ تـلهّي وإنّ حلاوَتـي الصَبْـرُ
والصَّبْـرُ يَعْـقُـبُ بَعْـدَه شُكْرٌ مِـنْ نِعْـمَـةٍ تَـأْتِيـكَ أوْ أجْـرُ

فقـال الذكـر : هـذه الفكـر ، مـن الصـوابِ قريـب ، وسـهمُها عنـد أُولي البصـائرِ والتجاربِ مصيب ، ولكنْ مَنْ يتكفّلُ بوفاءِ العُمْرِ الغدّار ، والإيصالِ إلى الأوطـار ، ويقومُ بالأمنِ من جوادثِ اللّيْل والنهار ، وأُنسيتِ إنشـادي ، في الـوادي ، يـا زيـنَ النادي ، وجمالَ الحاضرِ والبادي :

لَئِنْ بَادَرْتُ في تسليمِ رُوحي أَتاني من ورائي مَنْ يَعُوقُ
وإنْ أَسْرَعْتُ نَحْوَ الوَصْلِ عُذْراً فَعُمْرِي من وَرَا ظهري يَسُوقُ

ثم قال النجدي : والرأيُ السديدُ عندي ، والذي أعيدُ فيه وأُبدِي ، أن نتوجَّهَ إلى حضرةِ العُقاب ، ونكشفَ عن وَجْهِ مرادِنا لديه النقاب ، ونطلبَ منه الأمان ، من عوادي الدهرِ ونكباتِ الزمان ، ونستظلَّ بجناحِ عاطفتِه وننتظمَ في سلكِ جماعته ، وخدمتِه ، فإنهُ ملكُ الطيور ، وَبِيَدِهِ أَزِمَّةُ[٥٥] الجمهور ، وهو وإنْ كانَ سلطانَ الجوارحِ والكواسر ، وشيمتُه سفكُ الدماءِ والتمزيقُ بمخالبيه النواسر ، لكنه ملكٌ عالي الهمّة ، ومن شِيَمِ الملوكِ الشفقةُ والرحمة ، ولا تقتضي هِمَّتُه العالية ، إلا الشفقة الوافية ، خصوصاً على مَنْ يرتمي لديه ، وينتمي إليه ، ولا تدعُه شيمتُه الأبية ، وهِمَّتُه العاليةُ الحميّة ، وشمائلُه الشهمةُ الملوكية ، أن يتعرَّضَ إلينا بضرر ، أو أن يطيرَ إلينا منه شرر .

قالت غرغرة ، بعد الاستغراب في الكركرة : العجبُ كلّ العجَب ، من رأيك المنتخَب ، أنّك تخلطُ منه الغثَّ بالسمين ، وتسوقُ فيه الهجَان[٥٦] مع الهجين ، فتارةً تصيبُ حَدَقَةَ الغَرَض ، وأخرى تصرفُ السَّهْمَ حيثُ عَرَض ، فتصيرُ كما قيل :

تَلَوَّنْت حَتَّى لَسْتُ أَدْرِي من الهوى أَريحُ جنوبٍ انت أَم ريحُ شمالِ

هذه المصائبُ التي نشكوها ، والنوائبُ التي نقرأُ سُوَرَها ونتلوها ، هل هي غيرُ ما نقاسيه من العذاب ، ونعانيه من أَليمِ العقاب ، في لحظةٍ من ملاقاةِ عسكرِ العُقَاب ، ثم إنك أنتَ تحرّكْت ، في آرائك وسكّنْت ، وشرّقتَ في أفكارك وغرّبْت ، وتباعدْتَ وتقربْت ، وارتفعتَ وحَطَطْت ، وامتنعتَ وسقطت ، وجُلْتَ وحمت ،

---

[٥٥] أزِمّة : قيادة .

[٥٦] الهِجَان ، من الأشياء : أجودها وأكرمها أصلا ، وعكسها الهجين .

وقعدتَ وقُمْت ، ثم أسفر رأيُك السديد ، وفكرُك الرشيد ، وأمرُك السعيد ، عن أنْ تجرّنا بسلاسلِ الحديد ، إلى العذابِ الشديد ، وتخلّدنا فيه الدهرَ المديد ، ولا والله بل تريد ، أن نمشيَ بأرجلِنا إلى الشبكة ، ونلقيَ بأيْدِينا أنفسنا إلى التّهْلُكة ، وقد أشبهتَ في هذه الحركة ، مالكَ الحزينَ والسمكة . فقال النجدي ، لابنةِ السعديّ ، أريحي وغني :

* شكْوى الجريحِ إلى العِقْبانِ والرُّخم(٥٧) *

فقالت له أَزِلْ الغُصَّة ، بقصٍّ هذه القصة .

[٣/٩] قصة مالك الحزين والسمكة

فقال : كان في بعض المروج ، من قُرَى سروج ، نهرٌ كثيرُ الحيتان ، شديدُ الجريان ، وفي مكانٍ منه مصون ، مأوىً لمالكِ الحزينِ البلْشُون . فكان يتصرّفُ في السمك ، تَصَرُّفَ المالكِ فيما مَلَك ، قضى في ذلك عمرَه ، وزجّي أوقاته في طيبِ عيشٍ ومَسَرّة ، إلى أن أدركَه المشيب ، ورحل عنه العمرُ القشيب ، وكساه خيّاطُ الدهرِ دَلق(٥٨) ، ومن نعمّره ننكسه في الخلق ، ورأي من الكبَر ، أصناف العبَر ، إلى أن ضَعُفَتْ قُوَّته عن الاصطياد ، وجرى عليه من الآلامِ والأنكاد ، ومن نوائبِ الدهرِ ما للزمانِ به معتاد ، فصار يَمُرُّ عليه برهةٌ من الأوقات ، وهو عاجزٌ عن تحصيلِ الأقوات ، فتوجَّه في بعضِ الأحيان ، وقد عَلَتْه كآبةُ الأحزان ، ووقف على النهر ، متفكراً في تصرّفاتِ الدهر . فمرّت به سمكة ، لطيفةُ الحركة ، فَرَأَتْه في ذُلٍّ الانكسار ، سابحاً في بحرِ الإفتكار ، لا قدرةٌ لهُ ولا حركة ، ولا نهضةٌ

---

(٥٧) الرخم : طائر غزير الريش ، أبيض اللون مبقّع بسواد ، ذو مخالب متوسطة الطول . وله جناح طويل يبلغ نحو نصف متر .

(٥٨) دَلق : نوع من الثياب البالية المهلهلة .

لاخْتِطافِ السُمكة ، فلم يلتفتْ إليها ، ولا عَوَّل عليهـا ، وقـد أَوطأتـه الحـوادث ، أقدامَ الهمومِ الكوارث ، وبدّل ربيعَ شبابه بخريفِ الهـرم ، وحـرارةَ حربـه بـبرودةِ السلم . فوقفتْ لديه ، وسلّمت عليه ، وسألته عن موجبِ تفكّـره ، وسبب تحزّنـه وتحيّره . فقال : تفكرتُ ما مضى من الزمانِ النـاضر ، ومـا تقضـى فيـه مـن طيـبِ العيشِ وانشـراحِ الخاطر ، وقد تبدّل وجودُه بـالعدم ، ولم يحصـلْ مـن ذلـك سـوى الذنوبِ والنّدم ، وقد وهنـت العظـام ، واستولى علـى الجسـدِ السّـقام ، وتزلزلـت أركانُ الأعضاء ، وتراكَمتْ فنـونُ الأدواء ، واشـتعل الشيـبُ واتّقـد ، وَحَـرُّ الآلامِ وَقَد :

عَزَمْتُ على إخلاءِ جسمي رُوحَـهُ ... مـن خَـرْقِ شَيْبٍ كَلَّ عَنْهُ الرّاقِـعُ

قُلْـتُ اسْكُنيـهِ يـا عمّارة عُـمْـره ... قالتْ فكيف وبَيْتُ جِسْمِك وَاقع

ثم قال : ولم أَفِقْ من هـذه السَّكْرة ، ولا وقعتُ في هذه الفكْرة ، إلا وسـفينةُ العمْـرِ بالساحلِ أرْسَت ، وأصيلُ شَمْسِ العَيْشِ على قُلّةِ[٥٩] الفناء أمْسَت ، فما أمكنـني إلاّ التّلافي بالتوبةِ والنّدم ، قبلَ حُلولِ نوائبِ الأجَلِ وَزَلّـةِ القَـدَم ، والتطهُّـرُ مـن جنابـةِ المظـالمِ بميـاهِ الاسْتعبار ، والالتجـاءِ إلى جـانبِ الحـقّ بالإلْظَـاظِ[٦٠] في الاستغفار ، وغَسْلِ أوسَاخِ الذنوبِ والمظالِم بدموعِ الإنابةِ والاعتذار :

وَمَا أَقْبَحَ التّفْرِيطَ في زَمَنِ الصِّبا ... فكيفَ به الشّيْبُ للرّأسِ شَامِلُ

فاعْلَمِي أنَّ جامِحَ هَوَايَ قَلَـع ، ضِرْسَ الآمـالِ والطَّمَـع ، وجـارح مُتَمَنّـايَ نَـزَع ، خَوافِيَ الشَّرَهِ والهلَع ، وقد قَدِمْتُ إلى هذا المكان ، لأتحلّـلَ مـن الأسمـاكِ والحيتـان ، فإنّي طالما أَغَـرْتُ على عشائرِهم وأولادِهم ، وخُضْتُ في دماءِ قلوبِهم وأكبـادِهم ، وشَتّتُ شملَهم ، وخوّفْتُ جُلّهم وقلّهم ، وأرغبتُهم وأرهبتُهم ، وأقلقتُهم وفرّقتُهـم ،

---

[٥٩] قُلّة : قمة .

[٦٠] الإلظاظ : الإلحاح والملازمة .

وغرَّبتُهم وبالدماءِ شَرَّقتُهم ، فرأيتُ براءةَ الذِّمَّةِ في الأُولى أَوْلى ، والمبادرةَ بالتوبةِ قبلَ المصيرِ إلى الأُخْرى أَحْرى ، فَلَعَلّ أَحْمالَ الذنوبِ تخفّ ، وسحائبَ الغفرانِ تكفّ .

فلمَّا سمعتْ السمكةُ هذه الخديعة ، وَرَعَتْ ما فيها من حَرَكَـةٍ بديعـة ، تشنرّبتها أضلاعُها ، ودعاها انخداعُها ، إلى أنْ قالت : فما ترى أيُّها العبدُ الصالحُ أنْ أتعاطَـاهُ من المصالح ؟ فقال : أبلغي السّمكَ هذا الكلام ، بعد إبلاغِ التحيـةِ والسـلام ، وأنْ يكونَ القوم ، من بعدِ اليوم ، آمنينَ من سطواتي ، سالمينَ من حملاتي ، ساكنينَ إلى حركاتي ، بحيث تَنْجَلِي الظّلْماء ، ويعودُ بيننا الحربُ سَلْماً وينامُ السـمكُ في المـاء . قالت : لا بُدَّ من أَخْذِ العُهود ، على الوفاءِ بهذه العقود ، وأقلُّهـا المصافحـة ، على المصالحة ، ثم تأكيدُ الأَيْمان ، بخَـالقِ الإنْـسِ والجـان ، ولكـن كيـفَ أصـافيكِ وأنـا طُعْمَتُك ، وأنّى أتخلّصُ من فِيك إذا وضعتَ فيـه لُقْمَتَـك ؟ قـال لهـا : أبرُمِـي هـذا العَلَف ، واربطي به حنكي لِتأمَني التلف ، فأخذت قبضةً من الحشيشِ وَفَتَلَتْ ، وإلى رَبْطِ فكّه أقبلت ، فعندما مَدَّ منقـارَه إلى المـاء ، وقربـت منـه السـمكةُ العميـاء ، لم يَفتَرْ[٦١] أنْ اقتلعَها ثم ابتلعَها .

وإنما أوردتُ هذه اللطيفة ، يا ذا الحركاتِ الظريفة ، لِتَعْلَمَ أنّ قُرْبَنا من العُقَاب ، ألقى بنا أَنفُسنا إلى أَليمِ العِقَاب ، وأين عَزَبَ[٦٢] عنك نُهَـاك[٦٣] ، حتـى تسـعى بنـا إلى عيْنِ الهلاك ، ونحن قوتُ العُقَاب وغذاؤُه ، ولداء جوعه شـفاؤُه ودواؤه ، وهـل يُرْكَنُ إلى العُقَاب ، ويُؤْمَنُ منهُ ضَرْبُ الرِّقَاب ؟ وقد قيل :

أَنفَاسُهُ كَذِبٌ وحَشْوُ ضَميرِهِ ‏ ‏ ‏ دغـلٌ وقُرْبَتُهُ سَقَامُ الـرُّوحِ[٦٤]

---

[٦١] لم يفتر : لم يتوان أو يتأخر .

[٦٢] عزب : بَعُدَ وخَفِيَ وغاب .

[٦٣] نهاك : عقلك .

[٦٤] الدغل : عيب في الأمر يفسـده مثل الخيانة والاغتيال .

وقد قيل :

أنهاكَ لا آلوكَ[٦٥] معذرةً ... عن نومةٍ بين ناب الليث والظفر

قال النجدي : اسلمي ، ياقرينةَ الخيرِ واعْلَمي ، أن الرِّيحَ وقْتَ الربيعِ تكسو أكنافَ الأشجار ، من أنواعِ الأزهار ، ووَجْهَ الصحاري والقفار ، من أنوارِ الأنوار ، ما يُدهشُ البصائرُ ويروقُ الأبصار ، ويُنعشُ الأجسام ، ويشفي الأسقام ، ويبردُ الغليل ، ويبرئُ العليل ، لاسيما وقتُ السَّحر ، ونسيمُ الصَّبا في ضوءِ القمر ، يربي القلْبَ والروح ، ويحيى الصَّبَّ المجروح ، وكذلك المعْرَفَاتِ[٦٦] النَّشر واللواقح ، والمعطراتِ بطيب الروائح ، ودونك قولُ الحقِّ في كلمته ﴿وَمِنْ آياتِهِ أنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ ولِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِه﴾[٦٧] وفي المصيفِ ، الحرور العسيف[٦٨] ، والسُّمُوم[٦٩] العصيف ، المذيب المذيف[٧٠] ، وفي الشتاءِ وأيامِ الخريف ، الصرصر[٧١] المخيف ، يصفّر اللوْن ،ويغيِّرُ الكوْن ، ويعرِّي الأشجار ، ويسقطُ الثمار ، ويُثيرُ الغبار ، وربما كانت إعصاراً فيه نار ، وتسقمُ الصَّحيح ، وتطيِّرُ الهشيمَ في الريح . ومنها الأعجاز[٧٢] الموحشات ، والأيامُ النحسات ،

---

[٦٥] لا آلوك : لا أقصّر ولا أفتر ، بل أبذل جهدى فى تحذيرك . ومن ثم فليس لك عذر فى عدم الانتهاء عن الإلقاء بنفسك إلى التهلكة .

[٦٦] من العَرْف ، وهو الرائحة مطلقا ، وأكثر ما يستعمل فى الطَّيِّبة منها .

[٦٧] قرآن كريم ، سورة الروم : ٤٦ .

[٦٨] الشديد الحرارة ، القوى العنيف .

[٦٩] السموم : ريح السموم الحارقة .

[٧٠] المذيف : الحارق المميت .

[٧١] الصرصر : ريح صرصر : شديدة البرد ..

[٧٢] الأعجاز أو أيام العجوز عند العرب ، سبعة أيام تأتى فى عجز الشتاء ، يشتد فيها البرد ، وهى توافق أربعة من آخر فبراير (شباط) ، وثلاثة من أول مارس (آذار) .

والقواصفُ والعواصف ، والحواصبُ[73] والحراجف[74] ، والصرصر[75] والنكباء[76] ، والزعزع[77] والرخاء . وقد قال فيها العزيز العليم ﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ العَقِيمَ مَاتَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أتتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾[78] .

ثم اعلمي يا ربّة الحَجَال ، وفتنةَ الرجال ، أنَّ النارَ تحرقُ مَنْ يقربها ، وتُذهبُ ما يصحبُها ، وتنشّف الطراوة ، وتشوّه الطلاوة ، وتلتقم ما تجدُه ، وتلتهمُه وتزدردُه ، وتسوِّدُ بدُخَانِها ، وتُؤلم الأجسادَ بقربانها ، وتمحو الآثار ، وتهدمُ الديار ، مع أنها تنضجُ الأطعمةَ وتصلحُ الأغذية ، وتهدي النور ، وتدفي المقرور[79] ، وترشدُ الضال ، في القفارِ رؤوسِ الجبال . قال مَنْ يقولُ للشيْءِ كُنْ فيكون ﴿أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ التي تُورُون ، أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئون ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾[80] وكذلك الماء ، يا ذاتَ الثَّغرِ الأَلْمَى[81] ، يُذهب الظلما ، ويجلب النَّمَا ، ويبرّد الصدور ، ويطفئُ الحرور ، ويُنبتُ الزروع ، ويدرُّ الضروع ، ويحمل المراكب ، وما فيها من مركوبٍ وراكب . قال القادرُ على كلِّ شيّ ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الماءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيّ﴾[82] وإذا طغتْ المياه ، والعياذ بالله ، أغرقتْ المراكب ،

---

[73] الحواصب : الريح الشديدة تحمل التراب والحصباء (صغار الحجارة) .

[74] الحراجف : مفردها حرجف : الرياح الباردة الشديدة الهبوب مع جفاف .

[75] الصرصر : انظر هامش رقم ٦٨ .

[76] النكباء : ريح انحرفت ووقعت بين ريحَيْن :كالصَّبا والشَّمال .

[77] الزعزع ، وجمعها زعازع : الريح الشديدة .

[78] قرآن كريم ، سورة الذاريات : ٤١ ، ٤٢ .

[79] تدفى المقرور : تدفئ مَنْ أصابه البرد .

[80] قرآن كريم ، سورة الواقعة : ٧١ - ٧٣ .

[81] ثغر ألمى : رقيق به سمرة مستحسنة .

[82] قرآن كريم ، سورة الأنبياء : ٣٠ .

وَخَطَفَتْ الرَّاجِل والراكب ، واقتلعتْ الأشجار ، واقتطعتْ الأحجار ، وأتلفتْ الزّروعُ والثمار . وإنْ تراكمَتْ الأمطار ، قطعتْ سُبُلَ الأقطار ، وهدمتْ الديار ، وردَمَتْ الآبار . وسَلْ عن ذلك ملابس[٨٣] الأسفار ، ومجالسَ الرُّتبِ من أهلِ الأمصار . وإذا تكاثف الرَّش[٨٤] ، غرقت مصر وآذى أهلَها العطش ، ونعوذُ باللهِ من هجومِ السيْل ، في ظلام اللَّيْل .

وكذلك الترابُ يازينَ الأحباب ، ينبتُ الحِصْرِمَ[٨٥] والعنب ، والتمرَ والحطب ، والشوكَ والرطب ، ويشرعُ سنانَ الشوكِ المحدد ، وغُصونَ السهمِ المسدّد ، ويربّي الوردَ والأزهار ، والرياحينَ والأنوار ، والأقواتَ والثمار ، والرياضَ النضرة ، والغياض الخضرة . ثمَّ إذا ثار ، وهاج الغبار ، خرج من تحت الحوافر ، فأعمى النواظر ، ففيه الحلْوُ والمرّ ، والزُّوَانُ[٨٦] والبُرّ ، والناعمُ والخشن ، والقبيحُ والحسن . والأرضُ مهادٌ وفراش ، وفيها أسبابُ المعاش ، وهذه المضرّة والمنفعة ، مُرَكَّبَةٌ في هذه العناصرِ الأربعة[٨٧] ، التي هي أصلُ الكائنات ، وَسَنْخُ[٨٨] ما نشاهدُه من المخلوقات .

وإذا كان ذلك كذلك ، وقاكَ اللهُ شَرَّ المهالِك ، وأوضحَ لك أوضحَ المسالك ، فاعْلَمي بالتحقيق ، ياصاحبةَ الثغرِ العقيق ، أن هذا المللكَ الأعظم ، بل كلُّ أولادِ بني

---

(٨٣) ملازم ، كثير السفر بين البلاد .

(٨٤) الرش : المطر .

(٨٥) الحِصْرِم : الثمر قبل أن ينضج ، وحشف كل شيء .

(٨٦) الزوان ، أو الزؤان : عشب ينبت بين أعواد الحنطة غالبا ، حبه مثل حبها إلا أنه أسود أو أصفر ، وهو يخالط (البُرّ) فيكسبه رداءة .

(٨٧) وهى الماء والتراب والنار والهواء ، وقد تحدث المؤلف عنها طيلة الصفحات السابقة .

(٨٨) السَّنْخ : الأصل من كل شيء .

آدم ، مركّبون من الرّضا والغضب ، والحلْمِ والصخب ، والرفعِ والحط ، والقبضِ والبسط ، والقهرِ واللطف ، والظرافةِ والعنف ، والخشونةِ واللين ، والتحريكِ والتسكين ، والبخلِ والسخاء ، والشدّةِ والرخاء ، والوفاء والجفاء ، والكدورة والصفاء . واعْلَمي يا نِعْمَ العوْن ، وقرينةَ الصوْن ، أن هذا الكون ، سروره في شرورِهِ مُنْدَمِج ، وَوُرُودُه في صُدُورِه مُنْدَرِج ، وصفاؤُه مع كدره مُزْدَوَج ، وجفاؤه بوفائه ممتزج . فيمكن أنّ العُقّاب - لكونهِ ملكاً مالكَ الرقاب ، مع وجودِ هيبتِه القاهرة ، وسطوته الباهرة ، وخُلُقِه الشَّرِس ، الصَّعْبِ الشَّكِس[89] - إذا رأى ضعفَنا وذلّنا ، وانكسارَنا وقلّنا ، وترامينا لديه ، وتعوّلنا عليه ، يَضُمُّنا إلى جناحِ عاطفته ، ويُسْبِلُ علينا خَوَافِيَ مرحمته ، ويعاملُنا بالألطاف ، ويسمحُ لنا بالإسعاف ، دوَن الإعساف ، ويعمل بموجب ما قيل :

لِكُلِّ كَرِيمٍ عَادَةٌ يستعدّها　　　وأنْتَ لِكُلِّ المكْرُمَاتِ إمَامُ .

والقادرُ على الكسرِ والجبر ، لاسيّما إذا كان من ذوي النباهةِ والقدر ، لا يعاملُ ذوي الكِسَرِ بالكَسْرِ[90] ، لأنّا في مقامِ الأبناء وَهُوَ في مقامِ الأُبُوَّة ، والتَّقَوِّي على الضعيفِ ضَعْفٌ في القُوَّة ، وقالوا : المصغّر لا يصغّر ، وسجدة السَّهْوِ لا تكرر .

قالت غرغرة ، ذاتُ التبصرة : هذا وإنْ كان ، داخلاً في حَيِّزِ الإمكان ، لكنْ أخاف ، يا ذا الألطاف ، أنّا بمجرّدِ الوقوف ، بين يديه في الصفوف ، لا نُمْهَل لأداء الكلام ، ولا للثباتِ في المقام ، بل نُعَامَلُ بالتمزيقِ والتخريق ، وَنُنْحَرُ بَعْدُ في الطريق ، وتَهْوِى بنا خواطِفُ الطيرِ في مكان سحيق ، فيفوتُنا هذا المطلب ، إذا قيل الطَّبْعُ أَغْلَب ، وهذا إذا وصلنا إليه ، وتمثلنا بين يديه . وأمّا إذا اعترضَنَا دونه

---

[89] شكس : ساء خلقه وعسُر فى معاملته .

[90] لايواجه أصحاب الضعف بالقوة أو العنف .

عارِض ، وجرحنا من جوارحِ الطيرِ مُعَارِض ، ولا حَوْلٌ يحمينا ، ولا قــوّةٌ تُنَجّينـا ، فينتِف ريشُنا كلُّ باغ ، ويتجــاذب لحمَنـا كـلُّ طــاغ . فيصيرُ مثلُنـا مثـلَ النمسِ والزاغ . فسأَل اليعقوب[91] ، تلك الرقُـوب ، كيـف هـذا المثل ؟ أخـبريني ياسـتَّ الحَجَل .

[٤/٩] حكاية النمس والغراب

قالت : كـان في بعضِ البســاتينِ العـاطرة ، والريـاضِ النـاضرة ، مـأوى زاغ[92] ظريف ، حسنِ الشكلِ لطيف ، في رأسِ شجرةٍ عالية ، أغصانُها سـامية ، وقطوفُهـا دانية . فاتفق لِنِمْسٍ[93] من النُّمُوس ، في وكرِه ضررٌ وبوس ، فـانزعج عـن وطنِه ، واحتاج إلى مفارقةِ سكنه ، فقـاده الزمان ، إلى هذا المكان ، فَرَاقَـه منظـرُه ، وشَـاقَهُ نورُه ، وزهرُه ، وأعجبَه ظلُّه وثمرُه ، وأطربَه بخريرِ نهرِه ، فَعَزَمَ على السُّكْنَى فيـه ، وتوطّن إلى أن يتوطّن في نواحيه ، إذْ رآه أحسنَ منزل "وإذا أعشبت فـانزل" ووقـع اختيارُ ذلك الطاغ ، على وكرٍ في أصلِ شجرةِ الزّاغ ، فَسَوَّى له وَكْراً وحُفْرَه ، في أَصلِ تلك الشجرة ، وألقى عصا التسيار ، واستقرت به هناك الدار .

فَلَمَّا رأى الزاغُ هذه الحال ، داخَله الهَمُّ والأَوْجَال[94] ، وخشيَ أن يتـدرّج مـن أدناها ، ويَتَدَحْرَجَ إلى أعلاها ، وينشدُ الأصحاب ، في هذا الباب :

ولَمّا مَضَى الشَّــوْق إلى نَحْـوِ ابي طَـوْق

---

(91) اليعقوب : ذكر الحجل .

(92) الزاغ : من أنواع الغربان ، يقال له الغراب الزرعي ، وغراب الـزرع ، وهـو صغير نحـو الحمامـة ، أسـود ، برأسه غبرة وميل إلى البياض .

(93) النمس : جنس حيوان من الثدييات اللواحم ، بينه وبين الغراب الزرعي عداء غريزي .

(94) الأوجال : المخاوف .

تَـدَحْرَجْـتُ ولكنّـي - مِـنْ تَحْتٍ إلى فَـــوق

فَيصَـلُ إلى وطنه القديم ، ويذيقُـه العذابَ الأليـم ، فليـس لـه خـلاص ، مـن هـذا الاقتناص ، إلاّ مُفَارَقَة الوطـن ، والانزعاج بالتحوّل عـن السـكن ، وكيـف يفـارقُ ذلك النعيم ، يسمحُ بالبعدِ عن الوطنِ القديم ، وهو كما قيل :

بِلاَدٌ بِهَا نِيطَتْ عَلَيَّ تمائمي[٩٥] وأوَّلُ أَرْضٍ مَسَّ جِلْدِي تُرَابَهـا

فَغَلَبَتْ مَحبَّةُ وطنِه على قلبِه ، ولم يطاوعْه على فراقِه لِشِدَّة حبِّه . ثم اعتراه في ذلك الوسواس ، وأخذ يضربُ أخماساً لأسداس ، في وَجْهِ الخلاصِ من هذا الباس ، فرأى المدافعةَ أَوْلى ، والممانعةَ عن جوارحِه لخاطرِه أَجْلى . ثم افتكـر في كيفيّـةِ المدافعـة ، وسلوكِ طريقِ الممانعة ، فلم يـرَ أَوْفَـقَ مـن المُصَانعـة ، وتعـاطِي أسبابِ المخادَعَـة ، ليقفَ بذلك أوّلاً على حقيقةِ أمرِه ، ويعرفَ معيارَ خيرِه وشرِّه ، ويصـلَ إلى مقـدارِ قُوَّتِه وضعفه ، ورصانةِ عقلِه وفهمِه وسخفِه ، ويسبر حَالَتَيْ غضبه ورضاه ، ويدركَ غَوْرَ أحوالِه ومنتهاه ، ثم يبنى على ذلك أسـاسَ دَفْعِـه ، وهَـدَمَ مـا يبنيـه مـن قلعتِـه لقلعـه .

فهبط إلى النِّمْسِ من الهواء ، وحفظ شيئاً وغابت عنه أشياء ، وسلّم عليـه سـلامَ المحبِّ على الحبيب ، وجلس منه بمكانٍ قريب ، وخاطبه خطابَ نـاصحٍ لا مريـب ، وابتهج بجواره ، واستأنس بقرب داره ، وذكر له أنـه كـان وحيـدا ، وعـن الجليسِ الصالحِ والأنيسِ الناصحِ فريدا ، وقد حصلَ له الأُنس ، بمجاورةِ النمس ، وإنه صدق مَن قال في هذا المقال :

انْفِـرَادُ المَـرْءِ خَيْـرٌ مِنْ جليسِ السُّوءِ عِنْـدَه
وَجَلِيسُ الخَيْرِ خَيْـرٌ مِنْ جُلُوسِ المَرْءِ وَحْـدَه

---

[٩٥] نيطت التمائم عليه فى مسقط رأسه : كناية عن تربيته ونشأته هناك منذ كان طفلاً رضيعا فصغيرا حتى كـبر واستقر به .

فاستمع النمسُ حديثَ الزاغ ، وما طغى بصرُ بصيرته عن مكائدِه وما زاغ . ثم افتكرَ في نفسه ، ونظرَ في مرآةِ حَدْسِه ، فرأى أن هذا الطيرَ بخُبْثِ السيرةِ مَشْهُور ، وبسُوءِ السَّرِيرةِ مَذْكُور ، لا أصلُهُ ذكي ، ولا فرعُه عليّ ، ولا غائلتُهُ مأمونـة ، ولا صحبتُه ميمونة ، ولا خيرٌ عنده ولا مَيْر ، بل يُخشى منهُ الضررُ والضير ، وكأنهُ فيه قيل :

وَهوُ غُرَابُ البَيْنِ في شُؤْمِهِ   لكنْ إذا جِئْنَا إلى الحَقّ زَاغ

ولم يكنْ بيننا وبينه قطُّ عَلاقة ، ولا واسطةُ محبةٍ ولا صداقة . وأما العَداوةُ فإنّها مُسْتَحْكَمَة ، وكلٌّ مِنّا للآخَرِ مأْكَلَةٌ ومَطْمَعَة ، ولا أشُكُّ أنه إنما قصد ، طريقةَ سُوءٍ ومكيدةَ نَكَد ، فإنْ أضَعْتُ فيه الفرصة ، أطَلْتُ الغُصَّة ، ووقعتُ من الندامة في قصّةٍ وحصّة ، ولا يفيدني إذ ذاك الندم ، أنّى وقد فات المطلوبُ وَزَلّتْ القدَم :

* وأَحْزَمُ الحَزْمِ سُوءُ الظَّنِّ بالنّاسِ *

فالذي يقتضيه الحزم ، والرأيُ السديدُ والعزم ، القَبْضَ عليه ، إلى أنْ يظهرَ ما لديه ، ثم وَثَبَ من مرضِه ، وأنشبَ في الزاغِ مخاليبَ مِقْبَضِه ، وقَبَضَه قَبْضَةَ أعْمَى ، لا كالقابضِ على الما[96] .

فلما رأى الزاغُ هذا النكد ، وأنه قد صارَ كالفريسةِ في مخاليبِ الأسد ، ناداه يا كريمَ الخير ، ويا أيُّها الجارُ الحليمُ عن الضير ، أنا رغبْتُ في مصادقتِك ، وجئتُك مُحِبًّا في موافقتِك ومرافقتِك ، وأردْتُ إزَالةَ وَحْشَتِك ، ومؤانستك بإبعادِ دهشتك ، وحاشاك أنْ تُخيِّبَ ظَنّي فيك ، وتعاملَ بالجفاء مَنْ يوافيك ، وأنشده :

وَحَاشَاكَ أنْ تَمْشِي بِوَجْهِكَ مُعْرِضاً   وَمَا يَحْسُنُ الإعْرَاضُ عَنْ وَجْهِكَ الحَسَن

---

[96] الما : الماء .

والكرامُ لا يعامِلون الجُلساء ، إلاّ بالمؤانسةِ وحُسْنِ الوفاء ، والإبقاءِ على خير .
وأَبْعِدْ مِن الضَّيْر ، وأنا قد صِرْتُ جليسَك ، وجارَك وأنيسَك ، وقد قيل :

وَكُنْتُ جَلِيسَ قَعْقَاعِ بنِ شَبور وَلاَ يَشْقَى لِقَعْقَاعٍ جَلِيسُ

مع أنهُ لم يسبقْ منِّي سببُ عداوة ، ولا ما يوجبُ هذه الفظاظةَ والقساوة ، وهذه أَوّلُ نَظْرَة ، فما موجبُ هذه البَذْرَة ، وما سبب هذه النَّفْرَة ؟

قال النِّمْس : أيُّها الزاغ ، الكثيرُ الرّواغ ، والنحسَ باغ ، والنجسَ طاغ ، اسمُك ناطق ، إنّكَ مُنافق ، وهو خَبَرٌ صادِق ، إذْ هو في الخارجِ للواقعِ مُطابِق ، ورؤيتُك شاهدة ، أنَّك تنقضُ المعاهدة ، وعينُ منظرِك ، دالٌّ على مخبرِك ، وقد قيل :

والعَيْنُ تَعْرِفُ مِنْ عَيْنَيْ مُحَدِّثِها إنْ كانَ من حِزْبِها أَمْ مِنْ أَعَادِيها

من أينَ بيننا صداقة ؟ ومتى كان بين النمُّوُسِ والزاغِ عَلاقة ؟ وكيف تنعقد بيننا صحابة ؟ وأنّي يتصل لنا مودةٌ أو قرابة ؟ بيِّنْ لي كيفيةَ هذا السبب ، ومن أين هذا الإخاءُ والنسب ؟ أمّا أنت فلي طُعْمَة ، وأمّا أنا فَلَحْمِي لِسَدٌ غِذائِك لُحْمَة ، يسوءُني ما يَسُرُّك ، وينفعُني ما يضرُّك :

الله يَعْلَمُ أنّا لا نُحِبُّكُمُ وَلاَ نَلُومُكُمُ إنْ لا تُحِبُّونَا

أنا واقفٌ على ما في ضميرِك ، وعالمٌ بسوءِ فكرِك وتدبيرِك ، قد اطلعتُ منك على الهواجِس ، كما اطّلَع ذلك الماشِي على ما في خاطرِ ذلك الفارس . قال الزاغ : بيِّنْ لي بِلاَ جَدَل ، كيف هو هذا المَثَل ؟

[٥/٩] قصة الفارس والراجل

قـال النمس : ذكـر رواةُ الأخبـار ، ونقلةُ الآثـار ، أنّـهُ تَـرَافَـقَ في بـعـضِ السَّبَاسِب[٩٧] ، راجلٌ وراكب ، وكان مع الراجلِ من البضائعِ رُزْمَة ، وقـد جعلهـا كَارَة[٩٨] وحَزَمها أوثقَ حزمـة ، وقـد أعيـاه حَمْلُهـا ، حتـى أعجـزَه نقلُهـا . فقـال للراكب ، أيُّها الرفيقُ الصاحب ، لو ساعدتني ساعة ، بحِمْلِ هذه البضاعـة ، لكنـتَ أرحتني ، ونَفَّسْتَ عنّي وشَرَحْتَني :

كَـذِي المجدِ يَـحْـمِـلُ أثْقَالَهُ قويُّ العِظَامِ حَمُول الكَـلَـف

قـال الفارس لا أُكِلُّ فرسـي ، ولا أُتَعِّـبُ نَفْسـي ، فـإنّ مَرْكُوبـي لم يقطـع البارحـةَ عليقَه ، وأنا خائفٌ أنْ لا يقطعَ بـي طريقَـه ، وإذا خفـتُ تخلّفـي في سـيري ، فـإنّي أتكلّفُ حَمْلَ أثقالِ غيري . فبينمـا همـا في هـذا الكـلام ، إذْ لاحَ أرنـبٌ في بعضِ الآكام ، فأَطْلَقَ العَنَانَ وراءَ الأرنب ، وذهب وراءها كرأي الزنادقةِ كـلَّ مذهـب ، فوجدَ فرسَهُ قويةَ النهضة ، سريعةَ الركضة ، فرأى أنه أضاعَ حَزْمَه ، في عدمِ أخْـذِهِ الرُّزْمَة ، وما ضرّه لو أخذَهـا وسـاق[٩٩] ، وذهـب إلى بعـضِ الآفـاق ، وأقـام بهـا أَوَدَه ، وانتفع بها وولَدَه ، وتركَ الماشي ، بَلاَ شيِ ، ثم رجـع بهـذه النِّيَّـةِ الضـارّة ، ليحملَ عن الماشي الكارة ، وقال له : أعطـني هــذا الحِمْـل المتعـب ، لأريحَـك مـن حَمْله في هذا المذهب ، وابلغْ ريقَك ، واقطعْ طريقَك . فقال له : قد علمْـتُ بتلـك النِّيَّة ، وما أضمرتَ من بليّة ، فاتْرُكْني بحالي ، فلي حاجةٌ بمالي . ثم إنَّ النِّمْسَ كَسَرَ الزَّاغَ وحصل لهُ بأَكْلِه الفراغ .

---

[٩٧] السباسب : المفازات ، الصحارى الشاسعة .

[٩٨] الكارة : ما يجمع ويشدّ ويحمل على الظهر من طعام وثياب وأغراض أخرى .

[٩٩] خطفها وهرب .

وإنما أوردتُ هذا المثال ، لتعلمَ يا فحلَ الرجال ، أن العُقَابَ لا يؤمن ، ولا يقطع فيه بالظّنّ الحسن ، ولا يركنُ إلى خطفِة بَوارِقه[100] ، بمخاليبِ صَواقِعِه[101] وصَواعِقِه ، ولا إلى غوائِله وبوائقِه ، وهذا إنْ سَلِمَتْ شُقّةُ حياتِنا من تَشْقيقِ غواشيه[102] ، وتخلّصَ بُرْدُ[103] وجودِنا من تمزيقِ حواشيه . وإنَّ بينك وبين هذا المراد ، خَرْطَ القتاد ، والموانعَ التي هي دون سُعاد ، فما الوصولُ إلى ملكِ الطير ، قريب التناولِ في السير ، ولا سَهْل المأخَذ ، ولا سريع المنفذ ، وأين الحَجَل من العُقَاب ، ذاك في نعائمِ النعيم.وهذا في عِقَاب العِقَاب ، فَتَدَبَّرْ عاقبةَ هذا الأمرْ ، وتَأَمَّلْ في الفَرْقِ بين التمْر والجمْر . والظاهرُ عندي ، وما أدّى اليه فكْري وجُهدي ، أنَّ عاقبةَ هذه الأمور ، ليس إلا القطوعَ والقصور ، دون الوصول ، إلى الملكِ في القصور . قال الذكر : لقد كررتُ عليك مرارا ، وأسندتُ إلى سمعِك إنشاءً واخبارا : انّ عُلُوَّ هِمَّةِ هذا الملك ، وفضلَه الخالي عن شرك ، وكرمَ نِجَارِه[104] ، وأَمْن خادِمه وجارِه ، وفَيْضَ إحسانِه ، وبَسْطَ كرمِه وامتنانه ، وانتشارَ صيتَ حشمتِه ، واشتهارَ رأفتِه ورحمته ، لا يقتضي حرمانَ مَنْ قَصَدَه ، وأَمَّ جنابَه واعتمدَه ، ولجأَ إلى جناحِ عاطفته ، وتشبَّثَ بذيْلِ ملاطفته ، وحاشاه أنْ يَصِمَ مَصُونَ هِمَّتِه بابتذالِ دناءة ، ويُشَوِّه جمالَ وفائه ، لِمن تَرَقّقَ لهُ بنكتة جفاءٍ تخيِّبُ رجاءه ، خُصوصاً إذا رأى منّي خضوعَ العبوديّة ، والقيامَ بمراسيمِ الخدماتِ الأدبية ، والمقامَ بمراكزَ مرضية ، والوقوفَ عند كُلِّ ما يعجبه ويرضيه ، فإنّي بحمدِ

---

[100] البوارق : مفردها بارقة وهي التهديد والوعيد .

[101] الصواقع : أصوات التهديد والقتل عند الحيوان والطير .

[102] غواشيه : المحيطون به ممن يغشون مجلسه .

[103] البُرْد : الثوب الخارجي .

[104] النِّجَار : الأصل .

اللهِ تعالى أعرفُ مداخلَ الأمورِ ومخارجَها ، وعندي الاستعدادُ الكاملُ لصعودِ معارِجها ، وأَعْلَمُ طُرقَ المجاز إلى حقائقها ، وسلوكَ دروبِها وطرائقها ، فالأَوْلَى أَنْ نقتصرَ عن المحاروة ، ونكتفي بهذه المساورة[١٠٥] في المشاورة ، ونَتَوكّلَ على مُقَلِّبِ القُلوب ، ونتوجّه نحو هذا المطلوب ، بعزمٍ شديد ، وحزمٍ سديد ، فإنْ تَيَسَّرَ لي ملاقاةُ حضرتِه ، والتَمَثُّلُ في مراكزِ خدمته ، وحصلَتْ لي مشاهدتُه ، واتفقَتْ مخاطبتُه ومعاهدتُه ، أنشأتُ خطبةً تدفعُ الخطوب ، وتجمعُ القلوب ، وتؤلّفُ بين المحبِّ والمحبوب ، وأرجو أنْ تكونَ نافعة ، لمصالحِ الدينِ والدنيا جامعة ، فإنَّ كلامي ، في مقامي ، كما قيل في المثل :

فَأَوْجَزَ لكنّهُ لا يخلّ واطنَبَ لكنّهُ لا يملّ

وآخرَ الأمرِ سلَّمَتْ غرغرةُ زِمَامَ انقيادِها إليه ، وعَوَّلَتْ في عملِ المصالحِ عليه . ثم قالتْ : له عشْ واسمْ ، وتَيَقَّنْ واعلمْ ، أنّك إذا قصدتَ خدمةَ الملوك ، وأردتَ في طريقِ مصالحِتِهم السلوك ، فإنّكَ مُحتاج ، في ذلك المنهاج ، إلى نور وسراج ، يهديك إلى صفاتٍ جميلة ، وتلبّسٍ بخصائلَ نبيلة ، تتحلّى بجمالها ، وتتعلّى بكمالها ، وتتجلّى في شمائلِ جلالها :

الأُولى : أنْ تُقَدِّمَ في جميعِ مصادِرك وموارِدِك ، مُرادَ الملكِ على جميعِ مقاصدك . الثانية : أنْ تتلقى أمورَه بالتعظيم ، وتقيمَ أوامرَه بالاحترامِ والتفخيم . الثالثة : أنْ تُحسِّنَ أقوالَه ، وتزيِّنَ أفعالَه ، بوجهٍ لا يتطرقُ إليه تَشْويه ، ولا يحتاجُ فيه إلى تنبيه . الرابعة : أنْ تجتهدَ في صيانة عِرْضِكَ عن الخنا ، وإياك أن تقولَ في حضرته أنا ، فتقع في العنا . الخامسة : أنْ تعدَّ على الدوامِ ، ومرور الأيام ، خدماتِك الوافرة ، وحقوقَك المتكاثرة ، عن حقوقِ نِعَمِه قاصرة . السادسة : إذا وقعتْ منك زَلّةٌ ، فلا

[١٠٥] المساورة : المجادلة .

تتعدَّ بها جَمْعَ القِلّة ، بل اطلبْ لتلك الهفـوة ، في الحـال مَحْـوَه ، واقصـدْ مَراحِمـه وعفوَه ، فإنَّ الذنوبَ إذا تراكمتْ ، وتجمّعتْ وتزاحمتْ ، أشـبهت المزبلـةَ المدمنـة ، وفاحتْ روائحُهـا المنتنـة ، والإنسـانُ غـيرُ معصـوم ، والآدميُّ بالخطـأ موسـوم . السابعة : احفظْ وَجْهَك في حضرته عـن التقطيب ، وكلامَـك أنْ يفـوحَ منـه غـيرُ الطيب . الثامنة : إيّاك ومصادقةَ أعدائِـه ، ومعـاداةَ أوليائِـه . التاسـعة : كُلّمـا زادَك رفعةً وتقريبا ، مِلْ إلى التواضعِ وإعظامِه تَصْوِيبا . العاشرة : لا تَدَّخِرْ عنه نصيحـة ، وأنصحْه في الخَلْوَةِ لِئلاّ يؤدّي إلى الفضيحة ، وإذا أقـامَك في أمْـر ، ولـو أنـه المشـيُ على الجمْر ، لا تطلُبْ منه أجرا ، ولا تُبْدِ لذلك ذكرا ، فإنّ الطمعَ يورِّثُ العقوق ، والمَنَّ يُسَوِّدُ وَجْهَ الحقوق .

واعلـمْ أنّ حضرةَ الملوكِ عظيمة ، ومجالسَهم جسيمة ، تَنَزَّه عـن الكـذبِ والغيبـةِ والنميمـة ، والأقـوالِ الوخيمـة ، والأفعـالِ الذميمـة . وإيّـاكَ أنْ تتعـدَّى القواعـدِ الكسرويـة ، وتتخطّـى القوانـينَ السـلطانية ، فـإنّ أعظمَهـا كـان ، أنْ يعـرفَ كـلُّ إنسـان ، تقصيرَ نفسِه في خدمةِ مخدومه ، ويعترفَ له من إحسـانِه بعمومِـه ، ويقيـمَ واجبَ هِمَّة ملكِه ومقامَ مرسـومه . قـال النجـدي ، أخـبريني يـا دعـدي ، وحظّـي وسعْدي ، وابنةَ السعْدي ، ومزينةَ القواعد ، بشيءٍ من تلكَ القواعد .

قالت من القواعد الكسروية ، الدائـرةِ بـين البريـة ، مـا وضعهـا بعـضُ الملـوك ، وحمل رَعِيَّتَه فيها على السلـوك ، وكـان مشهـوراً بالعـدْلِ والإحسـان ، مذكـوراً بإقامةِ البرهان ، مُتّصِفاً بالصفاتِ الحميدة ، مُكْتَنِفاً بالشمائلِ السـعيدة ، مـن الدِّيـنِ والعفّة ، وعدمِ الطيشِ والخفّة ، بعقلٍ راجحِ الكفّة ، والعلمِ الوافر ، والحلمِ العاطر ، وذلك أنهُ في بعضِ الأيام ، أمَرَ أنْ يجتمعَ الخواصُّ والعـوام ، مـا بـين أمـيرٍ ووزيـر ، وكبـيرٍ وصغـير ، وغـنيٍ وفقـير ، وجليـلٍ وحقـير ، وعـالمٍ وجـاهل ، ومفضـولٍ

وفاضل ، ومذكورٍ وخامل ، وناظرٍ وعامل ، وحالٍ وعاطل ، وحاكمٍ وقاض ، وساخطٍ وراض ، وجنديٍ وتَبَع ، وأخرقٍ وصَنَع[١٠٦] ، ووضيعٍ وشريف ، ولطيفٍ وكثيف ، وثقيلٍ وخفيف ، وقريبٍ وبعيد ، ومقبولٍ وطريد ، وشقيٍ وسعيد ، وسوقةٍ وتاجر ، وسفيهٍ وفاجر ، ودانٍ وقاص ، وطائعٍ وعاص ، وصالحٍ وطالح ، وضاحكٍ وكالح ، ومصيبٍ ومخطئ ، ومسرعٍ ومبطئ ، وصيادٍ وملاح ، وسياحٍ وسباح ، وبلديٍّ وفلاح ، ومسلكٍ وسالك ومملوكٍ ومالك ، بحيث لا يتخلّفُ عن الحضور أحد ، ولا يجزي في التقاعد والدٌ عن وَلَد . ثم مهّد لهم في روضٍ أريض ، ومرجٍ طويلٍ عريض ، تصفّقُ مياهُ أنهارِه طَرَبا ، وتتناغى بأطيبِ الألحان فُصَحاءُ أطيارِه الخُطَبا[١٠٧] ، وتتراقصُ بزهرِ الوقتِ أغصانُ أشجارِه ، ويَلْتَذُّ بفواكِهِ الجنانِ جاني ثمارِه ، فهو كما قيل :

يَلْتَذُّ جَانِيهِ بأنْعَم مُقْطَفٍ	منهُ وساكِنُهُ بأكرَم معطَفِ
والوُرْقُ بَيْنَ مُحَلِّقٍ في جَوِّهِ	طَرَبًا ومُنْحَطٌّ عليهِ مرفرفِ

وأمرَ بفرشِ ذلك المكان ، بالفُرُشِ الحسان ، من الديباجِ والحرير ، وأطلق مجامرَ الندِّ[١٠٨] والعبير ، وبين لكلٍّ مقاماً معلوما ، ومجلساً مقسوما ، وأحَلَّ كلاًّ منهم محلّه ، وأسبغَ عليهم ذَيْلَ إحسانه وظلّه . ثم أمرَ بأنواعِ الأطعمةِ المفتخرة ، وأصنافِ الملاذِّ الطيبةِ العطرة ، فأُحْضِرَتْ في أوانِي الفضَّةِ والنُّضَار ، ووُضِعَتْ بين يَدَيْ أولئك الحُضّار ، بحيثُ ، عَمَّت الجميع ، ووَسِعَتْ الشريفَ والوضيع ، وجلس الملكُ في مجلسِ السلطنة ، واكتنفه من العساكرِ الميْسَرَةُ والميمنة ، وأخذَ كُلٌّ مكانَه ، ورتّبَ أصحابَه وأعوانَه . ثم أقام عليهم أربابَ الديوان ، وأدخل جميعَهم في دفاترِ

---

[١٠٦] الصَّنَعُ : البليغ الماهر .

[١٠٧] الخطبا : مخفف الخطباء .

[١٠٨] مجامر الندّ : مباخر النار التى يوضع فيها الندّ ، وهو ضرب من الشجر يتبخر بعوده ويتطيّب به .

الحسبان ، وأمر مناديا سيدا ، يرفعُ بصوتِه النِّدَا ، في ذلك الجمْع ، بحيث شملَه من الجميعِ النظرُ والسَّمْع :

يا أَهْلَ هذا المكان ، برزَ مرسومُ السلطان ، إنَّ كُلَّ مَنْ هو في مرتبة ، من مرضَاةٍ أو معتبة ، لا يلاحظُ مَنْ فوقَه ، ولو أنهُ من أميرٍ أو سوقه ، بل يلاحظُ حالَ مَنْ هو دونَه ، فائزةً كانت منزلتُه أو مغبونَة ، فـإنَّ ذلـك أجمـعُ للقلوب ، وأدعى للشُّكرِ المطلوب ، وأجلبُ للرضا ، بحوادثِ القضا ، فإنَّ مَـنْ رأى نفسَه في مقـام ، ونظرَ غيرَه في أدنَى من ذلك المقامِ استقام ، وكانت عندَه منزلتُه عَلِيَّة ، وعُـدَّ لنفسِه على غيرِه مزيَّة ، فَتَوَطَّنَتْ نفسُه على الرضا ، واستقبلت بالشكر وارد القضا . مثالُ ذلك الرئيسُ النازلُ في الصَّدْر ، إذا رأى مَن هو دونهُ في القَدْر ، لم يشُكّ في أَنَّ محلَّه محـلُّ البدْر ، وباقي الرؤساءِ كالنجوم ، فلا يأخذُه لذلك وُجُوم ، وقد قال الحيُّ القيوم ، في دُرِّ كلامِه المنظوم ﴿وَمَا مِنَّا إلاّ لَهُ مَقَامٌ مَعْلُوم﴾[١٠٩] وكذلك النائب بالنسبةِ إلى الحاجب ، والدوادار[١١٠] بالنسبة إلى البزدار[١١١] ، والخزنـدار[١١٢] بالنسبة الى جابي[١١٣] الدراهم والدينار ، والمهتار[١١٤] بالنظر إلى السائس والبرقدار[١١٥] ،

---

[١٠٩] قرآن كريم ، سورة الصافات : ١٦٤ .

[١١٠] الدوادار : هو الذى يحمل دواة السلطان ، ويقوم بنقل الرسائل والمكاتبات عن السلطان وإليه .

[١١١] البزدار أو البازدار : هو الذى يحمل الطيور الجوارح المعدّة للصيد على يده ، مثل الباز والصقر والشاهين .

[١١٢] الخزندار : وهو كاتب يتولى خزن الغلاّت وصرفها ، وهو أيضا الذى يتولى أعمال خزانة السلطان من مال وغلال .

[١١٣] الجابى : جامع الخراج أو المكوس .

[١١٤] المهتار : كل طائفة من غلمان البيوت ، مثل مهتار الشراب خاناه وغيره .

[١١٥] البرقدار : لفظ تركى بمعنى العلم أو الراية ، والبيرقدار هو حامل البيرق .

وكذلك السائسُ بالنسبة إلى الحارس ، وكاتبُ السر المرتقع ، بالنسبةِ إلى المدبّرِ[١١٦] والموقّع[١١٧] ، والزِّمَامُ[١١٨] بالنظرِ إلى سائرِ الخدام . وأيضاً القاضي مع الفقيه ، والفقيهُ مع التاجرِ النبيه ، والتاجرُ مع السوقيِّ السفيه ، والغنيُّ والأمير ، بالنسبةِ إلى المأمورِ والفقير ، وعلى هذا القياس ، أوضاعُ جميعِ الناس ، من أربابِ الصنائع ، وجُلاّبِ البضائع ، وأهلِ المدنِ والقرى وذوي البيعِ والشرا ، والوَهْدِ والذُّرا ، وأولي الوضاعةِ والشرف ، من أنواعِ المكتسباتِ والحِرَف ، إلى أن ينزلوا في المراتب ، ويتدحرجُوا من اليفاعِ إلى الحضيضِ في المناصب ، ويتعاونوا في المناصبِ والمناقب ، ويصِل قَدْرُهم ونظرُهم في ذلك ، إلى كلِّ ذي فعلٍ سيِّءٍ حالك ، كأربابِ العظائم ، وأصحابِ الذنوبِ والجرائم ، فينظرُ المعتوبُ حالَه بالنسبة إلى المضروب ، والمشتومُ حالَه بالقياسِ إلى حالِ المكْلُوم ، والصحيحُ بالنسبةِ إلى حالِ الجريح ، ويلاحِظُ مضروبُ العَصي حالَ المسلوخِ بالمقارع ، ومضروبُ المقارعِ أحوالَ مقطوعِ الأكارع ، وكذلك المقطوعُ بالنسبةِ إلى مصلوبِ الجذوع ، والمصابُ بالمالِ بالنسبة إلى مُصَاب البَدَن ، والأعرجُ بالنسبة إلى المُقْعَدِ المزْمَنْ ، وكذلك العُورَان بالنظر إلى مصاب العميان ، وليتأمّلْ الناظر ، ما قاله في ذلك الشاعر :

سَمِعْتُ أعْمَى مرةً قائِلا ... يا قَوْمُ ما أصعب فَقْدَ البَصَر
أَجَابَه أعْوَرٌ مِنْ خَلْفِهِ ... عندي من ذلك نِصْفُ الخَبَر

---

[١١٦] المدبّر : هو الذى ينظر فى الأمر ويتدبر عاقبته ، وهو من ألقاب الوزراء وكتاب السرّ . مثل مدبر أمور السلطنة ، ومدبر الجيوش ، ومدبر الدولة ، ومدبر الملك .

[١١٧] الموقّع : هو الذى يكتب المكاتبات والولايات فى ديوان الإنشاء السلطانى ، ويعرف باسم كاتب الدّرج .

[١١٨] الزمام أو الزمام دار : لقب للذى يتحدث على باب ستارة السلطان من الخدام والخصيان . وهو أيضا الذى يتولى إدارة خدام القصر والإشراف على أعمالهم .

وَلِتَكُنْ هذه القواعد ، مستمرةَ العوائد ، بين الصادرِ والوارد ، لِيُعْلَمَ أن مصائبَ قومٍ عند قومٍ فوائد ، فاستمرت هذه القوانينُ مستعملة ، غَيْر منسيّةٍ ولا مُهْمَلَة ، من زمانِ ذلك السلطان ، إلى هذا الزمان . وانظرْ أيها الفضيل ، إلى معنى ما قيل ، في هذا القبيل ، وهو :

عَلَى كُلِّ حالٍ ينبغي الشُّكْرُ للفتى   فَكَمْ مِنْ شرورٍ عن سرورٍ تَجَلَّت
وَكَمْ نِقْمَةٍ عندَ القياسِ بغيرِها   تُرَى نعمةً فاشْكُرْ لَدَى كُلِّ نِقْمَة

وإنما أُوردتُ هذه الأمثال ، وأطلتُ النَّفَس في بيانِ هذه الأحوال ، لتأخذَ منها حظَّك ، وتكرّرَها فيما أُودعتَه حفظَك ، وتجري بها ليلاً ونهاراً لفظَك ، حتى تصلحَ لمنادمةِ الملك ، ولا يعلقُ بذيلِ مكانتِك من الحسَّادِ مُرْتبك ، وترضَى بأيِّ مقامٍ أقامَك فيه ، وتعلمُ أنه أعْلى مقامٍ ترتضيه ، حيث هو لك يرتضيه ، وتجعلُ موردَ لسانك ، ومقعدَ جنانِك ، في طلبِك رضاه ، ما كُنْتُ أنشدتُك إياه ، من قديم الزمان ، وأنا عليه الآن وهو :

وأعْلَى مقامَاتِي وأسْنَى وظائِفِي   وأحْسَنُ أسمائي الذي أنتَ تَرْضَاهُ

فقال الذَّكَر ، ما أحسنَ عقْدَ هذه الدُّرَر ، لقد أفصحتِ إذ نصحتِ ، وزَيَّنْتِ بما بينتِ ، فَجَزاكِ اللهُ خيرا ، وكفاكِ ضيرا ، فحقيقٌ عَلَيَّ أن أقتدي بآثارك ، وأهتدي بأنوارك ، فما أَرْجَحَ ميزانَك ، وأغزَرَ حُسْنَك وإحسانَك ، لقد جمعتِ بين فصاحةِ النقل ، ورجاحةِ العقل ومزجتِ روحَ الحصافة ، ببدنِ الظرافة ، وجلوتِ صورةَ النصيحةِ في خِلْعَةِ اللطافة .

ثم إنهما تَوَكَّلا على العزيزِ الوهابِ ، وقصدا حضرةَ ملكِ الطيرِ العُقَاب ، فواصلا السيْرَ بالسُّرَى ، واستبدلا السَّهَرَ بالكَرَى ، ولم يزالا في سيرٍ مجد ، وطلبٍ مكدّ ، بين الادلاج والدَّلجةِ مقارن ، حتى وصلا إلى جبل قَارن ، وكان عند

العُقَـاب ، أحـدُ المقرَّبـين مـن الحُجَّـاب ، يُؤيُـؤ[١١٩] نقـيُّ الجؤْجُـؤ[١٢٠] ، تقـيُّ البؤبؤ[١٢١] ، أَحسنُ منظراً من اللؤلؤ ، صورتُه مسعودَة ، وسيرته محمودَة ، وهو بَيْنَ أولئك الطير ، مشكورُ الأحوالِ مشهورُ الخير ، وفيه مـن المعرفـةِ والديـن ، والعقـل الرصين ، والرأي المتين ، مـا يصلحُ أن يكونَ بـه مُقْتـدى السـلاطين ، وعنـده مـن الوقوفِ على دقائقِ الأمور ، ما فاقَ به الجمهـور ، وسـاد بـه علـى سـائرِ الطيـور ، وكان صيتُه قد اشتُهر ، حتى ملأ البدْوَ والحضَر . فترك النجديّ ، بنـتَ السـعديّ ، في مكان ، وقصد اليؤيؤَ ليعرضَ عليه ما له من شان ، فوصل إلى جنابه ، وأتى بَيْتَ مقصدِه من بابه ، حتى دخل عليه ، وقبلّ يديـه ، وتمثل لديه ، فتوجـه اليؤيـؤُ إليـه ، وأشار بتقريبـه منـه ، وأزال دواعـيَ الوحشـةِ عنـه ، وأقبـل عليـه بكُلِّيتـه ، وزاد في إكرامِـه وتحيتـه ، وسـأله عـن مَحْتَـدِه[١٢٢] وجُرْثومـة[١٢٣] ، ومـا سـببُ تجشُّمِه في قدومِه ، ومن أين حَلَّ ركابُه ، وما قصدُه وطلابه ؟ فأنشده بديها ، ولم يقُلْ إيهـا ، مفصِحاً معلِنا ، مستعيناً مضمِّنا :

لَقَدْ قَصَّ ريشي الدَّهْرُ عَنْ كُلِّ مَطْلَبِ ... وأَلْهَمني سَـعْـدِي بِأنَّكَ رائِـشُ

فَفِـي سَـمَري مَـدٌّ كَـهَـجْرِكِ مُفْرِطٌ ... وفي قِصَّتي طُـولٌ كَـصَدِّكَ فَاحِشُ

ثم قال : اعلمْ أيها الرئيـس ، المحتشـمُ النفيـس ، أن مولـدي في جبـلٍ مـن جبـال آذربيجان[١٢٤] ، في مكان يُضاهي الجنان ، ويباهي روضة رضوان ، أَنْزَهُ من عنصـرِ الشـباب ، وأَفْكَهُ من معاقرةِ الأتـراب ، وأرْفـهُ مـن منادمـةِ الأحبـاب ، علـى رفيـقِ

---

[١١٩] اليؤيؤ : طائر من جوارح الطير ، كالباشق ، وهو طائر صغير قصير الذنب .

[١٢٠] الجؤجؤ : الصدر .

[١٢١] البؤبؤ : الأصل . وأيضا : إنسان العيْن والمعنيان جائزان ، على سبيل المجاز .

[١٢٢] المحتد : الأصل .

[١٢٣] جرثومه : أصله .

[١٢٤] آذربيجان : منطقة فى إيران على حدود القوقاس وروسيا وتركيا والعراق .

الشراب ، نشأتُ فيه مع قرينة ، جميلةٍ أمينة ، فقضيتُ فيه غض[١٢٥] العمر ، وزجيتُ فيهِ بَضّ الدّهر[١٢٦] ، قانعاً بما تَيَسَّرَ من الرزْق ، فارغاً عمّا في أيدي الخلْق ، متمسكاً بذيل العزْلَة ، أعدُّ الانفراد نعمةً جزْلَة ، مكرراً دَرْسَ : ثلاثة تَجمُّ النفس ، القرينةُ الصالحة ، والجارُ المؤنس ، والكفافُ من القوت ، ومما كنت أنشدت ، وفي مبدأ أمري أرشدت :

وَحَسْبُ الفتى قُوتٌ وخِلٌ وزَوْجَةٌ ليرتاحَ في الدنيا ويَكْتَسِبَ الأُخرى

وكنتُ من الدّهرِ على هذا اقتصرت ، ومن لذيذِ العيشِ على القناعةِ اختصرت ، ولكنْ كان مأوانا ، ومصيفُنا ومشتانا ، محلَّ الحوادث ، وممرَّ العوائث والعوابث[١٢٧] ، ومَعْبَراً لمصائبِ الصيد ، ومورداً لمواطئ عمرٍو وزيد . فَكُنّا كُلّمَا وُلِدَ لنا مَوْلود ، وتجدَّدَ لنا بالبهجةِ والابتهاجِ عُهُود ، وحصلَ للعينِ قُرّة[١٢٨] ، وللرّوحِ مَسَرّة ، نقولُ هذا يُبقي ذكرَنا بعدَنا ، ويحيي آثارَنا عند حلولِنا لحدَنا[١٢٩] ، فَلَمْ يكُنْ أَسْرَعُ من هجومٍ خاطف ، أو هبوبِ ريحِ نكبةٍ عاصف ، يخطفُه من بيننا ، ويجذبُه من قلبنا وَعَيْنِنَا ، فإنْ سَلِمَ من تلك المكائد ، وتخلّص من سهمِ المصائبِ والمصائد ، حَطَّمَتْه عساكرُ الملكِ المنصورة ، وملأت الأقطارَ الجنودُ الموفورة ، فلا يخلو منها مكانُ قَدَم ، إلا وقد غَصّ بمواطئ تلك الأمم ، فَتُذْهِبُ مِنّا قُرّةَ العين ، وتُدهك[١٣٠] غلطاً تحت الرجلين ، وهذا هو البلاءُ الطّام[١٣١] ،

(١٢٥) غَضّ : يقال غصن النبات وغيره أي صار طريا رقيقا ناعماً . وغضّ العمر : أوّل شبابه .

(١٢٦) بَضّ : يقال بَشَرَةٌ بضة أى رقيقة نضرة ، وبضّ الدهر : أجمل أيامه وأسعدها .

(١٢٧) العوائث والعوابث : ما يفسد ويدمّر ويخرب ويهلك .

(١٢٨) القُرّة : ما تقر به العين ، لما يرضى ويَسُرّ .

(١٢٩) اللحد : الحفرة أو القبر .

(١٣٠) دهك الشيء طحنه ، كسره ، داسه ..

(١٣١) الطام : العظيم .

والمصاب العامّ ، ولا بُدَّ منه في كلِّ عام ، فكأنّه أيُّها النبيهُ النبيل ، في شَأْنِنا قد قيل :

أَيَا ابنَ آدَمَ لاَ يَغْرُرْكَ عافِيَةٌ عَلَيْكَ شامِلَةٌ فالعمْرُ ممدودُ
ما أنتَ إلاَّ كَزَرْعٍ عندَ خُضْرَتِهِ بِكُلِّ شَيْءٍ مِنَ الآفاتِ مَقْصُودُ
فإنْ سَلِمْتَ من الآفَاتِ أجْمَعِها فأنتَ عِندَ كَمَالِ الأمْرِ مَحْصُودُ

فضاق منّا لهذا العَطَن[١٣٢] ، فلم أرَ أوْفَقَ من مُفَارقَةِ السَّكَن ، والمهاجرةِ من الوطن ، فعرضْتُ على القرينةِ هذه الحال ، وأشرتُ عليها بالارتحال ، وقلتُ لها المرءُ من حيثُ يُوجد ، لا من حيث يُولد ، فَأَبَتْ وكبَّت[١٣٣] ، وشاقَت[١٣٤] في ذلك ونَبَّت[١٣٥] ، فلا زلنا نتحاورُ ونتشاور ، ويرمي كلٌّ منا سهمَ رأيه إذْ يساور[١٣٦] ، حتى لأنَتْ أخلاقُها الصعبة ، بعد أنْ ثلَّت[١٣٧] ما في الجعبة . ثم أعطَتْ القوسَ باريها ، وسلّمت الدارَ بانيها ، وأدركتْ من ملامحِ مقاصدِي معانيها ، وسمحتْ بالانتقال من تلك البلاد ، وسلّمَتْ إلى يدِ تدبيري زِمامَ الانقياد ، فرحلنا من شُقَّةٍ[١٣٨] بعيدة ، وقاسينا شِدَّةً شَديدة ، وقصدْنا هذا الحرم ، إذ رأيناه مشتملاً على اللُّطْفِ والكَرم ، وقطعنا شباكَ مصائد ، وخلصنا من إشراكِ كلِّ صائد ، وفطمنا أنفسَنا عن حَبَّاتِ الطمع ، وتجرَّعْنا من كَاسَاتِ الجزع ، وأقداحِ الفزَع ، جُرَعاً بعد

---

(١٣٢) العطن : مبرك الإبل ، أو مربض الغنم أو مكان العشّ للطيور ، خاصة حين يكون قريبا من الماء .

(١٣٣) كبّت : رفضت ، وقلّبت الأمر على وجوهه .

(١٣٤) شاقت : هاجت وثارت .

(١٣٥) نَبّت : لم تستقر على رأى ، بل رفضته فى بادىء الأمر .

(١٣٦) يساور : يواثب الآخر فى رأيه ، ويغالبه أو يصارعه والمساورة : المجادلة .

(١٣٧) ثَلّت : أخذت . هدمت ، تراجعت وتنازلت .

(١٣٨) الشُقّة : الناحية البعيدة ، والسفر البعيد ، والمسافة يَشُقُّ قطعها .

جُرَع[١٣٩] ، فوصلنَا بحمدِ الله إلى جنابِك الأمين ، وَبَشَّرَنا مُبَشِّرُ الإقبالِ أنّـكَ لكُـلِّ خيرٍ ضمين ، فحمدْنا عند صباحِ الفلاحِ السُّرَى وأنشدنا لسانُ السَّعْدِ مُبَشِّرا :

وَجَدْتَ مِنَ الدُّنيا كَرِيماً تَؤُمُّهُ لِـدَفْعِ مُـلِمٍّ أَوْ لِـنَيْـلِ جَزِيـلِ

وإنْ لَمْ يكُنْ بيننا سابقةُ خِدْمة ، لكنَّ تَعَـارُفَ أَرواحِنـا لـهُ قِدْمـة ، مـع أَنّ كَـرَم ذاتِك الجميلة ، وما جُبِلْتَ عليـه مـن صفـاتٍ نبيلـة ، يُغـني قـاصدَ صدقـاتِك عـن واسطةٍ ووسيلة . وَوَاللهِ إنّي لواثـق ، بـأَنَّ ظنّـي لوفـاءِ مكـارِمِك صـادق ، فأَسْـأَلُ إحسانَك يا ذا الخير ، إيصالي إلى خدمةِ مِلِـكِ الطير ، وإنْ كـانتْ رِفْعَـةُ مكانِـه في العَيُّوق[١٤٠] ، ودون الوصُولِ إليـه بيـضُ الأَنُـوق[١٤١] ، لكـنْ بواسطـةِ الوسـيلة ، يحصلُ هذا الشرفُ والفضيلة ، ولا زالتْ الرؤساءُ والأكابر ، يأخذون بيَـدِ الضعفـاء والأصاغر ، ولرأيك العلوّ ، والشرّفُ والسمُوّ ، والعطفُ والحُنوّ . فاهْتَزَّ اليؤيؤُ لهـذا الكلامِ وارتاح ، وظهر في وجهه تباشيرُ المسَرَّةِ والارتياح ، وأنشد :

قَـدِمْتَ بـأَنْـواعِ المسَرَّةِ والهنَـا عَـلَـى خَيْـرِ مَنْزُولٍ وأَيْمَنِ طَائِـرِ

فـأهْـلاً وسَهْلاً ثُمَّ أَهْلاً وَمَرْحَباً وَبُشْرَى وَيُسْرَى بالعُـلا والبشائرِ

أَعْلَمُ أَنَّ قدومَك قُدومُ صِدْق ، ومرافِقَتك[١٤٢] سَـبَبُ الرفـق ، ورُؤْيَتَـك فَتْـحُ بـابِ الفتوح ، وروايتَك غذاءُ القلب وراحةُ الروح . أَبشِرْ بكُلِّ مـا تؤمّـل وتختـار . فقـد ذهَبَ العثار ، وجاء الأمنُ واليسار ، أصبتَ مرامَـك ، وزينـتَ مقـامَك ، وآنسـتَ منزلَك ، وأُوتيتَ مأْمَلَك . فَطَيِّبْ خاطِرَك ، وبَشِّرْ أهلَك وعشائرَك ، وأخبِرْ غائبَك وحاضرَك . ولقد قادَك الـرأيُ السـديد ، والأمـرُ الرشـيد ، والفـألُ السـعيد ، حتـى

---

[١٣٩] الجُرَع ، مفردها جرعة ، والجرعة من الماء : حُسْوَةٌ منه ملءُ الفم .

[١٤٠] العيوق : نجم أحمر مضيئ فى طرف المجرّة .

[١٤١] الأنوق : العقاب أو الرخمة ، حيث الموطن العالى والوكر المرتفع ، البعيد المنال .

[١٤٢] المرافقة : زوجة الحجل التى ترافقه .

أَوَيْتَ إلى رُكْنٍ شديد ، ومَلِكٍ كريم ، خلُقُه عظيم ، وفضلُه جسيم ، وجودُه عميم ، ونظيرُه عديم ، رؤوفٌ برعيَّته رحيم ، لا يخيبُ آمِلُه ، ولا يريبُ سائِلَهُ ، ولا يُقْطَعُ واصِلُه ، ولا يُمْنَعُ حاصِلهُ ، لقد أنبتتْ مساعيك أزهارَ الأمنِ والأمان ، وتفتحتْ لورودِك في رياضِ سعدِ الزمان ، نواظرُ نرجسِ النعمةِ وشقائقُ فَضْلِ النعمان . فاعلَمْ أن هذا الملكَ ذو جَنانٍ منيع ، وقدْرٍ رفيع ، وبيانُ معانيه بديع ، عزيزُ المنال ، جامعٌ لِصِفَتَيْ الجمالِ والجلال ، قد اختار العزلة في رؤوسِ الجبال ، فلذلك طبعُه لا يخلو من جساوة[١٤٣] ، وقلبُه من قساوة ، وإن غذاءَه من اللحوم ، ومن الحيواناتِ مشروبُه والمطعوم ، مخالِبُه كالأَسَل ، ويلجأُ إلى اللهِ إذا نَسرَ منقارُه ونسل ، وحقيقةُ أمرِه إنْ كُنْتَ عنه تسل :

مُمَقَّرٌ مُرٌّ علَى أَعْدَائِهِ وَعَلَى الأَدْنَيْن حُلْوٌ كَالْعَسَل[١٤٤]

فإذا التجأ إليه فقير ، أو آوى إليه ضعيفٌ أو كَسِير ، أو قصَده محتاج ، أو سلَكَ إلى بابِ مرضاتِه منهاج ، فلا يمكنُ أَلْطف منه ولا أَشفق ، ولا أَقْرب من عطفِه على مُؤَمِّليه ولا أرفق ، فهو كما قيل :

*** بِيْضٌ قَطاً يَحْضُنُهُ أجدل[١٤٥] ***

وسببُ ذلك أنَّ ضميرَه المنير ، خالٍ من المكرِ طاهرٌ من التزوير ، لا يعرفُ خَتْلاً ولا خديعة ، ولا خيانةً ولا وضيعة ، ولا كذباً ولا قطيعة ، ولا في خاطرِه فساد ، ولا عندَه سوءُ اعتقاد ، ولا يعرفُ غَيْرَ الحقّ ، ولا يقول إلا الصِّدْق ، وذلك لبُعْدِه عن مُخالطةِ الناس ، وعُزلته عن كلِّ ذي وَسْوَاسٍ[١٤٦]

---

[١٤٣] جساوة : صلابة وخشونة .

[١٤٤] مُمَقَّر : صار مُرّا ، والأدنين : الأقربين .

[١٤٥] القطا : واحدها قطاة ، وهو نوع من اليمام يؤثر الحياة فى الصحراء ، ويتخذ أفحوصه فى الأرض ، وبيضه مرقّط . والأجدل : الصقْر .

[١٤٦] الوسواس : الشيطان .

وخنّاسٍ[147] . فلقد اتفقَ العالَم ، أن صحبةَ بني آدمٍ ، سمٌّ قاتل ، وهمٌّ باتل[148] ، فإنَّ دأْبَهُم المكرُ والتلبيس ، والخداعُ والتدليس ، وحسبُكَ قولُ شاعرِهم ، في كَشْفِ ضمائرِهم ، وشرحِ حقيقةِ سرائرِهم :

كُنْ مِنَ النّاسِ جَانِباً ... كَيْ يَظُنُّوكَ رَاهِباً
قَلِّبْ النّاسَ كَيْفَ شِئْـ ... ـتَ تَجِدْهُمْ عقارباً

ولقد أرشد مَن أنشد :

بَنُو آدم إنْ رُمْتَ من خيرِهم جنًى ... فأَحْلَى الذي تَجْنِيهِ مِن وَصْلِهِم صَبْرُ[149]
مَكَارِمُهُم مَكْرٌ وَرَوْيَتُهُمْ رِيَا ... وَوُدُّهُم مُودٍ وَجَبْرُهُم كَسْرُ[150]

فإن كان فيهم صالحٌ أفسدوه ، وإلى سبلِ الضلالِ أرشدوه ، والكلامُ في هذا المقام ، لا يبلغُ التمام ، فيُكتفى بالقليل ، عن الجليل ، وشمسُ النهار لا يُحتاجُ في وجودِها إلى دليل . فانهضْ الآن ، فقد آن التوجّهُ إلى خدمةِ السلطان فما كلُّ زمانٍ يحصُل هذا الإمْكان ، فإنَّ الاجتماعَ به كُلَّ وقتٍ مُشْكل ، فَتَوَكَّلْ على اللهِ يا أَحْسَنَ مُتَوَكِّل ، فإذا دخلتَ عليه ، وتمثلتَ بين يديه ، فاعْرِف ، كيف تقف ، وانظرْ يا ذا الكمال ، ماذا يناسبُ الحال ، ويقتضيه المقام ، من فعلٍ وكلام ، فاسْلُكْ طريقَته ، وراعِ مخارجَه وحقيقتَه ، وادخلْ معه من ذلك الباب ، ومثلُك لا يُدَلُّ على صواب ، فما أسرعَ اللُّطْف ، وأقربَ العُنْف ، من حركاتِ الملوكِ والكبراء ، وأبعدَ الرفق ، وأشردَ الخرق ، من ملكاتِ السلاطينِ والخلفاء ، وأقصى مُدانيهم إذا غَضِبوا ، وأوحشَ مُؤانِسَهم إذا صَخِبوا ، وأقربَ مُباعدَهم إذا عطفوا ،

---

[147] الخنّاس : الشيطان .

[148] باتل : قاطع .

[149] الصبر : نبات الصبّار أو المرّ .

[150] ريا : رياء .

وأعجبَ مُنَادِدَهم[١٥١] إذا لطفوا ، ويكفيك يا ذا العقلِ المتين ، ما قيل في شأنِ الملوكِ والسلاطين :

إنَّ المُلُوكَ بَلاَءٌ أيْنَمَا حَلُّوا ... فَلاَ يَكُنْ لَكَ في أكْنَافِهِم ظِلُّ
مَاذا تُؤَمِّلُ مِنْ قَوْمٍ إذا غَضِبُوا ... جَارُوا عَلَيْكَ وإنْ أرْضَيْتَهُمْ مَلُّوا
وإنْ مَدَحْتَهُم ظَنُّوكَ تَخْدَعُهُم ... واسْتَثْقَلُوكَ كَمَا يُسْتَثْقَلُ الكَلُّ[١٥٢]
فاستَغْنِ با للهِ عَنْ أبوابِهم كَرَماً ... إنَّ الوُقُوفَ على أبوابِهم ذُلُّ

وقال سيّدُ الأنامِ طُرًّا : لاتجاوزْ ملكاً ولا بحرا ، فإنْ رَضَوْا رفعُوك فوقَ الأفلاك ، وإنْ غَضِبوا والعياذُ با للهِ فهو الهلاك . وناهيك من تقلباتِ المُلوك ، يا ذا الإرشادِ في السلُوك ، أطفأَ ا للهُ غَضَبَهم عنك ، قَضِيَّةٌ صدرتْ من تيمورلنك . فَسَأَل فَحْلُ الحَجَل ، الوزيرَ الأجَلّ ، بيانَ ذلك المثل ، الصادر من الأعرجِ الأشَلّ .

[٦/٩] حكاية تيمور وغضب الملوك

فقال الدستور ، مما حُكِيَ عن تيمور ، من وقائعِ الأُمور ، وشدَّةِ عزمِه وحزمِه ، وثباتِه على ما يقصدُه وجزمِه ، وحلولِ نِقْمَتِه بمَنْ يعارضُه ويعاكسُه ، فيما يرسُمُ به ويناقضُه : أنَّهُ لما توجَّهَ بالجنود ، إلى بلادِ الهنود ، وذلك في سنةِ ثمانمائة ، وصل بجيوشِه الطاغية ، إلى قلعةٍ شاهقة ، أَقْرَاطُ الدَّرَارِي بآذانِ مراميها عالقة ، والرُّجُومُ المارِقة ، من النجومِ الخارقة ، تتعلّمُ الإصابةَ من رشاقةِ سهامِها الراشقة ، ، كان بُهْرَامُ في مَهْواه أحدّ سواطيرِها[١٥٣] ، وكيوانُ في مَسْراه خادِمَ نواطيرِها[١٥٤] ،

---

[١٥١] المنادد : النافر الناشز ، والمباعد الشارد .

[١٥٢] الكَلُّ : الكليل الضعيف الفقير .

[١٥٣] سيوفها .

[١٥٤] حرّاسها .

والشمسُ في استوائها غُرَّةَ جبينها ، وقطراتُ السحابِ في الانسكابِ تترشَّحُ من قَعْرِ مَعِينها ، وشُقَّةُ الشَّفَقِ الحمراءُ على آذانِ مراميها وأنوفِ أبدانها سُرَادِق[155] ، وكُرَيَّاتُ النُّجُومِ في القُبَّةِ الخضراءِ لعيونِ مكاحِلِها وأفواهِ مدافِعِها طَابَات[156] وبنادق[157] ، وكَأَنَّ الثُّرَيَّا في انتصابها ، قنديلٌ مُعَلَّقٌ على بابها ، لا يهُوم طائرُ الوَهْمِ عليها ، فَأَنَّي يصلُ طائشُ السَّهْمِ إليها ، ولا يتعلّقُ بِقَدَم خدمتِها خَلْخَالُ خَيَالٍ وافتكار ، فَضْلاً عن أنْ يُحَلِّقَ على مِعْصَمِ عِصْمَتِها من عساكرِ الأَسَاوِرَةِ[158] سِوَار . وفيها من الهنودِ طائفةٌ ، ثابتةُ الجَنَانِ غَيْرُ خائفة ، جهّزتْ أهلَها وما تخاف عليه إلى الأماكنِ المعجزة ، وثبتتْ هي في القلعةِ حافظةً لها متحرزة ، مع أنها شِرْذِمَةٌ قليلة ، وطائفةٌ ذليلة ، لا خَيْرَ عندهم ولا مَيْر ، ولا فائدةٌ سِوى الضررِ والضيْرِ ، ولا للقتالِ عليها سبيل ، ولا حواليها مبيتٌ ولا مَقيل ، بَلْ هي مُطِلَّةٌ على المقاتِلة ، مستمكنةٌ على المقاتَلة . فَأَبَى تيمورُ أن يجاوزَها ، دون أنْ يجاورَها بالحصارِ ويناجزَها ، واللبيبُ العاقل ، لا يتركُ وراءَه لخَصْمِه معاقل[159] . فجعلتْ المقاتِلةُ تناوشُها من بعيد ، ويصبُّ كلٌّ من أهلِها عليهم من أسبابِ المنايا ما يُريد كما يُريد ، وكان كلَّ يومٍ يُقتل من عسكرِه ما لا يُحْصَى ، والقلعةُ تَزْدَادُ بذلك إباءً واستِعْصا[160] ، وهو يَأْبى الرحيلَ عنها ، إلاّ أنْ يصلَ إلى غرضِه منها .

---

[155] السُّرَادق : كل ما أحاط بشيء من حائط أو يضرب ، وأيضا : الفسطاط (على سبيل المجاز هنا) .

[156] طابات : مفردها طابه ، وهي الكرة ، تصنع هنا من طين ثم تحرق ، وترمى على العدو .

[157] بنادق : كتل من الطين تكون كالبندق ، تجفف بالشمس أو تشوى على النار ، وتوضع في وسط وتر القوس ، ثم تشد مع الوتر وترمى إلى مكان بعيد بدل النبل .

[158] الأساورة : الرُّماة ، والأصل أساورة الفرس ، أي قوّادها ، وكانوا مشهورين برماية الحذق والسهام وغيرها .

[159] معاقل : حصون .

[160] استعصا : استعصاء .

ففي بعضِ أيامِ المحاصَرَةِ مُطِرُوا ، وبواسطةِ المطرِ انحصروا ، وصار يَحُثُّهُم على القتال ، ثم ركبَ لينظرَ ماذا يصنعون في تلك الحال ، فلم يَرْتَضِ أفعالَهم ، لمّا عكستْ أوحالُهم أحوالَهم ، فدعا رؤوسَ الأمراء ، وزعماءَ العساكرِ والكبراء ، وأخذ يمزّقُ أديمَ عِصْمتهم بِشفارِ شَتْمِه ، ويشقّق سِتْرَ حُرْمَتِهم بمخاليبِ لَعْنه وذمّه ، ونفخَ الشيطانُ في خيشومِه ، وألهبَ فيه نارَ غضبه وشُومه ، وقال : يا لئام ، وأكلةَ الحرام ، تتقلّبون في نعمائي ، وتتوانون عن أعدائي ، جعل الله نعمتي عليكم وَبَالا ، وألبسكم بكفرانِها خيبةً ونِكَالا ، يا نابذي الذمم ، وكافري النِّعم ، وساقطي الهمَم ، ومستوجبي النِّقم ، أَلَمْ تطئوا أعناقَ الملوكَ بأقدامِ إقدامي ، ألم تطيروا إلى الآفاق بأجنحةِ إحساني وإكرامي ، أَلَمْ تفتحوا مُغْلَقَاتِ الفُتوحِ بحسامِ صَوْلتِي ، أَمَا سرحتم في منتزهاتِ الأقاليمِ سَوائِمِ تَحَكُّمِكُمْ بترعيةِ دولتي ، بي مَلَكْتُمْ مشارقَ الأرضِ ومغاربَها ، وأذبتم جامدَها وأجمدتم ذائبَها :

أَلَـمْ أَكُ نَـاراً يَـصْطَلِيها عَدُوُّكُم وحِرْزاً لِمَا أَلْـجَـأْتُـمُ من وَرَائِيَا
وبَـاسِطَ خَيْرِي فيكُـم بِيَمِينِيَا وَقَـابِـضَ شَرٍّ عنكُـم بِـشِـمَـالِيَا

ولا زال يُهَمْهِمُ ويُغَمْغِم ، ويُهَذْرِمُ[١٦١] ويُبَرْطِم ، وهم مُطْرِقُون لا يَحيرون جوابا ، ولا يَملكون منهُ خطابا . ثم ازداد حنقا ، وكاد أن يموت خنقا ، فاخترط السَّيفَ بيدِه اليُسْرى ، وهَمَزَ به على قِمَمِ[١٦٢] أولئك الأسرى[١٦٣] ، وهَمَّ أنْ يجعلَ رقابَهم قِرَابَه[١٦٤] ، ويسقي من دمائهم نمل فرنده وذبابه[١٦٥] ، وَهُمْ على تلك الحال ، في الخزْيِ والإذلال ، باذِلُو أنفسِهم ، ناكِسُوا رؤوسِهم . ثم تراجعَ وتماسك ، ومَلَكَ

---

[١٦١] يهذرم : يصدر كلاما سريعا ، صاخبا ، غاضبا غير واضح .

[١٦٢] قمم : رؤوس القادة العسكريين .

[١٦٣] الأسرى : بمعنى الخاضعين من قوّاده وكبار عساكره .

[١٦٤] قراب سيفه ، غمده .

[١٦٥] الفرند : السيف ، ونمله وذبابه : مشارفة أو حدّهُ الصقيل الحاد .

نفسَه قليلاً أو تَمَالَكَ ، فأغْمَدَ عن تَشْرِيقِهِم(١٦٦) حُسَامَه ، ولم يُلْقِ لأمرِه دَبْرَةً ولا قِبْلَةً أمامه(١٦٧) ، فغلف غربه وشامه ، ثم نزل عن مركبه ، واستدعى الشِّطْرَنجَ الكبيرَ ليلعَبَ به .

وكان عندَه ، مِمَّنْ فاقَ جندَه ، شخصٌ يُدْعَى "محمد قاوجين" ذو مكان مكين ، ومقامٍ أمين ، وهو مقدمٌ على كلِّ الوزراء ، مُبَجّلٌ دون سائرِ الأمراء ، وافرُ الطَّوْل ، مقبولُ القَوْل ، مسعودُ الرأي ، ميمونُ الفصل ، مرغوب الفضل ، محبوبُ الشكل ، فَتَشَفَّعُ الوزراءُ إليه ، وترامَوْا في حَلِّ هذا الإشكال عليه ، وقالوا : ساعدْنا ولو بلفظة ، وراقبْنا ولو بلحظة ، واعملْ معنا ، بهذا المعنى ، وهو :

سَاعِدْ بجَاهِكَ مَنْ يَغْشَاكَ مُفْتَقِراً — فالجودُ بالجاهِ فَوْقَ الجُودِ بالمَالِ .

فأجابهم والْتَزَم ، أنْ يردّه عمَّا تأزَّم به وأزم ، وراقبَ مجالَ المقال ، وراعى فُرَصَ المجال ، وشرعت أفكارُ تيمور ، تغورُ في أمرِ القلعة وتفور ، وجعل يَسْتَضْوِي أضواءَهم ، ويَسْتَوْرِي آراءَهم ، ولا يَسَعُ كُلاً منهم إلا القَبُول ، لِما يستصوبُه رأيه ويقول . ففي بعضِ الأحايين ، اتفق أنْ قال محمد قاوجين ، وقد زَلَّ به القضاء ، وأحاطت به نوازِلُ البلاء : أطالَ اللهُ بقاءَ مولانا الأمير ، وفتح بمفاتيحِ آرائِه وراياتِه حصنَ كُلِّ أمرٍ عسير ، هَبْ أنّا فَتَحْنا هذه القلعة ، بعد أنْ أُصيبَ مِنّا جانبٌ من أهلِ النجْدةِ والمَنعة ، هل يفي هذا بذا ؟ ، أم هل يوازن هذا النفع بهذا الأذى ؟ فما احتفل بخطابه ، ولا اشتغل بجوابه ، بل استدعى شخصاً من البرقدارية(١٦٨) ، قبيحَ المنظر إلاّ أنهُ في هيئةٍ ذرية ، يُدْعى "هراملك" ذَا عُرْفٍ سَهَك(١٦٩) ، ووَجْهٍ في

(١٦٦) تشريق الحسام : صبغه باللون الأحمر (الدم) كناية عن القطع والقتل .

(١٦٧) الدَّبْرة : ما يُستدبر ، نقيض القبلة . ويقال : ليس لهذا الأمر دَبْرةٌ ولا قِبلة : لا يعرف له وجه .

(١٦٨) البرقدارية : حاملو البنود والرايات .

(١٦٩) سهك : ذو رائحة كريهة .

السَّوادِ سَدَك[١٧٠] ، أوسخُ مَنْ في المطبخ ، وأسْنَخُ[١٧١] مَنْ في المسلخ ، لُعَابُ الكلبِ طَهُورٌ عندَ عَرَقِه ، وعُصَارَةُ القير[١٧٢] حليبٌ بالنسبةِ إلى مَرَقه ، فعند ما حضر لديه ، ووقع نظره عليه ، أمر بثيابِ محمد قاوجين فَنُزِعَت ، وبخِلْقَانِ هراملك فخلِعت ، ثمَّ أَلْبسَ كُلاً ثيابَ صاحبه ، وَشَدَّ وَسَطه بحياصتِه[١٧٣] ودعا دواوين[١٧٤] محمد ومباشريه[١٧٥] ، وضابطي ناطِقه وصامته[١٧٦] وكاتبيه ثم نظر مالَه من ناطقٍ وصامت[١٧٧] ، ونامٍ وجامد ، ومِلْكٍ وعقار ، وأهلٍ وديار ، وحَشَمٍ وخدم ، من عربٍ وعجم ، وأوقافٍ وأقطاع ، وبساتينَ وضياع ، وخُوَلٍ وأتباع ، وخيْلٍ وجمال ، وأحمالٍ وأثقال ، حتى زوجاتِه وسراريه ، وعبيدِه وجواريه ، فأَنْعَمَ بذلك كُلِّه على ذلك الوَسِخ ، وأمْسَى نهارُ وجودِ محمد قاوجين الزَّنخ ، وهو من ليلِ تلك النعمةِ مُنْسَلِخ .

ثم قال تيمور ، وهو كالنمورِ يمور ، أُقسمُ بالله وآياتِه وذاتِه وصفاتِه ، ووحيه وكلماتِه ، وأرضِه وسمواتِه ، وكُلِّ نبيٍ ومعجزاته ، ووَلِيٍّ وكراماتِه ، وبرأسِ نَفْسِه وحياته ، لئن آكَلَ محمدُ قاوجين أحداً أوْ شاربه ، أو ماشاه أو صاحبه ، أو كلّمه أو صافاه ، أو آوى إليه أوْ آواه ، أو راجعني في أمره ، أو شفع عندي فيه أو وفاه بعذره لأجْعَلَنَّهُ مثلَه ، وَلأُصَيِّرَنَّهُ مُثْلَة . ثم طردَه وأخرجَه ، وقد سلبَه نعمتَه

---

[١٧٠] سدك : ملازمه السواد .

[١٧١] سنخ : نتن ، زنخ .

[١٧٢] القير : القار أو الزفت .

[١٧٣] حياصة : الحزام .

[١٧٤] دوارين : كتاب دواوينه الخصوصيين .

[١٧٥] مباشريه : موظفيه المشرفين على أعماله الخاصة .

[١٧٦] ضابطى ناطقة وصامته : المشرفين على دخله من ذهب وفضّة .

[١٧٧] من ناطق وصامت : من ذهب وفضة ..

وأحرجَه ، فصار مسلوبَ النّعَم ، قد حلّتْ به في لحظةٍ نوائبُ النّقَم ، فسحبوه بالوَلْق[١٧٨] ، ورأى نعمتَه على أقل الخلْق ، واتصل غيره بالحلق ، وقُطع منهُ الحلق ، فَقَلِقَتْ حَبَّةُ قَلْبِه أشدَّ قَلَق ، ولم يزلْ على ذلك في عَيْشٍ مُرٍّ وعُمْرٍ حالِك . وحاشا أن تشبهَ قضيتُه قِصَّة كَعْبِ بنِ مالك ، فكان يستحلي مرارةَ الموْت ، ويستبطئُ إشارةَ الفوْت ، وكلُّ لحظةٍ من هذا الحيْف ، أشدُّ عليه من ألفِ ضربةٍ بالسيْف . فلمّا هلكَ تيمورُ أحياه ، ورد عليه "خليل سلطان" ما كان سلبه جدُّه إياه .

وإنما أوردت هذه السيرة ، يا زكيَّ السريرة ، لتقيسَ على هذا المثلِ نظيرَه ، وتعرفَ أخلاقَ الملوك ، ومعاملاتِهم الغنيَّ والصعلوك ، وأنَّ نظرَهم نُضَار ، وإعْرَاضَهم بَوارٌ ودمار ، ومَن أراد أنْ يطلعَ على سِرِّ القضاءِ والقدر ، فَلْيُرَاقِبْ شَفَتَيْ المِلِكِ إذا أنْهى وأمَر ، وقال ، مَنْ أحسن المقال :

قُرْبُ المُلوكِ يا أخَا القَدْرِ السَمِيّ   حظٌّ جزيلٌ بين شِدْقَيْ ضَيْغَمِ

واعلمْ يا أبا الفضائل ، أنَّ هذا الملكَ له شمائل ، وصفاتٌ وفضائل ، يُستَدَلُّ بظاهرها على باطِنها ، ويتُوَصّلُ بظهورِ باديها على حركات كامنها ، فإياكَ أنْ تَغْفَلَ عن مراقبتها ، وتهملَ حالَ عاقبتها ، بل اجعلْ شواهدَها نصْبَ عَيْنِك ، لتقربَ من حياتك وتُبْعِدَ عن حَيْنِك[١٧٩] .

منها إذا رأيتَه رجع من الاصطياد ، ظافراً منه بالمراد ، وقد اقتنصَه وحصله ، وملأَ منه الحوصلة ، وسكنتْ منه بواعثُ الشَّرَه ، التي هي منفخ لواعجِ الطيْشِ والسَّفَه . ومنها إذا رأيتَه جلس في مجلسِ السرور ، وبسط لجبهةِ الكرمِ جناحَ النّشَاط والحبُور ، وضَمَّ عن مطامحِ الحِرْصِ القوادِمَ والخَوَافي ، وطلب من رؤساءِ

---

[١٧٨] سحبوه بالوَلْق : أى دفعوه دفعاً سريعاً متلاحقاً بالضرب والطعن .

[١٧٩] الحين : الموت .

المملكةِ الأنيسَ المصافي ، ومن ندماء الحضرةِ الجليسَ الصافي ، ومن مطربي الأطيار ، البلبلَ والهَزَار ، ومَنْ رقص بدفوفِ الأزهار ، وصفّق من ذي عودٍ وطـار ، فاستمعَ لهذا وباسطَ ذاك ، وطَفقَ جُلساؤُه ما بين منصتٍ وحاك ، فإن هـذه الأوقـات ، لما فيها من علامات ، هي الانبساط ، وأيامُ الفرحِ والنشاط ، فاعملْ فيها ما بَدَ لـك ، واطنبْ مقالَك ، وكرّرْ جوابَك وسؤالَك ، فإنّك في كَعْبَـةِ الأمْـنِ فاسْتَلِمْها ، وقـد هَبَّتْ ريـاحُك فاغتنمْهـا ، والعـبْ بـإبطيك ، وصفّـقْ بجنـاحيك ، واهـدرْ في تَقْتَقَتِك[١٨٠] واسجعْ في بقبقتك[١٨١] ، فإنَّ الوقتَ لـك لا عليك ، والسّعْدَ الطالعَ ناظرٌ إليك .

ومنهـا إذا رأيتَـه جالسـاً صامتـا ، أو إلى الأرضِ باهتَـا ، أو مُحْمَـرَّةً عيونُـه ، أو مُضطرِباً سكونُه ، أو أفعالُه على غـيرِ استواء ، أو أقوالُـه دائـرةٌ مـع الهـواء ، فإيّـاك والدخولَ عليه ، والمثولَ بين يديه ، فإنه إذ ذاك يجعلُ ديارَ جَسَدِك بلاقِع ، ولو أنـك النّسْرُ الطائرُ فتصيرُ في مخاليبه أتعسَ واقع . وعلـى كُـلِّ حـال ، فَلْيَكُـنْ عنـدك لِكُـلِّ مقامٍ من هذه المقامات مقال ، وإنْ كان السكوتُ أصلح ، فاغلقْ بابَ الكلامِ قطعاً ولا تفتح ، فكثيراً ما تخلّصَ الساكتُ من البـلاءِ وأفلـح ، ونـاهيك النّصيـح ، بقولـه الفَصِيح ، وهو :

وراقِبْ مَقَامَ القوْلِ في كُـلِّ مَجْلِسٍ ... خُصَوصاً مَقَـامَاتِ الملُوكِ الأكابِرِ
فَكَـمْ مِنْ بليغٍ فَـوْقَ ذِرْوَةِ مِـنْـبَـرٍ ... رَمَـتْـهُ أفـاعِي النُّطْقِ تَحتَ المقابِرِ

قـال المفلحُ النجـديّ ، للمرشـدِ المجـديّ ، جـزى الله مولانـا عـن صدقاتِـه أوفـرَ صلاتِه ، وواصلَه بعوائدِ إكرامِه في عشيَّتِه وغَدَاتـه ، فمـا أشمـلَ إحسـانَه وحسـناتِه ،

---

[١٨٠] تقتقتك : حركتك أثناء الكلام ورفع الصوت .

[١٨١] بقبقتك : كلامك الكثير ، أو ألقه جزافا دون خوف أو اضطراب .

وأسعدَ حركاتِه وسكناتِه ، وأوفرَ شفقتَه على قاصدي عتباتِه ، طـالبٌ أنـتَ دليلُـه ، كيف لا يُفتحُ إلى الخيرِ سبيلُه ، ويرجع إلى حصول المقام مبيته ومقيله ، ثم إن اليؤيؤَ الشفوق ، تركهم وطار إلى العيوق ، ثم رجع على الفور ، ووجهه يـرف كـالنَّوْر ، فدعا اليعقـوب[١٨٢] ، وتوجّه وهبو معه مصحـوب ، وأخـذا في السـير ، إلى خدمـةِ ملكِ الطير ، وفرعا[١٨٣] في جبل ، يُسامي في المثل ، قُبَّةَ الفلَك ، أو مركـزَ الملـك ، يستمدّ السحاب من ماء واديه ، وتسبحُ سِماك السماء في بحر ناديـه ، يغـرقُ جبـينُ الوهمِ من صعودِ عقباته ، ويقصرُ صاعدُ الفكرِ في سُلَّمِ الهـواءِ عـن الـترقّي إلى أدْنـى درجاتِه ، ويستريحُ راقيَ الخيالِ في عدّة مواضِع عنـد قصـدِه فـروعَ هضباتـه ، فهـو كما قيل :

وَطَوْدٌ تَلُوحُ الشَّمْسُ منْ تَحْتِ ذَيْلِهِ إذَا هِيَ في كَبِدِ السَّمَاءِ استقرّت

فلا زالا يسيران ، وفي الجوّ يطيران ، اليؤيؤُ إمام ، قـائدُ الزمـام ، والحجَـلُ وراءَه ينشدُ هذا الكلام :

لِكُلِّ إمامٍ أُسْوَةٌ يُقْتَدَى بِهِ وأَنْتَ لأهْلِ المَكْرُمَاتِ إِمَامُ

فوصـلا مـن تلـك المـدارج ، إلى أعلـى المعـارج ، وانتقـلا في تلـك المسـالك ، عـن دركاتِ المهالك ، وانتهيـا إلى أوجٍ رَأيَـا ملكـةَ النَّيِّرات[١٨٤] جاريـةً في حضيضـة ، ودُرَرَ الـدَّراري راكـدةً في قَعْرِ مغيضـه ، يشـتملُ على مـروجٍ وريـاض ، ومـراعٍ وغياض ، وبحـارٍ وحياض ، تنادي خيراتُها سُكّانَ الربعَ المسكون ، انصبابها عليهـم وفي السماء رزقُكم وما تُوعدون ، ريـاضٌ تلوَّنـت ، ومـروجٌ بأزهايرِهـا تحسـنت ، وأرضٌ قـال لهـا صـانعُ القـدرةِ إذ تَمَكَّنَـتْ ، تكونـي كـأخلاقِ الكـرامِ فَتَكَوَّنَـتْ ،

---

[١٨٢] النَّوْر : الزهر . واليعقوب كنية ذكر الحجل .

[١٨٣] فرعا : أخذا طريقا صاعدا .

[١٨٤] النيرات ، واحده النَّيِّر : المضيء ، الحسن اللون المشرق .

وأخذتْ زُخْرفَها من رضوانِ خازنِ الجنان وازّينَتْ ، فَوَلَجَا دارَ سلطنـة العُقَـاب ، بعد مقاساةِ عِقَاب العِقَاب ، كما قيل :

مَكَاناً فيهِ سُـلْطَانُ الطُّيـورِ ... تَصَدَّرَ بالسُّرورِ على السّريرِ
أَطَافَ بِهِ صنـوفُ الطَّيْرِ طُرًا ... عُـكُوفاً بالحضُورِ وبالحبُورِ
لِكُـلٍّ في مُبَـاشَـرةٍ مَقَـامُ ... يقومُ به جَـليـلٌ أَوْ حَـقيرُ

قـد اكْتَنَفَتْهُ الميمنةُ والميسرة ، وأَحدقـتْ بـه المقدَّمـةُ والمؤخّـرة ، كـلٌّ واقـفٌ في مقامِه ، شـاهينُه مـع كُرْكِيِّه وبازيـه مـع حمامـه ، فـالأنيس[١٨٥] صـاحبُ العُـرفِ والكيس ، حـاملُ القبز كـالأوزان ، يـترنّمُ في مقابلـةِ الإيـوان[١٨٦] ، ويمـدحُ مَلِـكَ الأطيار ، والأمراءَ والحضار ، والكبراءَ والنظار ، وينشدهم جليلَ الأوصـافِ ورقيـقَ الأشعار ، فَمِمَّا أنشدهُ من الأوزانُ فى مناقبِ السلطان ، وقد وَجَّه به الخِطَاب ، إلى العُقَاب ، قولُه :

مَـقَـامُـكَ أَعْـلَـى أَنْ يَـقُـومَ بِـوَصْـفِـه ... بَيَـانُ بليـغٍ أو لِسَـانُ فصيـحِ
أَجَلَّتْكَ عَنْقَا مُغْرِبٍ[١٨٧] فاختَفَتْ فما ... تلـوحُ لطـرْفٍ في البلادِ طَمُـوح

والنسرُ الطائر المقدمُ على العساكر. قد أظلّه بالجناح ، وليس عليه في طلبه سيادةَ الطيرِ جُنَاح ، رابـعُ اللواء ، صافٍ في جـو السـماء ، رئيـسُ الديـر حامِـلُ القُبَّةَ[١٨٨]

---

[١٨٥] الأنيس : الديك .

[١٨٦] الإيوان ، ومنه إيوان كسرى مجلس كبير على هيئة صُفّة واسعة ، لها سقف محمول مـن الأمـام على عقـد ، يجلس فيه كبار القوم وعليه الحضور .

[١٨٧] عنقاء مغرب ، وهى طائر خرافيّ .

[١٨٨] القبة : ما يسمى فى عصرنا بالمظلّة أو الشمسية ، غير أنها أكبر منها بنحو ثلاث مرات . قماشتها من حرير مزركش ومموّه بخيوط من ذهب ، وكانت القبة من خصائص السلاطين وحدهم ، خاصة فى المواكب .

والطبر[189] ، كما قيل :

وَنَسْرٌ تَفِرُّ الطيرُ من قُرْبِ ظِلِّهِ وَفي ظِلِّهِ للسَّعْدِ مأوَى وَمَنْزِلُ

والسنقر[190] في ثوبه الفهري ، وخَلْقه النِّمْري ، أميرُ سلاحِ الجوارح ، ورأسُ عساكرِ السوانحِ والبوارح ، كما قيل :

هُوَ السُّنْقُرُ العالِي بِهِمَّتِهِ الّتي تَعَلّتْ على أيْدي الملوكِ بها يَده

والشاهين[191] الدَّوَادار[192] ، عليه لمصالحِ المَمْلكةِ المدار ، قد تصدَّى لقضاءِ الحوائج ، لِكُلِّ داخلٍ وخارج ، ينظرُ في الولايةِ والعزل ، ويتعاطى الأمورَ بالجدِّ لا بالهزل ، فيقضِي المآرب ، ويوصلُ المطالبَ إلى الطالب ، كما قيل :

طَويلُ العُنقِ رَحْبُ الصَّدْرِ ضَخْم لَـهُ في آل قُسْطَنْطِينَ ضَبْطُ
تَغَشّى مِنْ سَوادِ العين ثَوْباً عليهِ من دَمِ الأحشاءِ نَقْطُ

والكُرْكيّ[193] ، الراطنُ بالتركيّ ، يتحلّى في ثوبه المسْكيّ ، كاتبُ الأسرارِ وصحابُ الأخبار ، لسانُ المَمْلكة ، ومحورُ الفلْكة ، مُستخدمُ السيفِ والقلم ، وفي الفضائلِ والفواضلِ نارٌ على علم ، كما قيل :

وَكُرْكيٌّ يحَيدُ الصَّقْرُ عَنْه هيْبَةِ بَطْشِهِ وَشَديدِ باسهِ

---

(189) الطبر : الفأس . وحاملها يسمى الطبردار ، ويعنى الشخص الذى يحمل الطبر حول السلطان عند ركوبه فى المواكب أو المراكب ، أو غيرها .

(190) السنقر : من الطيور الجارحة التي تشبه الباشق .

(191) الشاهين : طائر من جوارح الطير وسباعها ، من جنس الصقر .

(192) الدوادار : هو الذى يحمل دواة السلطان ، والدوادارية : وظيفة موضوعها نقل الرسائل عن السلطان أو عرضها عليه .

(193) الكُركيّ : طائر كبير أغبر اللون طويل العنق والرجلين ، أبتر الذنب .

والتّمُّ المشهور ، ناظرُ الجيشِ المنصورِ ، صدرُ الديوان ، وقاضي الجندِ والأعوان ، كما قيل :

وَتَـمّ تَـمّ دَسْـتُ الطيْرِ مِنْـهُ | كَقَاضٍ زَانَ أَرْبَـابَ الكِتَابِ[١٩٤]
عَلَيْهِ مِن المَهَابَةِ ثَـوْبُ مَجْدٍ | كَوَجْهِ الطّائعينَ لِذِي الحِسَابِ

والطـاووس ، كأَزْهَي عَـرُوس ، في أفخـرِ مَلْبُـوس ، مقـدَّمٌ على الخـواصّ كالنـاظرِ الخاصّ ، ناشرُ مَرْوَحَةِ الارتياح ، يتجلّى بجمالِ هيئتِه الفـائق على الوُجُـوهِ المِلاَح ، كما قيل :

ثَـوْبُـهُ قَـدْ حَـارَ فيـه | كُـلُّ صَبّـاغٍ عَلِيـم
ولِسَـانُ الحُسْـنِ نَـادَى | صِبْغَـةُ اللهِ الحكيـم
فَـيَرُوقُ العَين مِنْـهُ | فَـوْقَ أَوْصَافِ الكَلِيم

والبازي[١٩٥] الأميرُ الكبير ، صاحبُ الرأي والتدبير ، أميرُ المَيْمَنَة ، قد رَتّبَ صفّه وزيّنه ، كما قيل :

وَبَـازٍ أَشْهب عَيْنَاهُ جُـمْرٌ | يُضيءُ وَفِى جَنَاحَيْهِ النَّجَاحُ

والصَّقْرُ الشّهْم السابقُ فى الطـيرانِ الوَهْـم ، أمـيرُ المَيْسَـرة ، قـد فـاق بِشـهامتِه عَسْكَره ، كما قيل :

وَصَقْـرٍ إنْ يَلحْ فِي القَفْرِ ظَبْيٌ | أُتِيـح لـهُ مـن الجـوِّ انصبابا
أَقَـامَ بِمخْلبٍ عـن شَهْمٍ سَهْمٍ | وَكَـسَّرَ عن قَوِيِّ النَّابِ نَابَا

---

[١٩٤] الدست : في الأصل يتكوّن من أربعة كراسى لكتاب يكتبون بما يريـد السـلطان ، ويسـمون كتبـة الدسـت ولهم حق التوقيع نيابة عن السلطان .

[١٩٥] البازى : نوع من الصقور ، ينتمى الى الفصيلة الصقرية وله مهارة فائقة فى الصيد .

والباشقُ[١٩٦] الجاووش[١٩٧] ، ورأسُ نَوْبَةِ العساكرِ والجيوش ، كما قيل :

انظُرْ إلى الباشِقِ في صَيْدِهِ   يَنْقَضّ كَالسَّهْمِ مِن الرَّاشِقِ

يقفو حماماً مِثْلَ مَعْشُوقَةٍ   أَتْبَعَهَا الحبّ حَشَا العاشِقِ

والببغاء تتحَلّي في الحُلّة الخضراء ، وتَنْثُرُ من الخاتمِ الياقوتِ دُرَرَ الثناء ، وتُخْبِرُ بعجَائِبِ الهنْد ، وتسرُدُ غرائبَ رغائبِ السِّنْد ، كما قيل :

تَسَمَّتْ دُرَّةً لكنْ كَسَاها   حَكِيمُ الصُّنْعِ ثَوْباً من زَبَرْجَدِ

ومَنْ لها بِمِنْقَارٍ عَقِيقٍ   وخَاطَ شِعَارها مِنْ عَيْنِ عَسْجَدِ

والهُدْهُدُ لاَبِسُ التّاج ، ينهي إلى مُوَقِّعِ الدِراج[١٩٨] ، الأخبارَ المارة ، والأحوالَ السَّارّة ، كما قيل :

وَهُدْهُدٌ أُلْبِسَ ثَوْبَ البَها[١٩٩]   فَعَمّ إِذْ خَصّ بِصِدْقِ النَّبَا[٢٠٠]

أَغْرَبَ إِذْ شَرَّقَ في حُسْنِهِ   فَفَاقَ أَهْلَ التَّاجِ حَتّى سَبَا[٢٠١]

والحمَامُ مُقَدّمُ البريديّة ، يترَدَّدُ في مَواقفِ العبوديّة ، والعصافيرُ كالمماليك الأجْلاَبِ[٢٠٢] في الكُتّاب ، يدرسُون العلمَ والآداب ، والبلبلُ والهزار ، ومُطَوّقَاتُ الأطيار ، وساجعاتُ الأسْحار ، مُسَبِّحاتُ الواحدِ القهار ، يتناشدُون الأشعار ،

---

[١٩٦] الباشق : نوع من جنس البازى ، من فصيلة العقاب النسرية ، وهو من الجوارح ، يشبه الصقر ، ويتميّز بجسم طويل ، ومنقار قصير ، بادى التقوس .

[١٩٧] الجاووش : رتبة عسكرية ، وفى الأصل بمعنى صاحب ، وهو أيضا الدليل فى الحروب ، ومأموز أخبار واستخبار ، وهو رئيس العشرة .

[١٩٨] الدّراج : كُتّابُ الدرج أو الإنشاء . ويعبر عنهم فى عصر المؤلف بالمُوَقّع .

[١٩٩] البها : البهاء .

[٢٠٠] النبا : النبأ .

[٢٠١] سبا : سبأ (ملكة سبأ) .

[٢٠٢] المماليك الأجلاب : فرقة من المماليك الجُدُد يشترى السلطان جنودها لنفسه .

ويردّدْن نغماتِ الأوتار ، ومطرباتِ رنّاتِ الأوْطار ، وضروبَ ضُـروبِ الموسيقاتِ من جُنْكِ المنقار[٢٠٣] ، والشحرورُ والزرزور . وذواتُ الهديـلِ مـن الطيـور ، حتـى جنـاحِ الزنبـور ، تُغَرِّدُ فتخجـلُ العُـودَ والطنبـور . وزواجـرُ الطـير ، تُبَشِّـرُ بـالفرحِ والخير ، وأنواعُ الجوارحِ في الحافّات ، والطيرُ في الجوِّ صافّات ، كلٌّ يفدّي المِلِـكَ ، ويقدّم جسدَه وروحَه ، ويسبح مَنْ أتَاه المُلْكَ ، كلٌّ قد علمَ صلاته وتسبيحه .

فتقدَّم اليؤيؤُ إلى الحضرة ، والمِلِكُ في أبهى نضرة ، وَقَبَّلَ مواطئَ سلطانِه ، ووَقَفَ من مكانِ خدمتِه في مكانِه . وقال شَخْصٌ عارِفٌ بطرائـقِ السـلوك ، يليـقُ لخدمـة الملوك : واقفٌ بالباب ، يَرُومُ تقبيلَ الأعتاب ، يطلب لذلك الدستور[٢٠٤] ، والإنعام بإذْنِ الحُضُور ، ليشمَلَه النظرُ الشـريف ، ويحظَـى بحـظٍّ وريـقٍ وَرِيـف ، هـلْ يرجِـعُ كالمصروفِ عن خدمته ، أو يدخلُ كالدولة والإقبال ؟ فعطـف بـالقبول ، وأذن لـه بالدخول ، وسمح بالمثول . فَتَوَجَّهَ اليؤيؤُ على عَجَل ، فدخل إلى الحَجَل ، وهـو مـن الحَيَاءِ متـأثّر ، وفي ذَيْـلِ الدَّهْشَـةِ والهيْبَـةِ مُتَعَثِّر ، وعليه غُلالـةٌ سـابورية ، وخِلْعَةٌ نيسابورية ، مُشتملا بشَمْلَةٍ كافورية ، كأنه شيخُ الصوفيـة . فلمـا وقـع نظرُه علـى العُقَاب ، قَوِيَ جأشُه ورُفِعَ الحجاب ، وَحَلَّ عُقْدَةَ لسـانِه مـن لَكْنَـةِ الخِطـاب ، ثـم قبّل الأرضَ ووقف ، وأنشدَ بديهاً وما وقف :

وَلَـوْ أنَّ فَغْفُـورَ أَوْ كسـرى وَتُبَّعَـا رأوْك لخَرُّوا بين أيـديك سُـجَّـدَا
وَمَـا أنْ وَفَـوْا حَـقًّـا عليهُم وإنَّمَـا على قَدْرِ ما في الوُسْعِ مَدَّ الفَتَى يَدَا

فابتدر اليؤيؤ ، بلفظٍ يُخجِلُ اللؤلؤ ، وقَالَ للحَجَل ، يريد إزالةَ الدَّهشـةِ والخَجَـل ، وطيبَ المقام ، ببسْطِ الكلام : أيها الغريـبُ الأريـب ، والأديـبُ النجيـب ، رأينـاك

---

[٢٠٣] أى أنواع الألحان الموسيقية التى يضربها العازفون على الطبل الكبير ، أو الطنبـور ، والجنـك هـو الطنبـور ، من آلات الطرب الوترية (معربة) .

[٢٠٤] الإذن بالدخول أو المرور .

روحاً مُلَخَّصًا ، وعقلاً مُشَخَّصا ، صُحْبَتُك مرغوبة ، ومنادمتُك مطلوبة ، لقد حَلَلْتَ مَحَلَّ الأمنِ والأماني ، وعقدةَ السَّعْدِ والتهاني ، فَدَعْ دَهْشَتَك ، وذَرْ وَحْشَتَك ، وافْصِحْ بكلامِك عن كمَالِك ، وعن مقامِك بمقالك ، فعباراتُك عَقيلةُ العقل ، وواسطةُ عُقودِ النقل ، فإنْ كان عندك نصيحةٌ تصلُحُ للملوك ، أو وصيّةٌ ترشدُ أهلَ السُّلوك ، يبيّن العدلُ بنورِها طرائقَه ، وَيَزَيَّنُ العقلُ بمجازِها حقائقَه ، وتستقيمُ بها الأمور ، ويستفيدُ منها الجمهور ، أو نَوْعُ رَفْعِ مظلمة ، أو حطُّ مأثمة ، أو كَشْفُ بلوى ، أو بَثُّ شكوى ، أو حاجةٌ في نفسِك ، وما قاسَيْته في يومِك وأَمسِك ، أو لطيفةٌ تشرحُ بها الصدور ، وتبسطُ بإيرادِها الحضور ، فهذا وقتُ تشنيفِ المسامعِ بجواهرِها ، ونثرِ دُرَرِها ، على بادي الحاضرين وحاضرِها ، فإنَّ المحلَّ قابل ، وعنك الإصغاءُ إلى أطواقِ لطائفِك مائل ، ومجالَ الحِلْمِ لذلك واسع ، وسجالَ الكَرَمِ داسع[٢٠٥] ، وفاعلَ الصنيعةِ صانع ، وكفَّ اللُّطْفِ مُعْطٍ لا مانع .

فقال الحجل ، بعد أنْ زال الخجَل وحال الوجَل ، وجَالَ الزجل[٢٠٦] ، من غيرِ رَيْثٍ ولا عَجَل : الحمدُ للهِ الذي آسَى جراحَنا ، وأحيا بعد التلفِ أرواحَنا ، قد كُنّا في بيداءِ الحَيْرة والهلاك ، وظلماء الضرّ والخوفِ في انهماك ومَرَّتْ علينا سُنون ، ونحن في الخَسَار والغبون ، ونارُ الاشتياقِ تضطرم ، وبواعثُ تقبيلِ الأعتابِ الشريفةِ السلطانيةِ في الفؤادِ تَزْدَحِم ، إذ قد انتشرَ جَنَاحُ عدلها ، ونجاحُ ظلّها ، وسماحُ وابلِها وطَلِّها ، وكرر كُلُّ لسان محامدَ فضلِها ، واشتهر لِكُلِّ حيوانٍ مآثرُ نُبْلِها ، فهي أمانُ كُلِّ مَخُوف ، وملجأُ كُلِّ ملهوف ، لكنْ كانت العوادي تقرعُ تلك الدواعي ، وغواشي الحوادثِ تعترضُ دونَ المساعي ، تارةً باكتنافِ المخاوف ، وطوراً

---

[٢٠٥] داسع : دافع .

[٢٠٦] الزجل : الصوت الموّقع المنغّم العالي .

باحتفافِ الخواطف ، وحيناً بضعفِ المباني ، وأونةً بعدمِ المعاونِ والمُعَاني[٢٠٧] .

والآنَ يامَلِكَ الزمان ، بحمدِ اللهِ المَنّان ، أَزَحْنـا المهالكَ والمهاوي ، واسترحْنا من ضربِ المسالكِ والمساوي ، إذ قد طِرْنا بجَنَاح النَّجَاح ، من جُنْحِ الجُنَاح ، وصِرْنا إلى مَحَلِّ السَّماح والرباح ، فزالتْ العلل ، وانسدّ الخلل ، وحَلَلْنا في عَقْوَةٍ[٢٠٨] منيفة ، وسُدَّةٍ[٢٠٩] شريفة ، فأَمِنّا شَرَكَ المكايد ، وشَرَرَ المصايد ، وتوسَّدْنا مِهَادَ الدِّعة ، واسْتَظْلَلْنَا جَنَاح الأَمْنِ والسَّعَة . وإنّه قد قيل "عَدْلُ السُّلْطَان ، خَيْرٌ من خِصْبِ الزمان" وقيل : الملكُ العادل ، والإمامُ الفاضل ، كالأبِ الشفيق ، والوالدِ الرفيق ، يعاملُ بالسوية ، ويحفظُ الرعية ، ويحرسُها من بردِ الماءِ وحَرِّ النار ، كما يحرسُ الوالدُ الوَلَدَ من هبوبِ الهواءِ وشَمِّ الغبار ، وقلتُ :

نَزَلْنَا في ذُرَى مَلِكٍ كريمٍ	يرانا مِثْلَ أَوْلَادِ الكِرَامِ
أَضَلَّ نوائِبَ الأيامِ عَنَّا	فَلَمْ تَرَنَا وَلاَ في الاحْتِلامِ
وَلا مَطَرَ السماءِ يصيبُ مِنّا	كَأَنَّ مَقَامَنَا فَوْقَ الغَمَامِ

فقالَ الملِكُ : أهلاً وسهلا ، وناقةً ورَحْلا ، طِبْ قَلْباً وَنَفْسَا ، واهنأْ مَغْنَىً وحِسّا ، لقد حَلَلْتَ بساحةِ الاستراحة ، وباحةٍ للأمنِ مُبَاحة ، وقاحةٍ[٢١٠] ليس لصائدٍ بها وَقَاحة ، ولا لجراحةِ جارحٍ بها جِراحة ، وقد خَلَصْتَ من جواسرِ الكواسر ، ومناسرِ النواسر ، ونزلْتَ بوادي الخير ، ونادي مَلِكِ الطير ، فَأَكْرَمْتَ صَدْرَ منزلِك ، ونِلْتَ غايةَ أَمِلِك ، فاذهبْ بسلام ، وآتِ بما لَكَ من خادمٍ وغلام ،

---

[٢٠٧] المعاون والمعانى : المساعد والمعين .

[٢٠٨] عقوة : المكان المتسع أمام الدار أو المحلة أو حولهما .

[٢٠٩] سُدّة : سرير العرش .

[٢١٠] قاحة : ساحة .

وأهلٍ وثَقْل[٢١١] ، وفرسٍ وجمل . وأثاثٍ وقماش ، ومعاشٍ ورياش ، وتَخَـيَّرْ مكانـاً تختار ، وجاراً حَسَنَ الجوار .

فقال : أيها الملكُ السعيد ، أنا شخصٌ فريد ، فقيرٌ غريبٌ فقير ، لا إبريقَ لي ولا حصير ، وقلتُ :

أَنـا لَوْلاَ الحَيَا وخَـوْفَ العـارِ لم أكُـنْ في الأنـامِ إلا عارِ[٢١٢]

مَـنْ رَآنـي فَـقَـدْ رآنِـي وبَيْتِي ودِثَارِي وَمَرْكَبِي وشِعَارِي[٢١٣]

غَيْرَ أنَّ لي قرينة ، مثلي فقيرةً مسكينة ، صابرةً علـى السـرّاءِ والضـرّاء ، قَضَيْنـا معـاً ماضِيِ الصباحِ والمساء ، لم يترك عقيلُ الحوادثِ لنا دارا ، ولا يَدُ العوابثِ عِقَالاً ولا عَقَارا ، ولا مَخْلَبُ العوائِث جاراً ولا جوارا ، ولا نابُ الكوارثِ ولداً ولا قـرارا . والويلُ كُلُّ الويل ، لِمَنْ كان مستقرُّه في طوارقِ الليل ، ومن حـوادثِ الدهـرِ على طريقِ السَّيْل ، وقد طالَ الكلامُ في كَيْتَ وكَيْتَ ، وقضايا ذَيْـتَ وذَيْـتَ ، إلى أنْ لم يبـقَ في البيـتِ سـوَى البيت . ولمـا بلـغَ سَيْلُ العَـرِمِ الزُّبـى[٢١٤] ، وحِـزَامُ الهَـمِّ الطُّبى[٢١٥] ، ومَا حَالُ مَنْ يَرَى أَفَلاذَ كَبِدِهِ تتقطع ؟ ويشاهدُ كـلَّ وقـتٍ قُـرَّةَ عينـهِ بمخاليبِ الجوارحِ تتبضع[٢١٦] ؟ ولا يَدَ للمدافعةِ تَمْتَدّ ، ولا نهضَةَ للمُمَانعة تَشْـتَدّ ، فينشد :

كَفَى حَزَنـاً أنّي أَرَى مَنْ أُحِبُّهُ رَهينَ الرَّدَى يَرْنُـو إليَّ بِطَرْفِهِ

---

[٢١١] الثّقْل : البطيء من الدواب .

[٢١٢] عار : عاريا .

[٢١٣] الشعار : ما ولي جسد الإنسان دون ما سواه من الثياب .

[٢١٤] الزبى ، جمع زبية ، وهى الرابية لا يعلوها الماء .. وفى المثل بلغ السيل الزبى ، يضرب للأمر إذا اشتد حتى جاوز الحد .

[٢١٥] الطبى : حَلَمَةُ الضرع ، والمعنى أن الهمّ قد بلغ الغاية .

[٢١٦] تتبضّع : تتقطع وتتمزّق .

أَوَدُّ بِمَالِي لَوْ يُفَدَّى ومُهْجَتِي وَلَكِنْ يَدُ التقديرِ غَالَتْ بِحَتْفِهِ

وَلَمّا تكرّر ضرُّ أيوب ، وتضاعفَ حزنُ يعقوب ، تركنا تلك الديارَ بالاضطرار ، وعلى أبوابك الشريفةِ وَقَعَ الاختيار ، فَرَصَدْنا للتحويل أَيمنَ الساعات ، واخترنا للرحيلِ أحسَنَ الأوقات ، ثم صَمَّمْنا العزيمة ، ونادانا هاتفُ السعدِ : أَسْرِعا نَدِيمَيْ جَذيمة ، فقطعْنا المَهَامِهَ[٢١٧] والقِفار ، وسَرَيْنَا الليلَ والنهار ، فَكَمْ رُغْنَا عن أبي الحُصَيْن ، ولقينا ما لاَقَى الحُسَيْن ، بكربلاء ، من الكَرْبِ وَالبَلاَء ، وكَمْ لجأنا من بني زغار ، إلى كَهْفٍ وأَجَمٍ وغار ، واحترزْنا من قنافذ ، وأفعوانٍ ذي سمٍ نافذ ، ونَفَرْنا من حبَّاتِ إشراك ، وحِذْنَا عن أَوْهَاقِ[٢١٨] شِباك ، واخترنا الجوع ، وعدمَ الهجوع ، على الحَبِّ المبذور ، لاصطيادِ الطيور . كلُّ ذلك ، في المسالك ، والسعدُ قائدُنا ، والفلاحُ رائدُنا ، واليُمنُ دليلُنا ، وظلالُ أَمْنِكَ ظليلُنا ، وفي تهاني سعدِك مبيتُنا ، وكنفِ فضلِك مقيلُنا ، حتى حلَلْنا بدارِ الأمان ، ونزلْنا بحرمِ مولانا السلطان ، فنادانا فَضْلُ خالقِ الورى : لا تخافا إنني معكما أسمع وأرى ، أَلْقِيا عَصَا التَّسْيار ، وانزِلا عندَ خيرِ جار ، فتركتُ القرينة ، في منزلةٍ حصينة ، وكلُّ بلادِك أمينة ، وأَمَمْتُ مقامَكَ الشريف ، وجنَانك المنيف ، مقاماً عظيما ، وجناباً كريما ، ومجلساً عاليا ، وباباً ساميا ، فتوخيت ، ثم نوديت :

هَذَا هُوَ المِلِكُ الذي من بابِهِ يُعطِي المخوفُ أمانَه لِزَمَانِهِ
عَمَّ الورَى إحسانُهُ فَكَأَنَّمَا أَرْزَاقُهُم كُتِبتْ على إِحْسَانِهِ

ثم نهضَ اليعقوبُ من مكانِه ، وقبَّل الأرضَ بين يديْ سلطانِه ، وتَوَجَّهَ فائزاً بأمنيته ، حتى وصل إلى حَليلتِه ، فأخبرها بما جرى ، بتخبيرِ المشترى ، وكيفَ رأى

---

[٢١٧] المهامَة : الصحارى الشاسعة ، المفازات .

[٢١٨] الوهق : الحبل فى أحد طرفيه أنشوطة .

اليوزِ والملك ، وصورة ما فعل به وسلك ، وكيف تلقّى مَقْدِمَه ، وأكرمه الملك بما أكْرَمَه ، وقرَّر كيف كان خطابُه ، وعلى أيِّ صورةٍ حسناءَ رَدَّ جوابه . فَسُرَّ صدرُها وانشرح ، وطارت بهذا الأمرِ من الفرح . ثم توجَّها إلى حضرةِ السلطان ، وحصل لهما من الإنعَام والإحسان ، ما نسيا به الأوطان ، وسَلَكَا بنَفْسٍ مطمئنة ، في خِدْمَةِ الملكِ مع الجماعةِ وأهلِ السنة . وخُوطِبَ اليعقوبُ من المِلكِ : اسْكُنْ أنْتَ وزوجُك الجنة .

فلمّا استقرّت بهما الدار ، وتبدّل انكسارُهما بالانجبار ، أُفيضَ عليهما من الصّدقات ، والإدْرَارات والنّفقات ، ما لم يخطرْ ببالهما ، ولا دار على خيالهما ، وحَصل لهما الأمنُ والأمان ، والسلامةُ والاطمئنان ، وانشرحت خواطرُهما ، وابتهجتْ بالسكونِ سرائرُهما . واستمرّ النجديّ ملازمَ الخدمة ، وتوفّرت عند المِلكِ واتباعِه له الحرمة ، وسُمِعَتْ كلمتُه ، وتزايدتْ حِشْمَتُه ، ولم يزلْ صبيحَ الطلعة ، نجيحَ السعي والنجْعة ، وَضِيَّ المنظر ، مَقْضِيَّ الوطر ، يرتعُ على بساطِ النشاط ، ويطيرُ في رياضِ الأمنِ والانبساط ، مؤدياً شرائطَ الخدمةِ على الوجهِ الأحسن ، قائماً بمواجبِ العبوديةِ مهما أمكن ، إلى أنْ تميَّزَ على سائرِ الخَدَم ، وتقدَّم على السابقينَ في القِدْمَةِ وثَبَاتِ القَدَم ، ناشراً ألويةَ النصيحة ، ناثراً الأثنيةَ الصريحة ، منادماً باللّطائِف الصحيحة ، والنوادرِ المليحة ، بالعباراتِ الفصيحة ، والإشاراتِ الرجيحة ، حافظاً زمامَ الاحتشام ، مراعياً مقاماتِ الكلام ، على مرِّ الأيام ، وكرِّ الشهورِ والأعوام . ثم ختم الكلام ، في هذا المقام ، بأعظم ختام . وهو : حَمْدُ اللهِ المِلكِ العلاّم ، وَشُكْره المسْتدعِي لمزيدِ الإنعام ، والصلاةُ والسلام ، على سيِّدِ الأنام ، وآلِه وأصحابه السادةِ الكرامِ عليه وعليهم أفضلُ التحيةِ والسلام .

وحسبنا الله ونعم الوكيل ، ولا حول
ولا قوة إلا بالله العليّ العظيم

الباب العاشر

في مُعاملةِ الخادمِ والأحبابِ والأعداءِ والأصحاب
وبه تمّتْ أبواب الكتاب

قال الشيخُ أبو المحاسن ، الراوي من الأدبِ الأحَاسِن : فلمّا أبانَ الحكيم ، عن هذا الفضلِ الجسيم ، وكشفَ نقابَ البيان ، عن مخدّراتِ[1] هذا التبيان ، فَتَلألأَ من وراءِ سَجَفِ[2] ألفاظِه وجوهُ معانيه الحسان ، وعَظُمَ في أعينِ الأعاظِم ، وكَبُرَ لدى الأعرابِ والأعاجم ، ورفعه أخوه ، وعظّمه ذووه ، فأضاء منارُه ، وعلا مقدارُه ، وملأ الآفاقَ أنوارُه ، ووقع من الملكِ على الاعتمادِ عليه اختيارُه ، ثم استزادَه من فيضِ هذا اليُعبوب[3] ، واستقصاه من حوضِ هذا الشُّؤْبوب[4] ، واستطعمه من أخبارِ العُقَابِ واليعقوب[5] ، إنْ كان ثَمَّ بقية ، تجلو القلوبَ الصديّة . فامتثل الإشارة ، وحسن العبارة ، وقال :

---

[1] المخدرات : حسناوات ، وهو تعبير مجازى يعنى به ما هو مستتر من حكم وأمثال ، وقصص وأقوال .

[2] سجف : ما هو مستتر من لفظ ، شرع فى إرساله وقوله .

[3] اليعبوب : العُباب ، ويعنى به هنا : هذا الكمّ الهائل من القصص والحكايات والعبر والأمثال .

[4] الشؤبوب : الدفعة من المطر ، وهى هنا - على سبيل المجاز - بمعنى طلب المزيد من القصص (حلقات جديدة) .

[5] كنية ذكر الحجل في الباب السابق .

ثم إن أبَا الحجَّاج(٦) ، دعا أبا الدجاج(٧) ، واختلى به دونَ أصحابه ، وقال لـه : اعلمْ يا جليسَ الخير ، وأنيسَ الطير ، ورئيس الدير ، أنّي تحمّلْتُ(٨) مـن اليوِيـؤ المِنّـةَ العظيمـة ، والجميلـةَ الجسيمة ، حيثُ أرشـدَك إلى بـابي ، ونظمَـكَ في سِـلْكِ أصحابي ، ولا جَرَمَ إنه قامَ بما يجبُ عليه ، وعرفَ مقدارَ إحساني وميلي إليه، وإنه لأوْثَقُ أعواني ، وأصدَقُ خِلاّني ، وصاحبٌ قديـم ، ومخلصٌ عديـمُ النظيرِ نديـم ، وصديـقٌ كـافي ، ونـاصحٌ مصـافي ، وإنـيّ لأتَيَمَّـنُ بطلعتـه ، وأتـبرك بمشـاهدته ، وأستنجحُ بآرائه ، وأستصبحُ في المهمّات المظْلمة بلامعِ ضيائه ، ولقـد حصـل منـك على عَضُدٍ مُعَاضِد ، وساعدٍ مُسَاعد ، وكهـفٍ وذخـر ، وسندٍ وظهـر ، فإيّـاك أنْ تترك ذَيْلَ مَوَدَّته ، أو ترغبَ عـن صحبتِه ومحبتـه ، وأنْ تقتصـرَ يـا ذا الوقـوف ، في صدقاته على الوقوف ، فأفضلُ المحبّة ، وأكْمَلُ المودَّة ، ما تزايدَ علـى مَرِّ الدُّهـور ، وترادفَ على كَرِّ العُصور ، وثَبـتَ أصلُـه ، غَـزُرَتْ فروعُـه ، وفـاضَ مـن سـويداءِ القلبِ على مجاري الجوارح نبوعُه ، بحيث يقعُ الاتحاد ، وينمـزجُ بالصفـاءِ البودَاد ، فقد قيل لا تصحُّ المحبةُ بين اثنين ، حتى يصـيرا كـالعينيْن ، حيثمـا نظـرتْ إحداهمـا شَزَرا ، مالت معها تابعةً الأخرى ، بل يصيرا كالنفسِ الواحدة ، لا كُلٌّ واحدةٍ على حِدَة ، ولا كما تقول الملاحدة ، بل يَكملُ لكلٍّ واحدٍ بـالآخرِ الهنـاء ، ويحصُـلُ لـه بوجودِه السناء ، وإذا خاطبه قال "يا أنَا" ولا تعملْ يا أكمل ، كما قيل :

مَلأْتُ حُشَاشَتِي شَوْقاً وحُبّـا ... فإنْ تَـرُم الزيـادةَ هـاتِ قلبـا .

---

(٦) كنية العقاب ، ملك الطير فى الباب التاسع .

(٧) كنية ذكر الحجل فى الباب التاسع .

(٨) تحملت : اعترافا بفضله وإقراراً بمعروفه وجميله .

فـإنَّ الفتّاحَ عنـده الفتـوح ، وبـابَ الفضـلِ والزيـادةِ مفتـوح ، وكَـرَمُ اللهِ لا يضَاهَى ، وفضلُه كعِلْمِه لا يتناهَى ، وانظرْ يافضيل ، وذا العلـمِ العريـضِ الطويـل ، إلى ما قيل ، وهو :

أَيُّهَـا السَّائِلُ عَنْ قِصَّتِنـا أَنا مَنْ أَهْوَى وَمَنْ أَهْوَى أَنا
نَحْنُ رُوحـانِ حَلَلْنَا بَدَنَا مَنْ رَآنـا لم يُفَـرِّق بيننَـا
نَحْنُ مُذْ كُنَّا عَلَى عَهْدِ الهَوى تُضربُ الأمثالُ لِلنَّـاسِ بِنَـا
فـإذا أَبْصَـرْتَـهُ أَبْصَرْتَنِي وإذا أَبْصَرْتَنِي أَبْصَـرْتَنَـا

وألطفُ من هذا وأرْصَن ، ما قاله القائلُ وأحسن ، وهو :

أَنَـا وَالْمحبـوبُ كُنَّا فِي القِدَم نقطـةً واحـدة من غيرِ مَيْنِ
فَـبَرَانَـا اللهُ إذْ أَظْهَـرَنَـا مُهْجَةً واحـدة في بَدَنَيْن
فإذا ما الجسْمُ أمسى فَانِيـا تَلْتـقِيـا واحـداً من غيرِ بَيْن

ولقد ذكَرك عندي بأنواعِ الفضل ، وبوفـورِ التجـاربِ والعقـل ، وهـذا يـدلُّ على نصحِـه وقـوةِ دينـه ، وصدقِـه في المحبّـةِ وحسـنِ يقينـه ، ولم يذكُـرْ غـيرَ الواقِـع ، ولاجازفَ فيما أنهاه إلى السّامع ، بل قال قليلاً من كثير ، وقطـرةً مـن غديـر ، ولم يخبرْ بذلك غيرَ خبير ، فإني أعرِفُك كمـا عَـرَف ، ووقفْـتُ على فضائلك كمـا وَقَف ، ثم أنتَ عندي فوقَ ما وَصَف ، فأريد منك نصائح ، بالخير لوائح ، تتضمَّنُ فوائد ، وعوائدَ وفرائد ، تكونُ لِنَهَـمِ الحِكْمَـةِ موائـد ، ولِشـهمِ[٩] الحكّـامِ قوائـد ، ولنحورِ ألْبابِ المعقولِ وأربابِ المنقولِ قلائد ، ولِضَبْطِ أساسِ الْمُلْكِ والدِّيـنِ قواعـدُ وعقائد .

---

[٩] الشهم : الذكى السديد الرأى .

فَتَلقّى مِثاله بالامتثال ، وقبّل الأرضَ في مقام العبودية وقام وقال : لِنُحِطْ العلومَ الشريفة[10] ، والآراءَ العاليةَ المنيفة ، أنَّ صانعَ العالم ، تعالَى وتعاظَم ، بَنَى أمورَ المبدأ والمعاد ، وما بينهما من معاشٍ مستفاد ، على دليلينْ عظيمَيْن جليلَيْن ، أَحَدُهما : العقلُ الذي هو مَنَاطُ التكليف . وثانيهما : قوعدُ الشَّرْعِ الشريف . فإنْ أردتَ أن تكونَ سعيدَ الدارَيْن ، فاستمسكْ بأذيالِ هذيْن الدليليْن . أما العقلُ فهو الدليلُ القاطع ، على وجودِ الصانع ، وهو مستقلٌّ بالقطع ، غيرُ محتاجٍ إلى السمع ، وكما هو مستقِلٌّ بالدلالةِ على وجودِ ذاته ، كذلك هو مستقلٌ بالدلالةِ على تحقيقِ صفاتِه ، ثم وَرَدَ بذلك الشرع ، فتأكّدَتْ في وجودِ الصانعِ دلالةُ العقلِ بالسمع . وأما وحدانيةُ الصانع ، فَكُلٌّ مِن العقلِ والنقلِ دليلٌ عليها قاطع ، وقد تَظَافَرا[11] بالاستباق إليه ، وتظاهَرَا في الدلالةِ عليه ، بقولِ الكافرِ يومَ المصير : لَوْ كُنّا نسمعُ أو نعقلُ ما كُنّا في أصحابِ السعير . وبالعقلِ والسمعِ يستقيمُ أَمْرُ المبدأ والمعاش ، وبالسمعِ فقط مَيِّتُ المعَادِ عاش ، لأنَّ أُمُورَ المعَاد ، من الشرعِ تُستفاد ، والعقلُ في ذلك تابعٌ سامع ، لأوامرِ الشرعِ طائع ، والمسموعُ في ذلك دليلٌ قاطع .

وعلى كلِّ تقديرٍ أيها الملِكُ الكبير ، فاجعلْ العقلَ وزيراً ، تجدْهُ لك في ظلماتِ المشكلاتِ سِراجاً منيرا . واتخذْ النَّقْلَ هادياً ونصيرا ، يكُنْ بينكَ وبين الذين لا يؤمِنون بالاخرةِ حجاباً مستورا . وعَامِلْ الرعيّةَ بالعدلِ ، يعامِلْكَ الله بالفضل . واعلمْ أن الدنيا في معرض الزوال ، وأنه لاَ بُدَّ عنها من الانتقال ، وأنَّ الله سبحانه وتعالى ، وجل سلطانُه جلالا ، اقتضت حكمتُه ، وجرت بين عبادِه سُنّته ، أنْ يكونَ الإنسان على خلافِ ما فطره الرحمن ، فإنّه خَلَقَه للعبادة ، ورَكّبَ فيه

---

[10] العلوم الشريفة : يعنى إحاطة ملك الطير علما بما لدي الحكيم من موضوعات وقصص .

[11] تظافرا : تعاونا .

عِنَادَه ، وأقامَه للعمَل وجَبَلَه على الكسل ، فأمرَه بالصلاةِ وهو كسلان ، وبالصومِ وهو شَهْوان ، وبالزكاةِ وحَبَّبَ إليه المال ، وبالحَجِّ وكرَّه إليه الانتقال ، وبالرِّضا وركّز فيه الغضَب ، وبالتسليمِ والصبرِ وَخَمَرَه بالضَّجَرِ والصَّخَب ، وبالتواضعِ ووَضَعَ فيه التِّيه ، وبالتَخلُّقِ بأخلاقِ خالقِهِ وفيه ما فيه ، وحكَم عليه بالموت ، وقد تحقّقَ أنه ليس له منه فَوْت ، وهو يكرَهُ عن الدنيا التحويل ، وأقلُّ أقسامِه أنّه يحبُّ العُمْرَ الطويل ، وعلى هذا قد تعوّد ، أن يفعلَ في المكانِ المتزوّد ، أفعالَ المقيمِ المؤبّد ، والدائمِ المخلّد ، وبنى بناءَ مَنْ لا ينتقل ، وعن قليلٍ يتركُه ويرتحِل ، لا سيَّمَا مَنْ تعلّقَ بالدنيا قلبُه ، وتشبَّث بالمالِ والولدِ والجاهِ والتّحكمُ حُبُّه ، وقد أخبرَ العزيزُ الوهاب ، في أصدقِ كتاب ، وأوثقِ خطاب ، فقال ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ والْبَنِينَ والْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ من الذَّهبِ والْفِضَّةِ والْخيْلِ المسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والحرْثِ ذلكَ مَتَاعُ الحيَاةِ الدُّنْيَا واللهُ عِنْدَه حُسْنُ المآب﴾[12] فالنفسُ مائلةٌ إلى الإقامة ، راغبةٌ في دوامِ السلامة ، تحبُّ طولَ العمرِ في الزمان ، وإن أحوجَتْ الثمانون[13] السمعَ إلى تُرْجُمَان ، وقد قيل :

وأَحْسَنُ مَا كَانَ الفَتَى فى زَمَانِهِ   مَعَ السَّعْدِ والجاهِ العظيمِ مُعَمَّرا .

وأشهى ماسمع الحاكم ، وألذ ما تلقّاه من قولِ الناظم ، قوله :

فَلاَ زِلْتُ بَيْنَ الوَرَى حاكِمَا   بجاهٍ عريضٍ وعُمْرٍ طويل

ولقد بلغني يا ملكَ الزمان ، أن الملكَ العادلَ أنوشروان ، كان بَنَى أساسَ مُلْكِهِ على العدل ، وعامل رَعِيَّتَه بالإحسانِ والفضل ، ويكفيه من الفضائل ، وحُسْنِ الشمائل ، قولُ سيدِ الأواخرِ والأوائل : "وُلِدْتُ فى زَمَنِ المَلِكِ العادل" وقال

---

[12] قرآن كريم ، سورة آل عمران : ١٤ .

[13] الثمانون : الثمانون عاما من عمر الإنسان .

الرحمن ، فى محكَمِ القرآن : ﴿إِنَّ اللهَ يأمُرُ بِالْعَدْلِ والإِحْسَانِ﴾[١٤] وقد قيل ، في الأقاويل : "**لا مُلْكٌ إلا بالرِّجال ، ولا رِجَالٌ إلاّ بالمال ، ولا مالٌ إلاّ بالعِمَارة ، ولا عِمارةٌ إلاّ بالعدْل**" فلا مُلْكٌ إلا بالعدل ، ومن أقوى الصفاتِ العَدْليّة ، عمارةُ بلادِ الرعيّة ، وبَذْلُ الجهْدِ في العمارة ، لِيَكْثُرَ الربحُ وتقلُّ الخَسَارة ، فإذا عُمِّرت البلاد ، وتَرَمَّمَ الطريفُ والتِلاد ، حصلَتْ الأموال ، وكثرتْ الرجال ، وانتظمتْ الأحوال .

[١٠/١] حكاية أنوشروان مع الفلاح الهرم

فلقد بلغني يا ملكَ الزمان ، أنّ المِلكَ أنوشروان ، كان مارّاً في سيرانه ، بين جنده وأعوانه ، فرأى شيخاً كأنهُ قَوْسُ قَطّان[١٥] ، نَثَرَ على رأسِهِ قَزَعُ أقطان[١٦] ، وهو في بعضِ البساتين ، يغرسُ نَصبَ[١٧] تين ، فتعجَّبَ من انحناءِ قامته ، وبياضِ هامتِه ، مع شدّةِ حرْصِه ، وتَعَبه على نَصْبِ غرسِه ونَصَبه[١٨] . فقال لهُ : يا ذا التجارب ، ومَنْ هو مِنْ شَرَكِ الفَنَاءِ هارب ، إِلاَمَ تَرْتَعُ في ميادين الأمل ، وقد تطوقتَ بأوهاقِ[١٩] الأجَل ، تبني وأركانُ جسدِك واهية ، وتغرِسُ وقوائمُ بَدَنِكَ كأعجازِ نخلٍ خاوية ، وربيعُ شبابك قد استولى عليه خريفُ الهرم ، وصيفُ وجودِك قد أدركه شتاءُ العدَم ، ومَحَتْ نسيمَ طراوتِك عواصفُ الذبول ، ومُسِحَتْ قُوَى

---

[١٤] قرآن كريم : سورة النحل : ٩٠ .

[١٥] قوس قطان : يعني منحنيا كالمندف الذي يستخدم ، في ترقيق القطن .

[١٦] قزع أقطان : يعني بقايا شعر متفرقة فوق رأسه (أصلع) .

[١٧] النَّصْب : مساحة معلومة من الأرض ، أو النصاب .

[١٨] النَّصَب : الجهد وبضم النون : الشقاء .

[١٩] أوهاق ، واحدها وهق ، وهو الأنشوطة .

عَبَالَتِك[٢٠] ، بقواصفِ التحول ، وقد آنَ أَنْ تغرِسَ للآخرةِ ، فإنَّك قد صِرْتَ عظاماً ناخِرَة .

فقال : يا ملكَ الزمان وعادلَ الأوان ، قد تسلمّناها عامرة ، فلا نسلمّها غامِرة ، قد غَرَسُوا وَأَكَلْنَا ونَغْرِسُ ويأكُلون ، وفي الحقيقةِ كلّنا زارعون وغارسون :

لَقَدْ غَرَسُوا حَتَّى أَكَلْنَا وإِنَّنا لَنَغْرِسُ حَتَّى يَأْكُلَ النَّاسُ بعدَنا

وأَبْعَدُ فَلاّح ، عن الرُّشدِ والفَلاَح ، مَنْ يتسلّمُ المعمُور ، ويتركه وهو بور ، فَأَعْجَبَ أنوشروان ، وُفُورُ عَقْلِ الشّيْخِ الفان ، وحُسْنُ خطابه وسرعةِ جوابه ، فقال : زه . يعني أَحْسَنْتَ وهي كلمةُ تحسين ، ولفظةُ إعجابٍ وتزيين ، وكانت علامة للإحسان ، إذا تلفّظ بها السلطانُ يُعطَى المقولُ في حقه ، أربعةَ آلافِ درهمٍ لرفقه ، فأعطُوا الشيخَ الهَرِمَ أربعةَ آلافِ درهم . فقال : أيها السلطان ، إن الغراسَ يُثْمِرُ بعدَ زمان ، وأنا غِراسي لحسْنِ طلْعَتِه ، أثمرَ من ساعته . فقال : زه . فأعطوهُ أربعةَ آلافٍ أخرى ، ورفعوا منزلَتَه قَدْرا . فقال : وأعجبُ من هاتيْنِ القضيتيْن ، أنَّ الغِراسَ يُثْمِرُ مَرَّةً وأنا غرسي يُثمر مرتين . فقال زهْ . فأعطوهُ القدْرَ المعلوم ، وزادُوه في التكريم ، والتعظيمِ والتفخيم . وقال له أنوشروان ، إنْ أَمْهَلَكَ الزَّمان ، حتى تأتيَني بباكورةِ هذا البستان ، فأنا أَقْطَعُكَ خَرَاجَه ، وأقضي ما لَكَ من حاجه . فأمهلهُ الدَّهْرُ وطالَ به العمر ، وأدرك ما نَصَبَه ، ولم يُخيِّبْ الله تَعَبَه ، فَحَمل إلى الملك الباكورة ، وَوَفَى له المِلِكُ نُذُورَه .

وإنما أوردتُ هذ المثل ، ليعلمَ مولانا المِلكُ الأجَلّ ، أن الدنيا وإنْ كانتْ ظِلاً زائلا ، وحائِطاً مائلا ، فهي مزرعةٌ للآخرة ، وأنَّ الآخرة ، هي الدارُ الفاخرة ، وأنَّ الله تعالى ، وجلَّ جلالا ، وَلاّك هذه المزرعة ، وعلّق بأوامِرِكَ العليّة ما بها من

[٢٠] عبالتك : ثقلك ، يقال ألقى عليه عبالته أى ثقله ، وعبل الذراعين : ضخم الأعضاء ، أو الخِلْقَة .

مضرّة ومنفعة ، وحكّمَك في البلاد ، وملّكَك رقابَ العباد ، فإيّاك أنْ تَغْفَلَ عن عِمارتها بالزراعة ، أَوْ أَنْ تُسَلِّمَ زمامَ تدبيرِها إلى يَدِ الإضاعة ، فإنّكَ منقولٌ منها ، ومسئولٌ عنها . وإنَّ مصالحَ عساكِرِك بها منوطة ، وأَحوال مُلْكِكَ بالعساكرِ مربوطة . فكُلَّمَا تعمَّرتْ الضِّياعُ والقُرَى ، تَرَفَّهَتْ الأجنادُ والأُمَرَا ، واستراحتْ الرعيّة ، واستمرتْ مناظمُ المُلْكِ مرعية ، وتوفرتْ الخزائن ، واطمأَنَّ الظاعِنُ والساكن ، وَقَلَّتْ المظالم ، وكَفَّتْ أكُفُّ الظالم ، ومِلاكُ هذا كلِّه العدلُ والاستوا ، ومجانبةُ الأغراضِ الفاسدةِ والهوى ، وهذا الذي يقتضيه مقامُك ، ويتم به مرامُك ، فإنَّ المِلكَ إنما هو مَلِكُ الأجناد ، فلا بُدَّ له من عِمارة البلاد ، والنظرِ في مصالحِ العباد ، لينتظمَ بنظرِه مصالحَ العالمين ، ويستقيمَ أَمْرُ العالَمِ إلى الحين ، الذي قَدَّرَه أَحكمُ الحاكمين ، فإنَّ سُنَّةَ اللهِ جرتْ على هذا السَّنَنْ ، وما رآه المؤمنون حسناً فهو عند اللهِ حَسَن . ولهذا قالَ سيِّدُ سُكَّانِ الخَيْف[٢١] : "أنا نَبِيُّ السيْف" والجهادُ فرضُ عَيْنٍ على الملوك ، لا على الفقيرِ والصعلوك ، فالملوكُ فى نوعٍ من السيادة ، تقتضى من المالِ ازديادَه ، ليقيمُوا من الإسلامِ عمادَه ، ويقتفوا من الشرع مرادَه ، ويقصموا الكُفْرَ وعنادَه ، ويبيدوا أهلَه وأولادَه ، وينهبُوا طرافَه[٢٢] وتلاده[٢٣] ، ويوطئوا سنابكَ الإيمان بلادَه ، وواجبٌ على كلِّ حاكمٍ أن يبذلَ فى ذلك اجتهادَه ، ويجعلَ الجهادَ إلى الآخرةِ زادَه وعتادَه ، ويصونَ عنْ الكفرِ بلادَ الإسلامِ وعبادَه ، إلى يَوْمٍ يَلْقَى معادَه ، فيجازيه اللهُ الحسنى وزيادة .

هذه طريقةُ الملوك ، ومن تِبِعَهم فى الاقتداءِ والسلوك . وإياك أيها الملكُ العظيم ، وصاحبَ المُلْك الجسيم ، وأخذَ المالِ من غَيْرِ حِلِّه ، ووضعه في غيرِ محلِّه ،

---

[٢١] سيد سكان الخيف : محمد ﷺ .

[٢٢] طرافه : الحديث المستحدث من المال ونحوه .

[٢٣] تلاده : القديم الموروث من المال ونحوه .

ولو كان موضعَ الخير ، وقُصِدَ به نفعُ الغيرِ ، فإنه لا يفي ذاك بـذا ، ولا يقـومُ نفعُـه بما فيه مـن أذى ، فذلـك كإنشـاء المغـارس ، وبنيـان المـدارس ، وتنويـر المسـاجد ، وتعمير المعابد ، وسد الثغور ، وعمارة القبور ، وإقامـة القنـاطر والجسـور ، وعمـل مصالح الجمهور ، وإطعام الطعام ، وكفالـة الأيتـام ، والحـج إلى بيـت ا لله الحـرام ، وإعطـاء السـائل ، وإغنـاء الأرامـل ، وصـرف النفقـات ، وإخـراج الزكـوات والصدقات ، ومثلهُ الوبيل كما قيل :

بَنَى مَسْجِداً للهِ من غيرِ حِلِّهِ | فصارَ بحمدِ اللهِ غيرَ مُوَفَّقِ
كَمُطْعِمَةِ الأيتامِ مِن كَدِّ فَرْجِها | لَكَ الوَيْلُ لا تَزْنِي ولا تَتَصَدَّقِي

قال مَنْ لم يخفَ عليه إخفاؤُها ﴿لَنْ يَنَالَ اللهَ لحومُهـا وَلاَ دِمَاؤُهـا﴾[٢٤] ، ثـم أخـبر بخبر مايصـدُر عنكم ، فقـال ﴿وَلَكِنْ يَنَالُه التّقوى مِنْكم﴾[٢٥] فـإن طُلِـبَ مـن هـذا أجر ، فهو خُسْرَانٌ وكفر ، لأنّه فى صُورةِ الاستهزاء ، وهـل يُطْلَـبُ بقبيـحِ الحـرامِ حُسْن الجزاء ! بل الواجبُ فى هذا ، على كلٍّ من آذى ، رَدُّ المظالم ، وخلاصُ ذِمَّةِ الظالم ، ورجعُ الحقوقِ إلى أهلها ، وإيصالُها إلى محلِّهـا ، أمَـا يَرْضَـى ظـالمٌ غـوى ، وتحمّل الحرامَ هوى ، أنْ يَتَخلَّصَ سواءً بسوا ، وشَرُّ الناسِ ، يا ذا الباس ، مَـنْ اتّبَـعَ قضيةَ إياس[٢٦] . فسأل العُقّاب ، عن بيانِ هذا الخطاب .

---

[٢٤] قرآن كريم ، سورة الحج : ٣٧ .

[٢٥] قرآن كريم ، سورة الحج : ٣٧ .

[٢٦] مناسبة إياس هنا هو استدعاء صفة الذكاء فيه ، تمهيداً للحديث عن القاضى الـذى استخدم ذكـاءه فى غـير محله ، فى القصة اللاحقة مباشرة .

[٢/١٠] قصة قاض لئيم

فقال : كانَ في الشام ، شخصٌ من اللّئام ، تصدّى لفصل الأحكام ، ومشى من الظُّلْمِ في ظلام ، وشرعَ في أخذِ الأموال ، على سبيل التعدّي والوَبَال ، فكان إذا أخذَ[٢٧] من أحدٍ ألْفا ، ادّخر لنفسه من ذلك نِصْفا ، وتصدَّقَ بالخَمْسَمَائةِ الأخرى ، على أُولي الضّرر والضرّاء ، كلٌّ واحدٍ درهما ، وعدّ ذلك مغْنما ، وقال هذه فائدة ، علينا بالربح عائدة ، الحسناتُ خمسُمائة والسيئةُ واحدة ، وواحدٌ يدعو علينا ، وخمسمائةٌ يتوجّهون بالثناءِ والدعاءِ إلينا . ثم قال ذلك الجاحِد ، ولا تعجزُ الخمسُمائةِ عن الواحد . هذا وإنْ كان والعياذُ با لله ، صَرَفَ ذلك الحرام في الفِسْقِ والملاه ، ونَيْلِ الأغراضِ الفاسدةِ وإقامةِ الجاه ، فهو أشدُّ في النّكال ، وأعظمُ في الوِزْرِ والوَبَال . وهذا المقام ، يطولُ فيه الكلام ، وأقلُّ ما في الباب ، أن الحلالَ حساب ، والحرامَ عقاب . وقد سمعتُ ياجليلَ القدر ، ما نطقَ به السيِّدُ الصدر ، الذى أخْجَل نورُ طلعتِه الشمسَ والبدْر ، سيِّدُ الأنام ، ومصباحُ الظلام ، وحبيبُ الملِكِ العلاّم ، عليه أفضلُ الصلاةِ والسلام ، يَوْماً لأصحابه السادةِ الكرام ، رَضِيَ الله عنهم وأرضاهم ، وجَمَعَنا فى مُستقرِّ رحمتِه وإياهم : "أتَدْرُونَ مَنْ المفْلِس ؟ قالوا : المفلسُ فينا من لا دِرْهَمَ له ولا متاع . فقال : إنّ المفْلِسَ مِن أُمَّتِي مَنْ يأتي يَوْمَ القيامةِ بصلاةٍ وصيامٍ وزكاةٍ ، ويأتي قَدْ شَتَمَ هذا وقَذَفَ هذا ، وأكَلَ مَالَ هذا وسَفَكَ دم هذا ، وضربَ هذا فَيُعْطَى هذا من حسناتِه وهذا من حسناتِه فإن فَنِيَتْ حسَناتُه قبلَ أن يَقْضِيَ ماعليه أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه ثم طُرِحَ فى النّار" وهذا إذا كانت هذه الطاعات ، من الصلاةِ والصومِ والزكاة ، واقعةً فى محِلِّها ، ومصاريفها فى حِلِّها ، فإنّها لا تفيدُ الظالم ، إلاّ فى وَفَاءِ المظالم . وأمّا إذا كانتْ

---

[٢٧] أخذها على سبيل الرشوة .

من الحرام ، ومَنْشَأُ غِراسِها من مياهِ الآثام ، فهي وَبَالٌ على وَبَال ، وثُبورٌ فوق نِكَال ، ووَهَنٌ على كسر ، ونقصانٌ فوق خُسْر .

وقال أيضا ، أفاضَ اللهُ عليه سحائبَ صلواتِه فيضا "لَتُؤَدَّنَ الحقوقَ إلى أهلِها يومَ القيامة حتى يُقَادَ[٢٨] للشاةِ الجلحاءِ[٢٩] مِنَ الشاةِ القرناء" فاستعِذْ بالله يا مَوْلَى الطير ، ومُوْلِي الخيْر ، من نارِ هذا الشرر ، أنْ تَتَفَرَّقَ طاعتُك شَذَرَ مَذَر[٣٠] ، واعيذُك ياسلطانَ الصافّات ، وما اكتسبتَه من الطاعاتِ والخيرات ، أن يُنقلَ إلى ديوانِ غيرك ، أو يفوزَ بخيرِك سِوى طيرِك ، اللّهُمّ إلاّ أنْ يكونَ ، يا ذا الوقارِ والسكون ، على وَجْهِ ما قال ، مَنْ أحْسَنَ المقال :

وَيَكْتَسِبُ الطاعاتِ ذُخْرُ العُلَمَا ... يجودُ بها يَوْمَ القيامِ[٣١] على العاصي

أو على وَجْهِ ما قيل ، وأَحْسِنْ بِهِ من وَجْهٍ جميل :

يَجُودُ بما ضَنَّ الجَوَادُ بِمِثْلِهِ ... مِنَ الوَفْرِ بَلْ لو أمْكَنَتْهُ شمائِلُه
لَعَادَ على المرْضَى بصِحَّةِ جِسْمِهِ ... وَجَادَ على المَوْتَى بِعُمْرٍ يُطَاوِلُه
ومَنَّ على النَّوْكَى[٣٢] بوافِرِ عَقْلِهِ ... وَقَسَّمَ في الحمْقَى مِنَ الرأيِ كامله
وَثَقَّلَ ميزانَ المُخِفُّ بأَجْرِهِ ... لَدَى الوَزْنِ لَمّا آدَ[٣٣] بالوِزْرِ كاهلُه
وَلَوْ لَمْ يَكُنْ في كَفِّهِ غيرُ نفسِهِ ... لَجَادَ بها فَلْيَتَّقِ اللهَ سَائِلُه

ولأجْلِ هذا الخطرِ العظيم ، والخطبِ الجسيم ، تورَّعَ عن الحلالِ الزاهدون ، وشَمَّر عن التلوّثِ بالدنيا ذيلَ الرغبةِ العابدون . قال سَيِّدُ البشر ، والشفيعُ المُشَفَّعُ في

---

[٢٨] يقاد ، من قَوِدَ : أى يُقْتَصُّ لها .

[٢٩] الجلحاء : التى لا قرن لها .

[٣٠] تفرق شذر مذر : أى ذهب مذاهب شتى مختلفة .

[٣١] القيام : القيامة .

[٣٢] النوكى : الحمقى ، العاجزون الجاهلون ، وبهم عِيٌّ فى الكلام .

[٣٣] آد : انثنى واعوجّ وثقل .

المحشر : "لَوْ كانت الدُّنيا تَزِنُ عندَ اللهِ جناحَ بعوضةٍ ماسَقَى منها كافرا شَرْبَةَ ماء" وقال عليه الصلاةُ والسلام ، والتحيةُ والإكرام "اللَّهُمَّ ارزقْ آلَ محمدٍ قُوتا" .

ومع هذا كلّه فالمُلْكُ والرعيَّةُ أمانة ، ومَنْ تقلّد ذلك فقد أَوْجَب على نفسه ضمانة ، فَلْيَتَجَنَّب خيانته ، ولا يشينُ بها أمانته . قال صفوةُ اللهِ تعالى وخيرتُه من بَرِيَّتِه : "كُلُّكُمْ راعٍ وكُلُّكُمْ مسؤولٌ عَنْ رعيته" ومصداقُه قولُ ربِّ العالمين ، ومَلِكُ الملوكِ والسلاطين ، وهُو أصدقُ القائلين ﴿إنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ والأَرْضِ والجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومَاً جَهُولا﴾[٣٤] فاعلمْ ياملكاً أعطَى الزمان أمانه ، أنَّ هذا المُلْكَ الذى بيدك هو من جُمْلَةِ الأمانة ، التى أشفقَ السمواتُ والأرضُ والجبال ، وأَبَيْنَ أَنْ يُحْمِلْنها خوفاً من النَّكال والوَبال ، وخَشْيَةَ أن لا يفينَ بحقوقِ حَمْلها ، أو يَضَعْنَها فى غيرِ محلِّها ، فيعاقَبْن ، أو بالعتابِ يخاطَبن ، فتَعَفَّفْنَ عَنِ الرغبةِ فى الثواب ، خوفاً من العِتاب والعِقاب ، وعَمِلْنَ بموجبِ ما قيل :

هَجَرْتُكَ لا قِلَىً مِنّى وَلَكِنْ	رَأَيْتُ بَقَاءَ وُدِّكَ فى الصُّدُودِ
كَهَجْرِ الحائِماتِ الوِرْدَ[٣٥] لَمَّا	رَأَتْ أَنَّ المَنِيَّةَ فِى الوُرُودِ
تَفِيضُ نُفُوسُهَا ظَمَأً وتَخْشَى	حِمَاماً[٣٦] فَهْيَ تَنْظُرُ مِنْ بَعِيدِ
تَصُدُّ بِوجْهِ ذي البغضاء عَنْهُ	وَتَرْمُقُهُ بِأَلْحَاظِ الوَدُودِ

ثم حَمَلَ هذه الأمانةَ بنو آدم ، لِما قَدَّرَهُ وقضَاه العليُّ الأعظم ، فى سابقِ القِدم ، ولِما فيها من أحكامٍ وحِكَم ، وانّ الصادقَ المصدوقَ أخبر ، فيما روَى عنه أبو

---

[٣٤] قرآن كريم ، سورة الأحزاب : ٧٢ .

[٣٥] الحائمات الوِرْدِ : العطشاوات من الحيوان وغيره إلى موارد المياه .

[٣٦] الحِمام : قضاء الموت وقدره .

ذر ، قال : قلتُ : يارسولَ اللهِ ألاَ تستعملُنى[٣٧] ؟ قال : فَضَربَ بيدِه على مِنْكَبيَّ ، ثم قال : يا أبا ذَرٍّ إنَّك ضَعيفٌ وإنَّها يومَ القيامة ، خِزْيٌ ونَدامة ، إلاَّ مَنْ أَخَذَها بحقِّها ، وأدَّى الذى عليه فيها . فَمَنْ جُمْلَتِها الصلاة ، والصومُ والزكاة ، والوضوءُ والاغتسال ، ومراقبةُ ذي الجلال ، فى السرِّ والإعلان ، بقدرِ الطَّاقةِ والإمْكَان ، وعلى هذا جميعُ الطاعات ، وأنواعُ العبادات ، هي فى رقابِ العبادِ أمانات ، ومِن أعظمِها ، وأهمِّها وأحكمِها ، الإمْرَةُ والحُكُومة ، والتصدِّى لفَصْلِ الخصُومة ، والسلطنةُ العليّة ، وأمورُ المُلْكِ البهيّة ، والقيامُ بأمور الرعيّة .

فيجبُ على السادةِ الحكام ، ومالِكِي أزِمَّةَ الأنام ، أنْ يُرَاقِبُوا اللهَ تعالَى فى كيفيّة أدائِها ، ويطالبوا أنفسَهم على مَمَرِّ الأنفَاسِ بالقيامِ بوفائها ، ويراعُوا أوامرَ سلطانِ السلاطين ، فى أمورِ عبيدِه المستضعفين ، خصوصاً المظلومَ والفقيرَ والضعيفَ والمسكين ، فإذا عامَلُوا عبادَ اللهِ بالعدْل ، عامَلَهُمُ اللهُ عَزَّ وجلَّ بالفضْل . قالَ اللهُ المنّانُ فى مُحْكَمِ القرآن : ﴿إنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالعَدْلِ والإحْسَان﴾[٣٨] وقالَ السيدُ الكامل ، والسندُ الفاضل ، أشرفُ الأواخرِ والأوائل ، صلّى اللهُ عليه صلاةً تُغْنى البواكرِ والأصائل : سبعةٌ يظِلُّهُمُ اللهُ فى ظِلِّه ، يومَ لاَ ظِلَّ إلاَّ ظِلُّه ، إمامٌ عَادِلٌ بَدَأَ فى هذا الفصل ، من ذكرِ الصِّفاتِ بالعدْل . والعدْلُ يا ذا الوجْهِ المنيرِ الوَسَط ، والوسَطُ هو الخير . قال مَنْ أَمْرُهُ قهر ، ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُم أُمَّةً وَسَطاً لِتَكُونُوا شُهَدَاء﴾[٣٩] أى للأنبياء ، تشهدُون لهم ، على أممهم ، لعدالةٍ فيكم ، ويكونُ الرسولُ عليكم شهيدا ، أيْ يزكِّيكم ، أيْ وكَمَا جعلْنا نَبيَّكُم إمامَ القبلتين ، حائزَ الفضيلتين ، جعلناكُم حائزينَ خِصْلتيْن ، بَالِغِينَ مَرْتَبَتيْن ، وهما : كَوْنُكُمْ

---

[٣٧] تستعملنى : توليني منصبا أو ولاية .

[٣٨] قرآن كريم ، سورة النحل : ٩٠ .

[٣٩] قرآن كريم ، سورة البقرة : ١٤٣ .

عُدُولا شهداء ، على النّاسِ للأنبياءِ ، مقبولي الشـهادةِ فـى الأداء ، وكَـوْنُ الرسـولِ مُعدلكم ، وبتزكيته على الأمـم مُفضّلكـم . وقـال ﷺ وشرّف وكرم ، وفخّم وعظم ، "عَدْلُ السُّلْطانِ يوماً يَعْدِلُ عبادةَ سبعينَ سنة" وقال عليه الصلاة والسلام ، والتحيةُ والإكرام : "والذى نفسُ محمدٍ بيدِه إنّهُ لَـيُرْفَعُ للسـلطانِ العـادلِ إلى السـماء مِثْلُ عَمَلِ جُمْلَةِ الرعيّة" وعن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنّه عليه السلام قال "ثلاثةٌ لاَ تُرَدُّ دَعْوَتُهم : الإمـامُ العادل ، والصائمُ حتى يفطر ، ودعوةُ المظلـوم" وروى كـثير بـن مـرّة رضي الله عنه قال : قال عليه الصلاةِ والسـلام : "السـلطانُ ظِـلُّ اللهِ فـى الأرضِ يَـأْوِي إليـهِ كُـلُّ مظلومٍ من عبادِه فإذا عَدَل كان له الأجر ، وعلى الرعيّـةِ الشُّكْر ، وإذا جـارَ كـانَ عليه الإثمُ وعلى الرعية الصبر" . وعن أبى هريرة رضي الله عنه يرفعه : "لَعَمَلُ الإمـامِ العـادلِ فى رعيَّتِه يوماً أفضلُ من عِبادَةِ العابدِ فى أهلِـه مائـةَ سـنةٍ أو خمسـينَ سـنة" . وقـال قَيْسُ بنُ سعد : "ستينَ سنة" . واعلمْ ، أيُّها الملِكُ الأعظمُ واسلمْ ، أنَّ العدْلَ مـيزانُ اللهِ تعالى في الأرض ، به ينتصفُ بعضُ الرعيةِ من البعض ، وبه يُؤخذُ للضعيفِ مـن القويّ ، ويُعبدُ اللهُ على السِّراطِ السَّوِيّ ، ويتمـيّزُ الحـقُّ مـن البـاطل ، والحـالي مـن العاطِل ، وهو من صِفَـاتِ الـذّات ، وأعظـمُ الصفـات ، بمعْنـى أنَّ اللهَ تعـالى عـزّ وجلّ جلالا ، له أن يفعلَ في مُلْكِهِ ما يشاء ، فيؤتي المُلْكَ مَنْ يشاء ، ويـنزَعُ الملـكَ مِمّن يشاء ، ويعزُّ مَنْ يشاء ، ويذلُّ مَنْ يشاء ، ويحكُم ما يريد ، والخلـقُ كلُّهـم لـه عبيد ، وجميعُهم بعضُ مُلْكِه ، نافذٌ فيهم سهْمُ أمرِ مَلْكِه ، فـلا اعـتراضَ علـى فعـلِ المالك ، ولا فيمـا يسـلكُ بمملُوكه مـن المسـالِك ، ولا مجـالَ لاعـتراضِ عبـدِه على ذلك ، لا سيّما إذا كانَ مَوْلاهُ كريما ، وفي أفعاله مدبراً حكيما ، فَمَنْ عرفَ أنّ اللهَ عَدْل ، وأنَّ افعالَهُ جاريةٌ بين العدْل والفضل ، يتلقّـى نِقَمَـهُ بالصبر ، ويقـابلُ نِعَمَـه بالشّكر ، ويطمئنّ خاطرُه ، وتَسْكُنُ إلى مَوْلاه سرائرُه ، فلا يستقبحُ موجـودا ، ولا

يستهجنُ مفقودا ، ولا يستثقلُ حُكْما ، ولا يرى في الكون ظُلْما ، بل يستقبلُ الأحكامَ بالرِّضا ، ويستسلمُ لمواردِ القضا ، ويقابلُ العوارض ، بما قاله ابنُ الفارض :

وَكُلُّ أَذىً في الحبِّ منكَ إذا بَدَا جَعَلْتُ لهُ شُكْرِي مَكَانَ شَكِيَّتِي .

وأعدلُ المخلوقات ، وأوسطُ الكائنات ، الأنبياءُ عليهم السلام ، فإنهم أعدلُ الخلْقِ مزاجاً وطبيعة ، وأقومُ الناسِ منهاجاً وشريعة ، وأوسطُ البشرِ أفعالا ، وأقسطُهم أعمالاً وأقوالا ، وإنما يَعْتَرِضُ على أقوالهم ، ويَتَعَرَّضُ لأفعالهم ، مَنْ هو عَنِ الصّوابِ منحرِف ، وعن جادَّةِ الحقِّ منصرِف ، ومَنْ عَيْنُ بصيرتِه عمياءُ عن مراقبةِ التحقيق ، كالأعْمَى الذي خَرَجَ وهو ماشٍ عن سَواءِ الطريق ، فيعثرُ في شوكٍ أو حجر ، أو يصدمُه حيوانٌ أو شَجَر ، فيقول نَحُّوا هذا عن الطريق ، فإنّه يحصلُ للمارةِ تعويق ، ويعيبُ على واضِعِه ، وإنما العيبُ في طبائِعه ، والجهلُ منسوبٌ إليه ، لعمَى قلبه وعينيه . كما قال ذو الخويصرة ، لسيدِّ الرُّسل البررة لمـاَ قَسَّم الغنيمه ، قِسْمَةً مستقيمة : اعْدِلْ ؛ فأجابه الكاملُ المكمّل ، بأنه إنْ لم يعدِلْ فَمَنْ يعدل ، وإنه - أي ذا الخويصرة ، الذى أعمَى الله بصرَه ، خاب وخسر ، ولاَقَى اليوم العَسِر - إن لم يعدل ، ذلك المفضّل ، وكيف يقال هذا الكلام ، لمثله عليه الصلاةُ والسلام ، وقد أمره الله تعالى بالعدل ، ونَشْرِ سِرِّ هذا النقل ، وأَقَرَّ عينَكم بقوله ﴿وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ﴾[40] .

قال الأَسَدُ الغالب ، عليُّ بنُ أبى طالب ، كرَّم الله وجهَه ، وجعل إلى رضوانِه له أَحْسن وجْهه : "إمامٌ عادل ، خيرٌ من مَطَرٍ وَابِل ، وأسدٌ حَطُومٌ[41] لخيرٌ من سلطانٍ ظلوم . وقيل : **الملكُ يدومُ مع العدلِ ولو كان الملِكُ كافرا ، ولا يدومُ مع**

---

[40] قرآن كريم ، سورة الشورى : ١٥ .

[41] حطوم : حطّمه الكبر أو المرض .

الظُّلْمِ ولو كـان المِلِكُ مُسْلِما . ومـا تعـاطى حـاكمٌ ذو فضـل ، فَصـلَ قضيـةٍ في فصل ، أَحْسن من سلوكِ طريقةِ العدل ، ولذا بقيَ اسمُ أنوشروان ، مُخلَّـداً بـالعدْل على مَرِّ الزمان ، وإلى يَوْمٍ يُنصبُ المِيزان ، مع أنه كانَ مجوسيًّا يعبدُ النيران ، والسُّـنَّةُ التي اخترعها ، بالسلسلةِ التي وضَعها[٤٢] ، باقيةٌ في ممالكِ الصِّـين ، مَعْمُـولٌ بهـا إلى آخر حين . وقيـل إنَّـهُ كـانَ شـديدَ الـوِدَادِ للاصطيـاد ، وكـان يعشـقُ البـازي والزُّرَق[٤٣] ، والصقرَ والباشقَ والبيدق[٤٤] ، فسأل يوماً من البازدار[٤٥] ، لِمَ كانت هذه الأطيارُ قِصَارُ الأعمار . قال : لأنها تَظْلِمُ الطيور ، والظالمُ عمرُه قصيرٌ ، فَتَنَبَّـهَ بهذهِ الكلمةِ واتَّعَظ ، وكَفَّ يدَه عن الظُّلْـمِ واحتفَـظ . ثـم أسَّـسَ قواعـدَ العـدل ، فانتشرَ ذكرُه إلى يومِ الفصْل ، ويكفِيه من الفضائل ، قولُ السَّيدِ الكامل "وُلِدْتُ فى زَمَنِ المِلِكِ العادِل" ورُوِيَ أن بعضَ الملوكِ العـادلين ، والحكّـامَ الفـاضلين ، استولي عليه الكِبْر ، وَوَقَرَ[٤٦] في أُذنِه وِقْرٌ وَقَرٌ[٤٧] ، وكان قبلَ الصَّمَم ، في العدلِ والكرم ، كما قيل :

وأَنَّـةُ مَـظْلُـومٍ وغُنَّـةُ سـائِـلٍ على أُذنِهِ أحْلى من الشَّهْدِ في الفم .

فحزنَ لِفَقْدِ سمعِه وتأسّف ، وتحـرّق وتلهّـف ، وتـأرّق وبكـى ، وتـأوّه واشـتكى ، وقال : ما أتلهفُ من عدمِ سماعِ الحديث ، إلاَّ على فَقْـدِي صـوتَ المستغيث ، ولا

---

[٤٢] عن هـذه السلسلة التى اخترعها أنوشـروان ، لتحقيق العـدل بين الرعيـة ، وسماع دعـوة المظلـوم ، إنظـر : الباب السادس من هذا الكتاب ، حكاية رقم [٦/١١]

[٤٣] الزُّرق : ضرب من الطيور من فصيلة العقاب النسرية ، من رتبة الصقريات .

[٤٤] البيدق : طائر من الجوارح فى حجم الباشق .

[٤٥] البازدار : هو الذى يحمل الطيور الجوارح المعدّة للصيد على يده .

[٤٦] وقُر بضم القاف : ثَبَتَ .

[٤٧] وقر : بكسر الواو : الحمل الثقيل ، وبفتحها : الصمم .

كنتُ أتلذّذُ من متكلّم ، إلا بالإصغاءِ إلى خطابِ المتظلّم . ثم قال : ولئنْ حُرِمْتُ ذلك من طريقِ الإخبار ، فَلأتَوَصَّلَنَّ إليه من طريقِ الإبصار .

ثم أمرَ بإشهارِ النداء ، في الأطرافِ والأرجاء ، أنهُ مَنْ كانتْ لهُ ظُلاَمة فَلْيُظْهِرْ له علامة ، وهي أن يلبسَ ثوباً أحْمر ، ويقفَ فوق ذلك التلّ الأخضر ، لنعرفَ علامتَه ، ونكشفَ ظُلامتَه . وقيل : إنّ السلطانَ السعيد ، نورَ الدين الشهيد[٤٨] ، لما أمرَ بناءِ دارِ العدل ، وعزم أنْ يقيمَ فيها للحكوماتِ الفصل ، أدركَ الأمير الكبير ، صاحب الرأي المنير ، أسد الدين شيركوه ، ما يعتمده السلطانُ ويرجوه ، وما يحمله على ذلك ويدعوه ، وعَلِمَ أنَّ ذلك الأسد ، لا يُسامَحُ عندَه أحد ، وإنه لا يراعِي في الحقّ أميراً ، ولا كبيراً ولا صغيرا ، فإنه مع الحقّ وبالحقّ قائم ، لا تأخذُه في اللهِ لومةُ لائم ، فجمع مباشري ديوانه ، وأكّد ما قاله لهم بأيمانه ، لئنْ شكا منهم أحد ، أو بلغَه عن أحدٍ من حاشيته ظُلْمٌ أو نكد ، ليذيقَنّه أشدَّ العذاب ، ولينزلَنَّ به أنكى عقاب . وقال ما برز هذا الأمرُ العزيزُ الغالي ، ببناءِ هذا المقعدِ العامّ العالي ، إلا لأجْلي ولأجْل أمثالي ، فما وَسِعَهُم إلاّ طلبُ الخصوم ، واسترضاءُ العادِل والمظلوم .

ورُوي أنّ أحَدَ الصدور ، غَصَبَه بعضُ عُمّالِ المنصور ، وأخذ منه كَفْراً من الكفور[٤٩] ، فتَوَجَّه إلى الخليفة ، وضربَ له أمثالاً ظريفة ، وقال : أصلحَ اللهُ أميرَ المؤمنين ، وأقام به شعائرَ الدين ، ونصرَ به المظلومين ، على الظالمين ، أأذْكُرُ ظُلاَمَتي أولاً ، أم أضربُ أمامَ حاجتي مثلاً . فقال : دَعْ الجدَلَ واضربْ المثل .

---

[٤٨] يعني نور الدين زنكي (ت ١١٤٦ م) .

[٤٩] الكفر : القرية الصغيرة .

[٣/١٠] قصة المنصور مع الرجل المظلوم

فقال : أَلْهَمَكَ اللهُ العدل ، وأقامَ بك قواعدَ الفضل ، إن الطفلَ إذا نابه ما يكرهُه ، أو قرعه خطْبٌ يَجْبَهَه ، فَرَّ إلى أمِّه ، وأجهش إليها من همِّه ، فآوى إلى حضنها ، وأندسّ تحت بطنها ، لأنه لا يعرفُ سواها ، فيستكشفُ بها عن نفسه ما دَهَاها ، ولا يظنُّ أن غيرَها ، يدفعُ عن نفسِه ضيرَها . فإذا عرف أباه ، بثَّ إليه شكواه ، واستدفعَ به ما عراه ، لأنهُ قد وَقَرَ في وَهْمِهِ ، أنَّ أباهُ أقوى من أمِّه ، وأن غيرَه من الناس ، لا يقدرُ على دَفْعِ الباس ، فيلجأُ ، إليه فيترامى في دَفْعِ شدائِده عليه ، ولا يقبلُ عذرَه ، إنْ ترك نصرَه ، أو قصّرَ في مبتغاه ، أو تهاونَ في مُتَمَنّاه ، ولهذا قال بَذْرُ الحيّ : إن النساءَ والصبيانَ يظنون أنَّ الرجلَ يقدِرُ علَى كُلِّ شيء . فإذا اشتدّ واستوى ، وأصابه من أحدٍ جَوى ، تقدّم إلى الوالي ، لأنَّ مقامَه عالي ، وهو أقوى من أبيه ، فيستكشفُ به ما وقَع فيه . فإذا صار رجلاً ، وأصابَه من أحدٍ نكدٌ وَبَلاً ، استنجدَ بنائبِ السلطان ، فوجدَه له أحسنَ معوان ، فأشكاه ، ورفَع بلواه وكفاه إذ دعاه ، من عداه ما دهاه ، ورعاه ، عما عراه ، فإنه أَقْوى من الوالى ، وأقدرُ على دفْعِ الظُّلامةِ من كلِّ منهمكٍ غالي ، وهو السلطانُ الحاضر ، والعاملُ والناظر ، على البادي والحاضر .

فإذا ظلمه الوالي والعامل ، ونقصه حقَّه ذو الحكم الكامل ، تعلّق بأذيال عَدْلِ السلطان ، واستكشف بمراحمِ نُصْرَتِه ما دهاه من عدوان ، إذ قد تحقّق ، ورأى وصدّق ، أنه أقوى من الكُلّ ، وإلى مرسومه مرجع الحُلّ والقلّ ، ولا يدٌ فوقَ يدِه ، وأنه قد انتهى حديثُ رفعته لعلُوِّ سنده ، وبلغ في التسلّط ونفوذِ الأمرِ إلى أقصَى أمَدِه ، إذ هُوَ ظِلُّ اللهِ في أرضِه ، وخليفتُه في إقامةِ نَفْلِه وإحياءِ فرضِه ، وقابضُ أَزِمّة المخلُوقين ، ومنصفُ المظلومين من الظالمين . فإذا لم ينصفْه السلطان ، مع القُدْرَةِ

الكاملةِ والإمْكان ، توجَّه بشكواه إلى سلطانِ السلاطين ، وطلبَ رَفْعَ ظُلامته من ربِّ العالمين ، لعلمه أنه الحكَمُ الذي لا يجور ، والحكيمُ الذي بِيَدِه مقاليدُ الأمور ، والحاكمُ الذي يعلم خائنةَ الأعْيُنِ وما تُخفي الصدور ، وأنه أقوى من السلطان ، ولا يحتاجُ في الشكوى إلى بينةٍ ولا بَيَان ، ولا إلى دليلٍ ولا بُرْهان .

وقد نزلت بي حادثة للقلبِ كارثة ، وبالفكرِ عابثة ، وللسرِّ عائثة . وهي أن العامل الفلانى ظلمنى وأخذ مكانى ، فأنا أشكوه إليك ، وقد ترامَيتُ عليك ، وعرضتُ قصّتي بين يديك ، لأنّك نعمَ السند ، وليس فوقَك أحد ، ولا في الحكام ، إلا مَنْ هو لك بمنزلةِ الغُلام ، وما بعدَك إلاّ الله ، مولى لا يخيبُ مَنْ رجاه ، ويجيبُ المضْطرَّ إذا دعاه ، فإنْ وعيت قصتي ، وكشفتَ غُصتي ، وإلاّ رفعتُها إلى الله ، وقطعتُ النظرَ عما سواه ، وهذا أوانُ الموسم[٥٠] ، وإعمالُ المَنْسِم[٥١] ، وأنا متوجِّهٌ إلى حَرَمِه ، ومترامٍ على بابِ إحسانِه وكرمِه . فلما وعى المنصورُ خطابَه ، أرسلَ من سَحَابِ جَفْنِه عُبَابَه ، وقال حبًّا وكرامة ، يا ذا الزعامة ، بل أُنصفُك ، وبالفضلِ أُسعفُك ، وأُضعِّف كرامتَك ، وأَكْشِفُ ظُلامتك ، وأُوصِلُك حقَّك ، وأُعطيكَ مستحقَّك ، وأَمَرَ فكتبَ إلى واليه ، يضعُ من معاليه ، ويأمرُه بِرَدِّ أراضيه ، وطَلَبِ مراضِيه ، والتحلُّلِ من ظُلْم أياديه ، وإكرامِ محلِّه وناديه .

[٤/١٠] قصة النبي موسى والرجال الثلاثة

ورُوِيَ أنّ مُوسى الكليم ، عليه الصلاةُ والتسليم ، في بعضِ مناجاته ، وسؤالِه حاجاتِه ، سأل الله من فضلِه ، أن يُرِيَه نُكْتَةً من عدله ، فأمَرَه أنْ يتوجَّه إلى مكان ،

---

[٥٠] الموسم : موسم أداء فريضة الحج .

[٥١] المنسِم : الطريق إلى مكة .. والتوجه إليها للحج .

ويختفى فيه عن العِيان ، فامْتثلَ مَا بِه أَمَر ، واختفى فى ذلك المكانِ على شطِّ نهـر ، فما كان بأسرعِ مِنْ قُدوم إنسان ، إلى ذلك المكان ، فبمجرّدِ ما وصـل إليـه ، نَـزعَ من ملبوسِه ما عليه ، وكان معه كيس ، فيه مالٌ نفيس ، فأوْدعه ثيابه ، ورامَ فى الماء انسيابه ، فَدَخَل فى ذلك النهر ، وغَلْغَـلَ فيـه إلى أن غـابَ عـن النظـر . فـأَقْبَلَ فارس ، فوجدَ ثياباً بـلاَ حـارس ، فنزل عـن الدابَّة ، وفتّش ثيابه ، وأخذ كيسَ الذهـب ، وركـب فرسَـه وذهـب ، وأسـرعَ فـى الذهـاب ، إلى أنْ زالَ شـخصُه وغاب . ثم أقبل شَخْصٌ ذو شجَب[٥٢] ، وعلى ظهرِه حِزْمَـةُ حَطَـب ، فـانتهى إلى الما ، وقد برحَ به الظما ، وأمضَّه التعب ، وأخـذ منـه النَّصَـب ، فطـرح عـن ظهـرِه الحطب ، وقصد الرّاحة ، وقد ظهر الذى كـان فـى السباحة ، فوَجَـد عنـد ثيابـه ، شخْصاً من أترابه ، فاستأنسَ به ، وتأوّه لمكْتَئِبِه ، وما يُقاسيه من نَصَبِه ، ثم اشتملَ ملبوسَه ، وتَفقَّدَ كيسَه ، فما وجدَه ، فعضَّ يده ، فسأل الحطّاب ، عمّـا كـان فـى الثياب ، وطلبَ منه الكيس ، بالتعبيس ، فقال : ما رأيتُه ، ولا حويتُه . فقال : هـل كان معك أحد ؟ فقال : لا والواحدِ الأحد . قال : فهل كان هناك سِواك ؟ قـال : لا والذى سَوَّاك ، قال : يا أخي أنا وضعتُ الهِمْيَان[٥٣] ، بيَدِى فى هذا المكان ، ولم يَطُلْ على ذلك زمان ، ولاحضَر سواكَ حيوان ، ولا طمِثَ عذراءَ هذا الموضعِ إنسٌ ولا جان ، فلا أَشُكُّ أنـك أخذتَـه ، ولنفسـك افتلذتَـه . فأَقْسَـمَ بعـالم الخفيّـات ، وكاشِفِ البليّات ، المطلعِ على الضمائرِ والنيّات ، إنه ما رأى له هِمْيانا ، ولايعـرفُ لذلك مكانا . فقال : لو شَهد لك الكونُ والمكان ، ونطق ببراءَتك جوامدُ الزمان ، وزكّاهم الكرامُ الكاتبون ، لَمَا شَكَكْتُ أنهم كاذبون ، لأنَّ إنكارِ المحسوسِ مُكابرة ، والمثابرةُ على الباطلِ للحقِ مُدابرة ، ولكن خُذْ لك منـه يـا فقـير ، الثُّلُـثَ والثُّلُـثُ

---

[٥٢] ذو شجب : ذو جِمْلٍ .

[٥٣] الهِمْيان : المِنْطَقَة ، كيس لحفظ النقود والأموال ، يُشَدُّ فى الوسط .

كثير ، وارْدُدْ عَلَيَّ الثُّلُثَيْن ، وإن أَبَيْتَ فاجْعَلْهُ بيني وبينك نِصْفَين ، فما زاد ذلك على اليمين ، وماشك هذا أنه يمين[٥٤] . فقال : ارْدُدْ عليَّ مالي ، وإلا قَتَلْتُكَ فلاَ لك ولا لي ، فقال : ما رأيتُ مالَك ، فافعلْ ما بدا لك ، فَشَرَعَ في تفتيشِه ، وبالغَ فَحْصِه وتنبيشه ، فَلَمْ يهتدِ إلى شي ، سوى الضَّلال والغيّ ، فأخذه الحَنق ، واشتد به الأرَق ، وثارتْ نفسُه الأبية ، واتقَدَتْ ثورتُه الغضبيّة ، فَضَرَبَهِ بمحْدَد فقتلَه ، وَجَدَّ لَه ، بالإهلاكِ فَجَدَ لَه ثم تركَه وذهَب ، ولم يحظَ من الذَّهَب ، بغيرِ اللّهب . كلُّ هذه الأحوال ، وموسَى عليه السلام يشاهدُ ما فيها من أفعالٍ وأقوال ، ثم ناجَى فقال : يا ذاَ الجلالِ أنتَ عالِمٌ بحقائِقِ الأُمور ، وسواءٌ عندك البطونُ والظهور ، وسألتُ فضلَك ، أن تُرِيَني عَدْلَك ، فأريتني هذا المغْرم[٥٥] ، وأنت أَعْلَى وأعْلم ، ففي ظاهرِ ما أمرتني ، وبكرامتِه غَمَرْتني ، من الشريعة المُطَهّرة ، ونصٌّ التوارةِ المحرّرة أنَّ هذا الحكم ، جورٌ وظلم ، فَأَطْلِعْني على الحقيقة ، وبيِّنْ لي سلوكَ هذه الطريقة . فقال الله تعالى ، وجلَّ جلالا : ياموسى ، المقتولُ قَتَلَ أبا القاتل ، والقاتِلُ سَرَقَ الكيسَ من أبى الفارسِ الخاتل ، ففي الحقيقةِ الفارسُ النبيه ، وَصَلَ إلى مالِه المخلفِ عن أبيه ، والقاتلُ إنما استوفى قَوَدَه[٥٦] ، مِمَّنْ قَتَل ولده ، وهذه الأمور ، إنما تتضّحُ يومَ النُّشور ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرائر ، وتُكْشَفُ الضمائر ، ويُنادى يَوْمَ التناد ، لا ظُلْمَ اليومَ إن الله قد حكَم بين العباد .

ونظيرُ هذه القصةّ ، ما ذكرَه الله تعالى وقَصَّة ، في رَوْضِ كلامِه النَّضر ، عن موُسى والخِضْر ، عليهما السلام ، والتحيةُ والإكرام ، إذْ رَكِبَ السفينةَ وخَرَق ، خَرْقاً مؤدّياً إلى الغَرَق ، وقَتَلَ النَّفْسَ الزاكية ، وأقامَ بغيرِ أجرٍ أركانَ الجدارِ

[٥٤] يمين : يكذب .

[٥٥] المغرم : المأزق الذى غرم فيه الرجل ماله وقتل غيره .

[٥٦] قوده : قصاصه .

الواهية ، وبعضُ ذلك مخالفٌ لظاهرِ الشريعة ، تنفرُ عنه النفسُ السليمةُ والطبيعة ، ولكنه موافِقٌ للحِكْمَةَ والإلهية ، ومقتضياتِ العقلِ الحقيّة ، الذى لا يطّلع عليه إلا عَالِمُ الأسرارِ الخفيّة ، ولهذا قال جَلَّ واجِداً أحدا ، وتعالى فَرْدًا صمد ﴿عَالِمُ الغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً﴾[٥٧] ثم استثنى من هذا المقول ﴿إِلاَّ مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾[٥٨] وإنما الشريعةُ الزاهرة ، وردت بما تقتضى من الحِكَمِ الظاهرة ، فَتَعَبَّدْنا الله فى الشرائع ، بظاهرِ ما يثبتُ فى الوقائع . قيل مَنْ أَيْقَنَ بحَقِّيَّةِ أَرْبَعة ، كانَ مِن ضيقِ أربعةٍ فى سِعَة ، وأَمْنٍ وَدِعَة : مَنْ أَيْقَنَ أنَّ الصانع ، الضارَّ النافع ، لم يُخطئ ولَمْ يغلط ، أَمِنَ من العَيْبِ والشَّطَط . ومَنْ أَيْقَنَ أنَّ الخلاّق ، ومُقَسِّمَ الأرزاقِ ، لم يَحِفْ فى خَلْقِه ، ولم يمَلْ فِى رزقِه ، أَمِنَ مِنَ الحسَد ، واستراحَ من النّكد . ومَنْ أَيْقَنَ بوقُوعِ المقدورِ ، وأنه لا يُنْجيهِ منه محذور ، أَمِنَ مِنَ الغَمّ ، ولم يتسلّطْ عليه الهمّ ، كما قيل :

مَا قَدْ قضى يا نَفْسُ فاصْطَبِري لَهُ   وَلَكِ الأَمَانُ مِنَ الَّذِي لَمْ يقْدرُ

ومَنْ عُرِفَ أصلُه ، أَمِنَ مِنَ الكِبْرِ نَصْله . وكُتِبَ فى قضيّة ، إلى أعدلِ خُلَفَاءِ بَنِي أُميَّة ، مِنْ عَامِلِه بحِمْص ، أنه هُدِمَ الدَّمْص[٥٩] ، وعُمِكَ النَّمْص[٦٠] ، وأن رَبْضَها[٦١] رابض[٦٢] ، ومَرْعى رياضِها بَارِض[٦٣] ، وأنها محتاجةٌ إلى عِمارةٍ وزراعة ، وحراسةٍ ومناعة ، فَكَتَبَ إليه عمرُ بنُ عبدِ العزيز ، هذا الجوابَ المفيدَ

---

[٥٧] قرآن كريم ، سورة الجن : ٢٦ .

[٥٨] قرآن كريم ، سورة الجن : ٢٧ .

[٥٩] الدمص : نزول الجنين فى غير أوانه ، مما يعرضه للموت .

[٦٠] النمص : القصار من الريش ، وأول ما يبدو من النبت .

[٦١] الربض : الناحية أو الإقليم .

[٦٢] رابض : ساكن ، لا حركة فيه ولا نماء .

[٦٣] بارض : نباته قليل محدود .

الوجيز ، وهو "حصِّنْهَا بِالْعَدْلِ وَنَقِّ طُرُقَها من الجدل يَثْبُتْ البِنا ، ويَنْبُتْ الكَلا ، والسّلام . وقيل : أميرٌ بِلا عَدْلٍ كَغَيْمٍ بِلاَ مَطَر ، وعالِمٌ بلا وَرَعٍ كَشَجَرٍ بِلاَ ثمر ، وشابٌ بِلا توْبَةٍ كَمِشْكاةٍ بِلا مِصْباح ، وغَنِيٌّ بِلا سخاءٍ كَقُفْلٍ بِلا مفتاح ، وفَقيرٌ بلا أدبٍ كطابخٍ بلا حطب ، وامرأةٌ بلا حياءٍ كطعامٍ بلا مِلْح ، وقاضٍ جائرٍ كَمِلْحٍ عَلَى جُرْح . وقيل : العالَمُ بستانٌ سياجُه الشريعة ، والشريعةُ سياجٌ يخدُمُها المِلك ، والمِلكُ راعٍ يعضُدُه الجيش ، والجيشُ أعوانٌ يكفلُها المال ، والمالُ رِزْقٌ تجمعُه الرعية ، **والرعيَّةُ أحرارٌ يَسْتعبدُها العدْل** ، والعدلُ سُلِكَ به نظامُ العالم ، وَلْيَعْلَمْ أنَّ المِلّةَ الأحمديّة ، والشريعةَ المحمديّة ، هى أعدل المِلل ، وأَقْوَمُ النِّحَل .

مثلا النصارى لا يتحامُون الحائضَ أيامَ إقْرَائِها[٦٤] ، ولا فرقَ بين الحائضِ وغيرِها من نِسائها ، واليهودُ يجتنبونَها ، فَلاَ يُؤاكلونَها ولا يُشارِبُونها ، ولا يقْرَبُونها رأْسا ، ويعدّونها رِجْساً وركسا[٦٥] ، فَسَلَكَتْ الشريعةُ المحمديـةُ في ذلـك ، أعـدلَ الطُّرُقِ وأفضَلَ المسالك ، فَتُعَاشَرُ كالأطهار ، وحُرِّمَ قُرْبَانُ مـا تَحتَ الإِزار . وفي بعضِ المللِ على الذى قَتَلَ القَوَد[٦٦] والقصاص ، وليـس فـى الدِّيـةِ خَلاَص ، وفـى بعضِ الدِّيَةُ لا غير ، وما للقَصَاصِ فيها سير . ودينُ الإسلامِ المرفوع ، كلٌّ فيه مَشْـروع ، والعدلُ فى الاعتقاد ، يـا مِلِـكَ البـلاد ، تَـرْكُ التَخْليـط ، وسـلوكُ مـا بَيْـنَ الإفْـرَاط والتّفْرِيط ، والقولُ بالتقديسِ والتنزيه ، وإثباتُ الصّفَاتِ من غيرِ تعطيل ولا تشـبيه ، واقتباسُ النورِ من جَمْرَتَيْن ، وسلوكُ أمرٍ بين أمريْن ، والعدولُ عن المذْهَبِ البغيض ، وَهُوَ مَذْهَبُ الجبرِ والتفويض .

---

[٦٤] الإقراء : أيام الحيض .

[٦٥] ركسا : رجسا وكلٌّ مستقذر .

[٦٦] القَوَد : القصاص .

والعدلُ فى الفقيهات[٦٧] ، يامعشوقَ المخدرات والحذَاريّات[٦٨] ، الذى قام عليه النص دليلا ، ولا تَجْهَرْ بصلاتِك ولا تُخَافِتْ بها وابْتَغِ بَيْنَ ذلك سَبيلا : فمن العدلِ الوضوءُ المعتاد ، ثلاث مراتٍ ومَنْ نَقَصَ أو زاد ، فقد تعدَّى وظلم ، كذا قال النبيُّ المكرمُ ﷺ أيْ تَعَدّى إنْ أسْرَف ، وظَلَمَ إنْ أجْحَف . والعدلُ فى الصلاةِ أنْ تكونَ على مرتضَى الشرْعِ ومُقتضاه ، وهى أداؤُها فى أفْضَلِ الأوقاتِ مُؤَدّاة ، مع الجماعاتِ فى الصفِّ الأوّل ، على الوجهِ الأكمل ، عن يَمينِ الإمام ، من الافتتاحِ إلى الاختتام ، مع تعديلِ الأركان ، بل التعديلُ فرضٌ عند بعضِ الأعيان ، لا نَقْراً كنقْرِ الطير ، ولا تطويلاً يضرُّ بالغير . والعدلُ فى الزكاةِ ، أن لا يَتَيَمَّمُوا[٦٩] الخبيثَ منه ينفقون ، ولا يجعلُوا للهِ ما يكْرهُون ، وليسُوا بآخذِيه ، إلاّ أنْ يغمضوا فيه ، ولايكلّف جابى المال ، أن يُعْطَى كرائم الأموال . والعدلُ فى الصّوم ، ياسيدَ القوم ، أن لا يتناولَ فوقَ الغذاءِ المعتاد ، ولا يصلُ بالوِصَالِ إلى دَرَجةِ الإجهاد ، ويعجِّل الفُطُورُ ويؤخّر السُّحُور .

والعدْلُ فى الحجِّ أنْ لا يمارَى فى الإنفاق ، ولا يضارِرَ الرفاقَ بالشقاق ، كما يفعلُه أبناءُ الزّمان ، فإنّ ذلك خسران ، والازديادَ من ذلك نقصان ، ولقد بلغَك يا قمر ، ما قاله عُمَرُ لخادمه يَرْفا ، وذا لا يخفَى : كَمْ بَلَغَتْ نَفَقَتُنا مقدارًا ؟ قال : ثمانيةَ عشرَ دينارًا ، يا أميرَ المؤمنين ، قال : ويلَكَ أجْحَفْنا بَيْتَ مالِ المسلمين . وإيّاك والأَشَرَ[٧٠] ، وَقَاكَ اللهُ كُلَّ شَرّ ، فقد بلغَك قِيمَةُ راحلةِ سيد البشر ، ليدلَّ

---

[٦٧] الفقيهات : علوم الشريعة وأصول الدين ، الفقه الإسلامى .

[٦٨] الوصايا البليغة الذكية غير المباشرة (الوصايا التحذيرية) .

[٦٩] يتيمم : يقصد ، يتوجه ، يعنى أنه يعمد إلى دفع زكاته من خبيث ماله وحرامه عمداً وقصداً .

[٧٠] الأَشَر : البطر والاستكبار والغرور .

ذلكَ على تَرْكِ البَطَرِ والأَشَرِ ، ولا يقصّر فـي نفقتـه ، بحيث يصيرُ كَـلاً[71] على رفقته . وكذلك في كل الإنفاق ، ياملك الآفاق ، قال من عز كلاما ، وجل مقـالا ومقاما ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَاماً﴾[72] .

والعدلُ في النكاحِ ، ياحبيبَ الصباح ، لِمَنْ عليه يقوى ، فهو أقـربُ للتقـوى ، وهو يا أبا حَسّان ، واجبٌ عند التَّوَقان ، سُنَّةٌ عنـدَ القُـدْرَةِ عليـه ، مُسْتَحَبٌّ عنـد استواءِ طرفَيْه ، مكروهٌ عندَ العجـزِ عنـه ، وهـذا بحثٌ قـد فَـرَغ منـه . وقِسْ يـاذا الكرامات ، على هذا سائرَ العبـادات ، وجميـعَ العـادات ، وعقـودَ المعاملات ، ولا تَتَعَدَّ الحدود ، في الحدود ، فإنَّ ذلك مردود ، وعلى قانونِ العـدلِ وردتْ الشـريعةُ المطهّرة ، وجرت قديما شَرائعُ الأنبياءِ البررة ، وكذلك مقاديرُ المِلَّـةِ المحمديـة ، عليـه أفضلُ صلاةٍ وأَزْكَى تحيّة ، محررةٌ على القواعدِ العَدْلية ، وفيها من الحِكَمِ الإلهيّة ، ما يعجزُ عن إدراكِها القُـوَى العقْليـة ، قـال الله تعـالى ﴿لَقَـدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بالبيِّنَـاتِ وأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ والميزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَـا الْحدِيـدَ فِيـهِ بَـأْسٌ شَدِيدٌ ومَنَافِعُ لِلنّاس﴾[73] .

وحاصلُ الأمر ، ياذا النهْيِ والأمر ، أنّ العـدْلَ هـو قَـوامُ كُـلِّ فضيلـة ، كمـا أن الصبرَ هو أساسُ كُلِّ خصْلةٍ جميلة ، وإنْ أردْتَ بَسْطَ هـذا البيـان ، فَدُونَـك القـولُ والتبيـان ، فـي تفسـيرِ القـرآنِ المنزّلِ علـى أشـرفِ إنسـان ﴿إِنَّ الله يَـأْمُرُ بِـالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾[74] فقد أَشْبَعَ التقريـر ، ودَقَّـقَ التحريـر ، فـي روضِـه النضـير ، فـارسُ

---

[71] الكلّ : العالة .

[72] قرآن كريم ، سورة الفرقان : ٦٧ .

[73] قرآن كريم ، سورة الحديد : ٢٥ .

[74] قرآن كريم ، سورة النحل : ٩٠ .

ميدانِه الإمامُ الخطير ، فخرُ الدينِ الرّازى[٧٥] فى تفسيرِه الكبير : والعدلُ يجري في الصفات ، كما يمشي في الذوات ، ومرتبتُه في العلُوّ ، أن يكونَ بين التقصيرِ والغلُوّ ، كالكَرَمِ الذي يكونُ بين الإسرافِ والتبذير ، والشحِّ والتقتير ، والتواضعِ الذي بين الضِّعَةِ والتكبّر ، وبين التَصَعُّرِ والتصغّر ، والشجاعةِ التى بين التهوّرِ والخفّة ، والجبْنِ الطائشِ الكَفّة ، والقناعةُ التي بين الحرصِ والطمع ، والنذالةِ والهلع ، وبين العُجْبِ والتصلّف ، والاحتشام والتقشُّف ، والإخلاصِ الذي بين الشركِ والهوى ، وبين الأعجابِ والرِيَا ، والعفّةِ التي بين التّهَافُتِ على المشتبهات ، والترّفعِ عن تناولِ المباحاتِ والطيبات ، والحزمِ الذي بين سُوءِ الظنِّ والوهمِ والوَسْوَاس ، وبين إذاعةِ السرِّ والاستخفافِ وعدمِ المبالاة بالناس ، والحلمِ الذي بين الغضَبِ ، بلا سبب ، وبين التغاضِي عن اللّئام ، عند موجبِ الانتقام ، والشفقةِ ولينِ الجانب ، للأقارب والأجانب ، الذي بين القوّةِ والاستكبار ، وبين الرخاوَة واللّينِ المستلزمِ لتضييعِ حقوقِ الأهلِ والجار ، وحفظِ الحقوقِ الذى بين التكلّفِ والعُقُوق ، يراعى فيها الحدُود ، ولا يخرجُ فيها عن الحدِّ المعهود ، فالخروجُ عنها يسمى عنادًا وقساوة ، والتقصيرُ فيها يُدعى ركاكةً ورخاوة ، مثلاً مَنْ يَسْتَحِقُّ العفوَ لا يضرَب ، ومَنْ يستأهِلُ الضربَ لا يُقطع ولا يُنْكَب ، ومَنْ استوجَبَ القطْعَ لا يُقتل ، ومَنْ وَجَبَ عليه حَدٌّ لا يُهمل ، وتجري أمورُ الشرعِ الشريف ، على ما وَرَدَ به الأَمْرُ المنيف ، فما ثَمَّ أحدٌ أكرم ، من اللهِ ولا أرحم ، ولا أعلمُ بأمورِ مخلوقاته ولا أحكمُ ، قال السميعُ البصير ﴿أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِير﴾[٧٦] .

---

[٧٥] المتوفى سنة ١٢٠٩ م .

[٧٦] قرآن كريم ، سورة المُلك : ١٤ .

وروي أن الإمامَ المسدّد ، جعفرَ بنَ محمد ، دخَلَ على الرشيد ، وهو في أمرٍ شديد ، قد استولى عليه الغضب ، واستخفّه الطيْشُ والصَّخَب . فقال : يا أميرَ المؤمنين ، إنْ كان غضبُك لربِّ العالمين ، فلا تغضبْ لـه أكثرَ من غضبه لنفسه ، وقد حَدَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَدًّا من نِقَمِهِ وبأسِه ، فلا تَتَعَدَّ حدوده ، فإنه قد مَلَّكَكَ عبيدَه ، فتذكّر مِن وُقُوفِهِم بَيْنَ يديْك ، واقتدارك عليهم إذا تمثلوا قياماً للأيك ، قُدومَكَ يومَ القيامةِ عليه ، ووقوفَك خاضعاً منفرداً بين يديه ، ومن انتقامِك منهم ، سؤالَه إيّاكَ عنهم ، فَسَكَّنَ من غضبه واقتدى بأدبه .

وقال الحكماءُ للأسكندر : عليك بالاعتدالِ في كُلِّ الأمور ، فإن الزيادةَ عيب ، والنقصانَ عجز ، وفي الحديث : "خيرُ الأمورِ أوْسَطُها" ولهذا قيل ، في الأقاويل : ينبغي للإنسان ، الراجح العقلِ في الميزان ، أن يحصلَ من كلِّ عِلْمٍ مقدارَ ما يحتاج إليه ، ويعوّلَ في مشكلاته عليه . مَثَلاً من علمِ الأدب ، ما يُنَال به عند أربابه الرتب ، كاللُّغَةِ والنَّحْوِ والصَّرْف ، ولو أنهُ أَدْنَى حرف ، ليقوِّمَ بذلك لسانَه . ومِنْ عِلْمِ المعاني ما يُبدِعُ به بيانَه . ومن العَروض والقوافي ، المقدارَ الوافي ، والمعيارَ الكافي . ومن الطِّبِ ما يعرفُ به مزاجَه ، ويصلحُ به علاجَه ، ويقوِّمُ به اعوجاجَه . ومن علْمِ التفسيرِ والقرآن ، ما يقتدرُ به على بيانِ كلامِ الرحمن . ومن علْمِ السُّنّةِ والحديث ، ما يميِّزُ به الطَّيِّبَ من الخبيث ، ويضبطُ به أقسامَه ، وصحتَه وسقامَه والأنسابَ والرجال ، وما لهم من صفاتٍ وأحوال ، إن لَمْ يكُنْ مفصَّلاً فعلى الإجمال ، ويندرجُ فيه عِلْمُ التاريخ ، العالى الشماريخ . ومن علْمِ الكلامِ ما يصحّحُ به دينَه ، ويقيمَ به اعتقادَه ويقينَه . ومن علْمِ الأصول ، وما اشتملِ عليه من معقولٍ ومنقول ، ما يقدر به على استنباطِ الأحكام ، ومعرفةِ أدلّةِ الحلالِ والحرام . ومن علم الفروع ما يُحْكِمَ به أصنافَ العبادات ، وأنواعَ العادات ، وطرائقَ العقود ،

وإقامةَ الحدود . ومن عِلْمِ مكارمِ الأخلاق ، ما يصيدُ به قلوبَ الرفاق ، ويكتسِبُ به الذكرَ الجميل ، والثناءَ الجليل . ومن الحرفِ ما يحصِّلُ به القوتَ الحلال ، ولا يصيرُ على الناس كَلاًّ ذا إمْلال . وقد قيل : خالِطُوا الناسَ مُخالطةً إنْ غبتُم حنّوا إليكم ، وإنْ متُّم بكَوْا عليكم . ومن عِلْمِ الرّكوبِ والرمي والسباحة ، والخطّ ولَعِب الرُّمْحِ والسياحة ، وعلمِ الفرائضِ والحساب ، وطرائقِ المبايعات والكتاب ، ما يقدرُ به على الدخول إليه ، إذا تكلّموا فيه بين يديه ، بحيث يكونُ له فيه مشاركةٌ وإلمام ، ولا يكونُ بين الخواصِّ كالعوام . وكلُّ ما ذُكِرَ فسلوكُهُ عَدْل ، والتلبُّسُ به كمالٌ وفضْل ، ورأسُ مالِ الجميعِ التّقْوى ، فإنَّ الإنسانَ الضعيفَ بالتّقْوَى يَقْوَى ، قال الله تعالى ﴿وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُم﴾[77] .

وبالجُمْلةِ فالعاقلُ العادل ، بل الكاملُ الفاضل ، لا يستنكفُ عن نوعٍ من العلوم ، ولا تبردُ هِمَّتُه عن اقتباسِ منطوقٍ ومفهوم . قَالَ مُعَلِّمُ الخير ، وَمُحذِّرُ الشرّ : تَعَلَّمُوا حتى السحر .

وقيل :

عرفْتُ الشرَّ لا للشَّرِّ لكِنْ لِتَوَقّيْهِ
ومَنْ لَمْ يعرِفِ الخيرَ مِنَ الشرِّ يقَعَ فيهِ

وكلُّ صافي السريرَةِ ، وذي بصيرةٍ منيرة ، يتوجَّه إلى التعلّمِ والاستفادة ، ويجعلُ مرادُه مرادَه ، أيَّ عِلْمٍ كان خُصوصاً إذا كان ، مِنَ الشَّرفِ بمكان . قال بعضُ الوزراءِ لابنه : يا بُنَيّ تَعلَّمْ العلمَ والأدب ، ولاَ تسأَمْ فيهما من الطّلب ، فَلَوْلا العلمُ والأدب ، لكانَ أبوك في السُّوقِ حَمّالا ، وللنُّوق جَمّالا . فبالعِلْمِ والأدبِ ركبنا أعناقَ الملوك ، وأحْوجُ النّاسِ يا ذَا الإفضال ، إلى اكتسابِ الفضلِ والعلمِ

[77] قرآن كريم ، سورة الحج : ٣٧ .

والكمال ، السلاطينُ والملوك ، ومَنْ تبعَهم في السلوك ، فإنهم بين خَلْقِ اللهِ تعالى هم المرموقون ، والسابقون بجلائلِ النِّعَمِ لا المسبوقون ، ويحفظُ بلادَه وعبادَه المستوثقون ، وبالسؤالِ عنهم موثوقون ، فهم المتحمِّلون لأعباءِ العدل ، المكلّفون بالمحاسبةِ عنه والفضْل .

قال مَنْ يقولُ للشيْءِ كُنْ فَيَكُون : ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[٧٨] فهم أقدرُ على التحصيلِ من غيرِهم ، والزمانُ والمكانُ تابعان لسيرِهم ، والخاصُّ والعامُّ يتمنّى قربَهم ، ويسلكُ في التوصّل إلى جنابهم دَرْبَهم ، ويبذلُ في ذلك ما وصلتْ إليه يداه ، ويجعلُ تحصيلَ ما يَرُومُونه غايةَ مُتَمَنّاه ، فيبذلُ جهدَه في إيصالهم إليه ، ويكدُّ قلبه وقالبه في اطلاعِهم عليه ، قال الشاعر :

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ نَقْصًا   كَنَقْصِ القادِرِينَ عَلَى التَّمَامِ

وقال بعضُ الملوكِ لأولادِه : يا بُنَيَّ اكتسبُوا العلمَ والفضل ، وادّخروا الحلمَ والعدل ، فإن احتجتم إلى ذلك كان مالا ، وإن استغنيتم عنه كان جَمَالا . وقال بعضُ الحكماء ، العلمُ مَلِك ذو أعضاء ، رأسُه التواضع ، ودماغُه المعرفة ، ولسانُه الصدق ، وقلبُه حُسْنُ النية ، ويداه الرحمة ، ورجلاه مثابرةُ العلماء ، وسلطانُه العدل ، ومملكتُه القناعة ، وسيفُه الرضا ، وقوسُه المساءلة ، وسهمُه المحبة ، وجيوشُه مشاورةُ الأدباء ، وزينتُه النجدة ، وحكمُه الورع ، وكنزُه البرّ ، ومالُه العملُ الصالح ، ووزيرُه اصطناعُ المعروف ، ومستقرُّه جَوْدَةُ الرأي ، ومأواه الموادعة ، ورفيقُه مَوَدَّةُ الأخيار ، وذخيرتُه اجتنابُ الذنوب .

والحاصلُ يا ملكَ الطير ، ويا مالكَ عِنانِ الخير ، أن قوامَ العالم ، ونظامَ بني آدم ، سيفُ الملوكِ والسلاطين ، وقَلَمُ العلماءِ الأساطين . فمهما حَدَثَ من شرٍّ محاه سيفُ

---

[٧٨] قرآن كريم ، سورة الزمر : ٩ .

الملوكِ ، ومهما وُجدَ من خَيْرٍ أثبته قَلَمُ علماءِ الإرشادِ والسلوك . وفي الحقيقة ياشيخَ الطريقة ، العالَمُ عبارةٌ عن هؤلاء ، وبصلاحِهم تصلحُ الأشياء ، وبفسادِهم والعياذُ با لله تفسُدُ الدنيا ، إذْ هُمْ لزَوال الفساد ، وطهارَةِ العباد ، وعمارةِ البلاد ، بمنزلةِ الصابون للأَوْضَار ، والاستغفارُ للأوزار ، فإذا فسدَ هؤلاء ، فما لفسادِهم دَواء ، كما قيل :

الذّنْبُ صَابُونُ الاستغفارِ يَغْسِلُهُ	كالثّوْبِ ينظفُ بالصابونِ إنْ وسِخَا
فَمَا الّذِي يَغْسِلُ الصابونَ مِنْ دَنَس	إذا رَأَيْنَاهُ صارَ الذّنْبَ والوَسَخَا

وناهيكَ يا ملكَ العقبان ، ما فَسَدَ من الزَّمان ، وجَرَى من الدِّمَاءِ من طوفان ، وانمحَى من أُمَّهات البلدان ، عند استيلاءِ الكافرِ جنكزخان[79] . فسأل العُقاب ، عن كيفية هذ المصابِ والعِقاب ، ومَنْ هو جنكزخان ، الذي أفسَد وخان ، وما أَصلُه وفصلُه ، وكيف كان قطعُة ووصلُه ، حتى نَفَذَ في كَبِدِ العالَمِ بالفسادِ نصلُه ؟

[٥/١٠] قصة ظهور جنكزخان ، وحروبه الوحشية

فقال : هذا رجلٌ من بقايا التتار ، الساكنينَ من بلادِ الشرقِ في قِفار ، وهم من بقايا يأجوج ومأجوج ، عن الإسلامِ منحرفون وعن الإيمان عُوج ، سُمُّوا بالتركِ لأنهم تركوا عن دخولِ السدِّ بالخروج ، فكانوا قبل جنكزخان ، مُبَدّدِين في

[79] جنكزخان أو جنكيزخان ، كما هو معروف في التاريخ : هو موسس دولة المغول ، وقد ولد في قرية قراقوم لرجل يدعى "يسوكاى" الذى كان خانا (رئيسا أو زعيما) لقبيلة المغول . وجنكيزخان هو اسم مكتسب له من اللغة التركية tengiz اتخذه سنة ١٢٠٦ م ومعناه بحر أو محيط . أما اسمه الأصلي - كما سيرد في المتن - فهو "تيموجين" وتعنى الحدّاد . وقد ذاع صيته في منغوليا أولا ، ثم غزا البلاد المحيطة حوله ، ثم استولى على الصين ، وقد قامت ذريته بغزو العالم الإسلامي ، توفى سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م .

صحاري لا يتفقُ منهم اثنان . مسيرةُ أماكنِهم ، ومدى مساكنِهم ، شرقاً بغربٍ نحوَ ثمانيةِ أشهر ، وشمالاً بجنوبٍ لا ينقصُ عن هذا المدى ولا يقصر ، حَدُّها من الشرق حدودُ ممالكِ الخِطا[٨٠] ، وأقصاها خان بالق[٨١] وهي مدينةٌ عظمى ، ووراءها شرقا ، يا مَنْ يرقى ، ينتهى الحد ، بعد السير الجد ، إلى بلدةٍ عظيمة ، ولاياتُها جسيمة ، تدعى خيسار[٨٢] ، وأهلُها كفار ، وهي مبدأُ مملكةِ الصين ، يا ذا المجدِ الرّصين . ومن الشّمالِ نواحي قِرقير وسلنكاي[٨٣] . ومن الجنوب بلاد تدعى تَنْكُت[٨٤] وتُبَّت ، وتبت هذه يا ذا النُّسك ، هي التى يتولّدُ من غزالها المسك . ومن الغربِ وهي جهةُ قِبْلَةِ تلكِ البلاد ، إذا صلّى المسلمون منهم والعباد ، حدودُ بلادِ ، أو يغور ، وما والى تلكِ الكفورِ من بلادِ تركستان[٨٥] ، يا ذا الإحسان ، ويسيرُ المِجدُّ منها ، إذا انفصل عنها ، كذا وكذا شهر ، حتى يصلَ من جهةِ غربِها إلى ما وراء النهر[٨٦] .

ثم هؤلاء التتار ، كانوا في تلك القِفار ، بين هذه الحدودِ الأربعة ، في مَضْيَعَةٍ وأي مضيعة ، يتوالدون في ذلك البر ، وَيَتَهَارَجُون[٨٧] في ذلك السّهلِ والوعر ،

---

[٨٠] ممالك الخِطا : منغوليا ، وهى – قديما – مملكة متاخمة لبلاد الصين ويسكنها جنس من الترك .

[٨١] خان بالق : قاعدة الصين القديمة وهى مدينة من أقاصى الشرق عند بلاد الخطا .

[٨٢] خيسار : من مدن الثغور التى بين غزنة وهراة .

[٨٣] قرقير وسلنكاى : من مدن آسيا الوسطى (على حدودها) .

[٨٤] تَنْكُت : مدينة من المدن التى تقع على نهر شاش من وراء سيحون ، وهى من أشهر مدن سمرقند . أما مدينة تبّت فهى أيضا من بلاد ما وراء النهر .

[٨٥] تركستان : منطقة واسعة فى آسيا الوسطى بين سيبيريا وبحر قزوين وتشمل اليوم جمهوريات أوزبكستان. وتاجيكستان ، وتركمانستان ، وقرغيزيا ، وكازاخستان ، وتمتد إلى إقليم سين كيانج الصينى .

[٨٦] ما وراء النهر : اسم أطلقه العرب قديما على البلاد الواقعة شمالى نهر جيحون ، بتركستان الروسية ، وأهم مدنها بخارى وسمرقند وطشقند .

[٨٧] يتهارجون : يتخالطون ويضطربون ويتنازعون .

كالحيواناتِ السائبةِ في البرِّ والبحر ، لا حاكمٌ يردعُهم ، ولا دينٌ واعتقادٌ يجمعُهم ، وهم فيما بينهم قبائلُ وشعوب ، وأصنافٌ وضروب ، وخلائقُ وأُمَم ، لا يعرفون الإسْلامَ والسلم ، بل كُلُّ أُمَّةٍ تَلْعَنُ أختَها ، وتنهبُ تختَها ، وتأْكُلُ رختَها[٨٨] ، وكلُّ طائفةٍ تُعِدُّ غارتَها ، وتقصدُ جارتَها ، وكلُّ مَنْ قَوِيَ على غيرِه كسره ، إمّا قتلَه وإمَّا أسرَه ، لَمْ تزلْ المكافحةُ بينهم قائمة ، والمناطحةُ بين ثيرانِهم وكباشِهم دائمة ، وَعُيُونُ الرُّشْدِ والاهتداءِ عنهم نائمة ، وضواري الظلمِ والاعتداءِ في مسارحِ سوارحِ أحلامِهم سائِمَة ، يعدّون النهبَ غنيمة ، والفسقَ والفجورَ والنميمة ؛ أجملَ صنعةٍ وأكملَ شيمه ، يأكلون الكلابَ والفَار ، وما وجودُه من صيدِ القِفار ، والميتةَ والدمَ والهوامّ ، لا يعرفون الحلالَ منها والحرام ، ويلبسون جلودَها وأوبارَها ، وأصوافَها وأشعارَها ، كما كان مُشْرِكُو العربِ فى الجاهلية ، قبلَ إشراقِ شمسِ المِلّةِ المحمدية ، لا زرعَ لهم ولا ثمر سوى نوعٍ من الشجر ، يشبه شجرَ الخِلاف[٨٩] ، هو ثمرُهم في الشتاءِ والاصطياف ، اسمُه قسوق .

وهم على ما هم عليه من الفسوق ، يعبدُون الأوثانَ والأصنام ، ويسجدونَ للشمس ، إذا بزغت من الظلام ، ويعظمّون النجومَ ويعبدونَها ، وتخاطبُهم الجنُّ ويرصدونها ، وفيهم كَهَنَةٌ يعتقدونها ، وسحرةٌ ومَكَرَة ، وسواجعُ وزَجَرَة ، يُجْبَي خراجُهم إلى ملِكِ الخطا ، وهم على أشدّ كفرٍ وخطا ، قد تركّبَ الكفرُ في أحشائهم ، وإنَّ الشياطينَ لَيُوحُون إلى أوليائِهم . وأعلَى مَنْ فيهم ، من أكابرِهم

---

[٨٨] التخت : العرش أو سرير مُلْكها . والرخت : بالفارسية أيضا اسم للقماش والأثاث والرياش ، ومن معانيها – وهو المقصود هنا : اللحوم تنهبها القبائل من بعضها البعض . أى أن القبائل تأكل لحم بعضها بعضا .

[٨٩] الخلاف : صنف من الشجر اسمه قسوق ، وهو يشبه شجر الصفصاف ، غير أن له ثمراً فى الصيف وفى الشتاء .

وذويهم ، علامةُ رياستِه ، وانفرادِه بسياستِه ، وأنه فيهم ذو بأسٍ شديد ، ورأيٍ يديد ،ومالٍ مديد ، كَوْنُ ركابه من حديد ، وباقي أعيانِهم ، وذوي مكانتِهم وإمكانِهم ، إنْ كانوا ذَوِي جدّ ، فركابُهم قَضِيبٌ مَلْوِيّ أو قد . وعندَهم أفْخَرُ ملبُوس ، جلودُ الكلابِ والنموس ، والذئابِ والتيوس ، وَقِسْ على هذا جميعَ تجمّلاتهم ، ومفاخرِ آلاتهم .

فهم من قديمِ الزمان ، وبعد الحدثان ، من حينِ بلغَ ذو القرنيْن بَيْنَ السدَّيْن ، وسَاوَى على يأجوجَ ومأجوجَ بين الصدفيْن . إلى آخرِ وقت ، كانوا في قِلَّةٍ ومقت ، وضيقِ حال ، وسوءِ بال ، لا دنيا رَخِيّة ، ولا آخرةٌ رَضِيّة ، حتى نبعَ منهم هذا اللّعين ، الطاغيةُ تِمُوجين[90] ، الذي تَسَمَّى بجنْكِزْخان ، وساعدَه قَضَاءُ الديان ، فأَمَدَّه الزمان ، وأعطاه المكان ، لأمرٍ يزيدُه الرحمن ، وقضاءِ قَدَرِهِ على عبيدِه فى سالفِ الأزمان . فَطَمّ[91] العالَمَ بالفساد ، فأهلكَ العبادَ والبلاد ، وأخلى الديارَ والدار ، وعَمَّ غالبَ بلادِ الإسلامِ بالشَّنَارِ والبوَار ، فصلّى اللهُ على سيِّدِ بني عدنان ، بل أشرفِ جنسِ الإنسان ، الذى قال : يخرجُ فى آخرِ الزمان ، رجلٌ يُسمَّى أميرَ العصب ، أصحابُه مخسورون محقرون مقصون عن أبوابِ السلطان ، يأتونه من كلِّ فجٍ عميق ، كأنه فَزَعُ الطريق ، يورِّثُهم اللهُ مشارقَ الأرض ومغاربَها . فاتبعه منهم النساءُ والرجال ، أتْبَاعَ اليهودِ والكفرةِ المسيحَ الدجّال ، أُمَمٌ لا يحصرُها حسابٌ ، ولا يحصيها ديوانق ولا كتاب ، وما يعلمُ جنودَ ربِّك إلاّ هو ، فأرشدوا إلى طريقِ الضلالِ بعدما تاهوا ، فصار كلٌّ من أولئك الطغاة ، الكفرةِ والفجرةِ والأوغادِ اللئام ، وكلُّ إكلاّب خادم كلاب الصيود ، يجرى سيفُه الكال

---

[90] تِموجين : الحدّاد ، انظر الهامش رقم (٨٠) .

[91] طَمّ : كثر حتى عَمّ .

الكدود ، من أشرافِ الملوكِ وملوكِ الأشرافِ وفي أعضادِ الأُسود ، وفي رقاب النمور والفُهود ، وكلُّ ماضغِ شيحٍ وقيصوم ، وعلجٍ[٩٢] من أولئك العلوج وعلجوم[٩٣] ، يَتَفَكَّهُ في أنواعِ المستلذاتِ من المشروبِ والمطعوم ، وكلُّ صعلوكٍ معلوكٍ[٩٤] من تركيٍّ متروك ، أو خَدَّامٍ مملوك ، يَتَحَكَّمُ في رقابِ أكابرِ الملوكِ ويستعبدون أحرارَ أولادِهم ، ويستفرشون زوجاتِهم وبناتِهم فى بلادهم .

عَلَى رَأسِ عَبْدٍ تاجٌ يزينُه　　　وفي رِجْلِ حُرٍّ قَيْدُ ذُلٍّ يشينُه

ومَنْ لا يعرفُ البطائنَ المزوية ، ولم يسمعْ بالرقاعِ الكرباسية[٩٥] ، يستوطئُ الاستبرقَ[٩٦] والديباج[٩٧] ، ويتقلّبُ على تخوتِ الصندل[٩٨] والساج[٩٩] ، ويترقّى إلى سُرُرِ الأبنوسِ والعاج ، ويعاملُ التجّار ، والمضاربين في البرِّ والبحار ، بألوفِ الألوفِ من الدرهمِ والدينار ، فيُجبَى إليهم نفائسُ المضارِب ، من المشارقِ والمغاربِ ، ومكامِنِ المعادن ، وذخائرِ الخزائن ، كلُّ ذلك بواسطةِ ذلك الطاغية ، واستيلاءِ الفئةِ الباغية[١٠٠] .

---

(٩٢) علج : الرجل الضخم من كفار العجم .

(٩٣) علقوم : الأتان الكثيرة اللحم (من الحمير الوحشية) والتعبير مجازي هنا .

(٩٤) معلوك : مستخدَم عند الكثيرين ، صفة ذم ، فهو مُمْتَهَنٌ ممضوغ لزج (كالعلك) .

(٩٥) الكرباسية ، نسبة إلى الكرباس ، وهو ثوب غليظ من القطن .

(٩٦) الاستبرق : الديباج الغليظ .

(٩٧) الديباج : الثياب الحريرية .

(٩٨) الصندل : شجر خشبه طيب الرائحة ، وخشبه ذو ألوان متعددة .

(٩٩) الساج : شجر ذو خشب صلب جداً .

(١٠٠) والمؤلف فى هذه الفقرة كلها وما قبلها يسخر من بربرية المغول الهمج الذين استولوا على معظم منطقة آسيا من المسلمين وغير المسلمين . وقد استعبدوا أحرارهم ، وسبوا نساءهم ، ونهبوا ثرواتهم .. ومن العجيب أن المؤلف نفسه سيقع أسيراً إبان غزو تيمورلنك – من ذرية جنكيزخان – لبلاد الشام ، على نحو ما رأينا فى ترجمته فى مقدمة الكتاب ، نقلا عن بعض المصادر التاريخية .

وكان من أمرِ هذا المصاب ، الذي بدَّل حلاوةَ العيشِ بمرارِ المصاب ، وخلّد في الدهرِ قواعدَ البلايا والأوصاب ، أن الله القاهرَ فوقَ عبادِه ، الذي لا يُسأَلُ عمَّا يفعلُ من مرادِه ، بل له المرادُ في عبادِه وبلادِه ، المتصرِّفُ في مُلْكِه ، تصرُّفَ المالِكِ في مِلْكه ، لمّا أرادَ ابتذالَ الصون ، وعمومَ الفسادِ في عالم الكون ، واستئصالَ غالبِ أَهلِ الأرض ، وإذاقةَ بعضَ عبادِه بأسَ بَعْض ، وإظهارَ آثارِ غضبِه على صفحاتِ الشهود ، إبرازَ أسرارِ قهرِه على وَجَنَاتِ الوجُود ، ولحسَ سطورِ صدورِ علماءِ العالَمِ على لوحِ الورود ، بلسانِ نارِ السخطِ ذاتِ الوقود ، ونقصَ أرضِ العلمِ من أطرافها ، وإخلاءَ ربوعِ المحاسنِ من أُلاَّفِها ، أَيْنَعَ هذا التمساحَ[١٠١] من أفواجِ أمواجِ هذه البحار ، ونبعَ هذا التِّنِّينُ المبينُ[١٠٢] من أَوْعَارِ تلك القفار ، وأغوارِ أوغادِ هاتيك التتار ، فكانَ مُمتازاً على أقرانه ، بوُفُور عقلِه وحُسْنِ بيانه ، ذا فكرٍ مصيب ، ورأيٍ صائب ، وحزمٍ مجيبٍ وعزمٍ ثاقب ، وهمّةٍ تُبارِكُ الأفلاك ، وثباتٍ يُجاري السِّماك ، كَسَرَ بصدماتِه الأكاسِرَة ، وقصَّ بسطواتِه القياصرَة ، وقرع بعزماتِه على قِمَمِ الفراعنةِ والجبابِرَة ، وقهَرَ بحملاتِه قهارِمَةِ[١٠٣] خوَاقِينِ[١٠٤] القياصرة .

وكان أميًّا لا يقرأُ ولا يكتب ، أعجميًّا عُجريًّا لا يحسب ولا ينسب ، لا طالعَ الأخبار ، ولا اقتفى في سياسةِ الممالكِ والآثار ، بل فَرَّع ما فَرَعه من القواعدِ فى صحيفةِ تفكيرِه ، واخترعَ ما ابتدعه من تدبيرِ المُلْكِ من مُطَالَعَةِ هواجسِ ضميرِه ، فأسّس قواعدَ لو أدركه اسكندر ودار لَما وَسِعَهُما إلا اقتفاءُ أَثره ، وشيَّدَ مبانيَ لو

---

[١٠١] التمساح : جنكيزخان .

[١٠٢] التنين : يقصد المؤلف جنكيزخان أيضا .

[١٠٣] قهارمة : واحدها قهرمان : أمين الملك أو وكيله الخاص بتدبير دخله وخرجه .

[١٠٤] خواقين : مفردها : خاقان : الرئيس أو الزعيم عند التتر ، ويختصر إلى خان أو قان .

بلغتْ نمرود[١٠٥] وشدّادًا[١٠٦] لَبَنَيَا قُصورَ قصورِهما على أركانِ خبرِه وخيرِه ، ورتّبَ تجهيزَ السرايا والجنود ، وربَط عقودَ الجيوشِ والبنود ، بطرائقَ يعجزُ عنها مهندسُ الحكمة ، ويتقاعدُ عن حَلِّ رموزِها مُعَزِّمُ الفِطْنة . وغايةُ ما يتعاناه ، ويستعملُه ويتعاطاه ، جيوشُ الأتراكِ في بسيط الأرض ، من إبرامِ طرائقِ عساكرِهم والنقض ، إنما هو من قوانينِ ما رتبه ، وأفانينِ ما هذّبه وركّبه .

وله في ترتيبِ حرابِ الحروب، وما في فَنِّ الضربِ والضِراب من ضُروب ، وطرائقِ الاصطيادِ مخترعاتٌ دقائق ، لم يُسبَقْ إليها من لَدُن كَيْخِسْرُو وكَيْقَبَاد[١٠٧] ، أَحْكَمَ بها الموافق ، ونَصَرَ المصادق ، وكَبَتَ المعادي ، وكسَرَ الأعادي ، واستطالَ مع كثرةِ مخالفيه عليهم ، وأنفذ سَهْمَ تَحَكُّمِه وتَحْكيمِه فيهم وإليهم ، وصَال فيهم حَسْبما أرادَ وَجَال ، واتّسَعَ له في التضييقِ على الإسلامِ والمسلمين المجال . فكلُّ مَنْ عامَلَهُ بالمجاملة ، وتلقاه بالعبوديةِ وحُسْنِ المعاملة ، أبقى على نَفْسِه وأهلِه وماله ، وحَصَّنهم من أليمِ خيلِه ورجالِه ! ومَنْ قابلَه بالمقاتلَة ، وقاتلَه بالمقابلة ، وتَلاَ فى صَفِّ قتالِه سورةَ المجادلة ، محا سطورَ كونِه من لَوْحِ الوجود ، وأوطأَ سنابكَ خيلِه منه الجباهَ والخدود ، فخرَّبَ ديارَهم ، ومسح آثارَهم ، مع شِرْكِهِ وإسلامُهم ، وَتَبَدُّدِ عساكرِه ونظامُهم . ومع أن أكثر الملوكِ والسلاطين ، وحكّامَ الممالكِ الإسلاميةِ من الأمراءِ والأساطين ، لعدمِ اكتراثِهم بالأتراكِ والتتر ، وشدّة ما هم فيه

---

[١٠٥] النمرود : الملك النمرود بن كنعان بن كوش ، وقد ورد ذكره فى سفر التكوين ، وفى القرآن الكريم ، وهو أول جبّار فى الأرض ، كما تقول الكتب المقدسة .

[١٠٦] شداد : يعنى – والله أعلم – محمد بن شداد رأس الأسرة الشدّادية فى أران وشرقي أرمينيا ، حكم سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م .

[١٠٧] كيخسرو (غياث الدين) وكيقباد (علاء الدين) من ملوك أو سلاطين سلاجقة الروم ، امتدّ حكمهم من أواخر القرن الثانى عشر حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى .

من النخوةِ والبطَر ، ولاعتمادِهم على حصونِهم الحصينة ، وتعويلِهم على معاقِلهم المكينة ، ولكثرةِ العَدد والعُدد ، ومساعدة المَدد والمُدَد ، ولوفورِ العمائرِ ببلادِهم وخرابِ بلادِه ، وبسطةِ استعدادهم وضيقُ استعداده ، لم يعاملوه إلا بالمكافحة[١٠٨] ، ولا ردّوا جوابَ خطاباتِه إلا بالّلعْنِ والمكالحة[١٠٩] ، والسبُّ والمقابَحة ، ولا قابلوه الا بالمرامَحة ، والمراوسةِ والمناطحة ، فقتلَهم وأبادَهم ، واستصفى طارِفَهم وتلادَهم ، وتوطّنَ ديارَهم وبلادَهم ، وأبادَهم عن آخرِهم ، وأطفأ قبائلَ عشائرِهم ، فمدَّ لأكابرِهم أسمطةَ الرّزايا ، ووضعَ في أفواهِ أصاغرِهم أثْديَةَ المنايا ، واضافَهم في ولائمِ الدَّمار ، وأطافَهم على نِجَابِ[١١٠] الانكسار ، في ملابسِ البوار ، فاستأصلَ شأفتَهم بالكُلّيّة ، وحكّم فيهم صوائلَ المنية ، فلم يبقَ من مائةِ ألفِ إنسان ، مثلاً مائة إنسان ، وذلك أيضاً إمّا على سبيلِ التغافلِ أو على سبيلِ النسيان ، وسيذكَرُ على سبيلِ الإجمال ، ما يَدُلّ على تفصيلِ ما له من أحوال ، وشواهد ما فَرّعَه من أهوال ، واستمر ذلك في ذرّيته ، وإنْ كانوا رجعوا عن مِلّتِه .

وأصلُ هذه الأَصَلَة[١١١] ، التي أضحت بخلقانِ اللّعن أكسَى من بصلة ، قبيلةٌ من تلك التتار ، الساكنينَ في تلك القفار ، تسمى "قتات" أى "ظلمة عتاة" ، غيرُ أمناء ولا ثقات ، منها آباؤه وأجداده ، وفيها أقاربُه وأحفادُه ، وأخوته وأولادُه ، فنشأ كما ذكر بطلاً باسلاً ، وشجاعاً كاملاً ، سهامُ أفكاره في عمرِه مصيبه ،

---

[١٠٨] المكافحة : إعلان الحرب والكفاح .

[١٠٩] المكالحة : العدوان .

[١١٠] أطافهم على نجاب : فضحهم وشهّر بهم فوق نجاب أو نجائب الابل وخيارها .

[١١١] الأصلة : حيّة عظيمة قوية ، سامة شرسة .

ورهَام[112] آرائه في مكرِه خصيبة ، ثم اتصل بعد ما أخنى وخان بملكِ الخطا يسمى بأونك خان[113] ، وأَظهرَ من أَنواعِ الفراسة ، والفروسةِ والكياسة ، ما فاق به أناسَه ، وفات من العقلِ قياسَه ، فَقَرَّبه الملك وأدناه ، ولمهماته اصطفاه ، ولازال يترقى عنده[114] ، إلى أنْ مَلَكَ جندَه ، وصار عضدَه وزندَه ، ودستورَ ممالكه ، ومسلكَ مسالكه ، وحاكمَ أمرائه ، وناظمَ أمورِ وزرائه ، وناظرَ جمهورِ كبرائه ، وَعَيْنَ أعوانِه ، وعَوْنَ أعيانه ، وأعزَّ من أخوته وأولاده ، وأبرَّ من حَفَدَتِه وتلادِه ، وكثفت حواشيه ، وعظمتْ غواشيه ، وملأتْ السهل والوعر فَوَاشيه[115] ومواشيه .

فثقُل على الوزراء ، وصعُب على الأمراء ، إذْ مدارُ الملكِ صار عليه ، ومرجعُ الأميرِ والمأمورِ إليه . فحسدَه أولادُ الخان وأخوتُه ، وأجنادُه وأسرتُه ، وأعملوا له المكائد ، ونصبوا له المصائد ، وتعاطوا إفسادَ صورته ، وتواطئُوا على إخمادِ سيرته ، فصاروا يتناوبون على ذلك في غيبتِهِ ، ويمزّقُون أديمَ عِرضِه عند الخان ، ويشقّون سِتْرَ عِصْمته بمخاليبِ البهتان ، ويراقبون للكلام أوقاتَ القبول ، ويواظبونَ في السعاية عليه بدلائلِ المعقول ، حتى أَوْغَرُوا صدرَ الملك عليه ، وأخذَ يفكّر في كيفيةِ إيصالِ الإساءةِ إليه ، ولم يقدرْ على مواجهته ، لوفورِ جماعته ، وكثرةِ حاشيته ، فإن أوتادَه كانت ثابتة ، وغراسَ هيبته كالأَرْزَةِ نابتة ، وفروعَ دوحةِ عصباته ، قد

---

[112] رهام : المطرة الضعيفة الدائمة .

[113] أونك خان أو طغول أحد رؤساء قبيلة كرايت في منغوليا ، وقد أظلّ جنكيزخان برعايته وأمدّه بتأييده ، غير أن جنكيزخان أو تيموجين آنذاك ما لبث أن اختلف معه وهزمه في إحدى المعارك سنة ٥٩٩ هـ ، بزغ بعدها نجم تيموجين ، كما سيرد في متن الكتاب .

[114] عند أونك خان أو طغرل . انظر الهامش السابق .

[115] فواشيه : كثرة الأنعام .

أحاطتْ بالمِلِكِ من كلِّ جهاته ، حتى قيل ، إنَّ ذلك الثقيل ، كان له من القَرَابات ، وذوي الأرحامِ والعصبات ، والأولادِ والأحفادِ ، ما جاوَزَ في التعدَاد ، عشرة آلافِ نَسَمة ، كلٌّ له حُرْمةٌ وكلمة . فأضمر له السلطانُ البيات[116] ، وانتخب لذلك من عسكرِه أُولي الثبات ، والإثباتِ الثِقات ، ولم يختلفْ عليه في ذلك اثنان ، لأنه كان قد استحكم فيهم منه الشنان[117] ، وعلموا أنَّ سهْمَ مكرِهم نَفَذ ، وحسامَ فكرِهم في قَطْعِه فَلَذ ، ورأَوْا من الرأيِ أرصنَه ، أن يراقبوا لحتفِه مَكْمَنَه ، فتواعدوا على ليلةٍ معينة ، يدهمون فيها مَأْمَنَه . وكان عند الخان[118] ، صَبِيّان بحرمان لا يُؤْبَهُ إليهما ، ولا يعوّل في الأمورِ عليهما ، يُدْعَى أحدُهما كلك ، والآخرُ بادة ، فانسلاَّ من بين أولئكِ القادة ، وسلَكَا طريقاً غيرَ العادة ، أتيا تِمُوجين ، الطاغيةَ اللعين ، في خفية ، ونَبَّهَا وَعْيَه ، وأخبراه وبَصَّرَاه ، وأنذاره وحذَّاره ، بما تَمَالأَ عليه الملك ، مع عسكرِه المنهمِك ، وقالا : أيُّها العفريت ، قد طُبخت لك قِدْرُ التبييت[119] ، فتَنَبَّهْ من النوْم ، وارْقُبْ في الليلةِ الفلانيةِ هجومَ القوْم ، فإنه قد مَرَجَ مارِجُ الفتنةِ فأَمْرَج ، وعن وِهَادِ غفلتِك أعْرج ، إن الملأَ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرجْ ، وبَاعَاه من السرِّ ما جرى ، بتخبيرِ المشترى ، وقصَّا عليه القصص ، فَخَلَّصَا طيرَ حياتِه من القَفَص ، وظَبْيَ نجاتِه من القَنَص . فشكَرَ لهما فضلَهما ، واستَكْتَمَهما قولَهما . ثم تَثَبَّتَ في أمرِه ، وأخفَاه عن زيدِه وعَمْرِه ، وجمع تلك الليلةَ رَجْلَه وخيلَه ، ولم يُبْدِ تلك

---

[116] البيات : المؤامرة تُحاك بليلٍ .

[117] الشنان : مخفف شنآن : وهو شدّة البغض والكراهية .

[118] انظر الهامش رقم ١٠٧ .

[119] قِدْر التبييت : المؤامرة ، التآمر بليلٍ

الحال ، لأحدٍ من الرجال ، بل أَخْلَى بيوتَه ، ولازَمَ سكوتَه ، وقصَد أَحدَ الجوانب ، بمن معه من راجلٍ وراكب ، وأقامَ في كمين ، ينظرُ أَيَصْدُقُ الواشِي أم يمين[١٢٠] .

فما مضَى هزيعٌ من الليل ، إلاّ وقد هبطتْ الخيل ، فوجدوا البيوتَ خالية ، والأطلالَ خاوية ، فتحقَّقَ صِدْقُ الناقل ، وأنه ناصحٌ عاقل . فعملَ مصلحتَه ، وأخذ حذرَه وأسلحتَه ، وتقرَّر وقوعُ النكد ، فتقدّم أمامَهم واستعدّ ، فقصدوه ، وبالأذَى رصدُوه ، ولا زالوا يتبعونه ، حتى التقوْا بمكانٍ يُسمى بباجونه ، وهو عَيْنُ ما[١٢١] ، في حدودِ بلادِ الخطا ، فاشتعلتْ بين الفريقَيْن نارُ الحرب ، وقصَد كلٌّ منهم الآخرَ بالطعنِ والضرب ، فأعانه الله ونصرَه ، فَكسر الخانَ وعسكرَه ، وفرّ بمَنْ معه من فئَة ، وذلك في سنةِ تسعٍ وتسعينَ وخمسمائة[١٢٢] ، وغنم تموجين من الأموال ، والمواشي والأثقال ، وذخائرِ الخزائن ، ونفائسِ البحارِ والمعادن ، ما فاتَ الحدّ والحصر ، خارجاً عن سعادةِ النصر ، وهرب الخان ، وتهدَّمت منه الأركان .

فجمع جنكزخان عسكرَه ، وضبط أسماءَ مَنْ حضره ، ومَنْ كان شاهداً القتال ، ومواقفَ الحربِ والجدال ، من النساء والصبيان والرجال ، ومن خادمٍ ومخدوم ، وخاصمٍ ومخصوم ، ومأمورٍ وأمير ، وكبيرٍ وصغير ، حتى السائس والجمّال ، والطبّاخ والبغّال ، والطفل والرضيع ، والنذل والوضيع ، ومَنْ شهد تلك الغارة ، أو كان فى تلك الدّارة ، ولو حاضراً للتفرُّجِ مع النظّارة ، واستبشَر بوجودِهم ، وتيمَّنَ بوُرودِهم ، فأثبتهم في الديوان بأسماء آبائهم وجدودِهم ، وفرّق عليهم ذلك الفيْء ، ولم يُرْفَعْ إلى خزائنه منه شيْء ، بل وَزَّعَ ذلك المغنمَ الوافر ، العظيمَ

---

[١٢٠] يمين : يكذب .

[١٢١] عين ما : عين ماء .

[١٢٢] للهجرة .

المتكاثر ، على الحاضرين معه من العساكر ، وضبط أسماءَهم في الدفاتر ، وفرّق ذلك العرض العريض الطويل ، على قَدْرِ الحقيرِ منهم والجليل ، وَوَعَدَهُمْ بكلٍّ جميل . وأما الغلامانِ اللذان أخبراه ، وعلى ما كان أضمره الخانُ أظهراه ، وكانا سببَ حياتِه ، وخلاصِه من الموتِ ونجاتِه ، فإنه جعلهما ترخان[١٢٣] ، فصارَ السهمُ مقاصدَه كأنهما شرخان ، والترخان عبارةٌ عن المعافِى المطلق ، يستوفي حقوقَه ولا يقومُ بما عليه من حَقّ ، لا يُؤاخَذُ بقصاصٍ إنْ قَتَل ، وَقِسْ على هذا ما يوجبُه القولُ والعمل ، مَقْضِيُّ المآرب ، موصولُ المطالب ، لا يكلّفُ بخدمةٍ ومباشرة ، ولا بحضورٍ ومعاشرة ، مهما طَلَب أُعطي ، ويُعَدّ مصيباً ولو يُخْطي ، وأعلَى مراتبه ، في مراعاةِ جانبِه ، أنّه يدخلُ على السلطان ، من غيرِ استئذان ، وهو نائمٌ مع سراريه ، ونسائِه وجواريه ، فيذكرُ له من مآربَ تُقْضَى ، ومن شفاعةٍ تُقْبَلُ وتُمْضَى ، ويُعْطَى بذلك مناشير ، وتواقيعُ وتقارير ، تبلغ التاسعَ من أولادِه ، وتشملُ أحكامُها جميعَ أسباطِه وأحفادِه . ولّما انتصر ، وحصل أَمْنُه واستقر ، وتعاظَم أمرُه واشتُهر ، وعظُمَ صيتُه وانتشر ، قَرر كُل مَنْ حضَر تلك الوقعة ، فيما يليقُ به من مَنْصِبٍ ورِفْعَة ، فأقبلت القبائلُ إليه ، وانهالتْ الرؤوسُ والوجوهُ عليه .

ورجع الخانُ واستعد ، وأعد ما وصلت إليه يدُه من عَدَد ، واستعان عليه بالمَدَدِ والعُدَد . ثم تلاقيا كَرَّتَيْن وتصاوَلا مَرَّتَيْن ، انكسَر الخانُ في الأولى ، وقُبِضَ عليه بعد الكسْرةِ في الأخرى ، فقتلَه وأبادَه ، واستملكَ بلادَه ، واستوْلَى على عساكرِه ،

[١٢٣] الترخان أو الطرخان : هو المتقاعد أو المحال على المعاش ، أو المعافى المطلق بتعبير المؤلف فيما بعد . وكما يقول القلقشندي في صبح الأعشى (١٣ : ٤٨) كان الواحد من الطرخانات لايتسلمون إقطاعاً وإنما يمنحون مبلغا معلوماً من المال ، ويصدر لهم بذلك تقليد من السلطان يعدّد فيه مزاياهم . وحينئذ يكون لهم الحق فى أى مكان يشاءون دون التقيد بوجودهم بجوار السلطان أو فى العاصمة . والترخان هنا - فى النص - له امتيازات أخرى استثنائية ، كما سنرى .

واستحوذَ على ذخائرِه وعشائرِه ، وهربت أولادُ الخان ، ولجأتْ إلى أطرافِ تركستان . ثم راسلَ سلطانَ الخطا والصين ، بكلامٍ رصين ، يدُلُّ على عقلٍ حصين ، واسم ذلك السلطان "التون خان" وطلب المهادنةَ والموافقةَ ، والمصافاةَ والمصادقة ، فلم يلتفتْ إلى كلامِه ، فضلاً عن إعزازه وإكرامه ، اتّكالاً على حسبه ، واستناداً إلى نَشَبه ونسبه ، واعتماداً على سِعةِ ممالكه ، وكثرةِ ملوكه ، ومناعةِ حصونه ، وعمارةُ بلادِه ووفرةِ مملوكِه[١٢٤] ، فإنَّ ممالكَ جنكزخان ، بالنسبة إلى ولايات الخاقان ، لا شيْ وأقل من لاش ، وعساكرُه وقبائلُه بالنظرِ إلى أهلِ الصينِ أو شابٌ[١٢٥] أوباش . فرجع قُصَّادُ[١٢٦] جنكزخان بالخيبة ، وذكروا ما رأوْا لملكِ الصينِ من عظمةٍ وهيبة ، فلم يلتفتْ إليه ، ثم قَصَدَ التوجّه عليه ، بعددٍ كالرمال ، ومددٍ كالجبال ، وأوقعَه فكسَره ، وناقَفه[١٢٧] فَحَصره ، وقبض عليه وأباده ، واستصفى ولايتَه وبلادَه ، وكانت هذه الكَسْرَة والنُّصْرة ، في سنة إحدى وستمائة من الهجرة . فاستقلّ من غيرِ منازع ، ولا مُمانِع ولا مُدافع .

فلما خَلُصَتْ له الممالك ، وانقادَ له الملوكُ والممالك ، أخذَ في ترتيبِ الأمور ، وتهذيبِ الجمهور ، وطيَّرَ أجنحةَ مراسيمِه ، إلى أطرافِ ممالكِه وأكنافِ أقاليمه ، فرفع جميعَ ما هُمْ عليه من النّهْبِ والغارات ، والتحزُّبات وطَلَبِ الثّارات ، فهدم قواعدَ الظلمِ والتعدّي في ممالكه ، فلم يُرَ أيمن من ولايته ولا آمن من مسالكه ، وهي ممالكُ المُغْلِ والخطا ، وإلى الصينِ شرقا وولاياتِ المغل والجتا ، وبلاد التركِ

---

[١٢٤] مملوكه : مماليكه ..

[١٢٥] الأوشاب واحدها الوِشْب : وهم الأوباش وأخلاط الناس .

[١٢٦] قصاد : سفراء .

[١٢٧] ناقفه : ضربه بالسيف على رأسه فأصابه وأسره .

وإلى حدودِ أترار ما وراء النهر غربا[128] . فَجَرَى بعد النّهْـبِ والإسـار ، في ممـالكِ المغْل والتتار ، والبغي والعدوان ، العـدلُ والأمـان ، والسـلامةُ والاطمئنـان ، وبعـدَ السرقةِ والخيانـة ، الوفـاءُ والأمانـة . وأَمَـرَ بوَضْـعِ البُرُدِ[129] والمنـارات ، والعلائـمِ والإشارات ، وعُمِّرَتْ المفاوزُ والمناهل ، وسُـكِنَتْ الصحـارى والمذاهـل ، وعُرِفَـتْ طُرُقُ المهامِهِ والمجاهل ، وانتقلتْ تلك الطوائـفُ والأمـم ، وانتشـر صيـت عَدْلِهـا في العربِ والعجم .

واخْتَرَع كما ذُكِرَ أنواعَ سياسات ، وقَـرَّرَ للمملكـةِ قواعـدَ بُنْيـانٍ وأساسـات ، أَلّفَ بها بين تلك الطوائف ، فلم يُرَ بينهم مُخالف ، ولا غـيرُ مُوَالِـف ، علـى سِـعَةِ ممـالكِهم ، واختـلافِ مسـالكِهم ، وتعـدادِ أديـانِهم ، وتفـاوتِ كَيْـلِ أخلاقِهـم وميزانِهم ، فإنهم كانوا ما بين مُسـلمين ومُشـركين ومَجـوس ، وأربـابِ نـاقوسٍ ، ويهود ، ومَنْ لا يدينُ لمعبود ، صبـاة[130] وغـواة وعبـاد الشـمس والنجـوم ، ومَـنْ يسجدُ لها أوانَ الرُّجُوم . وكُلٌّ منهم يتعصّبُ لمذهبه ، ويغضّ من مذهـبِ صاحبِـه . فَلَمْ يتعرَّضْ لأحدٍ في دينه ، ولا وَقَفَ له في طريـقِ اعتقـادِه ويقينـه . وأمّـا هُـوَ فلـم يتقيّدْ بدِين ؛ لا كَافِرٌ مع الكافرين ، ولا مُلْحِدٌ مع الملحدين ، ولا يتعصّب بملّـةٍ مـن الملل ، ولا يميلُ لنِحْلَةٍ من النّحَل ، بل يُعظِّم علماءَ كلِّ طائفـة ، ويحـترمُ زُهَّـادَ كـلِّ مِلّةٍ على دينها عاكفة ، ويعدّ تلك الخصْلة قربة ، حيـث يعظّـم كُـلَّ ديـنٍ وحزبـه ، وكل مَنْ اختار من أولادِه ، وأسباطِه وأحفادِه ، وأمرائِه ورعيتِه وأجنادِه ، دينـاً مـن الأديان ، لا يعترضُ على أيِّ دينٍ ، كان فبعضُهم كان مُسلماً حنفيًّا ، وبعضٌ كـان

---

[128] انظر هامش رقم ٨٧ .

[129] البُرُد ، واحدها بريد ، وأصله الدابة تحمل الرسائل ، وتعنى هنا المنزل أو المسافة بين كل منزلتين مـن منـازل الطريق ، وهى أميال اختلف فى عددها .

[130] الصباة أو الصائبة : قوم يعبدون الكواكب ، ويزعمون أنهم على ملّة نوح .

يهوديًا ، وبعضٌ نصرانيًا ، وبعضٌ مجوسيًا ، إلى غير ذلك من الإلحاد ، والزندقةِ وعدمِ الاعتقاد . وحيث لم يتعرضوا إلى دنياه ، ولا نازعوه مُلْكَه الذي تولاه ، لم يُشَاقِقْهُم في دينهم و لم يواقعهم في يقينهم .

واخترع هو لنفسه في الملك قواعد ، حمل عليها المقارب والمباعد . ثم لما لم يكن لهم كتاب ولا خط ، ولا لأولئك الحروف فلم يعرفون به قط[١٣١] ، أَمَرَ أذكياءَ قبيلتِه ، وعقلاءَ مملكته ، أن يضعوا لهُ خَطّا وقلماً ، يكون لهم عِلْماً وعَلَماً . فوضعوا لهُ قَلَمَ المغل ، واشتغلوا به أَهَمّ شغل ، ونسبوه إلى قبيلته ، ليدلّوا به على فضيلته ، فقالوا "قوتا تقو" يعني قلم قتات ، وهي قبيلة ذلك القتات ، فوضعوا مفرداتِه ورتبوها ، ثم حملوها وركبوها ، وهي أَربعةَ عشرَ حرفاً ، ظاهرةٌ بينهم لا تَخْفَى ، وهذه صورةُ مفرداتهنا ... ...[١٣٢] فأمر أولادَه وأحفادَه ، وجماعتَه وأَجنادَه ، ومهرةَ الرجال ، والأذكياءَ والأطفال ، أن يتعلموا هذا الخطّ وينشروه ، ويتداولوه ويشهروه ، فانتشر بينهم ، حتى ملأ رأسَهم وعينَهم ، فرسموا به المراسيمَ والمناشير ، ورصعوا بجواهرِه جباهَ المساطير[١٣٣] ، ووضعوا الرسوماتِ الديوانية ، والتوقيعاتِ السلطانية ، وابتدع لهم تواريخُ وحساب ، كلُّ ذلك بهذا الكتاب . ثم لما تقرّر أمرُه ، وانتشر في الآفاق ذكرُه ، مَهّدَ قواعدَ أَسّسها ونصَب في دَوْحةِ مُلْكِه أصولَ خلافِ غرسِها ، ووضعَ على ما اقتضاه رأْيه التعيس ، وفكرُه الخسيس ، طرقاً وأفانين ، ودرّب في أمور الحكومات أساليب وقوانين ، فجعل لكلّ حكومةٍ حكما ، وفَوّقَ لكلّ حادثةٍ سهما ، وفرّع

---

[١٣١] كانت اللغة المغولية فى هذا الوقت لغة شفاهية غير مكتوبة ، فصار لها "قلم موغولى" فى عهده كما يقول المؤرخون .

[١٣٢] هكذا فى النسخ التى بين أيدينا .

[١٣٣] المساطير : المكاتبات والمراسلات المسطورة .

لكلِّ حسنةٍ مثوبة ، ولكلِّ سيئةٍ عقوبة ، وقرّر لكلِّ معصيةٍ حدا ، ولكل بنيانٍ مخالفةً هدّا ، ولكل فـرعٍ اَصـلا ، ولكـل سـهمٍ مـن الوقـائع نصـلا ، وبين كيفيـة الصيـد والحرب ، وسلك في كل ذلك الطريقَ والدرب ، وألقـى دروسَ ذلـك علـى أولاده وحفدته ، وجيوشِه ورعيته ، بحيث إنهم حفظوها ورعوها ، وفي سير سيرِهم هرجاً ومرجاً وعوها .

فمن أحكامِها المظلمة ، وفروعِها المعتمة ، صَلْـبُ السـارقِ وخَنْـقُ الزانـي ، وإنْ شهِد بذلك واحدٌ فلا يحتاجُ إلى ثاني . ثم فَصّلَ حَدَّ السارِق ، بهذَيانٍ فارِق ، فقالَ في السرقةِ من "جركاه" أى بيتِ شَعْرٍ واه ، بوجوبِ الصلب ، وبقطعِ اليد إنْ كـان بالنقب ، ثم كلا السارقين ، يؤخذ ما لَهما من مالٍ وعين ، ويُسْـتَرَقّ مـا لهمـا مـن أولاد ، ويُنْتَقَلُ إلى السلطنةِ ما لهما من طريفٍ وتـلاد . ومنهـا أحقيـةُ دعـوى مَنْ سبق ، سـواء كـذبَ أو صـدق . ومنهـا اسـتعبادُ الأحـرار ، وتـوارثُ الفـلاّحِ والأكّار[١٣٤] . ومنها توريثُ نكاحِ الزوجةِ لأقاربِ الزوج ، وتداولهـم إياهـا فوجـاً بعد فوج ، فإنْ تزوّجها أحد منهم ، كان أحقّ بها ولا تخرج عنهم ، و إلاّ زوجوها بمن شاءوا وأخذوا مهرَها وباءوا . ومنها عدمُ العُدّة ، وعدمُ انحصارِ الزوجـات فـى عِـدّة . ومنـه الأخـذُ بقـولِ الجـوارى والصبيـان ، وبمـا يتقوّلـه علـى الرجـال العبيـدُ والنسوان . ومنها امتثالُ أمر السلطان ، على الفورِ من غير توان . ومنها لزومُ ما لا يلزم من العطايا ، وإيجابُ[١٣٥] ما يتبرعُ به الإنسانُ من التحمّـلات والهدايـا ، حتـى لو أعطى شخصٌ شخصا ، من ماله هديةً أو شِقْصا[١٣٦] ، فإنّ ذاك يلزمه ، في كـلِّ عامٍ يغرمه . ومنها الجُثُوُّ بين يديْ الحاكم ، علـى الرُّكَـبِ وقـتَ التحـاكم ، ومنهـا

---

[١٣٤] الأكّار : الحرّاث .

[١٣٥] إيجاب : وجوب .

[١٣٦] شقصا : نصيبا ، ولو كان يسيراً .

مطالبةُ الجار بالجار ، ومعاقبةُ البرئ بجريمةِ مرتكبِ الأوزار ، وذلك لأدْنَى مناسبة ، من معرفةٍ أو مصاحبة ، فضلاً عن أكبرِ أصحابه ، أو شديدِ قرابه . ومنها أن لا يتقدمَ الوضيعُ على الشريف ، ولو كان ذا مالٍ عريضٍ وجاهٍ كثيف . ومنها العملُ ، بما يقتضيه العقل ، والكفُّ عمّا لا يدركُه ولو ورد به النقل . ومنها منعُ عفوِ الحاكم ، وإن عفا المظلومُ عن الظالم . ونحو هذه الخرافاتِ الباطلة ، والهذياناتِ العاطلة .

ومِنْ أَسْخَفَها وأوسخها وأخسفها ، أنهُ لو أَخَذَ أحدٌ أَبْلَه[١٣٧] ، عن قواعدهم ذو غفلة ، من ثوب أحدهم قَمْلَة ، فإن دفعها إلى صاحبها ، خلص من تَبِعَةِ عواقبها ، وغرامة مُطالبها ، فإن شاءَ قصعها ، وإن أراد وضعها ، وربما اختار عَوْدَها ، إلى مكانها فرجعها ، وإن قتلها أو رماها ، وإلى صاحبها ما أداها ، فإن صاحبَها يخاصمه ، وإلى حاكمِ التتار يحاكمُه ، ويدعي عليه بين يديه ، بأن هذا الإنسان ، عمدَ إلى حيوان ، ربيته بين سحري ونحري ، غذيته بدم صدري وظهري ، فقتله قصدا ، وأضاعه عمدا ، من غير سبب تقدم إليه ، ولا إيذاء اجترأ به عليه ، فينسبه إلى الاجترام ، يأخذ دَيْنَها منه بالاغترام . وقِسْ على هذا اليسير ، أنواعاً من الكثير ، ومن نَتَنِ هذه البعرةِ على خرافة البعير[١٣٨] . ومن هذا القواعد ، أمر الأقاربَ والأباعد ، بما يستصوبُه العقل ويستنجدُه النقل ، من سلوك طريق الفُتُوَّة ، ومعاملةِ الخَلْقِ بالمُرُوَّة ، والكرمِ والإحسان ، والمداراةِ مع كلِّ إنسان ، والكفِّ عن الظُّلمِ والغارات ، اللّهُمّ إلاّ في طلبِ الثارات .

---

[١٣٧] أبله : أحمق .

[١٣٨] فساد عقله .

ثم وضعَ طـرقَ المكاتبـاتِ والمراسـلات ، والمشـافهاتِ والمخاطبـات ، فكـان في المكاتبات طريقةُ رسمه ، أنْ لايزيدَ على وضعِ اسمـه ؛ كـأنْ يقـولَ في أوّلِ الكتـاب ، وبراعـةِ اسـتهلالِ الخطـاب ، عنـد ابتـداءِ المقـال ، بعـد عـدّة أوصـال : جنكزخـان كلامي ، ثم يكتب تحته من نصف السطر الثاني : إلى فلان ليفعل كـذا ، ولا يتعلـل بأنَّ وإذا . ثم يذكر مخ المقصود[١٣٩] ، بطريـق معهـود ، بـين العبـارات ، مـن غـير مجازاتٍ واستعارات ، ويختـم بذكـرِ الزمـان[١٤٠] ، واسـمِ المـنزلِ والمكـان . وإذا استدعى أحداً إلى الطاعة ، وسـلوكِ السُّنّةِ أُسْـوَةً الجماعـة ، فإنـه يتجنـبُ التهويـلَ والتهديد ، ويتحامى عن التشريد والتشديد ، ويرغّب بالوعد ، ويترك الوعيـد . ثـم يقـول : إن سمعتم وأطعتم ، فزتم وغنمتم ، وإن أبيتـم وتمـاديتم ، فليـس أمـرُ ذلـك إلينـا ، ولا درك علمه علينا ، يرى فيكم الخالقُ القديمُ رأيَه ، فإنّ في تقديره وتدبـيره كفاية . فهذه القاعدةُ باقيةَ ، في تلك الفئةِ الباغية ، مستمرةٌ على الدوام ، وإلى هذه الايام ، جاريةٌ على هذا النمـط ، يكتبـون اسـمَ الخـانِ أو الخاقـان فقـط . وكذلـك الأمراءُ والوزراء ، والمباشرون والكبراء ، يكتبون في أوّل الكتاب ، فلانٌ لا أكْنِيَة ولا جَنَاب ، وهكذا إلى الأكابرِ من الأدانـي ، يذكـرون اسـمَ الكبـير ووظيفتَـه فـلانٌ لا الفلانيّ .

ولما فرغ من ترتيبِ هذه القواعـدِ الملعونـة ، وخـرج بهـا علـى خـلافِ الشـريعةِ الميمونة ، وقرّر عليها الأمورَ الديوانية ، والأحكـامَ السـلطانية ، أمـر بهـا فَكُتِبَـتْ ، وبهـذا الخـطِّ رتُبـت ، ورسمـت في طوامـير[١٤١] ، ولُفّـتْ في شُـقَفِ الحريـر ،

---

[١٣٩] المُخّ : خالص كل شيء ، وفي الحديث الشريف "الدعاء مـخ العبـادة" ويقـال هـذا مـخ الأمـر : خيـاره .. والمعنى هنا "صلب" المعنى المقصود أو بيت القصيد من موضوع الرسالة أو المكاتبة .

[١٤٠] الزمان : تاريخ كتابة الرسالة أو المكاتبة .

[١٤١] الطوامير ، واحدها طومار أو طامور ، وهو الصحيفة .

وَزُمِّكَت[١٤٢] بالذهب ورُصِّعت بالجواهر ، كما فعل ماني النقّاش الكافر ، واضعُ مذهبِ المجوس ، ومصوِّرُه على صفحاتِ الطروس ، ومبرِّز المعقولِ بطريقِ المحسوس ، ليكونَ أقربَ إلى تفهيمِ النفوس ، في كتابه المسمّى بزند-أوستا[١٤٣] ثم أمرَ باحترامِها وتوقيرِها ، والمحافظةِ على ضبطِها وتحريرِها ، والعملَ بها والاقتداءِ بما فيها ، وتعلّق أهلُ مِلّته بقواعِدِها وخوافيها . ثم رُفِعتْ إلى خزائنه ، وهي عندهم أعزُّ من الكبريتِ الأحمر في معادنه ؛ واسمها بالمغلي "التورة" وتفسيرُها المِلّةُ المأثورة ، فإذا جلس منهم سلطانٌ على سرير ، وذلك بما للرؤساءِ من اتفاق وتدبير ، وعادَتُهم في ذلك أنهم إذا رفعوا عليهم سلطانا ، وأرادوا أن ينوا لدار المملكة خانا[١٤٤] ، اجتمع الأمراءُ من الأطراف ، واستدعوا أركانَ الثغورِ والأكناف[١٤٥] ، واشتوروا فيما بينهم مُدَّةَ أيام ، واستمروا في ذلك ما بين نقضٍ وإبرام ، وربما أقاموا في ذلك الجَمْعَ العام[١٤٦] ، حولاً جميعا أو ضِعْفَيْ عام ، ويسمّون تلك الجمعية "قورلتاي" وهي مستمرة الحكم في المغل والجغتاي ، وسببُ ذلك تدافعُ الإمْرَة ، والفرارُ من

---

[١٤٢] زَمِكَ : تداخل بعضه فى بعض ، والمقصود : تأطرت أو زخرفت أطراف الرسالة .. بماء الذهب ، ورصعت فراغاتها بالرسوم .

[١٤٣] زند واستا : أو الزند – أفيستا وهو الكتاب المقدس لزرادشت فى الديانة الفارسية القديمة (الزرادشتية) . وقد وهم المؤلف حين نسبه إلى مانى الذى أفاد منه فى تعاليمه (وزند معناها : تفسير ، وأفيستا معناها : القانون .) ومن اللافت للنظر أن المؤلف وصف مانى بأنه النقاش ، أى النبيّ الرسام ، وأن كتابه مُزَيَّن بالرسوم ، إشارة إلى أن مانى عندما اختفى كان قد ذهب إلى الصين ، وتعلم فن الرسم الصينى المعروف بفن الميناتور ، ثم عاد إلى إيران زاعما أن لوحاته مرسومة من السماء واسمها أرجنك بالقاف الفارسية ، على نحو ما هو معروف .

[١٤٤] ينوا : ينتخبوا ملكا أو سلطانا عليهم .

[١٤٥] أركان الثغور والأكناف : رؤساء الثغور والمدن الكبرى وزعماء الأقاليم .

[١٤٦] الجمع : الاجتماع ، والحول : العام .. أى ظل الاجتماع العام مفتوحا لمدّة عام أو حول كامل ، وقد يزيد .

تلك السلطنةِ الحُلْوَةِ المُرَّة ، كما كان الصحابةُ الكرام ، يتدافعون الفتاوي خوفَ الآثام . فإذا وقع الاتفاق ، بين الرفاق ، وأمراءِ الجندِ ورؤساءِ الآفاق ، على واحدٍ من أولادِ الخان ، وأنْ يكونَ عليهم الملكَ والسلطان ، وتصوَّبَ الرأيُ عليه وتسدّد ، وضَعُوه على لِبْدٍ أسود ، ثم رفعَه من الأرضِ إلى السرير ، أربعةُ أَنْفُسٍ كُلٌّ أميرٍ كبير ، كُلٌّ حاملٌ بطرف ، رافعٌ في زعمِه رايةَ الشرف ، والخانُ يصيح ، بلسانٍ فصيح . يا رؤساء ، ويا أمراء ، ويا ملوكُ ويا زعماء ؛ أنا ما أقدر أنْ أتسلطنَ عليكم ، ولا طاقةَ لي أنْ أتحكّم لديكم ، ولا قوة لي بهذا الحِمْل الثقيل ، والدخولِ تحت هذا الأمرِ العريضِ الطويل . فيقولون : بلى يا مولانا الخان ، تقدر أن تقومَ بِحَمْل أعباءِ هذا الشان ، فيتكرّرُ الخطاب ، ويتعدّد الجواب ، حتى يجلسوه على السرير ، ويبتهجُ بذلك الكبيرُ والصغير ، والمأمورُ والأمير ، ثم يأتون بالتوراةِ الجنكزخانيةِ الملعونةِ الشيطانية ، مبجلةً معظمة ، محترمةً مكرمة ، فينهضون إعظاماً لها ، ويتبرّكون بمسّهم أذيالها ، فينشرونها ويشهرونها ، ثم ينصتون فيقرءونها ، ثم يبايعونَ الخانَ على إقامتها ، وأن يراعى أحكامَها حقَّ رعايتها ، ويبايعهم على امتثالِ أحكامِها ، وإجراءِ نقضِها وإبرامِها ، فيجيبُ كلٌّ منهم الأمرَ على ذلك ، وأن يقيمَ شعائرَها المملوكُ والمالك ، ثم يضربون لهُ الجنوك[١٤٧] ثلاثَ مِرَار ، ثم يتوجّهون إلى الشمسِ في وجه النهار ، ويضربون لها الجنوك ، ويسجدُ لها مَنْ فيهم من مالكٍ ومملوك ، ولا يفعلون هذا الفعلَ الشنيع ، إلاّ في أيامِ الربيع . فإذا تعاقدوا وتبايعوا ، وتعاهدوا وتتابعوا ، رفعوا تلك الكفريات ، وأحضروا الآلات الخمريات ، فأدار الخانُ عليهم الكاسات ، واستعملوا الأقداحَ والطاسات ، وفَتَحَ الخزائن ، وأظهرَ المكامن ، ونَثَرَ النثار ، من الدرهمِ والدينار ، وخلَع الخِلَعَ

---

[١٤٧] الجنوك ، واحدها الجنك ، وهو آلة ذات أوتار من الأسلاك ، ذات ستة وأربعين سلكا ، واختصرت بالعود .

والتشاريف ، وأعـاد في دروسِ النفائس أبحـاثَ التصـاريف ، واستمروا علـى ذلـك أياما ، والإنعاماتُ تَدِرُّ عليهم خاصا وعاماً . ثم يأذنُ لهـم فيتفرقـون ، ثـم انصرفـوا صَرَفَ اللهُ قلوبَهم بأنهم قوم لا يفقهون ، وهذه الطريقُ مستعملة ، وإلى آخرِ وقتٍ غيرِ مهملة ، في جميعِ ممـالكِ الشـرقِ مـن الخطـا ، والدشـتِ[148] والصين والمغـلِ والجتا ، وفي ولاياتِ الجغتاي . والرومُ قد اعتادوا غالبَ هـذه القواعـدِ والرسـوم ، فقدّموهـا علـى القواعـدِ الإسـلامية ، والشـرائعِ الأحمدية المحمديـة . اللّهُـمَّ أَلْهِمْنَـا الصوابَ ولا تَزَغْ قُلُوبَنَا بعد إذ هدَيْتَنَا وهَبْ لنا من لدنك رحمةً إنك أَنْتَ الْوَهَّاب .

وسَبَبُ **تحرّكِه إلى ممالكِ الإسلام** ، وتوجّه عِنانِ سخطِه إلى طلبِ الانتقام ، هـو أنه لما استقرّ أمْـره ، وانتشـر بعـد الجـورِ بـالعدلِ ذكـرُه ، وطـابت بـلادُه وأمِنـت ، وخمدَت حركاتُ الظُّلْمِ وسكنت ، توجَّه من بلادِ ما وراء النهرِ[149] فئـة ، في سنةِ ثلاثَ عشرةَ وستمائة ، فيهم ثلاثةُ أنفار ، من أعيانِ التجار ، أحدُهـم يدعـى أحمـد الخجندي ، والآخر عبـدالله ابـن الأمـير حسـن الجنـدي ، والثـالث أحمـد بلجيـخ ، ومعهم من أنواع المتـاجر ، ونفـائسِ الأقمشـةِ والذخـائر ، مـا يصلـحُ للملـوكِ أولي المفاخر ، فوصلوا إلى بلادِه ، الجاري فيها مياهُ كفرِه وعناده ، وانتهـوا إلى "قوقـات والمسيل" ، وهمـا محلُّ سريرِه الذليل ، فأكرم نُزُلَهم ، ورفَعَ محلّهم ، وأنزلهم في قبابٍ بيض ، وأفاضَ عليهم الكرمَ العريـض ، وكـان شـعارُ المسـلمين في تلـك البلـدا ، أن ينزلوهـم في قبابٍ بيضٍ من لِبْد ، وكانوا يقرّبون المسلمين ، ويحترمونوهـم دونَ الناسِ أجمعين . ثم ان جنكزخان ، دعا أحدَ أولئكَ الأعيان ، واستعرض قماشَه وساومه ، بعدما قرّبه وأكرمه ، فطلب منه أضعافَ ثمنِه وسَامَه ، ما يقضي بغُبْنِـه وغَبَنَـه ، فمـا

---

[148] الدشت : صحراء القبجاق .

[149] تحديداً من مملكة خوارزم ، في عهد السلطان قطب الدين محمد بن تكش . انظر الحاشية رقم (١٥٣) .

رَدَّ جوابَه ، ولا اعتبر خطابَه . ثم طلب رفيقيْه واستعرضَ بضائعَهما عليه ، ثم سَاوَمَهُما الثمن ، فقالا : يا ملكَ الزمن ، إن صلح هذا القماش ، خذ مُنَاك به بلاش ، فليكنْ ثمنُه رضاك ، وهديةً في مقابلةِ ملتقاك ، وتقدمةً منا إليك ، بل خدمة الخادم أدخلنا عليك . فأعجبه هذا الحوار ، وقال : بل أنتم تجار ، إنما جئتم لتربحوا ، وتكسبوا علينا وتنجحوا ، وأنتم ضيوفُنا ، فالأَوْلَى أن يشملَكم معروفُنا ، ولكن أنا أقولُ قولاً وأدفع إليكم نَوْلا ، فإن رأيتم فيه فائدة ، وعاد عليكم منه عائدة ، قَبِلْتمُوه ، وإلاّ فالرأيُ فيما رأيتموه . ثم ذكر لهما مبلغاً أرضاهما ، وبلغ به منتهى مُنَاهُما ، بحيث ربح درهمُهما ثلاثةً وأربعة ، وتضاعفتْ لهما مع قربِ الملكِ المنفعة . فقالا : رضينا بما رسمت ، وأنعمتَ به وقسمت . فقال لرفيقهما الأوّل : إنْ رضيتَ بمثل ما رضِيَ به صاحباك فتحوّل ، وإلا فَخُذْ متاعَك وتحوّل ، وشأنُك وقماشُك ، وتَحْسُنُ مع ذلك رياشُك . فقال رضيتُ بما رَضِيَا به ، وتلطّف في خطابه وجوابِه ، فأمرَ في الحال ، وأحضر المال ، ووزن الثمن ، وزاد ومَنّ ، وألبسَهم الخلع ، وأفضل في المصطنع ، وأمر ببضائعهم فَرُفِعَتْ ، في خزائنه ووضعت .

ثم أمرَ خواصَّ بطائنه[١٥٠] ، أنْ يُدْخِلُوا هؤلاء التجارَ إلى خزائنه . فلما دَخَلُوا إليها ، ووقع نظرُهم عليها ، رأَوْا من نفائسِ الأموالِ والذخائر ، وأصنافِ الأقمشةِ والحرائر ، وانواعِ الجواهرِ الملوكية ، وأجناسِ الأمتعةِ الكسروية ، وأعلاق[١٥١] ملوكِ الصين ، ومتحفاتِ الملوكِ والسلاطين ، ما أبْهَتَ نواظرَهم ، وادهشَ أبصارَهم وبصائرَهم ، فَنَزَّهُوا في محاسنِها أبصارَهم ، وأَوْدَعُوا محاسنَ مخيلاتِها

---

[١٥٠] بطائنه : بطانته .

[١٥١] أعلاق : نفائس .

أفكارَهم . ثم أَتوْا بهمِ إليه ، وأدخلوهم عليه . فقال : ماذا رأيتم في الخزائـن ، مـن نفائسِ البحارِ والمعادن . فقالوا : ما لا يصلُح إلا في خزائنـك ، ولا يُنْـثَرُ علـى فِـرقِ ملوكِ المشارقِ والمغاربِ إلا من مكامِنِ معادنك . فقال : ما بايعنـاكم فأرغبنـاكم ، ولا أكرمناكم إذ صحبناكم ، بناء على أنّا عادمون ، ولا أنّا بقيمةِ الأشياءِ وبِقَدْرِهـا جاهلون ، وإنما فعلنـا ذلـك الإحسـان ، وجَبَرْنَـا منكـم النقصـان ، لِعِـدَّةِ معـان ، أحدها : إنكم أضيافُنا ، وقد شملكم كرمُنا وإنصافُنا . ثانيها : انّ فضلَنـا الفضيـل ، يقتضي إكـرامَ النـزيل ، ثالثهـا : إنكـم مسـلمون ، والمسـلمونَ عندنـا مكرّمـون . رابعها : أردَنا اشتهارَ اسمِنا ، وأن تُذكَرَ في الأقطارِ طريقةُ رسمِنا . خامسها : أنـهُ إذا سَمِعَ بمعاملتنا التجّار ، يقصدُون بلادَنـا مـن الأمصـار ، وسـائرِ الآفـاقِ والأقطـار ، فَتَعْمُرُ المسالكُ والدروب ، ويَربحُ الطـالـبُ والمطلـوب . سادسـها : وهـو أعلاهـا ، وأَحسنُها وأَقواها ، انكم أَمَّلتُمُونـا وافديـن ، وأنّـا لا نخيـبُ رجـاءَ القـاصدين ، ثـم سرّحهم شاكرين ، ولِماَ سمعوا ورأوْا ذاكرين .

ثم اقتضتْ الآراء ، فأمر الأمراء ، وأكابرَ بلاده ، ورؤساءَ أجنادِه ، أن يجهِّزَ كلٌّ منهم إلى الجهات الغربية ، والولاياتِ الإسلامية ، من جهتـه أحـداً مـن المسـلمين ، ببضائعَ من أمتعةِ الخطا والصين ، في صِفَةِ التجار ، ليتعاملوا في هذه الدّيار ، وتنفتح المسالِك ، على السالِك ، وتُنقل إليهم بضـائعُ هـذه الممـالك ، وتكـثر المعـاملات ، وتتحد الممالكُ والولايات ، فامتثلوا مراسيمه ، وعدُّوها غنيمة ، وجهّـز كـلٌّ منهـم من جِهتِه مَنْ وثِقَ بأمانته ، واعتمدَ على كفايته ، وأعطاه من النقودِ والأجناس ، مـا يصيرُ بـه مـن رؤسـاءِ النـاس ، واجتمعـوا قافلـة ، وركبـوا السـابلة ، نحـو أربعمائـة وخمسينَ نفرا ، كلُّهم مسلمون كبرا ، وكَتَبَ لهم مراسيمَ وجائزات ، بإكرامِ نُزُلهـم في الدروبِ والمجازات ، ومعاملِتهلم بالكرامات ، وأن تُهيَّأَ لهم ولدوابِّهم الإقامـات ،

ذهاباً وإيابا ، حضوراً وغيابا . ثم أرسل معهم إلى السلطانِ قطب الدين ، محمدِ بـنِ تكشِ علاءِ الدين بنِ رسلان بنِ محمـد بـنِ أنوشـتكين[١٥٢] ، وأنوشـتكين هـذا هـو أتابك[١٥٣] الملوك السلجوقية . والسلطانُ قطبُ الدينِ هو الفائقُ مـن تلـك الذرية ، رسالةً عاطرة ، تستميلُ خـاطرَه ، وتُسيل مـن سـحائبِ كرمِـه مواطرَه ، وحسـنَ الجوار ، ومراعاةَجانبِ الجار ، وسلوكَ ما تنتظمُ به الأمور ، وتطمئنُ بـه الصـدور ، ويحصلُ به الأمنُ للصادرِ والوارد ، والرفاهيةُ للقـائمِ والقـاعد ، وتتعقـدُ بـه أسـبابُ المحبَّةِ من الطرفين ، وأطنابُ المودَّةِ من الجانبين ، وفتـحُ بـابِ المراسـلات ، وكشـفُ حجابِ المعاملات ، وإنْ كانت الأديانُ مختلفة ، فلتكُـنْ القلـوبُ مؤتلفـة ، وشمـولُ نظرِ الصدقاتِ السلطانية ، وعواطفُ مراحمِها الملوكية ، على القصّاد الوافديـن علـى أبوابِ مكارمِها ، المستمطرين سحائبَ صدقاتِها وديَمِهَا ، وبحيث تسـنى مطـالبُهم ، وتهنى مآربُهم ، أو كما قال ، وصدر منه السؤال .

هذا وأمّا أخبارُ السلطانِ قطبِ الدين فإنـه كـان مـن أكـبرِ الملـوكِ والسـلاطين ، تَملَّكَ عراقيْ العرَبِ والعجَم ، وما في ممالكِ خراسان من أُمم ، واستولى على غالبِ الممالكِ بالقهر ، وإلى أقصى ولاياتِ مـا وراء النهـر ، وجعـل "جرجانيـة خـوارزم" مأواه ، وتلقّب لذلك خوَارَزْم شاه ، ورفع ما بين ممالِكِه وبـينِ ممـالكِ جنكزخـان ، من التتارِ المسمين بقرا جغتاي وعباد الأوثان ، واسترقّهم قهراً وقسـرا واسـتصحبهم

---

[١٥٢] حكم سنة ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ ، وهـو مـن سـلالة أنوشـتكين الذيـن كـانوا فى الأصـل حكامـا.مـن قبـل السلاجقة ، وحكاما مستقلين فيما بعد فى وسط آسيا وفارس (حكموا من النصف الثانى من القرن الحادى عشر حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى) .

[١٥٣] أتابك : أمير الأمراء أو كبيرهم . ويتألف هذا اللقب من لفظين تركيين ، وهما أطا بمعنى أب ، وبك بمعنى أمير ، ومهمته الأساسية أن يكون وصيا على ولى العهد . ثم ذاع بعد ذلك بمعنى مقدم العسـاكر أو القـائد العام .

جَبْراً وكسرا ، واستولد من تلك الطائفة المعتدين ، ولـدَه السـلطانَ جـلال الديـن ، فبواسطة إنه صار له منهم ولد ، صاروا أقربَ عساكرِه إليه وعليهم المعتمد ، فكانوا شعوباً وقبائل ، يخرج منهم سبعون ألفَ مقاتل ، ومنهم أيضاً كانت أمُّه وأخوالُـه ، وخيلُه ورجالُه ، إلى أنْ خانوه وبذلُـوه ومـا صـانوه ، واستدفع بهـم طـارقَ البـلاء فكانوه .

غريبة نادرة عجيبة

وكان هؤلاء التتار ، متاخمين بلادَ أنزار ، وهي حَدُّ ممالكِ السلطان ، وهـي سـدٌّ عظيم بين المسلمين وبين جنكزخان ، فغزاهُم السلطانُ وأبادَهم ، واستعبدَ كما ذُكِر أجنـادَهم ، فارتفـع السـدُّ مـن البيْـن ، وانهـدم الفـاصلُ بـين الجـانبين ، واتصلـت المملكتان ، كالمحبيْن أعني مملكةَ السلطان ، ومملكة جنكزخـان ، فَسُـرَّتْ السـرائر ، وابتهجـتْ الضمـائر ، ودُقّتْ في ممـالكِ السـلطانِ قطـبِ الديـن البشـائر ، وزينـت الولاياتُ بأنواع الذخائر . وكان في نيسابور[١٥٤] ، من أكابر الصـدور ، شـخصانِ من العلماء ، فاجتمعا وأقاما العزاء ، فسُئلا عن موجبِ هذا البكاء ، وإنّما النـاسُ في فتوح وهناء . فقالا أنتم تعدون هذا السِّلْمَ فتحاً ، وتتصورون هذا الفسـادَ صُلْحـاً ، وإنما هو مبدأُ الخروج ، وتسليطُ العلوج ، وفتحُ سَدِّ يأجوجَ ومأجوج ، ونحن نقيـمُ العزاءَ على الإسلامِ والمسلمين ، وما يحدثُ من هذا الفتـح مـن الحيـفِ علـى قواعـدِ الدين ، وَسَتَعْلَمُنَّ نَبَـأَهُ بَعْدَ حين. وأنشد فأرشد :

وَعَلِـمْـتُ أَنْ فُـراقَكُمْ لاَ بُـدَّ أَنْ　　　يجري لـهُ دَمْعِي دَماً وكَذَا جَرَى

---

[١٥٤] نيسابور : من أشهر مدن خراسان وأحسنها .

وكان السلطانُ[١٥٥] قد دانت له البلاد ، واستولى على أهلِ البقاعِ والوهاد ، وأبادَ ملوكَ العجم ، وتفرَّدَ بسياسةِ تلك الأمم ، وتحتُ ملكِه مملكةُ خوارزم ، وقد صمَّم العزمَ ، بحزم ، وحملَ الناس ، على نزعِ الخلافةِ من آلِ عبّاس ، وَوَضْعِها في آلِ عليّ ، وقد توجَّه إلى العراق بهذا القصدِ الجليّ ، فوصل إلى حدودِ العراق ، وهو مُجِدٌ على هذا الاتفاق ، فوصل أولئك التجار ، إلى أنزار ، من صوب جنكزخان ، وبها من جهة السلطان ، نائبٌ يُدعى "قايرخان" . فلمّا وصلُوا إلى البلد ، أَخْبَرَ بهم النائبَ الرصدُ ، فَحَبَسَهم عندَه في مكان ، وأرسل يستأمرُ فيهم السلطان ، وبَشَّعَ العبارة ، وشنَّع السِّفارة ، وذكر أنهم جواسيسُ تستّروا بالتجارة ، وأنَّ معهم من الأموال ، ما يوازي الرمال ، ويوازنُ الجبال :

* وَمَا آفَةُ الأَخْبَارِ إلاَّ رُوَاتُها *

فأمرَه بقتلِهم ، وأخذَ ما معهم وسلبهم ، ففي الحال أبادَهم ، وسلبَهم طارِفَهم وتلادَهم ، وأرسلَ المالَ إلى السلطان ، وأوصلَه حسبما رَسَمَ به إلى الديوان ، فطرحُوه على تُجّار بُخَارى وسمرقند[١٥٦] ، كما يُطرَحُ على مساكينِ دمشق القَنْد[١٥٧] ، واستخلصوا ثمنَه بالظُّلْم وزادوا عليهم فيه الغرم . وكان سبب ذلك أن تاجراً عند قايرخان ، أرادَ أنْ لا يكونَ عند السلطانِ تاجرٌ سواه ، فتبعه قايرخان لما أغواه ، فتعدَّدت الأسباب ، وانفتح للشرّ أبواب ، وقالوا : "شرٌّ أهرَّ ذا ناب"[١٥٨] فلمْ يفلِتْ منهم سِوى رجلٍ واحد ، أنجاه الله من العدوِّ والحاسد ، فاختفى واتصل إلى بلاده ، وأخبَرَهم بوقوعِ الأمرِ وفسادِه فَغَضِبَ جنكزخان ، وتحرّك منه باعثُ

---

[١٥٥] خوارزمشاه قطب الدين محمد بن تكش ، انظر الحاشية رقم (١٥٢) .

[١٥٦] بخارى وسمرقند من أشهر المدن التجارية ببلاد ما وراء النهر .

[١٥٧] عسل السكر .

[١٥٨] مثل يضرب في ظهور أمارات الشرّ ومخايله .

العدوان . ثم تثبَّتَ في أمره ، وتلبَّثَ في فكره ، وأرسلَ إلى السلطانِ رسالة ، فيها تهديدٌ وبسالة ، وكان السلطانُ خوارزم شاه ، لما أَبْدَى هذا الخطأ وأنهاه ، طَيَّرَ مراسيمَه إلى أطرافِ الممالك ، يأمرُهم بالمحافظةِ على دَرَبَنْدَاتِ[١٥٩] المسَالِك ، ويحرّضُ وُلاَةَ الأمورِ وأصحابَ الإدراكِ في المضايقِ والثغور ، والطلائعِ والأرصاد ، على منع القصّاد ، وكَفِّ مَنْ يخرجُ من تركستان ، إلى صوبِ ممالكِ جنكزخان . ثم أرسلَ من جهته جواسيس ، يختبرُ أحوالَ ذلك الإبليس ، وينظرُ أمورَه وأوضاعَه ، ومقدارَ عسكرِه وأمرَهم في الطاعة ، وما قَصَدَه أنْ يفعل ، ليستعدَّ له بحسبِ ما يعلمُ منه ويعمل . فتوجّهت جواسيسُ السلطان ، وطال في غيبتهم الزمان ، وقطعوا الجبالَ والقفار ، وسلكوا المفاوزَ والأوعار ، حتى وصلوا إلى بلادِه ، وفحصوا عن أمرِه واستعداده ، وخبروا أمرَ جندِه وعتادِه ، وأوضاعَ عسكره وتعداده ، فرجعوا بعد مُدَّةٍ مديدةٍ وأزمان ، وأخبروا بما حقّقوه السلطان ، وأن عددَ عساكرِه يفوتُ الإحصاء ، ويخرجُ عن دائرةِ الاستقصاء ، وأنهم أطوعُ البريّةِ للملك ، وأثبتُ جَنَاناً من الأسدِ المنهمك ، وأصبرُ جُنْداً على القتال ، كَأَنَّ أمرَ الهزيمةِ عندهم مُحال ، وأنهم إذا واثبوا أو حاربوا ، أو سالبوا أَوْ لاسبوا[١٦٠] أو رابضوا أو ضاربوا خابطوا أو خاطبوا ، بقوله :

وَنَحْنُ أُنَاسٌ لاَ تَوَسُّطَ بَيْنَنَا لَنَا الصَّدْرُ دُونَ العالَمينَ أَو القَبْرُ

وأنهم لا يحتاجون في الأسفار ، ولا عند مقاحمة الأخطار ، إلى كثيرِ مؤنة ، ولا كبير معونة ، بل كلٌّ منهم ينهض باحتياجه ، واحتياجِ مركوبه إلى إلجامه

---

[١٥٩] دربند كلمة فارسية الأصل ، ومن معانيها هنا : المضايق والطرقات أو المعابر الضيّقة للأنهر والبحيرات .

[١٦٠] تلاسبوا : تضاربوا وتلاسعوا بالسوط ونحوه .

وإسراجه ، ويستبدّ بعمل سلاحه ، وجميع ما يستعينُ به سفراً وحضراً في صلحه وصلاحه ، ونطاحه وكفاحه ، وكذلك ملبوسُه وزاده ، وسائر أهبته وعتاده .

فَنَدِمَ خوارزم شاه ، على ما قدَّمتْ يداه ، من قتلِ أصحابه ، وفَتَحَ سَدَّ الثَّغْرِ وبابَه ، وأنّى يُجْدِي النَّدَم ، وقد زلّت القدم ، وتبدّل الوجودُ بالعدم ، وغَرِق في بحرِ الهموم ، وهَمَى عليه غَمَامُ الغموم ، فشاوَر لما لقي "الشهاب الخيوقي" وهو فقيه فاضل ، ونبيهٌ كامل ، عالِمٌ أجلّ ، كبير المحلّ ، له عندَه محلٌّ خطير ، لا يخالفُه فيما يشير ، فإنَّ رأيَه سديد ، وقَوْلَه وفعلَه رشيد . فقال يا إمام : قد تحرّك على الإسلام ، عَدُوٌّ أَلَدَّ الخصام ، بعساكرٍ كالرمال ، ذوي صدماتٍ كالجبال ، فما ترى فيما طرا[١٦١] ؟ فقال : في عساكرِك كثرة ، وأنت ذو قُوَّةٍ وَوَفْرَة ، وَزُفَرُ إقدامِك له زَفْرَة[١٦٢] ؛ فكاتبْ الأطراف ، واجمعْ عساكرَ الأكنافِ ، وادْعُ أهلَ بيضةِ الإسلام ، إلى هذا النفيرِ فإنه عام .. فإذا وفدوا عليك ، وتمثّلوا بين يديك ، توجّهْ بهم إلى نهرِ سيحون ، واجعلْ ساحلَه من فُلْكِ الجنودِ مشحون ، واملأْ بهمْ تلكَ المهامِهَ والقفار ، وحَصِّنْ مَمَالِكَكَ إلى حدود أنزار ، فإنْ أقبلَ العدُوُّ المخذول ، لم يصلْ إلا وهو من الكِلال محلول ، فإنه يأتي من بلادٌ بعيدة ، بجنودٍ عديدة ، وقد أثّر فيه التّصب ، وأخذ منه التعبُ والوصب ، فتلاقيه على سيحون ، وهم كَالُّون[١٦٣] ، ونحن مستريحون . فجمع بعد ذلك أمراءَه ، وزعماءَه ، وعرض عليهم ما جاءهم ، وطلب منهم آراءَهم ، فلم يرتضوا رأيَ الشّهاب ، لأمرٍ يريدُه مُسَبِّبُ الأسباب . وقالوا : بل نتركُهم حتى يقطعوا الأوعارَ والمضايق ، ويتورطوا في بلادنا بالعوايق ، فتزدادُ مشقتُهم ، وتطولُ في المسير شُقّتهم ، لاسيما وهم بأرضِنا

---

[١٦١] طرا : طرأ من الحدثان .

[١٦٢] الزفر : الشجاع ، والكتيبة . وزفرت النار زفراً : سمع لاتقادها صوت .

[١٦٣] أصابهم الكلال والتعب .

جاهلون ، وعن مداخلِها ومخارجِها ذاهلون ، فإذا حصلُوا في قبضتنا ، كان أمكنَ لنهضتِنا ، فنضيِّق عليهم واسعَ رحابِها ، وأهلُ مكَّةَ أخبرُ بشعابِها ، وذُهِلَ أولئكَ الجمع ، عما رآهُ الفقهاءُ وهو أن الدَّفع ، أَوْلَى من الرفع .

وبينما هم في المشاورةِ والمراودة ، ورد قاصدُ[١٦٤] جنكزخان برسالةِ المناكدة ، وفيها من التشنيعِ والتقريع ، التهديدِ والتبشيع ، العجبُ العجاب ، وما يشيبُ الغراب . فمن جملةِ تشنيعاته ، ومضمونِ تهويلاته ، ما معناه ، في فحواه ، كيف تَجَرَّأْتم على أصحابي ورجالي ، وأخذتُم تجارتي ومالي ، وهل وَرَدَ في دينكِم ، أو جازَ في اعتقادِكم ويقينكم ، أن تريقُوا دَمَ الأبرياء ، أو تستحلُّوا أموالَ الأتقياء ، أو تعادوا مَنْ لا عاداكم ، وتكدِّروا عيش مَنْ صَادَقَكم وصافاكم ، أتحرِّكُوا الفتنَ النائمة ، أو تنهضوا الشرورَ الجاثمة ، أَوَمَا جاءَكم عن نبيِّكم ، أن تمنعوا عن السفاهةِ غويَّكم ، وعن ظلمِ الضعيف قويَّكم ، أَوَمَا أخبرَكُم مخبرُوكُم ، وبلّغكم عنه مرشِدُوكم ، ونبأَكم محدِّثُوكم : اتْرُكُوا التركَ ما تركوكم[١٦٥] ، وكيف تؤذون الجار ، وتسيئون الجوار ؟ ونبيكم قد أوصَى به ، مع أنكم ما ذقتم طَعْمَ شهدِه أو صابِه[١٦٦] ، ولا بَلَوْتُمْ شدائدِ أوصافِه ، وأَوْصَابه[١٦٧] ، ألاَ وإنّ الفتنةَ نائمةٌ فلا توقظوها ، وهذه وصايا إليكم فَعُوها واحْفظُوها ، وَتَلاَفَوْا هذا التلَف ، واسْتَدْرِكُوا ما سلف ، قبل أَنْ ينهضَ داعي الانتقام ، ويتحرّكَ من الفتن حامي الاضطرام ، ويقومَ سوقُ الفتن ، ويظهرَ من الشرِّ ما بطن ، ويموجَ بحرُ البلاءِ ويروج ، وينفتح

---

(١٦٤) قاصد : رسول أو سفير أو مبعوث .

(١٦٥) هذا القول "اتركوا الترك ما تركوكم" يتردد فى المصادر التاريخية منسوبا مرّة إلى النبى محمد ﷺ ، ومرّة إلى معاوية بن أبى سفيان .

(١٦٦) الصّاب : شجر مرّ له عصارة بيضاء كاللبن بالغة المرارة .

(١٦٧) أوصابه : آلامه وأوجاعه .

عليكم سَدُّ يـأجوج ومـأجوج ، وسـينصرُ الله المظلـوم ، والانتقـامُ مـن الظـالم أمـرٌ معلـوم ، ولا بُدَّ أنَّ الخالقَ القديم ، والحاكمَ الحكيم ، يُظْهِرُ أسْرَار رُبُوبيَّتِـه ، وآثـارَ عدلِه في بريّته ، فإنّ به الحولَ والقـوة ، ومنـهُ النصـرةَ مرجُـوّة ، فَلْتَرَوْنَ مـن جـزاءِ أفعالِكُمْ العجَب ، وسوف ينساب عليكم يأجوجُ ومأجوج من كلِّ حدب .

وكان اللّعينُ جنكزخـان ، قـد مشى علـى تركستان[١٦٨] ، وأخـذ منهـا عُنْـوَةً كاشغر[١٦٩] وبلاسـاغون[١٧٠] ، وصارتـا في حَـوْزِ ذلـك الملعـون ، وكانتـا في يَـدِ كوُجلك خان ، ابنِ أونك خان ، المارّ ذكـرُه في أوَّلِ القصّـة ، لمـا قَتَلَـه جنكزخـانُ وقصَّة ، وهرب ولدُه كوجلك خان المغبون ، واستقرّ في كاشغر وبلاساغـون ، إلى أنْ مَشَتَ العساكرُ عليه ، وأُخذتْ تلك الأماكنُ من يديه .

فلما وصلَ هذا الخطاب ، إلى ذلك الأسَـدِ الوثّـاب ، أمر بمقـدَّم القُصّـاد[١٧١] ، ورئيسِ أولئك الوُرّاد ، فضُربـتْ رقبتُـه ، ومَـنْ بقِـيَ فَحُلِقَـتْ لحيتـه ، وسخّمت بالسّوادِ حليته ، ثم رَدّ الجواب ، بأبشع خطاب ، ومن فحواه ، وبـاردِ مـا حـواه ، إني سائرٌ إليك ، وهـاجمٌ عليـك ، بجنودِ الإسـلام ، وأُسُود الآكـام . وكـلِّ بطـلٍ ضرغام ، ولو بلغتَ مطلعَ الشّمس ، فَمَحَلُّكَ في قَعْرِ الرَّمْـس ، وجـاعلُك كذاهـبِ أمس ، فَتَيَقّنْ ذلك ، واعْلَمْ أنك لا محالةَ هالك . وَرَدَّ قُصَّادَه على عَقِبِهـم ، وقَصَـدَ التوجّـهَ في ذَنَبِهم ، فتجهّـز وسـار ، بعسـكرٍ جـرّار ، إلى صـوبِ التتـار ، وأوصـلَ السير ، وسابقَ الطير ، وأراد أن يسبقَ الخبر ، ويكبسَ التتر ، ويريهم عين العلّةِ قبـل الأثر ، فألْوَى من العراق ، وسار وسَاق ، فقطعَ ممالكَ خراسان ، وولايات ما وراء

---

[١٦٨] تركستان : اسم جامع لكل بلاد الترك قديما .

[١٦٩] كاشغر : من أشهر مدن تركستان .

[١٧٠] بلاغسون : من أكبر مدن تركستان .

[١٧١] رئيس البعثة الدبلوماسية بتعبيرنا المعاطر .

النهر وتركستان ، وهجَم بذلك البحر الزخّار ، في تلك المهَامِهِ والقِفار ، فوصَل إلى حشم في بيوت ، وهُمْ آمنون في بسكونٍ وسكوت ، ليس فيهم غير نساءٍ وصبيان ، ومواشٍ وبعران ، رجالُهم غائبة ، وأمورُهم بواسطةِ الأمنِ سائبة ، وكانت رجالُهم توجَّهت لأخذِ الثار ، من بعضِ التتار ، بواسطةِ عدوان ، وَقَعَ بينهم وبين كُوجْلُك خان ، فقاتلُوهم وكسرُوهم ، ونهبوا أموالَهم وهصروهم . ففي غَيْبَتِهم ، وصلَ السلطانُ إلى بيوتِهم ، وفي أَمْنِهم وسكوتهم ، وليس فيهم إلاّ الحريمُ والأطفال ، والمواشي والأثقال ، ولا يُؤْبَهُ إليهم ، ولا يعوّل عليهم ، فاستولى عليهم ونهبَهم ، وسلبَهم عيشَهم وسَلَبَهم[١٧٢] ، وأَمرَ العساكرَ فنهبوهم وأسرُوهم ، وفرّقوهم وكسروهم ، وهم الجمُّ الغفير ، والعددُ الكثير ، والمالُ الغزير . ورجع السلطان من فوره ، وابتدأ في حوره بعد كوره[١٧٣] ، وتصور أنهُ أَغْنَى وأَنْكَى ، وأنهُ أضحك وليًّا وعدوًّا أبكى ، فما هو إلاّ وَضَع على القَرْحِ كيَّة ، وداس ذَنَب الحية .

ثم رجعَ التتار ، ورأوْا ما حلّ بأَهلِهم من بَوَار ، وأنهم أُخْرِجُوا من ديارِهم وأولادِهم ، ونُكِبُوا في طريقهم وبلادِهم ، وأنَّ نساءَهم أُسِرَت ، وصفقتَهم خسرت ، فما وفت نصرتهم بكسرتهم[١٧٤] ، ولا قامت فرحتُهم بحسرتهم ، التهبُوا واضطربُوا واصطلمُوا . وأخذتهم الحميّة ، وعصبتهم العصبيّة ، وتنادَوْا بالغارات ، وطلبِ الثارَات ، وتناخى منهم حُمَاةُ الحقايق ، وكماةُ المضايق ، وتتبعوا في الحال ، آثارَ الرجال ، من غيرِ إهمال . ولا إمهال . وسلكُوا الآثار ، لأخذِ الثار ، وأكبُّوا كالبرقِ الخاطف ، وزعقُوا كالرعدِ القاصِف ، واندفعوا كالريحِ العاصف ، واندفقوا

---

[١٧٢] سلبهم : سلب ما معهم من ثياب وأموال وجواهر .

[١٧٣] حوره بعد كوره : نقصٌ بعد زيادة ، وخُسْرَانٌ بعد ربح . وهزيمة بعد نصر . وعسر بعد يسر .

[١٧٤] ما وفت نصرة جنكيزخان على كوجلك خان ، بهزيمتهم أمام السلطان خوارزم شاه ، فتعادلت : نصرته بهزيمته في آنٍ .

كالسهمِ الناقف[١٧٥] ، ودهموا كالليلِ المدرك ، وهجمُوا كالسيلِ المهلك ، فأدركوا عساكرَه ، بشرورٍ ثائرة ، ومراجلِ صدورٍ بالضغائنِ فائرة ، فلمْ يشعروا إلاّ والعَدُوُّ المضرم ، غشيهم كالقضاءِ المبرم ، فألْوَت عساكره وقابلت ، واستعدّت وقاتلت ، والتقت الرجالُ بالرجال ، وضاقت ميادينُ المجال ، واستمرت ضروبُ الحربِ بينهم سجال ، وتطاولت سهامُ الموتِ لِقصَرِ الآجال ، وتهلّلت ثَنايا المنايا لبكاء السيوف ، وتبسّمت ثغورُ الرزايا لفتوحِ الحتوف ، واستمرّت دِيَمُ السهام ، من غَمَام القَتام ، على رياضِ الصدورِ تهمي ، ولوامعُ بروقِ السيوف ، على قِمَمِ تلك الصفوف ، بعد الوابلِ الوَسْمِي[١٧٦] ، بالصواعقِ ترمي ، ثم انتقلوا من معاشقةِ المراشقة ، إلى مراشقةِ المعانقة ، ومن مكالمةِ[١٧٧] المضاربة ، إلى ملاكمةِ الملابة[١٧٨] ، ومن مخادعةِ المقارعة ، إلى مسارعةِ المصارعة ، وامتدت بهم الحال ، في هذا القتالِ والجدال ، ثلاثةَ أيامٍ مع الليال ، لا يسأمُون الطّعنَ والضّرب ، ولا يملّون مباشرةَ الحرابِ والحرب ، إلى أنْ جَرَى من الدماءِ طوفان ، وكاد يظهرُ سِرُّ كُلٌّ مَنْ عليها فَانٍ . كلُّ ذلك وكاتِبُ البيضِ والسّمْر ، يستوفي من أقلامِ الخطِّ في صحائفِ الصّفَائحِ مستوردات العمر ، ولم يُسْمَع بمثل هذا القتال ، ولا بنظير هذا الضرابِ والنضال ، في سالفِ الأزمنةِ والأعصرِ الخَوال ، وما أمْكَنَ تَوَلّي إحدى الطائفتين ، ولا نكوصُ جهةٍ من الجهتين ، أمّا طائفةُ المسلمين ، فلحمية الدين ، وَلَوْ ولّوا الأدبار ، لما أَبْقَتْ التتار ، لِبُعْدِ الديار ، وصعوبةِ القِفار ، منهم نَافِخَ نار . وأمّا الكفارُ فِلِلْغَيْرَةِ على ذواتِ الأستار ، واستخلاصِ الأطفالِ والصّغار ، منْ قَيْدِ الذلّ

---

[١٧٥] يقال نقف السهم رأسه ، أي أصابه حتى خرج دماغة بعد أن شقّه شقا كالسيف .

[١٧٦] الوسمي : مطر الربيع .

[١٧٧] المكالمة : الجروح .

[١٧٨] الملابة : يقال تلبب الرجلان أخذ كل مهما بلبة (طوق) صاحبه ، ومنها قولهم : أخذ بتلابيبه . .

والصَّغَار ، ورقَّ الإسَار ، فصارتْ الخضراء غبراء ، والغبراء حمراء ، والصحراء بحرا ، والقَتْلَى تَلاً ، والجَرْحَى تَرْحَى ، ولم يثبطهم عن استيفاءِ القتال ، غيرُ انحلالِ الأعضاءِ والكَلاَل ، فانفصلوا وما انفصلوا ، وانقطعُوا بعدما اتصلُوا ، وحلُّوا بعد ما كلُّوا ، وتراجعَ كلٌّ عن صاحبِه ، بعد ذوبانِ قلبِه وقالبِه ، واستفراغِ جهدِه ، بما وصلت إليه غايةُ كدّه ، ثم استوفَى ناظرُ القضاء ، ما أَوْرَدَهُ عامِلُ الفَنَاء ، من سَهْمِ المنون ، إلى ديون بَرْزَخٍ إلى يومِ يُبْعثون ، من أرواحِ الشهداءِ الأبرار ، وأنفسِ الأشقياءِ الكفار ، الوارد من تلك المعركة ، الساكن من حركاتِ هاتيك التهلكة ، فكان من المسلمين عشرون ألفا ، ومن الكفّارِ كذا وكذا ضعفا ، غير أنه ، لم يُمْكِنْ حَصْرَهُم ، ولم يُعْرَفْ قَدْرُهم .

فلمّا كانت الليلةُ الرابعة ، وهي الليلةُ الفارقةُ القاطعة ، أَوْقَدَ كلٌّ من الفريقينِ في منزله النار ، وأكثرَ من القبائلِ في المنازلِ والآثار ، وتَرَكَهَا وسار ، فوصلَ السلطان ، من بلادِ تركستان ، وقطعَ سَيحُون ونهر خُجَنْد ، ووصل إلى بُخَارى وسَمَرْقَند ، وشرع في تحصينِ البلادِ والقلاع ، والاحتفاظِ بمدنِ الممالكِ عن الضياع ، وقد سكنَ الهَمُّ فؤادَه ، ونهب القلقُ والأرقُ رقادَه ، وعلِمَ المسلمون أنّهُ لا طاقةَ لهم بالتتار ، فخافُوا حلولَ البوار ، ونزولَ الدمار ، وتيقنوا خرابَ الديار ، لأنّ السلطانَ عاجز ، ولا بُدَّ من قدومِ بلاءٍ ناجز . وقالوا : إذَا كان هذا الخور ، من شرذمةٍ قليلةٍ من التتر ، في طرفٍ من أطرافِ بلادِه ، لا فيهم أحدٌ معتبرٌ من أجناده ، ولا رئيسٌ يُشار إليه من أولادِه ، ولا دَرَى ، ولا عَلِمَ بما جرى ، فكيف إذا دَهَمَ بطامَّتِه الكبرى ، وأحشادِ جيوشِه العظمى ، فترك خوارزم شاه ببخارى عشرينَ ألفَ مقاتل ، وفي سمرقند خمسينَ ألفَ مناضل ، وقرّر معهم أنه سيجمعُ الجنود ، ويستجيشُ أبطالَ المسلمين ويعود ، وتوجّه بثبات عزم ، وإضاعة حزم ،

إلى سريرِ ملكِه خوارزم ، ثم انتقلَ إلى خراسان ، وخيَّمَ بضواحي بَلْخ[١٧٩] في مكان ، وأقام رَخِيَّ البالِ كأن الشيْءَ ما كان ، ثم لازالَ يضمحلّ ويذوب ، ويحلّ به ما يحلّه من نوائبِ الخطوب ، حتى انتقلَ إلى جوارِ الرحمن ، في أطرافِ طبرستان[١٨٠] ، في سنةِ سبعَ عشرةَ وستمائة ، وكانت ولايتُه في العشرينَ من شوال سنةَ ستٍ وتسعين وخمسمائة .

وكان ملكاً عظيماً ، وسلطاناً جسيماً ، ذا صولةٍ قاهرة ، ودولةٍ باهرة ، وجَوْلةً أرقدتْ الملوك بالساهرة ، فاضلاً فقيها ، عالماً نبيها ، اضمحلّ بأدنى حركةٍ مُلْكُه ، وغَرِقَ في بحْرِ الفناءِ بعد الطغيانِ فُلْكَه ، وركنَ إلى الخطأ فوقعَ فيه ، وخانته عساكرُه ومخالوه[١٨١] و "دُودُ الخَلِّ مِنْه وفِيه" . وكان في خزائنِه عشرةُ آلافِ ألفِ دينار ، ومن أجناسِ الأقمشةِ والأمتعةِ والأسلحةِ ما لا يُحصيه إلاّ الواحدُ القهار ، وكان فيها ألفُ حِمْلٍ من القماشِ الأطلس ، وأضعافُ ذلك من نفيسِ النفائسِ وأنفس ، ومن الخيلِ المُسَوَّمَةِ عشرون ألفَ جنيب[١٨٢] ، ومن المماليكِ الملوكِ عشرةُ آلافٍ كلٌّ لهُ في دارِ الملكِ رَبْعٌ خصيب ، وأوفرُ حظٌّ ونصيب ، فما أفاد ذلك ذَرَّة ، بل نبشوا بعد موته قبرَه ، وقطعوا راسَه ، وفَجَعُوا به ناسَه ، فسبحان مَنْ لا يزولُ سلطانُه ، وعَزَّ وعلاَ مَنْ لاَ يُذَلُّ شانُه :

فَمَا كَفٌّ ذُو كَفٍّ لهُ رائدُ الرَّدَى ... وَلاَ مَالَ بِالأَمْوَالِ عَنْهُ حِمَامُهُ
وُلاَ مِلْكٌ ، كَلاّ ، وَلاَ مُلْكُ حِمَى ... حَمَى مُلْكَهُ لما عَرَاهُ انْهِدَامُه

---

[١٧٩] بلخ : من أشهر مدن خراسان (فى أفغانستان اليوم) .

[١٨٠] طبرستان : مقاطعة فى إيران على بحر قزوين ، وقاعدتها مدينة آمل .

[١٨١] مخالوه : متدبرو أموره ومتعهدو شوونه العسكرية .

[١٨٢] جنيب : الخيل المدرّبة .

وبسطُ المقول ، فيه شرحٌ يطول . وأمّـا أمـرُ الطاغيـة ، صـاحب الفئـةِ الباغيـة ، جنكزخان ، لما وصل قُصّادُه[١٨٣] من عند السلطان ، بعـد الفنـاء والشـدة ، لحاهم مَحْلُوقَةٌ ووُجُوهُهُم مُسْوَدّة ، وقد قُتِل رئيسُهم ، وخلا من نَقْـدِ مرادِهـم كيسُـهم ، ذهب حِفاظُه ، والتهب شواظُه ، وطمَّت بحارُ كُفْرِه وتلاطَمَت ، وتَزَعْزَعَتْ أطـوادُ شِرْكِه وتصادمت ، وبينما هو يرغى ويزبد ويقوم من غضبه ويقعد ، إذ جاءه الخـبرُ الثالث ، وهو شرُّ الحـوادث ، إذْ فِيـه خَـبَرُ مَـنْ قُتِـلَ مـن الكُفّـار ، وانتقـل مـن دارِ الخَسار ، إلى دار البَوار ، جَهَنَّـمَ يَصْلَوْنَهـا وبئسَ القَـرار ، فـأَعْمَل في قلبـه نصلـه ، وكان أولاً قد زاد على قُرْحِهِ قُرْحٌ مثلُه ، ثم كان خبرُ هذا القُـرْح ، مِلْحـاً مَـذْرُوراً على جُـرح ، فقـامت قيامتُـه ، وتعوّجـت بـالحزن قامتُـه ، وَوَدَّ لَـوْ أَحْـرَقَ الكـوْنَ بأنفاسِه ، وهدَمَ أساسَ المكانِ بِفاس باسه . ثم تروّى وافتكر ، وتهوّى من حَرِّ هـذا الشرر ، ثم قَصَد مذهَب الاعتزال ، وانزوَى عن جماعتِه في مكان خال ، ودخل إلى مكانٍ خراب ، وعَفَّرَ وَجْهَه في التراب ، وتضرّعَ إلى اللهِ الحليم ، وقال : يـا خـالقُ يا قديم ، أنا أردتُ أن أُعمـر بـلادَك ، وأُنعـش عبـادَك ، فَظَلَمَهُـمْ يـا إلاه ، عبـدُك خوارزم شاه ، وتعدَّى عليَّ ، وكرَّر الإساءَة إليَّ ، فانتصرْ لي منهـم وانتقـمْ ، فـإنّكَ جَبْرُ مَنْ كُسِرَ وَعَوْنُ مَنْ ظُلِم ، واستمرّ علـى هـذه الحـال ، ثلاثـةَ أيـامٍ وليـال ، لا يأكلُ ولا يشرب ، ولا يفترُّ عن التضرّع والطلب ، يمرّغ رأسَه ووَجْهَـه في الـثرى ، ويقصد فيما يرومُه ربَّ الورى ، وقد قيل :

تضـرّعَ جنْكِزْخَـانُ للهِ سَاعَةً ... وأَخْلَـصَ فيمَا رَامَهُ وَهْوَ مُشْرِكُ
فَمَا خَابَ فِيمَا رَامَهُ من فَسَادِهِ ... وما زَالَ يعثُو في الأنامِ وَيَسْفِكُ
فَـمَـا بَـالُ مَنْ للهِ طولَ حَيَاتِـهِ ... يُوَحِّـدُ بِالإِخْلاَصِ هَلْ هُوَ يُهْلكُ

---

[١٨٣] قصاده : رسُله

ثم نهضَ نهضةً أنام فيها الأنام ، وقام قومةً أقام بها ساعاتِ القيام ، فتوجَّـه مـن مشركي التتار ، وعساكرِ الكفّـار ، بالبحـارِ الطاميـة ، والأمطـارِ الهاميـة ، وجبـالِ النيرانِ الحامية ، في شهورِ سَنَةِ خمسَ عشرةَ وستمية ، ومَشَوْا على ممالكِ الإسـلام ، وساروُا على بسيطِ العالَمِ سيرَ الغَمـام ، وأرادُوا إطفـاءَ نـورِ الإيمـانِ مـن إشراكِهم بظلام ، فوصلُوا إلى البلاد ، وهي جَنَّةُ المرتـاد ، آمنـة مُطمئنّـة ، سـاكنة مُستكنّة ، وليس لها مانعٌ ولا ممانع ، ولا لهم عنها دافع ، ولا مدافع ، ولا بها حامٍ ولا محـام ، ولا سامٍ ولا مسام ، فاخنوا على "جَنْد"[184] وقراها ، وولاياتها وَمَا والاَها ، رابَـع صفرٍ ، عامَ ستةَ عشرَ ، وأظهـرُوا فيهـا علامـاتِ الحشـر ، فأدهشـوا وَهْلَهَـا[185] ، وسبكوا أَهلَها ، ودكّـوا جبلَهـا ، ومـلأوا بجبـالِ القتلـى سـهلَها ، فقتلـوا الخـاصَّ والعـام ، ومدّوا إلى ذخائرِها النّهْبَ العام ، فأراحَ بها رَجلَه وخَيْلَه ، وأحـاطَ بهـا ثبورَه وويلَه ، واستمروا في نهبها ستَّ عشرةَ ليلة . ثم تنقلُوا عن "جند" إلى ولايات "أند كان وفناكث وخجند"[186] فأخذوها وقتلُوا ، وفعلُوا كما كـانوا فعلُـوا ، ثـم إلى بلدة "مرغنيان"[187] وكانت دارَ مُلْكِ إيلك خان ، ثـم إلى أطرافِ تركستان ، ومنها "سيرام وتاش كند"[188] وباقي البلدان ، ثم إلى "تسف وأنزار وسـفناق"[189] وما من أمهات البلاد في تلك الآفاق :

فَمَشَوْا عَلَى سَهْلِ البِلاَدِ وَوَعْرِهَا   مَشْيَ الجرَادِ على القَصِيلِ[190] الأَخْضَرِ

---

[184] جند : من مدن تركستان .

[185] وهلها : أوائل أهلها الأمنين ، قبل هروب سائر السكان .

[186] ولايات أندكان وفناكث وخجند : من إقليم فرغانة .

[187] مرغنيان : من مدن فرغانة .

[188] سيرام وتاش كند : جميعها من فرغانة ، ببلاد ما وراء النهر .

[189] تسف وأنزار وسفناق : من ثغور فرغانة ، ببلاد ما وراء النهر .

[190] القصيل : الزرع الأخضر الذى يُقتطع لعلف الماشية .

فَكَأَنَّهُمْ مُوسى على شَعْرِ مَشَتْ   أو مِنْجَلٌ فَوْقَ الحَصِيدِ الأَصْفَرِ
أَوْ شُعْلَةٌ ثَارَ الهَوا فَتَعَلَّقَتْ   فَوْقَ الصَّعيدِ على الهَشِيمِ الأَغْبَرِ

فَكُلُّ مَنْ أَطاعَهم ، وقصدَ اتّباعهم ، صار من جِلْدَتِهم ، ودخل في عِدَّتِهم ، ومَنْ عَصَى أَوْ توقّف ، أو خالفَ أو تخلّف ، سَقَوْه كأسَ الدَّمَار ، وأحلُّوه وقومَه دارَ البوار ، وأَسَرُوا حريمه وأولادَه ، ونهبوا طارِفَه وتلادَه .

ثم إن تلك الدواهي المصْمية ، يومَ الثلاثاءِ رابع المحرّمِ سنةَ سبعَ عشرةَ وستمية ، وصلوا إلى بخارَى[١٩١] ، بلدةٍ فضلُها لا يجارى ، قُبَّة الإيمان ، وكُرْسي ملوكِ بني سامان ، بجمع العلماءِ والعبّاد ، والصلحاء والزهّاد ، ومنبع المحقّقين من الفقهاءِ الأمجاد ، والمدقّقين من النبهاءِ والأنجاد ، وفيها من الأكابرِ والأشرافِ وأوساطِ الأماثلِ والأطارف ، الجَمُّ الغفير ، والطَمُّ الكثير . فَلَمَّا رأى العساكرُ السلطانية ، والجيوشُ الخوارزم شاهية ، الذين كان أَرْصَدهم السلطان ، لحفظِ البلدةِ من طوارقِ الحدثان ، وهم عشرون ألفا ، أَنَّ البلاءَ زحفَ إليهم زَحْفا ، وأَنّ كَسْرتهم منهم لا تخفى ، وأَن سَيْلَ الوَيْلِ حطم ، وموجَ بحرِ الدواهي التطم ، ومَنْ لم يدركْ من الغرق نفسَهُ ارتطم ، شَمَّرُوا الذيل ، وخرجوا تحتَ اللَّيْل ، وقصدوا جيْحُون[١٩٢] ، والعبورَ إلى خراسان[١٩٣] ، ومُقَدَّمُهم من أمراءِ السلطان : كورخان ، وسنخ خان ، وحميد النوري وكوجلي خان ، فبينما على نهر جيحون قاصِدين العبور ، صادفتْهم طلائعُ جنكزخان الكَفور ، فوضعوا السِّلاحَ فيهم ، ومَحَوْهُمْ عن بَكْرَةِ أبيهم ، فما

---

[١٩١] بخارى : من أعظم مدن ما وراء النهر (اليوم مدينة روسية فى أوزبكستان) .

[١٩٢] جيحون : نهر فى جنوب غربى روسيا ، تروى مياهه تاجيكستان وتركمانستان وأوزبكستان .

[١٩٣] خراسان : منطقة قديمة فى آسيا شمالي إيران وجنوبى مجرى نهر جيحون ، من أشهر مدنها نيسابور وهراة وبلخ وجوين وطوس ومرو الروذ ومرو وسرخس وطالقان ، وما يتخلّل ذلك من القرى والبلاد التى دون نهر جيحون . وتقع على الحدود الروسية الأفغانية .

أبقوْا منهم عَيْناً ولا أثرا ، ولا سمع لهم أحدٌ خبرا ، فوَهِيَ أمر البلـد ، إذْ لم يبقَ لهـم مدد ، فطلبُوا الأمان ، وأرسلوا لذلك القاضي بدر الدين بنَ قاضى خان ، فأجـابهم إلى ذلك وأناب ، فاطمأنّوا وفتحوا الأبْواب ، فدخلوا المدينةَ يرفلُون ، وهم من كل حدبٍ ينسلُون ، فعصى بقيةُ العساكرِ في القلعة ، وتصوّروا أنْ يكونَ لهم منه مَنَعَة ، فَفِي الحال ، أمرَ الرجال ، بِطَمّ الخندق[١٩٤] ، بكلِّ ما وجدُوا جلّ أو دقّ ، فأتوْا بنفائسِ الأقمشـة ، والذخـائرِ المدهشـة ، والكتـبِ الربعـات ، والمصـاحفِ الشـريفةِ والختمـات ، وطرحُوهـا في الخنـدق ، ومشَـى العسـكرُ عليهـا وتسـلّق ، ونَقَبُـوا النقوب ، وأنفذوا الثقوب ، وكان قد نادَى بالأمـان ، للقـاصِي والـدَّان ، فعجـزت القلعة ، وذهبَ ما بها من مَنَعـة ، وكـان فيهـا فِئَـة ، نحوَ مـن أربعمائـة ، فباشـرُوا الحرب دوْما ، نحو اثنْي عشرَ يوما ، فأُخِذُوا عُنْوةً بالإنقاب ، وفُتِحَ لهـم مـن جهـةٍ باب ، فقتلوا مَنْ بها عن آخرِهـم ، واستولُوا علـى بـاطنِهم وظـاهرِهم ، ثـم مـدوا أيديَهم إلى المخدّرات ، وفَجَرُوا ظاهِراً بالمستّرات ، وجَعَلَ الناسُ ينظرون ويبكـون ، وهم يفتكرون وينكون ، لا يستطيعون دفعا ، ولا يملكون ضرًّا ولا نفعـا ، فـاجتمع من أئِمّةِ الدين ، ومـن أعـلامِ العلمـاءِ المهتديـن ، ومَـنْ لم يـرضَ بعمـلِ المفسـدين ، جماعةٌ غارُوا ، وثارُوا وفارُوا ، وانضمّـوا إلى العلاّمـةِ القـاضى صـدرِ الديـن قـاضي خـان ، وأولادِه السادةِ القادةِ الأعيان ، والحاكمِ الشـهيد ، الإمـامِ العـالمِ السـعيد ، والإمامِ ركنِ الدين إمامِ زاده ، واختارُوا الموتَ على الشهادة ، فحمَلُـوا علـى الفئـةِ الطاغية ، والطائفةِ الكـافرةِ الباغيلة ، وقـاتلُوا حتـى قُتِلُـوا ، والى جـوارِ اللهِ مقبلـينَ انتقلُوا ، فاستُشْهِدوا عن آخرهم ، ولحق أصاغرُهم بأكابرهم .

---

[١٩٤] طمّ الخندق : غمره وغطاه .

ودخل جنكزخان إلى المدينة ، وطافَ بها على هيئـةٍ وسـكينة ، حتـى انتهـى إلى باب الجامع ، مكانٍ نَزْهٍ ومَوْضِعٍ رابع ، ومحلٌ شريفٍ ومعبدٍ واسع ، ولم يكنْ لذلك البلدِ الكبير ، والجمِّ الغفير ، والجمعِ الكثيرِ ، والمِصْـرِ الواسـع ، مـن الجوامـعِ سـوى جامعٍ واحد ، يجمع الصادرَ والوارد ، ويسع مـا شـاءَ الله مـن الأمـم ، وهـذا على مذهبِ الإمامِ الأعظم ، وهكذا كلُّ أمصارِ الحنفية ، في الممالك الشرقية ، والممـالك الهندية ، وغالب البلاد التركية . فقال جنكزخـان : هـذا بيـتُ السـلطان ؟ فقـالوا : بيت الرحمن ، ومأوى عبادة العبّاد ، والعلماءِ والزهّاد ، وذوي الطاعةِ والاجتهـاد . فقال : إنّ أَوْلَى ما أقمنا أفراحنا ، في بيتِ مَنْ خلَق أرواحَنا ، ورزَقَ أشـباحَنا ، ثـم أَلْوى إليـه ، وأقبلَ عليه ، ونزل عن دابتـه ، ودخـل الجـامعَ مـع جماعتـه . ثـم دعـا بأمرائه ، وكبراءِ جندِه وزعمائِه ، واستدعى الخمور ، والطبولَ والزمور ، وهشَّ إلى الكفّارِ وعظّمهم ، وبش فرحاً واحترمهم ، فَسَـجَدَ لـه منهـم الملـوك ، وضربـوا لـه الجُنوك ، وعرفوا حقّه ورعَوْا ، ورفعوا بالثناءِ صوتَهم ودعَوْا ، فأَذِنَ لهم بـالجلوس ، وأن تُدَار عليهم الكؤوس ، فجلـس كـلٌّ في مكانـه ، بـين أضرابـه وإخوانِـه ، وقـام بعضٌ في مقامه ، في موقفِ حدِّه واحتشامه ، فتصـدّر في مجـالسِ العلـمِ والأذكـار ، ومحاريبِ الصلاةِ الكَفَرَةُ الفُجّار ، ورؤوسُ المشركين من المغْل والتتـار ، واستُبْدِلَتْ محافلُ العلمِ والتدريس ، بمحافل الشِّرْك والتنجيس . ثم أحضروا العلماء والأشـرافَ والكبراء ، وساداتِ الأنام ، ورؤساءَ الخواصِّ والعوام ، وأنزلوا بهم الثبورَ والويْـل ، واحتفظوا بهم واستحفظوهم الخيْل ، وصارت النـاسُ حَيَارَى ، سُكَارَى وَمَـا هُـمْ بِسُكَارَى ، وأخذتْهم بَهْتَةٌ إذ أتاهُم العذابُ بَغْتَة ، ولم يكـنْ بـين رحيـلِ السـلطان ، وبين هجومِ هذا الطوفـان ، غـيرُ خمسةِ أشـهرٍ وأيـام ، سـاروا فيهـا سَيْرَ الغمـام ، وهجموا على العالَم هجومَ الظلام ، وكـأَنَّ النـاسَ كـانوا نيامـا ، ورأوْا في منـامهم أحْلاما ، فلم يوقظْهم من هذا الرقاد ، سوى إبراقِ البلايا بالأرعاد ، فَانْسَـدَّ عليهـم

طريقُ الخلاَص ، وخانهم المدَدُ في شِدَّةِ الاقتناص ، وتنـادَوْا وَلاَتَ حِينَ مَنَـاص ، إذ فارَقَهُم العسكر ، وهُمْ في حال المضطر . وكان من جملةِ أولئك الأعيـان ، شـخص وليّ ، يدعى السيِّدَ الشريفَ جلالَ الدينِ علـيّ ، بـنَ حسـنٍ الزيـديّ ، وهـو المقـدَّم والمقتدَى ، والمُسْلِكُ إلى طريقِ الهـدى ، وأَعْلَـى سـاداتِ مـا وراء النهـر ، ولِدَوْحَـةِ ساداتِها بمنزلةِ الثمرِ والزهر ، قد قُبِضَ عليه ، وربطوا إلى عنقِه يدَيْه . ثـم استنظروه مراكيبَهم[١٩٥] ، وأنشبوا فيه مخالِبَهم ، وهو واقفٌ ببـابِ الجـامع ، في هيئةِ الذليـلِ الخاضع ، فرأى الإمامَ الهمَام ، البحرَ الطام ، عَلَـمَ العُلَمَـاءِ الأعْـلام ، أفضـلَ علمـاءِ عصرِه ، وأنبلَ فقهاءِ دهرِه ، الشيخَ ركنَ الدين ابنَ الإمـام ، بَوَّأَهُمَـا الله تعـالى دارَ السلام ، وهو في مثلِ حالِه ، متسربلٌ بسربالِ نِكَالِه . فقال أيها الإمامُ المفضال : ما هذه الأحوال ؟ ثم أنشد معنى هذا المقال :

أَرَى حَالَةً بَذَّتْ[١٩٦] لِسَانِي فَلَيْسَ لِي   طَرِيـقٌ إلى أَنِّي أَفُـوهُ بِلَـفْـظَـةِ
أَعُضُّ لَهَـا كَـفِّـي وأَمْـعَـكُ مُقْلَتِي   أَفِي النَّـوْمِ هَـذا أَمْ أَرَاهُ بِيَـقْـظَـةِ

فأجابَ الإمام : ما هذا محلّ الكلام ، كُنْ عَبْدَ الإرادة ، واتَّبِعْ ما أراده .

واستمروا يشـربون الخمـور ، علـى أصـواتِ الزمـور ، ويضربـون الطبـول ، ويتراقصون رَقْصَ التتارِ والمغـول . ثـم صعـدَ المنـبر ابـنُ جنكزخـان الأكـبر ، واسمـهُ توشي[١٩٧] خان ، وتكلّم بكُفْرٍ وكُفْرَان ، ثم غَنَّى ورقص ، ودعـا لأبيـه ونكَـص . ثم صعد بعدَه أبوه ، وتكلّم بكلامٍ سمعوه ، ودعا بالخمرِ وشرب ، ثم غنّى وطرب . ثم قال : أيها الرجـال ، إنَّ خَيْلَنَـا هـي رأسُ المـال ، وقـد رعيتـم الوهـدَ واليفـاع ، وحلقتّم شعورَ الكلأ من قِمَمِ البقاع ، وقد شبعتمْ فَـلاَ تَنْسَـوْا الجيـاع ، ألاَ فاشبِعُوا

---

[١٩٥] أى جعلوا هذا العالم الإمام الجليل حارسا على أحذيتهم تحقيراً لشأنه .

[١٩٦] بذّت : غلبت ، فاقت .

[١٩٧] أو جوشى ، كما ورد فى المصادر التاريخية . وقد توفى فى حياة والده جنكزخان .

خَيْلَكم ولا تحرمُوها نَيْلَكم ، وحيث رعيتم الخضيم[١٩٨] ، فابغوا لها القضيم[١٩٩] ، وامتثلوا أمرَ سلطانِكم ، تخطَوْا منه بأمانِكم . فنهضوا قياما ، وامتثلوا مرسومَه مراما ، وتهارجُوا كالحمير ، وابتدرُوا طلب القمح والشعير . ثم طغَى وتكبّر ، وبغي وتجبّر ، ونزل عن المنبر ، فلم يكنْ بأسرع من إتيانهم بالحبوب ، والقضيمِ المطلوب ، وأدخلوا الخيلَ إلى الجامع ، وطلبوا لها مرابطَ ومواضِع . ثم أفرغُوا خزائنَ المصحاحفِ والخَتْمَات ، وظروفَ الكتبِ وأوعيةَ الرُّبعات ، وصبُّوا فيها الشعير ، وأطعمُوا فيها الخيلَ والبغالَ والحمير ، فتبدَّدَتُ الكتبُ المنيفة ، والمصاحفُ الشريفة ، والرُّبعاتُ المعظّمة ، والخَتَمَات المكرّمة ، تحت السنابكِ والحوافر ، ومواطئِ أقدامِ كلِّ كافر ، وصارت أبحرُ القاذوراتِ والخمور ، على تلك النفائسِ والذخائرِ تَمُور . ثم إنه خرج من البلد ، وأمر أنْ لا يُترَكَ في البلدِ أحد ، بل يخرجُون إلى المصلّى ، وولّي حفظَهم مَنْ كَفَرَ وتَوَلّى ، ومَنْ تأخّرَ قتلُوه ، وبتكوه[٢٠٠] وبتلوه[٢٠١] ، فخرجُوا كالجرادِ ، وانتشروا على الوِهَاد ، واجتمعوا في المصلّى ، ثم على المنبر تعلّى ، وخطب خطبةً تركية ، كافريةً مشركية ، منها أنكم[٢٠٢] ركبتُم عظائم ، وأتيتُم مآثمَ وجرائم ، فتقدَّم ربُّكم إليكم ، أن سَلَّطَني عليكُم ، وهذه الأوزار ، إنَّما جناها منكم الكبار ، فلأَجْلِ هذا عَمَّ البلاء ، وذهبَ بجريمةِ الكبراء ، الأصاغرُ والضعفاء . ثم ضَبَطَ أسماءَ التجّار ، واستخلصَ ما عندهم

---

[١٩٨] الخضيم : النبت الأخضر الرطب .

[١٩٩] القضيم : الحبوب كالقمح والشعير ونحوهما من علف الدواب .

[٢٠٠] بتكوه : قطعوه .

[٢٠١] بتلوه : قطعوه .

[٢٠٢] الخطاب هنا موجّه إلى المسلمين من أهل المدينة المفتوحة .

من درهمٍ ودينار ، وقال : هذا ثمنُ ما لي من نقدٍ وأعيـان ، الـذي كـان مَنَحْكُمُـوهُ السلطان .

فلما استخلصَ الأموال ، أمرَ بقتلِ الرجال ، وأسْرِ النسـاءِ والأطفـال ، والنَّهْـبِ العام ، لسائرِ الأغنام ، ومَنْ أَخَذَ شيئاً فهو له ، لا يقطعُ أَحَدٌ سبلَه ، ثـم أَمَـرَ بهـدْمِ البلدِ والإحراق وإعدامِ عينِها على الإطلاق ، فمهما قال فعلوه ، وكلُّ مـا رَسَـم بـه امتثلُوه ، فساوُوا بالبلدِ الأرض ، واستوفُوا أعمارَ أهلِها بالفرضِ والقرض ، فلمْ يبـقَ منهم ديّـار ، ولم ينجُ من تلك النـارِ العظيمـةِ نـافخُ نـار . وقيـل إنـهُ نجـا مـن هـذه الواقعـة ، رجل باقِعَة ، فوصلَ إلى خراسان ، فسألُوه عن هذا الشان ، كيف كان ؟ فقال لهم بذلك اللسان ، ما صورتُه :

آمدند وكندند وسوختند ‌ ‌ ‌ ‌ وكشتند وبردند ورفتند

يعني :

هجموا وهدموا وأحرقوا ‌ ‌ ‌ ‌ وأرهقوا ونهبوا وذهبوا

فقيـل : لم يوجـدْ في الفارسِـيِّ في هــذا المعنَى أحسـن ، مـن هـذه الألفـاظِ ولا أرصَن ، ولا أوجَز ولا أمتَن ، ثم أمرَ الجنـد ، بالتوجّـهِ إلى سمرقنـد[٢٠٣] ، فتوجّهـوا بالأثقال ، من الأموالِ والأسرَى من النساءِ والأطفالِ مشاةً حفاة ، أذلاءً عراة ، فلم يتوقفْ ، كلُّ أعتميٍّ[٢٠٤] أعقف[٢٠٥] ، وكافرٍ أغلف ، في ضربِ رقبـةِ مَـنْ أَعْيَـا أو تَوَقّفْ ، فوصلُوا إليها ، وأخنـوا عليهـا ، وفيهـا مـن العسـاكرِ الأَكْفـا ، مائـةُ ألـفٍ وعشرون ألفا ، سبعون من أهلِ البلد ، وخمسونَ من المرْصَدِين للمدَد[٢٠٦] ، فتجهّز

---

[٢٠٣] سمرقند : تقع شمالي نهر جيحون بتركستان ، وهي من أكبر مدنها .

[٢٠٤] أعتمي : كل كافر غليظ شديد ، لا رحمة عنده ولا شفقة .

[٢٠٥] الأعقف : ذو قرون معقوفه .

[٢٠٦] يعنى : الجيش الرسمى .

عسكرُ البلد للقاء ، وخرجُـوا مـن البلـد للملتقـى ، فَكَمِـنَ لهـم التتـارُ مـن اليمـين واليســار ، في رَوَابٍ وتــلالٍ تسـمّى بالإحصـار ، فَنَاوَشَـهُمْ مـن عَسَـاكِرِ الكفّــارِ شِرْذِمة ، ثم وَلّتْ أمامَهم مُنْهَزِمَة ، فركب البلديُّون أعقابَهم ، وداسُوا أذنابَهم ، إلى أن أُبعدوا عن البلد ، وانقطع عن البلديِّينَ المدَد[٢٠٧] ، فخرج الكمينُ مـن خلفِهـم ، لقطعِ رِجْـلِ مَدَدِهـم وكفِّهـم ، ورجـع عليهـم الفـارُّون ، وأحـاطَ بهـم الغـارون ، وتلاحقَ بهم عساكر ، لا أول لهم ولا آخر ، فلم يفلـت منهـم واحـد ، ولا صـدر عن حياضِ تلك الملحمةِ وارد .

فلما شاهد العساكرُ الخوارزم شاهية ، ما نزل بالجنودِ البلديةِ من داهيةٍ ورزيّـة ، لم يسعْهم إلاّ الـترامي عليهـم ، والانحيـازِ إليهـم ، فـداروا وداروا ، واللبيــب مــن دارى[٢٠٨] ، فَوَقَوْا بذلك أنفسَهم وأهليهم نارا ، فلـم يركنُـوا إليهـم ، ولا اعتمـدوا عليهم ، فرأوا مصلحتَهم ، في سلبهم أسلحتَهم ، فطلبوا منهـم عُدَّتَهـم ، ثـم فرقـوا عِدَّتَهم ، كما فعل تيمـورُ الغـدار[٢٠٩] ، في بـلادِ الـرومِ بالتتـار ، عنـد كسـر ذلـك الخوّان ، فى سنة خمس وثمانمائة "بايزيد بـن عثمـان"[٢١٠] ، فلـم يبـقَ لأهـلِ البلـد ، معينٌ ولا مَدَد ، فاستسلموا للقضا ، وجُرّوا طوعاً وكرهاً في ميادين الرضا ، فـأحلّ

---

[٢٠٧] البلديون ، أو الجنود البلديون : الجيش الشعبى .

[٢٠٨] دارى : استسلم ، والمعنى أن الجيش الخوارزمى الرسمى للدولة الذى كان يدافع عن سمرقند سرعان ما بادر بالاستسلام للمغول ، غير أن المغول لم يقبلوا ذلك إلا بعد أن سلّم الجيش الخوارزمى أسلحته أيضا ، ثم غدر بهم المغول بعد ذلك .. وباستسلام الجيش سقطت سمرقند فى أيدى المغول ، فاستباحوها كعادتهم ، وعاثوا فيها ذبحا وقتلا ونهبا وتدميراً .

[٢٠٩] تيمور : هو تيمورلنك الفاتح المغولى العنيف المعروف بتيمور الأعرج (١٣٣٦ - ١٤٠٥ م) .

[٢١٠] بايزيد عثمان : سلطان تركيا المعروف ببايزيد الأول (١٣٤٧ - ١٤٠٣ م) وقد ألحق بـه تيمورلنك هزيمة نكراء سنة ١٤٠٢ م بعد أن تخلّى عنه معظم جنوده وقد أسره تيمورلنك ، ويقال إنه كان يحمله أينما ذهب فى قفص من حديد ، فمات كمداً .

بهم بَوَارا ، وأنزل دمارا ، فَفَعَل بسمرقند وأهلِها ما فعل ببخارَى ، ودور أسوارها ، بدلالة آثارِها ، من الفراسخ اثنا عشر ، لا يمتري في ذلك اثنان من البشر ، فَقِسْ ما في ذلك من الخلائقِ والأُمَم ، فالكلُّ بَرَاهُمْ سيفُ القلم[٢١١] ، كما يبري السيفُ القَلَم .

ثم قَوِيَ العزم ، وسدّد الحزم ، وجهّز طائفةً من العساكر إلى خوارزم[٢١٢] ، مع ولديه أحدهما المدعو بجغتاي[٢١٣] ، الآخر المسمى بأُوكتاي[٢١٤] ، وهي تخت[٢١٥] خوارزمشاه ، وفيها من الأُمَم ما لا يعلمُه إلاّ الله ، معدنُ الأفاضل ، ومقطنُ الأماثل ، محطُّ رِجَالِ أهلِ التحقيق ، ومقصدُ رجالِ الفحولِ ذوي التدقيق ، ولوفورِ ما بها من الرؤوس ، لم ينفردْ برياستها رئيس ، لكثرةِ ما بها من الناس ، لم يتعينْ لسياستهم راس ، فاتفق أكابرُها لضبط أمور المسلمين ، على تقديمِ شخصٍ يُدْعَى حَمارتكين . فبعدَ حروبٍ يطولُ شرحُها ، ويهولُ برحُها ، ويُجَبُّ قرحُها ، ويُسْتَحَبُّ طرحُها ، أخذوها عنوة ، بعد ما قاسوا جفوة ، فاستصفوا أربابَ الحرف ، ومَنْ تعلّق من صنعةٍ بطرف ، فكانوا نحواً من مائةِ ألْفِ بيت ، أو يزيدون إنْ عَدَدْتَهُم وعدّيت ، ثم ميزّوا النساءَ والأطفال ، وكانوا كَعَدَدِ الحصَى والرمال ، ففرّقُوهم على ذلك العسكرِ الثقيل ، فكفى الحقير منهم والجليل ، ثم فصلُوا بالحسام

---

[٢١١] القلم : القضاء المكتوب .

[٢١٢] خوارزم : عاصمة الامبراطورية الخوارزمشاهية بوسط آسيا ، بعد أن دخلها الإسلام فى القرن الثامن تحت حكم السلاجقة الأتراك حتى غزاها جنكيزخان .

[٢١٣] جغتاى : الابن الثانى لجنكيزخان (حكم سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) مؤسسا دولته فى بلاد ما وراء النهر وشرقي تركستان (وفى بعض المصادر يُكتب جغتاى) .

[٢١٤] أوكتاى : الابن الثالث لجنكيزخان (حكم سنة ٦٢٤ هـ / ١٢٢٧ م) مؤسسا دولته فى منغوليا وشمالي الصين .

[٢١٥] تخت : عاصمة الامبراطورية الخوارزمشاهية ، يعنى مدينة خوارزم .

المفصال ، مَذارِع[٢١٦] ذواتِ[٢١٧] ما بقـي مـن الرجـال ، أرادوا حَصْرَ مَنْ قُتـل ، وإقامةَ عَدَدَ مَنْ بُتِكَ وبُتِل[٢١٨] ، فكانَ حِصَّةُ كُلِّ فَتّاكٍ قَتّال ، علَى أنَّ عددَهم أكثرُ من القَطْرِ والرِمَال ، أربعةً وعشرين مقتولا[٢١٩] ، ثم فعلُوا بالبلد كعـادتِهم الأولى ، فهدموا أسوارَها ، ومحوا آثارَها ، وأجْرُوا من بحارِ الدماءِ أنهارَهـا ، فـانْمَحَى العلـمُ والعُلمـاء ، واندَحـى الفضـلُ والفُضـلاء ، واسْتُشْـهد الرؤسـاءُ والكـبراء ، ونـاهيك بالقطبِ الوليّ ، الشيخِ نجمِ الدين العكبريّ .

وتوجّه جنكزخان ، من سمرقندَ قاصداً السلطان ، وَمَرَّ من أطـوارِ عسـكرِه بكـلِّ أخشب[٢٢٠] ، حتى أناخَ على ترمذ[٢٢١] ونخشب[٢٢٢] ، فامتنعتا عليـه ، ولمناعتِهمـا لم تلتفتا إليه ، وكانتا كثيرتَيْ العَدَد والعِدَد ، غزيرتـيْ المـدَدِ مـن مُـدد ، وهمـا مـن أُمَّهَاتِ البلاد ، مملوءتان مـن آلاتِ الجهـاد ، ومقاتلـةِ الأجنـاد ، فـأهلك ناسَـهما ، وسقاهما من خمرِ التشريب كأسَهما ، فلم يبقَ لهمـا فَيْئـا ، ولم تُغنِ العَـدد والعِـدد عنهما من الله شيئا .

---

[٢١٦] مذارع ، مفردها مِذْرع . والمذرع من الإنسان ما بين ركبتيه وابطيه . والمعنى نصفوهم بالسيف نصفين ، فأبادوهم عن آخرهم في مذبحة بشرية رهيبة .

[٢١٧] ذوات : نفوس .

[٢١٨] بُتك وبُتل : قطع نصفين .

[٢١٩] يعني المؤلف أن حصّة أو نصيب كل جندي مغولي من قتل الرجال المسلمين الأحياء مـن أهـل المدينة كـان أربعة وعشرين مسلما ، ذبحهم عن آخرهم في هذه المذبحة الرهيبة .

[٢٢٠] نخشب : الغليظ الخشن الفظّ .

[٢٢١] ترمذ : مدينة كبرى على نهر جيحون (في أوزبكستان الآن على حدود أفغانستان) .

[٢٢٢] نخشب : مدينة على نهر جيحون أيضا .

ومِن غريبِ ما وقع ، من البدع ، أنهُ أَضمَرَ بأَهْلِ ترمذَ أنْ يُقتَلُوا عن آخرِهم ، مع أهلِهم وعشائرِهم ، ولا يُبقى فيها على أحد ، وأَرْصد على ذلك الرصد[٢٢٣] ، فاتفق أنّ امراةً من المخدّرات ، تُخْجِلُ الشموسَ النيّرات ، قبضوا عليها ، وتقدّموا بإراقةِ دمِها إليها ، فتشفّعت فما أفاد ، وتضرّعت فما زاد إلاّ العناد . فلمّا أُسْلِمَتْ وتلّوها للجبين ، وعلمتْ أنهُ جاءَها الحقُّ المبين ، قالتْ لأولئك الكفار : لاتقتلوني ياحُضّار ، وأنا افتدي نفسي منكم بعقودٍ من اللُّؤْلُؤِ كبار ، فأنهوا القضية إليه ، وعرضوا ما قالته عليه . فقال : اتركوها ، ثم بما قالت طالبوها ، لننظرَ أَصَدَقَتْ ، أم اختَلَقَتْ ؟ فأطلقوها ، وبتقاضِي اللؤلؤِ اقلقُوها ، فقالت : لم أَفُهْ بِزُورٍ ، ولا دلّيتكم بغرور ، وإنما اللؤلؤُ كان عندي ، وحين استخلصتُم مالي كان في يدي ، فخِفْتُ منكم فابتلعتُه ، وتبًّا لِفعْلٍ صنعتُه ، فأَمْهِلوني حتى اتبرّز ، ويخرج مني ذلك الحرّز ، فأنهوا كلامَها إليه ، وعرضوا أمرَها عليه . فقال : ابْقِرُوا بطنَها ، وانظرُوا قَطْعَها ، فإنْ وجدتُم شيئاً فهو لكم ، وإنْ كانتْ كاذبة فقد استحقت فِعْلكم ، فشقُّوا بطنَها البطين ، واستخرجُوا منهُ الدُّر الثمين . فلمّا رأوْا صدقَها وحقّقُوا نطقَها ، أَمَرَهم بِشَقٍّ بطونِ جميعِ القتلى ، وتفتيشِ ما طرحُوه من جبالِ الأشْلا[٢٢٤] ، فلم تنجُ رؤوسُ الروس من المُثْلةِ بعدَ القتل ، ولا بطونُ الصدورِ من ظهورِ التنكيل أثر البتل[٢٢٥] . ثم أَمَرَ بهدمِ الحصون ، بعد ابتذالِ المالِ والعِرْضِ المصُون ، فَمُحِيَتْ الديار ، ولم يبقَ فيها ديار .

---

[٢٢٣] الرصد : العيون والجواسيس والبصاصين .

[٢٢٤] الأشلا : مخفف أشلاء (القتلى) ... وكانوا لكثرتهم كالجبال .

[٢٢٥] البتل : القطع والبقْر .

ثم عَبَرَ من جيحُون إلى خُراسان ، وجَعَلَ نُصْبَ عينيْه ممالِكَ السلطان ، وتوجّه الى بَلْخ[٢٢٦] وهي أحدُ معاقلِ الإسلام ، وفيها من أُمَمُ الأنام ، ما لا يدرك ضبطَه سابقُ الأقلام ، بل يخرجُ عن حصْرِ الأوهام ، ولا يُحصيه إلاّ الملكُ العلاّم . وكان السلطان ، قد انشمر[٢٢٧] عنها كما ذكر إلى نواحي طبرستان ، فوصلَ بتلك البحارِ الطامية ، في ثماني عشرةَ وستمية ، فخرجَ إليه الأعيان ، وطلبُوا منه الأمان ، فأجابَ سؤالَهم ، بما يصلح حالَهم . ثم اختشى[٢٢٨] من السلطان جلال الدين ، ابن المرحوم قطب الدين ، فَلَمْ يَرْكَنْ إليهم ، ولا عَوّلَ عليهم ، فَأَمَرَ بإراقةِ الدِّماء ، وهدْمِ البناء ، وإحاطَتِهم بدائرةِ الفناء ، فأَفْنوهم عن آخرِهم ، وساوُوا بالحضيضِ بقاعَ عمائرِهم . ثم أرسل ولدَه "تُولي خان"[٢٢٩] إلى مُحاصَرةِ طالقان[٢٣٠] ، فَعَصَتْ عليه ، ولم تسلّمْ قيادَها إليه ، فاستمرّتْ في الحصارِ مُدَّة ، وأذاقَها لباسَ البأْسِ والشِّدَّة ، إلى أنْ أخذوها ، وأبادُوا خَلْقَها ودكُّوها .

ثم إنّ جنكزخان ، الكافرَ الخوّان ، معدنَ الكفرِ والطغيان ، لما اسْتَوْبَلَ[٢٣١] هَوَاءَ خُرَاسان ، فَأَلْوى إلى بلادِه ، وترك "تُولي خان" من أولادِه ، وَوَلاّه خُراسان ، وهو محاصِرٌ طالقان ، وأقامَ في ممالكِ إيران ، من كفّارِ أمرائه أميران أحدهما يدعى

---

[٢٢٦] بلخ : مدينة بقطر القديمة ، وهى ما تسمى الآن باكتريا ، وكانت ملتقى الحضارة الهندية القديمة . تقع بين إقليمى طخارستان وجوزجان ، وشرق إقليم خراسان ، وجنوبى نهر جيحون ، استولى عليها العرب سنة ٦٥٣ ، ودمرّها جنكيزخان سنة ١٢٢١ م . وهى من مدن أفغانستان حاليا ، وهى من أشهر مدن خراسان قديما .

[٢٢٧] انشمر : مشى حادّا مختالا إلى جهة بعينها .

[٢٢٨] اختشى : خشي العواقب .

[٢٢٩] تولى خان : هو الابن الأصغر والأخير لجنكيزخان ، ويعرف فى المصادر التاريخية باسم تولوى .

[٢٣٠] طالقان ، من أشهر مدن خراسان قديما ، قرب قزوين .

[٢٣١] استوبل : لم يطب هواء خراسان لجنكيزخان ، فأصابه بالوخم فى بدنه ، والمرض فى جسمه .

"سنتاي" وهو من قبيلة الجغتاي ، والآخر يدعى "يما" وهو من الكفّار اللُّؤمَا ، وترك معهما من الكفّارِ والأراذل ، والتتارِ والأسافل ، ثلاثينَ ألفَ مقاتل ، فوصلاً إلى رواة[٢٣٢] ، ووضعا السيفَ في الأئمة الهُداة ، وابتدآ في القتلِ والنهب ، والفتْكِ والسلب ، والقهْرِ والأسر ، والقسْرِ والكسْر ، ثم أخذا في الإتلافِ ، طريقَ الإئْتِلاف ، وذهبَ كلٌّ منهما للاختلاف ، في الفسادِ على خلاف ، فَصَالاً وجَالاً ، وأوسعَا في الدَّمَارِ والبوارِ مجالا ، وخاضَا في دماءِ المسلمين ، واجتهداً في إهلاكِ الإسلامِ والدِّين ، وخلا لهما الجوُّ فَباضَا وصَفَّرَا ، وكان السلطانُ قطبُ الدينِ قد أَخْلَى الدنيا ، من الملوكِ والكُبرا ، فلم يثبتْ لهما مقابل ، فضلاً عن مُخاتلٍ أو مُقاتل ، فأهلكَا الدِّينَ وأبادَا ، وتصرَّفَا في نُصْرَةِ الشِّرْكِ على الإسلام كيفما أرادا ، فاستخلصا جوين[٢٣٣] وطوس[٢٣٤] ، وأَعْدَمَا ما بهما من نفائسَ ونُفُوس ، وحام وخبوشان[٢٣٥] ، وأسفرايين[٢٣٦] ومازندران[٢٣٧] ، وآمل[٢٣٨] وقومس[٢٣٩] وتلك البلدان ، فَمَحَوْا من كُتُبِ كتائبِها أسطارَها ، وأطفأوا منارَها ، وأظهرُوا من صفةِ الجلالِ والقهرِ آثارَها ، وأجْروا من الفتنِ كالدماءِ بحارَها ، وأضرمُوا من الشرورِ نارَها ، كلُّ ذلك قتلاً ونهبا ، وسبياً وسلبا ، وهدماً وإحراقا ، وصدماً وإزهاقا ، ، ورداً وإغراقا .

---

[٢٣٢] رواة : من مدن خراسان ، دون نهر جيحون .

[٢٣٣] جوين : من أشهر أقاليم خراسان .

[٢٣٤] طوس : من مدن خراسان الكبرى .

[٢٣٥] حام وخبوشان : من الثغور الحدودية فى طبرستان .

[٢٣٦] اسفرايين : بلدة حصينة من نواحى نيسابور ، من مدن خراسان .

[٢٣٧] مازندران : مقاطعة تقع على بحر قزوين .

[٢٣٨] آمل : أكبر مدن طبرستان وقاعدتها .

[٢٣٩] قومس : ولاية كبيرة تقع بين الريّ ويسابور ، وهى فى نهاية جبال طبرستان .

ثم بلغَهم أنَّ حريمَ السلطانِ جلالِ الدين ، في قلاعِ آمِلَ آمنين ، فقصدُوها وحاصرُوها فَقَلَّ ناصرُوها ، فاستولَوْا عليها ، ووصلُوا كما أرادُوا إليها ، فبقرُوا وفتكوا ، وبروا وبتكوا ، وسبوا وسبكوا ، وسفوا وسفكوا ، وكووا وشووا ، وغووا ولووا ، وعووا وما ارْعَووا ، ثم إنهم صادفوا لِعَكْسِ الزَّمان ، وانقلابِ الدّهرِ على السلطان ، وسوءِ التدبير ، وشؤمِ الحظِّ المبير ، وهُمْ في بعضِ المسير ، من غيرِ مُخبرٍ ولا مُعْلم ، في سُدْفَةِ لَيْلٍ مُظْلِم ، حريمَ السلطان خوارزمشاه ، لأمورٍ قَدَّرَهَا الله ، مع والدتِه وجواريه ، وبناتِه وسراريه ، وكان لِشِدَّةِ ما نَابَهُم من الزَّمان ، قد ضاقَ عليهم المكان ، وتغيرَّ بلْ تنكّر لهم الكَوْن ، وفلّ عنهم النصيرُ وقَلَّ العوْن ، وخافُوا الابتذال بعد الصوْن ، فتركُوا ما هُم فيه من مكان ، وقصدُوا البُعْدَ عن خُراسان ، فتوجّهوا إلى أطراف أصفهان ، ومعهم من نفائسِ الأموالِ والجواهر ، وأنواعِ المفاخرِ والذخائر ، ومصوناتِ الخزائن ، ومكنوناتِ المعادن ، ما لا يعلمُه إلا ما نحُه ، ومن الكنوزِ ما ينوءُ بالعصبةِ مفاتحه[٢٤٠] ، وما لا يجتمعُ لسلطانٍ قط ، ولا ضبطَها قَلَمُ ديوانٍ ولا خطّ ، فَتَبَاغَتُوا مُوَاجَهَةً ، وتَوَاجَهُوا مُبَاغَتَةً ، وتَبَاهَتُوا مُشَافَهَةً ، وَتَشَافَهُوا مُبَاهَتَةً ، فَوَقَعْنَ في شبكةِ الصَّيْد ، وأحاطتْ بِهِنَّ دائرةُ الكَيْد ، وَتَوَرَّطْنَ فيما فَرَرْنَ منه ، وَتَرَبَّطْنَ بأوهاقِ مَا نفَرْنَ منه ، ونَادَاهُنَّ لسانُ الحظّ ، وهاتفُ الطالعِ الفَظّ :

وإذَا أَرَادَ اللهُ إِنْفَاذَ القَضَا ... وَظُهُورَ قَهْرٍ للبَصَائِرِ بَاتِلا[٢٤١]

جَعَلَ الدَّوَاءَ لذاك داءً مُمْرِضَا ... وَفَوائِدَ التِّريَاق سُمًّا قَاتِلا

وَالْكَوْنَ خَصْمًا والمكَانَ مُنَاقِضا ... والعيشَ موتاً والصديقَ مُقَاتِلا

---

[٢٤٠] مفاتحه : مفاتيحه .

[٢٤١] باتلا : قاطعاً ، موكداً .

فَلَمْ يَشعُرْنَ إلاّ وقد وَقَعْنَ من نيرانِ الفتنِ في تنّور ، وتورَّطْنَ من بحارِ المحنِ في دَرْدُور[٢٤٢] ، وتبسّمتْ إلى بُكائِهنَّ ثنايا البلايا ، وتكالمت[٢٤٣] على جبَاه لمُصَابِهِنّ عقودُ الرزايا ، فَظَفَرَتْ حَامِيَةُ الكُفْرِ بذلك المغْنَمَ البارد ، و لم يصدرْ من حَلَقَةِ صيدِه شاردٌ ولا وارد ، فحازُوا تلك المستّرات ، ونزل إلى حضيضِ قنْصِهم من سماءِ المناعة الشموسُ النّيِّرات ، فَهتَكُوا أستارَهُنّ ، وخربوا ديارَهُنّ ، وضبطوا شِعَارهنَّ ودثارَهنّ ، وأحرزُوا ما مَعَهُنّ ، من كنوزِ المعادن ، ونفائسِ المكامن ، وذخائرِ الخزائن ، ثم أَضَافُوهُنَّ إلى زبانيةٍ غلاظ ، واحتفظُوا بهنّ أشدَّ احتفاظ ، وساقُوهُنَّ إلى بلادِ التتار ، مهتكاتِ الأستار ، عارياتٍ حافيات ، حاسراتٍ ماشيات ، وأمروهنّ أن يجتمعَنَ كلَّ لَيْلَة ، عندما ينشر الظلامُ ذيلَه ، في كلِّ منزلة ، وصباحِ كلِّ مرحلَة ، ويقمْنَ على أنْفُسِهِنَّ العَزا ، وَيَنُحْنَ[٢٤٤] بما تقدّم ويبكينَ بما جرى ، ويُعَدِّدْنَ[٢٤٥] على خوارزمشاه ، ويذكرْنَ ما قَدَّرَه الله عليه وقضاه ، وَيَنْعِينَ ما كُنَّ فيه من النِّعَم ، وما صِرْنَ إليه من الهوانِ والنِّقَم ، وَلْيَدُمْنَ علَى هذه الطريقة ، حتى يَقْطَعْنَ من سفرِهن طريقة ، ويصلْنَ بجنكزخان ، على ذلك الامتهان ، والذلِّ والهوان ، فيرى فيهنَّ رأيَه ، من نكالٍ ونكاية ، ورحمةٍ وعناية ، فامتثلْنَ ما أَمَرُوهُنَّ به ، فكُنَّ يُنَبِّهْنَ النِّيَامَ وَيُبْكِينَ المنتبه ، واستمرَرْنَ على هذه الحال ، في الخِزْيِ والإذلال ، والمشقةِ والابتذال ، بعد ذلك الصونِ والدلال ، يَصْدَعْن بنَحِيبِهنَّ الجبال ، ويتفطَّرْنَ بالنظرِ إليهنّ أكبادُ الصخورِ والتلال . ثم إن "تولي" لَمَّا أَخَذَ طالقان ، وأهلَكَ أهلَها بسيفِ الطغْيان ، و لم يدعْ فيها مَنْ يَتَنَفَّس ، وهَدَمَ إلى

---

[٢٤٢] دردور : دوّامة عنيفة .

[٢٤٣] تكالمت : تجارحت .

[٢٤٤] ينحن ، من النواح ، البكاء .

[٢٤٥] يُعدِّدن : من العديد على الموتى (البكائيات أو ذكر مناقب الموتى) .

الأرضِ بنياتَها المؤسَّس ، توجَّه إلى بجانبٍ من بلادِ العجم ، وأهلَك ما شاءَ الله تعالى من خلائقَ وأُمَم ، فصار في أَحدِ الجوانبِ يعيث ، وكلٌّ من "سنتاي" الخبيث ، "ويما" الكافرِ العثيث ، في جانبٍ يبيدُ المسلمينَ ولا مُغيث ، فَدَكّوا قَزْوين[٢٤٦] وهَمَدَان[٢٤٧] ، وصكّوا أرّان وبيلقان ، وأغاروا على ممالك أذربيجان ، وبلغَهم أن السلطان ، جلالَ الدين ، لهُ في سجاس جماعةٌ مجتمعين ، مقدَّمُهم السلاحدار[٢٤٨] بكتكين ، وفيهم من الأعيان ، كُوجُبُوغَا خان ، فَتَوَجَّه إليهم "يما" فبدّد شملَ أولئك الزُّعَمَا ، وأبادَهم وفرّقهم ، وشتتهم ومزّقهم . ثم أغاروا على غالبِ عراقِ العجم ، فأوْسَقَوا القفار بالضرم ، وأوْسَعُوا البحارَ بأمطارِ الدم ، وملأوا الوجودَ بالعدم .

ثم قصَدُوا أردبيل[٢٤٩] ، وجعلُوا أهلَها ما بين أسيرٍ وقتيل ، وكانوا في أوّلِ المرور ، قَدْ صالَحوا أهلَ نيسابور ، وانتقلُوا إلى مَرْوٍ[٢٥٠] منها ، وراوَدُوا أهلَها عنها ، فأغلقُوا أبوابَهم ، وأقلقوا جوابَهم ، فَحَطَمُوا عليها ، ودخلوا إليها ، وحكّمُوا في أهلِها السيوف ، وكان شَهْر الصِّيامِ فَفَطّرُوهُم على كاساتِ الحتوف ، ونقل إلى جوارِ اللهِ تعالى منهم المئينَ والأُلُوف ، فضبطُوا مَنْ أمكنَ ضبطُه من القَتْلى ، واستَسْعد بنيْلِ الشَّهادةِ من الشُّهَدا ، فكانَ أَلْفَ أَلْفٍ نَسَمَة ، وثلاثمائة ألفٍ

---

[٢٤٦] قزوين : مدينة على بحر قزوين ، وهى مدينة حصينة تابعة للإقليم الثالث أران .

[٢٤٧] همدان : مدينة غربي إيران اليوم ، وأما أران وبيلقان ، فهما من الإقليم الثالث (إيران) .

[٢٤٨] السلاحدار أو السلحدار : لقب للذى يحمل سلاح السلطان ويتولّى أمر السلاح خانة .

[٢٤٩] أردبيل : مدينة فى شمالي إيران اليوم ، وكانت قديما تابعة للإقليم الثانى أذربيجان .

[٢٥٠] مَرْو : مدينة فى تركمانستان الروسية اليوم .. ومن أشهر مدن خراسان قديما .

وثلاثينَ ألفاً مُكَرَّمَة[٢٥١] . وكلُّ هذه الفتنةِ والفترة ، في سنةِ ثمانِ عشرةَ ، عامتْ الدُّنيا في الدِّماءِ عَوْماً ، وكانت مدة نَحْوَ تسعين يوما .

ثم تَوَجَّهُوا إلى شروان[٢٥٢] ، وأفاضُوا من بحارِ الدِّماءِ الطُّوفَان ، ودخلُوا من البابِ الحديد ، واتصلُوا من الدست[٢٥٣] بذلك الشيطانِ المريد . فتيقّظَ الناسُ من الفكرة ، وأفاقُوا مما كانوا فيه من السَّكْرة ، وتصورُوا أنها سحابةُ صَيْفٍ انقضَتْ ، أو نِسْمةُ أَزْمِنَةٍ هَبَّتْ بِارِقَةً أَوْ مضَتْ ، ولكنْ احتاطُوا واستعدُوا ، وتحفظُّوا واستمدُّوا ، وحصّنُوا الحصُون والمعاقل ، وجمعُوا الجنودَ والجحافل ، فلم يكنْ بأسرعِ من إيابهم ، وتعاطِي ما كانُوا عليه من دَأْبِهم ، والشروع في إعمالِ حرابِهم بخَرابهم ، وأخْذِهم في ضروبِ ضربهم وضِرَابهم ، واستقرّ "تُولِي" في ممالكِ العجم ، وهو أَبُو هُولاَكُو[٢٥٤] الكافرُ الأغتم ، فوصلوا إلى شيراز[٢٥٥] وقد استعدت للحصار ، واستمدت للمناوشة والنقار ، فأخذوها عُنْوَةً وزحفا ، وقتلوا منها مِمّا أمكنَ ضبطُه سبعين ألفا . ثم توجّهوا إلى طوس[٢٥٦] ، فأزهقوا ما بها من نفوس .

---

[٢٥١] أى بلغ عدد الشهداء مليونا وثلث المليون خلال ثلاثة أشهر فقط .

وهذه المدن التى مرّ ذكرها جميعا كانت تابعة للإمبراطورية الخوارزمشاهية فى تركستان القديمة ، وتشمل كل بلاد الترك (السلاجقة) .

[٢٥٢] شروان : مدينة فارسية قرب بحر الخزر أو طبرستان فى الإقليم الثالث المعروف باسم أرّان .

[٢٥٣] الدست ، كما يقول القلقشندى وظيفة من أجل الوظائف ، والقائم بها سفير الرعية إلى الملك فى حاجتهم . ويتولاها كاتب الدست . والمعنى أن تولوى قائد الجيش المغولى قد أرسل يستأذن أباه جنكيزخان فى فتح مدينة شروان الفارسية .

[٢٥٤] هولاكو : الفاتح المغولى الشهير (١٢١٧ - ١٢٦٥ م) حفيد جنكيزخان سقطت بغداد على يديه سنة ٦٥٤ هـ ١٢٥٦ م ، أسقط الخلافة العباسية ، واستولى على الشام حتى لقيه مماليك مصر ، فهزموه هزيمة نكراء فى عين جالوت بفلسطين عام ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م .

[٢٥٥] شيراز : مدينة فى جنوبي غرب إيران ، أى فى إقليم فارس القديم .

[٢٥٦] طوس : مدينة تقع بين الري ونيسابور ، فى نهاية جبال طبرستان ، من أشهر مدن خراسان .

ثم إلى سائر القلاعِ بالحضيضِ واليفاع ، فاستولُوا علـى الكـلِّ قهـرا وأخـذُوه عُنْـوَةً وقَسْرًا ، وسعَوْا في إحلالِ البوس ، وإزهاقِ النفوس . ثـم إلى موقـان[٢٠٧] ولم يبقـوا بها أحداً كائناً مَنْ كان ، وعَمّ القتلُ الْمُبير ، كـلّ صغـيرٍ وكبـير . ثـم حـلَّ أولئـك البور ، ببلدة نيسابور ، فكافحت[٢٠٨] بعدمـا كـانت صـالحت ، وتحصّنت بعدَ أنْ أذعنت ، واعتمدَتْ على عَدَدها ، واستندت إلى عُدَدِها ، وبرجالها استعانتْ ، بعـد أن كانتْ قد دانتْ ، ولانتْ واستكانتْ ، وكان فيها مـن آلاتِ الحـرب ، ورجـالِ الطعنِ والضرب ، ما لا يُحصى ، ولا يبلُغُه الاستقصا ، فكان فيها من المجانِق[٢٠٩] ، المرْسَلاَتِ الصواعق ، على أسوار الحصار ، ثلاثُمائة منجنيق أصغرُهـا كالقضبـانِ في المقدار ، خارجاً عن المكاحلِ والمدافع ، المهلكاتِ بالصواعقِ الصَّواقـع ، ومـن رمـاةِ القوس القصيرِ ، من كبير وصغير ، المنفذِ حكمةِ قَاضِى التقدير ، ثلاثةُ آلافِ بَطَل ، كلٌّ أَرْمَى من بني ثُعَل . وأمّا عَدَدُ الضـاربِ والنـابل ، والقـاتلِ والمقـاتل ، والرامـحِ والنـاطح ، والصـارعِ والقـارع ، والحـاذفِ والجـارف ، والخـاطفِ والقـاطف ، والناهبِ والسالب ، ما الضابطون فيه تاهوا ، وما يعلمُ جنودَ ربك إلاّ هُو .

فوجّه التتارُ الهمَّةَ إليها ، وأَخنوا كالقضاءِ المبرمِ عليها ، وحمي الوطيس ، وخاطرَ بنفسِه كُلُّ خسيس ، وبذَل مُهْجَتَه من الغزاةِ كلّ نفيس ، فَقُتِلَ من أهـلِ العُـدوان ، طغاجارخان زوجُ ابنةِ جنكزخان ، وكان من عُتـاة الكفّـار ، المعتـبرين بـينَ التتـار ، فَحَنِقَ العدوُّ لذلك ، وسـدّدوا المسالك ، وسمـع بذلـك "تُـولي" ، الكـافرُ المغـولي ، وكان في بعضِ الجوانب ، مشغولاً بالدَّواهي والمصـائب ، فَفَـار دَمُ قلْبِـه وتـأجّجت

---

[٢٠٧] موقان : أو موغان مدينة فارسية قديمة ، على ساحل بحر طبرستان أو بحر الخزر

[٢٠٨] كافحت : دافعت وحاربت .

[٢٠٩] المجانق : آلات قديمة من آلات الحصار كانت ترمى بها حجارة ثقيلة على الأسوار ، فتهدمها .

نيرانُ كَرْبِه ، وتأسّفَ لِفَقْدِ خَتَنِه[٢٦٠] ، وثار غُبَارُ إِحَنِـه . فَتَوَجَّـهَ مـن فـورِه ،بحنقِـه وجـوْرِه ، ونـزل على نيسابور ، وحلَّ بـالبوار على أولئك البور ، وزحـفَ بالعساكر ، وتقدّم بالطعنِ والضربِ كلَّ كافر ، فَلَـمْ تمضِ غلوة ، حتّى أخذوها عُنْوَةً ، ودخلها مَنْ كفر من التتر ، يـومَ السبتِ خـامسَ عشرَ صفر ، سنةَ تسعَ عشرة ، وستمائة من الهجرة ، وأعطـى "تـولي" لأختِـه ذلـك عِوَضاً عـن زوجِهـا الهالك ، وقال لها تَسَلَّيْ عن ذلك المفقود ، بهذا الموجود ، وتحكَّمي في أهلِ البلـد ، بما تَرْتَضيه من سرورٍ ونكد ، وتَصَرَّفي في الأموالِ والأرواح ، فَمَهْمَا تَرَيْـهِ فهـو لـك مُبَاح .

فَأَمَرَتْ أَنْ لا يبقى علـى ذي روح ، وأن تَجري السيولُ مـن الـدمِ المسفوح ، فأطلقُوا في ميادينِ الحتوف ، أَعِنَّةَ صوارِمِ السيوف ، فَجَدَّتْ جِبَاهُ الجياد ، وجـادتْ بِجُود الجدّ على أجيادِ الأجْواد ، وصارتْ كألْسُنِ الشعراءِ النُّقّـاد ، تهيـمُ مـن النظـمِ والنثرِ من كلِّ واد . فَمَحَوْا عن لوحِ الوجود ، بلسانِ شواظِّ السيفِ ذاتِ الوقـود ، سطورَ ذواتِ ذلك السَّوَادِ الأعْظَم ، وكتابَ كتائبِ تلك الخلائـقِ والأُمَـم ، وزادُوا في الاشتطاط ، حتى قَتَلُوا الكلابَ والقطاط .

ثم أمرتْ أَنْ تُجمَعَ رؤوسُ أولئك الجمهور ، ويُمَيَّزُ رؤوسُ الإناثِ من الذاكور ، فميزوا رؤوسَ الرجال ، عـن قِمَـمِ ربَّـاتِ الحِجَـال ، وطَرَحُـوا كُـلَّ كاشيةٍ[٢٦١] في ناحيـة ، فصـارتْ الـرؤوسُ كَرَوَاسِـي الجبـال ، وتلـك الـدورُ والقصـورُ كـالأعصرِ الخـوال ، و لم يخلُـصْ مـن قَطْـعِ الأرْؤُس ، سـوى أربعـةِ أَنْفُـس ، كـانوا مـن ذوي الحِرَف ، فجذبتْهـم المهـارةُ مـن سفحِ بحرِ الفناءِ إلى الطَّـرف . ثـم ركبتْ تلك

---

[٢٦٠] الختن : زوج الأخت .

[٢٦١] كاشية : مجموعة هائلة .

البسوس ، ووقفتْ على تلال الرؤوس ، فلم تنطفئْ نارُهـا ، ولا بَـرَدَ أُوارُهـا[٢٦٢] ، وزعمت أنها لم تَسْتَوْفِ ثارَها ، وأنَّ دُودَ ترابها من علَق تلـكَ الأُمَـمِ مـا تَكَفَّـتْ ، وَغَيْظَةُ غَيْظِها بزوائرِ السيوفِ ما تَشَفَّتْ ، واستغاثَتْ بالرِّجَـال ، وصـاحتْ بلسـانِ الحال ، وأنشدت :

وَهَـبْ أنَّ النسـاءَ سَلَلْـنَ سيفـاً	فَصُلْـنَ وَجُلْـنَ كَـالْفَحْـلِ الغَيُورِ
فَزَلْزَلْـنَ الجِبَالَ وطِـرْنَ فَـوْقـاً	يُضَاهِـينَ السَّحَابَ على الطُّيـورِ
وَصَـارَ لِسَفْكِهِـنَّ البَـرُّ بَـحْـرًا	أَيُغْنِيهُنَ ذاكَ عـنِ [......][٢٦٣]

فـأَمَرَتْ بهَـدْمِ البلـد ، وإحـراقِ مـا فيهـا مـن آلاتٍ وعُـدَد ، فدكُّوهـا دَكّـا ، وأعدمُوها سبْكاً وسفْكا ، وتصرّفَتْ أيدي النوائبُ فيهـا فَتْكـاً وبَتْكـا[٢٦٤] . ثـم إن "تـولي" لَـوَي العِنـان ، وقصـد هـراةَ من خُراسـان ، فأخذهـا بالأمـان ، ولم ينجُ مـن ذلـك الطـوفـان ، سـوى تلـك الكـورة[٢٦٥] ، واستمرّتْ تحـتَ أَوَامِرِهـم مقهورَة . وأُمّهات بـلادِ خراسـان ، ومَقَرُّ سريرِ السلطـان ، كانت أربعةَ أَمْصَـار ، كلٌّ ذاتُ اعتبار ، جليلةُ المقـدار : نيسـابـور ، وقـد صـارت بـور ، وبَلْـخَ قـد كُسيت من البـوار ثـوب سـلخ ، ومـرو الرود ، وقـد انمحـت مـن الوجـود ، ولم يَـفُـزْ بالنجـاةِ ، إلاّ بلـدةُ هـراة . وسـائرُ الأمصـار ، شملهـا البَوار ، ولبستْ مـن خِلَـعِ الدُّثـور الدُّثـار ، وكلٌّ منهـا مِـصْرٌ جـامـع ، وبحرُها بحـرٌ واسـع ، وبحرُهـا كَصَـدْرِ البـرِّ مَـدَاه شـاسِـع . وأمـا القُـرَى والقَصَبـات[٢٦٦] ، والرسـاتيق[٢٦٧] ،

---

[٢٦٢] أوارها : حرّ نارها .

[٢٦٣] حذفت كلمة خادشة لحياء البعض .

[٢٦٤] بتكا : قطعاً وتمزيقا .

[٢٦٥] الكورة : البقعة التى يجتمع فيها قرى ومحالُّ .. ويعنى بها هنا ولاية هراة وتوابعها (الاقليم) .

[٢٦٦] القصبات : المدن الصغيرة ، أو المدن عامة .

[٢٦٧] الرساتيق أو الرزاديق : القرى أو الضواحى الزراعية حول المدن الكبرى .

والمزدرعات[٢٦٨] ، فأكثرُ من أنْ تُحصَر ، أو تُضبَطُ بحسابِ دفتر . فأُبيد ذلك كلُّه وأُبير ، فالحكْمُ للهِ العليِّ الكبير . كُلُّ ذلك في أَدْنى مُدَّة ، وأَوْهى رَقْدَة ، وما ذُكِرَ ذَرَةٌ من طُور ، وقَطْرَةٌ من بحور ، فَسُبْحَانَ مَنْ يُسْأَلُ ، عَمّا يفعل .

ثمّ إنّ جنْكِزْخَان الهامّةُ الهامية ، والفتنةُ الطامّةُ الطامية ، لما عَلِقَ به المرض ، وحَصَلَ له في خراسان الْعَرَض ، رجعَ إلى بلادِه ، واستمر مرضُه في ازديادِه ، ولم يزلْ على ذلك ، حتى أُوردَ سبيلَ المهالك ، وتسلَّم روحَه الخبيثةَ مالك ، وحين أَيِسَ من الحياةِ وقنطَ من رحمةِ الله ، جَمَعَ المعتمَدَ عليه من أولادِه ، المشاركينَ له في عُتُوِّه وفسادِه ، وهُمْ جغتاي وأُوكْتَاي ، وأوليغ نوئين وجرجاي وكاكان ، وأورجان ، وأوصاهم بوصايا ، وطرائقَ في سياسةِ الرعايا ، حافَظُوا عليها ، وتناهضُوا إليها ، فَثَبَّتَ لهم من مُلْكِهم ، أساساً لم ينهدم ، وأقام بنياناً إلى يومنا لم يَنْخَرِم ، وعروشَ قواعدُ أركانِها لم تَنْثَلِمْ ، مع كثرةِ عددِهم ، ووفرةِ مَدَدِهم ، وشكاستِهم وشراستِهم ، وشماستِهم وتعاستِهم ، وغلاظتِهم وفظاظتِهم ، واختلافِ أديانهم ، واتساعِ بلدانهم ، وهلك الطاغيةُ جنكزخان ، وانتقل إلى الدَّرَكِ الأسفلِ من النيران ، واستقرَّ في لعنةِ الله وعقابه ، وأليمِ زجرِه وعذابِه ، في رابع شهر رمضان ، الشاملِ بالفضلِ والإحسان ، والبركةِ الناميةِ الهامية ، سنةَ أربعٍ وعشرين وستمية ، في سُرَّةِ مُلْكِه المشوم . وأَعْظَمُ أمصارِه إيميلُ وقوقانُ وقُرَاقروم .

واستمرّتْ بعدَه الفتنُ والشرور ، والمحنُ تغير ، على ممالكِ الإسلام ، وتبير[٢٦٩] شعائرَ شرائعِ خيرِ الأنام ، وتثيرُ غبارَ الإفْسَادِ والمفسدين ، فى وجوهِ سُنَّةِ سيِّدِ المرسلين ، وتُحْصَرُ جنودُ الإسلام ، وتُقَصُّ جيوشُ العلماءِ الأعْلام ، وتُنْقَصُ أطرافُهُ

---

[٢٦٨] المزدرعات : الأراضى الزراعية .

[٢٦٩] تبير : تهلك وتبيد .

الأرض ، وتُنْقَضُ أركانُ الدِّينِ بعضها على بعض . وَنَاهِيكَ يامولانا السلطان ، بِفِتَنِ هُلاكو تولى بنِ جنْكِزْخان[٢٧٠] وبعده أبقا[٢٧١] ابن هُلاكو الذى تجبّر وطغى ، وتكبّر وبغَى ، وبعده ابنه أرغون[٢٧٢] ، وبعده ابنه قازان[٢٧٣] المفتون . واستمرّت بحارُ الفتنِ منهم ، تُؤَثِّرُ عنهم ، ومَرْجُهَا يمورُ إلى أنْ نَبَعَ الأعرجُ تِيمُور[٢٧٤] ، فأهْلَكَ الحرْثَ والنَّسْل ،واختلط المُبَاحُ بالبسل[٢٧٥] ، وحل بالعالم الباس ، وفسدَتْ أحوالُ الناس ، وإنّما ذلك كلُّه بفسادِ الراس[٢٧٦] .

ومن جُمْلَةِ فتنِهم ، وطعنِهم في ظَعْنِهم ، جالُوا في معركة ، وصالُوا في دست بركة ، فقتلوا في مثل حرب البسوس ، وقطعوا في ناحية من الروس ، جملةً أرَادُوا ضَبْطَ عَددِها ، بعد أن أبانُوها[٢٧٧] عن جسدها ، فلمْ يقدِرُوا أن يحصُرُوها ، فَرَسَمَ لتلك البغاةِ سلطانُها ، أن يُقْطَعَ من الرؤوس آذانها ، يقطعون من كلِّ رأسٍ أذنا ، ولْتكنْ الآذانُ اليُمْنى ، فجدَعُوا آذانَ بعضِ الرؤوس وشَكُّوها ، وفي خيوطٍ سلكُوها ، ثم في قلائدَ ربطُوها ، وبعد ذلك ضبطُوها ، فكانت نحو مائتيْ ألفِ أُذن بجدودة[٢٧٨] ، وسبعين ألف أذن معدودة[٢٧٩] .

* * *

---

[٢٧٠] يعنى : هولاكو بن تولوى بن جنكيزخان ، على نحو ما وردت الأسماء فى المصادر التاريخية .

[٢٧١] أبقا أو أبغا هو ابن هولاكو ، وتولى الحكم من بعده سنة ٦٣٣ هـ / ١٢٦٥ م .

[٢٧٢] تولّى أرغون الحكم سنة ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م .

[٢٧٣] يعنى المؤلف به : محمود غازان ، وقد تولى الحكم سنة ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م .

[٢٧٤] الأعرج تيمور ، أو تيمورلنك ، انظر الهامش رقم (١٨١) .

[٢٧٥] البسْل : الحرام .

[٢٧٦] يعنى المؤلف : فساد رأس السلطة السياسية فى دار الإسلام آنذاك .

[٢٧٧] أبانوها : قطعوها وفصلوها .

[٢٧٨] بجدودة : مقطوعة .

[٢٧٩] يعنىٰ المؤلف أن العدد كاملا كان مائتين وسبعين ألفاً من قتلى المسلمين .

وإنما ذكرتُ يا ملكَ الطير ، أمثالَ ما جَرَى من الشرِّ والخير ، وجَلَوْتُ عن مرآةِ ضميرِك المنير ، صورةَ ما مَرَّ في الزمانِ المبير[٢٨٠] ،وما فعلَه من ملكِه زمامُ الاقتدار ، وأَمْهَلَهُ سلطانُ السلاطينِ الذى يخلقُ ما يشاءُ ويختار ، وصرّفه فى بلادِه وعبادِه ، وبَيَّنَ له طريقَ صلاحِه وفساده ، وأخبركُم أيها الملوكُ والحكامُ بأمورِكم ، فى دنياكم ، وجلا صُوَرَ أحوالِكم ، على أعْيُنِ أبصارِكم ، وبَيَّنَ مزاياكُم فى مَرَايَاكم ، فقال ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتاكُمْ﴾[٢٨١] فانظُرْ ما فى هذه السِّيَر ، من الحِكَمِ والعِبَر ، لِتعلَمَ أنّ الدّنيا محلُّ الغِيَر[٢٨٢] ، ومحكُّ العقولِ والفكر ، والحالُّ بها هَدَفٌ لِسِهَامِ القضاءِ والقَدَر ، مبتلىً بكلِّ خيرٍ وشرّ ، ونفعٍ وضرّ ، غافلٌ عن مواقعِ الحذر ، آمنٌ وَهُوَ على شَرَفِ الخطَر ، مقيمٌ وقد جَدَّ به السَّفَر ، مُنَافِش[٢٨٣] بما مضى من أنفاسِه ممّا حلا ومَرّ ، ومحاسبٌ على ذرَّاتِ ما اكتسبه ، مُطَالَبٌ بالْفَتِيل[٢٨٤] والقِطْمِير[٢٨٥] مما ارتكبه .

فَلَمّا وصل الحجَلُ في الكلام ، إلى هذا المقام ، قَبَّلَ العُقَابُ بين عينيه ، وزادَ قُرْبَهُ لديه ، وأَفاضَ خِلَعَ الإنعامِ عليه ، وقال : صدقَ عليه أفضلُ الصلاةِ والتسليم حيث قال "كلمُة الحكمةِ ضَالَّةُ كُلِّ حَكِيم" ، وَنَطَقَ بالحقِّ مَنْ قال : " لا تنظرْ إلى مَنْ قال ، انظرْ إلى ما قال" . فأهلُ التحقيق ، وذوو النظرِ الدقيق ، راقبوا المعانى ، ولم

---

[٢٨٠] المبير : الذى مضى وانقطع .

[٢٨١] قرآن كريم ، سورة الأنعام : ١٦٥ .

[٢٨٢] الغِيَر : غِيرُ الدهر ، احواله وأحداثه المتغيرّة .

[٢٨٣] المنافش أو النفّاش : المتكبر المغرور الذى يتفاخر بما ليس يملكه ولا عنده .

[٢٨٤] الفتيل : السُّحاة التى فى شق النواة ، ويقال : ما أغنى عنه فتيلا أى شيئا .

[٢٨٥] القِطْمِير : القشرة الرقيقة على النواة كاللّفافة لها . والمراد : الشيء الهيّن الحقير .

ينظروا إلى القوالبِ والمباني ، فإنّ سليمانَ عليه السلام وهو مَلِكُ الجنِّ والأنام ، والوحشِ والطيرِ والهواءِ والهوام ، نَبِيٌّ مُرْسَل ، ومَلِكٌ ذو فضل ، وسلطانُ الفضْلِ بالعدل ، استفادَ النصائحَ من نَمْلَة ، وجَمَعَ هُدْهُدُه مع مِلكِهِ سَبأ شَمْلَه . ويوجد فى الأسْقاطِ ، ما لا يوجدُ فى الأسفاط[٢٨٦] . ولقد ينطقُ بالفوائد ، مَنْ هو كافرٌ وجَاحِد ، فيؤخذُ من أقوالِه ، ولا يُقْتَدَى بأفْعَالِه . وقد قيل : إنَّ الحسَنَ البَصْريَّ رحمةُ الله عليه ، دَخَلَ صَبيٌّ مَسْجدَه وصلّى بين يديه ، فرآهُ لا يتمّ سجودَه ، ولا يرضى بصلاتِه معبودَه ، فدعَاه وخاطَبه ، وأنكرَ عليه وعاقبَه ، وقال له : تَمِّمْ سجودِك ، تُرْضِ معبودَك . فقال : ياشيخَ المتّقين ، هذه سَجْدَاتُ شَخْصٍ من المؤمنين ، لوْ سَجَدَ إحداها إبليسُ لآدمَ لَمَا كانَ من الملعُونِين ، ولو سَجَدَها فراعونُ مرةً لكانَ من المسلمين ، ولَمْ يَصِرْ مِنْ أَهْلِ العِنَادِ المطرودين . ورأى يوماً صبيًّا ومعَه سِراج ، وهو سالِكٌ فى منهاج ، فسألَه عن نَارِه ، وما فيها من أنوارِه ، مِنْ أَيْنَ أَخذَها ، وكَيْفَ اقْتَلَذَهَا ، فلمْ يجاوبْه [الصبي] إلاّ بإطْفَاءِ السِّراج ، وسؤالُه أيْنَ ذَهَبَ ذلك النورُ الوهّاج ، حين قال : قُلْ لى أينَ ذهبتْ تلك الأنْوَار ، أَقُلْ لكَ من أيْنَ جاءتْ تلك النار . ثمّ إنّ العُقَاب ، ولّى الحجَل ما تحتَ يدِه من رقاب ، وقدَّمَه على سائرِ الخدم ، وصنوفِ الطيرِ وأجناسِه من الأُمَم ، وجعلَه الدستور[٢٨٧] الأعظَم ، والوزيرَ المقدَّم المكرَّم .

وفي هذا المقام ، أمْسَكَ الحكيمُ حسيبُ عن الكلام ، وختَم ما افتتحَه من الحِكَمِ والأحْكَام ، بالدُّعَاءِ والثناءِ والصلاةِ والسلام .

---

[٢٨٦] الأسفاط ، واحدها سِفْط ، وهو وعاء يوضع فيه الطيب ونحوه . من أدوات النساء ، وهو أيضا الوعاء توضع فيه الأشياء ذات القيمة كالفاكهة ونحوها .

[٢٨٧] الدستور الأعظم : الوزير الأول والنافذ الحكم .

قال الشيخُ أبو المحاسن ، المخجلُ بأدبه امرأَ القيسِ وأبا فِراسٍ : فلمّا انتهى الحكيمُ في مقترحِه ، وما قصدَه من بيانِ محاسِنه ومُلَحِه ، إلى هذا المحلّ ، وفصَّل من فَضْله ما أجْمَل من جُمَل ، نهضَ الوزيرُ وقبَّل قدميْه ، واعترف له بالفضل المنعَمِ به عليْه ، وأنه مالكُ أزِمَّةِ الإنشاء ، ومَلِكُ الكلامِ يُصَرِّفُه كيفَ شاء ، وذلك فَضْلُ اللهِ يؤتيه مَنْ يشاء ، وكما أنه شيخُ المنقول ، وأستاذُ المقول ، فمِنْ أنوارِ ألفاظِه تنيرُ العقُول ، ومن كنوزِ عباراته تُستخرجُ جواهرُ المعقول . وأما أخو المَلِكِ فطارَ بسروره به عن سَريره ، واتخذَه في مَهَامِّ أُموره ، مقامَ أميرِه . ثم أدّت آراءُ فكرته ، أن يستعملَ أخاه لِكَشْفِ كُرْبَتِه ، ويمشي في السَّعي بينه وبين إخوته لِرَتْقِ ما انْفَتَقْ ، وسدّ ما خَرَقَه سيْلُ الحسَدِ فانْبَثَقْ . فامتثلَ أمرَه العالي ، ونهضَ بأمرِ اللهِ المتعالي ، وأنْفَقَ من جواهرِ أفكارِه في سوقِ المناصحةِ الرخيصَ والغالي ، ورَصَّع ما استخرجَه من يواقيتِ تلكَ من عباراته بما يستعبدُ عُقُودَ اللآلى ، وتعاطِي أسبابِ الإصلاح ، وساعدَه لِحُسْنِ النيّة وخُلُوصِ الطويَّة السعدُ والنجاح :

وَهَذَّبَ في الفَضْلِ ما رتَّبَهُ ... وَرَتَّبَ بالفَضْلِ مَا هَذَّبَه

وأَعجَبَ ذَا للُبِّ ما شَادَهُ ... فَأَثْنى عَلَيْهِ بما أعْجَبَه

وَأَغْرَبَ في السَّبْقِ إشْرَاقُهُ ... فَلِلَّهِ ذَا السَّعْدُ ما أَغْرَبَه

فَمَا شَذَّ بالصِّدْقِ عَنْ نُصْحِهِ ... وَلاَ شَذَّ خِلٌّ لِما شَذَّبَه

فاستمال الخواطرَ النافرة ، وأطفأ بزلالِ ألفاظِه العذبةِ شواظَّ تلك النائرة ، وسكنّ بنسيمِ مُلاطفاتِه قَتَامَ الأخلاق الثائرة ، فاطْمَأَنَّتْ القُلُوب ، وطهرت من غشِّ التشاحنِ الجيوب ، واتّصَلَ بالمُحِبِّ المحبوب ، وحَصَلَ الأمْنُ والأمَان ، ومساعدةُ الزمان ، ومعاضدةُ الإخوان ، ومصافاةُ الخِلاّن ، وطيبُ العيشِ والمكان . وأفْضَلُ من هذا جميعِه شَفَقَةُ السُّلْطَان ، والاستقامةُ على الإسلامِ والإيمان ، ونسألُ

الله تعالى إتْمَامَ نِعَمِه ، وإسبالَ ذَيْلِ إحْسَانِه وكَرَمِه ، واللُّطْفَ فى القَضَا ، والعَفْوَ عَمَّا لمضَى ، والمعاملةَ بإحْسَانِه الجزيل ، وَحَسْبُنَا الله ونِعْمَ الوكيل .

والحمدُ للهِ ربِّ العالمين ، وصلَّى اللهُ على سيِّدنا محمدٍ خاتمِ النبيين ، وسيِّدِ المرسلين ، وعلى آلهِ الأطْهار ، وصحابتِه الأبْرَار ، من الأخْتَانِ والأصْهار ، والمهاجرين والأنصار ، وسلَّمَ تسليماً يطيبُ الأعطار ، ويتمسَّكُ بأذيالِ عُرْفِهِ خياشيمُ الأزْهار ، فى الأسْحار ، مادامتْ الأعْصَار ، ودارَتْ الأدوار ، وترادَفَ اللَّيْلُ والنَّهار ، وحَشَرَنا فى زُمْرَتِهم مع المصْطَفِين الأخْيـــار ،

إنَّه كريمٌ ستار ،

حليمٌ غفار .

تمَّ الكتاب

بعونِ الملكِ الوهاب

فهرس

الشركة الدولية للطباعة

المنطقة الصناعية الثانية - قطعة ١٣٩ - شارع ٣٩ - مدينة ٦ أكتوبر

☎ : ٨٣٣٨٢٤٠ - ٨٣٣٨٢٤٢ - ٨٣٣٨٢٤٤

e-mail: pic@6oct.ie-eg.com



الذخائر

سلسلة نصف شهرية



هذا الكتاب

هذا الكتاب - بعنوانه المراوغ (فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء) - لا يفصح عن موضوعه الحقيقي بسهولة ، بل يوارى مضمونه الإنسانى والفكرى والسياسى وراء حيل الحيوان .. ومن ثَمّ فهو ليس كتاب طرائف ونوادرَ كما توهّم البعض ، بل هو - مثل (كليلة ودمنة) - يعكس طبيعة العلاقة بين السلطة والثقافة ، أو السيف والقلم ، ويرصد وقائع الصراع بين السلطتين فى عصره ، على نحو يتجلى فى مئات القصص الرمزيّة التى يحفل بها الكتاب على ألسنة الحيوان ... لذلك لا غرْو أن يكون الكتاب ظاهره لهوٌ وباطنه حكمة ، واللّهو هنا ليس إلاّ السرد القصصى وعجائبيته وغرائبيّته وشيوع روح الفكاهة كما ذكرنا ، وهل من عِجيب وغريب أكثر من جعْل الحكمة تنساب على ألسن البهائم والسباع والطّير ، خلافا للحكمة على لسان الإنسان وقد فقدت دهشتها وإدهاشها . هنا - بين اللّهو واللّعِب - تتجلّى الحكمة فنقبلها طائعين ونتعلّمها مختارين .. إنه التعلّم من خلال اللعب (الأدبى) والحكمة من خلال اللهو (القصصى) .

الكتاب القادم : معجم أساس البلاغة للزمخشرى





السعر : ٨ جنيهات